دراسات فى

تاريخ العرب القديم

دكتور

محمد بيومى مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

دراسات في

تاريخ العرب القديم

دكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ التاريخ القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

دار المعرفة الجامعية

للطبع والنشر والتوزيع

---

* الإدارة : ٤٠ شارع سوتير
الأزاريطة - الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

* الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبى - الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وآله .

تقديم

لعل من الأمور الغريبة أن المؤرخين الإسلاميين قد انصرفوا عن التاريخ العربي القديم ، إلا أن يكون مقدمات لتواريخهم المفصلة الدقيقة للعصور الإسلامية ، وحتّى هذه المقدمات لم تكن مفصلة ولا دقيقة ، وربما كان السبب في ذلك أنهم لم يعتمدوا فيما كتبوه على سند مدون ، أو مأخوذ من نص مكتوب ، وإنما كان عمادهم في ذلك أفواه الرجال ، وهو أمر لا يمكن الإطمئنان إليه ، ذلك أن رواة الأخبار ، حتّى وإن كانوا بعيدين عن الميول والأهواء ، وحتّى إن كانوا من أصحاب الملكات التي وهبت القدرة على التمييز بين الغث والسمين ، فإن للذاكرة آماداً ليست بقادرة على تجاوزها .

ومن ثم فإن المتصفح لما كتبه كبار المؤرخين الإسلاميين — كالطبري والمسعودي والبلاذري والدينوري ، وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم — ليعجب للدقة والتحري الصحيح الذي عالجوا به تاريخ الإسلام ، في معظم الأحايين ، بقدر ما يأسف على الإهمال والخلط ، الذي صحب كتاباتهم عن عصور ما قبل الإسلام[1] .

(١) أنظر : محمد مبروك نافع : تاريخ العرب – عصر ما قبل الإسلام – القاهرة ١٩٥٢ ص ٥–٦ ،
وكذا D.S. Margoliouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.
وكذا J. Sauvaget, Historiens Arabes, Paris, 1946.

وهكذا كانت المبالغات — إن لم نقل الخرافات — التي أدخلها أهل الأغراض ، أو الطامعون ممن دخل الاسلام من يهود أو نصارى ، وبخاصة أولئك الذين كانت لهم ثقافة يهودية واسعة ، وفي نفس الوقت كانوا يتمتعون بمكانة مرموقة ، ومركز ملحوظ بين المسلمين ، لأنهم — كما يقول ابن إسحاق — « أهل العلم الأول » ، ومن ثم فقد كان العرب يستفتونهم في بعض ما غمض عليهم ، فيفتونهم بما تعوده في كتبهم من المبالغة في ضخامة الأجسام وطول الأعمار ، وكانت التوراة — والتلمود من بعدها — تشتمل على كثير مما جاء في القرآن الكريم من وقائع وأحداث تتصل بالمصطفين الأخيار ، من أنبياء الله الكرام ، ولكن بإسهاب وتفصيل ، قد يغري في كثير من الأحوال عواطف العامة ، أكثر مما يرضي عقول العلماء[1] .

وهكذا بدأت الأساطير اليهودية تنتشر بين الناس ، ويصدقها ضعاف المؤرخين ، فالقرآن الكريم — على سبيل المثال — لما ذكر عاداً ، فإنه قال « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد »[2] ، فأدخل المفسرون والمؤرخون في شرح هاتين الآيتين الكريمتين مبالغات ، رواها كعب الأحبار ووهب بن منبة ، وغيرهما .

ومن ثم فقد وصل إلينا من أخبارها أن رجالها كانوا طوالاً كالنخل ، لم يكن للطبيعة تأثير في أبدانهم لغلظتها ومتانتها ، وأن عاداً إنما تزوج من ألف امرأة ، وعاش ألف سنة ومائتي سنة ، ثم مات بعد أن رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، كما رأى كذلك البطن العاشر من أعقابه ، وكان الملك من بعده في الأكبر من ولده — وهو شديد — الذي حكم ٨٥٠ سنة ، ثم جاء من بعده أخوه « شداد » ، حيث

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩—٤٤٠ تفسير الطبري ٦/٩—١٠ ، ١٧/١٠ ، ٢٧/٣١ ، تفسير ابن كثير ٣/١٠٢ ، معجم الأدباء ١٨/٨ .

(٢) سورة الفجر : آية ٦—٧ ، وانظر : تفسير الطبري ٣٠/١٧٥—١٧٨ (طبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥٤) ، تفسير الفخر الرازي ٣١/١٦٦—١٦٩ ، تفسير القرطبي ٢٠/٤٤—٤٧ (دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٠) ، تفسير البيضاوي ٢/٥٥٧ (طبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٦٨) .

حكم ٩٥٠ سنة ، سيطر فيها على كل ممالك العالم[١] ، وبنى مدينة « إرم ذات العماد[٢] » .

ثم زاد الأمر صعوبة بالنسبة للمؤرخين الإسلاميين في تدوين تاريخهم ، أن الخط العربي لم يكن في أول أمره منقوطاً ، وأن أول من فعل ذلك ، إنما كان « أبو الأسود الدؤلي » ؛ بإرشاد من الإمام علي — كرم الله وجهه ، ورضي الله عنه وأرضاه — أو نصر بن عاصم بمشورة من الحجاج الثقفي[٣] ، والأمر كذلك بالنسبة إلى الكتابة النبطية التي يرجح أن الخط العربي مشتق منها ، ومتطور عنها[٤] ، إذ كانت هي

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٧٣ ، ٢/١٢-١٣ ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ١٩٢٢ ، ٣/٦٥ ، ثم قارن : المقدسي : كتاب البدء والتأريخ ، ٣/٣٧ ، تفسير روح المعاني ٣٠/١٢٣ ، تفسير الطبري ٣٠/١٧٦ ، تفسير القرطبي ٢٠/٤٤-٤٦

(٢) عن مدينة إرم ذات العماد : أنظر : كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » ، تاريخ ابن خلدون ٢/١٩-٢٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣/١٥-١٦ ، ياقوت ١/١٥٥-١٥٧ ، مروج الذهب ٢/١٣ ، ٤١٠-٤١١ ، تفسير الفخر الرازي ٣١/١٦٧ ، تفسير القرطبي ٢٠/٤٦-٤٧ ، تفسير روح المعاني ٣٠/١٢٣ ، البكري ١/١٤٠ ، ٢/٤٠٨-٤٠٩ ، طبقات ابن سعد ١/١٩ ، محمود أبو ريه : أضواء على السنة المحمدية ص ١٥٨-١٥٩ جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٦٤-٦٦ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٨٠ ، الإكليل ٨/٣٣ ؛ . ر ما قبل الإسلام ص ٣٤-٣٥ ، وكذا EI, I, P. 121. وكذا BASOR, 73, 1939, P. 13

(٣) عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٦٨ ، ٧٣ ، أبو أحمد العسكري : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١٣ ، القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، القاهرة ١٩٥٠ ١/٤-٥ ، ٣/٣٤٣-٣٤٤ ، أبو عمرو الداني : المحكم في نقط المصاحف ، دمشق ١٩٦٠ ص ٣-٤ ، ثم قارن : حفني ناصف : حياة اللغة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٧-٧٠ ، حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١/٤٦٧ ، حيث أن هناك إتجاهاً إلى أن النقط والإعجام لم يكونا بدعاً في العصر الأموي ، والظاهر أنهما موضوعان مع الحروف ، وأن هناك بردية ترجع إلى عام ٢٢هـ (أيام الفاروق رضي الله عنه وأرضاه) مكتوبة باللغتين العربية واليونانية ، وأن بعض حروفها منقوط معجم ، فضلا عن نقش وجد في الطائف ، ويرجع إلى عام ٥٨هـ (أي الى أيام معاوية بن أبي سفيان) وأكثر حروفه التي تحتاج إلى نقط منقوطة معجمة (أنظر : تاريخ القرآن ص ٧١-٧٢ ، مصادر الشعر الجاهلي ص ٤٠) .

(٤) عن تطور الخط العربي عن الخط النبطي ، أنظر : مقالنا : « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، الرياض ١٩٧٦ ص ٣١٥ ، فيليب حتي : تاريخ العرب ، الجزء الأول ص ١٨-١٩ ، جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٨١ ، عباس =

الأخرى لا تعرف النقط والإعجام[1] ، وقد أدى ذلك كله إلى التباس غير قليل في قراءة الأسماء[2] .

على أن التفسير التقليدي لإهمال التاريخ العربي القديم وعدم تدوينه ، هو أن الإسلام قد اتجه إلى استئصال كل ما يمت إلى الوثنية في بلاد العرب بصلة ، اعتماداً على الحديث الشريف « الإسلام يهدم ما قبله » ، ومن ثم فقد انصرف العلماء عن الدراسات المتصلة بالجاهلية . مما أدى آخر الأمر إلى ضياع الكثير من أخبارها ، وبالتالي نسيانها ، وإلى ابتداء التاريخ عند المسلمين بعام الفيل[3] .

وإني لأظن — وليس كل الظن إثماً — أن أصحاب هذا الرأي قد جانبهم الصواب إلى حد كبير ، فالحديث الشريف إنما كان رداً على أسئلة بعض الصحابة — رضوان الله عليهم — عما ارتكبوه في جاهليتهم ، مما لا يتفق وشرائع الإسلام ، أو بالأحرى كان رداً على « عمرو بن العاص » ، حين اشترط قبل مبايعته سيدنا ومولانا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — أن يُغفر له ، فقال الحبيب المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله[4] » .

= العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٣٦–١٣٧ ، عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ص ٨٩ ، ناصر النقشبندي ، منشأ الخط العربي وتطوره لغاية عهد الخلفاء [illegible] سومر ، ١٩٤٧ ص ١٢٩ : وكذا

M. Sprenling, The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, Chicago, 1931, P. 52.

وكذا EB, I, P, 684

وكذا Nabia Abbot, The Rise of the North Arabic Script. , P 2.

ثم قارن : عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٦١–٦٣ ، ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ٤٠–٤١ .

(١) خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الأول ، مايو ١٩٣٥ ، ص ٨٧ .

(٢) أنظر أمثلة في : جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١٦ .

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/١٠٨–١١١ ، مرجليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ص ٥٣ ، فؤاد حسنين : التاريخ العربي القديم ص ٢٤٦–٢٤٧ .

(٤) صحيح مسلم ١/٧٨ (باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج) .

وهكذا يبدو بوضوح — لا لبْس فيه ولا غموض — أنه ليست هناك صله بين الحديث الشريف ، الذي يدعو إلى أن « الإسلام يهدم ما كان قبله » ، وبين إهمال التاريخ العربي القديم ، بصورة لم يهمل بها أي تاريخ آخر ، من تواريخ الأمم ، التي كتب لها أن تعتنق الإسلام ، وتؤمن بالقرآن ، وتشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

ثم إذا كان أصحاب هذا الرأي على صواب فيما يقولون ، فمن أين إذن جاء « ابن الكلبي » بمادة كتابه « الأصنام » بل كيف يتفق ذلك ، والقرآن الكريم قد تعرض لحياة العرب في جاهليتهم ، من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، فالقرآن الكريم يتعرض لذكر بعض المعبودات الوثنية ، حيث يقول سبحانه وتعالى « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولاسواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا »[1] ، وحين يقول « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »[2] ، ويقول « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزي »[3] ، هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم إنما يشير إلى أن ملكة سبأ وقومها ، إنما كانوا «يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون »[4] .

---

(١) سورة نوح : آية ٢٣ وانظر : تفسير الطبرسي ٢٩/٦٩–٧٣ ، تفسير الطبري ٢٩/٩٨–١٠٠ ، تفسير ابن كثير ٧/١٢٦–١٢٨ ، تفسير أبي السعود ٥/١٩٨ ، في ظلال القرآن ٢٩/٣٧١٦ ، تفسير القرطبي ١٨/٣٠٧–٣١٠ ، تفسير الكشاف ٤/١٦٤–١٦٥ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٢٦٩–٢٦٠ .

(٢) سورة فصلت : آية ٣٧ ، وانظر : تفسير روح المعاني ٢/١٢٥–١٢٦ ، تفسير النسفي ٤/٢٣–٣٤ ، تفسير ابن كثير ٦/١٧٨–١٧٩ ، تفسير أبي السعود ٤/٢٨٢ ، تفسير القرطبي ١٥/٣٦٣–٣٦٥ ، الكشاف ٣/٤٥٤ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/٢٩٥–٢٩٦ ، تفسير البيضاوي ٢/٣٤٩ ، تفسير الطبرسي ٢٤/٢٣–٢٦ ، تفسير الطبري ٢٤/١٢١ ، في ظلال القرآن ٢٣/٣٠٠٤–٣٠١٢ .

(٣) سورة النجم : آية ١٩–٢٢ وانظر : تفسير البيضاوي ٢/٤٣٠ ، تفسير الطبري ٢٧/٥٨–٦٢ ، تفسير الطبرسي ٢٧/٤٤–٥١ ، تفسير روح المعاني ٢٧/٥٤–٥٨ .

(٤) أنظر القصة كاملة في سورة النمل : آية ٢٠–٤٤ ، تفسير الطبري ٢٩/١٤٣–١٧٠ ، تفسير القرطبي ١٣/١٧٦–٢١٣ ، الكشاف ٣/١٤٢–١٥١ ، تفسير روح المعاني ١٩/١٨٢–٢١٠ ، =

هذا إلى جانب ذكر القرآن لحياة العرب في الجاهلية ومثلهم ، وما كانوا يقومون به — ولو شراً باطلاً — فضلاً عما في كتب التفسير والحديث والسير والأخبار ، من أوصاف لبعض أصنام الجاهلية وهيآتها وشكل محجاتها وأوقات الحج إليها[1] ، ثم ألم يتعرض الإسلام إلى عرف العرب وتقاليدهم في الجاهلية ، فأقر بعضاً ، وأنكر بعضاً ، وعدّل بعضاً[2] .

ثم ألم يكن للصديق — رضي الله عنه وأرضاه — علم بأنساب كل قبيلة ، ومحامد السابقين منها ومسالبهم ، ولا سيما قريش ومن جاورها ، ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتاً من الشعراء المسلمين يردون بها الهجاء على المشركين « هذا تلقين ابن أبي قحافة » ، لأنه كان في هذا العلم بين قريش عامة بغير نظير .

ثم ألم يكن الفاروق — رضي الله عنه وأرضاه — من العالمين بالشعر ، والحافظين له ، البصيرين به ، ثم أليس عمر هو القائل « عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا ، قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعاني كلامكم[3] » .

ثم ألم يحدثنا عكرمة عن ابن عباس — رضي الله عنه — أنه ما فسر آية إلا نزع فيها بيتاً من الشعر ، وأنه كان حريصاً على الشعر الجاهلي ، وأنه كان يحث الناس على تعلمه وطلبه لتفسير القرآن الكريم ، وأنه كان يقول : « إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب »[4] .

وهكذا يمكننا القول أن الإسلام لو تعمد طمس الجاهلية ، والقضاء على معالمها ، لما أشار القرآن الكريم إليها ، ولتحرج المسلمون من الإشارة إليها كذلك .

= تفسير الطبرسي ١٩/٢٠٨—٢٣٠ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٦٠—٣٦٦ ، في ظلال القرآن ١٩/ ٢٦٣١—٢٦٤٣ ، تفسير أبي السعود ٤/١٢٧—١٣٤ ، تاريخ الطبري ١/٤٨٩—٤٩٥ ، ابن الأثير ١/٢٣٤—٢٣٨ ، ابن كثير ٢/١٨—٢٤ .

(١) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ١/١١٤ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٢٧ (بيروت ١٩٦٩) .

(٣) العقد الفريد ٦/٩٣ ، الأغاني ٨/١٩٩ ، ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٩٣ ، ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص ١٥٢ .

(٤) السيوطي : المزهر في علوم اللغة ٢/٣٠٢ ، ناصر الدين الأسد : المرجع السابق ص ١٥٢—١٥٣ .

ثم إن الأمر — فيما يبدو لي — لو كان بسبب الإسلام ، لما اقتصر على بلاد العرب ، وإنما كان يجب أن يتعداه إلى البلاد الإسلامية جمعاء — إلى مصر وسورية والعراق وغيرها — ولرأينا في هذه الحالة طمساً لتاريخ مصر على أيام الفراعين ؛ ولتاريخ العراق على أيام السومريين والأكديين والآشوريين والبابليين ، والأمر كذلك بالنسبة إلى تاريخ الأموريين والكنعانيين والفينيقيين والأراميين وغيرهم في سورية ، ولكن الواقع غير ذلك تماماً ، فتاريخ مصر — على سبيل المثال — أوضح من تاريخ العرب بكثير .

إذن ، لا بد وأن تكون هنالك أسباب أخرى ، لطمس هذا التاريخ العربي القديم ، والرأي عندي أن السبب إنما يكمن أولاً في الجاهليين أنفسهم ، لقد كان القوم — في معظمهم — أميين ، لا يكتبون على الأقل في العصور القريبة من الإسلام ، حتى أننا لا نجد في مكة عشية ظهور الإسلام ، إلا بضعة عشر نفراً يقرأون ويكتبون ، حددهم « البلاذري » بسبعة عشر ، فضلاً عن فئة قليلة من الأوس ، إلى جانب قلة نادرة من النساء ، منهن « الشفاء بنت عبدالله البدرية » — من رهط عمر بن الخطاب — وهي التي علمت أم المؤمنين حفصة بنت عمر الكتابة[1] .

وأخيراً فإليك الحديث الشريف « إنا امة أمية لا تكتب ولا تحسب[2] » .

وهكذا كانت الأمية هي الصفة الغالبة على العرب عشية ظهور الإسلام ، حتى وإن كان الحديث الشريف — كما أراد البعض أن يفسره — لا ينفي الكتابة والحساب نفياً شاملاً ، لأنه جاء في حديث الصيام ورؤية الهلال ، وهو في نصه الكامل « إنا امة أمية لا تكتب ولا تحسب الشهر هكذا وهكذا » ، وإنما ينفي الحديث

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٣/٥٨٠–٥٨٣ ، العقد الفريد ٣/٢٤٢ ، الجاحظ : الحيوان ٢/٧١ ، ناصر الدين الأسد : المرجع السابق ص ٤٥–٤٦ عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب ١/١٩ ، وانظر : محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٣٩–١٤١ ، تاريخ القرآن ص ٤٥–٥٣ ، ص ٦٦–٧٦ .

(٢) صحيح البخاري ٤/١٠٨–١٠٩ (كتاب الصوم ، باب ١٣) ، ورواه كذلك مسلم وأبو داود والنسائي ، كما في الجامع الصغير للسيوطي رقم ٢٥٢١ ، وانظر : تفسير الطبري ٢/٢٥٧–٢٥٩ ، تفسير روح المعاني ٩/٧٩ .

الشريف أن تكون الكتابة وأن يكون الحساب نظاماً عاماً متبعاً في كل الشئون ، كما كان ذلك عند بعض الأمم الأخرى ذات التقاويم الفلكية[1] .

وهناك سبب آخر ، وأعني به تلك الآفة الخبيثة التي ابتليت بها أمة العرب في كل أمصارها ذات التاريخ المجيد — في مصر وسورية والعراق ، وفي بلاد العرب نفسها — تلك الآفة هي هدم المباني القديمة ، واستخدام أنقاضها في مبان جديدة ، بل ليت الأمر اقتصر على ذلك ، وإنما تعداه إلى تحطيم كثير من الآثار ، والعبث بعدد وافر من المقابر ، بحثاً عن كنوز قد يجدها هؤلاء العابثون هنا وهناك ، أو سرقة لعدد من التحف الأثرية ثم بيعها لمن يطلبها بثمن بخس دراهم معدودة في أغلب الأحايين ، ولكنها في كل الحالات ثروة تاريخية لا تقدر بثمن ، أياً كان هذا الثمن .

وهناك سبب ثالث ، ذلك أن الجاهليين — خاصة في وسط بلاد العرب ، في الحجاز ونجد — لم يكونوا يدوّنون تاريخهم بل كانوا يتذاكرون أيامهم وأحداثهم وما يقع لهم ، وليس من المنطق أن نطالب الذاكرة أن تعي كل التاريخ وكل الشعر أجيالاً بعد أجيال ، دون تدوين أو تسجيل ، ومن ثم فعندما أتى العصر الأموي (٤١—١٣٢هـ = ٦٦١—٧٥٠م) ، وبدأ القوم في التسجيل ، كان التاريخ العربي القديم قد اختلطت فيه القصص بالأساطير ، وهذه بحقائق التاريخ ، وبات من الصعب على القوم أن يفرقوا بين رواية صادقة ، وأخرى كذوب ، مما أدى آخر الأمر ، إلى أن تخلوا كتاباتهم — إلى حد كبير — من الصفة التاريخية ، وتبعد — كما يقول ابن خلدون — عن الحس والمنظور التاريخيين ، اللذين يعتمدان على النقد والتحليل والنظر والتحقيق[2] .

---

(١) ناصر الدين الأسد : المرجع السابق ص ٤٦ ، ابراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٨٣—١٨٨ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٥٣ ، ثم قارن : مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٣٩—١٤٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ ، عبد المنعم ماجد : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ص ٣٢ ، هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ص ١٤٤ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : بيروت ١٩٦٨ ، ١١٦/١ .

وكان رابع الأسباب يكمن في اليهودية — والنصرانية من بعدها — ذلك أن أصحاب هاتين الديانتين ، قد عملوا على نشرهما في بلاد العرب ، ومن ثم فقد بذلت يهود — بادىء ذى بدء — الجهد ، كل الجهد ، في نشر قصص التوراة ، — وبخاصة ما يتصل منها بالملك سليمان — ثم جاء الإسلام ، واعترف بسليمان — عليه السلام — نبياً من رب العالمين ، ثم سرعان ما ربطت يهود بين هذا ، وبين ما جاء في القرآن الكريم بشأن قصة سليمان مع ملكة سبأ ، وأخذت تذيع كل ما في التوراة — وما في غير التوراة — من قصص عن سليمان وملكه ، وتأثر المؤرخون الإسلاميون بذلك وظهر ما عرف بالإسرائيليات ، حيث أخذوا ينسبون إلى سليمان — وهو هنا سليمان النبي ، أكثر منه سليمان الملك — كل مدينة لا يعرفون صاحبها ، بل إنهم بالغوا في ذلك إلى درجة أنهم كانوا — كما يقول بعض الإخباريين — ينسبون كل مستظرف من البناء إلى سليمان ، وأنهم كانوا إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه ، أضافوه إلى سليمان ، وربما إلى الجن كذلك[1] .

ومضى حين من الدهر ، وظهرت المسيحية في بلاد العرب ، ومن ثم فقد بدأت تنافس اليهودية في نشر نفوذها الديني والثقافي في بلاد العرب ، وتعاون أصحاب الديانتين — بقصد أو بغير قصد — على طمس معالم التاريخ العربي القديم ، وبدأ القوم يعرضون عن ثقافتهم القديمة — وفي جملتها خط المسند — مما أدى آخر الأمر ، إلى انقطاع القوم عن ثقافتهم العربية — والجنوبية بالذات[2] — .

ومرت الأيام ، وجاء جيل من المؤرخين الإسلاميين ، لا يكاد الواحد منهم يقرأ كلمة بخط المسند ، أو يفقه جملة بالثمودية أو المعينية ، فضلاً عن السبئية والحضرمية ، وغيرها من الكتابات العربية ، وبقي الأمر كذلك ، حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ، فاتجهت أنظار الباحثين الغربيين إلى ارتياد النقوش ، بصفتها المصدر الحقيقي الذي يمكن الإعتماد عليه في التعرف على لغات العرب القدامى ، من سبئيين ومعينيين ، وديدانيين ولحيانيين وثموديين وصفويين وغيرهم .

(١) ياقوت ١٧/٢ ، قارن : الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٠ .
(٢) جواد علي ١٢١/١–١٢٢ .

وأخيراً فإن سيادة النظام القبلي في بقية شبه الجزيرة العربية ، إنما أدى بطبيعة الحال إلى عدم وجود تاريخ مكتوب ، واقتصار القوم على رواة الأخبار ، يتحدثون عن قبيلتهم وعن علاقتها بالقبائل الأخرى ، وعن حوادثها وأيامها ، فضلاً عن رواة الأنساب ، لما للنسب من أهمية في المجتمع القبلي ، تفوق أهميته في أي مجتمع آخر ، وليس من شك في أن تاريخاً من هذا النوع لا يعيش إلا بقدر ما يعيش رواته ، ثم هو في غالب الأحايين أقرب إلى القصص والأساطير ، منه إلى التاريخ الحقيقي[1] .

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الإسلام الحنيف ، لم يكن هو السبب في إهمال التاريخ العربي القديم ، فضلاً عن اضطرابه وغموضه ، وإنما هناك أسباب أخرى ، لا صلة للإسلام بها من قريب أو بعيد ، وإن كان للمؤرخين الإسلاميين دون شك ، دور فيها ، ذلك لأنهم كانوا ينظرون إليه على أساس أنه عصر همجية وإفلاس حضاري ، وتدهور أخلاقي ، وانحطاط في مجال السياسة والدين ، فشوّه هؤلاء المؤرخون تاريخ عصر ما قبل الإسلام في قسوة ظاهرة ، وربما كان السبب في ذلك هو الرغبة في تمجيد الإسلام ورفع شأنه ، ولكنهم أخطأوا الطريق ، وأتاحوا للمغرضين من المستشرقين الفرصة في الطعن في الإسلام ، واتّهامه بما هو براء منه ، ناسين ان هذا الدين العظيم ، إنما جاء ليحطم البداوة واتجاهاتها الفردية ، وليقضي على العصبية المذمومة ، وليحل محلها رابطة الدين والعقيدة[2] .

وناسين كذلك أن العرب قبل الإسلام كانت لهم حضارة ، ربما لا تقل — في بعض النواحي — عن حضارة معاصريهم من الروم والفرس ، وأن نزول الوحي على النبي — صلى الله عليه وسلم — باللسان العربي ، لما له من قدرة على التعبير عن الرسالة ، ثم ظهور الإسلام في مهد العرب ، دليل على ما لأهل هذه الجزيرة العربية من قدرة على حمل الرسالة ومتابعة نشرها في الأرجاء[3] .

---

(١) عبد الرحمن الطيب الأنصاري : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ، ص ٩١-٩٢ .
(٢) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص د .
(٣) يحيى الخشاب : من مقدمة كتاب « اللغة العربية في عصور ما قبل الاسلام » ص ١٢ .

وهنا لعل الذين يكيلون الذم جزافاً للعرب وتاريخهم فيما قبل الإسلام ، يتذكرون أن الإسلام في حقيقته ليس دعوة سماوية جاءت للعرب خاصة ، وإنما للناس عامة ، وأن اختيار العرب لحمل هذه الدعوة العالمية للناس جميعاً لم يكن عبثاً ، وإنما كان لأن القوم الذين يحملون الدعوة العالمية ، لا بد وأن تتوافر فيهم صفات تناسب هذه المهمة الضخمة في الصبر والتحمل والمخاطرة والشجاعة ، واحترام العهود والنجدة والمروءة . وحب الحرية وتعشق الشرف والسؤدد والتمرن ، على التنقل وتعود الهجرات وعدم التبرم بحياة التقشف ورقة العيش والتطلع إلى النهوض إذا يسرت سبله ، إلى غير ذلك من المؤهلات الخلقية العظيمة[1] .

والعربي في هذه الناحية كان فارس الحلبة ، لا يبارى في هذه الصفات التي تطالبها الحياة المستقبلة ، وتحدثنا الأخبار أن القرشيين كانوا — حفاظاً على شرف نسبهم ورفعة حسبهم — يتجنبون ألوان الخساسة في طلب الرزق فكانوا إذا استعصى على أحدهم الإرتزاق من طرق شريفة آثر الموت جوعاً على الحياة من طريق خسيسة ، وفي هذا المعنى يروي « أبو الحسين أحمد بن فارس » أن أحدهم كان إذا جاع جرى هو وعياله إلى موضع معروف ، فضرب عليه وعلى عياله خباء حتى يموتوا ، وما زال أمرهم على ذلك ، حتى كان « عمرو بن عبد مناف » سيد زمانه ، وكان له ابن يقال له أسد ، وكان لأسد هذا ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه ، وذات يوم قال له : نحن غدا نعتضد[2] ، قال أبو الحسين فدخل أسد على أمه يبكي ، وذكر ما قاله تربه من بني مخزوم ، فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق عاشوا به أياماً .

ثم إن ترب أسد أتاه مرة أخرى ، فقال له مثل ما كان قد قال ، وفعل أسد كما فعل ، فاشتد ذلك على « عمرو بن عبد مناف » ، فقام خطيباً في قريش — وكان

---

(١) عطية صقر : الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه ، القاهرة ١٩٧٠ (مجمع البحوث الإسلامية) ص ١٣٥– ١٣٦ .

(٢) الإعتضاد : هو أن يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً ، وليس يعرف الناس صورة تسامي هذه الصورة أو تدانيها في استرخاص الحياة إيثاراً للترفع عن الدنايا من أجل الحرص على الحياة .

فيهم سيداً مطاعاً — فقال : إنكم أحدثتم حدساً تقلون فيه وتكثر العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأنتم أشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الإعتضاد أن يأتي عليكم » ؛ فقالوا له : نحن لك تبع ، فقال : ابتدئوا بهذا الرجل فأغنوه عن الاعتضاد — يعني أبا ترب أسد — ففعلوا ، ثم إنه نحر البدن وذبح الكبائش والمعز ، ثم هشم الثريد وأطعم الناس ، ومن أجل ذلك ، سمي « هاشماً »[1] وهو جد النبي — صلى الله عليه وسلم — وفيه يقول الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريـــد لقومه قوم بمكة مسنتـين عجـــاف[2]

ومن ناحية أخرى ، فلقد أثبت التاريخ ما كان عليه أعظم الدول — قبل بعثة المصطفى ، صلى الله عليه وسلم — من أخلاق صبغها الترف بصبغته الرخوة الناعمة ، وأنس أهلها إلى الذل والعبودية ، بعبادة ملوكها وتقديس عظمائها ، وتسلطت عليهم الأفكار والميول التي خلفها متنبؤوهم وفلاسفتهم .

والمأثور من شعراء الجاهلية وأخبار الأولين يفيض بصفات النبل التي كان يفخر بها العربي ويحرص عليها ، لأنه يراها عنوان الشرف والكمال ، كما كان العربي يمتاز بصفات العقل وتوقد القريحة وقوة الحجة والفصاحة والبيان والاستنتاج والاستدلال ، وهي أمور لا بد منها لمن يقومون بنشر الدين العالمي الذي يتطلب شرحاً وتفسيراً وجدلاً ونقاشاً .

وعلى هذا الوجه يمكن أن نفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله اختار خلقه ، فاختار منهم آدم ، ثم اختار بني آدم ، فاختار منهم العرب ، ثم اختارني من العرب ، فلم أزل خياراً في خيار ، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم[3] » .

---

(١) انظر : تفسيرات أخرى لهذه التسمية في هذه الدراسة .

(٢) أحمد حسن الباقوري : مع القرآن ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٠٦-٣٠٧ ، قارن : تاريخ الطبري ٢/٢٥١-٢٥٢ ، ابن هشام ١/١٤٥-١٤٦ ، أنساب الأشراف للبلاذري ١/٥٨ ، ابن سعد ١/٤٣-٤٦ ، المقدسي ٤/١٢٨-١٢٩ ، الإشتقاق ١/١٣ .

(٣) رواه الطبراني عن ابن عمر ، وروى الترمذي مثله ، وقال حديث حسن ، كما وردت أحاديث مشابهة أو مقاربة تبين فضل العرب الذين اختار الله منهم نبيه ، ففي البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « بعثت في خير قرون بني آدم فقرناً قرناً ، حتى كنت من القرن الذي كنت منه » .

ثم أليس في بلاد العرب هذه « بيت الله العتيق » أول بيت وضع للناس ، بناه جدّ العرب إبراهيم الخليل . والذي تنظر اليه الكتب المقدسة جميعاً ، على أنه الأب الروحي لكل المؤمنين[١] ، ومن ثم فإن أمم الأرض جميعاً إنما تتبارك به[٢] ، ويعتبر الإنجيل المسيح من سلالته[٣] ، وينظر إليه القرآن الكريم ، على أنه أبو الأنبياء ، فقد أخرج الله من صلبه أنبياء بررة ، حملوا الراية وتوارثوا المشعل[٤] ، ومن ثم فهو الأسوة الحسنة للمؤمنين جميعاً « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه[٥] » ، ومن هنا فإن الأديان السماوية الكبرى – اليهودية والمسيحية والإسلام – إنما تحيط الخليل بهالة من الإحترام والإجلال ، وتشرف جميعاً بالإنتساب إليه .

هذا إلى أن الجزيرة العربية قد عرفت في تاريخها الطويل أنواعاً من الرسالات ، ولم تكن رسالة الإسلام وحدها هي التي بدأت فيها ، فكان هود في الأحقاف ، وكان صالح في ثمود ، وكان شعيب في مدين ، وكان موسى الذى نادى ربه بجانب الطور الأيمن ، على حدود الجزيرة العربية ، ومن قبل كان إبراهيم الذي بنى البيت ، وإسماعيل الذي رعاه وورّثه أولاده من بعده[٦] ، فهذه الجزيرة بامتدادها إنما كانت مهبط الوحي منذ القدم ، ولها عهد بالرسالات وقد تتابعت فيها على مرّ العصور[٧] .

ثم أليس في اختيار العرب لحمل الرسالة العالمية معنى كريماً ، يستحق منا دراسة تاريخ هؤلاء القوم الذين أكرمهم ربهم – دون غيرهم – بدعوتين ، لأبيهم إبراهيم الخليل توجه بهما إلى ربه ، إحداهما ، « وإذ قال إبراهيم رب إجعل هذا بلداً آمناً

---

(١) أشعياء ٥١ : ٢ ، سورة الحج : آية ٧٨ .
(٢) تكوين ١٢ : ٣ ، ١٨ : ١٨ .
(٣) متى : ١ : ٢-١٦ ، لوقا ٣ : ٣٣-٣٤ .
(٤) سورة الأنعام : آية ٨٤-٨٧ .
(٥) سورة الممتحنة : آية ٤ ، وانظر : تفسير روح المعاني ٢٨/٦٩-٧٣ ، تفسير الفخر الرازي ٢٩/٣٠٠-٣٠١ ، تفسير الطبري ٢٨/٦٧٢-٦٣ ، مجمع البيان ٢٨/٤٧-٤٩ ، الكشاف ٤/٩٠ ، تفسير القرطبي ص ٦٥٣٥ ، تفسير القاسمي ١٦/٥٧٦٥-٥٧٦٦ ، تفسير ابن كثير ٨/١١٣ .
(٦) أنظر عن هذه الرسالات ، كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » – الجزء الأول ، في بلاد العرب .
(٧) عطية صقر : المرجع السابق ص ١٤٣ .

وارزق أهله من الثمرات[1] » ، والثانية « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »[2] .

وقد استجاب الله لإبراهيم فجعل البيت مثابة للناس وأمناً ، ثم انبعث في ذريته محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وكانت قريش هي القبيلة التي ولد فيها محمد صلى الله عليه وسلم ، وانبعث منها محمد — عليه الصلاة والسلام — وكان اختيار هذا النبي على سنة الله في اصطفائه رسله وأنبياءه ، من أكرم البيوت وأشرف الظهور ، وأطهر البطون ، وأبعدها عن الدنايا ، وألصقها بمكارم الأخلاق[3] ، على ما يقول الله تعالى « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم[4] » ، وعلى ما يقول جلّ شأنه « الله أعلم حيث يجعل رسالته »[5] .

وقد بيّن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذا المعنى بقوله الشريف « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار[6] » .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٦ ، وانظر تفسير القرطبي ص ٥٠٢—٥٠٥ ، تفسير ابن كثير ١/٢٤٧—٢٥٣ ، تفسير المنار ١/٣٨٣—٣٨٦ ، تفسير الطبري ٣/٤٤—٥٦ ، تفسير الكشاف ١/٨٦ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٩ ، وانظر : تفسير ابن كثير ١/٢٦٨—٢٧٩ ، تفسير المنار ١/٣٨٨—٣٨٩ (١٩٧٢) ، تفسير القرطبي ص ٥١٦—٥١٧ (دار الشعب ، القاهرة ١٩٦٩) ، تفسير الـ[illegible] ٣/٨٢—٨٨ (دار المعارف) تفسير الكشاف ١/١٨٦—١٨٩ .

(٣) [illegible] : مع القرآن ص ٣٠٩—٣١٠ .

(٤) [illegible] : آية ٣٣—٣٤ ، وانظر : تفسير الطبري ٦/٣٢٦—٣٢٨ ؛ تفسير روح المعاني ٣/١٣٠—١٣٣ ، تفسير الكشاف ١/٣٥٤—٣٥٥ ؛ تفسير مجمع البيان ٣/٦١—٦٣ .

(٥) سورة الأنعام : آية ١٢٤ ، وانظر : تفسير القرطبي ص ٢٥١٥—٢٥١٦ ، تفسير المنار ٨/٣٢—٣٥ ، تفسير الطبري ١٢/٩٥—٩٦ (دار المعارف — القاهرة ١٩٥٧) ، تفسير الكشاف ٢/٤٨—٤٩ ، تفسير أبي السعود ٢/٢٨٠ ، تفسير روح المعاني ٨/٢١—٢٣ ، تفسير الفخر الرازي الرازي ١٣/١٧٥—١٧٦ ، تفسير الطبرسي ٧/١٨٥—١٨٨ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٢٣—٣٢٦ .

(٦) رواه مسلم والترمذي ، وانظر : المواهب للقسطلاني ١/١٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية ١/١٩١ (القاهرة ١٩٦٤) ، عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٦٨ ، محمد محمد أبو شهبه : السيرة النبوية ١/١٨٩ (القاهرة ١٩٧٠) ، أحمد حسن الباقوري : مع القرآن ص ٢١ ، ٣٠٧ ، عطية صقر : الدين العالمي ص ١٤٠ .

ولا أظن — بعد هذا كله — أن هناك من يكابر في ضرورة الإهتمام بدراسة تاريخ هؤلاء القوم الذين تضافرت عوامل شتّى على إهمال تاريخهم ، فضلاً عن التقليل من شأنه ، حتّى أن معلوماتنا عن تاريخ العرب قبل الاسلام ، ظلت — حتّى حوالي قرن مضى — تعتمد فقط على ما جاء في التوراة ، وعلى ما كتبه القدامى من مؤرخي الإغريق والرومان وجغرافييّهم ، وكان هذا كله لا يشفي غليل العلماء ، حتّى لو أضفنا إليه ما كتبه العرب عن تاريخهم قبل الإسلام ، أو ما نستطيع أن نحصل عليه من معلومات إذا درسنا الشعر الجاهلي .

غير أنه من حسن الحظ أن بدأت الصورة تتغير ، عندما أخذت النقوش اليمنية طريقها إلى أيدي العلماء ، وقد أصبح عددها الآن أكثر من خمسة آلاف نقش ، فيها الكثير من المعلومات عن ممالك جنوب اليمن ، كما وصل إلى أيدي العلماء كذلك عشرات الآلاف من « المخربشات » القصيرة على واجهات الصخور في شمال بلاد العرب بين ثمودية ولحيانية وسبئية وغيرها[1] ، فضلاً عن تلك التي وجدت خارج شبه جزيرة العرب ، وبخاصة النقوش الصفوية التي وجدت فوق جبال الصفا جنوب شرق دمشق ، وهي قريبة جداً — من حيث الخط واللغة وأسماء الآلهة — من المخربشات الثمودية[2] .

وهكذا أصبح لدينا ما يساعد الآن في الحصول على صورة واضحة إلى حد ما ، عما كان جارياً في تلك البلاد ، منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وحتّى ظهور الإسلام — أي مدى ألف وخمسمائة سنة — سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أو الدينية أو الاقتصادية[3] .

وليس هذا يعني — بحال من الأحوال — أن الآثار قدمت لنا كل ما عندها ، فمما لا شك فيه أننا ما زلنا في هذا الصدد بالذات في مرحلة البداية ، ومن ثم فهناك فترات في تاريخ العرب القديم ، ما يزال الخلاف فيها على أشده ، سواء أكان ذلك على

---

(1) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١٢٥ .
(2) ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين ، القاهرة ص ٤٦ .
(3) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٢٦ .

ترتيب الملوك طبقاً للتسلسل التاريخي ، أو في تحديد فترات حكمهم ، بينما هناك فترات أخرى ما تزال مظلمة تماماً ، وليس هناك من حل إلا مزيداً من الحفائر — ثم مزيداً من الحفائر — حتى تخرج لنا الأرض الطيبة تاريخاً ، لا أظن أنه يقل كثيراً عن تاريخ العملاقين الكبيرين — مصر والعراق — في تلك العصور من تاريخ الشرق الأدنى القديم .

ومن أسف ، أن تاريخ العرب القديم لم يلق — حتى في العصر الحديث — الإهتمام اللائق به ، فرغم أن في العالم العربي عدداً كبيراً من الجامعات ، تُعنى أقسام التاريخ فيها ، بدراسة التاريخ القديم بكل فروعه ، ومع ذلك ، فالقليل منها ، هو الذي يهتم بدراسة التاريخ العربي القديم ، ومن ثم فهي في ذلك تنقسم إلى أقسام ثلاث ، قسم منها لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، هو الذي يدرس التاريخ العربي القديم ، كمادة مستقلة قائمة بذاتها ، وقسم ثان لا يدرسه إلا كمقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ، وأما القسم الثالث ، فلا نكاد نحس أن لهذا التاريخ المجيد ذكر بين برامج الدراسة فيه ، ومن عجب أن هذا يحدث في الوقت الذي تهتم فيه الجامعات الأوربية بدراسة هذا التاريخ ، وكأن أمر دراسة تاريخنا يهم الأوربيين ، أكثر مما يهمنا نحن أسلاف أصحاب هذا التاريخ ، بل وكأن دراسة تاريخ إسبرطة وأثينا القديم أهم عندنا من دراسة تاريخ اليمن ونجد والحجاز القديم .

ودراسة التاريخ العربي القديم — فيما أرى — ضرورة قومية ودينية ، ضرورة قومية لأن هذا تاريخنا ، بل إني لا أظن أنني أغالي كثيراً ، إن قلت إنه — في بعض الأحايين — لواحد من الأسس الرئيسية لدراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم ، فالحقائق العلمية تقول إن بلاد العرب ، إنما هي الموطن الأصلي للساميين ، وأنهم خرجوا منها في فترات مختلفة ، فيما بين الألف الرابعة والثانية قبل الميلاد ، إلى مصر وسورية والعراق ، وهي كذلك موطن العربية — اللغة السامية الأم[1] —

---

(١) أنظر مقالنا « الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي » — مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الرابع ، الرياض ١٩٧٤ ص ٢٤٥—٢٦١ .

ثم هي لا تختلف عن غيرها من بلاد المنطقة العريقة في الحضارة ، قامت بها دول ، ونشأت فيها حضارات ، وأسهمت بنصيبها فيما قدمه هذا الشرق الخالد للإنسانية من أياد بيضاء ، ومن ثم فقد تأثرت بلاد العرب بحضارة تلك المنطقة ، وأثرت فيها ، وارتبطت بها بعلاقات ، سادها الود أحياناً ، والنفور أحياناً أخرى ، ومن ثم فتاريخها جزء من تاريخ هذا الشرق الأدنى ، تعرضت للضغط الخارجي ، يوم تعرض هذا الشرق لهذا الضغط أو ذاك ، ونعمت بخيراتها ، يوم أن كان أمر هذا الشرق في أيدي أبنائه ، ولاقت ما لاقى هذا الشرق ، يوم أن كانت قوى أجنبية تتحكم في مصايره ، وتجني خيراته ، ومن ثم فليس عجباً أن كان التاريخ العربي القديم متأثراً بتاريخ الشرق الأدنى القديم ، ومؤثراً فيه[1] .

وضرورة دينية ، لاننا نعرف — تاريخياً ودينياً — أن الله سبحانه وتعالى قد اصطفى من بلاد العرب ، بعض أنبيائه ومرسليه ، ولأن مكانة الإسلام الفريدة في التاريخ الإنساني ، لا يمكن معرفتها بصورة صحيحة ، إلا إذا درس تاريخ ما قبل الإسلام ، حتى نستطيع التعرف بصورة واضحة على أثره ، لا في بلاد العرب فحسب بل في تاريخ الإنسانية جمعاء ، وكما يقولون ، فإن الأشياء إنما تعرف بأضدادها .

ولعل الذين يتشدقون بالغيرة على الإسلام ، من دراسة التاريخ العربي القديم ، يتذكرون أنهم ليسوا أشد غيرة على ديننا الحنيف من الفاروق — رضي الله عنه وأرضاه — حيث يقول : « إنما تنقص عرى الإسلام عروة عروة إذ نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية »[2] .

وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى « الجاهلية » و « العصر الجاهلي » وغير ذلك من كلمات ترددت كثيراً بين صفحات هذه الدراسة .

---

(١) أنظر دراستنا عن « العرب وعلاقتهم الدولية في العصور القديمة » — مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية — العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٩٧-٤٣٧ .

(٢) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ٢٤/١ .

يقول السيوطي إن لفظ الجاهلية إسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة النبوية الشريفة ، والقرآن الكريم لم يستعمل كلمة « الجاهلية » هذه ، إلا في العصر المدني ، ومن ثم فإنك تجدها في السور المدنية — وليس المكية — كما في سورة آل عمران والمائدة والأحزاب والفتح ، وإن استعمل كلمة « الجاهلين » في العصر المكي والمدني ، كما في سورة البقرة والأعراف والفرقان[1] .

وقد ذهب البعض إلى أن المقصود من كلمة « الجاهلية » إنما هو الجهل والجهالة ، نقيضي العلم والمعرفة ، أو الجهل بالقراءة والكتابة ، ومن ثم فقد ترجمت الكلمة في اللغة الإنجليزية « The Time of Ignorance » وفي الألمانية « Zeit der Unwissenheit » ، بينما ذهب فريق ثان إلى أنها إنما تعني الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين ، وباتباع الوثنية والتعبد لغير الله[2] .

على أن فريقاً ثالثاً ذهب إلى أن الكلمة إنما تعني « السفه » الذي هو ضد الحلم ، وفي الحديث الشريف « إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل »[3] ، ومن هذا قول عمرو بن كلثوم .

---

(١) أنظر : سورة البقرة : آية ٦٧ ، آل عمران : آية ١٥٤ ، المائدة : آية ٥٠ ، الأعراف : آية ١٩٩ ، الفرقان : آية ٦٣ ، الأحزاب : آية ٣٣ ، الفتح : آية ٢٦ ، تفسير الطبري ٣/١٨٢ ، ٧/٣٢٠–٣٢٦ ، ١٠/٣٩٤–٣٩٥ ، ١٣/٣٢٦–٣٣٢ (دار المعارف) ١٩/٣٢–٣٥ ، ٢٢/٢–٨ (طبعة الحلبي) ، تفسير القرطبي ص ١٤٨٣–١٣٨٥ ، ٢٢١١–٢٢١٣ ، ٥٢٦٠–٥٢٦٤ ، ٦١٠٨–٦١٠٩ (دار الشعب ٦٩–١٩٧٠) ، تفسير روح المعاني ٢٢/٨–٩ ، تفسير ابن كثير ٢/١٢٤–١٢٦ ، ٣/١١٨–١٢٣ ، تفسير الفخر الرازي ٢٥/٢٠٩ ، تفسير البيضاوي ٢/٢٤٥ ، ٤٠٤ ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : المزهر في علوم اللغة ، القاهرة ١٩٤٢ .

(٢) إبراهيم أنيس : دلالة الألفاظ ص ١٨٣–١٨٨ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ص ٥٣ ، نهاية الأرب ١/١٥ ، جواد علي ١/٣٨ ، تفسير الطبري ٧/٣٢٠–٣٢٦ ، روح المعاني ٢٢/٩ ، يحيى الخشاب : المرجع السابق ص١٢ ، محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص١٣٩–١٤١ .
وكذا S.M. Zwemer, Arabia, The Cradle of Islam, P. 158.
وكذا Ency. of Islam, I, P. 999.

(٣) وانظر قوله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من عمل أهل الجاهلية لا يدعهن الناس ، الطعن بالأنساب والاستمطار بالكواكب والنياحة (أنظر : تفسير الطبري ٢٢/٥ ، مجموعة الحديث — الرياض ١٩٦٩ ص ٢٦٧–٢٦٨ ، ثم قارن رواية أخرى للحديث الشريف في : مجموعة فتاوي ابن تيمية ١١/١٧٤) .

ألا لا يجهلــن أحد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينـــا[1]

ومن ثم فإن الكلمة إنما تعني الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة ، وهي أمور أوضح ما كانت في حياة العرب ، قبل أن تتهذب نفوسهم بما دعا إليه الإسلام من مبادىء خلقية سامية ، ومثل عليا وفضائل ، ومن ثم فقد سمي العصر « بالجاهلية » ، ويقابل هذه المعاني هدوء النفس والتواضع ، والاعتداد بالعمل الصالح ، لا بالنسب ، وهي كلها نزعة سلام[2] .

ومن هنا رأينا الإمام الطبري يفسر قوله تعالى « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »[3] بأن عباد الله هم الذين يمشون على الأرض بالحلم ، لا يجهلون على من جهل عليهم[4] ، ومن ثم فقد جاء في « حديث الإفك »[5] ، « ولكن اجتهلته الحمية » ، أي حملته الأنفة والغضب على الجهل ، وفي الحديث الشريف أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال

---

(1) نهاية الأرب ١٦/١ .

(2) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٦٩—٧٠ ،
وكذا R.A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, 1962, P. 30.
وكذا EI, I, P. 999.

(3) سورة الفرقان : آية ٦٣ .

(4) تفسير الطبري ٣٢/١٩—٣٥ (طبعة الحلبي – القاهرة ١٩٥٤) . –

(5) أنظر عن حديث الإفك : سورة النور : آية ١١—٢٠ ، وانظر : تفسير روح المعاني ١١١/١٨—١٢٥ ، تفسير الفخر الرازي ١٧٢/٢٣—١٨٤ ، تفسير الطبرسي ١٨/١٨—٢٥ ، تفسير الطبري ٨٦/١٨—١٠٠ ، تاريخ الطبري ٦١٠/٢—٦١٩ ، ابن الأثير ١٩٥/٢—١٩٩ ، تفسير البيضاوي ١١٩/٢—١٢١ ، تاريخ الخميس ص ٥٣٤—٥٣٨ ، ابن تيمية : تفسير سورة النور ، تحقيق صلاح عزام (دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٢) ، كامل سلامة الدقس : منهج سورة النور في إصلاح النفس والمجتمع ، القاهرة ١٩٧٤ ص ١٣٨—١٦٨ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٣٦٦—٣٧٠ ، محمد رضا : محمد رسول الله ، بيروت ١٩٧٥ ص ٢٢٣—٢٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٠/٤—١٦٤ ، ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ٢٢٠/٢—٢٢٤ .

لأبي ذر – وقد عيّر رجلاً بأمه – « إنك إمرؤ فيك جاهلية » أي فيك روح الجاهلية [1] .

بقيت كلمة أخيرة تتصل بالفترة الزمنية التي تعالجها هذه الدراسة [2] ، ذلك أننا نحن الباحثين في « تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم » قد اعتدنا أن نتوقف في دراستنا عند بداية عصر الإسكندر المقدوني (٣٥٦–٣٢٣ ق.م) بسبب التغيرات الحضارية والسياسية التي حدثت في الشرق الأدنى القديم منذ ذتلك الفترة ، غير أن الأمر جد مختلف هنا في بلاد العرب ، فالإسكندر المقدوني – وكذا خلفاؤه من الأغارقة ، فضلاً عن الرومان من بعدهم – لم يكتب لهم نجحاً بعيد المدى أو قصيره في السيطرة على جزيرة العرب ، ومن ثم فقد بقي هذا الجزء العزيز من العالم العربي القديم ، بعيداً عن قبضة اليونان والرومان ، رغم المحاولات المتكررة التي بذلها هؤلاء وأولئك لانضواء الجزيرة العربية تحت لواء مقدونيا أو روما أو بيزنطية ، كما أن الحضارة اليونانية – والرومانية من بعدها – وإن كُتب لها بعض النجح في أطراف الجزيرة العربية ، فقد فشلت تماماً في أن تنتشر بين ربوعها ، هذا فضلاً عن أن العرب القدامى إنما قد احتفظوا بلغتهم العربية – اللغة السامية الأم – بعيداً عن سيطرة اللغات الهندو–أوربية ، حتى جاء الإسلام الحنيف ، فكانت لغة القرآن ، ورسول الحضارة الإسلامية إلى البشرية جمعاء .

ومن ثم فالرأي عندي أن التاريخ العربي القديم ، إنما يبدأ منذ عصور ما قبل التاريخ ، وينتهي في بداية القرن السابع الميلادي حيث يبدأ التاريخ الإسلامي ، يوم أهدت مكة إلى الدنيا كلها أشرف الخلق جميعاً ، مولانا وسيدنا رسول الله ، صلى الله

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي ، وانظر : تفسير البيضاوي ٢/٢٤٥ ، تفسير روح المعاني ٢٢/٨–٩ ، فتاوي ابن تيمية ١١/١٧٤ ، أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٦٩ ، نهاية الأرب ١/١٥–١٨ ، ثم قارن : تفسير الطبري ٢٢/٥ .

(٢) تمثل هذه الدراسة « الجزء السادس » من سلسلة دراسات يصدرها المؤلف في التاريخ القديم تحت عنوان « دراسات في تاريخ الشرق الأدني القديم » .

عليه وسلم ، وما أن يمضي حين من الدهر ، حتى يسبغ الله فضله على الدنيا بأسرها ، فيتزل الوحي بالقرآن الكريم .

وهناك ، وفي مكة المكرمة ، وفي بيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تبدأ الدعوة إلى الإسلام ، دين التوحيد المطلق ، ومن هناك – من هذه الأرض الطيبة ، من الحجاز الشريف – تنتشر راية الإسلام إلى جميع أنحاء المعمورة ، تدعو إلى التوحيد والحب والعدل والإخاء والمساواة ، وكل ما هو جميل ونبيل .

وقبل ذلك – وفي حياة الرسول الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه – تقوم في الجزيرة العربية – ولأول مرة في تاريخ هذه الدنيا – بفضل الله ، وبهداية رسول الله ، تقوم قوة عظمى ، قوة لم ينبغ لأحد مثلها من قبل في تلك الجزيرة ، التي كان أمرها مفرقاً بين قوى متناحرة ، وعشائر بعضها لبعض عدو ، فإذا هي الآن – بهدى الإسلام وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم – دولة موحدة ، لها زعيم واحد ، وقائد سياسي واحد ، وقائد عسكري واحد ، لا ينازعه سلطانه أحد ، لأن سلطانه فوق مستوى البشر ، فهو لسان السماء ، وهو نبي الله ، وكل في دولته مأمور بطاعته ، كما يطيع الله ، يفتديه بحياته ، بل وتهون عليه حياته في سبيل ما يأمر به ، تطلعاً إلى الجنة التي وعد الله المتقين من عباده ، وأعدها للشهداء من المجاهدين ، وهكذا أصبحت الجزيرة العربية دولة واحدة ، تدين بدين واحـــد ، وتعبد رباً واحداً ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير .

وهنا ، ينتهي التاريخ العربي القديم ، ويبدأ التاريخ العربي الإسلامي ، لا ، بل هنا يبدأ التاريخ الإسلامي ، فما كان الإسلام أبداً ، للعرب خاصة ، وإنما كان – وسوف يظل أبداً – للناس كافة ، و« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ، أرسله ربه رحمة للعالمين ، وختاماً لرسالات الأنبياء أجمعين ، وهداية للناس – كل الناس – إلى سواء السبيل .

والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى من سورة الاعـــراف : « قل ياايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » ، وفى قـــوله تعالى من

سورة سبأ « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ، وفى قوله تعالى من سورة الانبياء « ومارسلناك الا رحمة للعالمين » ، وفى قوله تعالى من سورة النساء « وارسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا »، وفى قوله تعالى فى سورة الحج « قل يا ايها الناس انما انا لكم نذير مبين »، الى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تدل على عالمية الدعوة الاسلامية ، وعلى أن القرآن انما تنزل على سيدنا محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم، ليقرأه على الناس كافة ، كما فى سورة ابراهيم والفرقان وص وغيرها .

وقد بين سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، هذا المعنى الشريف ، فيما يروى البخارى ومسلم فى صحيحهما فى قوله ، صلى الله عليه وسلم ، « اعطيت خمسا لم يعطهن احد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من امتى ادركته الصلاة فليصل ، واحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، واعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة » ، روى الامام مسلم فى صحيحه انه صلى الله عليه وآله وسلم قال « والذى نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الامة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى ارسلت به ، الا كان من أصحاب النار » .

وبعد : فهذه دراسة فى تاريخ العرب القديم ، وانى لكبير الأمل فى الله تعالى ان يكون فيها بعض النفع ، « وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب » .

دكتور
محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القد.
ورئيس قسم التاريخ والآثار
كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

الفصل الأول

مصادر التاريخ العربي القديم

أولا : المصادر الأثرية

منذ قرن واحد من الزمان ، كانت معلوماتنا عن تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام تعتمد فقط على ما جاء في التوراة ، وعلى ما كتبه القدامى من الأغارقة والرومان ، وكان هذا كله شيئاً قليلاً لا يشفي غليل العلماء ، حتى لو أضفنا إليه بعض ما كتبه العرب عن تاريخهم قبل الإسلام ، أو ما نستطيع أن نحصل عليه من معلومات إذا درسنا الشعر الجاهلي ، إلا أن الأمر سرعان ما بدأ يتغير عندما أخذت النقوش اليمنية طريقها إلى أيدي العلماء ، وقد أصبح عددها الآن أكثر من خمسة آلاف نقش ، فيها الكثير من المعلومات عن ممالك شبه الجزيرة العربية ، كما وصل إلى أيدي العلماء كذلك عشرات الآلاف من « المخربشات » القصيرة على واجهات الصخور في شمال بلاد العرب ، بين ثمودية ولحيانية وسبئية وغيرها[1] ، فضلاً عن تلك التي وجدت خارج شبه الجزيرة العربية كالنقوش الصفوية التي وجدت فوق جبال الصفا جنوب شرق دمشق ، وهي قريبة جداً — من حيث الخط واللغة وأسماء الآلهة — من النقوش الثمودية[2] .

(١) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٢٥ .

(٢) ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ٤٦ »

أضف إلى ذلك ، تلك النقوش والكتابات غير العربية التي تطرقت إلى ذكر العرب ، كما في بعض النقوش الآشورية والبابلية ، والتي قدمت لنا معلومات قيمة عن بلاد العرب الشمالية ، وعن علاقاتها بالإمبراطوريتين الآشورية والبابلية ، كما عرفنا من هذه النقوش ــ مثلاً ــ أن المرأة العربية قد وصلت منذ القرن الثامن قبل الميلاد إلى منصب رئيس الدولة ، كالملكة « زبيبة » والملكة « شمس » والملكة « تعلخونو » وغيرهن [1] .

والأمر كذلك بالنسبة إلى النقوش المعينية أو السبئية في مصر أو في الحبشة ، فضلاً عن النقوش النبطية التي اكتشفت في بعض جزر اليونان ، والتي تدل على المدى البعيد الذي بلغه أصحابها في النشاط التجاري والبحري ، ومن هذا النوع ذلك النقش الذي اكتشف عام ١٩٣٦م في جزيرة « كوس » ببحر إيجه ، فضلاً عن نقشين نبطيين وجدا بالقرب من « نابولي » ، إلى جانب نقش ثالث وجد في « روما» [2]

وهكذا أصبح لدينا الآن ما يساعدنا في تقديم صورة واضحة إلى حد ما ، عما كان جارياً في تلك البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وحتى ظهور الإسلام ، أي مدى ألف وخمسمائة سنة ، سواء أكان ذلك من الناحية السياسية أو الدينية أو الإقتصادية . [3]

---

(١) أنظر : Nabia Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, AJSL, 58, 1941.
وكذا D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, Chicago, 1927.
وكذا A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annals, 1929.
وكذا A.L.Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts, ANET, 1966.

(٢) أنظر : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية » العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧-٤٣٧ ، وكذا : سبتينو موسكاتي الحضارات السامية القديمة ص ٣٥٥ وكذا
G.A. Cooke, A Text-Book of North Semitic Inscriptions, Oxford, 1903, P. 256-7.

(٣) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٣ ص ١٢٥-١٢٦ .

وهكذا تظهر لنا أهمية الآثار في دراسة التاريخ والحضارة ، بل لعلها من أهم – إن لم تكن أهم – ما يجب أن يعتمد عليه المؤرخ في دراسته ، فهي الشاهد الناطق الوحيد الباقي لنا من تلك الأيام الخوالي ، ومن هنا كانت أهميتها في تقديم صورة للحياة العامة في كل مناحيها المختلفة ، فمثلاً عن طريق الكتابات المعينية الشمالية التي وجدت في « العلا » استطعنا أن نعرف منها أن المعينيين الشماليين كانوا يستخدمون الكتابة والديانة المعينية التي عرفها المعينيون الجنوبيون ، واستخدموها في وطنهم الأصلي[1] .

هذا وقد عرفنا عن طريق الوثائق الصفوية أن الصفويين هم وحدهم الذين نعرف عنهم شيئاً قبل أن يمتزجوا في الشعوب السامية الشمالية ، إذ ظلوا محتفظين بالخط السامي الجنوبي واللغة السامية الجنوبية والعقائد السامية الجنوبية[2] ، بل استطعنا أن نعرف عن طريق الجعارين المصرية ، والأختام الساسانية ، التي وجدت طريقها إلى بلاد العرب الجنوبية ، أن نستنتج أن التبادل بين بلاد العرب الجنوبية وبين البلاد الأخرى ، لم يكن مقصوراً على التجارة فحسب ، بل تعداها إلى الفنون كذلك ، وقد تركت هذه الفنون الأجنبية أثرها في الفن العربي الجنوبي[3] .

على أنه يجب أن نلاحظ أن في هذه المصادر الأثرية نقاط ضعف كثيرة ، منها (أولاً) أنها في معظمها تتشابه في مضمونها وفي إنشائها ، لأنها تتعلق بأمور شخصية ، كإنشاء بيت أو بناء معبد أو إقامة سور ، ومن ثم فقد كانت أهميتها لغوية أكثر منها تاريخية ، ولكنها في الوقت نفسه ، قد أمدتنا بأسماء عدد من الملوك ، لولاها لما عرفنا عنهم شيئاً ، كما قدمت لنا بعض المعلومات عن العلاقة بين القبائل بعضها بالبعض الآخر ، ومن هذا النوع نقش (CIH, 1450) والذي يتحدث عن حرب دارت رحاها بين قبائل حاشد وحمير في مدينة « ناعط »[4] .

---

(١) ديتلف نلسن. : المرجع السابق ص ٤٢ .
(٢) أنظر : R. Dussaud, Les Arabes en Syrie avant L'Islam, Paris, 1907.
(٣) أدولف جرومان : التاريخ العربي القديم ص ١١٧ .
(٤) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء الأول ص ٤٤–٤٦ ، وكذا D.S. Margoliouth, Lectures on the Arabic Historians, Calcutta, 1930, P. 29.

ومنها (ثانياً) أن معظمها قد وجد في المعابد والقبور ، ومن ثم فهي ذات صبغة دينية ، ومنها (ثالثاً) أن النصوص اللحيانية عبارة عن « مخربشات » صغيرة ، وبعضها — كما في النصوص المعينية الشمالية — ليست نقوشاً كاملة ، وإنما هي أجزاء من نقوش ، ذلك لأن معظم الأحجار التي دونت عليها النقوش إنما وجدت في غير أماكنها الأصلية ، وقد استخدمها القوم أخيراً كمواد للبناء ، ومن ثم فقد وجدت في جدران المنازل وأسوار الحدائق في مدينة « العلا » ، وانطلاقاً من هذا ، فإن الفائدة منها جد قليلة ، كما أن قلة من العلماء هي التي كانت بقادرة على ترجمتها ، ومع ذلك فقد أفادتنا في معرفة أسماء بعض الآلهة[1] .

ومنها (رابعاً) أن الكتابات المؤرخة منها قليلة ، ومن ثم فلم تهدنا إلى تقويم ثابت يمكن القول أن العرب القدامى إنما كانوا يستعملونه ، وطبقاً لهذا اتجه الباحثون إلى أن العرب إنما كانوا — كغيرهم من الشعوب القديمة — يؤرخون الأحداث طبقاً لسني حكم الملوك ، بل إن القوم قد تجاوزوا ذلك إلى التأريخ بأيام الرؤساء وشيوخ القبائل وأرباب الأسر ، بل إن البعض منهم قد أهمل التأريخ تماماً ، وإن كان الحميريون قد اتخذوا من قيام دولتهم في عام ١١٥ قبل الميلاد (وربما في عام ١١٨ق.م أو عام ١٠٩ ق.م) ، تقويماً ثابتاً يؤرخون به الأحداث[2] .

هذا وقد أشار « المسعودي » إلى أن العرب قبل الإسلام إنما كانوا يؤرخون بتواريخ كثيرة ، فأما « حمير » و « كهلان » أبناء سبأ ، فقد كانوا يؤرخون بملوكهم ، أو بما يقع لهم من أحداث جسيمة ، فيما يظنون ، كنار صوان التي كانت تظهر في بعض الحرار بأقاصي اليمن ، وكالحروب التي كانت تنشب بين

---

(١) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) جواد علي : المرجع السابق ص ٤٨ وكذا —

J.B. Philby, The Background of Islam, P. 97.

وكذا E. Glaser, Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, Berlin, 1890, I, P. 3.

وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 407-427, 429-430.

القبائل والأمم ، فضلاً عن التأريخ بأيامهم المشهورة ، وكذا بوفاة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام ، كما كانت قريش تؤرخ عند مبعث المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - بوفاة هشام بن المغيرة وبعام الفيل[1] ، ويذهب الطبري إلى أن العرب لم تكن تؤرخ بشيء محدد قبل الإسلام ، غير أن قريشاً إنما كانت تؤرخ بعام الفيل ، بينما كان سائر العرب يؤرخون بأيامهم المشهورة ، كيوم جبلة والكلاب الأول والثاني[2] .

ثانياً : المصادر غير العربية

أولاً : الكتابات اليهودية :

(١) التوراة : أو « التورة » كلمة عبرية تعني الهداية والإرشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) ، والتي تنسب إلى موسى - عليه السلام - وهي جزء من العهد القديم ، والذي يطلق عليه تجاوزاً إسم « التوراة » من باب إطلاق الجزء على الكل ، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى ، والتوراة ، أو العهد القديم - تمييزاً له عن العهد الجديد كتاب المسيحيين المقدس - هو كتاب اليهود الذي يضم إلى جانب تاريخهم ، عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبار اليهود إلى ثلاثة أقسام : الناموس والأنبياء والكتابات[3] .

هذا وقد تحدثت التوراة في كثير من أسفارها عن العرب وعلاقتهم بالإسرائيليين، كما جاء في أسفار التكوين والخروج والعدد ويشوع والقضاة وصموئيل - الأول والثاني - والملوك - الأول والثاني - وأخبار الأيام - الأول والثاني - ونحميا والمزامير وأشعياء وإرمياء وحزقيال ودانيال والمكابيين - الأول والثاني - .

---

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي : التنبيه والإشراف ، القاهرة ١٩٣٨ ص ١٧٢-١٨١ (بيروت ١٩٦٨) .

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك - الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٣ ، إبن الأثير : الكامل في التاريخ ٥٤٩/١-٥٥٢ ، ٦٢٢-٦٢٦ .

(٣) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن التوراة في كتابه « إسرائيل » ص ١٩-١٥٩ .

غير أن التوراة عندما تتحدث عن العرب ، فإنما تهتم بالقبائل والأماكن العربية ذات العلاقة الإقتصادية باليهود في بعض الأحيان ، وذات العلاقة السياسية في أحوال أخر ، ولهذا نجدها عندما تتحدث عن القبائل في شبه الجزيرة العربية ، فإنما تتحدث عنها على أساس أنها قبائل كانت لها علاقة بالعبرانيين ، ثم هي قبائل متبدية في المكان الأول ، إلا عندما يتصل الأمر بقصة سليمان وملكة سبأ ، فالأمر جد مختلف ، وتصبح لهذه القبائل شأن آخر [1] .

وعلى أي حال ، فعلينا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخي ، أن نتخلص تماماً من الهالة التي أسبغها عليها المؤمنون بها ، وأن ننظر إليها كما ننظر إلى غيرها من المصادر التاريخية ، ولا يهمنا هنا أن تكون التوراة كتاباً مقدساً أو لا تكون ، فذلك شأن من يريدون أن يروها في نصها الراهن على هذا النحو أو ذاك ، ولكن الذي يهمنا هنا ألا تكون كتاب تاريخ يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل ، كما حاول فرضه على الماضي ، وإذا كان ما يعزي للتوراة من قيمة تاريخية لا يجد له سنداً ، إلا فيما يزعم لها من قداسة ، فالذي لا شك فيه أن هناك ثمة علاقة بين قيمة التوراة ككتاب تاريخ ، وقيمتها ككتاب مقدس ، ذلك أنه كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس تضاءلت الريبة في صدق ما تضمنته من وقائع وسهل وصول هذه الوقائع إلى يقين الناس على أنها من حقائق التاريخ التي لا ينبغي الشك فيهما ، وقد أدركت الصهيونية العالمية هذه الحقيقية ، فأحسنت استغلالها إعلامياً في الغرب المسيحي لدعم ما زعمت أنه حقها في إنشاء دولتها إسرائيل ، ولكن أية قيمة تبقى لتاريخ لا يجد سنداً له ، إلا فيما يزعم لكتاب واحد من قداسة ، وهي بعد قداسة توجه إليها سهام الريب من أكثر من جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقى إلى ما فوق مظان الشبهات [2] .

---

(١) عبد الرحمن الطيب الأنصاري : لمحات عن القبائل البادية في الجزيرة العربية (مطبوعات جمعية التاريخ والآثار بكلية الآداب — جامعة الرياض) عام ١٩٦٩ ص ٨٦ .

(٢) صبري جرجس : التراث اليهودي الصهيوني — القاهرة ١٩٦٧ ص ٥١ ، ٥٨—٥٩ .

ومن هنا فإننا سننظر إلى التوراة كمصدر تاريخي ، دون أن نتقيد كثيراً بتلك الهالة التي فرضتها على المؤمنين بها ، إن من كتبوا التوراة المتداولة اليوم — كما يقول المؤرخ الإنجليزي سايس — كانوا بشراً مثلنا ، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيراً عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق ، كما أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة ، بل لا يحتمل أن نخطئه ، وما دامت التوراة كتاب تاريخ ، فليس هناك ما يمنع المؤرخ من أن يناقشها مناقشة حرة دون تمييز ، يتقبل ما تقوله بصدر رحب ، إن كان يتفق مع الأحداث التاريخية ، ويوافق المنطق والمعقول ، ويرفضه حين تذهب بعيداً عن ذلك[1] .

(٢) كتابات المؤرخ اليهودي يوسف بن متى :

ولد يوسف بن متّى هذا (أو يوسفيوس فيلافيوس) في أورشليم عام ٣٧م وتوفي في روما عام ٩٨م (أو ١٠٠م) ، وكان قد أرسل إلى روما في عام ٦٤م من قبل المحكمة العليا عند اليهود « السنهدرين » للدفاع عن الأحبار الذين سجنوا بأمر المفوض الروماني ، ونجح في مهمته ثم عاد إلى القدس ، واشترك في ثورة ضد الرومان انتهت بأسره ، إلا أن القائد الروماني « فسباسيان » أنقذه ، وسرعان ما نال تقديره ، ثم صحب إبنه « تيتوس » إلى القدس عام ٧٠م ، ثم عاد معه إلى روما حيث حمل إسم « فيلافيوس » باعتباره عبداً حرره سيده « فسباسيان » ، ثم منح حقوق المواطن الروماني[2] .

وهناك في روما كتب يوسف اليهودي كتبه المعروفة ، والتي من أهمها « آثار اليهود » (Antiquities of the Jews) و « الحروب اليهودية (The Jewish War) في سبعة

---

(١) أنظر عن « التوراة والحقائق التاريخية » كتابنا إسرائيل ص ١١٣–١٢٣ .

(٢) سبينوزا : رسالة في اللاهوت والسياسة ، القاهرة ١٩٧١ ص ١٦٧ ، فيليب حتّى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين بيروت ١٩٥٨ ص ٣٥٢–٣٥٣ ، وكذا

Harvey, The Oxford Companion To Classical Literature, P. 228.

وكذا EB, III, P. 153.

أجزاء بالآرامية ، والذي ترجم إلى اليونانية ، ثم كتب « تاريخ اليهود القديم » في عشرين جزءاً ، منذ بدء الخليقة ، وحتى عام ٦٦م .

وعلى الرغم من تحيز يوسف إلى قومه اليهود ، فضلاً عن الرغبة في إرضاء حماته من أباطرة الرومان ، وعلى اعتماده إلى حد كبير على كتاب العهد القديم في كتاباته ، فإن لمؤلفاته قيمة تاريخية لا شك فيها ، بخاصة عن الفترة التي عاصرها ، والحروب التي شارك فيها ، كما أن فيها معلومات ثمينة عن العرب والأنباط ، لا نجدها في كتب أخرى قديمة ، وكان الأنباط على أيامه يقطنون في منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات وتتاخم بلاد الشام ، ثم تنزل حتى البحر الأحمر ، وقد عاصرهم يوسف هذا ، وإن كان لا يهتم إلا فيما يختص بعلاقتهم باليهود ، فضلاً عن أن بلاد العرب عنده لا تعني سوى مملكة الأنباط [1] .

ثانياً : كتابات الرحالة اليونان والرومان :

وتشتمل هذه الكتابات — على ما فيها من أخطاء — على معلومات تاريخية وجغرافية عن بلاد العرب قبل الإسلام ، وعن أسماء لقبائل عربية كثيرة ، لولاها لما عرفنا عنها شيئاً ، ويبدو أن أصحاب هذه الكتابات قد استقوا معلوماتهم من الجنود اليونان والرومان الذين اشتركوا في الحملات التي وجهتها بلادهم إلى بلاد العرب ، ومن السياح الذين اختلطوا بقبائل عربية وأقاموا بين ظهرانيها ، وبخاصة في بلاد الأنباط ، ومن التجار والبحارة الذين كانوا يتوغلون في تلك البلاد ، وتعد الإسكندرية من أهم المراكز التي كانت تعني عناية خاصة بجمع المعلومات عن بلاد العرب وعن عادات سكانها ، وما ينتج فيها لتقديمها إلى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط ، وقد استقى كثير من كتاب الإغريق والرومان معارفهم عن بلاد العرب من هذه المصادر التجارية العالمية [2] .

---

(١) جواد علي ٣/٥٥ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣٥٣ ، سبينوزا : المرجع السابق ص ١٦٧ ، وكذا J. Hastings, Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936, P. 68 .

(٢) جواد علي : المرجع السابق ص ٥٦ .

على أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هؤلاء الكتاب الكلاسيكيين إنما كانوا يحكمون على مايرونه ويسمعونه من وجهة نظرهم هم ، وحسب عقليتهم وإدراكهم وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها ، فضلاً عن أنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد التي كانوا يصفونها أو يتحدثون عن تاريخها ، ومن ثم فقد اعتمدوا — كما أشرنا من قبل — على أفواه محدثيهم ، وجلهم من مستوى لا يزيد عنهم كثيراً في معرفته لتلك اللغات ، أضف إلى ذلك أن كثيراً منهم قد أساءوا فهم ما رأوه ، أو ذهب بهم خيالهم كل مذهب في تفسير أو تعليل ما سمعوه ، أو وقعت عليه أبصارهم[1] ، بل إن بعضهم قد ذهب إلى وجود أصل مشترك بين بعض القبائل العربية واليونان ، ولعل في هذه الفكرة — رغم سذاجتها — ما فيها من إشارات إلى علاقة ممعنة في القدم بين سكان شبه الجزيرة العربية ، وبين سكان البحر المتوسط الشماليين[2] .

ولعل أقدم من تحدث عن العرب من اليونان هو « إسكليوس » (٥٢٥— ٤٥٦ ق.م) ، ثم جاء من بعده المؤرخ اليوناني المشهور « هيرودوت » (حوالي ٤٨٤—٤٣٠ ق.م) الذي ندين له بأول عرض رحيب عن مصر ظل سليماً حتى اليوم ، وأما كتابه الثـــاني « يوتربي » (Euterpe) ، فإنه غير مطرد وقصصي ، كما أنه يميل إلى الإنحراف الذي يتسلسل إلى رواية ملحمة الكفاح بين الفرس والهلينيين ، وقد تعرض « هيرودوت » لذكر العرب عند الحديث عن الحروب التي قامت بين فارس ومصر على أيام الملك الفارسي « قمبيز » (٥٣٠—٥٢٢ ق.م) ، ورغم ما لهيرودوت من سمعة طيبة في عالم التاريخ ، حتى دعاه « سيشرون » « بأبي التاريخ » ، فهو لم يكن بنجوة من الأفكار الساذجة التي سادت عصره ، ومن ثم فقد كان هناك الكثير من القصص الساذج في تاريخه ، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما يوضع

---

(١) أحمد فخري : مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٧١ ص ٦٠ .

(٢) جواد علي ٥٧/١ .

وكذا Charles Forster, The Historical Geography of Arabia, I, P. XXXVI.

وكذا Pliny, Natural History, VI, P. 32, II, p. 718.

أمامنا بحسبانه تاريخاً ، وهو من التراث الشعبي في معايير غير دقيقة الرواية ، وتأكيدات بها نواة الحقيقة ، وإن غلفت بالمبالغة والتحريف[1] .

وهناك « ثيوفراست » (حوالي ٣٧١–٢٨٧ ق.م) ، وقد تطرق في كتاباته وأثناء حديثه عن النباتات إلى ذكر بلاد العرب ، وبخاصة الجنوبية منها ، والتي كانت تصدر التمر واللبان والبخور ، وهناك كذلك « ايراتوسثينيس » (٢٧٦–١٩٤ ق.م) ، وقد أفاد كثيراً من جاءوا بعده من الكتاب اليونان ، كما يبدو ذلك بوضوح في جغرافية « سترابو »[2] .

وهناك « ديودور الصقلي » (من القرن الأول الميلادي) ، وقد كتب مؤلفه في « التاريخ العام » (General History) في أربعين جزءاً ، لم يبق منها سوى خمسة عشر جزءاً ، تعرض فيها لتاريخ الفترة ما بين عامي ٤٨٠ ، ٣٢٣ق.م[3] .

وأما « سترابو » (٦٦–٢٤ ق.م) فهو من مواطني « بونتس » ويتحدث اليونانية ، وقد عاش في الاسكندرية لبضع سنوات ، وقد صحب صديقه الوالي الروماني « إليوس جالليوس » في حملته على بلاد العرب عام ٢٤ ق.م ، وأما كتابه عن بلاد العرب ، فيتضمنه الكتاب السادس عشر من مؤلفه (Geographica)[4] وقد وصف فيه مدائن العرب وقبائلهم على أيامه ، كما قدم لنا وصفاً شيقاً عن الأحوال الاجتماعية والتجارية وقت ذاك ، والأمر كذلك بالنسبة إلى حملة « إليوس جالليوس » — الآنفة الذكر — حيث قدم لنا وصف شاهد عيان لها ، فضلاً عن معلومات جديدة

---

(١) أنظر : The History of Herodotus, Translated by G. Rawlinson, in 2 Vols., London, 1920.
وكذا A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964, P. 3.

(٢) جواد علي ٥٧/١ .

(٣) جواد علي : ٥٨/١ .

(٤) أنظر : The Geography of Strabo, Translated by Hamilton, London, 1912.
وكذا : The Geography of Strabo, Translated by H.L. Jones, London, 1949.

عن بلاد العرب التي مرت بها الحملة ، وأخيراً فعلينا أن نسجل أن « سترابو » كان كاتباً مرحاً لا تعوزه المهارة[1] .

وأما « أجاثارخيدس السفودي » – الجغرافي المؤرخ من القرن الثاني قبل الميلاد – فهو لم يستطع أن يتجنب الاستعانة « بهيرودوت » على نطاق واسع ، وإن انساق وراء جمهرة نقاده[2] ، وأما موســـوعة (Historia Naturalis) لـ « بليني الأكبر » (٣٢–٧٩ ق.م) ، فتجميع ضخم لقدامى المؤلفين ، وقد نالت بلاد العرب والشرق نصيباً من اهتمامه[3] وهناك مؤرخ يوناني مجهول ، وضع كتاباً سماه « الطواف حول البحر الأرتيري » وصف فيه رحلته في البحر الأحمر وسواحل بلاد العرب الجنوبية ، وقد اختلف الباحثون في التأريخ لهذا الكتاب ، فهو قد كتب في الفترة (٥٠–٦٠م)[4] على رأي ، وفي حوالي عام ٧٥م على رأي آخر ،[5] وفي عام ٨٠م على رأي ثالث[6] ، وفي حوالي عام ١٠٦م على رأي رابع ، وفي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي على رأي خامس[7] .

وأخيراً هناك « كلوديوس بتولمايوس » الذي أخرج كتابه في الجغرافية حوالي عام ١٥٠ م ، والمعروف باسم « جغرافية بطليموس » وقد جمع فيه بتولمايوس (١٣٨–١٦٥م) معلومات كثيرة عن بلاد العرب ، فقسم الأقاليم حسب درجات الطول والعرض ، كما زينه بخرائط تصور وجهة نظر العلم إلى العالم في عصره ، ويشير العلماء إلى أن معلوماته عن حضرموت تشير إلى أن مصدره – ولعله تاجراً أو مبعوثاً

---

(١) جواد علي ١/٥٨–٥٩ وكذا A. Gardiner, op. cit., P. 6-7.
وكذا Delacy O'leary, Arabia before Muhammed, P. 75,

(٢) A. Gardiner, op. cit., p. 5.

(٣) Ibid., p. 7.

(٤) فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٥٤ .

(٥) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ٣٧٨ .

(٦) W.F. Albright, in BASOR, 176, 1964, p. 51.

(٧) جواد علي ١/٥٩ وكذا
J. Pirenne, Le Royaume Sud-Arabe de Qataban et Sa Datation, P. 167-193.
وكذا J. Pirenne, La Date du Periple de la Mer Erythree, JA, 1961, p. 441.

رومانيا – ربما قد أقام فترة في « شبوة » ؛ ذلك لأن وصف « بتولمايوس » للأودية وللأماكن هناك يشير إلى معرفة بها ، والأمر جد مختلف بالنسبة إلى « سبأ » التي لم تكن معلوماته ، عنها تتفق ومستوى معلوماته عن حضرموت[1] .

ثالثاً : الكتابات المسيحية :

وترجع أهمية هذه الكتابات إلى أنها تؤرخ لانتشار المسيحية في بلاد العرب ، وللقبائل العربية نفسها ، فضلاً عن علاقة العرب بالفرس واليونان ، كما أنها تربط الأحداث بالمجامع الكنسية وبتاريخ القديسين ، ومن ثم فقد حصلنا على تواريخ ثابتة ، الأمر الذي افتقدناه إلى حد كبير في المصادر السابقة ، على أنه يجب أن نلاحظ أن هذه الكتابات دينية ، أكثر منها تاريخية ، ومن هنا فقد غلبت عليها الصبغة النصرانية[2] .

ولعل من أشهر هذه الكتابات مؤلفات « يوسبيوس » (٢٦٤–٣٤٩م) والذي كان واحداً من آباء الكنيسة البارزين في عصره ، وأول مؤرخ كنسي يعتد به ، حتى لقب « بأبي التاريخ الكنسي » وبـ « هيرودوت النصارى[3] » ، وقد ولد في فلسطين ، وربما في قيصرية التي كان أسقفاً لها ، وقد ساعدته صلاته بالإمبراطور قسطنطين (٣٠٦–٣٣٧م) وبرؤساء الكنيسة وكبار رجال الدولة إلى أن يعرف الكثير من الأسرار ، وإلى أن يطلع على المخطوطات والوثائق الثمينة ، ومن ثم فقد أفاد منها فائدة كبيرة في مؤلفاته التاريخية[4] .

وهناك كذلك « بروكبيوس » (المتوفي عام ٥٦٣م) ، والذي يعد المؤرخ الكنسي لعصر جستنيان (٥٢٧–٥٦٥م) المليء بالأحداث ومما يجعل مادته التاريخية

---

(١) جواد علي : المرجع السابق ص ٦٠ وكذا A. Gardiner, op. cit., P. 7-8 وكذا Le Museon, 1964, P. 466

(٢) جواد علي ٦١/١ .

(٣) جواد علي ٦١/١ وكذا W. Smith, A Dictionary of the Bible, III, p.107.

(٤) فيليب حتي : المرجع السابق ص ٢٩٧ ، يوسبيوس القيصري : تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داود ، القاهرة ١٩٦٠ .

موضع ثقة أن بعضها مستقى من المرويات الشفهية ، وأغلبها نتيجة معلوماته الشخصية ، فقد عين في عام ٢٦٧م سكرتيرا خاصا ومستشارا قانونيا للقائد الروماني «بليساريوس» وصحبه في حملاته في آسيا وافريقية وإيطاليا ، كما عين عضوا في مجلس الشيوخ الروماني وقد تحدث في كتابه « تاريخ الحروب » عن المعارك التي دارت بين الغساسنة واللخميين ، فضلاً عن غزو الأحباش لليمن في الجاهلية[١] .

وهناك كتاب نشره المستشرق « كارل موللر » لمؤلف مجهول ، واسمه (Glaucus) يبحث في آثار بلاد العرب[٢] ، هذا بالإضافة إلى ما جاء بشأن العرب في المخطوطات السريانية المحفوظة في المتحف البريطاني[٣] ، فضلا عن كتابات المؤرخين النصارى – من روم وسريان – والذين عاشوا على أيام الأمويين والعباسيين – وقد كتبوا عن العرب في الجاهلية والإسلام فأمدونا بمعلومات لا نجدها في المصادر الإسلامية ، وبخاصة عن انتشار المسيحية في بلاد العرب ، وعن علاقة الروم بالعرب والفرس[٤] .

ثالثاً : المصادر العربية

(١) القرآن الكريم :

القرآن الكريم كتاب الله[٥] ، الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[٦] » ، نزل على مولانا وسيدنا رسول الله – صلوات الله

(١) عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الأول ص ٣٨ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣٩٧-٣٩٨ .

(٢) جواد علي ١/٦٥ وكذا
Glaucus, Archaeologi Araabica, by Carl Muller, in FHG,4, Paris, 1851, p. 409.

(٣) W. Wright, Catalogue of the Syriac Manuscripts in the British Musaum, 3, Vol, 1870-72.

(٤) جواد علي ١/٦٤-٦٥ .

(٥) قدم المؤلف دراسة مفصلة في فصل مطول عن « القرآن الكريم » في كتابه « دراسات في التاريخ القرآني » – الجزء الأول – (الفصل الأول).

(٦) سورة فصلت : آية ٤٢ وانظر : تفسير الكشاف ٤/٢٠١-٢٠٢ ؛ تفسير مجمع البيان ٢٤/٢٤-٢٦ ، تفسير روح المعاني ١٤/١٢٧-١٢٨ ، تفسير الفخر الرازي ٢٦/١٣١ ، وتفسير النسفي ٤/٢٨٠.

وسلامه عليه — منجماً في ثلاث وعشرين سنة[1] ، حسب الحوادث ومقتضى الحال[2] ، وكانت الآيات والسور تدون ساعة نزولها ، إذ كان المصطفى — صلى الله عليه وسلم — إذا ما نزلت عليه آية أو آيات قال : « ضعوها في مكان كذا . . . من سورة كذا » ، فقد ورد أن جبريل — عليه السلام — كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي ، فيقول له : يا محمد : إن الله يأمرك أن تضعها على رأس كذا من سورة كذا » ، ولهذا اتفق العلماء على أن جمع القرآن « توقيفي » بمعنى أن ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف ، إنما هو بأمر ووحي من الله[3] » .

وهكذا تمر الأيام بالرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — وهو على هذا العهد ، يأتيه الوحي نجماً بعد نجم ، كُتَّاب الوحي يسجلونه آية بعد آية ، حتى إذا ما كمل التنزيل ، وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى ، كان القرآن كله مسجلاً في صحف ، — وإن كانت مفرقة لم يكونوا قد جمعوها فيما بين الدفتين ، ولم يلزموا القراء توالي سورها — وكذا في صدور الحفاظ من الصحابة ، رضوان الله عليهم[4] ، هؤلاء الصفوة من أمة محمد النبي المختار ، والذين كانوا يتسابقون إلى تلاوة القرآن ومدارسته ، ويبذلون قصارى جهدهم لاستظهاره وحفظه ، ويعلمونه أولادهم وزوجاتهم في البيوت .

ومن هنا كان حفاظ القرآن الكريم في حياة الرسول — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — لا يحصون ، وتلك — ويم الله — عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن

---

(١) قارن : صحيح البخاري .

(٢) نزل القرآن منجماً فيما بين عامي ١٣ ق.هـ ، ١١ هـ (٦١٠–٦٣٢م) ، أنظر في ذلك : محمد أبو زهرة: القرآن ص ٢٣–٢٤ ، محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ، الكويت ١٩٧٤ ص ٣٣ .

(٣) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٤٨/١ ، ٦٣ ، الزركشي : البرهان في علوم القرآن ص ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، السجستاني : كتاب المصاحف ص ٣١ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦–٣٢ ، ٤٠–٤١ ، ٥٨ ، تفسير القرطبي ٦٠/١ ، الصابوني : التبيان في علوم القرآن ص ٥٩ ، محمد أبو زهرة : القرآن ص ٢٧ ، ٤٧–٤٩ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ص ٢٣٥ ، الإتقان في علوم القرآن ٥٩/١ ، مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ ، مقدمة كتاب المصاحف لآرثر جفري ص ٥ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٩–٥٠ .

العظيم ، حين يسره للحفظ ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »[1] ، فكتب له الخلود وحماه من التحريف والتبديل ، وصانه من أن يتطرق الضياع إلى شيء منه ، عن طريق حفظه في السطور ، وحفظه في الصدور[2] ، مصداقاً لقوله تعالى : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[3] » ، وقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[4] » ، وقوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه »[5] .

وليس هناك من شك في أن القرآن الكريم ، كمصدر تاريخي ، أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق ، فهو موثوق السند — كما بيّنا آنفاً — ثم هو قبل ذلك وبعده كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه[6] بحال من الأحوال ، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل ، فقد دوّن في البداية بإملاء الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتُلّي فيما بعد أمامه وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته[7] ، ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تلتبس بشيء من الخيال ، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع[8] ، ثم إن الله — سبحانه وتعالى — قد تعهد — كما أشرنا آنفاً — بحفظه دون تحريف أو تبديل ، ومن ثم فلم

---

(1) سورة القمر : آية ٣٢ .

(2) أنظر : محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ، الكويت ١٩٧٠ ص ١٢-١٤ .

(3) سورة فصلت : آية ٤١-٤٢ ، وانظر : تفسير روح المعاني ٢٤/١٢٧-١٢٨ ، تفسير القرطبي ١٥/٣٦٦-٣٦٧ (دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧) ، تفسير الطبري ٢٤/١٢٤-١٢٥ (طبعة الحلبي ، ١٩٥٤) ، تفسير البيضاوي ٢/٣٥٠ (طبعة الحلبي ، ١٩٦٨) .

(4) سورة الحجر : آية ٩ ، وانظر تفسير الطبري ١٤/٦-٨ (مطبعة بولاق ١٣٢٨هـ) ؛ تفسير النيسابورى ٢٤/٧-١٠ (نسخة علي هامش الطبرى) تفسير الكشاف ٢/٥٧٠ ،تفسير مجمع البيان ١٤/١١-١٤ تفسير روح المعاني ١٤/١٦ ، تفسير الفخر الرازى ١٩/١٥٨-١٥٩ ، تفسير النسفي ٣/١٤ ، تفسير الدر المنثور ٤/٩٤-٩٥ .

(5) سورة القيامة : آية ١٧-١٩ ، وانظر : تفسير الطبري ١/٩٥-٩٧ (طبعة دار المعارف — القاهرة ١٣٧٤هـ) ، تفسير البيضاوي ٢/٥٢٢-٥٢٣ ، تفسير الطبري ٢٩/١٨٧-١٩١ (طبعة الحلبي ١٩٥٤) .

(6) طه حسين : الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٦٨ .

(7) محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ٤٩ .

(8) عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٥٢ .

يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس ، فقال تعالى « والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » ، أي بما طلب إليهم حفظه[1] .

غير إني أودّ أن أنبه — بعد أن أستغفر الله العظيم كثيراً — إلى أن القرآن الكريم لم يُنزل كتاباً في التاريخ ، يتحدث عن أخبار الأمم ، كما يتحدث عنها المؤرخون ، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للتي هي أقوم ، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستورا للمسلمين ، ومنهاجا يسيرون عليه في حياتهم ، يدعوهم إلى التوحيد ، وإلى تهذيب النفوس ، وإلى وضع مبادىء للأخلاق ، وميزان للعدالة في الحكم ، واستنباط لبعض الأحكام ، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية ، فإنما للعبرة والعظة[2] .

إلا أن القرآن الكريم — مع ذلك — إنما يقدم لنا معلومات هامة عن عصور ما قبل الإسلام ، وأخبار دولها ، أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد ، كما أننا نجد في كتاب الله الكريم سورة كاملة تحمل إسم مملكة في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام — وأعني بها سورة سبأ — هذا إلى أن القرآن الكريم قد انفرد — دون غيره من الكتب السماوية — بذكر أقوام عربية بادت ، كقوم عاد[3] وثمود[4] ، فضلاً عن قصة أصحاب الكهف[5] وسيل العرم[6] ، وقصة أصحاب الأخدود[7] ، إلى

---

(1) محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ، نظرات جديدة في القرآن ص ١٢—١٤ .

(2) أنظر : عن أهداف القرآن ومقاصده : تفسير المنار ١/٢٠٦—٢٩٣ .

(3) أنظر : الأعراف : آية ٦٥ ، هود : آية ٥٠—٦٠ ، الشعراء : آية ١٢٣—١٤٠ ، وانظر الفصل السادس من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » .

(4) أنظر : الأعراف : آية ٧٣—٧٩ ، هود : آية ٦١—٦٨ ، الشعراء : آية ١٤١—١٥٩ ، وأنظر : الفصل السابع من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » .

(5) سورة الكهف : آية ٩—٢٦ .

(6) سورة سبأ : آية ١٥—١٩ ، وأنظر : كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » — الفصل التاسع — .

(7) سورة البروج : آية ٤—١٠ ، وأنظر : الفصل العاشر من كتابنا الآنف الذكر .

جانب قصة أصحاب الفيل[١] ، وهجرة الخليل وولده إسماعيل ، عليهما السلام ، إلى الأرض الطاهرة في الحجاز ، ثم إقامة إسماعيل هناك[٢] .

على أنه يجب علينا أن نلاحظ أنه رغم أن هدف القرآن من قصصه ، ليس التأريخ لهذا القصص ، وإنما عبراً تفرض الاستفادة بما حل بالسابقين ، ومع ذلك فيجب أن لا يغيب عن بالنا — دائماً وأبداً — أن هذا القصص ، إن هو إلا الحق الصراح ، وصدق الله العظيم حيث يقول « ومن أصدق من الله حديثاً »[٣] ، ويقول « إن هذا لهو القصص الحق »[٤] ويقول « نحن نقص عليك نبأهم بالحق »[٥] ، ويقول « والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق »[٦] ، ويقول « إنا نزلنا إليك الكتاب بالحق[٧] » ويقول « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون »[٨] .

(٢) الحديث :

الحديث هو ما ورد عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من قول أو فعل أو تقرير[٩] ، وللحديث مكانة كبرى في الدين تلي مرتبة القرآن الكريم مباشرة ، وصدق رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — حيث يقول « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي »[١٠] ، والحديث

---

(١) سورة الفيل ، وانظر الفصل الحادي عشر من كتابنا الآنف الذكر .
(٢) سورة البقرة : آية ١٢٤-١٣١ ، سورة ابراهيم : آية ٣٥-٤١ ، وانظر الفصل الرابع من كتابنا الآنف الذكر .
(٣) سورة النساء : آية ٨٧ .
(٤) سورة آل عمران : آية ٦٢ .
(٥) سورة الكهف : آية ١٣ .
(٦) سورة فاطر : آية ٣١ .
(٧) سورة الزمر : آية ٢ ، وانظر الآية ٤١ .
(٨) سورة الجاثية : آية ٦ ، وانظر : تفسير البيضاوي ٣٧٩/٢ ، تفسير الطبري ١٤١/٢٥ ، تفسير القرطبي ١٥٨/١٦ .
(٩) أنظر : تعريفات أخرى : مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : القاهرة ١٩٦١ ص ٥٩-٦٠ .
(١٠) الحديث رواه أصحاب السنن .

الشريف مفسر للقرآن الكريم ، ذلك أن كثيراً من آيات الذكر الحكيم مجملة أو مطلقة أو عامة ، فجاء رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فبيّنها أو قيدها أو خصصها[1] ، قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »[2] ، وقال تعالى « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم »[3] ، ومن هنا كان الحديث الشريف هو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية ، ثم هو أصدق المصادر التاريخية — بعد القرآن الكريم — لمعرفة التاريخ العربي القديم في عصوره القريبة من الإسلام بالذات[4] .

وليس من شك في أن كتب الحديث[5] وشروحها — رغم أنها مصدر فقهي أكثر منه تاريخي[6] — مورد غني من الموارد الأساسية لتدوين أخبار الجاهلية فيما قبيل الإسلام ، على أن الغريب من الأمر أن مؤرخي تلك الفترة قد تجاهلوا هذا المنهل الغزير ، وبخاصة فيما يتصل بتاريخ عرب الحجاز ، إلى حد كبير ، ومن ثم فقد خسروا واحداً من أهم وأصدق مصادر التاريخ العربي القديم .

(٣) التفسير :

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، وعلى أساليب العرب وكلامهم[7] ، يقول تعالى: « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون »[8] ، وهذا أمر طبيعي لأنه أتى يدعو العرب

---

(١) فتاوي الإمام ابن تيمية ٤٤٣/١٥ ، ١٩/١٣ ، ٤٣١/١٧-٤٣٢ .

(٢) سورة النحل : آية ٤٤ .

(٣) سورة الشورى : آية ٥٢ ، وانظر : تفسير الطبري ٤٦/٢٥-٤٧ ، تفسير القرطبي ٥٤/١٦-٦٠ ، تفسير البيضاوي ٣٦٢/٢ .

(٤) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن الحديث في الفصل الثاني من كتابه « دراسات في التاريخ القرآني » .

(٥) أشهر مجاميع الحديث : موطأ الإمام مالك (م ١٧٩/٧٩٥) ومسند الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) وسنن الدرامي (م ٢٥٥هـ) وصحيح البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ) وصحيح مسلم (٢٠٤-٢٦٨هـ) وسنن أبي داود (٢٠٢-٢٧٥هـ) وسنن الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ) وسنن النسائي (٢١٥-٣٠٣هـ) وسنن ابن ماجه (٢٠٩-٢٧٣ أو ٢٧٥هـ) .

(٦) R. Blachere, Le Probleme de Mahomet, Paris, 1952, p. 7.

(٧) أنظر : ابن قتيبة : تأويل مشكلات القرآن ص ٦٢ .

(٨) سورة يوسف : آية ٢ ، وانظر : الزمر : آية ٢٨ ، والزخرف : آية ٣ ، والشعراء : آية ١٩٢-١٩٥ ، والرعد : آية ٣٧ ، والنحل : آية ١٠٢-١٠٣ ، وفصلت : آية ١-٣ ، ٤٤ ، والشورى : آية ٧ ، والأحقاف : آية ١٢ .

– بادىء ذى بدء – ثم الناس كافة ، إلى الإسلام ، ومن ثم فلا بد أن يكون بلغة يفهمونها[1] ، تصديقاً لقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[2] .

ورغم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي ، وفي بيئة عربية كانت تفاخر من نواحي الحضارة بفن القول ، فإنه لم يكن كله في متناول الصحابة جميعاً ، يستطيعون أن يفهموه – إجمالاً وتفصيلاً – بمجرد أن يسمعوه ، لأن العرب – كما يقول ابن قتيبة[3] – لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل في ذلك على بعض .

إلا أن هذا لا يمنعنا من القول بأن الصحابة على العموم كانوا أقدر الناس على فهم القرآن ، لأنه نزل بلغتهم ، ولأنهم شاهدوا الظروف التي نزل فيها ، ومع ذلك فقد اختلفوا في الفهم حسب اختلافهم في أدوات الفهم ، وذلك لأسباب ، منها (أولاً) أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم ، وإن كانت العربية لغتهم ، ومنها (ثانياً) أن منهم من كان يلازم النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – ويقيم بجانبه ، ويشاهد الأسباب التي دعت إلى نزول الآية ، ومنهم من ليس كذلك ، ومنها (ثالثاً) إختلافهم في معرفة عادات العرب في أقوالهم وأفعالهم ، فمن عرف عادات العرب في الحج في الجاهلية ، استطاع أن يعرف آيات الحج في القرآن الكريم ، أكثر من غيره ممن لم يعرف[4] .

وهكذا نشأ علم التفسير لفهم القرآن وتدبره ، ولتبيان ما أوجز فيه ، أو ما أشير إليه إشارات غامضة ، أو لما غمض علينا من تشابيهه واستعاراته ، وألفاظه أو لشرح أحكامه[5] ، وقد نشأ علم التفسير هذا في عصر الرسول – صلى الله عليه

---

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «التفسير» في الفصل الثالث من كتابه «دراسات في التاريخ القرآني» .
(٢) سورة إبراهيم : آية ٤وانظر : تفسير الطبري ٥١٦/١٦–٥١٧ (دار المعارف القاهرة ١٩٦٩) .
(٣) ابن قتيبة : رسالة في المسائل والأجوبة ص ٨ ، ثم قارن : مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٦ .
(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٩٧–١٩٨ .
(٥) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ١٦ ، وانظر : البرهان في علوم القرآن ١٣/٢ .

وعلى آله وسلم — فكان النبي أول المفسرين له ، ثم تابعه أصحابه من بعده[1] ، على أساس أنهم الواقفون على أسراره ، المهتدون بهدى النبي — عليه الصلاة والسلام[2] — ولعل أشهر المفسرين من الصحابة الإمام علي — كرم الله وجهه ورضي الله عنه — وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن مسعود[3] .

وفي عصر التابعين تضخم التفسير بالإسرائيليات والنصرانيات ، لسبب أو لآخر[4] مما دفع الإمام أحمد بن حنبل إلى أن يقول كلمته المشهورة « ثلاثة ليس لها أصل ، التفسير والملاحم والمغازي » أي ليس لها إسناد ، لأن الغالب عليها المراسيل[5] ، وإلى أن يقول الإمام ابن تيمية « والموضوعات في كتب التفسير كثيرة »[6] .

ومع ذلك ، ورغم هذه الشوائب ، فالذي لا شك فيه أن كتب التفسير تحتوي على ثروة تاريخية قيمة ، تفيد المؤرخ في تدوين التاريخ العربي القديم ، وتشرح ما جاء مجملاً في القرآن العظيم ، وتبسط ما كان عالقاً بأذهان الناس عن الأيام التي سبقت عصر الإسلام ، وتحكي ما سمعوه عن القبائل العربية البائدة ، التي ذكرت على وجه الإجمال في القرآن الكريم ، وما ورد عندهم من أحكام وآراء ومعتقدات[7] .

---

(١) فتاوي الإمام ابن تيمية : ٣٣١/١٣–٣٣٣ .

(٢) راجع شروط المفسر وآدابه (الإتقان في علوم القرآن ١٧٥/٢–١٨٧ ، تفسير المنار ١٧/١–٢٦ ، التبيان في علوم القرآن ص ١٧٧–١٨١) .

(٣) أنظر عن أشهر المفسرين من الصحابة (كشف الظنون ١٧٨/١ ، الإتقان ١٨٧/٢–١٨٩ ، فتاوي ابن تيمية ٣٦٤/١٣–٣٦٦ ، ٤٠٢/١٧ ، فجر الإسلام ص ٢٠٢–٢٠٤) .

(٤) أنظر عن الإسرائيليات في التفسير : كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » — الفصل الثالث — ، محمد السيد الذهبي : الإسرائيليات في التفسير والحديث ، التفسير والمفسرون .

(٥) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ١٤ (طبعة دمشق) ، تفسير المنار ٨/١ ، وانظر : الأسرار المرفوعة ص ٣٣٩ كشف الخفاء ٤٠٢/٢ ، المقاصد الحسنة ص ٤٨١ ، تمييز الطيب من الخبيث ص ١٩٨ .

(٦) ابن تيمية : المرجع السابق ص ١٩ .

(٧) لعل أشهر كتب التفسير إنما هي : تفسير الطبري وتفسير الثعلبي وتفسير المرتضى وتفسير المشكاة وتفسير البغوي وتفسير الزمخشري وتفسير الطبرسي وتفسير ابن العربي وتفسير ابن عطية وتفسير الرازي وتفسير القرطبي وتفسير النسفي وتفسير النيسابوري وتفسير الخازن وتفسير أبي حيان =

(٤) كتب السير والمغازي :

وتعتبر هذه الكتب من المصادر المساعدة في التاريخ العربي القديم ، ذلك لأن كتاب السير والمغازي إنما كانوا يعرضون لذكر العرب الجاهليين والأنبياء السابقين ، ويفصلون القول في نسب الرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — وفي أخبار مكة وقريش ، ومن يتصل بهما من أفراد وقبائل ، كما كانت هذه الكتب تشتمل على الكثير من الشعر الجاهلي الذي كان يستخدمه كتاب السير والمغازي في الإستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون عنه[١] .

ولعل أشهر كتب سيرة مولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — هو كتاب ابن هشام ، وهو أول كتاب عربي وصل إلينا يؤرخ لسيرة نبي الإسلام الأعظم — وكذا لتاريخ العرب قبل الإسلام — وقد اعتمد صاحبه (أبو محمد عبد الملك بن هشام ، المتوفي ٢١٣/٨٢٨ أو ٢١٨/٨٣٤) ، على الرواية الشفوية ، فضلاً عن كتب ضاعت ، لعل أهمها كتاب « ابن إسحاق » (م ١٥٠/ ١٥١ ، ٧٦٧/٧٦٨) ، الذي كان أول من ألف في سيرة النبي — صلى الله عليه وسلم — بناء على طلب الخليفة العباسي المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥ م) ، — واستحق بذلك تسمية ابن خلدون له « بالأستاذ » ، إلا أن هناك من سبقه في التأليف في المغازي ، من أمثال « عروة بن الزبير » (م ٩٤/٧١٢) و « إبان بن عثمان بن عفان » و « ابن شهاب الزهري » (م ١٢٤/٧٤٢) و « شرحبيل بن سعد » ، وهناك كذالك

= وتفسير ابن كثير وتفسير البيضاوي وتفسير الجواهر وتفسير السيوطي وتفسير الجلالين وتفسير أبي السعود وتفسير الألوسي وتفسير القاسمي وتفسير المنار وتفسير وجدي وتفسير المراغي وتفسير سيد قطب ؛ ولعل أشهر كتب التفسير التي روت كثيراً من الإسرائيليات إنما هي : تفسير مقاتل بن سليمان والطبري والثعلبي والخازن ، وأما التي تحرجت عن التوسع فيها فأشهرها : تفسير ابن كثير والألوسي ومحمد رشيد رضا .

(١) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٢٢—٢٥ ، سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٨—٢٩ ، الفهرست لابن النديم ص ٩٨—٩٩ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٤١١/١—٤١٢ ، ٧٢٢—٧٢٣ .

الواقدي (١٣٠/٧٤٧–٢٠٦/٨٢١ أو ٢٠٧/٨٢٣) ومحمد بن سعد ، صاحب « الطبقات الكبرى » (م ٢٣٠/٨٤٥) ، والذي أخذ كثيراً عن الواقدي حتى كان يسمى أحياناً بكاتب الواقدي .

(٥) الأدب الجاهلي :

ليس هناك من شك في أن أيام العرب في الجاهلية تعتبر مصدراً خصباً من مصادر التاريخ ، وينبوعاً صافياً من ينابيع الأدب ونوعاً طريفاً من أنواع القصص ، بما اشتملت عليه من الوقائع والأحداث ، وما روى في أثنائها من شعر ونثر وما اشتملت عليه من مأثور الحكم وبارع الحيل ، ومصطفى القول ، ورائع الكلام ، فهي توضح شيئاً من الصلات التي كانت قائمة بين العرب وغيرهم من الأمم كالفرس والروم ، وتروى كثيراً مما كان يقع بين العرب أنفسهم من خلاف ، بل إنها سبيل لفهم ما وقع بين العرب بعد الإسلام من حروب شجرت بين القبائل ، ووقائع كانت بين البطون والأفخاذ والعشائر .

ثم هي في أسلوبها القصصي وبيانها الفني مرآة صادقة لأحوال العرب وعاداتهم وأسلوب حياتهم ، وشأنهم في الحرب والسلم ، والاجتماع والفرقة ، والفداء والأسر ، والنجعة والاستقرار ، وهي أيضاً مرآة صافية تظهر فيها فضائلهم وشيمهم ، كالدفاع عن الحريم والوفاء بالعهد ، والانتصار للعشيرة وحماية الجار ، والصبر في القتال والصدق عند اللقاء ، وغير هذا مما نراه واضحاً في تلك الأيام[١] .

ولو نظرت إلى الشعر الجاهلي في جملته وتفصيله ، وبخاصة ما كان في الفخر والحماسة ، والرثاء والهجاء ، فإنك تجده قد ارتبط بتلك الأيام ، فبينما كان الفوارس يناضلون بسيوفهم ورماحهم ، ويجودون بنفوسهم رخيصة في سبيل أقوامهم ، كان

---

(١) محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم : أيام العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٤٢ ص ط–ى .

الشعراء من ورائهم يدفعون عن الأحساب بقصيدهم ، ويطلقون ألسنتهم في خصومهم وأعدائهم ، ويندبون بقوافيهم صرعاهم ، والقتلى من أشرافهم وزعمائهم .

ترى ذلك في شعر الأعشى وعنترة وابن حلزة وعامر بن الطفيل وقيس بن الأسلت وقيس بن الحطيم وعبد يغوث ومهلهل بن ربيعة والخنساء وصخر ومعاوية إبني عمرو وحسان بن ثابت ، وغيرهم ممن ظهر أثر الأيام في شعرهم من قريب أو بعيد[1] .

والشعر الجاهلي دون شك مصدر من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام ، وقديماً قالوا « إن الشعر ديوان العرب » يعنون بذلك أنه سجل سجلت فيه أخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وعقليتهم ، وإن شئت فقل إنهم سجلوا فيه أنفسهم ، كما نستطيع أن نستدل به على شبه جزيرة العرب ، وما فيها من بلاد وجبال ووديان وسهول ونبات وحيوان ، فضلاً عن عقيدة القوم في الجن وفي الأصنام وفي الخرافات[2] .

وهكذا يروي إبن سيرين عن الفاروق عمر بن الخطاب — رضي الله عنه وأرضاه — قوله « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »[3] وقريب من هذا ما يروى عن « عكرمة » — تلميذ إبن عباس ومولاه — أنه ما سمع إبن عباس يفسر آية من كتاب الله عز وجل ، إلا ونزع فيها بيتاً من الشعر ، وأنه كان يقول : إذ أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ، به حفظت الأنساب ، وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وغريب حديث صحابته والتابعين[4] .

---

(١) نفس المرجع السابق .
(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٥٧ .
(٣) محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، القاهرة ١٩٥٢ ص ١٠ .
(٤) جواد علي ١/٦٧–٦٨ ، ٨/٦٦٣ ، المزهر في علوم اللغة ٢/٣٠٢ ، ٤٧٠ ، الإتقان في علوم القرآن ٢/٥٥ ، شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ١/٣ .

ومن ثم فقد أصبحت كتب الأدب من المصادر الهامة في التاريخ العربي القديم : ففيها ثروة أدبية قيمة ، قد لا نجد لها مثيلاً في كتب التاريخ ، وإن ما جاء بها عن ملوك الحيرة والغساسنة وكندة ، أكثر مما جاء في كتب التاريخ ، بل هو أحسن منه عرضاً وصفاء ، وأكثر منه دقة ، ويدل عرضه بالأسلوب الأدبي المعروف على أنه مستمد من موارد عربية خالصة ، لم يعكر صفوها شوائب من إسرائيليات ونصرانيات ، فضلاً عن أنه قد أخذ من أفواه شهود عيان ، شهدوا ما تحدثوا عنه ، بل نستطيع أن نذهب بعيداً ، فنقول أن كثيراً من الأخبار ماتت لموت الشعر الذي قيل في مناسبتها ، في أن حين أخباراً خلقت خلقاً لأن ما قيل فيها من شعر كان سبباً في بقائها ، ومن ثم فقد أصبح الشعر سبباً في تخليد الأخبار ، لسهولة حفظه ، ولاضطرار رواته إلى قص المناسبة التي قيل فيها[1] .

على أن للأدب – كمصدر تاريخي – عيوباً ، منها (أولاً) أنه لا يرجع إلى أكثر من عصر الجاهلية ، وهو جزء من عصر ما قبل الإسلام ، يقدر له زمناً يتراوح بين قرن ونصف ، وقرنين ونصف قبل ظهور الإسلام مباشرة ، بينما يقدر العلماء لعصور ما قبل الاسلام مدة ربما تتجاوز العشرين قرناً ، تمتد من حوالي ١٥٠٠ق.م ، إلى عام ٦١٠م[2] .

ومنها (ثانياً) أن أكثر ما روى لنا منه إنما قد عنى فيه بالمختارات أكبر عناية ، وهم في هذا ينظرون إليها نظرة الأديب ، لا نظرة المؤرخ ، فالقصيدة التي لم يُحكم نسجها ، ولم تهذب ألفاظها ، ولم يصح وزنها ، قد يُعجب بها المؤرخ أكثر من إعجابه بالقصيدة الكاملة من جميع نواحيها ، ويرى فيها دلالة على الحياة العقلية ، أكثر من قصيدة راقية[3] ، ومنها (ثالثاً) أن الشعر الجاهلي لا يتحدث عن التاريخ السياسي ، بقدر ما يتحدث عن التاريخ الديني والاجتماعي .

---

(١) جواد علي ١/٧١ ، ٧٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تاريخ ص ٤٨٤ ، وانظر : سعد زغلول : المرجع السابق ص ٣١ .

(٢) محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ ص ٩ .

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٥٧ .

ومنها (رابعاً) أن الشعر الجاهلي قد تعرض للضياع بتركه يتناقل على ألسنة الرواة شفاها نحو قرنين من الزمان ، إلى أن دوّن في تاريخ متأخر[1] ، حتى أن « أبا عمرو إبن العلا » يقول : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[2] .

ومنها (خامساً) أن معظم ما وصلنا من الشعر الجاهلي ، إنما كان من عمل البدو ، وليس من عمل الحضر ، ومن ثم فهو يمثل البادية أكثر ما يمثل الحاضرة[3] ، ومنها (سادساً) أن هناك مجالاً للظن — على خلاف الشائع — أن العلماء قد خففوا — — مدفوعين بالعامل الديني — من الطابع الوثني في بعض القصائد ، كما أن الإفراط في الحرص على صحة اللغة وصفائها في أوساط البصرة قد أدى إلى إجراء بعض التصحيحات في الآثار المروية[4] .

ومنها (سابعاً) أنه حتى هذا الشعر القليل الذي وصل إلينا توجه إليه سهام الريب من كل جانب ، وليس بالوسع القول بأنه يرقى إلى ما فوق مظان الشبهات ، ذلك أن كثيراً من الرواة قد تجرأ عليه بالنحل ، إما بنقل شيء من قائل إلى قائل ، وأما بوضع شيء منه على ألسنة الشعراء[5] .

ذلك أنه في عام ١٨٦٤م تناول « تيودور نولدكه » الموضوع لأول مرة ، مشيراً إلى الشكوك التي يثيرها مظهر الشعر الجاهلي ، وفي عام ١٨٧٢م عاد « اهلوارد » إلى الموضوع مرة أخرى ، دون تجديد فيه ، وإن عرضه بدقة لم يتوصل إليها سلفه ، خرج منها إلى أن عدداً قليلاً من القصائد هو الصحيح ، وأما غالبيتها فالشك فيها محتوم لا مناص منه ، ثم جاء بعد ذلك « موير » و « باسيه » و « ليال » و « بروكلمان»

---

(١) طه حسين : المرجع السابق ص ٦٤ .
(٢) محمد بن سلام الجمحي : المرجع السابق ص ١٠ .
(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٣٥ ، القرشي : جمهرة أشعار العرب ص ٣٤ .
(٤) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٥٦ ص ١٣٥ .
(٥) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ١٨ .

فوافقوا على آراء « نولدكه » و « إهلوارد » ، وإن زاد الشك كثيراً عن « كليمان هوارت »[1] .

وفي عام ١٩٢٥م ، جاء « مرجليوث » وأصدر بحثاً له تحت عنوان « أصول الشعر العربي » ، رجح فيه أن هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي ، إنما هو من نتاج العصور الإسلامية ، ثم نحله الوضاعون لشعراء جاهليين[2] ، وتابع « ليفي ديلا فيدا » مرجليوث في دعواه ، وذهب إلى أن العرب حينما نسوا في القرن الثاني والثالث بعد الهجرة ، ما كانوا يذكرونه عن التاريخ الجاهلي ، حاول اللغويون والأخباريون أن يملأوا الفجوات ، فزيفوا مالم يجدوه في الوثائق الحقيقية[3] ، ومن ثم فقد رأى هذا الفريق من المستشرقين أن الأدب التاريخي العربي ، ليس أوثق من القصص التاريخي ، وأن أكثر الشعر موضوع ، وبالتالي فليس من المستطاع إتخاذهما أساساً نبني عليه فهماً صحيحاً لما كان يحدث في بلاد العرب في العصر الجاهلي[4] .

وأما الأدباء العرب ، فلعل أسبقهم في هذا المجال إنما هو « الرافعي » في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذي صدر في عام ١٩١١م ، ثم جاء الدكتور طه حسين ، وذهب إلى أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ، ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين[5] ، وأن هذا الشعر الذي ينسب إلى « إمرىء القيس » أو إلى « الأعشي » أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن

---

(١) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ١٧٦-١٧٧ ، وكذا
C. Huart, Une Nouvelle Source du Koran, JA, 1904, p. 142F.
وانظر كذلك : W. Muir, Ancient Arabic Poetry, JRAS, 1875.
وكذا C. Lyall, Translations of Ancient Arabia Poetry, Londres, 1885.

(٢) D.S. Margoliouth, The Origins of Arabic Poetry, JRAS, 1925, P. 417-449.

(٣) Giorgio Levi Della Vida, Pre-Islamic Arabia, The Arab History, New Jersy, 1944, P. 541-44.

(٤) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، بيروت ١٩٦٦ ص ٣٥٣ ، ٣٧٥ .

(٥) طه حسين : المرجع السابق ص ٧١-٧٢ .

أن يكون من الوجهة اللغوية والفنية لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل أو أذيع قبل نزول القرآن الكريم[1] .

وعلى أي حال . فإن قضية الشعر الجاهلي قضية معروفة في جميع كتب الأدب القديم ، وأن القدامى قد سبقوا المحدثين إلى القول بأن كثيراً من الشعر الجاهلي موضوع مختلق ، يروى « ابن الجمحي » أن أول من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها ، إنما هو « حماد الراوية » (م ١٥٥/٧٧٢) ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد في الأشعار[2] ، وأن تلميذه « خلف الأحمر » قد سار على منواله[3] ، وربما كان السبب فيما فعلاه — حماد[4] وخلف — حرص الأعاجم مثلهما ، على إظهار مقدرتهم أمام العرب في نظم قصائد ومقطوعات تفوق في إصالتها تلك التي ارتجلها الجاهليون ، وهكذا يبدو من صنيع الرجلين مبلغ الشك في عملية جمع النصوص الشعرية[5] .

على أن الأستاذ العقاد ، إنما ينكر التزييف تماماً ، ويرى أنه ما من قارىء للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية ، كما وصلت إلينا ، ويفلحون في ذلك التلفيق ، إذ معنى ذلك (أولاً) أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التي بلغها ، إمرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية ، ومعنى ذلك (ثانياً) أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والأعمار والملكات الأدبية ، فينظمون بمزاج الشاب طرفة ، ومزاج الشيخ زهير ، ومزاج العربيد الغزل إمرىء القيس ، ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد ، ويتحرون لكل واحد منا سباته النفسية والتاريخية ، ويجمعون

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢) محمد بن سلام الجمحي : المرجع السابق ص ١٤-١٥ ، المزهر ١٥٣/٢ ، ٤٠٦ ، الأغاني ٨٩/٥ ، ٢٨٣/٨ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ١١١-١١٤ .

(٣) بلاشير : المرجع السابق ص ١٥ ، المزهر ١٠٧/١ ، ١١٧ .

(٤) أنظر عن حماد الراوية : وفيات الأعيان ٢٠٦/٢-٢١٠ ، الأغاني ٦٧/٦ ، المعارف ص ٣٣٣ ، الشعر والشعراء ص ٢٠٦ ، تهذيب ابن عساكر ٤٢٧/٤ .

(٥) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ١١٦ .

له القصائد على نمط واحد في الديوان الذي ينسب إليه ، ومعنى ذلك (ثالثاً) أن هذه القدرة توجد عند الرواة ، ولا توجد عند أحد من الشعراء ، ثم يفرط الرواة في سمعتها ، وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان ، فضلاً عن إساغته بغير برهان ، ولغير سبب ، إلا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين ، وأن تصديق النقائض الجاهلية جميعاً لأهون من تصديق هذه النقيضة التي يضيق بها الحس ، ويضيق بها الخيال[1] .

هذا فضلاً عن أن هناك إشارات إلى جمع قديم للشعر ، فهناك رواية حماد التي تذهب إلى أن ملك الحيرة « النعمان بن المنذر » قد أمر فنسخت له أشعار العرب ، وأن « المختار بن أبي عبيد الثقفي » قد اكتشفها في قصر النعمان[2] ، وأن « الفرزدق » كان يملك ديوان الشاعر « زهير بن أبي سلمى »[3] .

ومع ذلك ، فإن هناك وجهاً آخر للنظر ، وهو أن الشعر المزيف يصح أن يكون ممثلاً للحياة العقلية الجاهلية ، متى كان المزيّف عالماً بفنون الشعر ، خبيراً بأساليبه[4] ، ومن ثم فنحن نستطيع إذن أن نتقبل الشعر الجاهلي كله — الثابت والمشكوك فيه — على أنه من مصادر الحياة في الجاهلية ، لأن الذين وضعوا ذلك القدر من الشعر الجاهلي قد حرصوا على أن يقلدوا خصائص الجاهليين اللغوية والمعنوية واللفظية ، وهكذا يظل هذا الشعر المنحول يدل على ما يدل عليه الشعر الثابت ، من تصوير للحياة في بلاد العرب قبل الإسلام[5] .

(٦) كتب اللغة :

تعتبر كتب اللغة من مصادر الحياة في الجاهلية ، ذلك لأن اللغة العربية التي نكتب بها وننظم إنما هي من نتاج العصر الجاهلي ، فهي من أجل ذلك لا تزال تدل

---

(١) عباس العقاد : مطلع النور ص ٤٨–٤٩ .

(٢) المزهر ١/١٤٨–١٤٩ ، وكذا D.S. Margoliouth, o p. cit, p. 427.

(٣) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ١٠٥–١٠٦ ، الفهرست ص ٩١ .

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٥١ .

(٥) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ١٥ .

بمفرداتها على أوجه الحياة والحضارة الجاهلية ، هذا فضلاً عن أن القاموس العربي ليس للمفردات اللغوية فحسب ، بل هو في الحقيقة يجمع المفردات اللغوية والمعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والفنية ، ومن ثم فقد كانت كتب اللغة — ومعاجمها بصفة خاصة — مصادر مهمة للحياة في الجاهلية[1] .

وربما كان من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أنه ربما لم تظفر لغة من اللغات بما ظفرت به اللغة العربية من ثراء في المعاجم وتنوع في مناهجها وطرق تبويبها ، وأما قواميس العرب ، فلعل أهمها ، القاموس المحيط للفيروز أبادي ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للمرتضى الزبيدي ، والصحاح للجوهري[2] .

(٨) كتب التاريخ والجغرافية :

لعل من الأمور الغريبة أن المؤرخين الإسلاميين قد انصرفوا عن تدوين التاريخ الجاهلي — ولا سيما القديم منه — وحين فعلوا لم تكن كتاباتهم إلا مقدمات لتواريخهم المفصلة والدقيقة للعصر الإسلامي ، وحتى هذه المقدمات لم تكن مفصلة ولا دقيقة[3] ، ذلك لأنهم لم يعتمدوا فيها على سند مدون ، أو يأخذوها من نص مكتوب ، وإنما كان عمادهم في ذلك أفواه الرجال ، وهو أمر لا يمكن الإطمئنان إليه ، ذلك أن رواة الأخبار ، حتى إن كانوا بعيدين عن الميول والأهواء ، وحتى إن كانوا من أصحاب الملكات التي تستطيع التمييز بين الغث والسمين ، فإن للذاكرة آماداً لا تستطيع تجاوزها .

لقد تحدث أهل الأخبار عن عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وغيرهم من الأمم البائدة ، وتكلموا عن المباني القديمة وعن جن سليمان وأسلحته ، ورووا شعراً ونثراً نسبوه إلى الأمم المذكورة ، وإلى التبابعة ، بل نسبوا شعراً إلى آدم ، وزعموا

---

(١) عمر فروخ : المرجع السابق ص ١٦ .

(٢) راجع عن المعاجم : الدكتور عبد الستار الحلوجي : مدخل لدراسة المراجع ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٣٥-٤١ .

(٣) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ٥ .

أنه قاله حين حزن على ولده وأسف على فقده ، ونسبوا شعراً إلى إبليس ، قالوا أنه نظمه في الرد على شعر آدم المذكور ، وأنه أسمعه آدم بصوته دون أن يراه ، ورووا أشياء أخرى كثيرة من هذه القبيل يصعب تصديقها مما جعل تاريخهم – للأسف – أقرب إلى القصص الشعبي منه إلى التاريخ الصحيح[١] .

كان مؤرخوا العرب يعتمدون في تأريخهم للعصور السابقة على الأسلام على الأدب العربي وعلى بعض آثار اليمن ، حيث كان هناك من يزعم – صدقاً أو كذباً – أنه بمستطيع أن يقرأ خط المسند ، هذا إلى جانب اعتمادهم كذلك على بعض كتابات النصارى التي وجدت في الأديرة والكنائس في العراق والشام ، وعلى ما تلقفوه من أفواه اليهود في اليمن والحجاز وغيرها[٢] ، ومن أهم هذه الكتابات ، كتاب أخبار اليمن لعبيد بن شريه الجرهمي ، والذي كتب في أخريات أيام معاوية ابن أبي سفيان (٤١/٦٠هـ – ٦٦١/٦٨٠م) ، وكتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه (م ١١٠/٧٢٨) وكتاب الإكليل وصفه جزيرة العرب للهمداني (م ٣٤٠/٩٥١) وكتاب الأصنام لابن الكلبي (م ٢٠٤/٨١٩) ، وكتاب سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني[٣] ، وكتاب ملوك حمير وأقيال اليمن لنشوان إبن سعيد الحميري (م ٥٧٣هـ)[٤] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المتصفح لما كتبه ابن إسحاق (م ١٥٠/ ٧٦٧ أو ١٥١/٧٦٨) وابن هشام (م ٢١٣/٧٢٨ أو ٢١٨/٨٣٤) في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وابن قتيبة (م ٢٧٦/٨٨٩) في « المعارف وفي عيون الأخبار

---

(١) جواد علي ١/٧٣–٧٥ ، مروج الذهب ١/٣٦–٤٧ ، ٨٤–٨٣٤ ، ٢/٧٢ ، الأزرقي ١/١٣٤ ، ابن الأثير ١/٣٥٠–٣٥٣ ، ابن خلدون ٢/٥٤ ، ابن كثير ٢/١٦٦ ، اليعقوبي ٢/١٩٨ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٢٢ ، ١٣٤–١٣٥ ، ١٥١–١٥٢ .

(٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٥ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٥ .

(٣) أنظر : سعد زغلول : المرجع السابق ص ٣١–٤٨ .

(٤) أنظر مقدمة الكتاب التي كتبها : السيد علي بن اسماعيل المؤيد واسماعيل بن أحمد الجرافي ، في مطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٧٨هـ .

وفي الشعر والشعراء وفي الإمامة والسياسة[1] » ، والدينوري (م ٢٨٢/٨٩٥) في « الأخبار الطوال » ، واليعقوبي (م ٢٨٤/٨٩٧) في « التاريخ الكبير » والطبري (م ٣١٠/٩٢٣) في « تاريخ الرسل والملوك » ، وابن عبد ربه (م ٣٢٧/٩٣٩) في « العقد الفريد » . والمسعودي (م ٣٤٥/٩٥٦) في « مروج الذهب وفي التنبيه والاشراف وفي أخبار الزمان » و « ياقوت الحموي » (م ٦٢٦/١٢٢٩) في « معجم البلدان » وابن الأثير (م ٦٣٠/١٢٣٣) في « الكامل في التاريخ » ، وابن خلدون (م ٨١٨/١٤٠٦) في المقدمة وفي العبر وديوان المبتدأ والخبر » .

إن المتصفح لما كتبه هؤلاء العمد الأفاضل ، ليعجب للدقة والتحري الصحيح الذي عالجوا به تاريخ الإسلام في معظم الحالات ، بقدر ما يأسف على الإهمال والخلط الذي صحب كتاباتهم عن عصور ما قبل الإسلام[2] .

ولعل عذرهم في ذلك أن عصر الاكتشافات الحديثة الذي نعيشه الآن لم يكن قد بدأ بعد ، وأن الاعتماد في التأريخ لبلاد العرب قبل الإسلام إنما كان على ما جاء في التوراة ، وعلى الأدب العربي القديم ، كما أن الأخبار كانت — كما أشرنا من قبل — تتناقل على الألسنة بدون تدوين أو ضبط ، وأن الخط العربي كان في أول الأمر غير منقوط ، وكذا كانت الكتابة النبطية التي يرجح أن الخط العربي مشتق منها ومتطور عنها ، لا تعرف النقط والإعجام[3] .

---

(١) أنظر عن نسبة كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وظلال الشك التي تحوم حوله ، مقاله للأستاذ عبدالله عبد الرحيم عسيلان ، مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الثاني — الرياض ١٩٧٢ ص ٢٤٧—٢٥٧ .

(٢) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٥—٦ ، وفيات الأعيان ٤٥/١—٤٦ ، ٤١١—٤١٢ ، ٤٩٤—٤٩٥ ، ٦٥١ ، ٦٨٩—٨٩٠ ، الفهرست ص ٩٨—٩٩ ، ١٥٤ ، معجم الأدباء لياقوت الحموي ١٥٣/٥—١٥٤ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٢٢/١—٣٢ ، وكذا .

J. Sauvaget, Historiens Arabes, Paris, 1946.

وكذا D.S. Margsliouth, Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.

(٣) خليل يحيى تامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ص ٨٧ ، عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٩ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٨١ ، فيليب حتي : تاريخ العرب ١٠٨/١—١٠٩ ، عبد الصبور شاهين : تاريخ القرآن ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦١—٧٣ ، ثم قارن الروايات العربية : كتاب المصاحف للسجستاني ٤/١—٥ ، كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري=

وهكذا لم يكن عندهم ما يميز بين الباء والتاء والثاء ، أو بين الجيم والحاء والخاء ، أو بين السين والشين ، فكانوا مثلاً يكتبون « بلقيس » حروفاً بلا نقط ، فتقرأ « بلفيس أو بلقيس أو نلفيس أو بلفيش... الخ ، وقس عليه ما تختلف به قراءتها بنقل النقط واختلاف مواضعها ، فوقع بذلك التباس في قراءة الأسماء ، وظهر أثره في اختلاف المؤرخين والنسابين في أسماء الأشخاص والقبائل والأماكن[1] .

ولعل أهم ما في كتب الأخباريين من عيوب ، إنما هي (أولاً) تلك المبالغات — إن لم تقل الخرافات — التي أدخلها أهل الأغراض أو الطامعون ممن دخل في الاسلام من اليهود أو المجوس أو النصارى ، لأن العرب كانوا يستفتونهم فيما غمض عليهم ، فيفتونهم بما تعودوه في كتبهم من المبالغة في ضخامة الأجسام وطول الأعمار ، فكان العرب يصدقونهم في كثير مما يقولون لأنهم — كما يقول إبن اسحاق — أهل العلم الأول ، ولأن التوراة — والتلمود من بعدها — كانت تشتمل على كثير من قصص الأنبياء الكرام ، ولكن بإسهاب وتفصيل كثير[2] ، وهكذا تسربت الخرافات إلى كثير من كتب الإخباريين ، فمثلاً لما ذكر الله سبحانه وتعالى قصة عاد في القرآن الكريم ، فإنه يقول « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد[3] » . أدخل المفسرون في شرحها وتفسيرها

= ص ١-٢ ، الفهرست ص ١٢-١٣ حياة اللغة العربية لحفني ناصف ص ٣٤ ، ٥١ ، كتاب المحكم في نقط المصاحف ص ٢٦ (دمشق ١٩٦٠) ، فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٥٩ ، البرهان في علوم القرآن ٣٧٧/١ ، مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٣ ، صبح الأعشى ١٠/٣-١١ ، مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٣ .

(١) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٦ ، وانظر رواية أخرى تذهب إلى أن النقط والإعجام ، إنما كانا معروفين لدى كتاب العرب في الجاهلية (كشف الظنون ٤٦٧/١ ، المحكم في نقط المصاحف ص ٣٥ ، حياة اللغة العربية ص ٧٠ ، مصادر الشعر الجاهلي ص ٤٠-٤١) . —

(٢) أنظر : مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩-٤٤٠ ، تفسير الطبري ٩/٦-١٠ ، ١٠/١٧ ، ٣٢/٢٧ ، تفسير ابن كثير ١٠٢/٣ ، معجم الأدباء ٨/١٨ .

(٣) سورة الفجر : آية ٦-٨ ، وانظر : تفسير البيضاوي ٥٥٧/٢ ، تفسير القرطبي ٤٤/٢٠-٤٧ (دار الكتب المصرية ١٩٥٠) تفسير الطبري ١٧٥/٣٠-١٨٠ ، تفسير الفخر الرازي ٣٠/ ١٦٦-١٦٩ .

مبالغات رواها أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما ، فوصل الينا من أخبارها أن رجالها كانوا طوالاً كالنخل ، لم يكن للطبيعة تأثير على أبدانهم لغلظتها ومتانتها ، وأن عاداً تزوج ألف امرأة ، وعاش ألف سنة ومائتي سنة ، ثم مات بعد أن رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، كما رأى كذلك البطن العاشر من أعقابه . وكان المُلْك من بعده في الأكبر من ولده ، وهو « شديد » الذي حكم ٥٨٠ سنة ، ثم خلفه أخوه « شداد » حيث حكم ٩٠٠ سنة ، سيطر فيها على ممالك العالم ، وبنى مدينة « إرم ذات العماد »[١] (الامر الذي أشرنا إليه في المقدمة) .

وهناك (ثانياً) ما تابع العرب فيه اليهود ، وأعني به رد كل أمة إلى أب من آباء التوراة ، حتى المغول والترك والفرس ، فمثلاً ردوا نسب الفرس إلى « فارس ابن ياسور بن سام » ، وقس على هذا تعليل أسماء البلاد ، وردها إلى أسماء من يظنون أنهم مؤسسوها ، بما يشبه قول يهود ، فمثلاً « مصر » إنما بناها « مصرايم » وآشور بناها أشور ، ومن هذا القبيل كذلك قولهم « يعرب » لمن تكلم بالعربية ، وأن « سبأ » إنما سميت كذلك لتفرقها أو لكثرة السبي ، وهكذا[٢] .

وهناك (ثالثاً) اختلاف الأخباريين في الأنساب ، حتى أنهم لم يتفقوا إلا في القليل من أسماء الملوك والأمراء ، وإن كان الأمر جد مختلف بالنسبة إلى قريش ، وهناك (رابعاً) أن العرب كانت تتصرف في الأسماء غير العربية ، بتبديل حروفها وتغييرها ، ومن ذلك اختلافهم في ذى القرنين بين أن يكون « الصعب بن مداثر » من ملوك اليمن ، أو أن يكون الاسكندر المقدوني[٣] ، وقريب من هذا ما فعلوه

---

(١) مروج الذهب ١٢/٢-١٣ ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٦٥/٣ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٣٤ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ١٤٩/١-١٥٠ ، ٢٦٠-٢٦١ ، جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص ١٥ .

(٣) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٨ ، ثم قارن : ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١١٤ (المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٧٨هـ) .

بملوك مصر على أيام الفراعين ، فملك مصر على أيام يوسف ، عليه السلام ، إنما هو « الريان بن الوليد بن المروان بن أراشه بن فاران بن عمرو بن عملاق بن لاوذ ابن سام بن نوح » ، وأن فرعون موسى عليه السلام ، إنما هو « قابوس بن مصعب ابن معاوية » صاحب يوسف الثاني ، وكانت إمرأته « آسية بنت مزاحم بن عبيد إبن الريان بن الوليد » فرعون يوسف الأول ، وأنها من بني إسرائيل على ما يرى بعض الرواة[1].

ولست أدري – علم الله – من أين جاء المؤرخون الإسلاميون بهذه الأخبار ، والتوراة – على فرض أنهم نقلوها عن يهود – لم تذكر هذه الأسماء أبداً ، والأمر كذلك بالنسبة إلى القرآن الكريم ، فضلاً عن أن الفراعين المصريين – كما نعرف من أسمائهم – ليس من بينهم من يحمل هذه الأسماء ، ولكنه الخلط وادعاء العلم ، أضف إلى ذلك بأن الزعم بأن فرعون موسى ، هو صاحب يوسف الثاني أمر غير مقبول ، فمن المعروف تاريخياً أن الفترة ما بين دخول بني إسرائيل مصر على أيام الصديق ، وخروجهم منها على أيام الكليم ، عليهما السلام ، حوالي ٤٣٠ سنة[2] ، فهل حكم هذا الملك المزعوم « قابوس بن مصعب » هذه القرون الأربعة ، والتاريخ يحدثنا أن مصر لم تعرف الحكم الطويل لملوكها (إذا إستثنينا بيى الثاني ، وقد حكم

---

(١) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم إبن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الأول ، بيروت ١٩٦٥ ص١٤٥ ، ١٦٩ ، تفسير القرطبي ص٣٤٢٧ (طبعة دار الشعب) ، محمد رشيد رضا : تفسير سورة يوسف ، ص ٦٨ ، الطبري ، : تاريخ الرسل والملوك ٣٣٥/١ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٩/١ ، تاريخ ابن خلدون ٧٥/١–٧٦ ، مروج الذهب ٦١/١ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٠٤ .
ثم انظر عن ملوك مصر الفرعونية – طبقاً للروايات العربية – كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق الدكتور سعد زغلول (ط جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) ، مروج الذهب ٣٩٦/١–٣٩٩ ، ابن خلدون ٧٤/٢–٧٦ ، سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٠١– ١٠٦ .

(٢) التوراة : سفر الخروج ١٢:٤٠–٤١ ، ثم انظر عن دخول بني إسرائيل مصر وخروجهم منها ، كتابنا «إسرائيل» ص ٢٢٥–٣٢٩ .

٩٤ سنة ، ورعمسيس الثاني ، وقد حكم ٦٧ سنة) ، وفرق كبير بين حكم يقرب من القرن من الزمان ، وحكم يقارب قروناً أربعة ، والأعجب من ذلك أن يجعل بعض المؤرخين الإسلاميين « آسية إمرأة فرعون » حفيدة الريان مرة ، ومن بني إسرائيل مرة أخرى .

وهكذا يبـدو بوضوح ، أن الخلط من ناحية ، والإسرائيليات من ناحية أخرى ، قد لعبا دوراً كبيراً في مسخ بعض هذا التاريخ الذي كتبه المؤرخون الإسلاميون عن العصور التي سبقت الإسلام بآماد طويلة .

ورغم ذلك كله — والحق يقال — فإن المؤرخين الإسلاميين قدموا لنا الكثير من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها في التأريخ لعصور ما قبل الإسلام ، وأن كثيراً منهم قد انتقدوا تلك المبالغات التي جاءت فيما كتب البعض منهم ، كما أن كثيراً منهم كذلك قد نبهوا إلى الإسرائيليات والنصرانيات التي تسللت إلى التاريخ العربي القديم .
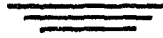
الفصل الثاني

تاريخ البحث العلمي
في العصر الحديث في تاريخ العرب القديم

ظل التاريخ العربي القديم — كما أشرنا من قبل — حتى أخريات القرن الثامن عشر الميلادي ، يعتمد في الدرجة الأولى على ما جاء عنه في كتب اليهود واليونان والرومان ، فضلاً عن المصادر العربية بأنواعها المختلفة ، إلى أن بدأ الأوربيون يهتمون في العصر الحديث ببلاد العرب ، لأسباب كثيرة ، منها الرغبة في معرفة ما كان يجري في مكة والمدينة ، إذ ألهب ذلك الموضوع خيال الأوربيين ، بخاصة وأن المدينتين المقدستين محرمتان على غير المسلمين[1] ، ومنها الرغبة في السيطرة على تلك المنطقة بعد أن امتد نفوذ الغرب إلى الشرقين — الأقصى والأوسط — مما جعل دراسة هذه المنطقة ضرورة سياسية بالنسبة إلى أوربا ، ومنها أن الأوربيين في أسفارهم إلى الهند — عن طريق البحر الأحمر ومصر — سمعوا ما يتناقله سكان شواطىء اليمن وحضرموت عن آثار الأبنية المدفونة في رمال تلك البقاع ، وما عليها من كتابات لم يستطع العرب — ولا اليهود — قراءتها[2] .

---

(١) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٤٦ .
(٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٣ .

وهكذا بدأ نفر من المستشرقين في طليعة القرن التاسع عشر الميلادي يتطلعون إلى ضرورة الإعتماد على مصادر أثرية ، من كتابات ونقوش ، توضح ما خفي من هذا التاريخ ، كما دفعتهم الكتابات القصصية التي سجلها مؤرخو اليونان والرومان والعرب ، وما حفلت به الكتب المقدسة عن ملكة سبأ وسليمان ، إلى التفكير في الكشف عن التراث القديم لبلاد اليمن[1] .

وانطلاقا من هذا كله بدأت رحلات الأوربيين إلى شبه الجزيرة العربية ، ثم تلتها بعثات علمية متنظمة اتجهت إلى مختلف أنحاء بلاد العرب ، لتكشف لنا عن الحضارات العربية المختلفة ، وكانت نتيجة هذه البعوث أن حصلنا على كثير من المعلومات التي تلقي أشعة قوية على الماضي العربي المجيد[2] ، ونستطيع أن نتتبع جهود الأوربيين — من مغامرين ورحالة وبعثات علمية — في هذا السبيل ، على النحو التالي .

أولا : في جنوب شبة الجزيزة العربية

تميزت الفترة ما بين عامي ١٥١٣ ، ١٧٥٦م ، بالمغامرين من الرحالة الأوربيين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ففي عام ١٥١٣م يهاجم « الفونسو دى البوكرك » ميناء « عدن » بعد أن استولى البرتغاليون على مجموعة حصون في جنوب بلاد العرب ، وكان قد رسم خطة دنيئة ، يستولي بها على الجثمان الشريف ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، ثم يطلب في مقابل ذلك كنيسة القدس ، ولكن الله رد كيده في نحره ، « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » ، فباءت قواته بفشل ذريع أمام أسوار عدن الحصينة ، كما أدى ذلك إلى أن يقوم الأتراك المسلمون بالإستيلاء على اليمن ، بعد حملتين بحريتين في عامي ١٥١٩ ، ١٥٣٨م[3] .

---

(١) أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ص ٧٧ (القاهرة ١٩٥٧) .

(٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٣) J. Pirenne, A la Découverte de L'Arabie, Paris, 1958.

وقد نقله إلى العربية : قدري قلعجي ، تحت عنوان « اكتشاف جزيرة العرب » بيروت ١٩٦٣ ص ٥٧—٥٨ .

ثم تلت ذلك مغامرات فردية إلى « جدة » و « المخا » في عام ١٥١٧م ، ثم مغامرة النصرانيين « باتز ومونصرات » عام ١٥٨٩م ، حيث كانا أول أوربيين يشاهدان « محرم بلقيس » ، ثم رحلة المؤرخ اليسوعي « مانوئيل دى الميدا » في عام ١٦٣٣ م ، من عدن إلى خنفر ولحج[١] .

إلا أن الفضل الأكبر في الاكتشافات العلمية ببلاد العرب إبان القرن الثامن عشر ، إنما يرجع إلى الألمان ، وربما كان العالم « ميخايلس » هو أول من وجه الأنظار إلى بلاد العرب ، وإلى الصلات القوية التي تربط بينها وبين العلوم المتصلة بالكتاب المقدس، ومن ثم فقد أقنع « فردريك الخامس » ملك الدانيمرك ، بإرسال بعثة علمية إلى بلاد العرب[٢] ، تحركت من ميناء « كوبنهاجن » في ٤ يناير ١٧٦١م ، ووصلت إلى ميناء القنفذة في ٢٩ اكتوبر ١٧٦٢م ، غير أن النكبات بدأت تحل بها يوماً بعد آخر ، حتى لم يبق من أعضائها على قيد الحياة ، غير الضابط الصغير « كارستن نيبؤور » الذي أخذ على عاتقه تنفيذ الخطة التي رسمت للبعثة ، ومن ثم فقد قرر ألا يعود إلى وطنه ، إلا بعد أن يحقق الهدف ، وقد بر الرجل بوعده ، ولم تطأ قدماه أرض « كوبنهاجن » إلا في عام ١٧٩٧م ، بعد أن قطع رحلة طويلة ماراً بالبصرة وبغداد والموصل وحلب والقدس وقبرص واستنبول .

وبالرغم من أن أربعة من الباحثين قد ماتوا ، إلا أن النتائج التي توصلت إليها هذه البعثة كانت أفضل نتائج البعثات العلمية في ذلك الوقت ، وما زالت المعلومات التي دونها « نيبؤور » مرجعاً أساسياً عن اليمن حتى الآن ، فضلاً عن أنه لفت أنظار العلماء إلى « المسند » والرُقُم العربية ، إلى جانب ما قدمه من خرائط لأماكن مجهولة

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٥٧-٦٤ .

(٢) تكونت البعثة من : « كريستنس فون هافن » المتخصص في اللغات الشرقية ، و « بيتر فورسكال » المتخصص في علم الحيوان ، و « كريستنس كارل كرامر » الطبيب ، و « جورج فلهلم بورنفيند » الرسام ، ثم « كارستن نيبؤور » لعمل الخرائط وتدوين المعلومات الجغرافية .

لم تكن قد وطأتها قدم أوربي قبل ذلك[1] ، هذا وقد وضع هذا الرحالة الممتاز كتاباً عن رحلته باللغة الألمانية ، ظهرت له أكثر من ترجمة فرنسية وإنجليزية[2] .

شجعت رحلة « نيبؤور » العلماء على مواصلة البحث عن النقوش العربية الجنوبية ، ثم كانت حملة « نابليون بونابرت » على مصر في عام ١٧٩٨م ، وكشف حجر رشيد في العام التالي ، ثم الجهود المضنية التي بذلها العلماء من أمثال « اكربلاد » عام ١٨٠٢م ، و« توماس يونج » عام ١٨١٤م ، وأخيراً جاء « جان فرنسوا شامبليون » (١٧٩٠–١٨٢٣م) الذي تمكن من حل رموز الهيروغليفية المصرية[3] ، كل ذلك وغيره دفع الباحثين إلى القيام برحلات كثيرة إلى بلاد العرب .

وفي ٨ أبريل من عام ١٨١٠م ، يصل إلى « الحديدة » الدكتور « أولريخ جاسبار سيتزن » الألماني ، ويتمكن من الوصول إلى « ظفار » حيث ينجح في العثور على النقوش التي أشار اليها « نيبؤور » ، وفي نسخ خمسة نقوش بالقرب من « ذمار » تعتبر أولى النقوش العربية الجنوبية ، إلا أن الرجل سرعان ما اختفى في ديسمبر عام ١٨١١م ، في ظروف غامضة في « تعز » أو « صنعاء » بيد الأعراب أو بيد الإمام نفسه[4] .

وفي عام ١٨٣٤م ، يدخل الانجليز الميدان ، ويتمكن الضابط « جيمس ولستد » من زيارة جنوب بلاد العرب ، واكتشاف « حصن الغراب » ونسخ نقش كتابي

---

(١) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١–٣ ، أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ص ٧٧–٩٩ ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٤٨–١٤٩ ، جاكلين بيرين : المرجع السابق ص ١٤٤–١٤٦ ،
وكذا R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, 1954, P. 241.
وكذا R.A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, P. 7
وكذا J.B. Philby, EB, 14, 1929, P. 169.

(٢) جواد علي ١٢٥/١
وكذا Carsten Niebuhr, Description de L'Arabie, Copenhagen, 1773.
وكذا Voyage en Arabie, Amsterdam, 1774-80,

(٣) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 21-14.

(٤) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٦ .

وجده مسجلا عليه ، يرجع تاريخه إلى عام ٥٢٥م ، ثم يقوم « ولستد » في العام التالي برحلة إلى غرب « وادي ميفعة » ، حيث يعثر هناك في « نقب الهجر » على بقايا مدينة أو حصن[١] .

وفي عام ١٨٣٥م ، تمكن « هوتن » من إضافة عدد جديد من النقوش ، والأمر كذلك بالنسبة إلى «كروتندن» الذي جاء عام ١٨٣٨م بنقوش جديدة ، وكذا الدكتور « مايكل » الذي زودنا بخمسة نقوش سبئية ، مما ساعد على حل رموز « المسند »[٢] .

وفي عام ١٨٤٣م تمكن الرحالة الألماني « أدولف فون فريدة » من ارتياد الصحراء المعروفة باسم « بحر الصافي » أو « الأحقاف » شمالي حضرموت ، حيث اكتشف في سهل ميفعة الشرقي في « وادي أوبنه » بقايا حائط قديم ، عليه نقش حضرمي عرف « بنقش أوبنة »[٣] .

وقد تميز هذا العام كذلك برحلة الصيدلي الفرنسي «جوزيف توما أرنو» الذي نجح في ١٢يوليه ١٨٤٣م في السفر من صنعاء إلى مأرب ، فزار خرائب «صرواح» وفحص بقايا أسوار في مأرب ، وكذا معبد « المقه » إله القمر ، الذي تقوم آثاره خارج مأرب ، والذي يطلق العرب عليه اسم « محرم بلقيس » ، هذا إلى جانب نقله لـ ٥٦ نقشاً سبئياً رآها هناك ، وقد قام « فرزنل » ، القنصل الفرنسي في جدّة بنشر هذه النقوش عام ١٨٤٥م ، أما « أرنو » نفسه ، فقد أثرت عليه رحلته وفقد بصره حيناً من الدهر ، بسبب ما تعرض له من أمطار عند عودته من صنعاء إلى الشاطىء في بلاد تهامة[٤] .

---

(١) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٧–٨ وكذا R.A. Nicholson, op. cit., P. 8.
وكذا J.R. Wellsted, Travels in Arabia, in 2 Vols., London, 1838.
وكذا R.H. Sanger, op. cit., P. 221, 241.

(٢) جواد علي ١/١٢٦ وكذا
C.J. Cruttenden, an Excursion to San'a , The Capital of Yemen, Bombay, JRGSL, III, 1838, P. 276-289.

(٣) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٨–٩ .

(٤) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٥٠ .

وفي عام ١٨٦٠م نجح الضابط الإنجليزي « كوجلان » في شراء مجموعة كبيرة من النقوش ، عثر عليها في أنقاض مدينة « عمران » عام ١٨٥٤م ، من بينها تماثيل وأحجار مكتوبة وألواح من النحاس لا يقل عددها عن الأربعين (١) .

وفي تلك الأثناء نجح العلماء في فك رموز هذه الكتابة العربية الجنوبية وأطلقوا عليها اسم « الحروف الحميرية » ، ولكن سرعان ما تبين لهم أن هذه النقوش ليست كلها حميرية ، وأن بعضها نصوص معينية ، وبعضها الآخر سبئية ، بل إن فيها نصوصاً تختلف عن الحميرية بعض الاختلاف ، وهذه الكتابة هي المسماة « بخط المسند » ، وبالقلم المسند ، وبالمسند في الموارد العربية (٢) .

وبدأت فرنسا تهتم بالأمر ، ومن ثم فقد رأت أكاديمية الفنون والآداب الجميلة في باريس عام ١٨٦٩م ، إصدار موسوعة النقوش السامية :
(Corpus Inscriptionum Semiticarum) ، واختير المستشرق الفرنسي اليهودي « جوزيف هاليفي » لرياسة بعثة إلى اليمن ، لتزويد الموسوعة بنقوش جديدة ، وكان اختيار « هاليفي » اختياراً موفقاً ، فهو كيهودي يستطيع أن يتجول بين أفراد القبائل العربية المستقلة بكل حرية ، لأن اليهود كانوا يعاملون في اليمن معاملة المنبوذين ، فلا يسمح لهم بحق من الحقوق إلا ما تجود به النفس العربية مدفوعة بعامل الرفق والعطف ، ومن ثم فلا يسمح لليهودي مثلاً بحمل السلاح ، كما كان المسلم ينظر إليه نظرة كلها احتقار ، وفي نفس الوقت ، فإن الشهامة العربية إنما كانت تقضي بعدم الإعتداء على اليهودي الأعزل ، لأن ذلك الإعتداء إنما كان يشين الكرامة البدوية التي رأت أن قتل اليهودي لا يختلف عن قتل المرأة أو الطفل (٣) .

وهكذا بدأ « هاليفي » رحلته في عام ١٨٧٠م ، وحينما وصل إلى « عدن » تلقى معونة الجالية اليهودية فيها ، فضلاً عن خطابات التوصية لكل يهود اليمن ،

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٥٢ .
(٢) جواد علي ١٢٧/١ .
(٣) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٢ .

ثم تزي بزيّ يهودي فقير جاء من القدس ، ثم زار بقايا « القليس » في صنعاء ، ثم اصطحب معه يهودياً يدعى « حاييم حبشوش » ، وزار كل جهات اليمن تقريباً ، بما في ذلك مأرب والجوف ونجران ، الأمر الذي لم يتحقق لغيره من قبل ، وأخيراً عاد إلى فرنسا ، ومعه ٦٧٦ نقشاً ، لم يكن من بينها إلا أحد عشر نقشاً سبق أن نقلها « أرنو » ونشرها « فرزنل » ، ومع ذلك فأهم نتائج الرحلة لم يكن في كمية النقوش ، بقدر ما كان في المعلومات الجديدة التي جاءت بها هذه النقوش ، فضلاً عن بعض الآثار القديمة التي رآها ، إلى جانب معلومات كثيرة عن حياة بعض القبائل التي زارها في داخل البلاد(١) .

على أن أعظم اكتشافات هاليفي ، إنما كان خرائب « قرناو » عاصمة دولة معين ، والمعروفة اليوم « بمعين » ، وكانت تقع على مرتفع حصين تحيط به الأسوار والأبراج ، فضلاً عن النقوش التي تشير إلى أن « براقش » الحالية ، إنما كانت تسمى في العصور القديمة « يطيل » ، هذا إلى جانب مدينة « السوداء » التي يعتقد « هاليفي » أنها كانت مدينة قديمة صناعية(٢) .

وفي عام ١٨٨٢م ، قام المستشرق النمساوي « سيجفريد لانجر » المتخصص في اللغة العربية برحلة إلى اليمن ، حيث عثر على نقش حميري هام بالقرب من « ظران » ، كما حصل على نقوش أخرى على مقربة من « ضاف » التي بحث عنها « سيتزن » دون جدوى ، كما تمكن من نسخ عدد من النقوش في صنعاء ، فضلا

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٥٣ ، وكذا

Ahmed Fakhry, An Archaeological Journey to Yemen, Cairo, 1952, Vol. I,P. 21-24.

(٢) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٤ ، وأما أهم الأبحاث التي نشرها «هاليفي» عن رحلته ، فهي :

J. Halevy, Report sur une Mission Archaeologique dans le Yemen, JA, VI, 1872, P. 1-98.

J. Halevy, Voyage au Nedjran, BSG, 6 Serie, VI, P. 5-13, 249, 581-606, XIII, P. 466-79.

J. Halevy, Itineraire d'un Voyage dans le Yemen, 1869-1870, BSG, Paris, July, 1877.

عن الحصول على نقوش من عدن ، لم يعرف موطنها الأصلي ، من بينها نقش حضرمي له أهمية لغوية ، على الرغم مما به من تلف[1] .

وجاء «إدوارد جلازر» — تلميذ «موللر» ، والذي ترجم الجزء الثاني من «الإكليل» إلى اللغة الألمانية — فقام فيما بين عامي ١٨٨٢ ، ١٨٩٢م ، بثلاث رحلات إلى اليمن ، كانت ذات نفع كبير في تاريخ البحث العلمي ، وقد أعد « جلازر » نفسه للمهمة إعداداً طيباً ، فرغم أنه كان استاذاً للغة العربية ، فقد أقام — قبل رحلاته إلى اليمن — فترات في تونس والقاهرة ، ليتمكن من اللغة العربية ، وليتعرف على العادات العربية ، وأخيراً رغم أنه يهودي ، فقد ادعى الإسلام ، وارتدى زي علمائه وسمى نفسه « الحاج حسين » .

وقد بدأ « جلازر » رحلته الأولى في أكتوبر ١٨٨٢م ، في رفقة حملة تركية جردت لفتح مدينة « سودة » التي كانت تناصب الحكومة العداء ، وفي هذه الرحلة زار المنطقة الوسطى ، وعاد إلى فرنسا في مارس ١٨٨٤م ، ومعه ٢٥٠ نقشاً ، ثم كانت رحلته الثانية ، فيما بين أبريل ١٨٨٥ ، فبراير ١٨٨٦م ، وقد اهتم فيها بالمنطقة الواقعة بين عدن وصنعاء ، كما زار « ظفار » ونسخ عدداً كبيراً من النقوش المعينية ، وقد أضيفت فيما بعد إلى ممتلكات المتحف البريطاني[2] .

وفيما بين عامي ١٨٨٧ ، ١٨٨٨م ، قام برحلته الثالثة ، التي زار فيها « مأرب » ورسم تخطيطات لآثار القنوات والسدود القديمة ، كما رسم خريطة جغرافية للمناطق التي زارها ، فضلاً عما قدمه من وصف لآثارها ، وفي رحلته الرابعة (١٨٩٢ —

---

(١) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٧

وكذا Delacy O'leary, Arabia before Muhammed, P. 221.

وكذا F. Hommel, Explorations in Arabia, Philadelphia, 1903, P, 722.

وكذا Otto Weber, Arabien Vor dem Islam, 1904, P. 11.

(٢) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ١٩ وكذا O. Weber, op. cit., P. 11

وكذا H. Derenbourg., Yemen Inscriptions, The Glaser Collection, in the Babyloniana and Oriental Record, I. 1887

١٨٩٤م) ، نراه يستعين بالأعراب في نسخ النقوش القديمة في مناطق الجوف ، ومن ثم فقد تيسر له جمع مئات من النقوش الهامة ، دون أن يذهب بنفسه إلى تلك المناطق الخطرة البعيدة ، ومن هذه النقوش «نقش صرواح» ، الذي يرجع إلى أقدم عصور الدولة السبئية ، فضلاً عن مجموعة من العملات العربية القديمة ، ضمت إلى مقتنيات متحف الفنون بفيّنا ، كما نشر الكثير منها ، وإن لم يتم للآن نشر كل أعماله[1] .

وتأثرت أكاديمية الفنون بفيّنا بنتائج رحلات «جلازر» ، فقررت عام ١٨٩٨م ، إرسال بعثة إلى جنوب بلاد العرب ، يشرف عليها «موللر» و «لندبرج» ، غير أن الإنجليز لم يسمحوا لها بالتوغل داخل اليمن مستغلين نفوذهم هناك ، فذهبت إلى حضرموت لزيارة الخرائب القريبة من «شبوه» فأقام العرب العقبات في طريقها ، مما اضطرها إلى العودة بعد أن بلغت «عزان» ، وإن تمكنت من طبع نقوش «نقب المجر» و «أوبنة» و «حصن الغراب» ، وفي يناير ١٨٩٩م ، توجهت إلى سوقطرة لدراسة لهجتها ، كما درست فيما بعد اللغات الحديثة في الصومال ومهرة وسوقطرة وشخوري ، ونشرت أبحاثاً فيها بعد ذلك[2] .

وتقوم الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨م) ، ويتوقف هذا النشاط العلمي الممتاز ، ولكن ما أن تضع الحرب أوزارها ، وتنال اليمن استقلالها ، حتى يغلق الإمام يحيى الأبواب أمام البعثات العلمية والمغامرين سواء بسواء ، وذلك إبان الصراع الذي نشأ بينه وبين الإنجليز ، بشأن قضايا عدن والمحيمات ، إلا أن الرجل كان — مع ذلك — جد حريص على الكشف عن آثار بلاده ، ولكن بطريقته الخاصة . وهكذا — وعلى نفقة ولي العهد — بدأ البحث من جديد عن آثار اليمن ، ففي عامي ١٩٣١ ، ١٩٣٢م ، قام كل من «كارل راتيز» و «فون فيسمان» برحلات متعددة

(١) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢١–٢٢ وكذا O. Weher, op. cit., P. 12. وكذا D.H. Muller and N. Rhodokanakis, Eduard Glasser, Reise Nach Marib, Vienna, 1913.

(٢) ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٢٣ .

إلى الحبشة وحضرموت واليمن ، وقاما بأول حفائر في منطقة النخلة الحمرا وغيمان وحقه شمالي صنعاء ، إلا أن العقبات سرعان ما أحاطت بهما ، كما أن الحفائر لم تكن منظمة ، وعلى نطاق ضيق ، حتى أن الرجلين لم يتيسر لهما مطلقاً – رغم إقامتهما مدة غير قصيرة في اليمن – أن يزورا آثار مأرب أو الجوف ، إذ لم تسمح لهما السلطات بالسفر مطلقاً إلى شرقي وشمالي صنعاء ، وقد نشرا نتيجة أبحاثهما الجغرافية والأثرية في مؤلف من خيرة الكتب عن اليمن ، وهو كتاب في ثلاثة أجزاء ، خصص الجزء الثاني منه للآثار [١] .

وفي عام ١٩٣١م ، تمكن الرحالة الانجليزي « برترام توماس »[٢] – والذي كان وزيراً للمالية في حكومة سلطان مسقط ، مما أتاح له الفرصة لمعرفة الكثير عن أحوال جنوب بلاد العرب ، وزيارة الأماكن النائية ، ودراسة أحوال تلك البلاد وما فيها[٣] – ، تمكن من اجتياز الربع الخالي ، أو « مفازة صيهد » كما كان يعرف[٤] ، في ٥٨ يوماً ، فكان أول أوربي جرؤ على اجتياز هذه المنطقة[٥] ، وقد كشف «توماس» هناك عن بحيرة ملحة ، يتجه البعض إلى أنها كانت من متفرعات الخليج العربي ، كما عثر على آثار جاهلية ، لم يعرف عنها شيء حتى الآن[٦] .

وتابع « جون فلبي » توماس في اجتياز الربع الخالي ، فسافر في ٧ يناير ١٩٣٢م ، من الهفوف إلى واحة يبرين ، ومنها اتجه جنوباً إلى الربع الخالي في متوسط نقاطه عند

---

(١) أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ص ٨٣ ، ١٦٧–١٧٠ ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٥٥ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٥٦ .
وكذا S.C. Rathjens and H. Von Wissmann, Sûdarabien — Reise Band, 2 Vorislamische Altertumer, Hamburg, 1934.

(٢) Bertram Thomas, Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia, London 1932.
وكذا The Geographical Journal, Across the Empty Quarter, III, 1948, P.1-21.

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٢ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ٣/٤٤٨ ، وكذا Ency. of Islam, I, P. 370

(٥) Hand Book of Arabia, by British Admiralty, I, P. 11. وكذا EI, I, P. 183

(٦) Bertram Thomas, Arabia, Felix, P.180, وكذا Ency. of Britannica, 2, P. 173

« بئر نيفا » حتى وصل إلى بلدة سليل في منتهى وادي الدواسر[1] ، وفي هذه الرحلة زار عسير ونجران وشبوه وتريم ، ثم واصل السير حتى بلغ الشحر ، وقد نشر رحلته هذه في عام ١٩٣٩م[2] .

وفي عام ١٩٣٦م سمحت الحكومة اليمنية للصحفي السوري « نزيه مؤيد العظم » بزيارة مأرب ، ومن ثم فقد حصل على معلومات ذات قيمة ، نشرها في عام ١٩٣٨م[3] ، ثم قام «ريكمانز[4]» بدراسة النقوش التي حصل عليها «نزيه العظم» .

وفي نفس عام ١٩٣٦ ، أرسلت جامعة القاهرة بعثة علمية إلى جنوب بلاد العرب ، تحت رياسة الدكتور سليمان حزين ، كانت مهمتها دراسة المنطقة من نواحيها الجغرافية والزراعية والجيولوجية — وكذا دراسة النقوش السبئية — إلا أن نشاط البعثة الأثري اقتصر على المنطقة المحيطة ببلدة « ناعط » ، وقد نشر الدكتور حزين والدكتور خليل نامي بعضاً من نتائج البعثة[5] .

وفي عام ١٩٣٧م ، قامت ثلاث رحالات أوربيات (ج . كاتون طمسون ، أ. جاردنر ، ف. شترك) برحلة إلى حضرموت نجحن خلالها في الكشف عن معبد الإله القمر في وادي عمد ، مقابل حريضة ، وعن وسيلة من وسائل الري التي كانت مستخدمة هناك قبل الإسلام في وادي بيش ، كما عثرن على عدد من النقوش ، وقد ظهرت نتائج الرحلة في كتاب أصدرته «ج. كاتون طمسون» في عام ١٩٤٤[6] .

---

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١ .

(٢) J.B. Philby, Sheba's Daughters, London, 1939.

(٣) نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العرب السعيدة (الجزء الأول : من مصر إلى صنعاء ، والثاني : من صنعاء إلى مأرب) ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٤) G. Ryckmans, Inscriptions Sud-Arabes, 7eme Serie, le Museon , 55, 1942.

(٥) خليل يحيى نامي : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ، القاهرة ١٩٤٣ ، وكذا S.A. Huzayyin, Nature, Vol. CXI, 1937, P. 513 F.

(٦) G. Caton Thompson, The Tombs and Moon Temple of Hureidha, Oxford, 1944.

هذا وفي نفس العام (١٩٣٧) قام « فان درمويلن » و « فون فيسمان » بالتعاون مع « بتينا فون فيسمان » و « فون فاسيلفسكي » برحلة أخرى (غير رحلتهما الأولى التي قاما بها عام ١٩٣١) ، أتت بفوائد كثيرة لعلم اللغات السامية[1] .

وهناك غير هذه الرحلات العلمية ، رحلات سياسية المظهر والمخبر ، كتلك التي قام بها « هارولد » و « انجرامز » ، وقد أفادتنا من الناحية الجغرافية ، وزادت معلوماتنا عن إقليم حضرموت[2] ، ثم هناك رحلة « هاملتون » إلى شبوه في عام ١٩٣٨م ، هذا إلى جانب رحلات « تزيجر » في عامي ١٩٤٥–١٩٤٦م ، إلى بلاد العرب السعيدة[3] .

وفي عام ١٩٤٥م ، تغزو أسراب الجراد اليمن ، وتستغيث حكومة الإمام بمصر ، طالبة منها العون في رد هذا الكرب ، وتسرع جامعة القاهرة بإرسال الأستاذ محمد توفيق – عضو بعثة عام ١٩٣٦ – لدراسة هجرة الجراد في بلاد العرب ، والبحث عن وسيلة لإنقاذ اليمن منها ، وينتهز الأستاذ محمد توفيق الفرصة ، فيزور آثار الجوف ، وينقل كثيراً من النقوش ويأخذ لها صوراً « فوتوغرافية » ، وقد نشرت هذه النقوش في القاهرة في عامي ١٩٥١–١٩٥٢م[4] ، كما قام الدكتور خليل يحيى نامي بنشر نقوش خربة براقش ، على ضوء مجموعة الأستاذ محمد توفيق[5] .

وفي عام ١٩٤٧م ، يقوم أستاذنا الدكتور أحمد فخري – طيب الله ثراه – برحلة إلى اليمن ، يزور فيها مناطق صرواح ومأرب وما حولهما ، وكذلك جميع

---

(١) Van der Meulen and Von Wissmann, Hadramaut, Some of its Mysteries Unveiled, Leiden, 1932.

(٢) Harold and Ingrams, Arabia and Isles, London, 1942-43.

(٣) A. Hamilton, The Master of Belhavan. وكذا GJ, 100, 1942, P. 103-123.
وكذا A. Hamilton, The Kingdom of Melchior, London, 1919.

(٤) أنظر : محمد توفيق : آثار معين في جوف اليمن ، وكذا « نقوش خربة معين » وكلاهما من منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، في عامي ١٩٥١ ، ١٩٥٢م .

(٥) خليل يحيى نامي : نقوش خربة براقش ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ ص ١–٢١ .

مراكز الحضارة المعينية في الجوف ، وقد عثر أستاذنا في رحلته هذه على نحو ١٢٠ نقشاً جديداً لم تكن معروفة من قبل ، كما أخذ مجموعة من الصور « الفوتوغرافية » لكل ما رآه من آثار ، وكانت مجموعته هذه أول صور « فوتوغرافية » وافية تنشر عن سد مأرب والمعابد المختلفة ، وقد نشر نتائج رحلته هذه في بضع مقالات ، وفي كتاب أصدره عام ١٩٥٢م ، في ثلاثة أجزاء ، إقتصر الجزء الثاني منها على النقوش التي فحصها وترجمها الأستاذ « ريكمانز »[١] .

وكانت أمريكا حتى ذلك الوقت لم تدخل الميدان العلمي في اليمن ، ومن ثم فقد نظمت « مؤسسة دراسة الإنسان الأمريكية (The American Foundation for the Study of Man) ، في الفترة ما بين عامي ١٩٥٠ ، ١٩٥٢م ، بعثتين علميتين برياسة « وندل فليبس » ، ضمت بين أعضائها الأثري المشهور « وليم اولبرايت » ، إتجهت الأولى إلى الحفر في « بيجان » بحضرموت ، واتجهت الثانية إلى اليمن ، إلا أن بعثة « فيلبس » كانت للأسف غير موفقة في صلتها بالحكومة اليمنية ، ومن ثم فلم تتمكن من إتمام حفر المساحة الأمامية لمعبد محرم بلقيس على مقربة من مأرب ، ولكن الأسابيع القليلة التي قضتها البعثة هناك كانت كفيلة بإظهار كثير من المباني والنقوش الجديدة ، وإظهار مدى النجاح الذي ينتظر أية بعثة علمية تقوم بالحفر في هذه المناطق البكر[٢] .

وهكذا تمكنت البعثة من الحصول على نتائج جديدة لم تكن معروفة عن تاريخ قتبان وسبأ ، فضلاً عن حفائرها في « تل هجر بن حميد » الذي كشفت فيه عن كثير من الفخار الذي يرجع إلى ما قبل الميلاد بألفي سنة ، كما كشفت عن معابد وقصور في « تمنع » — العاصمة القتبانية القديمة — والتي يتجه البعض إلى أنها خربت

---

(١) أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٧ ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٥٨ وكذا

Ahmed Fakhry, An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols, Cairo,1952.

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٥٧–١٥٨ .

لأول مرة في حوالي عام ٢٥ ق.م[١] ، وأما في مأرب فقد كشفت البعثة عن معبد الإله القمر ، وعن سد مأرب ، وعن خرائب ترجع إلى القرن السابع ق.م ، كما عثرت البعثة على كثير من الآثار البرنزية والرخامية وبعض النقوش السبئية[٢] ، وأخيرا فقد ظهرت في الصحف بعض المقالات عن حفائر البعثة ، فضلاً عن كتابين ، الواحد منهما للقارئ العادي كتبه « وندل فيلبس » ، والآخر تقرير علمي واف عن الحفائر[٣] .

وفي عام ١٩٥٢م ، وبينما كانت البعثة العلمية قد توقفت عن عملها في مأرب ، كانت هناك بعثة جامعة الدول العربية في صنعاء ، تقوم بتصوير المخطوطات العربية النادرة في اليمن ، وهنا طلبت حكومة اليمن من الدكتور خليل يحيى نامي — رئيس البعثة والأستاذ بجامعة القاهرة ، والمتخصص في النقوش اليمنية — أن ينضم إلى لجنة فحص ما تركه الأمريكيون ، وتقديم تقرير عما قاموا به من حفائر ، ومن ثم فقد تيسر له أن يزور المنطقة ، وأن يأخذ لها كثيراً من الصور « الفوتوغرافية[٤] » .

وفي مايو ١٩٥٩م ، قام أستاذنا الدكتور أحمد فخري — أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق الأدنى القديم بجامعة القاهرة — برحلته الثالثة إلى اليمن — وكانت رحلته الثانية في عام ١٩٤٨م — وفيها زار مأرب وآثارها للمرة الثانية ، ونقل نقوشاً جديدة لم تكن معروفة من قبل ، كما نجح في الوصول إلى موقع معبد في منطقة المساجد ، وهو معبد كبير في حالة لا بأس بها ، وقد شيّده « يدع إيل ذريح » ،

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٥٩ وكذا R.H. Sanger, op. cit., P. 241

(٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٥٩–٢٦٠ .

(٣) Wendell Phillips, Qataban and Sheba, London, 1955.

وقد ترجمه عمر الديراوي تحت عنوان « كنوز مدينة بلقيس ، قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن » ، بيروت ١٩٦١م . وانظر كذلك : أحمد فخري : المرجع السابق ص١٥٨ ، وأما التقرير العلمي فقد نشر تحت عنوان :

Archaeological Discoveries in South Arabia (John Hopkins Press), 1958.

(٤) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٥٨ .

والذي شيّد كذلك معبد صرواح ومعبد مأرب ، وبالرغم من أن اسم هذه المنطقة الأثرية كان معروفاً لنا من روايات البدو ، فقد ظل أشبه بأسطورة ، ولم يسبق للأثريين من قبل زيارته أو أخذ صور فوتوغرافية له[1] .

وأخيراً ، وفي عام ١٩٦٠ ، عادت البعثة الأمريكية للحفر في « ظفار » بعمان ، لإكمال ما بدأته في المرة الأولى ، حيث كشفت عن بعض الجوانب في تاريخ هذه المنطقة التابعة لسلطنة عمان[2] ، هذا وقد تمت كذلك تنقيبات في « تاج » و « وادي الفاو » عام ١٩٦٨م ، بإشراف بعثة متحف أرهوس الدنمركية ، وفي نجران في عام ١٩٦٨م كذلك ، بواسطة « معهد سيمشسونيان بواشنطن »[3] .

ولعل من الجدير بالذكر هنا أن الزميل الأستاذ شرف الدين قام بعدة جولات في مناطق الآثار في بلاده اليمن ، زار فيها مأرب والجوف وظفار وبيجان ، والحدأ وذمار ورداع وهمدان وأرحب ، عاد منها وفي حوزته مئات من الصور الفوتوغرافية والنسخ الخطية والأبحاث والخرائط ، ثم أصدر أول كتاب له عن لغة المسند في عام ١٩٦٨م ، متضمناً تراجم عدد من النقوش وبعض الملاحظات عن قواعد لهجات « المسند » كالمعينية والسبئية والقتبانية[4] ، كما أصدر في عام ١٩٧٥م كتاباً آخر عن « اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام » تحدث فيه عن قواعد هذه اللغة ، فضلاً عن نشر نماذج من نقوش حضرمية وسبئية ومعينية وديدانية ولحيانية وثمودية وصفوية ، وإني على علم بأنه قد انتهى من دراسة تاريخية ، حقق فيها نصوصاً جديدة تحت عنوان « مختارات من النقوش العربية القديمة » (Selected Arabic Inscriptions)[5]

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص١٥٩ ، (وقد نشر بحثاً مختصراً عن هذا المعبد في المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ، المنعقد في فاس في نوفمبر ١٩٥٩م ، تحت عنوان « أحدث الاكتشافات الأثرية في اليمن : معبد المساجد في بلاد مراد ») .

(٢) BASOR, 159, 1960, P. 14.

(٣) أحمد حسين شرف الدين : اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٢٨ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٩ .

(٥) انظر : تقديم المؤلف لكتاب الأستاذ أحمد حسين شرف الدين ص ٢١-٢٥ .

هذا ، وقد بدأت جامعة الرياض تدخل الميدان ، فأرسلت بعثة برياسة الدكتور عبد الرحمن الأنصاري للتنقيب في منطقة « الفاو »[1] في الفترة (من ٢٤/ ١١/ ٩٠ إلى ٥/ ١٢/ ١٣٩٠هـ) ثم تلتها مواسم أخرى فيما بين عامي ١٣٩٢ ، ١٣٩٦هـ ، وقد نجحت البعثة في تصوير ونقل حوالي ٢٥٠ نقشاً منتشرة على سفوح خشم قرية ، من شماله حتى جنوبه ، فضلاً عن مجموعة كبيرة من شواهد القبور والأواني الحجرية والفخارية والخزفية ، إلى جانب قطع حجرية تحتوي على نصوص وكتابات هامة بالخط المسند ، وكذا مجموعة من قطع النسيج ، بالإضافة إلى أشياء دقيقة كالخرز والأساور الزجاجية وأدوات الحياكة وبعض العملات الفضية والنحاسية ، وقد أرخت البعثة لهذه القطع الأثرية — وكذا للمواقع الأثرية الهامة كتل القصر الكبير — بالفترة ما بين القرن الثاني قبل الميلاد ، والقرن الثاني الميلادي[2] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن إدارة الآثار بوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية — والتي أنشئت في٢٣/ ٦/ ١٣٩٢هـ — تقوم الآن بعمل مسح أثري لكل المناطق الأثرية بالمملكة ، تمهيداً للقيام بحفائر أثرية على نطاق واسع ، وبطريقة علمية .

والواقع أن هناك اهتماماً جدّياً بدراسة الآثار في الجامعات السعودية ، فقد أنشأت جامعة الرياض تخصصاً في الآثار بقسم التاريخ منذ العام الجامعي ٩٤/ ١٣٩٥هـ ، كما قامت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العام الجامعي ٩٥/ ١٣٩٦هـ

---

(١) قرية الفاو : وتسمى كذلك « القرية » وتقع على مبعدة ٧٠٠ كيلومتراً إلى الجنوب من الرياض ، ٦٠ كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من مدينة الخماسين ، وحوالي ٥٠ كيلومتراً إلى جنوب المنطقة التي يتداخل ويتقاطع فيها وادي الدواسر مع جبال طويق عند فوهة مجرى قناة « الفاو » ، وتشرف على الحافة الغربية الشمالية للربع الخالي ، وربما من هنا جاءت التسمية ، وقد كانت قرية الفاو القديمة على طريق التجارة بين جنوب الجزيرة والخليج العربي ، ماراً بمنطقة اليمامة ، وعلى طريق التجارة بين جنوب الجزيرة وشمالها وما يليها من أقطار (عبد الرحمن الأنصاري : مجلة كلية الآداب — جامعة الرياض ، المجلد الثالث ١٩٧٤ ص ٢٧ ، وانظر نشرة معرض آثار الفاو عام ١٣٩٣هـ ، وكذا
A. Jamme, Sabaean Rocki Inscriptions from Qaryat al-Faw, Washington, 1973. وكذا H. St. J.B. Philby, Two notes from Central Araiba, in GJ, 1949, P. 113.

(٢) أنظر : عبد الرحمن الأنصاري : كتابات من قرية الفاو ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الرياض ، العدد الثالث ، ص ٢٧—٧٠ ، وكذا نشرة معرض آثار الفاو ، عام ١٣٩٣هـ بالرياض .

(١٩٧٦/٧٥م) بإدخال مادة الآثار ضمن برامج الدراسة في قسم التاريخ بها ، والأمل كبير في أن تثمر هذه الدراسات الأثرية قريباً ، فتخرّج أجيالاً من علماء الآثار ، تعقد البلاد عليهم آمالاً كباراً في الكشف عن تاريخ هذه الأمة العريقة .

ثانياً : في شمال شبه الجزيرة العربية :

لم يكن حظ شمال شبه الجزيرة العربية ووسطها ، بأقل من جنوبها ، فإن آثار البتراء وسورية الجنوبية ، قد استهوت عدداً من العلماء الأوربيين ، كما أن تحريم دخول المدينتين المقدستين ، مكة والمدينة ، على غير المسلمين ، قد ألهب خيال الأوربيين وزادهم رغبة في التعرف على ما يجري فيهما ، وبخاصة في موسم الحج ، ومن هنا رأينا كثيراً من الأوربيين يأتون إلى زيارة الحرمين الشريفين متخفين ، ذلك لأن منطقة مكة والمدينة إنما كانت تحت حراسة مشددة ، خشية أن يتسلل إليها الأوربيون ، وهكذا وجدنا من القادمين إلى وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها ، أنواعاً مختلفة من الرحالة الأوربيين ، من مغامرين وحجاج وباحثين .

ولعل أقدم ما نعرفه عن هؤلاء الرحالة هو « ل — دى فرتيما » الذي وصل إلى مكة قادماً من دمشق عام ١٥٠٣م ، وإن كان هناك من يزعم أن « كابوت » الرحالة الكبير قد قام بزيارة مكة بين عامي ١٤٧٦ ، ١٤٩٠م ، وأن ملك البرتغال قد أرسل « بدور دى كوفيلها » ، الذي كان يتكلم العربية ، إلى شبه الجزيرة العربية في عام ١٤٨٧م ، وذلك للتحقق من إمكانية الذهاب إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ، وأنه وصل فعلاً إلى عدن ، ومنها إلى الهند ، وسواء أصح هذا ، أم أن الأمر مجرد زعم كذوب ، فإن هذه الرحلات لا قيمة لها من الناحية العلمية ، وإن كان « دى فرتيما » قد وصف لنا رحلته التي زار فيها الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ، وصفاً صحح فيه كثيراً من الأخطاء الشائعة عنهما لدى قومه الأوربيين[١] .

---

(١) أنظر : Jacqueline Pirenne, A la Découverte de l'Arabie, Paris, 1958.
وفي الترجمة العربية التي قام بها قدري قلعجي ، تحت عنوان « اكتشاف جزيرة العرب » بيروت ١٩٦٣ ص ٣٧—٤٤ .

على أن كتابات « ذي فرتيما » قد تأثرت إلى حد كبير بعقيدته الدينية ، كما دلت على جهل واضح بجغرافية المنطقة ، فضلاً عن تقديمه معلومات ساذجة عن مشاهداته هناك ، فمن ذلك مثلاً ، تفسيره لعدم صيد الحمام الذي يكثر بمكة ، من أن المسلمين يعتقدون أنه سليل تلك الحمامة التي كانت تكلم النبي — صلى الله عليه عليه وسلم — بوصفها الروح القدس[1] ، وفاته (أولاً) أن مكة بلد الله الحرام . لايجوز الصيد فيها ، وليس — كما زعم — لأن هذا الحمام ينحدر من تلك الحمامة التي كلمت مولانا وجدنا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — ثم من أين جاء بكل هذا ؟ ، وفاته (ثانياً) أن المسلمين لا يؤمنون بحمام على أنه الروح القدس ، وإنما ذلك هو « جبريل » عليه السلام ، ولعله في ذلك كان متأثراً بعقيدته الدينية .

ومنها كذلك حديثه عن « رمي الجمار » وأنه رمز لطاعة إسحاق ، ودليل على الرغبة في الاقتداء به ، فقد جاء في التعاليم الإسلامية أن الشيطان حاول إقناع إسحاق بعدم اللحاق بأبيه إبراهيم العازم على التضحية به[2] .

ويبدو هنا ، مرة أخرى ، أن « دي فرتيما » إنما يتحدث بمنطق اليهود والنصارى وعقيدتهم في الذبيح ، حتى في موطن العرب أنفسهم ، ونسي — أو تناسى — (أولاً) أن الذبيح عند العرب — على الأقل — إنما هو اسماعيل ، وليس إسحاق ، عليهما السلام ، وتناسى (ثانياً) أنه في مكة ، وليس في فلسطين ، والأولى موطن إسماعيل ، والثانية مستقر اسحاق ، ولو كان الأمر ، كما يرى « دى فرتيما » ، لكان رمى الجمار في فلسطين ، وليس في مكة ، ومن ثم فلست أدري من أين جاء بذكر اسحاق هنا[3] ؟ .

ثم إن قوله إن مدائن صالح والعلا ، إنما هما سدوم وعمورة ، لا يدل على جهل واضح بجغرافية المنطقة فحسب ، وإنما يدل كذلك على جهل بروايات التوراة ،

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٥-٤٦ .

(٣) راجع قصة الذبيح في كتابنا « اسرائيل » ص ١٩٦-٢٠٩ ، وفي الفصل الرابع من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » — الجزء الأول — .

كتابه المقدس ، وخاصة حين يذهب إلى أن أهل سذوم وعمورة كانوا يعيشون على المن والسلوى ، وأنهم كفروا بأنعم الله ، فعاقبهم بأعجوبة منه[1] .

والمعروف (أولاً) أن تلك قصة بني إسرائيل في التيه[2] ، (وثانيا) أن ما حدث في سدوم وعمورة ، إنما كان لأن قوم لوط عليه السلام كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء[3] ، ومن ثم فقد « أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء ، وقلب كل المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض »[4] ، ومن هنا رأى بعض العلماء أن هناك شبهاً بين مصير قوم عاد وثمود من ناحية ، وبين مصير سدوم وعمورة وبقية مدن الدائرة في عمق السديم[5] ، من ناحية أخرى ، ولعل هذا هو السبب في اضطراب فكرة « دى فرتيما » ، ومن ثم فقد ذهب إلى أن مدائن صالح والعلا ، هما سدوم وعمورة .

وأياً ما كان الأمر ، ففي عام ١٥٠٩م ، يتابع « دى فرتيما » رحلته إلى الجنوب ، وهناك في عدن يتهم بأنه نصراني يتجسس لحساب البرتغاليين الذين كانت سفنهم نشطة أمام السواحل العربية الجنوبية ، فيتم القبض عليه ، ويودع في قصر السلطان تمهيداً لإعدامه ، وهنا يتجه « دي فرتيما » في كتاباته وجهة دنيئة ، فيجعل من زوج السلطان إمرأة العزيز ، ويجعل من نفسه الصديق ، ثم تنتهي مغامراته الفاشلة بالرحيل إلى بلاد الفرس ثم الهند ، حيث يقوم هناك بدوره الحقيقي ، دور الجاسوس لملك البرتغال ، وينال جزاءه على ذلك ، فتكرمه جامعة البندقية ، وينال حماية

---

(١) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ص ٤١-٤٢ .

(٢) خروج ١٦ : ١-٣٦ ، وانظر كتابنا اسرائيل ص ٣٠٣-٣٢٩ .

(٣) راجع قصة لوط في القرآن الكريم : سورة الأعراف (٨٠-٨٤) وهود (٧٧-٨٣) والحجر (٥٧-٧٧) والشعراء (١٦٠-١٧٥) والنحل (٥٤-٥٨) ، وفي التوراة : سفر التكوين ١٨-٢٠-١٩ : ٢٩ .

(٤) تكوين ١٩ : ٢٠-٢٦ .

(٥) قاموس الكتاب المقدس ١/٥٥١ ، ٢/١١٩ ، ٣٠٠ ،

وكذا J. Hastings, Dictionary of the Bible, P. 734.

وكذا T.K. Cheyne, Encyclopedia Biblica, P. 3790.

أسرتين كبيرتين هناك ، وأخيراً تم الدراما بأن يعلن الكاردينال « كارفاجال » حمايته لـ « دى فرتيما » ، فضلاً عن الإنفاق على ترجمة مؤلفه إلى اللاتينية[١] .

ولعل كل ما قدمته هذه الرحلة خريطة لشبه جزيرة العرب ، — كما رسمها بطليموس ، منذ ثمانية عشر قرناً — وبعض المعلومات المشوهة عن المدينتين المقدستين ، مكة والمدينة ، ثم مقارنة جغرافية بين العربية الشمالية ، والعربية الجنوبية ، وقبل ذلك وبعده ، سموم ضد الإسلام والعرب ، وهو أمر لا يعد غريباً ، إن جاء من موطنه ، ولكن الغريب حقاً أن يترجم ذلك[٢] ، وأن يذاع بين شباب العرب ، والمسلمين منهم بخاصة ، حتى دون التعليق على ما فيه من روايات لا تعرف نصيباً من صواب ، وحكايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ ، إلى جانب ما فيه من دعاوي تتعارض مع الإسلام ، فضلاً عن المنطق والحق والصواب ، وقد تكون المصيبة أعظم ، لو أن الذين ترجموا ذلك يظنون أنهم يقدمون بعملهم هذا للعروبة وللإسلام — فضلاً عن العلم — خيراً ، أو حتى بعض الخير .

هذا وقد تميزت الفترة ما بين عامي ١٦٠٤ ، ١٧٣٩م ، برحلات الحجاج إلى مكة ، ففي عام ١٦٤٣م ، قام المطران « ماثيو دى كاسترو » — القاصد الرسولي في بلاد الهند — بزيارة الأماكن المقدسة ، متنكراً في زي رحالة غريب ، وذلك أثناء رحلته من الهند إلى روما ، ماراً بشبه الجزيرة العربية ، ولا شك في أنه — إذا صحت روايته — رجل الدين المسيحي الوحيد الذي قام بزيارة المدن الإسلامية المقدسة ، ولكنه لم يكتب بنفسه شيئاً عن ذلك[٣] .

وفي عام في ١٦٦٠م نرى « لويس دارفيو » يزور شمال بلاد العرب ، ويكتب وصفاً للبدو ، إلا أنه كان بعيداً عن المنهج العلمي في وصفه ، فضلاً عما فيه من مطاعن على العرب ، وتمجيد للرواية الاسرائيلية عن إسماعيل وإسحاق ، عليهما

---

(١) جاكلين بيرين : المرجع السابق ص ٤٨—٥٠ .

(٢) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العربية ، ترجمة قدري قلعجي ، بيروت ١٩٦٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٩١ .

السلام ، وعن والدتيهما الكريمتين – سارة وهاجر – بجانب الترجمة غير الصحيحة ، أو على الأقل غير الدقيقة ، لنصوص التوراة ، فيما يتصل باسماعيل بالذات[1] .

وفي عام ١٨٠٧م ، وصل إلى « جدّة » الرحالة الأسباني « بادياني لبلغ » تحت إسم « علي بك العباسي » ، مدعياً أنه ليس مسلماً فحسب ، وإنما آخر أمير من نسل الخلفاء العباسيين[2] ، ومن عجب أن الأوربيين أنفسهم في حيرة من أمرهم ، بشأن « علي بك » هذا ، فهو جاسوس لنابليون على رأي ، وهو أحد موظفي إمارة البحر الفرنسية على رأي آخر ، إلا أن هناك إتفاقاً على أنه كان عالماً ، وأنه قد زود بآلات قياس دقيقة للغاية ، وأنه قد نجح إلى حد كبير في تعيين المواقع المختلفة التي مرّ بها على سواحل البحر الأحمر ، مثل ينبع وجدّة وغيرهما ، وبصورة تقريبية موقع المدينة المنورة التي لم يقدر له أن يشرف بزيارتها ، وبصفة دقيقة لموقع مكة المكرمة على خريطة العالم ، وهكذا أمكن – ولأول مرة – تحديد الموقع العرضي لأحد الأماكن في داخل بلاد العرب بالنسبة إلى خط الإستواء ، هذا إلى جانب وصف دقيق للكعبة المشرفة ولكل ما كان يجري في موسم الحج[3] .

والذي يقرأ وصف الرجل للأماكن المقدسة – كما جاء في كتاب جاكلين بيرين[4] – يدرك أن الرجل كان مسلماً عن يقين – كما كان يعلن هو دائماً – رغم ما أثير حول إسلامه من شبهات .

والرأي عندي ، أن من يعيش الظروف التي عاشها « علي بك العباسي » ويزور الأماكن الطاهرة التي زارها ، وينال شرف رؤية الكعبة – أقدس مقدسات المسلمين – من داخلها ،ويسهم في تنظيف البيت الحرام ، إن من يسبغ الله عليه كل هذه النعم ،

---

(١) أنظر أمثلة على مسخ نصوص التوراة ، في كتاب جاكلين بيرين الآنف الذكر ص ١١٧–١٢٧ ، إلا أن تكون الترجمة العربية له هي التي أخطأت .

(٢) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٤٦ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٤٦ ، جاكلين بيرين : المرجع السابق ص ١٨٦–١٩٨ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٨٦–١٩٨ .

ليس ببعيدأن يهديه الله سواء السبيل ، ويفتح قلبه للإسلام ، و « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1] » وعلى أي حال ، فإني لا أثبت هنا إسلام « علي بك العباسي » ، ولا أنفيه ، فليست لدي الأدلة على هذا أو ذاك ، والله وحده يعلم الغيب من الأمر ، ولكن بعد أن منّ الله علي بفضله ؛ وعشت فترة من عمري بين رحاب هذه المقدسات الشريفة ، لا أستبعد أن الله جل وعلا ، قد فتح قلب الرجل للإسلام ، بصرف النظر عن المهمة التي جاء من أجلها ، والله يهدي من يشاء .

وجاء بعد ذلك الرحالة السويسري « جوهان ليدونج بوركهارت » الذي وصل إلى سورية في مارس ١٨٠٩م ، ليقوم بزيارة المناطق المتاخمة لشبه الجزيرة العربية ، وليجمع المعلومات عن البدو ، وهناك بذل جهداً كبيراً في دراسة القرآن الكريم وتفسيره — بعد أن كان قد درس اللغة العربية في إنجلترا — حتى عرف باسم الشيخ إبراهيم ، العالم العظيم في شئون الإسلام[2] .

وهكذا تمكن « بوركهارت » من القيام برحلته إلى الحجاز تحت إسم « الشيخ إبراهيم بن عبدالله » ، فزار الحرمين الشريفين ، وقدم وصفاً دقيقاً لموسم الحج ، وكتب عن مكة والمدينة كتابة علمية ، وفي عام ١٨١٢م ، اكتشف مدينة « البتراء » ، ثم أصدر عدة كتب عن رحلاته في سورية وفلسطين وشمال بلاد العرب[3] ، وأخيراً توفي في ١٥ اكتوبر ١٨١٧م ، ودفن بسفح جبل المقطم في القاهرة[4] .

وفي عام ١٨١٥م ، زار « نجد » المستشرق « جورج اوغسطس فالين » للقيام

---

(١) سورة الحديد : آية ٢١ ؛ سورة الجمعة آية ٤ ، وانظر تفسير القرطبي ص٦٤٢٧ ، ص٦٥٧٢–٦٥٧٣ (دار الشعب – القاهرة ١٩٧٠) .

(٢) جاكلين بيرين : المرجع السابق ص ٢١٦–٢١٧ .

(٣) J.L. Burckhardt, Travels in Arabia, London, 1829.
وكذا Johann Ludwing Burckhardt, Travels in Syria and Holy Land, London, 1822.

(٤) Philip K. Hitti, History of the Arabs, London, 1960, P. 7.

ببعض الدراسات اللغوية[١] ، وهناك رواية مشكوك فيها تذهب إلى أن « محمد علي باشا » والي مصر ، قد أرسله إلى هناك بعد أن فشلت جهوده في توطيد نفوذه في الشام ، وذلك للقيام بمهام سياسية في جبل « شمر[٢] » .

وفي عام ١٨٥٣م ، زار « سير ريتشارد برتون » الحرمين الشريفين ، متنكراً في زي مسلم يسمى « الحاج عبدالله » ، ثم كتب وصفاً لرحلته هذه[٣] .

وفي يولية ١٨٦٢م ، قام « وليم بلجريف » برحلته إلى العربية الوسطى ، ونشر في عام ١٨٦٥م كتاباً عن رحلته هذه ، سرعان ما ترجم إلى الفرنسية ثم الألمانية بعد ذلك ، كواحد من أحسن الكتب عن بلاد العرب ، ويزعم « بلجريف » أنه وصل إلى مناطق في قلب بلاد العرب ، لم يصلها أحد قبله[٤] ، وأما رفيقه في رحلته هذه فقد كان لبنانياً يدعى « بركات » ، وهو الذي أصبح فيما بعد بطريرك الروم الكاثوليك تحت إسم « بطرس الجريجيري »[٥] .

وتوغلت « الليدي آن بلنت » عام ١٧٨٩م في شمال بلاد العرب ، حتى « نجد » ، وكانت مولعة بدراسة الخيول العربية[٦] ، إلا أن « هوبر »[٧] و « اويتنج »[٨] يعدان من الذين غامروا بحياتهم ، وقاموا برحلات شاقة ، فيما بين عامي ١٨٧٦ ،

---

(١) F. Hommel, Explorations in Arabia, P. 705
وكذا Encyclopaedia Britannica, II, P. 171.

(٢) P.K. Hitti, op. cit., P. 7.

(٣) Sir Ritchard Burton, Personal Narrative of A Pilgrimage to El-Medina and Meccah, 2 Vols., London, 1857.

(٤) W.G. Palgrave, Observations Made in Central, Eastern and Southern Arabia, In 1862-1863, JRGS, 34, 1864, P. 111-154.

(٥) فيليب حتي : تاريخ العرب (مطول) – الجزء الأول – ترجمة إدوارد جرجى ؛ جبرائيل جبور ؛ بيروت ١٩٦٥ ص ٦ .

(٦) Lady Anne Blunt, A Pilgrimage to Najd, 2 Vols., London, 1883.

(٧) C. Huber, Inscriptions Recueillis dans l'Arabie Centrale, 1878-1882.

(٨) Julius Euting, Nabataische Inschriften aus Arabien, Berlin, 1885.

١٨٨٤م ، وقد بلغا « حايل » في شمالي بلاد العرب ، وحصلا على كثير من النقوش العربية الشمالية .

وهناك « سنوك هورجونيه » الهولندي ، الذي زار الحجاز ، فيما بين عامي ١٨٨٥ ، ١٨٨٦م ، وقدم لنا دراسة دقيقة عن الأحوال في مكة ، ووصف للحياة في الحجاز ، وفي موسم الحج بصفة خاصة(١) .

وهناك كذلك الرحالة الإنجليزي « تشارلس دوتي »(٢) ، وقد كان هذا الرجل من أشد المتعصبين ضد الإسلام ، وأكثرهم تطاولاً على المسلمين ، بل إنه في تطاوله إنما يحاول أحياناً أن يتجاوز كل حدود الأدب ، وأن يمس المثل الأعلى للإنسانية جمعاء ، سيدنا ومولانا رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وإن لم يستطع في كل الأحوال ، إلا أن يعترف بأن المصطفى المختار — صلوات الله وسلامه عليه — إنما كان دائماً وأبداً ، المثل الأعلى ، والأسوة الحسنة لكل المسلمين وغير المسلمين ، في كل زمان ومكان .

وفي عام ١٨٨٩م ، يقوم « تيودور بنت » وزوجته ، برحلة إلى البحرين ومسقط وعمان في جنوب شبه الجزيرة العربية ، حيث زارا كثيراً من المناطق الأثرية ، وكتبا عنها كتابهما المعروف(٣) .

وأشرف القرن العشرون ، وبدأت الأبحاث العلمية تزداد ، وأصبح بين أيدينا مؤلفات هامة ، لعل من أروعها ما كتبه « الويس موسل » ، الذي زار العربية الحجرية ، وكتب عدة مؤلفات في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات

---

(١) EB, 2, P. 170.

(٢) Charlis M. Doughty, Travels in Arabia Deserta, 2 Vols., Cambridge, 1888.

(٣) Theodore Bent and Mrs. Bent, Southern Arabia, Sudan and Socotra, London; 1900.

الأوسط وتدمر ونجد[1] ، ثم هناك كذلك ما كتبه « جوسين وسافينياك » في مؤلفهما الشهير عن آثار الحجاز ، وبخاصة مدائن صالح والعلا[2] ، أما كتاب « لورنس » « أعمدة الحكمة السبعة[3] » ، فقد نال مكانة عالية بين مؤلفات الأدب الحديث بعد الحرب العالمية الأولى[4] .

وكان أكثر الرحالة نشاطاً في نجد وأواسط بلاد العرب «هاري سان جون بريدجر فلبي » والذي سمى نفسه « الحاج عبدالله » وقد أتيح له ما لم يتح لغيره من الأوربيين ، إذ كان من المقربين إلى جلالة الملك المعظم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، ومن ثم فقد قام برحلات كثيرة ، وكتب عدة كتب[5] ، وكانت آخر رحلاته تلك التي قام بها في صحبة العالم البلجيكي « ج. ريكمانز » في شتاء ١٩٥١-١٩٥٢م ، وكانت في المثلث الواقع بين جدة ونجران والرياض ، وعاد ومعه ١٢٠٠ نقشاً ، منها تسعة آلاف نقش ثمودي ، وبقيتها نقوش لحيانية وسبئية ، بعد أن زارت البعثة كل ما وجدته من بقايا المدنيات القديمة ، في المنطقة الواقعة داخل المملكة العربية السعودية[6] .

---

(١) انظر من مؤلفات « الويس موسل » : Alios Musil, The Northern Hegas, N.Y. 1926.
وكذا The Middle Euphrates, N.Y. 1927,
وكذا Palmyrena, N.Y., 1928. وكذا The Northern Nejd, N.Y., 1928
وكذا Arabia Petraea, Wien, 1907. وكذا In the Arabian Desert, N.Y., 1930

(٢) A.J. Jaussen and R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie, 4 Vols., Paris 1904, 1911, 1914, 1920.

(٣) T.E.Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, N.Y., 1939

(٤) P.K. Hitti, op. cit., P. 7.

(٥) لعل من أشهر كتب فلبي : H. St. J.B. Philby, Saudi-Arabia, London, 1955.
وكذا H. St. J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947.
وكذا H. St. J.B. Philby, The Heart of Arabia, 2 Vols., London, 1922.
وكذا H. St. J.B. Philby, The Land of Midian, MEJ, 9, 1955.
وكذا H. St J.B. Philby, The Last Ruins of Quraiya, GJ, 117, 1951.
وكذا H. St. J.B. Philby, Arabian Highlands, N.UY., 1952.
وكذا H. St. J.B. Philby, and A.S. Tritton, Najran Inscriptions, JRAS, 1944.

(٦) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٤٨ ، موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٧٦ .

وفي عام ١٩٦٢م ، قامت بعثة أمريكية بزيارة مناطق مختلفة من المملكة العربية السعودية ، فزارت سكاكا والجوف وتيماء ومدائن صالح والعلا وتبوك ، وظفرت بنماذج من فخار قديم ، ونقلت صوراً لكتابات ثمودية ونبطية ؛ أهمها ما وجدته في قمة جبل غنيم ، على مبعدة ثلاثة أميال إلى الجنوب من تيماء ؛ وتعد من أقدم ما عثر عليه في العربية الشمالية[١] .

وليس من شك في أن تاريخ البحث العلمي في تاريخ العرب القديم يدين بالكثير لنفر من المستشرقين قدموا له أبحاثاً جادة في مختلف الميادين ، من أمثال « كوسان ده برسيفال »[٢] ، والذي يعتبر من الرواد في التأريخ لبلاد العرب قبل الإسلام ، وكذا « تيودور نولدكه »[٣] ، و « ج. روتشتاين »[٤] و « رينيه ديسو »[٥] و « جاك ريكمانز »[٦] و « كيتاني »[٧] و « أوليري »[٨] و « أوتووبير »[٩] و «فلهاوزن»[١٠] ،

---

(١) جواد علي ١/١٣٣ وكذا BASOR, 168, 1962, P. 9.

(٢) Caussin de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, 3 Vols., Paris 1847.-8

(٣) تيودور نولدكه : أمراء غسان ، ترجمة بندلي خوري وقسطنطين زريق ، بيروت ١٩٢٣م ، وكذا Th. Nôldeke, Semitic Languages, EB, 24, 1911.

(٤) G. Rothstein, Die Dynastie der Lakhmiden in al-Ḥira, Berlin, 1891.

(٥) R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907.

وكذا R. Dussaud, La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris,1955.

(٦) J. Ryckmans, Aspects Nouveaux du Probleme Thamoudeen, SI, 5, 1956.

وكذا J. Ryckmans, L'institution Monarchique en Arabie Meridionale avant l'Islam, Louvain, 1951.

(٧) L. Caetani, Annali dell' Islam, 10 Vols., Milano, 1905-1926.

(٨) O'leary, (Delacy D.D.), Arabia lefore Muhammad, London, 1927.

(٩) Weber, (Otto), Arabien Vor dem Islam, 1904.

(١٠) J. Wellhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927.

و « ج ريكمانز »[1] و « الكسندر كندي »[2] و « أدولف جرومان »[3] و « فريتز هومل »[4] و « رودوكناكيس » و « ديتلف نلسن » [5] و « تشارلس فورستر »[6] و « الفرد ونيت »[7] و « بيستون »[8] ، و « البرت جام[9] » ،و « كاسكل »[10] و « فون فيسمان وماريا هوفنر »[11] و « لودلف كريل »[12] و « كوك »[13]

---

(١) G. Ryckmans, Les Religions Arabes Pre-Islamiques, Louvain, 1951.

وكذا G. Ryckmans, on Some Problems of South Arabian Epigraphy, BSOAS, 1952.

وكذا G. Ryckmans, Inscriptions Sud-Arabes, le Museon, XII, 1942.

(٢) Kennedy(Sir Alexander. B.W.), Petra, its History and Monuments, London, 1925.

(٣) A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963.

(٤) F. Hommel, Explorations in Arabia, Philadelphia, 1903.

(٥) ديتلف نلسن ، فريتز هومل ، رودوكناكيس ، أدولف جرومان ، التاريخ العربي القديم ، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين ؛ القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٦) Charles Forster, The Historical Geography of Arabia, 2 Vols., London.

(٧) F.V. Winnett and W. Reed, Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970.

(٨) A.F.L. Beeston, Sculptures and Inscriptions from Shabwa, JRAS, 1954.

وكذا A.F.L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, BASOR, 16, 1954.

وكذا A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calendars and Dating, London, 1956.

(٩) A. Jamme, South-Arabian Inscriptions, Princeton, 1955.

وكذا A. Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore, 1962.

وكذا A. Jamme, Thamudic Studies, Washington, D.C. 1967.

وكذا A. Jamme, New Sabaean Inscriptions from South Arabia, 1968.

(١٠) W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, Kôln, 1954.

(١١) Hermann von Wissmann und Maria Hofner, Beitrâge Zur Historischen. Geographie des Vorislatmischen Sudarabien, Wiesbaden, 1953.

(١٢) Ludolf Krehl, ueber die Religion der Vorislamischen Araber, Leipzig, 1863.

(١٣) G.A. Cooke A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Oxford, 1903.

وهوجوفنكلر[1] ورايت[2] وسبرنجر[3] وليتمان[4] ووليم أولبرايت[5] وغيرهم ممن قاموا ببحوث قيمة ، وما يزالون يبحثون في التاريخ العربي القديم[6] .

أما العلماء العرب المحدثون – من أمثال جرجي زيدان وسليمان حزين ويحيى نامي وأحمد فخري ومحمد مبروك نافع ومحمد توفيق وعبد العزيز سالم وسعد زغلول ، وجواد علي وصالح العلي ومنذر البكر ، وحمد الجاسر وعبد الرحمن الأنصاري وعبد القدوس الأنصاري وعبدالله مصري ، وأحمد حسين شرف الدين ومطهر الأرياني وغيرهم من علمائنا الأفاضل – فليس من شك في أنهم قد ساهموا في هذا الميدان بقسط وافر وجهد ممتاز ، يستحقون عليه كل تقدير واحترام .

ثالثاً : في شرق شبه الجزيرة العربية :

في أخريات عام ١٩٥٣م ، أرسل متحف آثار عصور ما قبل التاريخ في أرهوس بالدنيمارك ، بعثة علمية إلى البحرين ، برياسة « ب. ف. جلوب وجفري » ،

(١) H. Winckler, Musri, Meluhha, Main, Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft 1, Berlin, 1898.
وكذا H. Winckler, Arabisches Musri, MVG, 11, 1906.

(٢) W. Wright, An Account of Palmyra and Zenibia with Travels andAdventures in Bashan and Deseit, London, 1896.

(٣) A. Sprenger, Das Leben und Die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861.
وكذا A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875.

(٤) E. Littmann, Thamud and Safa, Leipzig, 1940.
وكذا E. Littmann, Safitic Inscriptions, Leyden, 1943.

(٥) W. F. Albright, The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban, BASOR, 119, 1950.
وكذا W.F. Albright, The Chaldaean Inscriptions in Proto-Arabic Script, BASOR, 128, 1952.
وكذا W.F. Albright,A Note on Early Sabaean Chronology, BASOR,143,1956.

(٦) E. Wright, The Bible and the Ancient Near East, Essays in Honour of William Foxwell Albright, N.Y., 1965.
وكذا S. Moscati, Ancient Semitic Civilziations, London, 1957

كشفت أطلال معبد « باربار » ، والتلام الممتدة على مساحات واسعة ، ثم امتد نشاطها إلى قطر ، حيث كشفت عن مواقع أثرية ، وآثار أخرى ، تمثل حضارات العصر الحجري . وسرعان ما امتد نشاطها إلى الكويت ، حيث عثرت على آلات حجرية ، تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ ، وخاصة العصر الحجري القديم ؛ فضلاً عن معابد جزيرة « فيلكا » ، وأخيراً اتسع نطاق ميدان البعثة إلى شرق الجزيرة وإمارات الساحل العربي ، ولعلنا نستطيع أن نلخص نتائج هذه البعثة كالآتي :

(١) في البحرين :

لعل أهم اكتشافات البعثة الدنمركية إنما كان الكشف عن أطلال معبد « باربار » ، وتلال جنزية عديدة تعود إلى العصر البرونزي ، هذا فضلاً عن أوان فخارية في تل رأس القلعة[١] ، وهي المنطقة التي حوت أقدم محلة سكنية ، ترجع إلى الألف السادس قبل الميلاد . وظلت مأهولة حتى العصر المسيحي ، هذا وقد كشفت البعثة عن ست مدن حول القلعة ؛ تؤرخ الأولى بحوالي عام ٢٨٠٠ ق.م. ، وهي مبنية بمحاذاة البحر . وبيوتها صغيرة ، وتبدو غير مسورة ، وربما كان الملك الأكدي « سرجون الأول » قد قام بغزوها حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م.[٢]

وأما المدينة الثانية ، فتؤرخ بحوالي عام ٢٣٠٠ ق.م ، ويعتبر سكانها بناة لآلاف من المقابر الواقعة في وسط جزيرة البحرين وكذا معبد باربار ، وقد عثر فيها على الأختام المسماة تقليدياً « الأختام الدلمونية » ، والأوزان الهندية التي ظهرت في نفس الوقت في بلاد ما بين النهرين ومدن وادي السند[٣] .

---

(١) تقع القلعة في منتصف ساحل جزيرة البحرين الشمالي ، وتعرف باسم « قلعة البحرين » أو « القلعة البرتغالية » ، نسبة إلى القلعة التي أسسها البرتغاليون عام ١٥٢٢م ، على أنقاض قلعة عربية قديمة .

(٢) سليمان سعدون البدر : دراسة تاريخية لمنطقة الخليج العربي والحضارات التي نمت على شواطئه أثناء الألف الرابع قبل الميلاد » ، رسالة ماجستير . الأسكندرية ١٩٧٢ ص ١٨١–١٨٢ ، وانظر : آثار البحرين ، جمعية البحرين للآثار ، البحرين ١٩٧١ ص ٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٨ ، سليمان البدر : المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٢) في قطر :

وتعتبر من أهم مناطق الخليج العربي ، حيث تتمثل فيها أقدم الحضارات الإنسانية التي تمّ الكشف عنها في المنطقة حتى الآن ، ولقد اهتم الباحثون الأجانب بمنطقة قطر ، فقامت بعثة دنمركية للبحث عن آثارها ، وتمّ تحديد حوالي ٢٠٠ موقع أثري ، تنتمي إلى مرحلة عصور ما قبل التاريخ ، منها حوالي ١٣١ موقعاً تعود إلى العصر الحجري [١] ، هذا وليس في قطر مخلفات أثرية تنتمي إلى حضارة باربار في البحرين ، كما أن آثار قطر لا تتشابه مع آثار البحرين [٢] .

وعلى أي حال ، فلقد عثر عند الساحل الغربي قرب « رأس عوينات علي » على شظايا مصقولة تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ ، فضلاً عن أعداد من الأحجار قرب الطرف الجنوبي من جبل الجساسية وقرب عقلة المناصير والحملة وقرب الساحل الشرقي في الوصيل — على مبعدة ٢٥ كيلومتراً شمالي الدوحة [٣] — .

هذا ويميل « كابل » إلى أن المخلفات الأثرية في قطر ، والتي تتمثل في الصناعات الحجرية ، إنما يمكن تقسيمها إلى مجموعات مستقلة ومختلفة عن بعضها تماماً ، وذلك اعتماداً على الإختلافات المظهرية وطريقة الصناعة الفنية ، هذا فضلاً عن العثور على طبقة يمكن تصنيفها طبقياً ، ومن ثم يمكن تحديد التتابع الزمني لهذه الآثار [٤] .

---

(١) أنظر : ملخص تقرير قدم لمرتمر الآثار في البحرين ، وكذا
H. Kapel, Stone Age Culture of Qater.

(٢) G. Bibby, Looking for Dilmun, London, 1970, P. 166.
وانظر : سليمان البدر : المرجع السابق ص ٢٣٨-٢٣٩ .

(٣) V. Nielsen, The al-Wusail Mesobthic Flint Sites in Qater, Kuml, 1961, P. 182.

(٤) H. Kapel, Kumal, 1961, P. 149.

على أن البعثة الدنمركية إنما قد حصلت على أدوات وشظايا صوانية عديدة وآثار إحتّراق ، ثم جمعت عينات من الآثار المحترّقة ، وقد ثبتت بالفحص العلمي ، بطريقة الكربون ١٤ ، بأن تاريخ هذه العينات إنما يرجع إلى حوالي عام ٥٠٢٠ ± ١٣٠ ق.م[١] .

هذا وقد قسمت البعثة الدنمركية المواقع التي تنتمي إلى العصر الحجري – وعددها ٦٨ موقعاً – إلى أربع مجموعات حضارية وذلك وفقاً للتطور المادي المتمثل في التقدم من التقنية البدائية إلى الأحجار الظرانية ، إلى تقنية متطورة تتمثل في الرقائق الحجرية الممتازة مثل الفؤوس والمعاول ورؤس السهام الكبيرة ، غير أنه لا يمكن القول أن هذا التقدم المتدرج قد حدث نتيجة الإنتقال من حضارة إلى حضارة أرقى ، أو نتيجة لتعاقب مجتمعات إنسانية مختلفة أو قبائل مهاجرة استقرت لفتّرات طويلة أو قصيرة[٢] .

(٣) في دولة الإمارات العربية :

قامت البعثة الدنمركية بالتنقيب في بعض المواقع الأثرية التي تنتمي إلى عصور ما قبل التاريخ في دولة الإمارات العربية[٣] ، وتعتبر جزيرة « أم النار » في « أبو ظبي » من أهم المواقع التي تضم العديد من المدافن الغنية بأثاثها الجنزي المتضمن للأواني الفخارية والحجرية والأسلحة وأدوات الزينة ، هذا وقد تمّ الكشف في أم النار عن تل يضم أربعة أطوار من الاستقرار[٤] .

---

(١) هولجر كابل : أطلس ثقافة العصر الحجري في قطر ، أرهوس ، الدنيمرك ، ١٩٦٧ ص ١٩ .

(٢) سليمان البدر : المرجع السابق ص ٢٤٢–٢٤٣ ، وانظر

H. Kapel, Stone Age Discoveries in Qater , Kuml, 1964, P. 149.

(٣) تتكون دولة الإمارات العربية من سبع امارات هي : أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القوين ورأس الخيمة والفجيرة التي تطل على خليج عمان .

(٤) G. Bibby, Kumal, 1965, P. 149.

(٤) وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه في أوائل عام ١٩٧٢م ، تولى أستاذنا الدكتور رشيد الناضوري ، رياسة بعثة علمية كويتية ، تمكنت من الكشف عن عديد من المواقع الأثرية المنتمية إلى العصر الحجري القديم ، مثل مواقع الصليبخات ووارة والبرقان وجليعة العبيد وكاظمية وجزيرة أم النمل وجزيرة عكاز ، فضلاً عن التعرف على مواقع جديدة في جزيرة فيلكا[٣] .

---

(١) أنظر : رشيد الناضوري ، تقرير علمي خاص باستطلاع المواقع الأثرية في دولة الكويت ، ١٩٧٢م .

الفصل الثالث

جغرافية شبه الجزيرة العربية

تقع شبه الجزيرة العربية بين خطي عرض ١٢ً ، ٣٢° شمالاً ، ٣٠ً ، ١٢° جنوباً ، أي أنها تمتد عشرين درجة من درجات العرض كما أنها تمتد بين خطي الطول ٤٠ً ، ٣٤ ، ٤٠ً ، ٥٨° شرقاً ، وبذا يصبح امتدادها من الغرب إلى الشرق ، أربعاً وعشرين درجة ، وهي بهذا تأخذ شكلاً مستطيلاً ، وتبلغ مساحتها أكثر من مليون ميل مربع بقليل ، ومن ثم فهي أكبر شبه جزيرة في العالم ، أما أبعاد شبه الجزيرة ، فيبلغ طول ساحلها الغربي من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن ١٤٠٠ ميلاً ، ويبلغ طول ساحلها الشرقي من رأس الخليج العربي شمالاً ، حتى رأس الحد جنوباً (أقصى اتساع لخليج عمان) ١٥٠٠ ميلاً ، ويبلغ امتدادها من بحر العرب جنوباً إلى الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية ١٦٠٠ ميلاً ، أما عرضها في أضيق نطاق بين البحر الأحمر والخليج العربي فهو ٧٥٠ ميلاً ، وأما بين خليج عمان والبحر الأحمر ، فيصل الإتساع إلى ١٢٠٠ ميلاً[1] .

وتقع شبه الجزيرة العربية بين بادية الشام شمالاً ، والخليج العربي وبحر عمان شرقاً ، والمحيط الهندي جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً ، وهكذا يبدو واضحاً أن

---

(١) محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه الجزيره العربية ، الجزء الأول - القاهرة ١٩٥٦ - ص ٥-٧ .

المياه تحيط بها من أطرافها الثلاثة فقط ، ومن ثم فقط أخطأ مؤرخو العرب وجغرافيوهم حين أطلقوا عليها إسم « جزيرة العرب » وربما كان ذلك لأن مياه البحار تحيط بها من ثلاث جهات ، ثم يعقد لها نهر الفرات والعاصي عند إقترابهما في أعالي الشام حداً من الماء[1] ، ومن ثم كان التعليل « إحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها (أو أطرافها) فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أن الفرات القافل من بلاد الروم قدظهر بناحية «قنسرين» ، ثم إنحط على الجزيرة وسواد العراق ، حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتد إلى « عبادان »[2] ، أو «لأن بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة أحاطت بها ، وهي أرض العرب ومعدنها »[3] .

على أن شبه جزيرة العرب ليست وحدها هي مسكن العرب ، فقد كانت لهم مساكن فيما حولها ، إلا أنها مساكن أكثرهم ، وأهم مساكنهم ، ومن ثم فقد أضيفت إليهم[4] ، وذلك لأن العرب قد سكنوا في العراق من ضفة الفرات الغربية ، حتى بلغوا أطراف الشام ، كما سكنوا في فلسطين وسيناء إلى ضفاف النيل الشرقية حتى أعلى الصعيد ، وهي أرضون يرى الكتاب القدامى — من يونان ولاتين وعبريين وسريان — أنها من مساكن العرب ، ومن ثم فقد دعوها « بالعربية » و « بلاد العرب » ، لأن أغلب سكانها إنما كانوا عرباً[5] ، وأما بلاد العرب في

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص ٢٦ ، ياقوت ٢/١٠٠ ، وكذا
L.D. Stamp, Asia, An Economic and Regional Geography, P. 133.

(٢) البكري ١/٦-٧ ، ياقوت ٢/١٣٧ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٤٧ .

(٣) البكري ١/٦ .

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١ .

(٥) أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ، القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢-١٣ ، المقريزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة ١٩٦١ ص ٨٩ ، مصطفى كامل الشريف : عروبة مصر من قبائلها ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ٦/١٨٠ (طبعة دار الشعب) ،
وكذا Delacy O'leary, Arabia Befor · Muhammad, P. 5
وكذا انظر : مادة Kibt, في EI, P. 991.

التوراة فهي مواطن « الاسماعيليين » و « القطوريين »[1] ، وهي بواد تقع في شمال بلاد العرب ، وفي الأقسام الشمالية[2] منها .

هذا ويقسم اليونان واللاتين شبه الجزيرة العربية إلى أقسام ثلاثة :

(١) العربية الصحراوية : Arabia Deserta

ويعنون بها بادية الشام في أغلب الأمر[3] ، وبادية السماوة في بعض الأحايين[4] ، بل إن « ديودور الصقلي » إنما يذهب إلى أنها المناطق الصحراوية التي تسكنها القبائل المتبدية ، وأن سكانها من الآراميين والنبط[5] ، وأنها تقع بين سورية ومصر ، كما أنها مقسمة بين شعوب ذات مزايا وصفات متباينة ، وإن كان يبدو أن الرجل لم يكن لديه خط واضح يفصل بين العربية الصحراوية والصخرية ، كما عند الجغرافيين الرومان[6] ، وأما « إيراتو سثينيس » — وربما سترابو كذلك — فقد أطال حدود العربية الصحراوية من الشمال الغربي وجعلها حتى « هيرابوليس » في نهاية خليج السويس ، وإن وضع الحد الجنوبي لها عند بابل[7] .

ونقرأ في النصوص الآشورية من عهد « شلمنصر الثالث » (٨٥٩—٨٢٤ ق.م) أن من بين أعدائه في موقعة « قرقر » عام ٨٥٣ ق.م ، مجموعة عربية[8] ، ولعلهم

---

(١) نسبة إلى « قطورة » الكنعانية ، زوجة الخليل الثالثة ، بعد سارة وهاجر (أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٢١٣—٢١٤) .

(٢) جواد علي ١/١٤٣—١٤٤ وكذا J. Hastings, op. cit., P. 585,

(٣) C. Forster, op. cit., P. 110F.

(٤) A. Musil, in the Arabia Desert, P. 235.

(٥) Ibid., P. 499.

(٦) سامي الأحمد : نظرة في جغرافية شبه الجزيرة العربية ، مجلة العرب ، العدد السابع ، أبريل ١٩٦٩م ص ٥٩٩ وكذا Diodorus Siculus, II, 48 (London 1932)

(٧) سامي الأحمد : المرجع السابق ص ٦٠٢ ، وكذا Strabo, Geography, edited by H.L. Jones, London, 1917, I, 2:32.

(٨) أنظر : مقالنا : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة « مجلة كلية اللغة العربية » ، العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧—٤٣٧ وانظر : D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, I, Chicago, 1927, P. 611.

يكوّنون مشيخة أو إمارة ، على رأسها « جندب » ، وجدت هناك منذ الألف الثانية قبل الميلاد ، وكانت مصدر قلق للحكومات المسيطرة على الهلال الخصيب ، وأنها كانت تتنقل في هذه البادية بحرية ، لا تعترف بحدود أو فواصل ، وإنما كانت تقيم حيث الماء والكلأ والمكان الذي يتلاءم وطباعها (١) .

(٢) العربية الصخرية : Arabia Petreae

وكان مركزها سيناء وبلاد الأنباط ، وعاصمتها البتراء ، وأنها سميت كذلك ، إما نسبة إلى عاصمتها ، أو إلى طبيعة المنطقة الصخرية ، ويرى بعض الباحثين أنها إضافة من بطليموس الجغرافي ، وقد قصد بها شبه جزيرة سيناء ، وما يتصل بها من فلسطين والأردن (٢) ، ويرى « ديودور » أنها تقع إلى الشرق من مصر ، وإلى الجنوب والجنوب الغربي من البحر الميت ، وفي شمال العربية السعيدة وغربها ، وأن الأنباط كانوا يقيمون في المنطقة الجبلية منها ، فضلاً عن المرتفعات المتصلة بها في شرق البحر الميت ووادي عربة ، وفي جنوب اليهودية ، وحتى خليج العقبة ، وأما الأقسام الباقية فقد سكنتها قبائل عربية ، دعاها الكتاب اليونان والرومان « سبئية » ، الأمر الذي تكرر كثيراً في كتاباتهم عن القبائل التي كانوا لا يعرفون أسماءها ، والتي كانت تقطن فيما وراء نفوذ الأنباط والرومان ، ولعلهم يعنون بذلك أنها قبائل جنوبية في غالب الأمر (٣) .

(٣) العربية السعيدة : Arabia Felix

وهي أكثر الأقسام الثلاثة إتساعاً ، وتشتمل على كل المناطق التي دعاها الكتاب العرب — من مؤرخين وجغرافيين — « بلاد العرب » ، كما أن حدودها الشمالية لم

---

(١) جواد علي ١/١٦٥–١٦٦ وكذا C. Forster, op. cit., P. 112

(٢) Diodorus Siculus, 11:48. وكذا W. Smith, A Dictionary of the Bible, I, P. 91

(٣) البكري ٤/١٤٠١ ، سامي الأحمد : المرجع السابق ص ٥٩٧؛ جواد علي ١/١٦٦ ، وكذا Diodorus Siculus, 11:48 وكذا A. Musil, in The Arabian Desert, P. 499 وكذا A. Musil, The Northern Hegas, P. 309.

تكن ثابتة ، وإنما كانت تتغير طبقاً للظروف السياسية ، فضلاً عن قوة أو ضعف تلك الكيانات السياسية التي تقع إلى الشمال منها ، ويتجه البعض إلى أن جهل القدماء بداخل بلاد العرب ، هو الذي دعاهم إلى احتساب هذا الجزء من بلاد العرب السعيدة أو الخضراء ، مع أنه في الواقع يعتبر من بلاد العرب الصحراوية ، وأما الجزء الذي يمكن أن يطلق عليه « بلاد العرب السعيدة » ، فهو الجزء الجنوبي الغربي ، حيث تقع بلاد اليمن[1] ، لغنى محاصيلها وتنوعها ، ولاعتدال مناخها ، على النقيض من المناطق المستعرة الحر وراءها ، وقد أدت هذه الظروف منذ الألف الأول قبل الميلاد ، إلى قيام مجتمعات سياسية مستقرة في تلك المنطقة ، امتد أثرها إلى الساحل الأثيوبي المقابل في صورة تجارة واسعة ، وموجات من المهاجرين المستوطنين[2] .

وعلى أي حال ، فإن الجغرافيين اليونان لم يفرقوا بين بلاد العرب الصحراوية والصخرية ، حيث يكون الفاصل بينهما صعباً جداً بالنسبة إليهم ، فاعتبار اليونان القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية منطقة واحدة يمكن ملاحظته في تعليق « إريان » على سفرتي رسل قمبيز وبطليموس الأول عبر صحراء جرداء[3] ، وكذلك اعتبر « ايراتوسثينيس » — كما أشرنا آنفاً — الخط الفاصل بين بلاد العرب السعيدة والصحراوية هو الذي يبدأ من « هيرابوليس » إلى بابل ماراً بالبتراء ، علماً بأن الجغرافيين اليونانيين — وحتى الرومان من بعدهم — لم يضعوا صحراء النفود الكبرى ضمن بلاد العرب الصحراوية ، وإنما جعلوها جزءاً من العربية السعيدة[4] .

أضف إلى ذلك أننا لم نقرأ في كتاباتهم شيئاً عن المدن الهامة كتيماء ودومة الجندل ، فضلاً عن وادي السرحان الذي ذكره الجغرافيون وبعض المؤرخين

---

(١) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ٥١ .

(٢) موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ص ٣٥ ، وكذا Diodorus, 11:48

(٣) سامي الأحمد : المرجع السابق ص ٦٠٣-٦٠٤ وكذا

Arrian, Anabasis of Alexander the Great and Indica, edited by E.J. Chinnock, (London, 1893), Ch. 43.

(٤) سامي سعيد الأحمد : نظرات في جغرافية شبه الجزيرة العربية في المصادر اليونانية القديمة ، مجلة العرب ، العدد السابع ، السنة الثالثة ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ٦٠٤ .

التالين لهم تحت إسم « سيرميون – بيديون » (Syrmaion-Pedion) ، مما يدل على أنهم لم يذهبوا إلى هذه المناطق ، وإنما اعتمدوا في الكتابة عنها على معلومات شفهية متداولة ، وإن كان هذا لا يعني أن التغلغل اليوناني في المناطق الشمالية من بلاد العرب كان معدوماً ، فهناك معالم كثيرة يغلب عليها الطراز اليوناني في العمارة ، إلى جانب كثرة ما وجد بها من النقود اليونانية[1] .

وأما الكتاب العرب ، فقد قسموا شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام ، هي : اليمن وتهامة والحجاز ونجد واليمامة (وتسمى أيضاً العروض)[2] ، وكان أساس تقسيمهم « جبل السراة » – أعظم جبال بلاد العرب – وهو سلسلة جبال تبدأ من اليمن ، وتمتد شمالاً حتى أطراف بادية الشام ، على مدى ١١٠٠ ميل تقريباً ، ويطلق عليها عدة أسماء ، فهي جبال السراة (السراة هي الأرض المرتفعة) ، وهي جبال السروات (جمع سراة)، وهي جبال الحجاز ، كما كانت تسمى باسم الإقليم الذي هي فيه ، فيقال جبال الحجاز في الحجاز ، وجبال عسير في إقليم عسير[3] .

وقد أضاف بعض الكتاب قسماً سادساً هو البحرين – والذي يسمى كذلك « هجر » – وهو في نظر البعض جزء من اليمامة ، وفي نظر آخرين جزء من العراق ، وأخيراً فهناك من يقسم بلاد العرب إلى قسمين إثنين ، الواحد : اليمن والحجاز والآخر : تهامة ونجد واليمامة[4]

(١) اليمن :

وتمتد على طول المحيط الهندي ، ويحدها البحر الأحمر من الغرب ، والحجاز من الشمال ، وفيها التهائم والنجد ، وهي في عرف بعض الباحثين ، إنما تقع من وراء

---

(١) سامي الأحمد : المرجع السابق ص ٦٠٤ .

(٢) ياقوت ١٣٧/٢ ، صبح الأعشى ٢٤٥/٤ ، المفضليات للمفضل الضبي ص ٤١٦ ، (دار المعارف – القاهرة ١٩٥٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٤٧ .

(٣) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٣٤–٣٦ .

(٤) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ١٨ .

تثليث وما سامتها إلى صنعاء ، وما قاربها إلى حضرموت والشحر وعمان ، إلى عدن أبين وما يلي ذلك من التهائم والنجود ، وتخترق « السراة » اليمن من الشمال إلى الجنوب حتى البحر ، وتتخللها الأودية التي تنساب فيها مياه الأمطار . وتمتد بين الهضاب والشعاب فلاة تتفرع من الدهناء من ناحية اليمامة والفلج يقال لها « الغائط » ، وتظهر في أواسطها ، وتقع بين مأرب وحضرموت[1] .

واليمن — في رأي القلقشندي[2] — قطعة من جزيرة العرب ، يحدها من الغرب بحر القلزم ، ومن الجنوب بحر الهند ، ومن الشرق بحر فارس ، ومن الشمال حدود مكة ، حيث الموضع المعروف بطلحة الملك ، وما على سمت ذلك إلى بحر فارس ، وهكذا كان اليمن لا يقتصر على الجنوب الغربي لشبه جزيرة العرب فحسب ، ولكنه يشمل كل دويلات جنوب شبه الجزيرة العربية ، كسبأ وأوسان وحضرموت وعمان[3] وغيرها .

وأما سبب تسميتها باليمن ، فذلك أمر مايزال موضع خلاف ، فهناك من يذهب إلى أن ذلك إنما كان نسبة إلى أول من قطنها من العرب ، الذي قال له والده قحطان أنت أيمن ولدي ، أو لأنها تقع إلى يمين الكعبة ، بينما يتجه فريق ثالث إلى أن السبب إنما كان في طبيعة البلاد نفسها ، فهي بلاد اليمن والخير والبركة ، على أن رأياً رابعاً يذهب إلى أنها سميت بذلك لتيامن العرب إليها ، أو لأن الناس قد كثروا بمكة فلم تحملهم فالتأمت بنو يمن إلى اليمن ، وهي أيمن الأرض فسميت بذلك ، وأخيراً فهناك من يرجح أنها سميت اليمن من كلمة « يمنات » الواردة في نص يرجع إلى أيام

---

(١) ياقوت ٢/٢٣٧ ، ٢١٩ ، ٥/٤٤٧ ، البكري ١/١٦ ، جواد علي ١/١٧٠–١٧١ ، وانظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، منشورات دار اليمامة ، الرياض ١٩٧٤ ص ٦٥–٦٨ وكذا EI. 4, P. 764

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٥/٦ .

(٣) محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب — الجزءان الثالث والرابع ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٨ .

الملك « شمر يهرعش »[1] غير أن كل تلك الآراء لم تقل لنا شيئاً عن الإسم الذي كان يطلق عليها قبل أن تسمى باليمن .

وتشتهر بلاد اليمن بغنى محاصيلها وتنوعها ، واعتدال مناخها ، حتى لقد سميت — كما يقول الهمداني — باليمن الخضراء ، لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها ، على أن فريقاً من المستشرقين إنما يرى أن ما نسب إلى اليمن من غنى وخصب مبالغ فيه ، وأن معظم الحاصلات التي كان يظن أن بلاد اليمن مصدرها ، إنما كان يستجلبها العرب — والمصريون الذين كانوا يحتكرون التجارة في البحر الأحمر — من جزائر الهند وسواحل أفريقية الشرقية ، وأنهم كانوا يخفون هذا عن جيرانهم ، حتى لا يزاحموهم في الحصول عليها من هذه الأنحاء ، إلا أن هناك حقيقة واضحة ، هي أنها كانت بسبب الجبال التي تقع في داخلها عرضة للرياح الموسمية ، فتسقط الأمطار التي تجعل أرض اليمن تجود بالبن أهم حاصلاتها ، وبالفاكهة والقمح والأعناب والتوابل[2] .

(٢) تهامة :

ورد اسم تهامة في النصوص العربية الجنوبية « تهمت » (تهمتم)[3] ، وقد حاول بعض الباحثين إيجاد صلة بين هذه اللفظة وكلمة (Tiamtu) البابلية ، ومعناها البحر ، وكلمة « تيهوم » (Tehom) العبرية[4] ، بينما يتجه « جواد علي » إلى أن الكلمة إنما ترجع إلى أصل سامي قديم ، له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر ، ومن ثم فهي شديدة الرطوبة والحرارة في الصيف ، ومن هنا سميت « تهامة »

(١) ياقوت ٥/٤٤٧ ، كتاب التيجان ص ٣٢ ، مروج الذهب ٢/٤٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٤٢ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص١١٢ ، سعد زغلول : في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ١٩٧٥ ص ٦٩—٧٠ ، محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ١٩ ، جواد علي ١/١٧١ ، الإكليل ١/٤٦

(٢) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ١٩—٢٠ .

(٣) Ency. of Islam, 4, P. 1155

(٤) جواد علي ١/١٧٠ ، وكذا E. Schrader, Die Keilinchriften und das Alte Testament., Berin, 1903, P. 492.

من التهم ، وهو شدة الحر وركود الريح ، إلا أن هناك من يرى أن السبب إنما هو تغيّر هوائها ، كما أن هناك من يرى أن التهمة هي الأرض المتصوبة نحو البحر[1] ، ولعل انخفاض أرض تهامة كان هو السبب في أن يسمى « بالغور » و « بالسافلة » ، وعلى أي حال ، فهي تتكون من المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً[2] .

وهي تتألف من تهائم ، فهناك تهامة اليمن ، وتهامة عسير ، وتهامة الحجاز ، وفي الواقع أن التهائم ليست هي المنطقة الساحلية السهلة فحسب ، ولكنها تشتمل كذلك على أكثر المناطق الواقعة إلى المنحدر الغربي لسفوح جبال الحجاز[3] ، وتختلف في عرضها باختلاف قرب السلاسل الجبلية من البحر وبعدها عنه ، وقد يبلغ عرضها خمسين ميلا في بعض الأماكن[4] ، وقد تضيق في أماكن أخرى إلى أن تصبح الهضاب القريبة من الساحل متصلة بالشاطىء رأساً ، هذا إلى أن أكثر هذه المنطقة الساحلية رملي شديد الحرارة ، قليل الإنبات ، كما أن جميع المدن الساحلية إنما تقع في هذه المنطقة[5] .

(٣) الحجاز :

وهو منطقة جبلية تقع غرب تهامة ، وتحاذيها من الشمال إلى الجنوب ، وتمتد رقعته — في رأي أكثر علماء الجغرافية المسلمين — من تخوم الشام عند العقبة إلى « الليث » ، وهو واد بأسفل السراة يدفع في البحر ، فتبدأ عندئذ

---

(١) ياقوت ٢/٦٣–٦٤ ، جواد علي ١/١٧٠ ، مبروك نافع : المرجع السابق ص٢١ ، البكري ١/٣٢٢ .

(٢) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٠٩ ، ياقوت ٢/١٣٧ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ١٨ ، الهمداني . صفة جزيرة العرب ص ٢٥٨–٢٦٠ (طبعة الرياض ١٩٧٤) .

(٤) جواد علي ١/١٦٧ .

(٥) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ١٨ ١٩ .

أرض تهامة[1] ، أو هو من تخوم صنعاء من العبلاء وتبالة إلى تخوم الشام[2] ، وقد ذهب البعض إلى أن تبوك وفلسطين ، إنما هما من أرض الحجاز ، بينما سمي القسم الشمالي من الحجاز بأرض مدين وحسمي ، نسبة إلى جبال « حسمي » التي تتجه من الشمال إلى الجنوب[3] ، والتي تتخللها أودية محصورة بين التيه وإيله ، وبين أرض « بني عذرة » من ظهر حرة « نهيل »[4] ، وكانت تسكنها في العصر الجاهلي قبائل « جذام »[5] ، وعرب الحويطات في أيامنا هذه والذين يرى بعض الباحثين فيهم بقايا الأنباط[6] .

وأما سبب تسميته حجازاً ، فلأنه يحجز بين ساحل البحر الأحمر ، وهو هابط عن مستواه ، وبين النجاد الشرقية المرتفعة بالنسبة إلى الساحل الغربي[7] ، أو لأنه احتجز بالجبال[8] ، أو لأنه يحجز بين الغور والشام[9] ، أو لأنه يحجز بين تهامة ونجد ، وما سال من « ذات عرق » مقبلاً فهو نجد إلى أن يقطعه العراق[10] ، أو لأنه يحجز بين الشام واليمن والتهائم[11] ، أو بين تهامة والعروض ، وفيما بين اليمن ونجد[12] .

---

(١) جواد علي ١٦٧/١ ، ياقوت ١٣٧/٢ .

(٢) الحسن بن عبدالله الأصفهاني : بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر ، الدكتور صالح العلي ، دار اليمامة ، الرياض ١٩٦٨ ص ١٤ .

(٣) ياقوت ١٣٧/٢ ، البكري ١٢/١ ، جواد علي ١٦٧/١
وكذا EI, I, P. 368. وكذا Handbook of Arabia, by British Admiralty, I, P. 96

(٤) لسان العرب ٢٤/١٥ ، ياقوت ٢٧٦/٣ .

(٥) C.M. Doughty, Ttavels in Arabia Deserta, 2, N.Y., 1946, P. 624.
وكذا EI, I, P. 368

(٦) EI, I, P. 349.

(٧) فؤاد حمزة : المرجع السابق ص ١٧ .

(٨) البكري ١١/١ .

(٩) ياقوت ١٣٧/٢ ، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندى : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ؛ القاهرة ١٩١٣ ؛ ٢٤٦/٤ .

(١٠) الأصفهاني : المرجع السابق ص ١٤-١٦ .

(١١) مروج الذهب ٣٥/٢-٤٣ .

(١٢) ياقوت ٦٣/٢-٢٦٢ ، البكري ١٠/١-١١ .

(٤) نجد :

وهي في الكتب العربية إسم للأرض العريقة التي أعلاها تهامة واليمن ، وأسفلها العراق والشام[١] ، وحدها « ذات عرق » في الحجاز ، وما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد إلى أطراف العراق وبادية السماوة[٢] — وهي مابين جرش وسواد العراق — وليست في الكتب العربية حدود واضحة دقيقة لنجد ، فهم يقولون « إذا خرجت من المدينة فأنت منجد إلى أن تتصوب في مدارج العرج — وهو واد بين مكة والمدينة[٣] — فإذا تصوبت فيها فقد أتهمْت إلى مكة »[٤] ، ويقولون « إذا خلفت عمان مصعداً فقد أنجدت ، فلا تزال منجداً حتى تنزل في ثنايا ذات عرق فإذا فعلت ذلك فقد اتهمت إلى البحر[٥] ، وعلى أي حال ، فإن « نجداً » بصفة عامة إنما هي الهضبة التي تكون قلب شبه الجزيرة العربية[٦] ، وهي ليست قاحلة — كما يتصورها معظم الناس — وإنما نثرت فيها أراض صالحة للزراعة ، بل هي دون شك أصح بلاد العرب ، وأجودها هواء ، ومن ثم فقد ترنم الشعراء برباها ورياضها .

وتتألف نجد من الوجهة الطبيعية من مناطق ثلاثة : منطقة وادي الرمة ، فالمنطقة الوسطى ، ثم المنطقة الجنوبية ، أما علماء العرب فقد قسموا نجد إلى عالية وسافلة ، أما نجد العالية : فما ولى الحجاز وتهامة ، وأما السافلة فما ولى العراق[٧] ، وكانت

---

(١) ياقوت ٤/٢٦٢ ، محمود شكري الألوسي : تاريخ نجد ص ٧ .

(٢) ياقوت ٢/١٣٧ ، ٥/٢٦٢–٢٦٥ ، البكري ١/١٤ ، جواد علي ١/١٨١ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٤٨ .

(٣) من عجب أن الاخباريين قد اختلفوا في مكة والمدينة ، فرأى البعض أن المدينة من نجد ، ومكة من تهامة اليمن ، ورأى آخرون أن المدينة حجازية ومكة تهامية ، بل لقد ذهب فريق ثالث إلى أن المدينة نفسها بعضها حجازي وبعضها تهامي (الإصطخري : المسالك والممالك ص٢١ ، الأصفهاني ص١٤ ، ياقوت ٢/٢١٩) .

(٤) الأصفهاني : المرجع السابق ص ٣٣٧–٣٣٨ .

(٥) ياقوت ٢/٦٣ .

(٦) جواد علي ١/١٨١ وكذا K.S. Twitchell, Saudi Arabia, 1953, P. 6. وكذا L.D. Stamp, op. cit., P 137.

(٧) ياقوت ٢/٢٦٢ ، جواد علي ١/١٨٢ ، تاريخ نجد ص ٨ ، عصر ما قبل الإسلام ص ٢١ .

نجد حتى القرن السادس الميلادي ذات أشجار وغابات ولا سيما في « الشربة » جنوب وادي الرمة وفي « وجرة »[1] .

(٥) العروض :

وتشمل اليمامة والبحرين وما والاهما ، وسميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق[2] .

أما اليمامة فقد سميت كذلك نسبة إلى اليمامة أشهر بلادها ، والتي كانت تعرف من قبل « جو والقرية »[3] ، وإن هذا التغيير في الإسم ، إنما تمّ — طبقاً لرواية الأخباريين — بعد القضاء على « طسم » التي كانت تسكن الخضراء ، و « جديس » التي كانت تسكن الخضرمة [4] — الأمر الذي سنناقشه بالتفصيل في مكانه من هذه الدراسة — .

هذا وقد عثر « جون فلبي » ، وبعض رجال شركة النفط العربية السعودية ، و «البرت‌جام» ، وبعثة جامعة الرياض ، على كتابات ونقوش في موضع «قرية الفاو» — على مبعدة ١٢٠ كيلومتراً من نجران — مكتوبة باللهجات العربية الجنوبية ، وترجع إلى ما قبل الميلاد[5] ، كما عثروا على مقابر وعلى أدوات فخارية ، ظهر من فحصها أنها تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد[6] .

---

(١) J.B. Philby, The Heart of Arabia, I, P. 115. وكذا EI, 3, P. 895

(٢) ياقوت ٤/١١٢ ، الأصفهاني : المرجع السابق ص ٣٣٦ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١١٢ .

(٣) ياقوت ٥/٤٤٢ .

(٤) تاريخ الطبري ١/٦٣٠ .

(٥) J.B. Philby, GJ, CXII, 1949, P. 86F. وكذا Le Museon, LXII, 1949, 1-2, P. 87

(٦) جواد علي ١/١٧٩—١٨٠ وكذا J.B. Philby, GJ, CXII, 1949, P. 92 وكذا R.H. Sanger, op. cit., P. 139

وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن « برترام توماس » إنما يذهب إلى أن آبار « العويفرة » القريبة من « القرية » إنما هي موضع « أوفير[1] » ، التي أرسل إليها سليمان ملك اليهود ، و «حيرام» ملك صور ، بأساطيلهما لإحضار الذهب والأخشاب النفيسة وكل ما هو نادر وغريب[2] ، وأن الإسم العربي القديم إنما هو « عفرة » وقد تحرف بالنقل إلى العبرانيــة واليونانية فصار «Ophir» ، وهذا الموضع قريب من مناجم الذهب[3] .

ويبدو أن هناك عدة عوامل أثرت في اليمامة وفي أواسط شبه الجزيرة العربية ، فحولت أرضها إلى مناطق صحراوية ، على حين أننا نجد في الكتب العربية ، أنها كانت غزيرة المياه ، ذات عيون وآبار ومزارع[4] .

وأما البحرين ، أو « هجر » ، فهي منطقة تمتد من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً ، وتتكون من : قطر ، والتي تمتد من عمان إلى حدود الإحساء ، ثم الإحساء ، وكانت تسمى قديماً « هجر والبحرين » (والتي سميت بالبحرين من أجل نهرها محلم ولنهر عين الجريب) وأما أغنى مناطق الإحساء ، فهي منطقة الإحساء والقطيف حيث تكثر الآبار والعيون[5] .

وهناك على مقربة من العقير — وهي ميناء صغير يقع قريباً من القطيف — توجد خرائب « جرها » (الجرعاء) المدينة التجارية القديمة ، وملتقى طرق القوافل التي كانت ترد من جنوب بلاد العرب إلى العراق وإلى البتراء[6] ، وإن كان «جرانت»

---

(١) أنظر مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية » ص ٢٨٧-٤٣٧ ، وكتابنا « اسرائيل » ص ٤٤٤-٤٤٨ .

(٢) ملوك أول ٩ : ٢٧ ، ١٠ : ١١-١٢ .

(٣) J.B. Philby, The Empty Quarter, P. 177 وكذا B. Thomas, Arabia Felix, P.163.

(٤) جواد علي ١٨٠/١ .

(٥) ياقوت ٣/٥-٣ ، حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٦٨ ، الهمداني : المرجع السابق ص ٢٧٩-٢٨٠ (طبعة ١٩٧٤) ، جواد علي : المرجع السابق ص ١٧٤-١٨٥ ، وكذا Handbook of Arabia, P. 298.

(٦) جواد علي ١٧٥/١ ، فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٤٣-٤٥ ، ٥٩-٦٠ وكذا C. Forster, op. cit., P. 217.

يذهب إلى أن الجزء الأوسط من هذا الطريق ــ والذي يمر في صحراء النفود ــ يصل حداً يستحيل معه المرور[1] ، ويؤيد « الويس موسل » هذا الإتجاه مضيفاً إليه بأن تركيبات « اللافا » للتربة مسؤولة عن هذه الصعوبة[2] .

وأما القسم الشمالي من هذه المنطقة فهو « الكويت » ، ومعظم أرضه منبسطة ، وأكثر سواحله رملي ، إلا بعض الهضاب أو التلال البارزة ، وأكثر ما يزرع هناك النخيل ، وليس في الكويت من الأنهار الجارية غير مجرى واحد يقال له « المقطع » وأشهر مدنه الكويت وجهرة ، وهي من أخصب بقاع الكويت حالياً ، كما أنها كانت مأهولة بالسكان منذ عصر ما قبل الإسلام[3] .

مظهر السطح :

تتكون أغلب الأرض في بلاد العرب من بواد وسهول تغلبت عليها الطبيعة الصحراوية ، ولكن قسماً كبيراً منها يمكن إصلاحه إذا ما تعهدته يد الإنسان واستخدمت في إصلاحه الوسائل العلمية الحديثة ، والأرض الصالحة للزراعة تزرع فعلاً لوجود المياه فيها ، أما الأرضون التي تعد اليوم من المجموعة الصحراوية[4] ، فهي :

(١) الحرار :

الحرة ــ كما في معجم ياقوت ــ أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها احرقت بالنار[5] ، وهذه الحرات إنما هي مقذوفات بركانية تبتدىء من شرق حوران ، وتمتد منتشرة إلى المدينة المنورة ، التي هي نفسها تقع بين حرتين (واقم

(١) سامي الأحمد : المرجع السابق ص ٢٠٣ وكذا
P.C. Grant, The Syrian Desert, London, 1947, P. 36.

(٢) A. Musil, Arabia Deserta, P. 265.

(٣) جواد علي ١/١٧٦–١٧٧ ، وكذا
C. Forster, op. cit., P. 214

(٤) جواد علي ١/١٤٥ .

(٥) ياقوت ٢/٢٤٥ .

والوبرة) وهي كثيرة في بلاد العرب عدّ منها بعض الكتاب نحواً من تسع وعشرين حرة[١] ، وأشهرها حرة واقم ، والتي تنسب إليها وقعة الحرة (٦٣/٦٨٣) على أيام يزيد بن معاوية ، حيث قتل الأمويون أكثر من عشرة آلاف من أهل المدينة ، وارتكبوا ضد أهلها الكثير من الفظائع . وفعلوا بها — كما فعلوا بمكة من بعد — ما لا يتفق مع خلق أو دين ، فضلاً عن انتهاك حرمة مدينة رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم[٢] — .

والحرة عادة مستطيلة الشكل ، فإذا كان فيها شيء مستطيل غير واسع ، فذلك الكراع واللابة[٣] (اللافا) وهي صخور بركانية ، وتكثر الحرات في الأقسام الغربية من شبه جزيرة العرب ، وتمتد حتى تتصل بالحرار التي في بلاد الشام بمنطقة حوران — ولا سيما في الصفاة — وتوجد في المناطق الوسطى ، وفي المناطق الشرقية الجنوبية من نجد حيث تتجه نحو الشرق ، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية ، حيث نلاحظ الحجارة البركانية ، على مقربة من باب المندب وعند عدن ، وقد ذكر العرب أسماء عدة منها — كما أشرنا آنفاً — وأضاف اليها السياح عدداً آخر ، عثروا عليه في مناطق نائية[٤] .

ولعل أهم هذه الحرات : حرة العويرض ، وتقع غرب درب الحاج الممتد من تبوك إلى العلا ، ويبلغ طولها أكثر من مائة ميل ، بعرض يكاد يقرب من ذلك ،

---

(١) البكري ١/١٤—١٥ ، ٢/٤٣٥—٤٣٨ ، ياقوت ٢/٢٤٥—٢٥٠ ، الأصفهاني : المرجع السابق ص ١٤—١٥ ، أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢ .

(٢) مروج الذهب ٣/٧٨ ، التنبيه والاشراف ص ٣٠٥ ، أبو الفداء ١/١٩١—١٩٢ ، تاريخ الطبري ٤/٣٧٤ ، ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ١/٢٢٨ ، ياقوت ٢/٢٤٩ ، ابن الأثير ٣/٣١٠—٣١٤ ، تاريخ اليعقوبي ٢/٢٩٨—٢٩٩ ، الأخبار الطوال ص ٢٦٠ ، المعارف ص ١٧٨ ، الأغاني ١/٢٦ ، ابن سعد ٥/١٥٩—١٦٠ ، فيليب حتي : تاريخ العرب ص ٢٥٤ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ٢/٨٦—٨٨ ، عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، الاسكندرية ١٩٧٣ ص ٣٦٩—٣٧١ .

(٣) ياقوت ٢/٢٤٥ .

(٤) جواد علي ١/١٤٧ وكذا C.M. Doughty, op. cit., P. 618 وكذا A. Musil, op. cit., P. 321 وكذا C.P. Grant, op. cit., P. 122

ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر حوالي خمسة آلاف قدم ، كما أن أعلى مواقعها جبل عنازة الذي يزيد ارتفاعه على ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر[١] ، وهناك كذلك حرة الحذرية وحرة واقم وحرة ليلى وحرة شوران وحرة النار قرب خيبر ، وجميع هذه الحرار في الحجاز قرب المدينة المنورة[٢] .

وفي أرض اليمن عدد كبير من الحرار ، منها حرة « أرحب » شمالي صنعاء ، ولها « لابة » (لافا) يستخرج الناس منها حجارة سوداء لبناء البيوت[٣] ، كما أن هناك كثيراً من الحرار في القسم الشمالي من « وادي أبرد » — بين صنعاء ومأرب — ولعل كثرة الحرار بجوار المدن القديمة هو الذي دفع البعض إلى تفسير هلاك بعض المدن — كخراب مأرب وحقه وشبوه — على أنه من هياج البراكين[٤] .

ولعل أشهر حرار اليمن « حرة ضروان » وقد بلغ من شهرة قذفها للحمم وارتفاع لهيبها ، أن القوم كانوا يتعبدون لها ويتحاكمون إليها فيما يشجر بينهم من خلاف ، إذ كانوا يعتقدون أن النار تخرج فتأكل الظالم وتنصف المظلوم[٥] ، وأخيراً فهناك كذلك حرار في عدن وحضرموت وعمان والربع الخالي[٦] .

(٢) الدهناء :

وهي أرض رملية حمراء في الغالب ، تمتد من النفود في الشمال ، إلى حضرموت ومهرة في الجنوب ، واليمن في الغرب ، وعمان في الشرق ، وفيها

---

(١) فؤاد حمزة : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٢) ياقوت ٢/٢٤٥—٢٥٠ ، البكري ١/١٤—١٥ ، ٢/٤٣٥—٤٣٨ ، القاموس المحيط ٢/٦، ٧ ، ٦٥ ، ١٥٠ ، ١٧٢ ، ٤/٤٨ ، ١٨٧ ، ٢٦٥ ، الأصفهاني : المرجع السابق ص١٤—١٥ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٢٩—٣٠ .

(٣) جواد علي ١/١٨٩ وكذا H. Scott, in the High Yemen, Landon, 1947, P. 8.

(٤) J.B. Philby, Sheba's Daughter, P. 103, 389. وكذا GJ, 92, 1938, P. 127

(٥) الإكليل ١/٣٣ ، جواد علي ١/١٤٨ ، وانظر : ياقوت ٢/٤٣٥ .

(٦) جواد علي ١/١٩٠ ، وانظر : ياقوت ٥/٣٥٦—٣٥٩ وكذا D.G. Hogarth, The Near East, P. 97.

سلاسل من التلال الرملية ذات ارتفاعات مختلفة ، تنتقل في الغالب مع الرياح وتغطي مساحات واسعة من الأرض[١] ، ويمكن العثور على المياه في قيعانها إذا حفرت فيها الآبار[٢] ، وقد تنبت فيها أعشاب إذا ما وصلتها أمطار ، وإن كان ذلك لفترة قصيرة ، ربما لا تتجاوز أشهراً ثلاثة .

وقد اعتبرها « الويس موسل » فرعاً من النفود لا يتجاوز عرضه ٣٠ كيلومتراً ، ولكنه يمتد مئات الكيلومترات ، ويبدأ في الشمال من نقطة تقع على مبعدة خمسين كيلومتراً من درب الحج من جهة العراق[٣] ، وأما « جون فلبي » فقد ذهب إلى أنها سلاسل رملية وآكام وكثبان متقطعة ، إرتفاعها عن سطح البحر ما بين ١٢٠٠ ، ١٥٠٠ ق.م[٤] ، ويطلق الجغرافيون المحدثون على أقسامها الجنوبية أسم « الربع الخالي[٥] » لندرة السكان فيها ، وكانت تعرف من قبل «بمفازة صيهد[٦] » ، وتشغلها المنطقة الرملية الواسعة في جنوب المملكة العربية السعودية ، والتي تمتد من المرتفعات الغربية القديمة في الغرب ، وحتى مرتفعات عمان شرقاً ، ومن هضبة نجد في الشمال ، إلى مرتفعات حضرموت في الجنوب[٧] .

وأما القسم الغربي الجنوبي من الدهناء فيسمى « الأحقاف » (والحقف المعوج من الرمل أو الرمل العظيم المستدير أو المستطيل المشرف)[٨] وهي منطقة واسعة من الرمال ، بها كثبان من الرمال إقترن اسمها باسم « عاد » ، كما تكوّن « وبار » قسماً

---

(١) جواد علي ١/١٥٠
وكذا EI, I, P. 893 وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 15 وكذا EB, 2, P. 173

(٢) جواد علي ١/١٥٠ وكذا Handbook of Arabia, I, P. 11

(٣) A. Musil, Northern Nejd, 1928, P. 160.

(٤) J.B.Philby, The Heart of Arabia, I, P. 49, 273.

(٥) B. Thomas, Arabia Felix, P. XXIII
وكذا EI, I, P. 895. وكذا J.B. Philby, The Empty Quarter, GJ, 81, 1933.

(٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢١٤ ، ياقوت : معجم البلدان ٣/٤٤٨ .

(٧) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٨) القاموس المحيط ٣/١٢٩ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ١٢٨ .

من الدهناء ، وهي أرض كانت مشهورة بالخصب والنماء ، ثم أصبحت اليوم من الصحراوات ، وفي الجهة الشمالية الشرقية من وبار « رمال يبرين » التي يصفها « ياقوت » بأنها « رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطالع الشمس من حجر اليمامة » ، وقد كانت مسكونة ، غير أن الرمال حولتها آخر الأمر إلى خراب[1] .

النفود :

وهو الصحراء المسماة « بادية السماوة » ، أما النفود فإسم لم يكن يعرفه العرب ، وعلى أي حال ، فهي صحراء واسعة ذات رمال بيض أو حمر تذرها الرياح ، فتكوّن كثباناً مرتفعة وسلاسل رملية متموجة[٣] ، يحدها من الشمال وادي السرحان ، ومن غربها الجنوبي واحة تيماء ، ومن الجنوب جبلا أجأ وسلمى (جبل شمر) ، ومن شرقها الجنوبي مدينة حائل[٢] ، وهكذا يبدو واضحاً أن صحراء النفود (أو النفوذ بالذال المعجمة) تمتد على مسافة كبيرة من الأرض ، تزيد عن مائة ألف كيلو متر مربع .

وكان يطلق على النفود الكبير قديماً « رملة عالج » ، وقد وصفه البكري وياقوت تحت هذا الإسم[٤] ، وتخترق القوافل النفود الكبير بالقرب من رأسه ، إذ ترى درب الحج المسمى « درب زبيدة » ، كما تخترقه كذلك في مناطق معينة بين الكثبان الرملية ، فهناك طريق بين الجوف ومنطقة جبل شمر[٥] .

---

(١) ياقوت ٥/٤٢٧ ، جواد علي ١/١٥٤٢ ، الهمداني : المرجع السابق ص ٥١ وما بعدها ،
وكذا .Ency. of Islam, I, P. 370, 4, P. 1073 وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 157

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١ ، جواد علي ١/١٥٢ وكذا
وكذا B. Mortiz, Arabien, Hanover, 1923, P. 15 Händbook of Arabia, P. 11

(٣) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٢٨ .

(٤) البكري ٣/٩١٣–٩١٤ ، ياقوت ٤/٧٠ .

(٥) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٥٥ .

التضاريس :

(١) الجبال :

تكوّن سلسلة جبال « السراة » العمود الفقري لشبه جزيرة العرب ، وتتصل فقراته بسلسلة جبال بلاد الشام المشرفة على البادية ، وبعض قمم هذه السلسلة مرتفعة ، وقد تتساقط عليها الثلوج كجبل « دباغ » الذي يرتفع إلى ٢٢٠٠ فوق سطح البحر ، وجبل « وثر » وجبل « شيبان » ، وتنخفض هذه السلسلة عند دنوها من مكة ، فتكون القمم في أوطأ ارتفاع ، ثم تعود إلى الارتفاع ، حيث تصل إلى مستوى عالٍ في اليمن ، فتتساقط الثلوج على قمم بعض الجبال[١] .

وتشتهر منطقة مكة بمجموعة من الجبال ، أشهرها جبل « أبي قبيس » في جنوب مكة ، وجبل «حراء» في شرقها ، وفيه كان يتحنّث جدنا ومولانا رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وجبل « ثور » ويشرف على مكة من الجنوب ، وفيه الغار الذي بقي فيه — صلوات الله وسلامه عليه — مع أبي بكر ، فترة إبان الهجرة من مكة إلى المدينة في عام ٦٢٢م ، وهناك كذلك جبل « رضوي » بين المدينة المنورة والبحر الأحمر[٢] .

وتمتد في محاذاة السواحل الجنوبية سلاسل جبلية تتفرع من جبال اليمن ، ثم تتجه شرقاً إلى عمان ، حيث ترتفع قمة الجبل الأخضر إلى ٩٩٠٠ قدم ، وفي نجد — وهي هضبة يبلغ ارتفاعها زهاء ٢٥٠٠ ق.م — منطقة جبلية تسمى جبل شمر ، وتقع بين الحافة الجنوبية للنفود الكبير وبين وادي الرمة ، وتتكون من سلسلتي

---

(١) الواسعي : تاريخ اليمن ص ٨٠ ، جواد علي ١٥٦/١ ، وانظر : ياقوت ٢٠٤/٢–٢٠٥ ، ٢٣٣–٢٣٤ .

(٢) البكري ٣٤٨/١ ، ياقوت ٥١/٣ ، ٨٠/٢–٨١ ، ٨٦–٨٧ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٢٥ ؛ وانظر : النويري ١١١/١٠ ، ابن الأثير ٤٨/١،١٠٤ ، تاريخ الطبري ٣٠٠/٢ ، ٣٧٨ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٤٧–١٤٨ ، ٢٢٤ ، محمد رضا : محمد رسول الله ص ١٢٨ ، مولانا محمد علي : حياة محمد ورسالته ص ٦٧ ، ١١٦–١١٧ .

جبال « أجأ وسلمى » ، ويمتدان متوازيين من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي والمسافة بينهما حوالي ٤٥ ميلاً ، وأما جبل « طويق » فهو مرتفعات تقع في الوسط الشرقي من نجد وفي جنوب شرقي الرياض ، وتتكون من الصخور الجوراسية ، ويطلق الجغرافيون العرب عليها جبال العارض ، وهناك ما يشير إلى صخور أو مواد بركانية قذفتها البراكين إلى هنا[١] .

(٢) الأنهار والأودية :

لا تستطيع شبه الجزيرة العربية أن تفاخر بوجود نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه في البحر ، وليس في نهيراتها الصغيرة ما يصلح للملاحة[٢] ، ومن ثم فهي تعد من جملة الأرضين التي تقل فيها الأنهار والبحيرات ، وفي جملة البلاد التي يتغلب عليها الجفاف ، ويقل فيها سقوط الأمطار ، ومن ثم فقد أصبحت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان[٣] .

وقد عوضت عن الأنهار بشبكة من الأودية التي تجري فيها السيول غبّ المطر ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن كثيراً من أودية شبه الجزيرة العربية كانت أنهاراً في يوم ما[٤] ، ويعتمدون في ذلك على أدلة منها (أولاً) وجود ترسبات في هذه

---

(١) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص٤٣ ، ٤٣٦ ، البكري ١/١٠٩-١١١ ، ياقوت ١/٩٤-٩٥ ، جواد علي ١/١٥٧-١٥٨ ، وانظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٦٥-٢٦٦ (طبعة ١٩٧٤) ، تاريخ نجد ص ٢١
وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 15 وكذا B. Moritz, op. cit., P. 6
وكذا Handboot of Arabia, I, P. 13.

(٢) K. Philip. Hitti, History of the Arabs, London, 1960, P. 18.

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – الجزء الأول ، بيروت ١٩٦٨ ص ١٥٧–١٥٨ .

(٤) هذا ومما يؤكد وجود الأنهار قديما في بلاد العرب ما رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة (باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها) ، عن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض ، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه ، وحتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا » وهكذا يفيد الحديث الشريف أن شبه الجزيرة العربية كانت فيها المروج والأنهار قديما .

الأودية من النوع الذي يتكون عادة في قيعان الأنهار ، ومنها (ثانياً) ما عثر عليه من عاديات وآثار سكن على حافة الأودية ، ومنها (ثالثاً) ما جاء في كتابات القدامى من مؤرخي الأغارقة والرومان وجغرافيهم عن وجود أنهار في شبه الجزيرة العربية ، فمثلاً « هيرودوت » يحدثنا عن نهر أسماه « كورس » ، زعم أنه يصب في البحر الأحمر ، و « بطليموس » يذكر لنا نهراً دعاه « لار » وزعم أنه نهر عظيم ينبع من منطقة نجران ، ثم يسير في إتجاه شمالي شرقي ، مخترقاً بلاد العرب ، حتى يصب في الخليج العربي ، ويرى « مورتز » أنه وادي الدواسر الذي يمس حافة الربع الخالي عند نقطة تبعد خمسين ميلاً ، من جنوب شرق السليل ، وتمده بعض الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول[1] .

والأمر كذلك بالنسبة إلى البحيرات ، فليس في بلاد العرب بحيرات ، وإنما هناك عدد كبير من « السبخات » الملحة ، وهي مناطق واسعة تؤلف مساحة عظيمة من الأرض السهلة غالباً ، وتحتوي على كثير من الأملاح المتجمدة[2] ، وقد اختلف الباحثون في نشأتها ، فهناك من ذهب إلى أنها بقايا أنهار أو بحيرات ملحية قديمة[3] ، ومن ذهب إلى أنها بقاع تجمع فيها الكثير من الأملاح ، وبمرور الزمن تكونت هذه السبخات[4] ، والتي منها ، سبخة رابغ بين جده ورابغ ، وسبخة المدينة المنورة ، وسبخة قريات الملح ، وسبخة حضوضاء في وادي السرحان ، وسبخة الأحساء بين الاحساء والخليج العربي[5] ، وإنه لمن الجدير بالملاحظة أن هذه السبخات تصبح في موسم الأمطار لزجة جداً ، لا تتحمل ثقلاً ، وتغور بمن يمر عليها[6] .

---

(١) حافظ وهبة : المرجع السابق ص ٥٤ ، الألوسي : تاريخ نجد ص ٢٩ ، جواد علي ١/١٥٨–١٥٩ ، وكذا B. Moritz, op. cit., P. 21 وكذا Herodotus, I, P. 214.
وكذا . P. Thomas, Arabia Felix, Across the Empty Quarter, P. 350F

(٢) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٧٤ .

(٣) مصطفى مراد الدباغ : جزيرة العرب ، الجزء الأول ص ٢٩ .

(٤) عمر رضا كحالة : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٧٥ .

(٦) مصطفى الدباغ : المرجع السابق ص.٢٩ .

وأما الأودية فكثيرة في شبه الجزيرة العربية ، لعل من أهمها :

(١) وادي الرمة :

ويمتد من شرق المدينة المنورة في إتجاه شمالي شرقي حتى يصل إلى « واحة البعايث » ، ثم يتجه شرقاً فجنوب شرق ، ثم شرق ، حتى أطراف نفود « التويرات » ، حيث تطمس هذه النفود مجراه ، وبعدها يأخذ الوادي نفس اتجاهه إلى الشمال الشرقي حتى رمال الدهناء تحت إسم « وادي الأجردي » ، ثم يسير بعد ذلك في نفس الاتجاه باسم « وادي الباطن » ، حيث مدينة البصرة على شط العرب ، ويتصل بهذا الوادي مجموعة ضخمة من الروافد تجري في كل شمال غربي هضبة نجد ، ويبلغ اتساع وادي الرمة في بعض المناطق خمسة أميال ، وتقع عليه — وكذا على روافده — أكبر القرى الواحية في منطقة القصيم ، وأهمها بريدة وعنيزة والرس ورياض الخبراء وقصربن عقيل والبديع والخبراء والبكيرية والدليمية والدبيية والنبهانية والقرعاء والروضة والعيون والرويضة والربيعية وغيرها[١] .

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى اعتبار وادي الرمة هذا ، إنما هو نهر « فيشون » المذكور في التوراة كواحد من أنهار الجنة الأربعة ، (دجلة ، والفرات وجيحون وفيشون)[٢] ، وتصف التوراة فيشون هذا بأنه « يحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب ، وذهب تلك الأرض جيد ، وفيها المقل وحجر الجزع [٣] » ، بل أن هناك من يذهب إلى أن الأنهر المذكورة في التوراة إنما هي أنهر تقع في بلاد العرب ، وأنها وادي الدواسر ووادي الرمة ووادي السرحان ووادي حوران ، وأن ميل السطح في شبه جزيرة العرب وتعرضه للرياح الموسمية ، ربما كان قد تغير بانخساف

---

(١) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٨١ ، ٨٣ .
(٢) تكوين ٢ : ١٠–١٤ .
(٣) تكوين ٢ : ١٢ .

في طبقات الأرض ، فندر الماء في شبه الجزيرة العربية[1] ، ولعل سبق اليمن إلى عمارة السدود وخزانات المياه التي من أشهرها « سد مأرب » ، إنما يرجع إلى محاولة القوم التغلب على هذا القحط ، بل لعل المأثورات المتداولة بين عرب الجاهلية عن وجود مايسمى بالعرب البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ووبار وغيرهم ، إنما هو صدى لتلك الكوارث الجغرافية — فضلاً عن الأسباب الدينية — التي دفعت بالساميين الأصليين من سكان بلاد العرب إلى البحث عن القوت في أماكن أخري[2] ، وإن كان « الويس موسل » يتجه إلى أن سبب الهجرات وتحول الأرض الخصبة إلى صحاري ، إنما يرجع إلى ضعف الحكومات ، وإلى تحول الطرق التجارية[3]

(٢) وادي الحمض :

وكان يسمى قديماً « وادي إضم » ، ويبدأ من جنوب حرة خيبر ، ثم يتجه إلى المدينة المنورة حيث تتصل به أودية فرعية كوادي العقيق ووادي القرى ، ثم يسير في مرتفعات الحجاز ، حتى يصل إلى سهول تهامة فيتجه إلى الشمال الغربي ، حيث يصب في البحر الأحمر جنوب ميناء « الوجه » ، وهناك بقايا قرية يونانية قديمة ، ومعبد يعرف عند الأهلين « بقصر كريم » ، وهو من مخلفات المستعمرات اليونانية القديمة ، التي كان الملاحون والتجار اليونان قد أقاموها عند ساحل البحر الأحمر لحماية سفنهم من القرصان (أولاً) ، وللإتجار مع الأعراب (ثانياً) ، ولتموين رجال القوافل البحرية بما يحتاجون إليه من ماء وزاد (ثالثاً)[4] ، ويذهب « مورتز »

---

(١) جواد علي ٢٤٤/١ وكذا أنظر :
L. Caetani, Studi di Storia Orientale, I, P. 64, 80, 243, II, P. 53, 65.
وكذا J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, P. 9
وكذا A. Musil, Northern Nejd, P. 305.

(٢) أنظر : حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٤ ، ومقالنا « الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي » مجلة كلية اللغة العربية « ١٩٧٤ العدد الرابع ص ٢٦٥-٢٦٧ ، وكتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » — الفصل التاسع من الجزء الأول — .

(٣) A. Musil, op. cit., P. 317.

(٤) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٨٧ ، ياقوت ٢١٤/١-٢١٥ ، ٢٣٨/٤-٢٣٩ ، ٢٤٥/٥ ، جواد علي ١٦١/١ .

إلى أن هذا الموضع هو مكان مدينة « لويكة كومي » المشهورة في أحداث حملة « اليوس جالليوس » على اليمن في عام ٢٤ ق.م ، بينما يذهب آخرون إلى أنها المحل المعروف باسم « الحوراء » ، وأما طول وادي الحمض ، فيقدره الجغرافيون بحوالي ٩٠٠ كيلومتراً[١] .

(٣) وادي السرحان :

ويمتد من « عمان » عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية ، حتى قرب « الجوف » جنوباً ، على الأطراف الشمالية للنفود الكبير ، ويبلغ طوله حوالي ٣٠٠ ميل ، ويصل إتساعه في بعض المناطق إلى عشرة أميال ، وهو منخفض واسع يطلق عليه « قريات الملح » و « وادي السرحان » ، وهو ليس وادياً بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وإنما هو منخفض واسع من الأرض يمتد من الجنوب إلى الشمال ، وتنحدر منه أودية كثيرة من جميع جهاته ، ولا شك أنه كان متصلا بإقليم الجوف ، غير أن الرمال قد تراكمت في نقطة التقاء المنطقتين ــ في الموضع المعروف باسم عريق الدسم وما بقربه ــ تراكماً فصل بينهما ، وهذا المنخفض من الأرض كان يدعى قديماً « فرافر » ، كما كان يدعى « البياض » كذلك[٢] .

(٤) وادي حنيفة :

وكان يسمى « فلجا »[٣] ، ويمتد هذا الوادي ، ومجموعة الوديان المتصلة به ، بين جبال طويق غرباً ، وبين هضبة العرمة شمالاً ، بين خطي عرض ٢٤ ، ٢٦ ، ويبلغ طوله حوالي ٢٥٠ ميلاً ، ويجري موازياً له من الشمال إلى الجنوب « وادي الأيسن » حتى مدينة الرياض ، حيث يمتد في جنوبها وادي السلمى ، وطولهما ١١٠ ميلاً ، وهذه الوديان جميعها تنتهي في منطقة الخرج أو منطقة اليمامة[٤] .

---

(١) جواد علي ١٦١/١ ، ياقوت ٣١٦/٢ وكذا B. Moritz, op. cit., P. 21, 24.

(٢) الهمداني : المرجع السابق ص ١٢٩ ، حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ص ٤٠ .

(٣) عبد الوهاب عزام : مهد العرب ص ٧٧ .

(٤) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٨٤ .

(٥) وادي الدواسر :

وهو واد كبيرٌ يتجه شرقاً عبر وديان جبل طوق ، وتنتهي مياهه شرقها عند أطراف الربع الخالي ، عند نقطة تبعد خمسين ميلاً من جنوب شرقي السليل . وأهم الوديان المتصلة به من الجنوب وادي تمرة ووادي ريان ووادي الحسي ووادي الحنو ، ومن الشمال وادي المجامع ووادي بني ليب ، وأهم القرى اللدام والسليل والحماسين والشرافا وليلى والبديع والروضة ، وفي وادي الدواسر واحة تقع في مدخلها من جهة الشرق مزارع نخيل الشرافة ، وهي غنية بشجر الآثل والكروم[١] .

(٦) وادي بيشة :

وينبع من مرتفعات عسير الشرقية قرب مدينة « أبها » ، ثم يسير موازياً لوادي «تثليث» حتى يتصل به شمال غرب مدينة الحماسين ، ويبلغ طوله حوالي ٣٥٠ميلاً ، ويتصل به من الغرب وادي رينه الذي ينبع من مرتفعات عسير الشرقية قرب بلاد « غامد » ثم يتجه شمالاً مع الحافة الشرقية لحرة « اليقوم » حتى يتصل بوادي بيشة شرق قرية « رينة » عد الرغوة ، ويبلغ طوله حوالي ٣٥٠ في كيلومتراً[٢] من بدايته وحتى بعد « الجنينة » ثم يستمر حوالي ١٠٠ كيلومتراً في الرمال[٣] .

(٧) وادي فاطمة :

وينتهي به وادي السيل ، ويصب في البحر الاحمر جنوب ميناء « جدّة » ، وهو الذي يزود المدينتين المقدستين — مكة المكرمة والمدينة المنورة — بالمياه .

(٨) وادي نجران :

وهو أحد الأودية الكبيرة في شبه الجزيرة العربية ، بل هو في الواقع مجموعة أودية كبيرة ، منها .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٤ ، عمر رضا كحالة : المرجع السابق ص ١٠٨–١٠٩ .

(٢) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٨٤–٨٦ ، وانظر : محمود شاكر : شبه جزيرة العرب — الجزء الأول — عسير ؛ ص ٢٩ ،٣٢ (بيروت ١٩٧٠) .

(٣) محمود شاكر : المرجع السابق ص ٣٣ .

(ا) **وادي حرض** : وينبع من مرتفعات « وشحه » ومرتفعات « خولان بن عامر » غربي صعدة ، ويتجه مجراه إلى ساحل البحر الأحمر شمالي « ميدي » في المملكة العربية السعودية .

(ب) **وادي مور** : وهو واد كبير تتصل به روافد كثيرة متعددة المنابع ، بعضها من مرتفعات « العشمة » ، وبعضها من مرتفعات « وشحه » ، وبعضها من مرتفعات « كحلان » ، وبعضها من بلاد « حاشد » ، ويصب وادي مور في البحر الأحمر شمال « اللحية » .

(ج) **وادي سردد** : ويغذي مناطق زراعية واسعة ، وتتصل به روافد عدة ، أهمها وادي الأهجر الذي تكثر به الشلالات وقد استخدم على أيام « دولة حمير » في طحن الغلال ، ويصب وادي سردد جنوب « الزيدية » .

(د) **وادي سهام** : وتقع منابعه في وادي آنس جنوب صنعاء ، ويصب في البحر الأحمر جنوب الحديدة .

(ه) **وادي رماع** : وينبع من المرتفعات الواقعة شمال « ذمار » وتغذيه عدة روافد ، ويصب في البحر الأحمر شمال « الفازة » .

(و) **وادي زبيد** : وهو من الأودية الغزيرة المياه ، ومنابعه في مرتفعات « لواءآب » ، ويصب في البحر الأحمر غربي مدينة « زبيد » .

(ز) **وادي نخلة** : ويصب في البحر الأحمر شمالي « الخوخة » ، ثم هناك كذلك وادي « رسيان » ووادي « موزع » ، هذا مع ملاحظة أن كل هذه الأودية — الآنفة الذكر — إنما تتجه غرباً .

وأما الأودية التي تتجه شرقاً ، فلعل أهمها :

(ا) **وادي الجوف** : وتتجمع فيه عدة أودية .

(ب) **وادي مأرب** : وينبع من جبال « بلق » ثم يتجه شرقاً ، ماراً بمدينة مأرب على مبعدة كيلومتراً من سد مأرب المشهور .

(ج) **وادي حريب** : وينبع من مرتفعات « خولان الطيال » .

(د) وادي أملح والعقيق .

(هـ) وادي بيحان : وينبع من مرتفعات « لواء البيضاء » ثم يتجه إلى الشمال الشرقي حتى يصل إلى « بيحان القصاب » ثم تضيع مياهه شرقاً في الأحقاف .

وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذه الأودية التي تتجه شرقاً ذات أهمية تاريخية . فقد كانت مركزاً للسكنى والإستقرار . وكان حجم التجمعات السكانية ، ولا شك كبيراً ، حتى أنهم فكروا في إقامة السدود العديدة على مجاري هذه الوديان ، ومنها « سد مأرب »[1] . وسد قتبان الذي أقيم في وادي بيحان عند « هجر بن حميد» وكان يسقي منطقة واسعة من دولة قتبان[2] ، هذا فضلاً عن تلك السدود التي تظهر آثارها في وادي عديم وعند حصن العروثوبه في جنوب وادي حضرموت[3] ، فضلاً عن سد عند « مرخة » وآخر عند « شبوة » ، وثالث عند « الحريضة[4] » .

ويصف الشاعر العربي السدود[5] في منطقة « ياريم » فقط بقوله :

وفي الجنة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سداً تقذف الماء سائـــلاً

وبقايا هذه السدود ما زال باقياً يشهد بوجودها في مجاري هذه الوديان ، كما أن آثار العمارة ما زال باقياً في المدن القديمة ، وهناك المدن التي تنتشر بالقرب من

(١) محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب – الجزءان الثالث والرابع – القاهرة ١٩٧٢ ص ٤٣–٥٢ ، وانظر عن « سد مأرب » الفصل التاسع من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » – الجزء الأول – .

(٢) R. Hamilton, Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, in GJ, 101, 1943, P. 116.
A. Grohmann, Arabien, P. 153 وكذا J.B. Philby, the Land of Sheba, in GJ, 92, P. 113, 119

(٣) جواد علي ٢١٣/٧
وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 153 وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 16

(٤) جواد علي ٢١٣/٧ ،
وكذا C. Thompson and E. Gardiner, in GJ, 93, 1939, P. 34-35.

(٥) أهم سدود اليمن القديمة هي : سد مأرب وسد قصعان وسد قتاب وسد عياد وسد لحج وسد سحر وسد ذى شهال وسد ذى رعين وسد نضار وهران وسد الشعباني وسد الخانق بصعدة وسد ريعان وسد شبام على مقربة من صنعاء وسد دعان وسد سيان وسد نقاطه (أنظر كتابنا : دراسات في التاريخ القرآني ، الجزء الأول) .

مجاري هذه الوديان مثل «براقش» و «معين» ، وقد ذكر «بليني» أنها بلاد كثيرة الغاب والأعراس – الأمر الذي سنناقشه في مكانه من هذه الدراسة – .

أما الأودية التي تتجه شمالاً ، فقليلة وفقيرة جداً ، أما المتجهة جنوباً ، فغنية بمائها ، وتتركز الأراضي الزراعية في مجاريها الدنيا . وأهمها « وادي تبن » و « وادي بنا »[1] .

المنـــاخ :

تعتبر شبه الجزيرة العربية من أشد البلاد جفافاً وحراً ، وربما كان ذلك لوقوعها في منطقة قريبة من خط الاستواء ، ولأن معظمها إنما يقع في الإقليم المداري الحار ، ولأنها بعيدة عن المحيطات الواسعة التي تخفف من درجة الحرارة ، ولأن المسطحات المائية التي تقع إلى الشرق وإلى الغرب منها – أي الخليج العربي والبحر الأحمر – أضيق من أن تكفي لكسر حدة هذا الجفاف المستمر ، فهما مسطحان مائيان يتراوح إتساعهما بين ١٢٠ ، ١٥٠ ميلاً ، ولهذا كان أثرهما في إعتدال الحرارة غير محسوس ، أما المحيط الهندي الذي يقع إلى الجنوب منها ، فلئن ساعد في الجنوب على سقوط الأمطار في أطراف شبه الجزيرة العربية الجنوبية ، فإن مرتفعات حضرموت والربع الخالي قد تمنعه عن داخلها ، هذا فضلاً عن أن رياح السموم التي تنتاب شبه الجزيرة العربية في مواسم معينة ، فتشوي الوجوه وتعمي العيون ، تسلب كذلك الرطوبة من الهواء قبل أن يبلغ داخل البلاد ، أما الريح الشرقية المنعشة المعروفة « بريح الصبا »[2] ، فقد كانت موضوعاً محبباً يتغنى به شعراء العرب ، بل ليس في أشعار العالم ولا في نثرهم شعرا ونثرا فيه هذا القدر من التغزل بريح من الرياح .

---

(١) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٥٠–٥٢ .

(٢) يروي المسعودي أن الرياح أربعة ، إحداها تهب من جهة المشرق وهي القبول (الصبا) والثانية من المغرب وهي الدبور ، والثالثة من التيمن وهي الجنوب ، والرابعة من التيسر وهي الشمال (مروج الذهب ٢٢١/٢) .

والمطر غوث ورحمة لسكان شبه الجزيرة العربية ، يبعث الحياة في الأرض ، فتنبت العشب والكلأ والكمأة والأزهار ، ويحول وجهها الكئيب إلى وجه مشرق ضحوك ، فيفرح الناس وتفرح معهم ماشيتهم ، ومن هنا كانت مرادفات المطر الغيث ؛ وفيها ما فيها من معاني الغوث والنصرة ، وهو على أي حال ، جد قليل في داخل البلاد ؛ بالنسبة إلى شدة احتياج البلاد إليه ، ولعل أكثر المناطق حظوة ونصيباً من المطر هي النفود الشمالي وجبل شمر ، إذ تنزل بها الأمطار في الشتاء ، فتنبت أعشاب الربيع ، وأما الصحاري الجنوبية فلا يصيبها المطر إلا رذاذاً ، وقد تبخل الطبيعة عليها حتى بهذا الرذاذ ، وأما الساحل الغربي حيث معظم الأرض حرّة ، فإن المطر ينهمر هناك مدراراً فتسيل السيول ، ثم تبدو الأرض وكأن لم يصبها شيء ، حيث لا يتسرب من هذه السيول شيء كثير إلى باطن الأرض ، وإنما تصب في البحر ، على أن ثمة بقاعاً قليلة تستفيد من المطر كالعقيق في المدينة وبعض البقاع حول مكة ، ولا ريب في أن الطائف مثلاً بلد خصب — وكذا خيبر — ولكن تلك الأماكن الخصبة قليلة جداً بالنسبة إلى اتساع شبه الجزيرة العربية(1) .

وتسقط الأمطار الموسمية في اليمن وعسير ، وهي هناك تكفي لتأمين زراعة الأرض زراعة منتظمة ، ففيها نجد خضرة دائمة تنبت في أودية خصبة تمتد إلى نحو مئتي ميل من الساحل ، ويزيد ارتفاع صنعاء على ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهي لذلك من أصح المدن وأجملها في بلاد العرب ، ويروي « الإصطخري » أنه ليس في الحجاز أبرد من جبل « غزوان » بجوار الطائف ، وأنه ربما جمد الماء في ذروته ، وأشار الهمداني إلى جمود الماء في صنعاء ، ويضيف « جلازر » إلى هذين الموضعين جبل « حضور الشيخ » في اليمن ، الذي كثيراً ما تسقط عليه الثلوج في الشتاء ، وأما الصقيع فهو أكثر من ذلك شيوعاً(2) .

---

(1) حافظ وهبه : المرجع السابق ص ٦ ، عمر فروخ : المرجع السابق ص ٣١ ، جواد علي ٢١٤/١ .

(2) الإكليل ٧/٨ (طبعة نبيه أمين فارس ، برنستون ١٩٤٠) ، الإصطخري : المسالك والممالك ص١٩ (طبعة ليدن ١٨٧٠) ، نزيه العظم : رحلة في بلاد العرب السعيدة ص ١١٨ (القاهرة ١٩٣٨) ، وكذلك P.K. Hitti, A History of the Arabs, P. 18.

وتهب على عسير في الصيف الرياح الموسمية ، سواء الغربية منها أم الجنوبية الغربية ، فالأولى تصل إلى المنطقة من المحيط الأطلسي وتسبب سقوط الأمطار فوق هضبة الحبشة ، وعندما تجتازها تمر فوق مناطق منخفضة ثم فوق البحر الأحمر فتحمل معها بعض الرطوبة فعندما تصطدم بجبال عسير تسبب هطول المطر . بينما لا تسبب تهطالاً فوق تهامة لحرارة المنطقة فتقل معها الرطوبة النسبية ، ولكنها تسبب العواصف الرملية ولذا تعرف هناك بإسم « الغبرة » وغالباً ما تكون في نهاية الصيف . وبعد الزوال حتى غروب الشمس ، أما الرياح الجنوبية الغربية فتأتي من المحيط الهندي وتكون في أوائل الصيف وتثير البحر الأحمر وتهيجه فترتفع الأمواج فيه ، ولا تسقط إلا أمطاراً قليلة لأنها تقل في ظل القرن الأفريقي ، كما أن جبال اليمن تكون قد أفقدتها أكثر حمولتها ، ولا ينال تهامة منها شيئاً[1] .

وتتميز حضرموت بالأودية العميقة وبالرياح الموسمية الجنوبية الغربية المشبعة ببخار الماء ، ويصل إلى عمان قدر لا بأ‌ـ به من المطر ينفع الناس ويعينهم على تصريف أمورهم .

ومن الغريب أن المطر ينهمر أحياناً ، وكأنه أفواه قرب قد تفتحت ، فيكوّن سيولاً عارمة جارفة ، تكتسح كل ما تجده أمامها ، وتسيل الأودية ، فتتحول إلى أنهار سريعة الجريان ، وقد لاقت مكة من السيول مصاعب كثيرة ، هذا وقد خصص « البلاذري » في « فتوح البلدان » فصلاً كاملاً لأخبار سيول مكة ، والأمر كذلك بالنسبة إلى المدينة المنورة ، وإلى غيرها من المدن ، وقد يهلك في هذه السيول خلق من الناس كثير ، كما حدث لشعب سبأ بسبب سيل العرم[2] ، وكما حدث قريباً

---

(١) محمود شاكر : المرجع السابق ص ١٩-٢٠ .

(٢) جواد علي ٢١٥/١ ، فتوح البلدان ص ٥٣-٥٥ ، وانظر عن سيول مكة وإعادة بناء الكعبة في حوالي عام ٦٠٦م (مروج الذهب ٢٧١/٢-٢٧٢ ، ابن الأثير ٢ ٤٤ ، الطبري ٢٨٧/٢ ، الأزرقي ١٥٧/١-١٥٨ ، ياقوت ٤٦٦/٤ ، نهاية الأرب ٢٣٢/١ ، المقدسي ١٣٩/١-١٤٠ ، الحربي (أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق) : كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ١٩٦٩ ، ص ٤٨٦-٤٨٧ .

في عام ١٣٣٦هـ عندما حدثت فيضانات كثيرة في وادي « تثليث » فتجاوزت السد الرملي ووصلت إلى وادي الدواسر ، وأغرقت عدة قرى[١] .

الموارد الطبيعية :

(١) المعادن :

يمكن أن يقال بصفة عامة أن شبه جزيرة العرب تنقسم إلى قسمين جيولوجيين كبيرين ، وبخاصة في المملكة العربية السعودية ، وأن القسم الشرقي منها يمتاز بوجود صخور رسوبية ، حيث تتركز الثروة البترولية ، وأما القسم الغربي ، فيمتاز بالصخور النارية المتبلورة القديمة ، حيث توجد عروق المعادن الفلزية ، والتي من أهمها :

(ا) الذهب : وهو من المعادن التي استخرجت منذ العصور القديمة ، ومن ثم فقد ذكر لنا الجغرافيون العرب أسماء مواضع عرفت بوجود خام الذهب فيها مثل بيشة وضنكان والمنطقة ما بين القنفذة ومرسى حلج[٢] ، كما أشارت المؤلفات اليونانية إلى المنطقة ما بين القنفذة وعتودة ، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين — كما أشرنا من قبل — إلى أنها « أوفير » التي أشارت إليها التوراة على أنها مورد الذهب لسليمان[٣] ، كما أن هناك ما يشير إلى وجود الذهب على مقربة من « حمضة » ، حيث كان يستخرج الذهب من هناك في العصور القديمة ، هذا فضلاً عن اشتهار ديار بني سليم بوجود معادن فيها ، ومن بينها الذهب[٤] .

ويذهب الكتاب القدامى من الأغارقة إلى أن هناك مواضع في شبه جزيرة العرب ، يستخرج منها الذهب نقياً ، لا يعالج بالنار لاستخلاصه من الشوائب ، ولا يصهر

---

(١) محمود شاكر : المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) ياقوت ٣٣٣/٢ ، فؤاد حمزة : في بلاد عسير ، القاهرة ١٩٥١ ص ٦١ ، جواد علي ١٩٢/١ ، المسالك والممالك ص ١٨٨ ، وكذا B. Moritz,op. cit., P.105.

(٣) F. Hommel, Grundriss, I, P. 13f وكذا B. Moritz, op. cit., P. 110

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١١٣ ، ١٥٣ وكذا K.S. Twitchell, op. cit., P. 77.

لتنقيته ، ومن ثم فقد قيل له « أبيرون » (Apyron) ، وأن العبرانيين إنما أخذوا لفظة « أوفير » من هذه الكلمة ، فيما يرى بعض العلماء المحدثين[1] .

وقد عثر في « مهد الذهب » والذي يقع إلى الشمال من المدينة ، على أدوات استعملها القدامى في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه ، مثل رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، فضلاً عن آثار القوم في حفر العروق التي يتكون منها الذهب ، مما يدل على أن الموقع إنما كان منجماً للذهب في عصور ما قبل الإسلام ، ولعله من المناجم التي أرسلت الذهب إلى سليمان عليه السلام[2] .

(ب) الفضة : وقد وجدت مناجم قديمة للفضة شرقي القنفذة ، وعند منتصف المسافة بين وادي قينونة ووادي بنا ، هذا وقد أشار الهمداني إلى إستخراج الفضة من « الرضواض » في اليمن ، وأن فضته لا نظير لها[3] .

ولعل من الجدير بالإشارة أنه قد عثر على خامات الرصاص والزنك شرقي القنفذة ، وفي منطقة مهد الذهب ، كما عثر على مناجم الحديد في وادي فاطمة ، وعلى مصنوعات حديدية في الخرائب والآثار والأماكن القديمة في اليمن ، والتي اشتهرت بسيوفها في الجاهلية والإسلام ، وإن كنا لا نعرف المواطن التي كانت تستغل لاستخراج الحديد منها ، وأخيراً فلقد ذكر « نيبؤور » أنه كان في « صعدة » منجم يستخرج منه الحديد ، فضلاً عن « نقم » و « غمدان »[4] .

(٢) النبات :

ليس هناك من شك في أن الماء هو العنصر الفعال في الإنتاج الزراعي ، ومن ثم فإن الإنتاج لا يتيسر إلا حيث تتوفر المياه ، الأمر الذي لم يحدث إلا في

---

(١) جواد علي ١٩٣/١ وكذا
J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1934 P. 39.

(٢) جواد علي ١٩٣/١ وكذا
R.H. Sanger, op. cit., P. 20, 23

(٣) الهمداني : المرجع السابق ص ٢٠٢ ، محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٢٣٤ .

(٤) جواد علي ١٩٦/١ ، محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٢٣٥ ، وكذا
H. Scott, op. cit., P. 114, 237

أقاليم قليلة من بلاد العرب ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن جفاف الهواء وملوحة التربة يحولان دون نمو النبات وازدهاره ، لتبين لنا أن دولة النبات في شبه جزيرة العرب ليست بحال من الأحوال دولة ضخمة ، ومن ثم فإن الأراضي الزراعية قد انتثرت في بلاد العرب كالجزر في محيط الصحراوات الرملية ، والمرتفعات الوعرة التضاريس العارية من التربة في كثير من الأحايين[1] ، هذا إلى جانب بعض المناطق الجنوبية حيث تفرغ الرياح الموسمية أمطارها على سفوح السلسلة الجبلية ، فتقوم فيها بعض الزراعات الناجحة ، أو البستنة الرابحة ، عن طريق توفير المياه وحسن تصريفها[2] .

وتعتبر نخلة البلح ملكة عالم النبات في شبه جزيرة العرب ، وما زالت حتى اليوم تحتفظ بمركز ممتاز بين الحاصلات الزراعية في بلاد العرب ، وإن تدهورت قيمة التمور في السنوات الأخيرة ، ولم تعد كما كانت من قبل عند البدوي ، الذي كان قوام طعامه التمر والحليب ، كما لم تعد كذلك منية البدوي أن يحصل على الأسودين الماء والتمر[3] .

وقد أفادت النخلة القوم فوائد جمة ، حية وميتة ، أفادتهم في تقديم ثمرة صارت إداماً للعرب ، وطباً يستطبون بها لمعالجة عدد من الأمراض ، ومادة استخرجوا منها دبساً وخمراً وشراباً[4] ، بل لقد ذهبوا في ذلك إلى أبعد من الفوائد المباشرة ، فحلوا بها مشكلة الصراع بين الحرارة والملوحة ، ذلك أن الإشعاع الشمسي الهائل يرفع البخر إلى درجة تهدد الموارد الباطنية بالنفاد وسط التربة الزراعية بالإستملاح المتزايد ، ولهذا لجأ القوم إلى النخيل ، لا كغذاء فقط ، وإنما لتستظل به الزراعة ، ولهذا تمتاز بعض الواحات بعدة ملايين من النخيل ، تقوم كالغابة الحقيقية ، بينما

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ٢١/١ ، محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكي ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٤ .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٣ ، وانظر ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢٠٩/٣-٢١٣ (القاهرة ١٩٣٠) ، السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ٢٥٥/٢ (القاهرة ١٣٢١هـ) .

(٤) جواد علي ٢٠٧/١ .

ترقد عند أقدامها وبين جذوعها الزراعات ، وهكذا تصبح الواحة بحق « غابة الصحراء » ، والنخلة عن جدارة « مظلة الواحة »[1] .

ولقد أدت تلك الفوائد الجمة للنخلة أن أصبحت « سيدة الشجر » لا عند العرب فحسب ، بل عند قدماء الساميين جميعاً ، وأحيطت عندهم بهالة من التقديس والتعظيم ، وقد عثر على صورها وصور سعفها على النقود القديمة ، وفي جملتها نقود العبرانيين ، الذين يحترمون النخلة إحتراماً لا يقل عن إحترام العرب لها ، ومن ثم فقد ورد ذكرها في مواضع عديدة من التوراة والتلمود[2] ، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن ملكة الأشجار العربية هذه ، غير عربية الأصل ، فقد نقلت إلى بلاد العرب من بابل ، حيث كانت شجرة النخل من أعظم العوامل التي إجتذبت الإنسان القديم للتوطن هناك[3] .

أما الكروم فقد غرست في مناطق من شبه جزيرة العرب ،إشتهرت بها ، كالطائف واليمن ، كما غرس في الواحات العربية الرمان والتفاح والمشمش والبرتقال والليمون الحامض والبطيخ والموز ، ويرجح أن الأنباط واليهود هم الذين أدخلوا هذه الفواكه إلى بلاد العرب من الشمال[4] ، كذلك زرع القمح والشعير في الواحات ، كما كان ينمو الأرز في عمان والإحساء ، ولا يزال شجر اللبان يزدهر على الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي ، لاسيما في مهرة ، وقد كان لشجر اللبان هذا أهمية كبرى في الحياة التجارية الأولى في بلاد العرب الجنوبية ، وأما الصمغ العربي فقد كان من أخص حاصلات عسير ، التي أصبحت الآن أكثر الأقاليم زراعة للقمح ، تليها في ذلك منطقة القصيم ، وأما شجرة البن التي تشتهر بها اليمن الآن فقد أدخلت إلى جنوب بلاد العرب من الحبشة في القرن الرابع عشر الميلادي[5] .

---

(١) جمال حمدان : أنماط من البيئات ص ٩٥-٩٦ .

(٢) جواد علي ١/٢٠٧ ، لاويون ٢٣ : ٤٠ ، نحميا ١٨ : ١٥ ، مكابيين أول ١٣ : ٥١ وكذا
J. Hastings, Dictionary of the Bible, P. 676

(٣) P.K. Hitti, op. cit., P. 19-20.

(٤) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٢-٢٣ ، وانظر : السيوطي : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٥) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ٢١١ ، وكذا
P.K. Hitti, op. cit., P. 19

وتوجد في البادية عدة أنواع من شجر السنط ، منها الأثل والغضال الذي ينتج الفحم الممتاز ، والطلح ، الذي يستخرج منه الصمغ العربي ، والسدر وهو شجر النبق وأوراقه عريضة ، وترتفع أشجاره إلى عشرة أمتار عن سطح الأرض ، ويكثر في بطون الأودية ، ويكون ظلاً يقي من يجلس تحته لهيب الشمس ووهجها المحرق ، ويستعمل ورقه استعمال الصابون في تنظيف الجسم ، والأراك وهو شجر محبب للشعراء ، وهو الحمض ، أو شجر من الحمض ، تتخذ منه المساويك ، وترعاه الأبل ، فيه ملوحة ومرارة ، وهو للإبل كالفاكهة للإنسان ، تأكل منه الإبل بعد أن تشبع من غيره ، وللأراك ثمر إذا نضج يدعى الكباث ، وأطيب مراعي الإبل السعدان ، وهناك البرسيم ، وهو حب القرظ — والقرظ نوع من الكراث — وهناك الآس ، وهو شجرة طيبة الريح ، ولها ثمر أسود وأبيض يؤكل ، والأبيض أجود ، وهناك العرار ، وهو بهار البر ، طيب الرائحة ، والخزامى المشهور بطيب الرائحة وشقائق النعمان . . . إلى غير ذلك من أشجار البادية[1] .

(٣) الحيوان :

ليست دولة الحيوان في بلاد العرب بأفضل من دولة النبات ، والجمل — على أي حال — هو الحيوان الأليف الوحيد الذي استطاع بعناده وصلابته السير — بجبروت وبتبختر — فوق رمال الصحاري ، فهو يتلاءم تماماً مع ظروف البيئة الصحراوية : الرمال في السير ، والعطش في الحر ، والشوك في الأكل ، والوبر في البرد ، وارتفاع القامة والرقبة في العواصف الرملية ، ولو أنه حين تشتد العواصف الرملية يلزم إلباس الفم والمنخرين لثاماً واقياً[2] .

---

(١) جواد علي ١/٢٠٩ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٣٣-٣٤ ، وانظر : محمود شاكر : شبه جزيرة العرب — الجزء الأول — عسير ، المكتب الإسلامي ، بيروت ١٩٧٦ ص ٣٧-٤١ .

(٢) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٢-٩٣ .

والجمل إثنان : جمل العدو ، وجمل الحمل : أما الأول : فالهجان أو الهجائن : أي خيار الإبل ، وتسمى أيضاً ذلُلاً ، والواحد منها ذلول ، وتستخدم للركوب ، وأحسن الهجائن ما كان من عمارة ومهرة ، ثم « البعران » — جمع بعير — وهي الإبل التي تستخدم في حمل الأثقال[1] ، وإن كانت أقل إبل الصحراء لبناً ، بينما تلعب الذلُلُ دور الخيل في نطاقها ، من حيث الحرب والانتقال[2] .

والجمل ثروة العربي ، وهو أداة انتقاله ، بل هو نقده الذي يتبادل السلع بواسطته ، وهو فوق ذلك وحدة القياس لمهر العروس ، ودية القتيل ، وأرباح الميسر ، وغنى الشيخ ، فكل ذلك يقدر بعدد معين من الجمال ، والجمل رفيق البدوي ، وصنو نفسه ، وحاضنته التي ترضعه ، فيشرب لبنه بدل الماء (الذي يوفره للماشية) ، ويجعل طعامه من لحمه ، وكساءه من جلده ، ويحوك بعض أجزاء خيمته من وبره ، ويتخذ روثه وقوداً ، وهكذا لم يعد الجمل — في نظر البدوي — «سفينة الصحراء» فحسب ، بل هو «هبة الله[3]» ، وصدق جلّ وعلا حيث يقول : « والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم[4] » ، ومن هنا فقد لعب الجمل دوراً كبيراً في حياة العرب الإقتصادية ، يدل على ذلك ما يقال من أن اللغة العربية تضم نحو ألف إسم للجمل في مختلف أنواعه وأشكاله ومراحل نموه ، وهو عدد لا ينافسه إلا عدد المترادفات لاسم السيف[5] .

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٣٤ .
(٢) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٣ .
(٣) جواد علي ١/١٩٧ وكذا P.H. Hitti, op. cit., P. 21
(٤) سورة النحل : آية ٥—٧ وانظر : تفسير الطبرى ١٤/٥٤—٥٧ (دار المعرفة بيروت ١٩٧٢) : تفسير النيسابوري ١/٤٤—٤٦ (نسخة على هامش الطبري) .
(٥) فيليب حتى : تاريخ العرب ١/٢٧ .

ويرى العلماء أن الإنسان قد ذلّل الجمل حين صيّره أليفاً مطيعاً في الألف الثانية قبل الميلاد[١] ، هذا وقد ذهب بعضهم إلى أن العربية الشرقية إنما كانت الموطن الذي ذلّل هذا الحيوان في الشرق الأدنى القديم ، معتمدين في ذلك على أن العراقيين القدامى قد أطلقوا عليه إسم « حمار البحر » ، وأن البحر هنا إنما يعني الخليج ، وأن لفظة « الجمل » (جملو ، وهي في الأكادية كملو) إنما جاءت من بادية الشام ، ومعظم سكانها من العرب ، وكانوا يستعملون الجمل منذ الألف الثانية ق.م ، وأن دخول كلمة الجمل من البادية إلى العراق ، دليل على أن العرب قد استخدموه أولاً ، ومنهم انتقل إلى العراق والبلاد الأخرى[٢] .

وأما الخيل ، فبالرغم من اشتهار بلاد العرب بجمال خيلها وبتربيتها لأحسن الخيول وبتصديرها لها ، فإنها في شبه الجزيرة العربية من الحيوانات الهجينة غير الأصيلة في الصحراء – رغم الخطأ الشائع – بل هي دخيلة بقصد استعمالها آلة للعدو والكر في الحروب التي تعتبر ضرورة صحراوية[٣] ، ولا ترتقي أيام وصولها إلى بلاد العرب إلى ما قبل الميلاد بكثير ، وقد وردت إليها من العراق ومن بلاد الشام ، أو من مصر[٤] . وربما من سيليسيا ، أو حتى من إسرائيل .

ويبدو أن مصر كانت في الألف الأول قبل الميلاد ، مصدراً رئيسياً للخيل والمركبات ، ونقرأ في التوراة « وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر ، وجماعة تجار الملك (سليمان) أخذوا جليبة بثمن ، وكانت المركبة تصعد وتخرج من مصر

---

(١) جواد علي ١/١٩٧

وكذا R.L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958, P. 35.

وكذا W.F. Albright, From the Stone Age to Christianity, Baltimore, 1946, P. 107.

(٢) جواد علي ١ ١٩٧–١٩٨ وكذا BASOR, 160, P. 42

(٣) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩١ .

(٤) R.H. Sanger, op. cit., P. 77.

بستمائة شاقل من الفضة ، والفرس بمئة وخمسين »[1] ، وربما كان ذلك أقل من أسعارها العادية ، ويعلل « برستد » لذلك ، بأن سليمان ربما كان يتمتع في مصر بامتياز خاص عن طريق الفرعون حميه[2] .

وهناك مصدر آخر للخيل ، هو «KOA» ، وهو إسم دولة في سيليسيا ، كانت تقع في السهل الخصب بين جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط ، وتشتهر بتربية الخيول ، ويذكر « هيرودوت » أن الفرس كانوا يحصلون على أحسن خيولهم من سيليسيا[3] ، .

وأما المصدر الثالث فربما كان إسرائيل — وفي عهد سليمان بالذات — ونقرأ في التوراة أن سليمان كان شغوفاً بالخيل[4] رغم أن رب إسرائيل قد حذر ملوك إسرائيل من الخيل والنساء والذهب[5] ، غير أن سليمان إنما كان يرى أن « الفرس معدة ليوم الحرب » وإن « كانت النصرة من الرب »[6] ، ورغم أن العلماء قد اختلفوا في أسباب ولع سليمان بالخيل ، فالذي لا شك فيه أن الخيل كانت على أيامه سلعة تجارية رائجة ، وأن أسرائيل كانت تحتكرها تماماً ، وأن كل طرق القوافل الهامة بين مصر وسورية وآسيا الصغرى إنما كانت تمر بمملكة سليمان[7] ، وقد كشفت بعثات الحفائر الأمريكية في مجدو وبيت شان وتعنك وحاصور وأورشليم وغيرها من مدن مملكة سليمان على بقايا من عدة أجزاء كبيرة من اسطبلات الخيول ، والتي كان الواحد منها يسع ٤٥٠ حصاناً[8] .

---

(١) ملوك أول ١٠ : ٢٨–٢٩ .

(٢) J.H. Breasted, The Dawn of Conscience, N.Y., 1939, P. 355.

(٣) W. Keller, The Bible As History, 1967, P. 207.

(٤) ملوك أول ١٠ : ٢٦–٢٩ ، أخبار أيام ثان ١ : ١٤–١٧ .

(٥) تثنية ١٧ : ١٤–٢٠ .

(٦) الأمثال ٢١ : ٣١ .

(٧) W. Keller, op. cit., P. 207.

(٨) W. Keller, The Bible As History, P. 206.

وكذا W.F. Albright, op. cit., P. 124

وكذا J.W. Crowfoot, in PEQ, 1940, P. 143-147

وهكذا يبدو أن الخيل لم تكن أصيلة في بلاد العرب ، هذا فضلاً عن أن العربي إنما كان يبدو في الآثار المصرية والبابلية والآشورية والفارسية جمّالاً ، لا خيّالاً ، وكان الجمل — وليس الحصان — هو الذي يذكر عند جمع الجزية التي كان يفرضها الفاتحون الآشوريون على العربي والعربية ، فالملك الآشوري « تجلات بلاسر الثالث » (٧٤٥—٧٢٧ م.ق) يفرض على الملكة «شمسى» جزية « جمالاً ونياقاً »[١] ، وإن رأينا الخيل ، بجوار الجمال ، في الجزية التي قدمت للملك « سرجون الثاني » (٧٢٢—٧٠٥ ق.م)[٢] ، والذي جاء بعد سليمان (٩٦٠—٩٢٢ ق.م) بأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، وفي جيش « إكزركسيس الأول » (٤٨٦—٤٦٥ ق.م) الذي كان متجهاً إلى بلاد اليونان لفتحها ، ظهر العرب يركبون جمالاً[٣] ، وأخيراً ، فلقد أنكر « سترابو » وجود الحصان في شبه الجزيرة العربية[٤] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن بيئة الصحراء ، ليست أمثل بيئة لتأقلم الخيل ، فالعروض الجنوبية الحارة لا تلائمها ، وهذا هو السبب في أن الخيل لا تسود في الصحراء ، إلا في أقصى نطاقاتها شمالاً ، والسطح الرملي لا يلائم حوافر الخيل ، ولذلك تميل الخيل في نطاقاتها إلى التركيز في صحراء الحمادة ، أكثر منها في صحراء الأرج ، كذلك يدفع الإنسان ثمن التأقلم باهظاً ، فالخيل ليست حلوباً بدرجة الإستبس ، لفقر مراعي الصحراء ، بل قد ينبغي إطعام الخيل بلبن الجمل ، وبالحبوب المستوردة من بعيد ، أو بالأسماك على السواحل ، كما في منطقة الخليج العربي ، كما ينبغي الإهتمام بها اهتماماً خاصاً[٥] ، ربما كان اهتماماً يفوق حد المعقول ، وقد لاحظ « الويس

---

(١) A.T. Olmstead, History of Assyria, P. 189. وكذا ANET, 1966, P. 280
وكذا N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, in AJSL, 58, 1941, P. 4.

(٢) ANET, 1966, P. 284. وكذا A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon, II, P. 5

(٣) فيليب حتي : تاريخ العرب — الجزء الأول ، ص ٢٥ (بيروت ١٩٦٥) ،
وكذا Herodotus, VII, 86, 8.

(٤) Strabo, Geography, XVI, 4, 2, 26. وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 19-20

(٥) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٢ .

موسل » أن البدوي وذويه قد يبيتون على الطوى في سبيل توفير شيء من الحليب أو الحبوب ، لفرس عندهم ذات فلوة[1] .

وهكذا كان اقتناء الخيول هواية غالية وكمالية ، لا يقدر عليها إلا من كان على سعة من عيش ، ولهذا تصبح سمة من سمات الأبهة والعظمة والتفاخر في المجتمع ، ولا عجب أن تؤدي العناية المضاعفة بها إلى توليد أعظم السلالات في بلاد العرب ، دون موطنها الأصلي ، والإعتزاز بها إلى ظهور أنساب لها[2] ، ولعل أعرق الخيل نسباً ما كان في نجد ، بل إن خيول نجد لتعدّ من أجود الخيول في العالم قاطبة[3]

ولقد عرفت بلاد العرب كذلك – إلى جانب الإبل والخيل – البغال والحمير « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون »[4] ، وهناك كذلك الشاة والماعز والبقر والقردة والنسانيس والحمير (وهو حامور في العبرية ، وأنثاه أتون أي أتان في العربية) ، ويظهر أنها أقدم عهداً في بلاد العرب من الجمل والخيل والبغال ، إذ كانت وسيلة النقل والركوب في أوائل الألف الثانية ق.م.[5]

وهناك من الحيوانات البرية ، الأسد والفهد والنمر والضبع والثعلب والذئب وابن آوى والوعل واليربوع والخنزير والأرانب والغزلان والظباء ، ويبدو أن هذه الحيوانات قد قلت الآن ، ربما بسبب كثرة السكان واستعمال آلات الصيد الحديثة وتغيّر المناخ ، فمثلاً كانت الأسود في وادي بيش ، ووادي عتود وعثر ، بل إن هناك أماكن اشتهرت بكثرة اسودها حتى قيل لها « مأسد » (والواحدة مأسدة) ،

---

(١) A. Musil, The Manners and Customs of the Rwala Bedouins, P. 374-5

(٢) جمال حمدان : المربع السابق ص ٩٢ .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٥ .

(٤) سورة النحل : آية ٨ . وانظر : تفسير الطبري ١٤/٥٧–٥٨ (المطبعة الأميرية – بولاق مصر ، ١٣٢٨هـ) ، تفسير النيسابوري ١٤/٤٦–٤٧ (نسخة على هامش الطبري) .

(٥) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٢٩ ، جواد علي ١/٢٠٣ ، الهمداني : المرجع السابق ص ٥٤ وكذا B. Moritz, op. cit., P. 40-42f

ومن الطيور هناك النعام والقطا والحجل والكروان والغراب والبجع والرخم والهدهد والنسر والعقاب والصقر والبوم والحدأة وغيرها[1] .

وهناك العقارب بأحجام وألوان مختلفة ، والأفاعي والحيات ، والتي كان بعضها كبير الحجم يقفز على من يهاجمه بسرعة خاطفة ، فأفزع الناس في البوادي والأودية ، وحتى زعم البعض أن لبعضها أجنحة ، وأنها ذات ألوان مختلفة ، إلى غير ذلك من صفات تركت أثرها في كتابات « هيرودوت » و « سترابو »[2] ، وتحدثنا النصوص الآشورية أن جيش « إسرحدون » (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) قد فزع من كثرة الثعابين والحيات في البادية ، والتي زعمت النصوص أن من بينها ثعابين ذات رأسين ، وأخرى لها أجنحة[3] ، وقد فزع الإسرائيليون كذلك أثناء التيه من « الثعابين الطائرة »[4] ، كما فزع السياح والمستشرقون المحدثون من كثرة الثعابين في الأماكن التي نزلوا بها ، ومنها « وادي السرحان »[5] .

طرق القوافل :

تقع شبه جزيرة العرب في مكان وسط من حيث المناطق المناخية والنباتية في العالم القديم ، فإلى شرقها يقع الإقليم الموسمي الغني بإنتاجه الزراعي ، وإلى غربها

---

(١) جواد علي ٢٠٣/١ ، الهمداني : المرجع السابق ص ١٠٢ ، محمود شاكر : المرجع السابق ص ٤١ ، وكذا B. Moritz, op. cit., P. 40.

(٢) جواد علي ٢٠٥/١-٢٠٦ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٣٥ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٤ ، القاموس ٣٠٤/١ ، ٢٠٧/٢ ، ٣/٤ ، ٣٧٤ ،
وكذا Strabo, XVI, 4, 19, 25. وكذا Herodotus, III, 107, 113

(٣) جواد علي ٢٠٥/١
وكذا R.W. Rogers, Cuneiform Parallels to the old Testament, P. 359.
وكذا J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, P. 8
D.D.Luckenbill, op. cit., II, P. 209, 220.

(٤) عدد ٢١ : ٢٤ ، أشعياء ٣٠ : ٦ .

(٥) Colonel Lawrence, Revolt in the Desert, P. 93.
وكذا T.E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, P. 269-70
وكذا A. Montgomery, op. cit., P. 9.

وشمالها يقع إقليم البحر المتوسط وما وراءه ، وله لون خاص من الإنتاج الزراعي يختلف عن الإنتاج في الإقليم الموسمي ، وبعبارة اخرى ، تقع الصحراء العربية على أقصر طريق بين أغنى أقاليم العالم القديم التي تتفاوت في إنتاجها تفاوتاً كبيراً ، مما يؤدي إلى التبادل التجاري ، ومن ناحية أخرى يملك البدوي وسيلة المواصلات الوحيدة في الصحراء — الجمل وخاصة المهري — وأخيراً فالتجارة وسيلة ممتازة للإستفادة ، أفضل بكثير من رحلاته التي يقوم بها بطبعه إلى هوامش الصحراء ، لمبادلة حاصلاته بحاصلات الزراع المستقرين ، أضف إلى ذلك كله ، أن البدو يمكنهم عبور الصحراء في قوافل ذات أعداد كبيرة ، تضمن الحماية والسلامة من الغارات أثناء الطريق[1] .

وهكذا تكاملت الأطراف لإنشاء تجارة رابحة بين الإقليم الموسمي وبلاد الهلال الخصيب من ناحية ، وبين جنوب غرب شبه الجزيرة العربية وجنوبها ، ومصر ودول شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى ، أو بمعنى آخر ، وجدت مناطق الإنتاج وأسواق الإستهلاك ، والعرب الرعاة وإبلهم فيما بينهما وسطاء للتجارة ، وهكذا نشأت الطرق والدروب الصحراوية لتسلكها التجارة ، وأصبح جنوب غرب الجزيرة وجنوبها مركز إشعاع تخرج منه القوافل التجارية إلى الشمال — عبر مكة ويثرب — حتى الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وحول خليج العقبة إلى مصر ، وكانت موانىء الخليج العربي مركز الإشعاع الثاني للطرق والدروب الصحراوية ، فمنه تخرج الطرق إلى غرب شبه الجزيرة وإلى جنوبها ، وشمالها الغربي[2] .

لقد كان هناك مركزان تخرج منهما الطرق : جرها على الخليج العربي ، ومدن الساحل الجنوبي الغربي ، وقد سارت هذه الطرق كالآتي :

(١) الطريق الجنوبي الشمالي : من مأرب إلى البتراء ، ويبدأ في الواقع من عدن وقنا في بلاد اليمن وحضرموت ، ثم مأرب — على مبعدة ٨٠ ميلاً إلى الشرق من

---

(١) جمال حمدان : المرجع السابق ص ٩٩ .
(٢) محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٧ .

صنعاء — ثم يتجه إلى نجران فالطائف ، ثم مكة ويثرب وخيبر والعلا ومدائن صالح ، ثم ينفصل الطريق هنا ليتجه فرع منه إلى تيماء صوب العراق ، ويستمر الفرع الآخر في نفس الاتجاه حتى البتراء فغزة ثم الشام ومصر .

(٢) طريق مأرب — جرها : ويتجه من مأرب ثم نجران ، حيث يتجه إلى الشمال الشرقي في وادي الدواسر ، ويمر بقرية « الفاو » — على مبعدة ٥٠ كيلومتراً إلى جنوب نقطة يتداخل ويتقاطع فيها وادي الدواسر مع جبال طويق عند فوهة مجرى قناة تدعى الفاو ، وتشرف على الحافة الشمالية الغربية للربع الخالي — ومن هناك يتجه إلى الأفلاج فاليمامة ، أو عن طريق واحة يبرين — على مبعدة ٣٠٠ كيلومتراً جنوب غرب الهفوف — ثم واحة الهفوف ، فجرها (الجرعاء)[1] ، على ساحل الخليج العربي .

---

(١) جرها : وقد ذكرها الهمداني باسم « جرعاء » وهي سوق لبني تميم في الإحساء ، ومنذ قرن مضى رأى « شبرنجر » أن (Gerrha) إنما هي الجرعاء ، وقد كانت قائمة بالقرب من ميناء العقير الحالي ، وربما — فيما ترى اليزابيث مونرو — أنها تحت أنقاض مدينة من العصور الوسطى تسمى « ثاج » (Thaj) هي الآن فيما وراء « جبير » (Jubair) — وربما الأصح الجبيل ، وكانت تعرف قديماً باسم عينان — والتي كانت تقع على بحيرة أو خليج ، على أن دائرة المعارف البريطانية ، إنما تتفق مع « جون فلبي » على أن جرها هي العقير نفسها ، وأن هذا الأسم الجديد (العقير) قد احتفظ في بنيته بالإسم القديم « جرها » إذ أن هناك ثمة تقارب بين إسمي الجرعاء والعقير ، والتي تسمى محلياً « عجيز » وهي قريبة من منطقة « جرعة » ، وأما الدكتور سليمان حزين ، فالرأي عنده أن جرها هي القطيف وإن كان هناك من يرى أن جرها إنما تقع على مبعدة ١٥ ميلا إلى الشمال الشرقي من العقير ، وقد حدد « سترابو » الجرعاء على مبعدة ٦٠ ميلا داخل اليابسة ، بينما رأى « بليني » أنها تقع على الساحل . (أنظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٢٨١ ، (طبعة الرياض ١٩٧٤) ، فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٤٣-٤٤ ، اليزابيث مونرو : الجزيرة العربية بين البخور والبترول مجلة الدارة ، العدد الأول ص ٣٥-٣٦ عام ١٩٧٦ ، وكذا : بيتر بروس كورنول : البحث عن ماضي جزيرة العرب ، ترجمة محمود محمد الشهاوي — القاهرة ١٩٥٣ ص ٣٨ .

وكذا S. A. Huzayyin, Arabia and the Far East, Cairo, 1942, P. 142.

وكذا A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875, P. 135.

وكذا G. Bibby, Lookinh for Dilmun, London, 1970, P. 250

وكذا E. Monroe, Arabia, From Incense to Oil, Addarah, I, Riyadh, 1976, P. 11.

(٣) طريق جرها ـ البتراء : ويبدأ من جرها ثم المفوف ، ثم إلى شمال اليمامة ، عند موقع مدينة الرياض الحالية تقريباً ، ثم يتجه إلى الشمال الغربي ، موازياً لجبل طويق ، ثم يتجه غرباً إلى بريدة ، ومنها إلى حائل فتيماء ، وأخيراً البتراء .

(٤) ويرفد هذا الطريق الرابع البحر العربي والمحيط الهندي والممالك العربية الجنوبية ، وخاصة حضرموت ومنطقة عمان ، ويبدأ من الخليج متجهاً شمالاً بغرب ماراً بمحاذاة الحدود الشرقية لنجد ، فمنها بعدئذ ، إما إلى الشمال في إتجاه العراق ، وإما إلى بادية الشام .

(٥) وأما الطريق الخامس ، فقد كان عبر الطرف الشرقي من الربع الخالي ، ويبدأ من منطقة حضرموت وعمان متجهاً إلى منطقة اليمامة ، صاعداً إلى بلاد الشام أو العراق ، حيث يلتقي بالطريق الشرقي وبفرع الطريق الغربي [١] .

وعلى أي حال ، ففي القرن الأول الميلادي تحولت التجارة إلى البحر الأحمر ، فاضمحلت أهمية هذه الطرق ، وأصبح الطريق البحري هو المفضل ، وأما أهم مواد تجار النقل في الصحراء ، فكان كل ما خف حمله وغلا ثمنه ، فمن الجنوب إلى الشمال يتحرك تبر الذهب والصمغ والعاج وريش النعام والبخور من اللبان والمر ، ومن الشمال إلى الجنوب تتحرك الأقمشة والآلات والأدوات والمعادن والملح ، أي الخامات من الجنوب والمصنوعات من الشمال [٢] .

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ، العدد الأول ١٩٧٥ ، ص ٨٧ ، اليزابيث مونرو : المرجع السابق ص ٣٥ ، محمود طه أبو العلا : المرجع السابق ص ١٢٧

وكذا A. Amer, The Ancient Trans-Peninsular Routes of Arabia, Cairo, 1925, P. 126-140.

(٢) جمال حمدان : المرجع السابق ص ١٠٠ ، وانظر : اليزابيث مونرو : المرجع السابق ص ٢٨-٤٣ ، وانظر : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧-٤٣٧ .

الفصل الرابع

لفظة العرب

مدلولها وتطورها التاريخي

لعل من الأفضل هنا أن نحدد معنى كلمة « عربي » وأصولها ، تلك الكلمة التي تضاربت فيها آراء المفسرين ، ولم يتفقوا علي رأي واحد بشأنها ، حتى أدلى بعضهم برأي أو بآخر ، لا يعدو أن يكون مجرد حدس أو تخمين ، فما هي المادة التي اشتقت منها كلمة عربي إذن ؟ ، وما هو أقدم ذكر لها ، ؟ وهل سمي سكان بلاد العرب أنفسهم عرباً ؟ ومتى كان ذلك ؟ .

إن علماء العربية أنفسهم حيارى في تعيين أول من نطق بالعربية ، فبينما ذهب فريق إلى أن « يعرب بن قحطان » كان أول من أعرب في لسانه ، وتكلم بهذا اللسان العربي ، وأول من إنعدل لسانه عن السريانية إلى العربية[1] ، لأنه « أول من

---

(١) أبو الفداء ١/٦٦ ، المزهر في علوم اللغة ١/٣١-٣٢ ، تاج العروس ١/٣٧١ ، ٢/٤٣٧ ، نهاية الأرب ١٤/٣٣٩ ، المعارف ص ١٣ ، المقدسي ٣/١٧٤ ، خلاصة الوفا ص ١٦١ ، الإكليل ١/١١٦ ، ياقوت ٣/٩٦-٩٨ ، روح المعاني ١٢/١٧٢ ، ثم قارن : تفسير المنار ٨/٤٩٥ ، حيث يذكر رواية مرفوعة لابن عباس تذهب إلى أن هوداً كان أول من تكلم العربية ، وأنه قد ولد له أربعة : قحطان ومقحط وقاحط وفالغ ، فهو إذن أبو مضر ، وقحطان أبو اليمن ، ثم انظر : روح المعاني ٨/١٥٤ ، السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى – الجزء الأول – القاهرة ١٣٢٦هـ ، ص ١٢٢) .

سجع في العربية الواسعة ، ونطق بأفصحها وأبلغها وأوجزها ، والعربية منسوبة إليه مشتقة من إسمه »[1] ، ولكنهم في نفس الوقت يجعلون العربية لسان أهل الجنة ، كما هي لسان آدم قبل أن ينحرف إلى السريانية[2] ، أي أنهم يجعلون « يعرب بن قحطان » هذا ، إنما يرجع إلى مبدأ الخليقة ، ومن نافلة القول أن نقول أن الأمر لم يكن كذلك .

هذا فضلاً عن أن هؤلاء الذين ينادون بقحطانية اللغة العربية ، إنما يجهدون أنفسهم ليأتوا بالغث والثمين من الروايات لإثبات صحة ما يذهبون إليه ، من أن القحطانيين هم أصل العرب ، وأن لسانهم هو لسان العرب الأول ، ومنهم تعلم العدنانيون العربية[3] ، حتى ذهب البعض منهم إلى أن يكون دليله القاطع على صحة ما ذهب إليه أبياتاً من شعر « حسان بن ثابت »[4] ، وتجاهل أصحاب هذا الإتجاه أن شعر حسان هذا جد متأخر ، بحيث لا يمكن أن يكون دليلنا على أول من نطق بالعربية ، فضلاً عن أن الصحابي الجليل قحطاني ، ومن ثم فربما كان متعصباً لقومه في شعره .

---

(١) عبد الملك بن قريب الأصمعي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٩٥٩ ص ٨ ، لسان العرب ٥٨٧/١ ، روح المعاني ١٧٢/٢ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٧٥ ، ثم قارن : وفاء الوفا ١١٤-١٢٢/١ .

(٢) المزهر ٢٠/١ ، روح المعاني ١٧٢/٢ وأما اللغة السريانية ، فهي لهجة أرامية قديمة ، وهي كلمة متأخرة جداً من الناحية الزمنية عن اللغة العربية ، وقد نشأت السريانية وترعرعت في إقليم مدينة «الرها» («اديسا» عند الرومان ،و « أورفا » الحالية جنوب شرق تركيا) ، ثم ظهر الخط السرياني المعروف « بالخط السرنجيلي » عقب الانشقاق المسيحي المذهبي بين سريان الرها في عام ٤٨٩م ، ثم سرعان ما نشأت لهجتان من السريانية (غربية وتسمى اليعقوبية وشرقية وتسمى النسطورية) ، وعلى أي حال ، فلقد أصبحت السريانية لغة حية في العلم والفكر في الشرق حتى القرن العاشر الميلادي ، وإن استمرت لغة الكنائس حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم حلت محلها العربية بعد ذلك ، وأما سبب استعمال السريانية ، فإن إسم الآراميين هناك أصبح له مدلول وثني غير مستحب بعد انتشار المسيحية هناك ، ومن ثم فقد سمى القوم أنفسهم بالإسم اليوناني «سوريين» بالنسبة للشعب ، و « سرياني » بالنسبة للغة ، تميزاً لها عن الآراميات الوثنية واليهودية (أنظر حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٥-١٢١ ، فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول ص١٨٤-١٨٥) . وهكذا يبدو واضحاً أن السريانية ظهرت بعد المسيح عليه السلام بقرون ، وبعد « آدم » عليه السلام ، بالآلاف السنين .

(٣) جواد علي ١٤/١-١٥ ، ثم قارن : مروج الذهب ٤٦/٢ .

(٤) الإكليل ١١٦/١ .

هذا ، ويبدو أن فريقاً من أصحاب هذا الإتجاه قد تنبهوا إلى ذلك ، ومن ثم فقد نسبوا إلى « يعرب » نفسه شعراً عربياً فصيحاً ، يقول فيه :

أنا ابن قحطان الهمـــام الأفضل وذو البيان واللســـان الأسهـــل
نفـــرت والأمـــة في تبلبـــــل نحو يمين الشمـــس في تمهـــل
وكنـــت منهم ذا الرعيل الأول[1]

وبدهي أن هذا شعر منحول ، ما في ذلك من ريب .

أضف إلى ذلك ، أنه – على ما يبدو – لم يكن يخطر ببال هؤلاء المنادين بقحطانية اللغة العربية ، أن سكان اليمن قبل الإسلام إنما كانوا ينطقون بلهجات تختلف عن لهجة القرآن الكريم ، وأن من يأتي بعدهم قد يكشف سر « المسند » – الخط الذي كان الناس يكتبون به في جنوب شبه الجزيرة العربية – ومن ثم يمكن قراءة نصوصه والتعرف على لغته[2] ، وأن عربيته إنما هي عربية تختلف عن هذه العربية التي ندوّن بها ، حتى ذهب الأمر بعلماء العربية في الإسلام إلى إخراج الحميرية واللهجات العربية الأخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية من اللغة العربية ، وقصر العربية على العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وعلى ما تفرع منها من لهجات[3] ، ومن هنا يروي « الجمحي » أن أحد علماء العربية سئل عن لسان حمير ، فقال : ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[4] ، وإن كان دون شك أن هذا هو رأي العدنانيين في القحطانيين .

هذا فضلاً عن أن القائلين بأن « يعرب بن قحطان » هو جدّ العربية وموجدها عاجزون عن التوفيق بين رأيهم هذا ، وبين رأيهم في أن العربية قديمة قدم العالم ،

---

(١) البكري ١٤٠١/٤ .
(٢) أنظر : أحمد حسين شرف الدين : اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٧٥ ، جويدي : المختصر في لغة حمير ١٩٣٤ ، وغيرهما من كتب اللغة .
(٣) جواد علي ١٥/١ ، قارن : المسعودي : مروج الذهب ٤٦/٢ .
(٤) محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص٤ .

وأنها لغة آدم في الجنة ، ثم هم عاجزون أيضاً عن بيان كيف كان لسان أجداد « يعرب » ؟ وكيف اهتدى إلى استنباطه لهذه اللغة العربية ؟ ، وكيف تمكن وحده من إيجادها من غير مؤازر ولا معين ؟ إلى غير ذلك من أسئلة لم يفطن إليها أهل الأخبار في ذلك الزمن[١] .

على إن هناك من حاول أن يقدم تفسيراً أسطورياً ذهب فيه إلى أنّ عاداً قد انقرضت من اليمن بعد عهد هود عليه السلام[٢] ، فأرسل النمرود إبن عمه قحطان أو ولده يعرب ليسكنها ، وحين وصل الأخير إلى اليمن لم يجد فيها إلا قليلاً ممن آمن بهود ، ولكنهم سرعان ما بادوا[٣] ، ومن ثم فقد خلصت الأرض لقحطان ، وكان « يعرب » دون إخوته من إمرأة من عاد ، فتكلم بلسانها وهو العربية ، على أن رواية أخرى تذهب إلى أن المرأة إنما كانت من العماليق ، وأن أولادها جميعاً قد أخذوا العربية عنها[٤] ، فضلا عن أن « النمرود » هذا — في رأيهم — هو صاحب إبراهيم عليه السلام . والذي يأتي بعد عصر « هود » بقرون ، فيما يزعمون .

وهناك فريق ثان إنما يزعم أن هوداً ، عليه السلام ، إنما كان أول من تكلم بالعربية ، بينما يزعم آخرون أن أباه هو أول من تكلم بها ، على أن فريقاً ثالثاً يرى أن نوحاً — عليه السلام — هو أول الناطقين بالعربية[٥] ، ويتجه فريق رابع إلى أنه « عمليق » ، وهو أبو العمالقة ، وذلك حين ظعن القوم من بابل ، ومن ثم فقد كان يقال للعماليق — وكذا لجدهم — « العرب العاربة »[٦] .

---

(١) جواد علي ١٥/١ ، قارن : الدينوري : الأخبار الطوال ص ٧ ، المعارف ص ٢٧١ .

(٢) أنظر عن سيدنا هود : الفصل السادس من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » .

(٣) هناك إتجاه إلى أن قوم عاد — مثلهم في ذلك مثل قوم ثمود — إنما كانوا من شمال بلاد العرب ، وليس من جنوبها : (أنظر كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » الفصل السادس ، عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٨ ، البكري ١١٩/١ ، نهاية الأرب ص ١٩)
وكذا BASOR, 73, 1939, P. 14-15. وكذا C. Forster, op. cit., P. 32

(٤) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٧٨ ، وانظر : المعارف ص ٢٧١ .

(٥) أبو الفداء ١٢٠/١ ، المحبر ص٣٨٤ ، تفسير المنار ٤٩٥/٨ ، ١١٤/١٢ ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٤٩ ، قارن : تفسير روح المعاني ١٥٤/٨ .

(٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٢٠٧/١ .

وأخيراً فلقد ذهب فريق خامس إلى أن إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، كان أول من ألهم هذا اللسان العربي المبين ، وهو ما يزال بعد في الرابعة عشرة من عمره[1] ، ولعل هذا الاتجاه الأخير إنما كان السبب في أن يذهب البعض إلى أن قحطاناً إنما هو من ولد إسماعيل ، عليه السلام[2] .

ولعل هذه الآراء المتضاربة إنما كانت السبب في أن يحاول البعض التوفيق بين الرأيين الأساسيين — الأول والخامس — ومن ثم فقد ذهب هذا النفر إلى أن « يعرب » هو أول من نطق بمنطق العربية ، وأن إسماعيل هو أول من نطق بالعربية الحجازية الخالصة ، التي أنزل بها القرآن الكريم[3] .

وعلى أي حال ، فإن الألوسي يذهب إلى أن لفظ العرب ، إنما يطلق أصلاً لقوم جمعوا عدة صفات ، منها أن لسانهم كان العربية ، ومنها أنهم كانوا من أولاد العرب ، ومنها أن مساكنهم كانت بأرض العرب حتى ظهور الإسلام ، ثم تفرقوا بعد ذلك في البلاد التي دانت بعقيدة التوحيد وبرسالة محمد — صلوات الله وسلامه عليه[4] — ، ويذهب آخرون إلى أن كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها ، فهم العرب ، سموا عرباً باسم بلدهم العربات[5] .

هذا وقد اختلفت الآراء كذلك في معنى كلمة « عرب » ومصدر اشتقاقها ، فبينما ذهب البعض إلى أن أصل الكلمة ما يزال غامضاً[6] ، ذهب آخرون إلى أنها مشتقة من الفعل « يعرب » ، بمعنى يفصح في الحديث ، ومن ثم فقد أصبحت تدل

---

(١) تاريخ الخميس ص ١٠٤ ، تاريخ اليعقوبي ٢٢١/١ ، العقد الثمين ١٣٤/١ ، شفاء الغرام ص ١٣ ، وفاء الوفا ١٢٢/١-١٢٤ ، تاج العروس ٣٥٢/٢ ، لسان العرب ٧٥٤/٢ ، تاريخ ابن خلدون ٨٦/٢ ، قارن : ياقوت ٩٨/٤ .

(٢) وفاء الوفاء ١٢٢/١-١٢٣ .

(٣) تاريخ الخميس ص ١١٠ ، تاج العروس ٣٥٢/٢ ، تفسير روح المعاني ١٧٢/١٢-١٧٣ ، الطبقات الكبرى ٢٤/١ .

(٤) أنظر : السيد محمود شكري الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، (ثلاثة أجزاء) القاهرة ١٩٢٤م .

(٥) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، بيروت ١٩٥٧ ، الجزء الرابع ص ٧ .

(٦) برنارد لويس : العرب في التاريخ ، ترجمة نبية فارس ، ومحمود يوسف بيروت ١٩٥٤ ص ٩ .

على العرب لفصاحتهم [1] ، إلا أن هناك من يعارض هذا الإتجاه ويرى أن العكس هو الصحيح ، وأن الفعل « يعرب » هو الذي اشتق من كلمة « عرب » ، ذلك أن المرء عندما يعبر عن أفكاره باللسان ، فإنه إنما يعبر عن رأيه [2] .

على أن هناك من يذهب إلى أن كلمة « عرب » إنما هي مشتقة من أصل سامي قديم بمعنى « الغرب [3] » ، وأن القاطنين في بلاد الرافدين هم الذين أطلقوا عليهم هذا الإسم ، لأنهم يقيمون في البادية الواقعة إلى الغرب من العراق ، والتي كان يطلق عليها « أرض عربي » [4] ، غير أن هناك من يرى أن العرب كانوا يستخدمون هذا الاسم إذا ما تحدثوا عن أنفسهم ، ومن ثم فليس من المعقول أن يسمى قوم أنفسهم بإسم يدل على موقعهم بالنسبة إلى غيرهم من الشعوب المجاورة [5] .

والرأي عندي أن ذلك ليس صحيحاً ، فالأموريون ، كما نعرف ، كان قد أطلق عليهم جيرانهم السومريون في الشرق إسم « مارتو » ، كما أطلق عليهم الأكديون إسم « أمورو » ويعني « الغرب » وهو الإسم الذي عرفوا به في التاريخ ، بل إن البابليين توسعوا في استعمال كلمة « أمورو » فأطلقوها على كل سورية القديمة ، كما سموا البحر الأبيض المتوسط « بحر أمورو العظيم » ، وأما عاصمتهم فقد كانت « ماري » وهي كلمة سومرية من جهة الإشتقاق ، شبيهة باسم البلاد « مارتو » و « أمورو » أي بلاد الغرب [6] ، ناهيك بما نستعمله الآن — سياسياً وعلمياً — من اصطلاحات « الشرق الأدنى » و « الشرق الأوسط » و « الشرق الأقصى » ، وكلها اصطلاحات أوربية ، تدل على موقع تلك المناطق من أوربا .

---

(١) محمود شكري الألوسي : المرجع السابق ص ٨ .
(٢) المزهر ١/٣٥ ، ٢٠٩ ، لسان العرب ١/٥٨٨ .
(٣) أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٣ .
(٤) A. Grohmann, EI, Article al-Arab, P. 525.
(٥) برنارد لويس : العرب في التاريخ ص ٩ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٧٥ .
(٦) راجع كتابنا إسرائيل ص ٣٣٢ (القاهرة ١٩٧٣) .

وهناك من يرى أن كلمة « عربي » ترتبط بكلمة « عبري » إرتباطاً لغوياً متيناً لأنهما مشتقان من أصل واحد ، ويدلان على معنى واحد ، فهما مشتقان من الفعل الثلاثي « عبر » بمعنى قطع مرحلة من الطريق ، أو عبر الوادي أو النهر من عبره إلى عبره ، أو عبر السبيل شقها ؛ ذلك لأن العرب والعبريين كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان ، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها بحثاً عن الماء والكلأ ، ومن هنا فإن كلمة عربي وعبري مثل كلمة بدوي ، أي ساكن الصحراء أو البادية[1] ، وقريب من هذا ما يراه « نولدكه » من أن كلمة عربي معناها صحراء[2] .

وإذا ما تتبعنا تاريخ لفظة « العرب » ومدلولها في اللغات السامية القديمة ، لوجدنا أنه على الرغم من وجود علاقات قديمة بين سكان « ميزوبوتاميا » والمناطق الشرقية في شبه الجزيرة العربية[3] ، فإن أقدم نص وجدت فيه هذه اللفظة — فيما نعلم — يرجع تاريخه إلى عهد الملك الأشوري « شلمنصر الثالث » (٨٥٩—٨٢٤ق.م)، أو بالتحديد إلى موقعة « قرقر » عام ٨٥٣ ق.م. ، والتي اشترك فيها أمير عربي يدعى « جندب » (جنديبو) ، إلى جانب حلف من الأمراء السوريين ضد العاهل الآشوري[4] .

---

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، القاهرة ١٩٢٩ ص ٧٧—٧٨ .

(٢) محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الإسلام ص ١٢ .

(٣) أنظر عن هذه العلاقات : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية ، العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧—٤٣٧ ، عبدالله حسن مصري : مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة الثانية ، ١٩٧٦ ص ٦٦—٧٥

وكذا A.H. Masry, Prehistory in Northeastern Arabia, Miami, Florida, 1974, P. 1F.

(٤) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٤٩٤—٤٩٥ ،

وكذا M. Noth, History of Israel, London, 1965, P. 245-6

وكذا J.A. Montgomery, Arabia and the Bible, P. 27

وكذا ANET, P. 279 وكذا S.A. Cook, in CAH, III, P. 363.

وكذا The Jewish Encyclopedia, N.Y., 1902, P. 41.

وكذا Alois Musil, in the Arabia Deserta, N.Y., 1930, P. 477.

وهناك من عهد « تجلات بلاسر » الثالث (٧٤٥—٧٢٧ق.م) ، حوليات عثر عليها في « كالح » جاء في بعضها إشارات إلى جزية من «زبيبة» ملكة « بلاد العرب » ؛ هذا فضلاً عن نص آخر يقول فيه الملك الآشوري : « أما شمسي (سمسي) ملكة بلاد العرب ، التي حنثت بيمين « شمس » . . . . فقد أصبحت خائفة من قوة جيشي ، وأرسلت لي جمالاً ونياقاً ؛ ثم عينت موظفاً من لدني هناك »[1] ، وعلى أي حال ، فيبدو أن « شمسي » قد نقضت عهد الولاء لآشور ، ومن ثم رأينا « سرجون الثاني » (٧٢٢—٧٠٥ ق.م) يحدثنا أنه قد تلقى الجزية « من بيرو صاحب موصري ، ومن « شمسي » ملكة بلاد العرب ، ومن « أتعمارا » (يثع أمر) أمير سبأ ، تبراً وخيلاً وجمالاً »[2] .

هذا وتتحدث نقوش « سنحريب » (٧٠٥—٦٨١ ق.م) وولده « إسرحدون » (٦٨٠—٦٦٩ق.م) عن سيطرة الأول على بادية شمال بلاد العرب ، حتى دعاه « هيرودوت » بملك العرب والآشوريين ، فضلاً عن إخضاعه لملكة العرب « تعلخونو» صاحبة دومة الجندل ، وأسر الملكة أو الأميرة العربية « تاربو » (تبؤة)[3] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن لفظة « عرب » عند الآشوريين ، إنما تعني « بداوة » أو « إمارة » على تخوم الحدود الآشورية ، تتسع حدودها وتضيق ، طبقاً للظروف التاريخية ، وطبقاً لشخصية الأمير الحاكم الذي كان في أغلب الأحايين

---

(١) أنظر : نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ، الإسكندرية ١٩٦٣ ، الجزء الخامس ص٢٦٨
وكذا A.T. Olmstead, History of Assyria, P. 189
وكذا A.L. Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts, in ANET, 1966, P. 280.

(٢) A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon, II, Part, I, The Annals, P. 5
وكذا A. Musil, op. cit., P. 479. وكذا ANET, P. 284.

(٣) Herodotus, II, 141. وكذا ANET, P. 290
وكذا D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, Chicago, 1927, P. 518 وكذا A. Musil, op. cit., P. 480.
وانظر : موسكاتي : المرجع السابق ص ٣٥٥ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٨٩—٢٩٠ .

يحمل لقب « ملك » ، هذا إلى جانب أن الكتابة الأشورية لم تكن تحرك المقاطع ، حتى بات من الصعب على العلماء الإتفاق على نطق موحد للكلمة ، ومن ثم فقد وجدت عدة قراءات لكلمة « عرب » مثل « عريبي » (Aribi) و « عربي » (Arbi) و « عُربو » (Urbu) ، إلى غير ذلك من أمثال (Arabi) و (Arub) و (Arubu) (Aribu) .[1]

وفي القرن السادس قبل الميلاد ، تظهر كلمة « عرب » (عرابة Arabaya) في النصوص الفارسية ، المكتوبة باللغة الإخمينية (أو الأكمينية) ، وذلك في نقش إنتصارات الملك « دارا الأول » (٥٢٢–٤٨٦ ق.م.) ، المعروف باسم « نقش بهستون » في إحدى الممرات الجبلية في الطريق بين كرمنشاه وهمدان[2] ، تظهر كلمة عرب بمعنى « البادية » التي تفصل بين آشور وبابل من ناحية ، وبين مصر من ناحية أخرى ، مما جعل بعض العلماء يدخلون شبه جزيرة سيناء في جملة هذه الأرضين ، وقد عاشت قبائل عربية عديدة في منطقة سيناء قبل الميلاد[3] .

وأما في التوراة — أو العهد القديم — فقد وردت كلمة « عرب » بمعنى البدو والأعراب ، وبمعنى القفر والجفاف ، في مواضع كثيرة ، فهم رعاة يسكنون

---

(١) جواد علي ١/١٦ ،
وكذا Caussin de Perceval, op. cit., I, P. 4F وكذا T.K. Cheyne, EB, I, P. 273.
وكذا E. Ebling and B. Meissner, Reallexikon der Assyriologie, Erster Band, Berlin, 1922, P. 125

(٢) أنظر عن نقش بهستون :
A. T. Olmstead, Darius and his Behistun Inscription, AJSL, LV, 1938.
وكذا R.G. Kent, Old Persian Texts, III, Darius, Behiston Inscription, JNES, II,1943.

(٣) جواد علي ١/١٧–١٨
وكذا J. Hastings, op. cit., P. 131 وكذا T.K. Cheyne, EB, I, P. 273.
وكذا The Sculptures and Inscription of Darius, The Great on the Rock of Behistun in Persia, London, 1907, 4, P. 95, 161.

الخيام ، « ولا يخيم هناك إعرابي ولا يربض هناك رعاة »[1] ، ويكثر فيهم المتربصون على طرق القوافل ، « في الطرقات جلست لهم كأعرابي في البرية[2] » ، ونفس المعنى يتردد في نصوص توراتية أخرى ، كما في أشعياء[3] ، وإرمياء[4] ، لا يقصد بها قومية على جنس معين ، وإنما المقصود دائماً البادية ، موطن العزلة والوحشة والخطر[5] .

وأما في التلمود ، فقد قصد بكلمة « عرب » و « عربيم » و « عربئيم » . الأعراب كذلك – أي نفس المعنى الذي ورد في أسفار التوراة – كما أصبحت لفظة « عربي » مرادفة في بعض الأحايين لكلمة « إسماعيلي »[6] ، نسبة إلى سيدنا إسماعيل ، جدّ العرب ، والأخ الأكبر لإسحاق ، والد يعقوب أو إسرائيل ، جدّ اليهود .

وفي أخريات القرن السادس قبل الميلاد ، بدأ اليونان يتحدثون عن العرب في كتاباتهم ، وكان « إسكليوس » (أخيلوس Aeschylus) (٥٢٥–٤٥٦ ق.م) ، أول من ذكر العرب من اليونان ، وذلك إبان الحديث عن الملك الفارسي « اكزركسيس الأول » (٤٨٦–٤٦٥ ق.م.) والذي هاجم اليونان في بلادهم بجيش فيه « ضابط عربي من الرؤساء مشهور[7] » ، ثم جاء هيروت (٤٨٤–٤٣٠ ق.م.) فتعرض في كتابه الثاني لذكر العرب ، بطريقة تدل على أنه كان على شيء من العلم بهم ، كما أطلق على بلاد العرب لفظ «Arabie» ويعني بها البادية وشبه جزيرة العرب

---

(١) أشعياء ١٣ : ٢٠ .
(٢) إرمياء ٣ : ٢ .
(٣) أشعياء ٢١ : ١٣ .
(٤) ارمياء ٢٥ : ٢٤ .
(٥) جواد علي ١/١٨ . وكذا
J. Simons, The Geographical and Topographical Texts of the Old Testament, Leiden, 1959, P. 4.
(٦) جواد علي ١/٢١ .
(٧) EB, P. 273.

والأرضين الواقعة إلى الشرق من نهر النيل ، ومن ثم فقد أدخل « هيرودوت » سيناء وكل الأقسام الشرقية من مصر – والواقعة بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل – ، في بلاد العرب[١] .

وجاء « سترابو » (٦٦ ق.م – ٢٤ م) و « بليني » (٣٢–٧٩م) : فأكدا ماذهب إليه « هيرودوت » وأضافا إلى ذلك أن عدد العرب في عهدهما قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر ، حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين نهر النيل من أعلى الصعيد ، وكان لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر الأحمر والنيل[٢] ، بل إن « سترابو » قد وصف مدينة « قفط » جنوبي قنا ، بأنها مدينة واقعة تحت حكم العرب ، وبأن نصف سكانها من أولئك العرب[٣] .

وهكذا كانت بلاد العرب تقذف بالموجة تلو الأخرى إلى وادي النيل، عبر البحر الأحمر ، وعن طريق سيناء ، والتي كانت منذ القدم قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات ، التي كان من أهمها ، (أولاً) قبائل كهلانية من عرب الجنوب ، إستقرت في الجزء الشمالي الشرقي من مصر في مطلع المسيحية ، ومنها (ثانياً) هجرة قبائل من « طيء » – فرع كهلاني آخر من المجموعة الجنوبية – كان من أهمها قبيلتا لخم وجذام اللتان استقرتا في محافظة الشرقية ، ومنها (ثالثاً) قبيلة « بلي » التي استقرت فيما بين قنا والقصير ، وكان عليها الاعتماد في نقل التجارة الهندية ، ومنها (رابعاً) هجرة بطون من « خزاعة » – وهم فرع من الأزد – خرجوا في الجاهلية إلى مصر والشام ، بسبب قحط أصاب بلادهم ، هذا فضلاً عن الجماعات التي استقرت في شرق الدلتا قبل الإسلام[٤] .

---

(١) Ibid, P. 371.

(٢) المقريزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة ١٩٦١ ص ٨٩ ، أحمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ، القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢–١٣ .

(٣) مصطفى كامل الشريف : عروبة مصر من قبائلها ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٢٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ٦/٤٨٠ (طبعة الشعب) وكذا أنظر : Encyclopaedia of Islam مادة Kibt ص ٩٩١ .

(٤) أحمد مختار عمر : المرجع السابق ص ١٢ ، وكذا
Abbass Ammar, The People of Sharqiya, Cairo, 1944, I, P. 21-24.

وعلى أي حال ، فليس لدينا كتابات جاهلية من ذلك النوع الذي يسميه المستشرقون « كتابات عربية شمالية » ، غير نص واحد ، ذلك النص الذي يعود إلى عهد « إمرىء القيس » ملك الحيرة ، والمعروف « بنقش النمارة »[1] — والذي سوف نناقشه بالتفصيل في مكانه من هذه الدراسة — وقد جاء فيه « تي نفس مر القيس برعمرو ملك العرب كله ذو إسر التج »[2] وترجمته إلى عربية مفهومة يمكن أن تكون كالتالي « هذا جسمان إمرىء القيس بن عمرو ملك العرب جميعاً ، الذي عقد التاج »[3] .

وأهمية هذا النص الذي يرجع إلى السابع من ديسمبر عام ٣٢٨م في ورود لفظة « العرب » فيه ، وإن كنا لا نستطيع القول أن إمرأ القيس إنما أراد بكلمة العرب هنا ، البدو والحضر سواء بسواء ، أو بمعنى آخر أراد بها أن تكون علماً على قوم وجنس ، وإنما الواضح من النص أنه إنما يقصد بها « الأعراب »[4] ، لأن كلمة « ملك » هنا لا تعني ما يراد منها حقيقة ، وكلمة « عرب » إنما تعني « بدو » ، وإن كان الرجل إنما كان يشغل حقا وظفية « ملك الحيرة » .

وأما النصوص العربية الجنوبية ، فلم يرد فيها اسم « عرب » إلا بمعنى « أعراب » ، ولم يقصد بها قومية ، أي علم لهذا الجنس المعروف ، الذي يشمل كل سكان بلاد العرب من بدو وحضر ، أما أهل المدن والمتحضرون فكانوا يعرفون بمدنهم وقبائلهم ، وكانت مستقرة في الغالب ، ولهذا قيل سبأ وهمدان وحمير ، وقبائل أخرى ، بمعنى

---

(١) أنظر عن نقش النمارة : رينيه ديسو : العرب قبل الإسلام ص ٣٣ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢١٠–٢١٢ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٦٥–١٧٣ ، جواد علي ٣/١٩١–١٩٢ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٧–٢١٨

وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 82.

وكذا R. Dussaud, Nabateo-Arabe d'An-Nemara, in RA, II, 1902, P. 409-421.

وكذا R. Dussaud, Arabes en Syrie avant l'Islam, P. 34-42.

(٢) R. Dussaud, op. cit., P. 34. وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 28.

(٣) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٦٥–١٦٦ .

(٤) جواد علي ١/٢٣ .

أنها قبائل مستقرة متحضرة ، تمتاز عن القبائل الأخرى المسماة « أعراب » في النصوص العربية الجنوبية ، مما يدل على أن لفظة « عرب » و « العرب » لم تكن تؤدي معنى الجنس والقومية في الكتابات العربية المدونة ، والتي ترجع إلى ما قبل الإسلام بقليل ، أي من عامي ٤٤٩ ، ٥٤٢م ، وأن العرب الجنوبيين لم يفهموا هذا المعنى من اللفظة ، إلا بعد ظهور الإسلام ، ودخولهم في دين الله أفواجاً ، رغم ورود اللفظة في النصوص علماً لأشخاص[١] .

ولعل من الجدير بالذكر هنا أن « أب كرب أسعد » كان أول ملك يمني يضيف إلى لقبه الرسمي كلمة « الأعراب » ، ومن ثم فقد أصبح اللقب الملكي في عهده « ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال والتهائم »[٢] — وسوف نشير إلى ذلك بالتفصيل في مكانه من هذه الدراسة —

وأما الشعر الجاهلي فلم يكن بأفضل من النصوص المكتوبة في هذا الصدد ، ومن ثم فإننا لم نجد فيه صيغة من جذر (ع . ر . ب) للدلالة على معنى قومي يتعلق بالجنس ، ولا على معنى يتعلق باللغة التي تتكلمها ، ذلك لأن الجاهليين إنما كانوا غارقين في منازعاتهم القبلية ، فلم يكن لديهم — فيما لدينا من التراث اللغوي — ما يدل على المدرك القومي الجامع[٣] ، غير أن الأمور سرعان ما تتغير ، فيقف العرب في أخريات العصر الجاهلي أمام الفرس ، ومن ثم فقد بدأوا يستشعرون شيئاً من البغضة

---

(١) جواد علي ١/٢٣-٢٤ ، خليل يحيى نامي : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ، القاهرة ١٩٤٣ ص ٨٩ ، ٩٢

وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 27 وكذا EB, I, P. 275.

وكذا D.S. Margoliouth, The Relations between Arabs and Israelites Prior to theRise of Islam, London, 1924, P. 2.

وكذا Albert Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), P. 445.

(٢) F. Altheim and R. Stiehl, Die Araber in der Alten Welt, II, P. 321, IV, P.274.

وكذا le Museon, 1964, 3-4, P. 292.

(٣) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ ص ٤١ .

للفرس ، ويشعر « عنترة بن شداد » بهذه البغضة ، ومن ثم نراه يقول في معلقته عن ناقته :

شربت بماء الدُحْرُضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

وهكذا أحس « عنترة » بالدافع القومي الجامع ، ولما لم يجد الكلمة التي يعبر عنها ، إضطر إلى أن يدور حول المعنى ببيت كامل من الشعر[1] .

وجاء الإسلام ، ونزل القرآن الكريم منجماً في ثلاث وعشرين سنة في مكة والمدينة ، فلم يرد فيه من الجذر (ع . ر . ب) إلا ثلاث صيغ « عُرُباً » (جمع عروب بفتح العين) نعتاً للمرأة المتحببة إلى زوجها في قوله تعالى « عُرباً أتراباً[2] » ، ثم جاءت الصيغة « أعراب » عشر مرات وفي سور مدنية فقط ، منها ست مرات في سورة التوبة وحدها[3] ، ولا حاجة بنا إلى الإستشهاد على أن كلمة « أعراب » تدل في القرآن الكريم — كما تدل في غيره — على البدو[4] .

وأخيراً حسم القرآن الكريم الأمر نهائياً ، فجاءت فيه كلمة « عربي » إحدى عشرة مرة — في سور مدنية وأخرى مكية — جاءت عشر مرات نعتاً للغة التي نزل بها القرآن الكريم[5] ، وجاءت مرة واحدة نعتاً لشخص الرسول الأعظم — صلوات

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٤١ .

(٢) سورة الواقعة : آية ٣٧ .

(٣) سورة التوبة : آية ٩٠ ، ٩٧–٩٩ ، ١٠١–١٠٢ ، سورة الفتح : آية ١١ ، سورة الحجرات آية ١٤ . وانظر : تفسير الطبري ٤١٦/١٤–٤١٩ ، ٤٢٩–٤٣٤ (دار المعارف – ١٩٥٨) ، ١٤٠/٢٦–١٤١ (الحلبي ١٩٥٤) ، تفسير الطبري ٩٨/٢٦–٩٩ ، تفسير الكشاف ٥٧٠/٣–٥٧١ ، تفسير ابن كثير ٣٦٧/٧–٣٦٨ ، تفسير القاسمي ٥٤٧٠/١٥–٥٤٧١ .

(٤) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٤١ ، وانظر : نهاية الأرب ١٢/١–١٥ .

(٥) أنظر : سورة يوسف : آية ٢ ، والرعد : آية ٣٧ ، والنحل : آية ١٠٣ ، وطه : آية ١١٣ ، والزمر : آية ٢٨ ، وفصلت : آية ٣ ، والشورى : آية ٧ ، والزخرف : آية ٣ ، والأحقاف : آية ١٢ .

الله وسلامه عليه – يقول سبحانه وتعالى « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي[1] » ، أي أقرآن أعجمي اللغة ، ونبي عربي ؟ .

وهكذا أصبحت كلمة « عرب » علماً على العرب جميعاً ، كما كان استعمال القرآن الكريم لها دليلاً للشعراء على التعبير الذي لم يستطع « عنترة » أن يصل إليه ، ومن هنا رأينا « كعب بن مالك » يقول في مولانا وجدنا رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – :

بدا لنا فاتبعناه نصدقه وكذبوه فكنا أسعد العرب

ثم رأينا « حسان بن ثابت » بعد ذلك يقرع « بني هذيل » لما اشترطوا على الحبيب المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – أن يبيح لهم الزنا ، في مقابل دخولهم في الإسلام :

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما قالت ولم تصب
سألوا رسولهم ما ليس معطيهم حتى الممات وكانوا سبة العرب

وهكذا بدأ في الشعر العربي مُدْرك لم يكن معروفاً من قبل ، هو أن العرب جماعة واحدة ذات نطاق من الوحدة الجامعة ، على أن مدرك العروبة يومذاك ، أو المدرك القومي العام على الأصح ، كان والإسلام شيئاً واحداً[2] .

وسرعان ما برزت كلمة « عربي » في مقابل كلمة « روم » ، يروي « صاحب الأغاني » أن « قيساً بن عاصم » و « عمر بن الأهتم » قدما إلى المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – بعد فتح مكة ، فتسابا وتهاترا عنده ، ثم قال « قيس » للرسول – عليه الصلاة والسلام – عن « عمرو » وقومه : « والله يا رسول الله ما هم منا ، وإنهم لمن أهل الحيرة » ، فقال عمرو : « بل هم والله يا رسول الله من الروم ، وليسوا منا » ، ثم قال عمرو مخاطباً قيس بن عاصم :

---

(١) سورة فصلت : آية ٤٤ ، وانظر : تفسير الطبري ٢٤/٢٦-١٢٩ ، تفسير البيضاوي ٢/٣٥٠ ، تفسير القرطبي ١٥/٣٦٨-٣٧٠ .

(٢) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٤٢ .

إن تبغضونا فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب

وقد نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قيساً وعمراً عن هذا التلاحي ، وأفهمهما أن الإسلام قد أغرق العصبيات كلها[1] .

وهكذا بدأت كلمة « عرب » تستعمل للتعبير عن المعنى القومي للجنس العربي ، ولا شك في أن الإسلام كان صاحب الفضل في بعث روح القومية عند العرب ، وفي أثناء الفتوحات الإسلامية ، وعلى أيام الفاروق عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - بدأ العرب يتباهون بجنسهم العربي ، ويتمثل هذا في البيت التالي ليربوع ابن مالك[2] :

إذا العرب العرباء جاشت بحورها فخرنا على كل البحور الزواخر

إلا أن الإسلام لم يكن - ولن يكون أبداً - دين عنصرية ، وإنما هو دين يقوم على مبدأ « إنما المؤمنون إخوة[3] » ، وعلى مبدأ « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[4] ، وإنه «لافضل لعربي على عجمي إلابالتقوى»[5] ، ومن هنا ، فرغم أنه هو الذي جعل لكلمة « عرب » هذا المقام في شعور الجماعة ، فإنه إنما نهى عن أن يكون هذا الشعور عاملاً مفرقاً بين صفوف الأمة التي وحدها الإسلام ، ثم إن الإسلام - بخلاف الديانات السماوية الأخرى - إنما هو شريعة الله الخالدة إلى البشرية كافة[6] ، وهكذا

---

(١) الأغاني ١٤/٨٧-٨٨ ، عمر فروخ : المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٣ ، تاريخ الطبري ١/٢٥٣٦ (ط ليدن) .

(٣) سورة الحجرات : آية ١٠ ، وانظر : تفسير القرطبي ١٦/٣٢٢-٣٢٤ ، تفسير البيضاوي ٢/٤٠٩.

(٤) سورة الحجرات : آية ١٣ ، وانظر تفسير القرطبي ١٦/٣٤٠-٣٤٨ . تفسير البيضاوي ٢/٤١١ ، تفسير روح المعاني ٢٦/١٦١-١٦٧ ، تفسير الفخر الرازي ٢٨/١٣٦-١٣٩ ، تفسير الطبري ٢٦/١٣٨-١٤٠ ، تفسير مجمع البيان ٢٦/٩١-٩٨ ، تفسير الكشاف ٣/٥٦٩-٥٧٠ ، تفسير القاسمي ١٥/٥٤٦٧-٥٤٧٠ ، تفسير ابن كثير ٧/٣٦٤-٣٦٧ ، وانظر : إبراهيم خليل أحمد . محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ص ٢١١ .

(٥) أبو الحسن الندوي : النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٧٧ .

(٦) أنظر : مقالنا « قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة » مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الخامس ، الرياض ١٩٧٥ ص٤٣٧-٤٤٤ وانظر للأستاذ الشيخ مناع القطان مقاله « الاسلام شريعة الله =

حارب الإسلام العصبية الجاهلية ، وآخى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بين المهاجرين والأنصار ، وحالف بين قريش ويثرب ، ونهى عن أحلاف الجاهلية ، وروي عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال « لا حلف في الإسلام »[1] .

وهكذا يبدو بوضوح – لا لبْس فيه ولا غموض – أن العربية ، في نظر الإسلام، كانت مفهوماً دينياً وثقافياً ، أكثر منه جنسياً ، وقد روى أن « قيساً بن مطاطية » – وكان من المنافقين – جاء إلى حلقة كان فيها « سلمان الفارسي » و « بلال الحبشي » و « صهيب الرومي » ، فقال : لقد قام الأوس والخزرج بنصرة هذا الرجل – يعني سيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم – فما بال هذا ؟ يقصد ما الذي يدعو الفارسي أو الحبشي أو الرومي بنصره ، فقام إليه « معاذ بن جبل » وأخذ بتلابيبه ثم أتى النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – وأخبره بمقالته ، فقام عليه الصلاة والسلام مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودى : الصلاة جامعة ، وقال صلى الله عليه وسلم ، : « يا أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي » ، فقام « معاذ بن جبل » ، وقال : فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال : دعه فإنه إلى النار »[2] .

XXXXX

= الخالدة إلى البشرية كافة » مجلة كلية الشريعة ، الرياض ١٣٩٤ ، العدد الخامس ص ١١–٤٠ ، وانظر مجموعة فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ٤/٢٠٣–٢٠٨ ، ١١/١٦٩–١٧٠ ، ١٩/٩–١٢، ١٠١ ، ١٠٣ ، وانظر : العقاد : الإسلام دعوة عالمية ، القاهرة ١٩٧٠م .

(١) تفسير الطبري ٥/٣٦ .

(٢) عبد الرحيم فودة : من معاني القرآن ص ١٣٢ ، ثم انظر : تفسير القرطبي ١٦/٣٤٠–٣٤٨ (دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧) .

الفصل الخامس

العرب البائدة

لعل من الأفضل هنا — قبل الحديث عن العرب البائدة ، أن نشير — بادىء ذى بدء — إلى ما جرى الأخباريون عليه من تقسيم العرب إلى طبقات ، أو ما عرف في الكتب التاريخية بطبقات العرب .

طبقات العرب :

إتفق الرواة وأهل الأخبار — أو كادوا يتفقون — على تقسيم العرب من حيث القدم إلى طبقات : عرب بائدة ، وعرب عاربة ، وعرب مستعربة ، أو عرب عاربة ، وعرب متعربة ، وعرب مستعربة[1] ، أو عرب عاربة ومستعربة وتابعة ومستعجمة[2] .

على أن هناك من يجعلهم طبقتين : بائدة وباقية ، فأما البائدة فهم الذين كانوا عرباً صرحاء خلصاء ذوي نسب عربي خالص — نظرياً على الأقل — ويتكوّنون

---

(١) الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥هـ ، الجزء الأول ، ص ٩٩ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/١٦-١٨ ، نهاية الأرب ١/٩-١١ .

من قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم والعماليق وحضورا ومدين وغيرهم ، وأما العرب الباقية – ويسمون أيضاً المتعربة والمستعربة – فهم الذين ليسوا عرباً خلصاً ، ويتكوّنون من بني يعرب بن قحطان ، وبني معد بن عدنان [١] .

وكان يعرب بن قحطان في قول الرواة – كما أشرنا من قبل – أول من إنعدل لسانه عن السريانية إلى العربية ، أو أول من تكلم العربية ، ولسنا الآن في حاجة إلى دحض هذه الروايات ، فذلك أمر سبق لنا القيام به .

وهناك تقسيم ثالث يعتمد في الدرجة الأولى على النسب ، فهم قحطانية في اليمن ، وعدنانية في الحجاز [٢] ، على أن « ابن خلدون » إنما ينحو نحواً آخر ، يقسم به العرب – طبقاً للتسلسل التاريخي – إلى طبقات أربعة ، فهم عرب عاربة قد بادت ، ثم مستعربة ، وهم القحطانيون ، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج ، ثم الغساسنة والمناذرة ، وأخيراً العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلامية [٣] .

هذه هي التقسيمات التي رأى الإخباريون تقسيم العرب إليها – من ناحية القدم والتقدم في العربية – وهي تقسيمات يلاحظ عليها (أولاً) أنها لا ترجع إلى أيام العرب القدامى أنفسهم ، وإنما إلى العصور الإسلامية ، فليس هناك نص واحد يذكر هذه التقسيمات ويرجع في تأريخه إلى ما قبل الإسلام ، حتى يمكن القول أنها من وضع العرب القدامى أنفسهم ، ثم هي (ثانياً) عربية صرفة ، وذلك لأن المصادر اليهودية ، وكذا المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية ، لم تتعرض لمثل هذه التقسيمات [٤] .

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٤٤ ، صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ص ٤١ .
(٢) طه حسين : في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٧٩ .
(٣) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٨٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢٨/٢ (بيروت ١٩٦٥) .
(٤) جواد علي ٢٩٥/١ .

والرأي عندي أن هذه التقسيمات غير مقبولة ، ومتعسفة كذلك ، وذلك لأسباب منها (أولاً) أن القرآن الكريم لم يفرق بين العرب القحطانية والعدنانية ، وإنما رفع العرب جميعاً إلى أب واحد ، هو إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، يقول سبحانه وتعالى « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم[1] » ، ومنها (ثانياً) ما روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —أنه قال : «كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام[2]».

ومنها (ثالثاً) أن هناك من يعتبر « قحطان » نفسه من ولد إسماعيل عليه السلام ، إعتماداً على أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مرّ بناس من « أسلم خزاعة » — وهم من قحطان — وكانوا يتناضلون ، فقال : « إرموا بني اسماعيل فإن أباكم كان رامياً » ، [3] ومن ثم فإن « ابن خلدون » يذهب إلى أن جميع العرب إنما هم من ولد إسماعيل عليه السلام ، لأن عدنان وقحطان يستوعبان العرب العدنانية والقحطانية[4] .

ومنها (رابعاً) أن ابن عباس ، روى أن النبي — صلى الله عليه وسلم — « إنتسب فلما بلغ عدنان وقف ، فقال كذب النسابون » كما روى ابن اسحاق — عن يزيد ابن رومان — أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « استقامت نسبة الناس إلى

---

(١) سورة الحج : آية ٧٨ ، وانظر تفسير البيضاوي ٢/١٠٠–١٠١ تفسير الطبري ١٧/٢٠٥–٢٠٩ ، تفسير القرطبي ١٢/٩٩–١٠١ ، تفسير التبيان ٧/٣٠٤–٣٠٦ (للشيخ الطوسي) ، تفسير القاسمي ١٢/٤٣٨٤–٤٣٨٥ ، تفسير روح المعاني ١٧/٢٠٩–٢١٣ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٤/٣٧١–٣٧٣ ، تفسير الخازن ٥/٢٤–٢٥ ، تفسير البغوي ٥/٢٤–٢٥ (نسخة على هامش الخازن) ، تفسير ابن كثير ٤/٦٦٧–٦٦٩ ، تفسير البحر المحيط ٦/٣٩٠–٣٩٢ ، تفسير النسفي ٣/٢٩٢–٢٩٣ ، تفسير المراغي ٦/١٤٧–١٥٠ ، الجواهر في تفسير القرآن الكريم ١١/٤٠ وما بعدها ، في ظلال القرآن ١٧/١٢٣–١٢٥ ، تفسير مجمع البيان ١٧/١٣١–١٣٢ .
وأنظر كذلك أبياتا من قصيدة لجرير بن عطية التميمي يقول فيها :

أبونا خليل الله لا تنكرونـه — فأكرم بإبراهيم جداً ومفخرا
أبونـا خليل الله والله ربنـا — رضينا بما أعطى الإله وقدرا

(٢) أبو عبدالله محمد بن سعد : الطبقات الكبرى . دار التحرير ، القاهرة ١٩٦٨ ، الجزء الأول ص ٢٥ .

(٣) الإكليل للهمداني ١/١٠٣–١٠٥ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٤١–٢٤٢ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٣٩٦–٣٩٧ ، الإكليل ١/١٠٣–١٠٥ ، قارن : جواد علي ١/٨١: ٤٨٢ .

عدنان » ،فإذا صح هذان الحديثان الشريفان ، فيمكننا القول أن عدنان هو القرم الأول للقبائل العربية ، عدا من سماهم الكتاب العرب بالقبائل البائدة[1] .

ومنها (خامساً) أن الإخباريين عندما حاولوا كتابة أنساب العرب ، إنما اعتمدوا إلى حد كبير على سلسلة الأنساب في التوراة؛ ومن ثم فقد رفعوا من نسل قحطان ، فهم العرب العاربة ، ونزلوا بنسب بني إسماعيل ، فهم العرب المستعربة ، أحدث نسباً من غيرهم من القبائل البائدة والعاربة في نظر كتاب الجنوب ، وبالتالي فهم أقل شأناً من قبائل جنوب شبه الجزيرة العربية[2] ، وهكذا كان الكتاب المسلمون مروجين لنظرية التوراة في الأنساب ، وجهلوا — أو تجاهلوا — أن التوراة إنما كتبت ذلك لترفع من شأن بني إسحاق على بني إسماعيل ، ولتجعل منهم دون غيرهم الأمة المختارة ، وسلسلة النسب المصطفاة ، على بني اسماعيل بالذات ، وجهلوا — أو تجاهلوا — أن الخليل ، صلوات الله وسلامه عليه ، إنما كان عربياً خالصاً ، والأمر كذلك بالنسبة إلى ذريته من بني إسماعيل[3] .

ومنها (سادساً) أن الشعر الجاهلي لم يرد فيه ذكر لتقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية ، وإن وردت فيه أبيات يتفاخر أصحابها بعدنان أو قحطان ، ترجع في أغلب الظن إلى الحقبة القريبة من الإسلام ، كما أن هذا التفاخر — أو حتى الهجاء — لا يصح أن يكون أساساً لوضع نظرية في اختلاف أجناس القبائل العربية[4] .

ومنها (سابعاً) أن ما يراه الإخباريون من أن العداء كان مستحكماً بين العدنانيين والقحطانيين من قديم[5] ، حتى رووا أن كل فريق منهم ، إنما اتخذ لنفسه شعاراً في الحرب يخالف الآخر ، فاتخذ المضريون العمائم والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر ، فإنما أصل هذا العداء ما كان بين الحضارة والبداوة من نزاع

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن القبائل العربية البائدة ص ٩٣-٩٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٩٣ .

(٣) أنظر : كتابنا «إسرائيل» ص١٦٠-٢١٤ ، وكذا كتابنا «دراسات في التاريخ القرآني» ، الفصل الرابع.

(٤) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٨٥ ، جواد علي ١/٣٧٣-٤٧٥ .

(٥) R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, I, P. 17, 70.

طبيعي ، وكان توالي الوقائع والحوادث يزيد في العداء ، ويقوّي روح الشر بينهم ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما كان من العداء الشديد بين أهل المدينة — من أوس وخزرج ، وهم على ما يذكر النسابون قحطانيون ، وأهل مكة — وهم عدنانيون — وقد استمر هذا التنافس بينهم بعد الإسلام ، وكان بين القومين حزازات ومفاخرات ، وكل يدعي أنه أشرف نسباً ، وأعز نفراً[١] .

ومنها (ثامناً) أن علماء الانثروبولوجيا لم يلاحظوا فروقاً واضحة بين العدنانيين والقحطانيين ، وإن كان من العجيب أن الدراسات الانثروبولوجية التي أجريت على أفراد من القبائل العربية الجنوبية ، قد أثبتت فروقاً بين أفراد هذه القبائل[٢] ، هذا إلى أن الجماجم التي عثر عليها من عهود ما قبل الإسلام تشير إلى وجود أعراق متعددة بينها[٣] ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فربما كان السبب في هذا هو الاختلاط الجنسي عند القبائل العربية الجنوبية ، والذي كان نتيجة هجرات من وإلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن هنا كان التشابه بين أهل عمان وبين سكان السواحل الهندية المقابلة لها ، ثم بين أهل عدن وبقية العربية الجنوبية وتهامة ، وبين سكان أفريقية الشرقية ، وإن كان أكثر احتمالاً في الحالة الأخيرة أن تلك القبائل في أفريقية الشرقية ، ربما كانت نتيجة هجرات عربية عن طريق باب المندب إلى أفريقية[٤] .

ومنها (تاسعاً) أنه لم يظهر أي إنقسام بين العرب على أيام الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وكذا على أيام خليفتيه الصديق والفاروق — رضي الله عنهما —

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨٥ ، جواد علي ١/٤٨٣ ، اللسان ٧/١٣٣ ، ٢٠/٣٨ ، وكذا A. Sprenger, op. cit., P. CXXVIII

(٢) B. Thomas, Arabia Felix, P. 301.

(٣) جواد علي ١/٢٩٣ ، وكذا L.H.D. Buxton, The People of Asia, London, 1925, P. 99F.

(٤) أنظر : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » ص ٢٨٧–٤٣٧ (مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦) ، وكذا Les Antiquities du Yemen, in le Museon, 61, 1948, P. 225F.

كما أن الروايات الخاصة بتنظيم الفاروق عمر بن الخطاب لديوان المظالم لم يرد فيها ما يشير إلى أي انقسام أو تمييز بين القحطانية والعدنانية كجنس ، وإنما كانت القربى من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، هي الأساس ، ثم يتفاضل الناس بعد ذلك على مقدار سبقهم في الإسلام ، وعلى أي حال ، فلقد كان بنو هاشم — بيت النبوة — قطب الترتيب ، وأن هذا التسجيل قد تمّ سنة خمس عشرة للهجرة على رأي ، وسنة عشرين على رأي آخر[1] .

ومنها (عاشراً) أن الحروب التي قامت بين الإمام علي — كرم الله وجهه ورضي الله عنه — وبين خصومه ، لم تكن حروباً بين قحطانيين وعدنانيين ، وإنما كانت بين العدنانيين أنفسهم ، والأمر كذلك بالنسبة إلى حروب إشتعل اوارها بين القحطانيين أنفسهم .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن الحروب التي دارت رحاها بين العدنانيين والقحطانيين ، أو بين فريق وفريق من هذه القبيلة أو تلك ، لا تكاد تسمع فيه انتساب كل العرب إلى عدنان أو قحطان ، وإنما تسمع فخراً بأسماء القبائل أو الأحلاف التي انضمت إلى هذا أو ذاك ، تسمع أسماء معد أو نزار أو مضر ، ولعل هذا كله ، يجيز لنا أن نقول — مع الدكتور جواد علي — كيف يجوز لنا أن نتصور إنقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين إنقساماً حقيقياً ، وقد كانت القبائل تتحالف فيما بينها ، وتتحارب بعضها مع بعض بأحلاف قد تكون مزيجاً بين عدنانيين وقحطانيين ، فإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان العرب قحطانيين وعدنانيين بالأصل ، فكيف تحالفت « جديلة » — وهي من طيء — مع « بني شيبان — وهم من بني عدنان — لمحاربة « عبس » العدنانية ، وكيف نفسر تحالف قبائل يمنية مع قبائل عدنانية ، لمحاربة قبائل يمنية ، أو لعقد محالفات دفاعية هجومية معها[2] .

---

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢/٥٠٢-٥٠٥ ، تاريخ الطبري ٣/٦١٣-٦١٩ ، تاريخ اليعقوبي ١٣٠/٢ .

(2) جواد علي ٤٧٧/١ وما بعدها ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٨٦ .

وهكذا يمكننا أن نفسر نظرية الطبقات هذه ، بأن الظروف السياسية لعبت دورها في تكوينها ، وإن شاء أصحابها الرجعة بها إلى الماضي البعيد ، ووضع تأريخ قديم لها ، ذلك أن بني أمية ، حين وضعت الأقدار أمور المسلمين بأيديهم ، إنما عملوا على إحياء العصبية الأولى بين القبائل وضرب الواحدة منها بالأخرى ، رغبة منهم في السيطرة على القبائل جميعاً ، وشغلها عما يقترفه الواحد منهم أو الآخر من أخطاء ، وقد تسبب هذا الوضع — في أغلب الأحايين — في الإساءة إلى القبائل الجنوبية إلى حد كبير ، وسرعان ما انتهزت هذه القبائل فرصة قيام دولة بني العباس — التي اعتمدت عليهم إلى حد كبير — فعملت على استعادة ما فقدته على أيام الأمويين ، وبدأ الأخباريون — ومعظمهم من قبائل الجنوب — يكتبون عن الأنساب ، وعن التاريخ العربي القديم ، وكان موضع الخطر في هذا ، أنهم بدأوا يكتبون وهم في البصرة والكوفة ، ومن ثم فلم يجدوا من المصادر التي يعتمدون عليها ، إلا ما كان قريباً منهم ، وكانت التوراة — وما يدور في فلكها من تصانيف — قد امتلأت بها مكتبات العراق ، ومن ثم فقد نقلوا عنها ما كتبته عن قحطان وإسماعيل وهاجر وسبأ وبعض قبائل الجنوب ، وزاد الطين بلة ، أن العصبية لدى اليمنيين قد لعبت دوراً خطيراً في الأنساب ، ومن ثم فقد نسبوا معظم القبائل البائدة إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، كما أنهم لم يكتفوا بنسب أنفسهم ، وإنما كانوا ينسبون غيرهم إليهم كذلك[1] ، بل إن الأمر قد وصل إلى أن تتخذ لفظة « الأنصار » — والتي أطلقت على أهل المدينة من أوس وخزرج ، بسبب نصرتهم لرسول الله — صلى الله عليه

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٩٣ ، جواد علي ١/٤٨٢–٤٩٥ ، وانظر : ديوان الفرزدق ص ٨ ، ٥٩ ، ٦٨ ، ٨٦ (طبعة بوشيه) ، ديوان حسان بن ثابت ص ٤٠ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٨٩ ، الإكليل ١/٩٦٥ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١١٨ ، الأغاني ٢/١٤٨ ، ٥ ، ١٥١

وكذا J. Halevy, JA, II, 1882., P. 490 وكذا EI, II, P. 655.

وكذا J. Wellhausen, op. cit., P. 40.

وكذا R.A. Nicholson, A Literary Histoiy of the Arabs, Cambridge, 1962, P.XX

وكذا L. Della Vida, Pre-Islamic Arabia, Piinceton, 1944, P. 6.

وسلم – وكأنها قد أصبحت نسباً ، مما ضايق بعض رجالات قريش ، وبدأ شعراء المدينة يفخرون بأصلهم اليمني ، وبأنهم من أقرباء الغساسنة وذوي رحمهم ، كما استعملوا لفظة الأنصار في مقابل قريش ومعد ونزار [١] .

ومن عجب أن بعض النزارية في هذا الجو المحموم بالعصبية إفتخروا بالفرس على اليمنية ، وعدوهم من ولد إسحاق بن إبراهيم ؛ ومن ثم فقد أصبح إبراهيم جد الفرس والعرب ، ولم تكتف النزارية بذلك ، بل زعمت أن هذا النسب قديم ، معتمدين في ذلك على شعر نسبوه إلى شاعر جاهلي ، وجاراهم الفرس في هذا الزعم ، تقرباً إلى الحكومة وهي عدنانية ، فضلاً عن أسباب سياسة أخرى ، لا شك أن منها إثارة العصبية البغيضة بين العرب أنفسهم ، ويبدو أن العدنانيين لم يكتفوا بربط نسبهم بالفرس والإسرائيليين ، وإنما ربطوه كذلك بالأكراد ، حين نسبوهم إلى « ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل .. » ، فكان رد القحطانيين أن جعلوا اليونان من ذوي قرباهم ، بل إن الترك كذلك أصبحوا من حمير [٢] .

على أن « الويس موسل » إنما يرى أن أسطورة الأنساب هذه ، إنما بدأت فيما قبيل الإسلام ، ولما كان لليمن في الجاهلية مقام عظيم ، فقد انتسب الكثيرون إلى اليمن ، ثم جاء علماء الأنساب – متأثرين بالعوامل الآنفة الذكر – فسجلوها على أنها حقيقة واقعة [٣] .

---

(١) جواد علي ١/٤٨٣–٤٩٣ ، الأغاني ١٣/١٤٢ ، ١٤/١١٤–١٢٢ ، ٢٠/١١٧ ، الإكليل ١/١١٨ ، شمس العلوم ١/٢٧١ ، عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٦ ، ٢٠٠ .

(٢) المسعودي : التنبيه والإشراف ص ٧٥–٧٨ ، ٩٤–٩٦ ، مروج الذهب ١/١٧٨، ٢٦٦–٢٧٧ ، ٣٠٠ ، طه حسين : في الأدب الجاهلي ص ١٢٣ ، الأغاني ١٧/٥٢ ، منتخبات ص ١٣ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٨٣–٨٤ ، ١٠٣ ، جواد علي ١/٣٩٦–٤٠٩ ، ابن خلدون ٢/١٨٤ وكذا J. Hastings, op. cit., P. 235, 386. وكذا EB, P. 1333, 2175

(٣) Alois Musil, Northern Nejd, New York, 1928, P. 318.

العرب البائدة :

لعل من الأفضل هنا أن نشير – بادىء ذى بدء – إلى أننا لا نعني بالعرب البائدة والعرب الباقية ، أن أقواماً قد انقرضوا فلم يبق منهم أحد ، وأن أقواماً لم يكونوا ثم نشأوا من جديد ، وإنما ما نعنيه أن قوماً قد يقل عددهم بالكوارث أو بالذوبان في آخرين ، لسبب أو لآخر ، ومن ثم يتوقف تاريخهم وتبطل حضارتهم ، مع أن بقاياهم ما تزال موجودة ، ولكنها بدون قيمة حضارية ، والتاريخ في حقيقته إنما هو تطور الحضارة[1] ، وعلى أي حال ، فتلك تسمية ابتدعها الكتاب العرب ، ذلك لأنه من المعروف أن شيئاً لن يبيد ما دام قد ترك من الآثار ما يدل عليه ، وهي دون شك مصدرنا الأساسي للتعرف على الحضارات السابقة[2] ، وربما كان المقصود بلفظة « بائد » عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى هذه القبيلة أو تلك عند كتابة المؤرخين الإسلاميين لتاريخ ما بعد ظهور الإسلام .

ومن ثم فليس صحيحاً ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن ما يسمى بالعرب البائدة ، ليس من التاريخ الحقيقي في شيء ، وإنما هو جزء من الميثولوجيا العربية أو التاريخ الأسطوري ، الذي يسبق عادة التاريخ الحقيقي لكل أمة ، ومن ثم فإنهم إذا ما عالجوا تاريخ بعض القبائل العربية التي تسمى « بالبائدة » فإنما يعالجونه على هذا الأساس[3] ، وإن كانت غالبية المؤرخين الأوربيين الآن قد عدلت عن هذا الإتجاه ، بعد أن ثبت لهم أن بعضاً من هذه القبائل البائدة ، قد تحدث عنها المؤرخون القدامى من الأغارقة والرومان ، وبعد أن أثبتت الأحافير إلى حد ما صحة بعض ما ورد عن هذه القبائل البائدة في المصادر العربية .

أما العرب الباقية ، فلعنا نعني بهم تلك الجماعات التي كانت – وما تزال – تعيش في هذه المنطقة ، وسوف تظل تعيش إن شاءالله ، إلى أن يغير الله الأرض غير

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٤٩ .
(٢) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٦ .
(٣) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٣٠–٣١ .

الأرض ، وأن حضارتها مستمرة يتوارثها جيل بعد جيل ، وأن كل جيل يضيف إليها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ومن ثم فإن مهمتنا أن نقوم بدراسة تلك الحضارات متتبعين دورها في كل طور من أطوار التاريخ ، وأما أهم القبائل البائدة التي سنتناولها هنا بالدراسة الموجزة فهي عاد وثمود ومدين وطسم وجديس واميم وعبيل وجرهم والعماليق وحضورا .

(١) عاد :

ينظر الأخباريون إلى قوم عاد[١] ، على أنهم أقدم الأقوام العربية البائدة[٢] ، حتى أصبحت كلمة « عادي » و « عادية » إنما تستعملان صفتين للأشياء البالغة القدم[٣] ، وحتى أصبح القوم إذا ما شاهدوا آثاراً قديمة لا يعرفون تاريخها أطلقوا عليها صفة « عادية[٤] » ، وربما كان السبب في ذلك قدم قوم عاد ، أو أن عاداً — ومن بعدها ثمود — قد ورد اسميهما في القرآن الكريم ، ومن ثم فقد قدما على بقية الأقوام البائدة ، رغم أننا لو جارينا الأخباريين في قوائم أنسابهم ، لكان علينا أن نقدم طسم وعمليق وأميم وغيرهم على عاد وثمود ، ذلك لأن الأولين من وجهة نظرهم إنما هم من أولاد « لاوذ بن سام » شقيق « إرم » وأن الآخرين من حفدة « إرم » ، ولكن الأخباريين أنفسهم إنما يقدمون عاداً على بقية الشعوب[٥] .

---

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن « قوم عاد » شغلت الفصل السادس من كتابه « دراسات في التاريخ القرآني » (الجزء الأول — في بلاد العرب) ناقش فيها المؤلف الموضوعات التالية (١—العاديون والعرب البائدة ٢ — قصة عاد في القرآن الكريم ٣ — قصة عاد ومحاولة ربطها بالتوراة ٤ — موقع منطقة عاد ٥ — مبالغات عن العاديين ٥ — سيدنا هود عليه السلام ٧ — عصر قوم هود) ، ومن ثم فلسنا في حاجة إلى تكرار ما كتبناه هناك .

(٢) مروج الذهب ١١/٢ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٦١٣—٦١٤ (بيروت ١٩٦١) .

(٤) مروج الذهب ١٢/٢—١٤ .

(٥) جواد علي ٢٩٩/١ .

ولقد إنفرد القرآن الكريم بذكر عاد، ونبيهم هود، عليه السلام، فجاء ذكرهم في كثير من سور القرآن الكريم[1]، بل إن هناك سورة كاملة تسمى سورة «هود»، كما أن هناك في القرآن الكريم ما يشير إلى أن هناك عاداً الأولى[2]، وعاداً الثانية[3]، وأن عاداً الأولى إنما هم عاد إرم الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام[4]، وأن عاداً الثانية إنما هم سكان اليمن من قحطان وسبأ وتلك الفروع، وربما كانوا هم قوم ثمود[5].

(٢) ثمود:

تكاد تجمع الكتب العربية على أن ثموداً[6] إنما كان مقامها بالحجر إلى وادي القرى بين الحجاز والشام[7]، على أن ارتباطها بعاد يقتضي تقاربهما في المكان، ولذا ذهب الأخباريون إلى أن ثموداً إنما كانت باليمن قديماً، فلما ملكت حميراً أخرجوها إلى الحجاز[8]، ولسنا في حاجة إلى التدليل الآن على خطأ هذا الاتجاه، فذلك أمر سبق لنا مناقشته في كتابنا «دراسات في التاريخ القرآني».

---

(١) أنظر مثلا: الأعراف (٦٥-٧٢) وهود (٥٠-٦٠) والمؤمنون (٣١-٤٢) والشعراء (١٢٣-١٤٠) وفصلت (١٥-١٦) والأحقاف (٢١-٢٦) والقمر (١٨-٢١) والحاقة (٢١-٢٦) والفجر (٦-٨).

(٢) سورة النجم (٥٠-٥١)، سورة الفجر (٦-٧).

(٣) مروج الذهب ١١/٢، وانظر: ابن كثير، حيث يرى أن ما ورد في سورة الأحقاف كان عن عاد الثانية، وغير ذلك كله عن عاد الأولى (البداية والنهاية ١٣٠/١).

(٤) ابن كثير ١٢٥/١.

(٥) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ٥٣.

(٦) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «قوم ثمود» في كتابه «دراسات في التاريخ القرآني» شغلت الفصل السابع من الجزء الأول، ناقش فيها المؤلف الموضوعات التالية: ١ - أصل الثموديين ٢ - ثمود في الكتابات القديمة ٣ - ثمود في القرآن الكريم ٤ - عصر قوم صالح عليه السلام ٥ - النقوش الثمودية ٦ - المجتمع الثمودي.

(٧) ابن كثير ١٣٠/١، أبو الفداء ١٢/١، الطبري ٢٢٦/١-٢٢٧، ابن الأثير ٨٩/١، مروج الذهب ١٤/٢، نهاية الأرب ٧١/١٣، البكري ٤٢٦/٢، المحبر ص ٣٨٤، المعارف ص ١٤، ياقوت ٢٢١/٢، تاريخ الخميس ص ٨٤.

(٨) جرجي زيدان: المرجع السابق ص ٦٧، مبروك نافع: المرجع السابق ص ٣٦.

وعلى أي حال ، فإن الدراسات الحديثة تثبت أن الثموديين قد عاشوا في شمال الجزيرة العربية منذ أعماق التاريخ ، وتركوا لنا آثاراً ونقوشاً في كل مكان من هذه الأرضين ، التي تمتد من الجوف شمالاً إلى الطائف جنوباً ، ومن الأحساء شرقاً إلى يثرب فأرض مدين غرباً ، ومن المسالك المؤدية إلى العقبة والأردن وسورية ، وحتى في أرض حضرموت من جنوب الجزيرة ، وإن ذلك لدليل على أن الثموديين كانوا في يوم ما السكان الأصليين لشمال شبه الجزيرة العربية[1] .

وليس من شك في أن قصة ثمود أوضح بكثير من قصة عاد ، فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد والنقوش الأشورية تتحدث عنهم ، من بين من تحدثت عنهم من قبائل ، وقد دعتهم « تامودي »[2] ، كما تحدث عنهم الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان من أمثال « أجاثارخيدس » و « ديودور » و « بليني » و « كلوديوس بتولمايس » ، وصاحب كتاب « الطواف حول البحر الارتيري » وغيرهم[3] .

وأما القرآن الكريم ، فقد ذكرهم في كثير من سوره[4] ، هذا إلى جانب أن كثيراً من الآيات الكريمة قد قرنت قوم عاد بثمود ، كما في سورة التوبة وإبراهيم والفرقان وص والنجم والفجر ، وقد استدل البعض من كلمات « رجفة » و « صيحة »

---

(١) أحمد حسين شرف الدين : المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) G. Rawlinson, Cuneiform Inscriptions, I, Pl.36 وكذا A.G. Lie, op. cit., P.5.
وكذا A. Musil, Northern Hegaz, P. 289
وكذا A. Musil, in the Arabia Desert, P. 479.
وكذا A.L. Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts, in ANET, 1966, P. 286.

(٣) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩٢
وكذا C. Forster, I, P. 323, II, P. 30, 117, 274.284
وكذا Diodorus, III, 44 وكذا Pliny, II, P. 456-456, IV, 32
وكذا Ptolemy, VI, 7:4, V, 19:7. وكذا J. Hastings, op. cit., P. 630.

(٤) أنظر : سورة الأعراف (٧٣-٧٩) وهود (٦١-٦٨) والحجر (٨٠-٨٤) والإسراء (٥٩) والشعراء (١٤١-١٥٩) والنمل (٤٥-٥٣) وص (١٣) وفصلت (١٧-١٨) والذاريات (٤٣-٤٥) ، والنجم (٥٠-٥١) والقمر (٢٣-٣٢) والحاقة (٤-٥) والشمس (١١-١٥) .

التي جاءت في القرآن الكريم على أن ثموداً إنما أصيبوا بكارثة عظيمة ، من ثوران البراكين أو من الهزات الأرضية[1] ، وربما كان الأمر كذلك ، فمنطقة إقامتهم إنما هي واحدة من مناطق الحرار في شبه الجزيرة العربية .

(٣) طسم وجديس :

ينسب الإخباريون « طسماً وجديس » إلى « لاوذ بن إرم بن سام بن نوح » ، مع قليل أو كثير من التعديل في هذا النسب كالعادة[2] ، وأنهما كانا قريبا عهد بعاد الأولى[3] ، أما موطنهما فكان في منطقة اليمامة ، والتي كانت تسمى « جو » من قبل[4] ، ولكن يبدو أن هذا لم يكن هو الوطن الأول ، ومن ثم فعلينا أن نبحث عنه في مكان آخر .

لقد حدثتنا التوراة عن كثير من القبائل العربية ، ومن بينها قبيلة « طسم » التي دعتها « لتوشيم » وأنها إحدى بطون قبيلة « ديدان » الموجودة في العلا ، وهذا يعني أن بداية إستقرار « طسم » إنما كان في منطقة العلا ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى منطقة اليمامة ، وهذا القول لا يبدو غريباً ويمكن تصوره ، فنحن نعرف أن أحد الطرق التجارية يبدأ من جنوب بلاد العرب ، من « عدن » أو « قنا » ، فمدن الحجاز (مكة ، المدينة ، خيبر) إلى أن يصل إلى العلا ، ثم يتجه إلى الشمال ، وهناك طريق ثان يبدأ من الجنوب أيضاً ، ماراً بالحافة الغربية للربع الخالي ، متجهاً إلى اليمامة ، ثم ينحدر باتجاه الشمال الغربي إلى منطقة العلا ومدائن صالح ، فبلاد الشام ، أو إلى مصر ، إذن فمن المحتمل أن يكون نزوح « طسم » إلى اليمامة ، إنما كان بسبب العامل

---

(١) وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 91 وكذا Ency. of Islam, I, P. 736 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 734.

(٢) ابن خلدون ٢٤/٢ ، الأغاني ٤٨/١٠ ، ابن الأثير ٣٥١/١ ، اللسان ٣٣٣/٧ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٢٠٤ ، المعارف ص ١٣ ، وكذا EI, I, P. 992.

(٣) تاريخ الطبري ٣٣٧/١ ، اللسان ٣٥/٦

(٤) ياقوت ١٩٠/٢ ، ٤٤٢/٥ ، البكري ٤٠٧/٢ .

الإقتصادي في المكان الأول ، على أساس أن جزءاً من قبيلة ديدان ــ وهي التي كانت تشارك في الحركة الإقتصادية بين جنوب الجزيرة وشمالها ــ قد نزح إلى منطقة اليمامة ، ليحافظ على استقرار الأمن في الطريق التجاري من جنوب بلاد العرب إلى شمالها عبر اليمامة ، ويبدو أن « جديس » قد نزحت كذلك مع « طسم » ، وبهذا يمكن أن نجد صلة النسب قائمة بين القبيلتين [1] .

وفي الواقع أننا لا نملك مصادر يعتمد عليها في التأريخ لهما ، فالقرآن الكريم لم يتحدث عنهما ، والاكتشافات الأثرية لم تصل إليهما ، وكتابات الأمم الأخرى لم تذكرهما ، إذا استثنينا إشارة التوراة عن طسم ، ومن هنا فالشك يحيط بتاريخهما من كل جانب ، ومع ذلك فقد حاول البعض أن يلم بشتات ما كتب عنهما ، ليخرج لنا صورة عنهما ، أقرب إلى الحكايات منها إلى التاريخ الصحيح .

ومع ذلك ، فعلينا ألا نتعجل في الحكم عليهما ، كما فعل نفر من المستشرقين ، فذهب إلى أنهما من الشعوب الخرافية ، فقد تأتي لنا الأيام بمعلومات عنهما قد تغير الصورة الحالية إلى حد كبير ، ويبدو أنها بدأت تفعل ، فلقد عثر في « صلخد » على نص يوناني يرجع إلى عام ٣٢٢م ، جاء فيه « أنعم طسم[2] » ، كما أن التوراة قد أشارت إلى « طسم » ، على أنه من نسل « دادان بن يقطان[3] » أضف إلى ذلك أن بعضاً من المستشرقين يرى أن إسم « Jodisitae » أو « Jolisitae » الوارد في جغرافية بطليموس ، هو إسم قبيلة من قبائل شرق بلاد العرب ، وأنها «جديس» بعينها ، وأنها كانت معروفة حوالي عام ١٢٥[4] م ، بل ومزدهرة كذلك . ويصفها

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٩٠-٩١ .

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الجزء الأول ص ٣٣٥
وكذا D.H. Mueller, Suedarabische Studien, P. 67.

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢/٢٩٤ ، مجلة الهلال ، العدد ١٠ ص ٧٧٦ (القاهرة ١٨٩٧م) .

(٤) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٦٩ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٢١-١٢٢
وكذا Ptolemy, I, 29. وكذا EI, I, P. 992
وكذا Caussin de Perceval, op. cit., I, P. 29.

المسعودي — هي وأرض طسم — بأنها من أفضل البلاد وأكثرها خيراً ، فيها صنوف الشجر والأعناب ، وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة[1] .

هذا وينسب الأخباريون إلى القبيلتين كثيراً من المواضع ، فإلى « طسم » ينسب حصن المشقر ، بين نجران والبحرين ، وإلى « جديس » ينسب قصر معنق والشموس في اليمامة ، فضلاً عن بعض القرى في اليمامة كذلك ، منها « حجر » حاضرة طسم وجديس .

وهناك «جعدة» ، والتي يصف «الهمداني» جُدرها ، بأنها تسمح بأن يركض عليها أربع من الخيل جنباً إلى جنب ، وأن بها حصناً قديماً ظل باقياً حتى أيامه ، وأنه كان يحيط بالقرية ، وأن أساسه من اللبن ، وفي هذا دلالة على خصب التربة ووفرة الأرض الطيبة والماء ، كما هو الحال في العراق ومصر منذ أقدم العصور ، هذا إلى جانب « الخضرمة » (جو القديمة) التي كانت تسكنها جديس — في مقابل الخضراء لطسم — فضلاً عن « الهدار » و « ريمان »[2] .

وقصة القبيلتين العربيتين — كما يقدمها الأخباريون — تذهب إلى أن الغلبة إنما كانت من نصيب «طسم» ، وأن أولى الأمر ، وأصحاب السطوة ، إنما كانوا منها كذلك ، ومرت الأيام وانتهى الملك في طسم إلى رجل ظلوم غشوم ، إستذل جديس وانتهك أعراضها ، حتى جعل سنته السيئة ، ألا تزف بكر من جديس إلى بعلها ، قبل أن يقضي منها وطره ، إلى أن كان يوم زفت فيه امرأة من جديس تدعى « الشموس » (عفيرة بنت غفار بن جديس) إلى رجل من قومها ، وعندما حملت إلى ملك طسم ليفترعها أولاً ، سمعت من عبيده ما مس من كرامتها ، وأهان

---

(١) مروج الذهب ٢/١١٤ .

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٤٠-١٤١ ، ص ١٦٠ ، ١٦٤ ، ياقوت ٢/٢٢١ ، ٣٧٧ ، البكري ١/٨٥ ، ٢/٤٠٥ ، ٣/١٠٧٠-١٠٧١ ، صحيح الأخبار ١/١٩٥ ، ٢/٣٣ ، ١٧٠ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٦٩-٧٠ ، جواد علي ١/٣٣٩-٣٤٠ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٢٣-١٢٧ .

شرفها ، فخرجت من فراش ملك طسم ودمها يسيل ، وقد شقت ثوبها من خلف ومن قدام ، ثم أخذت تنشد شعراً في قصيدة طويلة ، تثير به نخوة قومها .

وتستمر الأقصوصة ، فتذهب إلى أن أخا الشموس (الأسود بن غفار بن جديس) سيد قومه وصاحب الرأي فيهم ، قد تحركت نخوته ، كما أحس المذلة قومه من جديس ، فاتفق القوم على ملك طسم ، ومن ثم فقد نصبوا له ولخاصة قومه الشباك ، وكتب لهم في مهمتهم هذه نُجْحاً بعيد المدى ، واستطاع رجل من طسم أن يفر من المذبحة ، وأن يستنجد بـ « حسان بن تبع » ملك حمير ، الذي يعدّ جيشاً كثيفاً ، بغية أن يقضي به على جديس ، وبينما كان هذا الجيش العرمرم على مبعدة ثلاثة أيام من اليمامة ، يخبر هذا المستجير — ويسمونه رباح بن مرة — ملك حمير ، أن له أختاً في جديس ترى على مسيرة ثلاثة أيام ، وأنه يخشى أن تراهم فتحذر القوم منهم ، ومن ثم فإنه يقترح أن يحمل كل جندي فرعاً من شجرة كبيرة يستتر وراءها ، حتى يستطيعوا أن يفاجئوا جديساً قبل أن يتحوطوا للقائهم .

وتطلعت أخت الطسمي — وتدعى زرقاء اليمامة — إلى ناحية الجنوب الغربي ، وصاحت في جديس تحذرهم من حمير ، فهي ترى شجراً يتحرك ومن ورائه جنوداً تحمل سلاحاً ، ولكن القوم ظنوا بها الظنون فلم يصدقوها ، حتى حلت الكارثة ، فأبيد الرجال ، وسبيت النساء ، وقتلت الأطفال ، وهدمت البيوت والحصون ، وفقئت عيني الزرقاء ، وتغير إسم مساكن طسم وجديس من « جو » إلى اليمامة ، وهكذا كان فناء طسم على يد جديس ، وفناء جديس على يد الحميريين ، ومن ثم فقد لحق القومان (طسم وجديس) بعاد وثمود ، وصاروا من العرب البائدة[1] .

---

(١) تاريخ الطبري ١/٦٢٩-٦٣٢ ، المسعودي : مروج الذهب ٢/١١١-١١٩ ، أخبار الزمان ص ١٢٤-١٢٦ ، ابن الأثير ١/٣٥٠-٣٥٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٤-٢٥ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٦٩-٧٠ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣/٢٨-٢٩ ، المعارف ص ٢٧٤-٢٧٥ البكري ٢/٤٠٧ ، أخبار عبيد بن شريه ص ٤٨٣-٤٨٨ ، الأخبار الطوال ص ١٤-١٦ ، ياقوت ٥/٤٤٢-٤٤٧ ، سعد زغلول المرجع السابق ص ١٢٣-١٢٤ ، مبروك نافع : المرجع السابق ص ٣٧-٣٩ ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية ص ٣٩٦-٣٩٨ .

هذه هي القصة التي تدور حول الحيّين العربيين – طسم وجديس – وهي – فيما نظن – لا تعدو أن تكون واحدة من القصص الشعبي ، ومن الغريب أن القصة تكاد أن تكرر نفسها بين العرب واليهود في المدينة[1] ، فضلاً عن شبه قريب بينها وبين قصص أخرى يرويها الأخباريون عن ملوك اليمن ، وعن ولعهم بالنساء ، وفعل المنكر فيهن . ومنها واحدة تتصل بملكة سبأ (بلقيس[2] صاحبة سليمان عليه السلام) وأخرى عن « عتودة » مولى أبرهة الحبشي[3] .

أضف إلى ذلك أن القصة تصور القوم وكأنهم لا يثورون على هذا الوضع الدنيء ، إلا بعد أن ظهرت « عفيرة » ودمها يسيل ، وقد شقت ثوبها من قدام ومن خلف ، فيغضب أخوها – كما غضب أخو فضلاء في يثرب – ويقتل « عملوق » ملك طسم ، هذا إلى جانب أن القصة تصور المرأة – وليس الرجل – هي التي تأنف من العار وتأبى الذل ، وتحرض الرجال على الإنتقام للعرض المستباح ، ومن ثم فإننا نرى « عفيرة » تقول :

لا أحد أذل من جديس ... أهكذا يفعل بالعروس
يرضى بذا يا قوم بعل حر ... أهدي وقد أعطى وثيق المهر
ولو أننا كنا رجالاً وكنتم ... نساء لكنا لا نقر بذا الفعل
فموتوا كراماً وأميتوا عدوكم ... ودبو لنا الحرب بالحطب الجزل
وإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
ودونكم طيب النساء فإنما ... خلقتم لأثواب العروس وللنسل[4]

---

(١) وفاء الوفا ١١٥/١–١٢٦–١٢٩ ، ابن الأثير ٦٥٦/١–٦٥٨ ، الإشتقاق ٢٥٩/١ ، ٢٧٠ ، ياقوت ٢٤٢/٢ ، ٨٤/٥–٨٧ ، أبو الفداء ١٢٣/١ ، المقدسي ١٧٩/١–١٨٠ ، ابن خلدون ٢٨٧/٢–٢٨٩ ، الأغاني ٩٦/٢٩–٧– ، إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٥٦ .

(٢) ابن الأثير ٢٣٢/١–٢٣٣ ، تاريخ الخميس ص ٢٧٦ .

(٣) تاريخ الطبري ١٢٨/٢–١٢٩ ، ابن الأثير ٤٣٢/١–٤٣٣ .

(٤) ابن الأثير ٢٣٣/١ .

ومن هنا ، فإننا نرفض هذه القصة هنا وهناك ، نرفضها لأنها لا تتفق مع الخلق العربي والكرامة العربية ، نرفضها لأنها تتعارض تماماً وأخلاق العرب الذين كانوا يشعلون نار الحرب لأقل كلمة يمكن أن تفسر على أنها إنما تسيء إلى الشرف والعرض الذي كان — وما زال وسوف يظل إن شاءالله — من أقدس ما يحافظ العربي عليه ، ثم هل هذا الشعر العربي الفصيح يمكن أن يكون من قول « عفيرة » جديس ، وأخيراً فإن قصة زرقاء اليمامة هذه ، إنما رويت في مكان آخر عند حديث الإخباريين عن تفرق ولد معد ، وقريب منها ما جاء في قصة « الزباء » ملكة تدمر المشهورة[١] .

وأما الفترة التي عاشت فيها قبيلتا « طسم وجديس » ، فهي — طبقاً للرواية الآنفة الذكر — إنما كانت في أوائل القرن الرابع الميلادي ، أو أوائل القرن الخامس الميلادي[٢] ، على أن « ده برسيفال » إنما يرى أن إغارة الحميريين على جديس إنما كان بعد عام ١٤٠م[٣] ، وهذا يعني أن القبيلتين قد انتهى أمرهما في حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي ، ومن ثم فقد أخطأ المؤرخون المسلمون في الربط بينهما وبين عاد الأولى[٤] ، والتي ربما عاشت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد ، هذا إلى أن ذلك إنما يتعارض وما رآه البعض من أن بطليموس الجغرافي إنما كان يقصد باسم « Jodisitae » أو « Jolisitae » قوم جديس ، وأنهم كانوا معروفين حوالي عام ١٢٥م[٥] .

أضف إلى ذلك أن الفترة التي حكم فيها التبابعة جنوب بلاد العرب ، كانت فيها دولة « كندة » هي المسيطرة على منطقة اليمامة ، ومن ثم يمكننا القول أن قبيلتي

(١) سوف نناقش ذلك كله في مكانه من هذه الدراسة .

(٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٦٩ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٣٩ ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٢٤-١٢٥ .

(٣) Caussin de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes avant L'Islamisme, I, P. 89.

(٤) اللسان ٦/٣٥ .

(٥) Ptolemy, I, 29 وكذا Encyclopaedia of Islam, I, P. 992.

طسم وجديس كانتا معاصرتين لدولة ديدان ، وربما انتهتا بنهايتها ، أي أننا يمكننا أن تؤرخ لهما فيما بين القرن السادس والخامس قبل الميلاد ، ولا نشك في أن الكشف الأثري سوف يؤكد أو يعدل أو يأتي بتاريخ لا يبعد كثيراً عن هذا التاريخ[1] ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض جماعات من « جديس » بعد هذا التاريخ ، دون أن يكون لها نفس الكيان الذي كان لها من قبل ، ولعل هذه الجماعات هي التي عناها بطليموس ، إن كان حقاً أن إسم « Jodisitae » أو « Jolisitae » إنما يعنى في نظره قوم جديس .

(٤) أميم :

وهم في نظر الإخباريين في طبقة طسم وجديس ، وينسبون إلى « لاوذ بن عمليق » أو « لاوذ بن سام بن نوح » أو « وبار بن إرم بن سام بن نوح » أو ما شابه ذلك من شجرات نسب[2] ، وأن من شعوبهم « وبار بن أميم » ، برمل عالج بين اليمامة والشحر ، وأن الرمال قد انهارت عليهم بسبب معصية أصابوها ، وإن بقيت منهم بقية دعيت « النسناس[3] » .

ولعل أغرب ما في الأمر دعوى الإخباريين بأن ديار بني أميم ، إنما كانت بأرض فارس ، ومن ثم فقد رأى الفرس أنهم من أميم من ولده « كيومرث »[4] ، ولست أدري كيف اعتبر المؤرخون المسلمون بني أميم هؤلاء من طبقة العرب العاربة ، ثم هم في نفس الوقت من الفرس ؟ ثم ما هي العلاقة بين « وبار » و « أميم » ، وهل صحيح أن « وبار » هذا ، شقيق « كيومرث » جد الفرس[5] ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فهل هذه القبيلة من العرب البائدة ، أم هي قبيلة فارسية ؟ .

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٠٦/١ ، ياقوت ٣٥٦/٥ ، ٣٥٨ ، الطبقات الكبرى ١٩/١ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٨٢ .

(٣) تاريخ الطبري ٢٠٣/١-٢٠٤ ، ياقوت ٧٠/٤ ، ٣٥٦/٥-٣٥٨ ، ٤٤٢ ، البكري ٣٧٥/٢-٣٧٦ ، ٩١٣/٣ ، ١٣٦٦/٤-١٣٦٧ ، المقدسي ٣٠/٣ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢٨/٢ ، مروج الذهب ٢٦٠/١-٢٦٦ ، ١٢٢/٢ ، البكري ٣٧٦/٢ .

(٥) الإكليل ٧٧/١ ، مروج الذهب ١٢٢/٢ ، جواد علي ٣٤٠/١-٣٤١ .

وهناك خلاف بين المؤرخين الأوربيين على ذلك الشعب العربي الذي دعاه بطليموس « Jobaritae » ، وهل هو شعب « وبار [1] » أم أنه « يوباب » ، وأن هناك تحريفاً في النسخ فصارت « الباء » (B) « راء » (R) ، ومن ثم فقد أصبح « Jobabitae » ، وإن كنا لا نملك على هذا التحريف ما يدعمه من أدلة [2] ، هذا فضلاً عن أنه على موضع قريب من المكان الذي عناه بطليموس الجغرافي تقع أرض « وبار » بين اليمن ورمال يبرين [3] .

ومع ذلك ، فإن شعب وبار — في رأي كثير من المستشرقين — إنما هو من الشعوب الخرافية ، وليس هذا بالأمر الغريب على قوم يرون في كل الكتابات العربية ، أو معظمها ، شيئاً أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة [4] ، غير أن بعضاً منهم ، ممن قدّر له زيارة الأماكن التي ذهب الأخباريون إلى أنها أرض « وبار » لا يرون هذا الرأي [5] ، كما أن ذكرى « وبار » ما تزال في ذاكرة العرب حتى اليوم ، ففي الربع الخالي أماكن كثيرة يزعم الأعراب أنها كانت مواضع وبار [6] ، وإن أضافوا إليها أساطير لا يقرها منطق ولا يقبلها عقل [7] .

---

(١) A. Sprenger, op. cit., P. 296 وكذا C. Forster, op. cit., I, P. 173F, II, P. 270.

(٢) جواد علي : المرجع السابق ص ٣٤١ ، وكذا C. Forster, op. cit., I, P. 173, 177, II, P. 270

(٣) ياقوت ٥/٣٥٦–٣٥٨ ، البكري ٤/١٣٦٦ ، منتخبات ص ١١٣ .

(٤) A. Sprenger, op. cit., P. 296.

(٥) جواد علي ١/٣٤٢ وكذا J.B. Philby, The Heart of Arabia, II, P. 353. وكذا EI, 4, P. 1077.

(٦) R.H. Sanger, The Arabian Peninsula, Cornell University Press, 1954, P.126, 132. وكذا J.B. Philby, The Empty Quarter, N.Y., 1933, P. 165.

(٧) ياقوت ٥/٣٥٧–٣٥٩ .

(٥) عبيل :

وعبيل هذه — فيما يرى الإخباريون — من ولد « عوص » أخى عاد[١] ، وأنهم هم الذين اختطوا مدينة يثرب ، إلا أن العماليق سرعان ما طردوهم منها ، ومن ثم فقد نزلوا في مكان بين مكة والمدينة ، حيث اجتحفهم سيل فذهب بهم ، وسمي المكان « الجحفة »[٢] .

وتقرأ في التوراة عن « عيبال » أو « عوبال »[٣] ، على أنه من ولد « يقطان » (قحطان في المصادر العربية) ، ومن هنا رأى فريق من علماء التوراة أن « عبيل » من الممكن أن يكون « عيبال » أو « عوبال[٤] » ، ويشير بطليموس إلى موضع يقال له « Avalitae » على خليج يدعى بهذا الإسم « Avalites Sinus » وعليه مدينة تسمى « Avalites Emporium » وسكانها يدعون « Avalites » ، كما ورد الإسم عند « بليني » محرفاً إلى « Abalitae » أو « Abalites » ، وربما كان هؤلاء هم « عوبال » ، فيما يرى « فورستر[٥] » ، وقد يكون أبناء عوبال هم عبيل[٦] .

هذا ويحاول البعض أن يوجد صلة بين « عبيل » وبين مكان في اليمن بهذا الإسم ، هذا إلى جانب قرية تدعى « عبال » على مقربة من صنعاء[٧] ، على أن الحكم في مثل هذه الأمور ، إعتماداً على تشابه الأسماء ، فيه من الخطورة ما فيه[٨] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢١/٢ ، ابن حبيب : المحبر ص ٣٩٥ .

(٢) مروج الذهب ١٢٧/٢ ، ياقوت ١١١/٢ ، البكري ٣٦٧/٢–٣٦٨ ، الطبقات الكبرى ٢٠/١ ، تاريخ الطبري ٢٠٨/١ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٣٤٨ ، الحربي ص٤١٥ ، محمد بن حبيب : كتاب المحبر ص ٣٨٥ (حيدرأباد الدكن ١٩٤٢) .

(٣) تكوين ١٠ : ٢٨ ، أخبار أيام أول ١ : ٢٢ .

(٤) J. Hastings, op. cit., P. 201. وكذا T.K. Cheyne, op. cit., P. 4632.

(٥) C. Forster, op. cit., I, P. 148-9.

(٦) جواد علي ٣٤٤/١ .

(٧) جواد علي ٣٤٤/١ وكذا Hugh Scott, In the High Yemen, London, 1947, P. 185.

(٨) جواد علي ٣٤٤/١ .

(٦) جرهم :

ينظر الأخباريون إلى جرهم على أنهم طبقتان ، الواحدة من العرب البائدة ، وقد كانت في مكة المكرمة على عهد عاد وثمود والعماليق[١] ، ثم أبيدت بأيدي القحطانيين[٢] ، والأخرى من جرهم بن قحطان بن هود ، وقد كانوا أصهاراً للنبي الكريم سيدنا إسماعيل عليه السلام[٣] ، وقد آلت إليهم ولاية البيت الحرام حتّى غلبتهم عليه خزاعة وكنانة — الأمر الذي سوف تناقشه بالتفصيل عند الحديث عن مكة المكرمة — وعلى أي حال ، فلقد نزلوا بعد ذلك بين مكة ويثرب ، ثم هلكوا بوباء تفشى فيهم[٤] .

(٧) العمالقة :

ينسب الأخباريون العماليق إلى « عمليق بن لوذ بن سام بن نوح »[٥] ، وهو شقيق طسم ، هذا ويبالغ الأخباريون في أهمية العماليق وسعة إنتشارهم بدرجة لا يمكن أن يقبلها منطق أو يقرها عقل ، فيجعلونهم أمماً كثيرة تفرقت في البلاد ، فكان منهم أهل عمان والحجاز والشام ومصر ، فضلاً عن أهل المدينة وبنو هف وبنو مطر وبنو الأزرق وسعد بن هزان ، وأهل نجد ، وبديل وراحل وغفار وتيماء ، هذا إلى جانب شعبة منهم ذهبت إلى صنعاء قبل أن تحمل الأخيرة إسمها هذا ، وأخيراً فقد

---

(١) الإكليل ١/٧٨ ، نهاية الأرب للقلشقندي ص ٢١١ ، أخبار عبيد بن شرية ص ٣١٤ .

(٢) Ency. of Islam, I, P. 1066.

(٣) صبح الأعشى ١/٣١٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٠ ، تاريخ الطبري ١/٢٥٦ ، ٣١٤ ، ابن الأثير ١/١٠٣-١٠٤،١٢٥ ، الإكليل ١/١١٦ ، أخبار عبيد بن شرية ص٣١٥ ، ٣٩٦-٣٩٨ ، وانظر : سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٢٧-١٢٩ ، ثم قارن : كتاب التيجان ص ١٧٧-١٧٨ ، ثم قارن كذلك : رواية التوراة عن زواج سيدنا إسماعيل بمصرية وليس بيمنية (تكوين ٢١ : ٢١) ، وانظر : EI, I, P. 1066

(٤) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٧-٨ ، صبح الأعشى ١/٣١٥ ، نهاية الأرب للقلشقندي ص ٢١١ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٩٩ ؛ ثم قارن : كتاب التيجان ص ١٨٠ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٣١-١٣٣ .

(٥) تاريخ الطبري ١/٢٠٧ ، الإكليل ٢/٤١٠ ، المعارف ص ١٣ .

كان منهم الجبابرة بالشام — وهم الكنعانيون — والفراعين بمصر ، والأرقم ملك الحجاز بتيماء[1] .

ولا شك في أن الاضطراب إنما يبدو واضحاً في روايات الأخباريين هذه ، فضلاً عن أثر التوراة الواضح فيها ، فهم يرون أن أهل مصر من العماليق[2] — والعماليق ، في رأيهم : كجرهم من العرب العاربة[3] — ولكنهم في نفس الوقت يرون أن أهل مصر من أبناء « مصرايم بن حام بن نوح »[4] ، وتلك في الواقع إنما هي رواية التوراة[5] ، وهكذا فإن المصريين — في نظر المؤرخين المسلمين — ساميون وحاميون في نفس الوقت ، والأمر كذلك بالنسبة إلى الكنعانيين ، فهم من العماليق ، وهم في نفس الوقت ، أبناء « حام بن نوح[6] » ، وتلك — مرة أخرى — رواية التوراة[7] وإذا كان الحقد الدفين من يهود ضد المصريين والكنعانيين والبابليين ، هو الذي دفع بكتبة التوراة إلى إخراج هذه الشعوب جميعاً من الساميين ، وجعلها من أبناء حام ، فإن النقل عن يهود — والغفلة كذلك — هي التي دفعت بالمؤرخين الإسلاميين إلى هذا الموقف الخاطىء .

---

(١) الإكليل ٧٤/١-٧٧ ، تاريخ الطبري ٢٠٦/١ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ١٥٠-١٥١ ، قاموس الكتاب المقدس ١١٢/٢ ، جواد علي ٣٤٦/١
وكذا J. Hastings, op. cit., P. 24 وكذا The Jewish Encyclopedia, I, P. 218
وكذا EI, I,325.

(٢) أنظر كتابنا « حركات التحرير في مصر القديمة » القاهرة ١٩٧٦ ، دار المعارف ص ١٣١-١٣٤ ، رشيد رضا : تفسير سورة يوسف ص ٦٨ ، تاريخ الطبري ٢٣٥/١-٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٦٣ ، تفسير القرطبي ص٣٤٢٧ (طبعة الشعب) ، ابن كثير : قصص الأنبياء ٣٠٦/١ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠١/١ ، ١٤١ ، ١٦٩ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٦٠ ، وكذا
Josephus, Wars of the Jews, I, P. 19.

(٣) تاريخ الطبري ٢٠٧/١ .

(٤) ابن الأثير ٨١/١ ، تاريخ الطبري ٢٠٦/١ .

(٥) تكوين ١٠ : ٦ .

(٦) تاريخ الطبري ٢٠٦/١ .

(٧) تكوين ١٠ : ٦ .

وأما عن الإنتشار غير المقبول للعماليق، فلعله في أحسن الأحوال، إنما كان لأن العماليق قبائل بدوية، إنتشرت هنا وهناك في عديد من الأماكن بشبه الجزيرة العربية، ثم جاء الأخباريون وجعلوهم سكاناً لمناطق لا تقتصر على بلاد العرب وحدها، وإنما شملت غيرها من المناطق المجاورة.

وأما أصل الكلمة « عماليق » أو عمالقة، فمجهول، وإن غلب على الظن أنهم نحتوه من إسم قبيلة عربية كانت مواطنها بجهة العقبة أو شماليها، ويسميهم البابليون « ماليق » أو « مالوق »، فأضاف إليها اليهود لفظ « عم » أي الشعب أو الأمة، فقالوا « عم ماليق » أو « عم مالوق »، ثم جاءت العرب فقالت « عماليق » أو « عمالقة »، ثم سرعان ما أطلقت الكلمة على طائفة كبيرة من العرب القدامى [1].

ويكاد يتفق الأخباريون على أن العماليق عرب صرحاء، ومن أقدم العرب زماناً، ولسانهم هو اللسان المضري التي نطقت به كل العرب البائدة [2]، بل ويذهب الطبري إلى أن عمليقاً — وهو أبو العمالقة — كان أول من تكلم العربية حين ظعنوا من بابل، ومن ثم فقد كان يقال لهم — وكذا بجوهم — العرب العاربة [3]، ومرة أخرى يظهر أثر التوراة في هذه الرواية، فهي لا تتعارض مع الرواية المشهورة التي تجعل « يعرب بن قحطان » أول الناطقين بالعربية فحسب، وإنما تجعل السريانية أقدم من العربية، وذلك حين جعلتها لغة الناس جميعاً، غير أن القوم قد انحرفوا إلى عبادة الأوثان، خنوعاً «للنمرود بن كوش بن كنعان بن حام» ملك بابل، وصاحب إبراهيم عليه السلام، ومن ثم فقد أصبح القوم ذات يوم، وقد بلبل الله ألسنتهم، فلا يفهم الواحد منهم الآخر، إذ « أصبح لبني سام ثمانية عشر لساناً، ولبني حام ثمانية عشر لساناً، ولبني يافث ستة وثلاثون لساناً، ففهم الله العربية عاداً وعبيل

---

(١) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٤٢-٤٣ .

(٢) جواد علي ٣٤٦/١ وكذا EI, I, P. 325.

(٣) تاريخ الطبري ٢٠٧/١ .

وثمود وجديس وعمليق وطسم وأميم وبني يقطن بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح »[١] .

وهكذا فالرواية إذن لا تجعل شرف السبق في النطق بالعربية مقصوراً على «عمليق» وإنما شاركه فيه آخرون ، ثم إنها تؤرخ للحادث بعهد « نمرود » صاحب إبراهيم عليه السلام ، وإبراهيم — كما هو معروف — لا يعدّه الأخباريون من العرب العاربة ، فضلاً عن أن يكون من أقدم العرب زماناً ،[٢] ومن ثم فكل من ذكرهم الإخباريون على أنهم أصحاب السبق في النطق بالعربية ، تأتي هذه الرواية فتجعلهم لا ينطقون بها إلا على أيام النمرود ، صاحب إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠—١٧٦٥ ق.م) .

وأخيراً ، فالرواية تحريف لرواية توراتية ، أراد كاتبها أن يقدم لنا تفسيراً لاختلاف اللغات والأجناس[٣] — كما فعلت الرواية العربية — فقدم لنا تفسيراً ساذجاً غير علمي ، ذهب فيه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد رأى أن سلالة الناجين من الطوفان يبنون برجاً بغية الوصول إليه في علياء سمائه ، وكانوا يحسبون السماء أشبه بلوح زجاج يعلو بضع مئات من الأمتار ، فخشي شرهم واحتاط لنفسه فهبط الأرض وبلبل ألسنتهم ، فتفرقوا شذر مذر ، ومن ثم فقد سميت المدينة « بابل » ، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ، ثم بددهم على وجه الأرض[٤] ، أضف إلى ذلك كله ، أن الرواية العربية إنما هي متأثرة بروايات تذهب إلى أن الموطن الأصلي للساميين إنما كان في بابل ، بل ربما كانت أساساً لنظريات حديثة تنحو هذا النحو[٥] .

---

(١) تاريخ الطبري ١/٢٠٧—٢٠٨ ، البكري ١/٢١٩ ، الأخبار الطوال ص ٢ ، المحبر ص ٣٨٢—٣٨٥ ، أخبار الزمان للمسعودي ص ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ثم قارن : تاريخ الطبري ١/٢٨٨—٢٩٠ ، ابن الأثير ١/١١٥ ، تاريخ الخميس ص ٩٥—٩٦ .

(٢) أنظر : الفصل الرابع من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » ، كتابنا « إسرائيل » ص ١٦٠—٢١٤

(٣) تكوين ١١ : ١—٩ .

(٤) عصام حفني ناصف : محنة التوراة على أيدي اليهود ص ٤٢ وكذا تكوين ١١ : ١—٩ وكذا J. Gray, Near Eastern Mythology, P. 104.

(٥) أنظر : مقالنا « الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي » مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الرابع ، الرياض ١٩٧٤ ص ٢٤٥—٢٧١ .

وعلى أي حال ، فالعماليق — في نظر التوراة — من أقدم الشعوب التي سكنت جنوب فلسطين ، وقد عدّهم «بلعام» أول الشعوب[1] ، ربما لأنهم كانوا أول من اصطدم بالإسرائيليين أثناء التيه في صحراوات سيناء ، ومن ثم فليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض — طبقاً لرواية توراتية[2] — من أنهم من سلالة « اليعازر بن عيسو » جد الآدوميين[3] ، وحفيد إبراهيم ، ذلك لأن هناك نصاً توراتياً آخر يجعلهم يقيمون في جنوب غرب البحر الميت على أيام الخليل إبراهيم[4] . وأنهم كانوا على أيام موسى الكليم منتشرين في كل صحراء التيه حتى حدود مصر ، وفي معظم سيناء ، وجنوب فلسطين ، كما كان هناك « جبل العمالقة » في أرض أفرايم[5] .

وليس هناك من شك في أن الصدام الحقيقي بين اليهود والعماليق إنما بدأ في المرحلة الأولى من التيه[6] ، ونقرأ في التوراة أن العمالقة قد هاجموا بني إسرائيل المنهكين عند خروجهم من مصر وأسروا جميع مقاتليهم[7] ، كما نقرأ كذلك في التوراة[8] أن العماليق قد أتوا لمحاربة بني إسرائيل في « رفيديم » ، حيث ضرب موسى الحجر بعصاه ، فانبثقت منه إثنتا عشرة عيناً ، ويذهب « يوسف بن متّى » المؤرخ اليهودي ، إلى أن الإسرائيليين حينما وصلوا إلى « رفيديم » كانوا في حالة يرثى لها من العطش ، ومن ثم فقد كان هجوم العمالقة عليهم ناجحاً[9] .

وعلى أي حال ، فإذا كانت « رفيديم » والتي أطلق الإسرائيليون عليها « مريبة » — وكذا قادش القريبة منها — تقعان حول البتراء ، فهما إذن في جوار أرض العماليق

---

(١) عدد ٢٤ : ٢٠ .
(٢) تكوين ٣٦ : ١٢ .
(٣) قاموس الكتاب المقدس ص ٦٣٦ وكذا M. F. Unger, op. cit., P. 45.
(٤) تكوين ١٤ : ٧ .
(٥) قضاة ١٢ : ١٥ .
(٦) The Jewish Encyclopaedia, I, P.218 وكذا A. Musil, The Northern Hegae P.460
(٧) تثنية ٢٥ : ١٧—١٩ .
(٨) خروج ١٧ : ٧—١٦ .
(٩) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٣٣ ، كتابنا « إسرائيل » ص ٣١٣ ، وكذا W.M. F. Petrie, Egypt and Israel, London, 1925, P. 4.

الذين كانوا يتمكنون في سهولة من أن يهاجموا بني إسرائيل ، متنقلين من معسكر إلى آخر ، ومن أن يأسروا مقاتليهم[1] ، غير أن العمالقة قد أعانوا أعداء آخرين لبني إسرائيل ، حتى بعد إستقرارهم في فلسطين ، ومن ثم فإننا نقرأ في التوراة[2] أن العمالقة قد اتحدوا مع « عجلون » ملك مؤاب ، الذي انتزع منهم مدينة النخل (أريحا) ، كما كانوا كذلك حلفاء لأهل مدين وبني المشرق (بني قدم) الذين كانوا يسكنون في سهل يزرعيل . وهكذا استمر العماليق يغزون بني إسرائيل في فلسطين[3] ، تقول التوراة : « إذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق ، ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة ، ولا يتركون لإسرائيل قوة الحياة ، ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا »[4] .

وهكذا بدأ الإسرائيليون يفكرون في الإنتقام من العماليق ، وكان « شاول » (١٠٢٠–١٠٠٠ ق.م)[5] هو أول ملك إسرائيلي يحارب العماليق ، ونقرأ في التوراة أن الرب أمر شاؤل أن يحارب العماليق ويبيد كل ممتلكاتهم من ثيران وماشية وجمال وحمير[6] ، ومن هذا نفهم أن العمالقة إنما كانوا يمتلكون عدداً من القرى والديار ، وأنهم قد عنوا بحرث الأرض وزراعاتها ، فضلاً عن تربية الماشية والأنعام .[7]

وطبقاً لرواية التوراة[8] ، فإن شاؤل قد نجح في مهمته ، وحقق للإسرائيليين — ولأول مرة — نصراً على العماليق ، كما يفهم من الرواية نفسها أن العمالقة إنما

---

(١) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٣٣ .
(٢) قضاة ٣ : ١٣ .
(٣) ألويس موسل : المرجع السابق ص ٣٣–٣٤ .
(٤) قضاة ٦ : ٣–٤ .
(٥) أنظر عن الخلافات في فترة حكم شاؤل ، كتابنا « إسرائيل » ص ٣٩٧ .
(٦) صموئيل أول ١٥ : ٣–٩ .
(٧) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٣٤ .
(٨) صموئيل أول ١٥ : ٧ .

كانوا يسيطرون على طرق القوافل فيما بين جنوب فلسطين وشمال شبه الجزيرة العربية .

وكان هناك طريقان يقعان في أرض العماليق ، الواحد عن طريق برزخ السويس ، والآخر عن طريق خليج العقبة[1] ، ولما كانت العلاقات التجارية بين مصر وغزة من ناحية ، وبين جنوب بلاد العرب من ناحية أخرى ، في غاية من الإزدهار والنشاط ، فقد كانت القوافل التجارية القادمة من غزة إلى العقبة تمر في أرض العماليق ، فليس من شك في أنها إنما كانت تعترف بسلطتهم في هذا الجزء من الطريق القادم من غزة متجها إلى مصر ، والأمر كذلك بالنسبة إلى جزئه الآخر المتجه نحو الجنوب الشرقي ، أو أنها على الأقل كانت خاضعة لسلطة العمالقة في هذا الجزء المتاخم لساحل البحر من الطريق[2] .

وفي أيام داود عليه السلام (١٠٠٠–٩٦٠ ق.م)[3] تدق الحرب طبولها من جديد بين بني إسرائيل والعماليق ، وطبقاً لرواية التوراة[4] فإن العمالقة قد غزوا بني إسرائيل ، « وضربوا صقلغ وأحرقوها بالنار وسبو نساءها » ، إلا أن داود قد كتب له نجحاً بعيد المدى في رد الغزاة ، وفي استعادة الغنائم منهم ، بل وفي استعادة بعض السبايا – ومنهم إمرأتيه أخينوعم وأبجايل – كما تمكن قائده « يؤاب » من أن يخرجهم من ديارهم الأولى ، وإن ظلت بقية منهم تسكن الجزء الجنوبي من جبل سعير ، حتى أتى المهاجرون من قبائل شمعون فاحتلوا ديارهم[5] ، ومن ثم أصبحنا لا نجد للعمالقة بعد ذلك ذكراً في النصوص .

بقيت نقطة أخيرة تتصل بعدم ذكر العمالقة في جملة قبائل العرب ، وهذا (أولاً) لا يدل على أن العمالقة لم يكونوا عرباً ، و (ثانياً) لأن العبرانيين لم يطلقوا

---

(١) M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 41.

(٢) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٣٥ .

(٣) أنظر : عن الخلافات في فترة حكم داود ، كتابنا « اسرائيل » ص ٤١٧–٤١٨ .

(٤) صموئيل أول ٣٠ : ١–٣٠ .

(٥) أخبار أيام أول ٤ : ٣٢ .

لفظة « عرب » إلا على أعراب البادية ، ولا سيما بادية الشام[1] ، و (ثالثاً) لأن العمالقة من أقدم الشعوب التي اصطدم بها بنو إسرائيل ، ومن ثم فقد حملوا لهم حقداً دفيناً ، واليهود — كما هو معروف — قد تأثروا بعواطفهم نحو الشعوب التي يكتبون عنها ، وأخيراً (رابعاً) فإن العمالقة — في نظر اليهود — أقدم من القحطانيين والعدنانيين ، سواء بسواء[2] .

(٨) حضورا :

يروي الأخباريون أن حضورا من نسل قحطان ، وأنهم كانوا يقيمون بالرس ، وهو إما موضع بحضرموت أو اليمامة ، أو مكان كانت فيه ديار نفر من ثمود[3] ، وإن كان « الهمداني » يرى أن الرس بناحية « صيهد » ، وهي بلدة ما بين بيجان ومأرب والجوف ، فنجران فالعقيق فالدهناء ، فراجعاً إلى حضرموت ، كما فسر الرس بمعنى « البئر القليلة الماء »[4] ، وذهب اليعقوبي إلى أنها بين العراق والشام إلى حد الحجاز[5] .

وقد ربط القرآن الكريم بين أصحاب الرس وبين عاد وثمود مرة[6] ، وبينهم وبين قوم نوح وثمود مرة أخرى[7] ، واختلف المفسرون فيمن أرسل إليهم نبياً من رب العالمين ، فذهب فريق إلى أنه « شعيب بن ذى مهرع » أو مهدم ، ومسجده

---

(١) J.A. Hastings, A Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936, P. 77.

(٢) جواد علي : المرجع السابق ص ٣٤٧ .

(٣) ياقوت ٣/٤٣-٤٤ ، نهاية الأرب ١٣/٨٨ ، تفسير الطبري ١٩/١٤ ، تفسير البيضاوي ٢/١٤٥ .

(٤) الإكليل ١/١٢١ ، البكري ٢/٦٥٢ ، ٣/٨٤٩ ، ياقوت ٣/٤٤٨ ، قارن المسعودي : مروج الذهب ٢/١٣١ .

(٥) مروج الذهب ٢/١٣١ .

(٦) سورة الفرقان : آية ٣٨ ، وانظر : تفسير الطبري ١٩/١٣-١٦ (طبعة الحلبي ١٩٥٤) ، تفسير البيضاوي ٢/١٤٥ (طبعة الحلبي ١٩٦٨) ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٢/١٤٥ .

(٧) سورة ق : آية ١٢ .

اليوم في رأس جبل حدة حضور بن عدى ، ويعرف رأس الجبل ببيت خولان[1] ، وذهب فريق آخر إلى أنه « خالد بن سنان » ، وأن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد تحدث عنه ، فقال : « ذاك نبي ضيّعه قومه[2] » ، وذهب فريق ثالث إلى أنه « حنظلة بن صفوان » ، وقد وجد عند قبره هذه الكتابة « أنا حنظلة بن صفوان ، أنا رسول الله ، بعثني الله إلى حمير وهمدان والعريب من أهل اليمن فكذبوني وقتلوني »[3] .

ويروي الأخباريون أن بختنصر — وهو الامبراطور البابلي نبوخذنصر (٦٠٥—٥٦٢ ق.م) — قد غزا حضورا وأعمل السيف فيهم ، فقتل الغالبية العظمى منهم ، بينما هجّر بقيتهم إلى أماكن أخرى من إمبراطوريته ، وأما سبب ذلك فلأن القوم قد كفروا بنبي لهم يدعى « شعيب بن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور » ، ومن ثم فقد أوحى إلى النبي اليهودي « برخيا بن أخيا » أن يترك نجران وأن يذهب إلى نبوخذنصر ، وأن يأمره « بغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم فيقتل مقاتليهم ويسبي ذراريهم ويستبيح أموالهم بسبب كفرهم »[4] .

ويصدع « نبوخذنصر » بأمر « برخيا » اليهودي ، ويبدأ بمن في بلاده من تجار العرب ، فيبني لهم « حيرا » في النجف يحبسهم فيه ، ثم ينادي في الناس بالغزو ، وتسمع العرب بما حدث فتأتي إلى « نبوخذنصر » ، تطلب الأمان وتعلن الولاء والخضوع ، فلا يقبل الملك البابلي ذلك منهم إلا بعد استشارة « برخيا » ، ثم ينزلهم «السواد» على ضفاف الفرات ، حيث يبنون معسكراً لهم يدعونه «الأنبار» ، ثم سرعان

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٠ ، نهاية الأرب ٢/٢٠ ، البكري ٢/٤٥٥—٤٥٦ ، الإكليل ٢/٢٨٥—٢٨٦ ، ٤٠٠ ، مروج الذهب ٢/١٣٤٠ .

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ١/٤٦٨ ، جواد علي ١/٣٤٨ .

(٣) الإكليل ١/١٢٠ ، كتاب المحبر ص ٦ .

(٤) تاريخ الطبري ١/٥٥٨—٥٦٠ ، ابن الأثير ١/٢٧٠—٢٧٢ ، مروج الذهب ٢/١٣٠—١٣١ ، كتاب المحبر ص ٥—٧ ، الإكليل ٢/٢٨٥—٢٨٩ .

ما يشمل العفو العرب الأولين من أهل الحيرة ، الذين يستقرون هناك طيلة أيام نبوخذنصر في هذه الدنيا ، فإذا ما انتقل الرجل إلى العالم الآخر ، إنضم القوم إلى أهل الأنبار وعاشوا بينهم[1] .

وتستمر الرواية — ولعلها هنا تعتمد على مصدر غير مصدرها الأول — فتذهب إلى أن الله قد أوحى إلى « إرمياء » و « برخيا » أن يذهبا إلى « معد بن عدنان » ويحملانه إلى « حران » ليحفظا عليه حياته هناك ، لأن الله سوف يخرج من صلبه من يختم به الأنبياء — المصطفى صلوات الله وسلامه عليه — ولأن بني إسرائيل قد بدأوا منذ مولد « معد بن عدنان » يقتلون أنبياءهم ، وكان آخر من قتل « يحيى بن زكريا » عليهما السلام ، كما فعل ذلك أهل الرس وأهل حضورا بأنبيائهم ، وأن النبيين اليهوديين — إرمياء وبرخيا — قد كتب لهما نُجْحاً بعيد المدى في تحقيق مهمتهما ، فقد حملا «معد» إلى حران في ساعة من زمان ، وذلك لأن « برخيا » قد استعمل « البراق » في مهمته ، فحمل « معد » عليه ، وأردف هو خلفه ، ولأن الأرض كانت تطوى لهما طياً .

وفي هذه الأثناء كان « نبوخذنصر » قد جمع جيشاً كثيفاً لإفناء سكان بلاد العرب — بناء على رؤيا رآها في المنام ، أو لأن برخيا بوحي من ربه قد أمره بذلك — وأياً ما كان السبب ، فإن « عدنان » والد معد ، قد جمع هو كذلك جيشاً كثيفاً من العرب لمقاومة هجوم الملك البابلي ، وسرعان ما التقى الجيشان في « ذات عرق » ودار بينهما قتال شديد ، كانت الغلبة فيه من نصيب البابليين ، ومن ثم فقد تابع « نبوخذنصر » مسيرته في بلاد العرب ، مطارداً جيش « عدنان » المهزوم ، حتى إذا ما أتى « حضورا » ، كان « عدنان » قد جمع العرب — من عربة إلى حضورا — مرة ثانية ، وخندق كل واحد من الفريقين على نفسه وأصحابه ، إلا أن « نبوخذنصر » قد أعدّ للعرب كميناً ، وسرعان ما نادى مناد من السماء « يا لثارات الأنبياء » ، فأخذت العرب السيوف من كل جانب ، وحقق العاهل البابلي نصراً كاملاً على

---

(١) ياقوت ٢/٣٢٨–٣٣١ ، الإكليل ٢/٢٨٦ .

العرب ، وعاد بجم غفير من الأسرى والسبايا ، حيث أسكنهم «الأنبار» ، ثم ما أن يمضي حين من الدهر ، حتّى ينتقل «عدنان» إلى الدار الآخرة ، وتبقى بلاد العرب بعده — وطوال أيام نبوخذنصر — خراباً .

وأما «معد بن عدنان» فتذهب الرواية إلى أنه قد عاد من حران ، ومعه أنبياء بني إسرائيل ، إلى مكة ، ثم أتى «ريسوب» حتّى تزوج هناك من «معانة» بنت «جرشم بن جلهمة» من ولد الحارث بن مضاض الجرهمي ، والتي أنجبت له ولده «نزار»[1] .

والرواية — كما قدمناها نقلاً عن المؤرخين المسلمين — جدّ هشة ، وسهام الريب توجه إليها من كل جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقى إلى ما فوق مظان الشبهات ، بل هي نفسها شبهة ، وشبهة ساذجة كذلك ، حتّى وإن تمسح مختلقوها بمعد بن عدنان — الجد الأعلى لمولانا وجدنا رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم— فإنما هو العسل يوضع فيه السم ، حتّى يسهل ابتلاعه : ولكن هيهات ، فأثر الإسرائيليات فيها أوضح من أن يشار إليه ، والأثر العربي عندما أضيف إليها ، فإنما أضيف بطريقة فجّة للغاية .

ولعل أهم ما يلاحظ على هذه الرواية ، إنما هي نقاط كثيرة ، منها (أولاً) إعتبار «نبوخذ نصر» — وهو الوثني — هو الغيور على أنبياء الله ، والمنتقم لقتلهم ، وهذه نظرية يهودية صرفة ، فالذي يقرأ التوراة يرى أنها تتخذ من الملوك الوثنيين أداة لربهم «يهوه» للإنتقام من إسرائيل ، شعبه المختار ، حدث ذلك ، عندما مسح «اليشع» النبي باسم «يهوه» ملك دمشق «حزائيل»[2] ، رغم أنه ليس إسرائيلياً ، ولم يكن عابداً ليهوه أبداً ، ذلك لأن رب إسرائيل — فيما يرى الحاخام الدكتور أبشتين — أراد أن يجعله صوت عذاب على إسرائيل ، شعبه الآثم الشرير[3] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٤/٢ ، ثم انظر : ياقوت ١٠٧/٤—١٠٨ ، شفاء الغرام ص ٢٣ ، تاريخ الخميس ض ١٦٦—١٦٧ ، بلوغ الأرب ٢٠٩/١ ، كتاب المحبر ص ٦—٧ .

(٢) ملوك أول ١٩ : ١٥ .

(٣) I. Epstein, Judaism, (Penguin Books), 1970, P. 41.

ومنها (ثانياً) أن « برخيا » النبي اليهودي كان يقيم في « نجران » ، وأنه ذهب إلى « بابل » ليحرض — بأمر ربه — نبوخذنصر ضد العرب ، ولست أدري ما صلة « برخيا » هذا بنجران ، والمعروف أن الرجل إنما كان يقيم في أورشليم ، وبخاصة في الفترة التي كانت قوات « نبوخذنصر » تدق أبوابها بعنف ، وأن « باروخ » — وهذا هو إسمه الصحيح — وكذا سيده «إرمياء» ، إنما كانا يعلنان في تلك الفترة الحرجة من تاريخ قومهما أن « نبوخذنصر » هو خادم الرب يهوه ، وأن قبضته حديدية ولن تكسر ، ومن ثم فقد بدأ إرمياء نصائحه — كما جاءت في التوراة نفسها[1] — بضرورة الخضوع للعاهل البابلي ، حتى أنه اتهم من قبل حكام يهوذا بإضعاف الروح المعنوية بين الجيش والشعب على السواء ، ولهذا فليس من العجيب أن نبي الويل هذا ، قد ألقي به في غياهب السجون لمجاهرته بالخذلان ، ولم يطلق سراحه إلا بأمر من نبوخذنصر ، وإلا بعد أن سقطت أورشليم تحت أقدام البابليين ، وأخذ الجزء الأكبر من سكانها أسارى إلى ضفاف الفرات — وهو ما عرف في التاريخ بالسبي البابلي في عام ٥٨٦ ق.م — وكان إرمياء نفسه من بين الأسرى ، حيث منحه العاهل البابلي حريته ، ربما مكافأة له على الدور الذي قام به في بث روح اليأس بين قومه ، مما سهل للفاتح البابلي مهمته ، وأكسبه نصرة المبين[2] ، بل إنك تقرأ عجباً عن حماس إرمياء للملك البابلي في التوراة[3] ، مما أثار الشكوك حول إرمياء وعلاقته ببابل ، حتى ذهب البعض إلى أن النبي اليهودي إنما كان يعمل لحساب « نبوخذنصر » .

---

(١) أنظر مثلا : إرمياء ٢٥ : ١—١٤ ، ٢٧ : ٥—٢٢ ، ٢٨ : ١٢—١٧ .

(٢) أنظر : كتابنا « إسرائيل » ص ٥٢٩—٥٣٥ ، وكذا : إرمياء ٢١ : ٩ ، ٢٤ : ١ ، ٢٦ : ٢٤ ، ٢٧ : ٢٠ ، ٢٩ : ١—٢ ، ٣٨ : ٤ ، ٣٩ : ١١—١٤ ، ٤١ : ١—١٨ ، ٤٣ : ١—٧ ، وكذا

S.A. Cook, The Cambridge Ancient History, III, Cambridge, 1965, P. 399-400

وكذا A. Malamat, The Last Wars of the Kingdom of Judah, in JNES, 9, 1950, P. 225.

وكذا W. Keller, The Bible As History (Hodder and Sotughton), 1967, P. 283-402.

وكذا M. Noth, The History of Israel, London, 1965, P. 285-288.

(٣) إرمياء ٢٧ : ٨ .

ومنها (ثالثاً) أن الملك البابلي لا يقبل خضوع عرب الشمال له ، إلا بإذن من « برخيا » ولست أدري كيف قبل من كتبوا هذا القصص ، أن يجعلوا أقوى رجل في عصره يخضع لواحد من يهود ، واليهود — كما نعرف — لم يروا منذ أيام الفراعين العظام في عصر الأمبراطورية المصرية (١٥٧٥—١٠٨٧ ق.م) ، وحتى أيام « نبوخذنصر » (٦٠٥—٥٦٢ ق.م) ، أعني منذ خروجهم من مصر في حوالي عام ١٢١٤ ق.م ، وحتى السبي البابلي في عام ٥٨٦ ق.م — ما رأوه من إذلال على يد العاهل البابلي ، ومن ثم فإني أتساءل مرة أخرى ، : كيف يكون أثر الإسرائيليات أوضح من هذا في روايتنا هذه .

ومنها (رابعاً) أن الملك البابلي الذي جعله هؤلاء المؤرخون المسلمون — ويا للعجب — يقوم بإفناء العرب — حتى في مواطنهم الأصلية — عقاباً لهم على كفرهم بأنبيائهم ، هو نفسه الذي جعله هؤلاء المؤرخون أنفسهم ، واحداً من ملوك أربعة ، ملكوا الدنيا بأسرها ، وأعني بذلك تلك الأسطورة التي كثيراً ما تتردد في الكتب العربية ، والتي تقول : « ملك الأرض كافران ومؤمنان فأما الكافران فنمرود وبختنصر ، وأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين[1] » ، فإذا كان ذلك كذلك (وإن كنا لا نوافق على ذلك أبداً) ، فكيف أصبح نبوخذنصر ، عندما يتصل الأمر بالعرب ، هو حامي الدين ، والآخذ بثأر الأنبياء ، وهو نفسه كافر بهذا الدين ، وغير مؤمن بهؤلاء الأنبياء ، إلا أن يكون مؤرخونا — يرحمهم الله — يرددون نظريات التوراة ، التي سبق أن أشرنا إليها ، والله وحده يعلم إن كانوا يعلمون ذلك أو لا يعلمون .

ومنها (خامساً) أن القصة تذكر أن مولد « معد بن عدنان » جاء في وقت بدأ فيه بنو إسرائيل يقتلون أنبياءهم ، وكان آخر من قتلوا منهم « يحيى بن زكريا » عليهما السلام ، ومن ثم فقد سلط الله نبوخذنصر على العرب واليهود سواء بسواء .

---

(١) تاريخ الطبري ٢٩١/١ ، ابن الأثير ٩٤/١—٩٥ ، أبو الفداء ١٣/١ ، ثم انظر : ابن كثير ١٤٨/١ ، المحبر ص ٣٩٢—٣٩٣ .

وسؤال البداهة الآن : كيف اتنقت هذه الأحداث جميعاً في زمن واحد ؟ ، والمعروف تاريخياً أن « نبوخذنصر » إنما كان يحكم في الفترة (٦٠٥–٥٦٢ ق.م) ، فهل كان « معد بن عدنان » يعيش في هذه الفترة ؟ ، وهل استشهد سيدنا يحيى عليه السلام فيها كذلك ؟ .

إن الجواب على ذلك جدُ صعب ، بالنسبة إلى « معد بن عدنان » ، ومع ذلك فلو أخذنا برأي من يعتبرونهم الأئمة في نسب معد بن عدنان — كما يقول ابن كثير — لوجدنا أن بينه وبين جده إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، سبعة أجيال ، فهو « إبن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل »[1] ، بل إن هناك من يرى أنها أربعة أو خمسة أجيال ، إذ يرون أن معد هذا ، إنما هو « إبن أدد بن زيد بن يرى بن أعراق الثرى » ، وأما « يرى » فهو « نبت » أو نبايوت ، وأما أعراق الثرى فهو إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام[2] .

وأننا لو أخذنا حتى بالإتجاه الأول ، وافترضنا أن ما بين الجيل والجيل نصف قرن — وليس ربع قرن كما هو المعروف — لكانت الفترة بين عدنان واسماعيل ثلاثة قرون ونصف — أو حتى أربعة قرون — وإذا ما تذكرنا أن إبراهيم الخليل كان يعيش في الفترة (حوالي ١٩٤٠–١٧٦٥ ق.م) وإسماعيل في الفترة (حوالي ١٨٥٤–١٧١٧ ق.م) ، فإن معد بن عدنان كان يعيش إذن في الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، وليس في القرن السادس قبل الميلاد ، ثم ما هذا الخليط الغريب من الأسماء العربية واليهودية في نسب « معد » هذا ؟ .

ثم ما صلة « يحيى بن زكريا » عليهما السلام بهذه الأحداث ، وهو الذي عاصر المسيح عليه السلام ، أي في بداية القرن الأول الميلادي ، وليس السادس قبل الميلاد ،

---

(١) ابن كثير ١/١٩٣–٨–١ ، تاريخ الطبري ٢/٢٧٢–٢٧٥ ، ابن خلدون ٢/٢٩٨ . ثم انظر : مروج الذهب ٢/٢٦٦–٢٦٧ ، سيرة ابن هشام ١/١٠ (طبعة مكتبة الجمهورية بمصر) القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، بغداد ١٩٥٨ ص ٢٤–٢٥ ، ٣٢٦–٣٢٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٧٥ ، ابن خلدون ٢/٢٩٨ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٣٢٦ .

ثم كيف عرفوا – أو بالأحرى كيف عرف برخيا – أن يحيى هو آخر أنبياء اليهود وأنه سوف يموت شهيدا على أيديهم ، وهو (أولاً) ليس آخر أنبياء اليهود ، فذلك هو السيد المسيح عليه السلام ، حيث أرسل لهداية «خراف بيت إسرائيل الضالة»[1] ، و (ثانياً) فإن حادث إستشهاد يحيى لم يرد في أي نص من نصوص التوراة ، وإنما كان ذلك في أناجيل النصارى ، حيث يدعونه «يوحنا المعمدان»[2] – الأمر الذي سوف نناقشه في مكانه من هذه الدراسة – وأخيراً كيف غاب كل ذلك على مؤرخينا الكبار ، أم أنه النقل عن يهود ، حتى دون مناقشة ، ثم هو ادعاء العلم من أحبار يهود ، حتى لو كان ذلك العلم لم يرد في كتبهم المقدسة ، توراة كانت أم تلموداً .

ومنها (سادساً) أن قصة الغزو جميعها ليست إلا ترديدا لنبوءات إرمياء في التوراة ، والتي تنبأ فيها بكل المصائب لليهود ، وللمصريين والفلسطينيين والمؤابيين والأدوميين والعمونيين والأراميين والكلدانيين ، وكذا لدمشق وحماة وقيدار وحاصور وعيلام وبابل ، وكل ما يعرفه من أمم ومدن[3] .

ومنها (سابعاً) أن الأخباريين يرون روايه أخرى تذهب إلى أن أبناء «معد بن عدنان» قد أغاروا على معسكر بني إسرائيل بقيادة موسى نفسه ، وأن الكليم – عليه السلام – قد دعا عليهم ثلاث مرات ولم تجب دعوته ، لأن من هؤلاء المصطفى ، صلى الله عليه وسلم[4] ، وبصرف النظر عن صدق الرواية أو كذبها ، فإنها تشير إلى أن معد بن عدنان ، إنما كان قبل موسى عليه السلام ، وهو الذي كان في حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، طبقاً لأكثر النظريات تأخراً من الناحية الزمنية[5] .

ومنها (ثامناً) أن حاصور التي يتحدث عنها إرمياء في التوراة[6] ، إنما تقع في شمال بلاد العرب ، وهي لا تعدو أن تكون عدة «إمارات» أو «مشيخات» صغيرة ،

---

(1) إنجيل متى ١٥: ٢٣–٢٨ .
(2) متى ١٤: ٢–١١ ، مرقص ٦: ١٧–٢٨ .
(3) أنظر : سفر ارمياء ، الاصحاحات من ٤٤ إلى ٥١ .
(4) تاريخ الخميس ص ١٦٧ .
(5) راجع نظريات خروج الإسرائيليين من مصر ، في كتابنا « إسرائيل » ص ٢٦٨–٣٠٣ .
(6) إرمياء ٤٩: ٢٨–٣٣ .

كما يفهم من عبارته « وغن ممالك حاصور » والتي كانت تتاخم « قيدار » ، ولعلها كانت في البادية[1] ، وأن سكانها كانوا على خلاف أهل الوبر ، يسكنون في بيوت ثابتة ، كما كانت تقع في جنوب فلسطين أو شرقيها[2] ، ومن هنا فلست أدري كيف جعل المؤرخون المسلمون « حاصور » هي « حضور » ، وأنها في اليمن — وليست في فلسطين — وأن « نبوخذنصر » إنما غزاهم حماية للدين الحنيف ، وانتقاماً لقتل الأنبياء ، وهو نفسه كافر بهذا وذاك ، ومن ثم فربما كان السبب في هذا الإضطراب — فيما يرى الدكتور جواد علي — أن حرباً قديمة ماحقة ، أو كوارث طبيعية حدثت في حضور اليمن ، وتركت أثراً عميقاً في ذاكرة القوم ، ثم جاء الأخباريون ، وخاصة أولئك الذين لهم صلة بأهل الكتاب ، فوجدوا شبهاً بين « حاصور » و « حضور » ، وظنوا أن ما رواه « إرمياء » عن حاصور ، إنما كان عن « حضور اليمن ، ثم أضافوا إليها ما شاء الله لهم أن يضيفوا على طريقتهم في هذا المجال[3] .

ومنها (تاسعاً) أن قصة الغزو البابلي لبلاد العرب هذه ، لم تكتف بترديد نبوءات إرمياء — كما جاءت في التوراة ، وكما أشرنا إليها آنفاً — وإنما قد اختلطت فيها كذلك فتوحات « نبونيد » (٥٥٥—٥٣٩ ق.م) في بلاد العرب ، عندما أخضع أدومو وتيماء وديدان وخيبر ويثرب[4] ، بفتوحات « نبوخذنصر » ، وإن كان هذا لا يمنعنا من القول بأن « نبوخذنصر » قد أرسل حملة في العام السادس من حكمه

---

(١) J. Hastings, op. cit., P. 334.

(٢) T.K. Cheyne, op. cit., P. 1978.

(٣) جواد علي : المرجع السابق ص ٣٥١—٣٥٢ .

(٤) جواد علي ١/٦٠٩ وكذا

A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 363 وكذا S. Smith, op. cit., P. 53, 88.

وكذا R.P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzar, New Haven, 1929, P. 106-107.

وكذا C.J. Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958, P. 35, 79-80. وكذا A.R. Burn, Persia and the Greeks, P. 38

وكذا CAH, 4, P. 194.

(٦٠٥–٥٩٢ ق.م) إلى سكان البادية ، دون تحديد لبادية معينة ، أو قبيلة بذاتها ، وأن الحملة قد نجحت في نهب مواشي القوم وأخذ أصنامهم[١] .

ومنها أخيراً (عاشراً) أن « برخيا بن أخبيا » النبي اليهودي – كما يراه المؤرخون المسلمون – ليس في الواقع إلا « باروخ بن نيريا » ، وأنه لم يكن أبداً نبياً ، وإنما كان كاتباً وصديقا للنبي اليهودي « إرمياء » ، ومن ثم فهناك اتفاق بين علماء التوراة على أن « باروخ » هذا ، هو الذي كتب سفر إرمياء – كما هو في التوراة المتداولة اليوم – في حوالي عام ٦٠٥ ق.م ، وإن كانت الإصحاحات من الأول إلى السادس ، إنما ترجع إلى الفترة ما بين عامي ٦٢٧ ، ٦٢٢ ق.م[٢] .

(٩) المديانيون :

تحدث القرآن الكريم عن أهل مدين ، وعن نبيهم الكريم شعيب عليه السلام[٣] ، في مواطن متفرقة من سوره[٤] ، ووفقاً لما جاء في القرآن الكريم ، فإن شعيباً أتى مدين وأصحاب الأيكة ، فنهاهم عن عبادة الأوثان ، كما أمرهم أن يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان[٥] ، ذلك لأن آفة مدين إنما كانت آفة كل المدن على مدرجة الطريق ، ومن ثم فقد كانت قصتهم في القرآن قصة التجارة المحتكرة ، والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطرق ، وهكذا

---

(١) أنظر : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، ص ٢٨٧–٤٢٧ ، الرياض ١٩٧٦م ، وكذا
D.J. Wiseman, Chronicles of Chaldaean Kings, London, 1956, P. 32, 48, 70.

(٢) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٣٩ ، وكذا سفر إرمياء ٤٥ : ١ .

(٣) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن « المديانيين » في كتابه « دراسات في التاريخ القرآني » شغلت كل « الفصل الثامن » من الجزء الأول ؛ من هذا الكتاب .

(٤) أنظر : سورة الأعراف والتوبة وهود والحجر والحج والشعراء والقصص والعنكبوت وق وغيرها .

(٥) أنظر : سورة الأعراف (٨٥) وهود (٨٤–٨٥) والشعراء (١٨١–١٨٣) .

كانت رسالة شعيب عليه السلام ، رسالة خلاص من شرور الإحتكار والخداع في البيئة التي تعرضت لها بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم[1] .

وقد كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم «مدين» التي هي قرية من أرض معان في أطراف الشام مما يلي الحجاز ، قريباً من بحيرة قوم لوط[2] ، هذا وقد كانت مدين هذه إنما تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب وطور سيناء[3] .

ويفهم من أسفار التوراة أن مواطن المديانيين إنما كانت تقع إلى الشرق من العبرانيين ، ويبدو أنهم قد توغلوا في المناطق الجنوبية لفلسطين ، متخذين منها مواطن جديدة ، عاشوا فيها أمداً طويلاً ، حيث يرد ذكرهم في الأخبار المتأخرة ، وقد ذكر بطليموس الجغرافي موضعاً يقال له « موديانا » على ساحل البحر الأحمر ، يرى العلماء أنه موضع مدين ، وأنه يتفق وحدود أرض مدين المعروفة في الكتب العربية[4] .

وأما « يوسيبيوس » فيذكر مدينة « مديم » ويقول أنها سميت باسم أحد أولاد إبراهيم من زوجه قطوره ، وهي تقع وراء المقاطعة العربية في الجنوب في بادية العرب الرحل إلى الشرق من البحر الأحمر[5] ، وأما « الويس موسل » فيذهب إلى أن أرض مدين يجب أن تكون إلى الشرق والجنوب الشرقي من مكان العقبة الحالية ، فهناك كان يمر أهم طريق من طرق النقل التجاري[6] ، هذا ويظهر من التوراة

---

(١) عباس العقاد : مطلع النور ص ٩٣–٩٤ ، تفسير روح المعاني ٨/١٧٦–١٧٧ ، تفسير المنار ٨/٥٢٥–٥٢٦ ، تفسير الطبري ١٢/٥٥٤–٥٥٥ .

(٢) ابن كثير ١/١٨٤–١٨٥ ، ياقوت ٥/٧٧–٧٨ ، ١٥٣–١٥٤ ، تفسير المنار ٨/٥٢٤ .

(٣) قاموس الكتاب المقدس ٢/٨٥٠ .

(٤) جواد علي ١/٤٥٥
وكذا J. Hastings, op. cit., P. 616 وكذا T.K. Cheyne, op. cit., P. 3081.
وكذا Ptolemy, Geography, VI, 7, 27. وكذا EI, 3, P. 104,

(٥) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٦٩ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٨٣–٨٤ .

أن المدينيين قد غيّروا مواضعهم مراراً بدليل ما يرد فيها من إختلاطهم ببني قدم والعمالقة والكوشيين والإسماعيليين ، ويبدو أنهم استقروا في القرون الأخيرة قبل الميلاد في جنوب وادي العربة، وإلى الشرق والجنوب الشرقي من العقبة[1] .

ويرجح بعض الباحثين أن عصر شعيب ، إنما كان قبل عصر موسى ، معتمدين في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعيباً في القرآن الكريم — كما في سورة الأعراف ويونس وهود والحج والعنكبوت — بعد نوح وهود وصالح ولوط ، وقبل موسى[2] ، وإذا ما عدنا إلى عصر الخليل عليه السلام (١٩٤٠-١٧٦٥ ق.م) ، وتذكرنا أن لوطاً وقومه إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء ، لأمكننا القول أن شعيباً وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، بخاصة وأن التوراة تذكر أن مدين إنما كان من ولد الخليل من زوجه قطوره الكنعانية[3] .

على أننا نستطيع من ناحية أخرى أن نقول — حدساً عن غير يقين — أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، إذا ما كان صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن يثرون كاهن مدين وصهر موسى ، إنما هو شعيب نبي مدين العربي ، وذلك لأن رحلة الخروج من مصر ، تحت قيادة موسى — وكذا لقائه مع صهره كاهن مدين — إنما كانت في هذا القرن الثالث ق.م[4] .

---

(١) تكوين ٢٥ : ٦ ، ٣٧ : ٢٥ ، ٢٨ ، عدد ١٢ : ١ ، حبقوق ٣ : ٧ وكذا
A. Musil, op. cit., P. 287,

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٤٩ .

(٣) أنظر : سورة الحجر (٥١-٧٧) والعنكبوت (٢٦-٣٥) والذاريات (٢٤-٣٧) ، وانظر : تكوين ١٤ : ١-٢٤ ، ١٨ : ١-٣٣ ، ٢٥ : ١-٢ ، أخبار أيام أول ١ : ٣٢ .

(٤) ياقوت ٥/٧٧-٧٨ ، البكري ١٢٠١/٤ ، مروج الذهب ٦١/١ ، تاريخ ابن خلدون ٤٣/٢ ، ٨٢ ، العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٨٠ ؛ كتابنا «إسرائيل» ص ٢٦٨-٣٠٣ .

الفصل السادس

بلاد العرب فيما قبل العصر التاريخي

ليس من شك في أن معلوماتنا عن بلاد العرب فيما قبل العصر التاريخي ضئيلة ، لا تقدم لنا نفعاً كبيراً لإقامة الهيكل التاريخي في تلك العصور الممعنة في القدم ، ومن هنا فإننا سنحاول أن نقدم ما عثر عليه الأثريون في شبه الجزيرة العربية ، وبخاصة في تلك الأماكن التي تقع عند الأودية ، وعند الطرق والأماكن التي تتوافر فيها وسائل الحياة ، والتي ترجع إلى فترات مختلفة من عصور ما قبل التاريخ ، فضلاً عن تلك الكهوف التي عاش فيها نفر من القوم في جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية ، في عصور ترجع إلى ما قبل الميلاد ، بأمد لا ندري مداه على وجه التحديد ، وقد تحدث الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان عن تلك الكهوف ، بل إن البعض ما يزال يتخذها سكناً له في حضرموت ، وفي غيرها من المواضع [1] .

---

(١) جواد علي ٥٣١/١ ، وكذا
Van der Muelen, Aden to the Hadharmaut, P. 120, 200, 203

وأما أهم الآثار التي عثر عليها في شبه الجزيرة العربية من تلك العصور العتيقة ، فمنها تلك الأدوات الحجرية التي عثر عليها في مواضع مختلفة من حضرموت ، والتي لم تكن على مستوى نظيراتها في سورية أو في أفريقية ، وقد حاول بعض الباحثين أن يرجع ذلك إلى طبيعة أحجار المنطقة نفسها ، بينما ذهب آخرون إلى أن السبب في ذلك إنما يرجع إلى مستوى الحضارة نفسها ، بالنسبة إلى الحضارات الأخرى[1] ، على أن فريقاً ثالثاً إنما يذهب إلى أن عزلة حضرموت عن الحضارة الشمالية ، فضلاً عن صلتها القوية بأفريقية ، إنما كانا من وراء ذلك كله[2] .

وترى « مس كاتون طومسون » أن انفصال جنوب غربي بلاد العرب عن أفريقية الشرقية ، قد حدث في حقبة « البليستوسين » — أي قبل مليون عام على أقل تقدير — وأن آلات الظران (حجر الصوان) التي عثر عليها في حضرموت تشبه كثيراً تلك التي عثر عليها الباحثون في شرقي أفريقية[3] .

أضف إلى ذلك أنه قد عثر في حضرموت كذلك على نماذج من الزجاج البركاني ، الذي اتخذ أشكالاً هندسية بفعل البراكين ، يرى بعض الباحثين أنها ترجع في أصلها إلى سواحل أفريقية الشرقية[4] ، ولعل هذا هو السبب الذي دعا « مس طومسون » إلى القول بأنه كانت توجد في شرق أفريقية ثقافة مركزية تفرعت عنها ثقافات متعددة ، ليس في أفريقية وحدها ، وإنما في آسيا كذلك ، وتدلل « مس طومسون » على نظريتها في انفصال أفريقية عن آسيا ، بأنه لا يوجد بين أدوات الظران التي عثر عليها في جنوب بلاد العرب بعض الأدوات المعروفة من العصور الحجرية القديمة

---

(١) Fraya Stark, An Exploration in the Hadharmaut and Journey to the Coast, GJ, XCIII, 1939. P. 30.

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الأول ص ٥٣٠ .

(٣) G. Caton Thompson and E.W. Gardiner, Climate, Irrigation and Early Man in the Hadharmaut, Geographical Journal, 93, 1939, P. 18-19, 29-35.

(٤) جواد علي ٥٣١/١ .

(باليوليتية) ، والتي كانت منتشرة في تلك الأيام الخوالي على طول أفريقية الشرقية من الشمال إلى الجنوب[1] .

على أن الدكتور سليمان حزين يري أنه إذا كان ولا بد لنا من البحث عن أي الجهتين — شرقي أفريقية أو جنوبي بلاد العرب — أقدم ثقافة ، فإن بلاد العرب هي الأقدم ، وأن الثقافة قد انتقلت منها في العصور الحجرية القديمة إلى شرقي أفريقية[2] ، وذلك لأن اليمن وعدن كانتا في تلك العصور الحجرية القديمة مأهولتين بالسكان ، وأن قسماً من هؤلاء السكان قد هاجر إلى عمان ومناطق الخليج العربي ، كما هاجر قسم آخر — عن طريق مأرب ونجران — إلى شبه جزيرة سيناء ، وإلى فلسطين والأردن بينما ذهب فريق ثالث — عن طريق باب المندب — إلى الصومال وكينيا وتنجانيقا[3] .

هذا وقد استمرت هذه الهجرات إلى السواحل الإفريقية ، حتى في العصور التاريخية ، وربما يرجع ذلك إلى العوامل المناخية والاقتصادية ، فضلاً عن المصالح التجارية الخارجية ، وهكذا كانت حركة التجارة ، فضلاً عن ثروات أفريقية ، دافعا قوياً إلى الفتح والإستيطان الدائم ، ومن ثم رأينا العرب الجنوبيين يهاجرون إلى أفريقية ، وبمرور الزمن أخذوا يستقرون هناك ثم سرعان ما يلعبون دوراً خطيراً في إرساء قواعد حضارة وثقافة تنبثق من صميم الحضارة في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وهكذا بدا العرب الجنوبيون يتجهون نحو أفريقية منذ وقت مبكر ، على دفعات متعددة ، وفي أوقات مختلفة ، وفي الألفي سنة الأخيرة قبل الميلاد هاجرت جماعات عربية جنوبية إلى الحبشة ، وبلغت هذه الهجرات أقصاها فيما بين عامي ١٥٠٠ ، ٣٠٠ ق.م[4] .

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٢٣
وكذا G. Caton Thompson and E. Gardiner, op. cit.,

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٢٣
وكذا S.A. Huzayyin, Nature, Vol. XI, 1937, P. 513-514

(٣) جواد علي ٥٣٢/١ وكذا A. Grohmann, Arabien, Munchen, 1963, P. 15.

(٤) أنظر : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » ، مجلة كلية اللغة العربية ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧—٤٣٧ ، صلاح الشامي : الموانئ السودانية ص ٦٣ ، موسكاتي ، المرجع السابق ص ٢١٣ ، مصطفى مسعد : الإسلام وا[illegible] في العصور الوسطى ص ١٠٧ .

ويرى « كارل بيترز » أن جالية عربية كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين نهري الزمبيزي واللمبوبو ، منذ الألف الثاني قبل الميلاد ، وأن المعبد الكبير في « زمببوية » بني عام ١١٠٠ ق.م ، وأن السبئيين كانوا أصحاب السيادة في ذلك الوقت[1] ، على أن الأمر ، إنما يزداد وضوحاً منذ القرن السادس قبل الميلاد ، حيث نزحت جالية سبئية إلى منطقة « تعزية » في أرتيريا — وكذا إلى هضبة الحبشة — مكونة حكومة محلية هناك[2] ، ولعل هجرة الأوسانيين إلى السواحل الإفريقية ، إنما كانت في نفس الفترة ، حيث اتخذوا من « عزانيا » مقراً لهم ، أضف إلى ذلك كله تلك الهجرة السبئية التي حدثت في القرن الخامس قبل الميلاد[3] .

وأياً ما كان الأمر ، فهناك حقيقة ثابتة ، تتلخص في وجود ثقافة من العصر الحجري القديم في بلاد العرب ، وأن هذه الثقافة تشبه إلى حد كبير ما عثر عليه في أفريقية ، كما تشبه كذلك — مع وجود اختلافات غير قليلة — ما عثر عليه الباحثون من رجال عصور ما قبل التاريخ في سورية والعراق[4] .

وربما كان نصيب شرق شبه الجزيرة العربية من آثار عصور ما قبل التاريخ أفضل من غيرها ، ففي خلال النصف الأخير من هذا القرن إستقطبت بلاد العرب — خصوصاً الجزء الشرقي منها ، بما في ذلك ساحل الخليج العربي — أنظار علماء الآثار عامة ، نتيجة للأبحاث التي قامت بها بعثة علمية دنمركية في أجزاء مختلفة من عمان وأبو ظبي وقطر والبحرين والكويت ، وأهم ما لفت أنظار المجتمع العلمي هو الكشف عن عاصمة البحرين القديمة ، والتي كانت تعرف سابقاً بمركز حضارة

---

(١) فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب بكر ص ١٢٨ ، وكذا
Carl Peters, The Eldorado of the Ancient, P. 271-272.

(٢) A. Grohmann, op. cit., P. 25.

(٣) جواد علي ٣/٤٥٠ وكذا
A. Grohmann, Arabien, P. 25.

(٤) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٢٤ .

دلمون[1] ، والتي جاء ذكرها في النصوص السومرية ، واشتهر ذكرها في مجال التجارة الدولية وقت ذاك بين مراكز الحضارة في سومر وبلاد نهر السند في باكستان الحالية ، ومن ثم فعندما برزت نتائج التنقيبات عن « دلمون » في جزيرة البحرين ، تأكدت مجدداً تلك الأهمية البارزة التي أولتها كتابات السومريين[2] القدامى لهذه المنطقة[3].

---

(١) كان العلماء مختلفين في موقع «دلمون» السومرية هذه ، فذهب بعضهم إلى أنها في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس – أي في الجزء الشرقي من ساحل الخليج العربي – (S.N. Kramer, Dilmun, The Land of the Living, BASOR, 96, P. 18-28).
وذهب فريق آخر إلى أنها منطقة وادي السند (S.N. Kramer, The Indus Civilization and Dilmun The Sumerian Paradise Land, Expedition, Philadelphia, 1964,P.45).
وذهب فريق ثالث إلى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب غرب بابل (جون الدر : الأحجار تتكلم ، ترجمة عزت زكي ص ٣٠) بل إن هناك من رأى أنها إنما تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين مجان وبيت نبسانو . (F. Hommel, Grundriss, I, P. 250) ، على أن غالبية العلماء إنما تكاد تجمع على أن موقع دلمون هذه ، إنما هو جزيرة البحرين الحالية ، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها (أنظر : مقالنا : دراسة حول : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة ، مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الخامس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٣٩٠
وكذا P.B. Cornwell, on the Location of Dilmun, BASOR, 103, 1946, P. 3-11.
وكذا J. Finegan, Light from the Ancient Past, Princeton, 1969, P. 32.

(٢) يتفق الباحثون على أن السومريين جنس غير سامي ، وأن لغتهم غريبة لا تشبه اللغات السامية ، ولا يعلم زمن مجيئهم إلى وادي الرافدين ، وإن ذهب البعض إلى أن ذلك ربما كان في فترة مبكرة من الألف الرابعة قبل الميلاد ، وقد اختلفت الآراء في موطنهم الأصلي ، فقد ذكرت أساطيرهم أنهم جاءوا من الجنوب ، ومن ثم ذهب رأي إلى أنهم مهاجرون من منطقة ما تقع فيما بين شمال الهند وبين أفغانستان وبلوخستان عن طريق الخليج العربي وجزيرة البحرين بعد أن استقروا في غربي إيران فترة ما ، وذهب رأي ثان إلى اعتبارهم بدوا مما وراء القوقاز أو بحر قزوين ، ويرى آخرون أنهم جاءوا من من آسيا الصغرى ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنهم جاءوا من السند ، بل لقد إتجه فريق رابع إلى أنهم من الأقوام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التاريخ ، وأن حضارتهم أصيلة في العراق ، بل ويمكن تسمية أهل حضارة « العبيد » بالسومريين ، على الرغم من عدم معرفتنا للغة أهل حضارة العبيد (أنظر : أحمد فخري : المرجع السابق ص ٢٨ ، عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٣٨٦ ، طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة جـ ١ ص ٨٩–٩٠
وكذا (E.A. Speiser, The Sumerian Problem Reviewed
وكذا AJA, 52, 1948, P. 156-164

(٣) عبدالله حسن مصري : آثار شرق الجزيرة العربية ودورها في نشأة حضارة سومر : مجلة الدارة ، العدد الأول ، الرياض ١٩٧٦ ص ٦٩–٧٠ .

وعلى أي حال ، فلقد تمّ العثور في الإحساء وفي قطر — وبخاصة في عوينات علي ، وجنوب دخان — على فؤوس ونبال ، فضلاً عن كميات من حجر الصوان ، ترجع إلى العصور « الباليوليثية » و « النيوليثية »[1] .

هذا وقد عثرت البعثة الدنمركية في عامي ١٩٥٨/١٩٥٩م في « تل سعد وسعيد » الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة « فيلكا » — وتقع على مبعدة ٣٠ كيلومتراً إلى الشرق من مدينة الكويت — على بعض الأختام ، وعلى أنقاض من مدينة قديمة في طبقات بُني بعضها فوق بعض ، كما عثرت على كسر من الفخار يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد ، فضلاً عن ختم مستدير من حجر التلك ، يختلف عن أحجار العراق الأسطوانية —وكذا عن أختام الهند المربعة— وقد نقش من الناحيتين ، هذا وقد أرخت البعثة تل سعد — إعتماداً على فحص طبقات التل ، ودراسة الفخار المتنوع الأشكال — بالعصر النحاسي (أي حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م) ، أما تل سعيد ، فقد أرخته بالعصر اليوناني[2] .

وهناك فريق من الباحثين يذهب إلى أن جزيرة البحرين (وهي Tylos عند بليني ، و Tyrus عند سترابو) ، إنما كانت مأهولة بالسكان منذ العصور الجليدية المتأخرة في أوربا ، وأن جو البحرين وقت ذاك إنما يشبه مثيله في بلاد اليونان في أيامنا هذه ، وأن البحرين إنما كانت خضراء تغطيها الغابات[3] ، وإذا صحت المعلومات التي وصلت إلى الفيلسوف اليوناني « ثيوفراستوس » (٣٧١—٢٨٧ ق.م) ، فقد كانت تزرع في البحرين مساحات كبيرة من القطن ، وأنه كان يوجد في هذه الجزيرة مساحات كبيرة لإنباته ، وقد أشار « بليني (٣٢—٧٩ م) إلى استمرار زراعة القطن في «Tylos» أو «Aradus» حتى أيامه[4] .

(١) جواد علي ٥٣١/١ ، تقرير عن الحفريات الأثرية في جزيرة فيلكا (١٩٥٨/١٩٥٩) ، الكويت ، ص ٢٤ .

(٢) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٠ .

(٣) جواد علي ٥٣٤/١ .

(٤) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ١٢٧ .

وأما سكان البحرين فقد كانوا قوماً من الصيادين ، يعيشون على ما يقتنصونه من حيوان ، وما يصطادونه من أسماك ، وقد عثر على أدوات من حجر الصوان كان القوم يستخدمونها في صيدهم وفي تقطيع لحوم الفرائس التي تقع في أيديهم ، وأن هذه الأدوات المكتشفة إنما تنتمي إلى أواسط عصور « Paleothitic » ، كما أنها تشبه مثيلاتها في شمال العراق وفلسطين وشمال غرب الهند[1] .

هذا وقد عُثر في البحرين كذلك على رؤوس حراب وسكاكين ، صنعها أصحابها من صخور صوانية ، وقدّر لها بعض الباحثين عمراً يتراوح ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألف سنة ، ومن ثم فربما ترجع إلى أخريات أيام الرعي ، وبداية عهد الإستقرار ، بدليل أن منها أحجاراً شذبت لتكون آلات حصد للمحاصيل ، فضلاً عن قطع الحشائش واجتثاثها من الأرض[2] .

وأما في وسط شبه الجزيرة العربية ، فقد عثر في مواضع مختلفة من المملكة العربية السعودية — تمتد من الاحساء شرقاً إلى الحجاز غرباً ، ومن مدائن صالح شمالاً ، وحتى نجران جنوباً — على أدوات حجرية تنتمي إلى تلك العصور المبكرة ، كما في « الدوادمي » — وتقع على الطريق بين مكة والرياض ، وعلى مبعدة ٣٣٦ كيلومتراً إلى الغرب من الرياض — حيث عثر على أدوات حجرية من بينها فأس يميل لونها إلى الخضرة[3] ، وكما في « تل الهبر » ، إذ كان الصيادون في عصور ما قبل التاريخ يتنقلون بإتجاه الأودية من مكان إلى آخر ، وقد ترك الصيادون — ثم الرعا من بعدهم — بعض الآثار في الأماكن التي حلوا بها حيناً من الدهر ، وما برح السياح ، وخبراء شركة « أرامكو » وغيرهم ، يعثرون على بعض منها ، بين الحين والحين[4] .

---

(١) جواد علي ٥٣٤/١
وكذا James, H.D. Belgrave, Welcome to Bahrain, London, 1966, P. 50.

(٢) Ibid., P. 51.

(٣) P.B. Cornwall, Ancient Arabia, Exploration in Hasa, 1940-1941, in GJ, CVII, 1946, P. 39.

(٤) H. Field, Papers of the Pesbody Museum, 48/2, 1956, P. 63
وكذا A. Grohmann op. cit., P. 15.

وأما في شمال شبه الجزيرة العربية ، فقد عثر في « كلوة » ، عند سفح جبل الطبيق ، على آثار رأى بعض الباحثين أنها ترجع إلى آلاف السنين قبل الميلاد ، وأن تاريخ السكنى بها ، إنما يرجع إلى الألف الثامنة قبل الميلاد[1] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الباحثين لم يوفقوا بعد في العثور على هياكل كاملة للإنسان من عصور ما قبل التاريخ في شبه الجزيرة العربية ، أو حتى سيناء ، وإن كان بعض رجال شركة « أرامكو » قد عثروا على بقايا عظام وأسنان لبعض الحيوانات « الحلمية » (Mastodom) ، وعلى جزء من جمجمة إنسان قديم ، في موضع يبعد تسعين ميلاً إلى الغرب من « الدمام » ، إلا أن ذلك لا يمكّن الباحثين من إعطاء رأي علمي فيما يتصل بالحياة في عصور ما قبل التاريخ ، حتى وإن أمكن العثور على مثل هذه البقايا في أماكن أخرى من شبه الجزيرة العربية[2] .

على أن البحرين قدمت للباحثين هيكلين كاملين ، رأينا الميت فيهما يرقد على جنبه الأيمن ، ويتجه بوجهه نحو المشرق ، الأمر الذي كان يتبعه سكان العراق القديم في الألف الثالثة قبل الميلاد[3] ، كما وجدت في المقبرة بقايا عظام حيوانات ، فضلاً عن أدوات بيت الميت وحليه ، ولعلهم في هذا يشبهون المصريين القدامى الذين كانوا يعتقدون في الحياة الآخرة ، وأنها على غرار الحياة الدنيا ، ومن ثم فقد كانوا يضعون في مقبرة الميت ، ما قد يحتاجه من متاع في هذه الحياة الأخرى .

وأما أبواب مقابر البحرين هذه ، ففي الناحية الأخرى من إتجاه الميت — أي في الناحية الغربية — وربما كان لذلك صلة بدين القوم ، وربما كانوا — مرة أخرى — يشبهون المصريين الذين كانوا يطلقون على عالم الموت إسم « عالم الغرب » ، كما كان

---

(١) جواد علي ٥٣٢/١
وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 16
وكذا N. Glueck, The Other Side of the Jordan, New Haven, 1940, P. 43.

(٢) جواد علي ٥٣٦/١ ، وكذا P.B. Cornwall, op. cit., P. 39.

(٣) J.H.D. Belgrave, op. cit., P. 52.

الموتى يسمون « أهل الغرب » ، بل إن مقابرهم إنما كانت في كثير من الأحايين ، إنما تقع على الضفة الغربية من النيل .

وأياً ما كان الأمر ، فإن هناك من يرى أن القوم إنما كانوا يسكنون على ساحل الخليج العربي ، بينما يتخذون من جزيرة البحرين مقبرة لموتاهم ، على أن فريقاً آخر إنما يذهب إلى أن تلك المقابر ، إنما كانت مقابر الفينيقيين الذين كانوا يقطنون البحرين بعد هجرتهم إليها من الأفلاج والخرج ، وأنها إنما ترجع إلى الفترة ما بين عامي ٣٠٠٠ ، ١٥٠٠ قبل الميلاد[١] ، على أن هناك من يعارض هذا الإتجاه أصلاً ، ويرفض أن يكون الفينيقيون من هناك[٢] .

هذا وقد عثرت البعثة الدنمركية في عام ١٩٥٩م ،[٣] جنوب طريق البديع في البحرين ، على أربع مقابر ، ترجع إلى العصور الحجرية ، كما عثر بعض السياح على تلال في مواضع متفرقة في كل من عمان وقطر ، ترجع إلى ما قبل الميلاد ، هذا وقد عثر رجال شركة « أرامكو » على مقابر كثيرة في جبلي المذري الشمالي والجنوبي[٤] ، فضلاً عما عثر عليه « جون فلبي » و « كورنول » من مقابر في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، وفي « الرديف » — على مبعدة ١١٠ ميلاً شمالي غربي الدمام — وفي « المويه » — على مبعدة ١٤٣ ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكة المكرمة — وفي « الرويق » ، وفي مرتفعات العلم الأبيض والعلم الأسود ، وفي كثير من هذه المقابر تمكن الباحثون من الحصول على أدوات من الفخار ، وعلى قطع من العاج ، وعلى قشور من بيض النعام ، وعلى أسلحة برنزية كما استدلوا من وجود

---

(١) H. St. J.B. Philby, Sheba's Daughters, 1939, P. 373.
وكذا جواد علي ٥٣٩/١–٥٤٠ وكذا R. Sanger, op. cit., P. 141. وكذا EI, I, P. 585
وانظر : كتابنا « إسرائيل » ص ٣٣٥ .

(٢) سير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ترجمة عبد القادر يوسف ، الكويت ، ص ٧٧–٧٩ .

(٣) P.V. Glob, Archaeological Invistigations in Four Arab States, 1959, P. 238.

(٤) J.B. Philby, oa. cit., P. 373.

بعضها في مناطق صحراوية بعيدة عن العمران الآن ، على أن هذه المناطق إنما كانت مأهولة بالسكان في تلك العصور العتيقة[1] .

ومن أسف أننا لا نملك دراسة علمية مقارنة عن هذه المقابر ، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها إنما ترجع إلى عصر « Chalcolithic » ، أو إلى العصر البرونزي ، بينما ذهب آخرون إلى أنها إنما ترجع إلى العصر البرونزي المتأخر [2] ، هذا وقد ذهب فريق ثالث إلى أن مقابر « أم النار » ، في أبو ظبي ، إنما ترجع إلى الألف الثالثة ق.م[3] ، وأما عن أصحاب هذه المقابر ، فإن الباحثين يتجهون إلى أن مقابر المرتفعات إنما كانت للصيادين أو الرعاة ، بينما كانت مقابر السهول للمزارعين المستقرين[4] .

ولعل مما تجدر ملاحظته أنه قد تبين من مخلفات المقابر في أم النار أنها إنما تضم العديد من الهياكل العظمية المتكدسة في المدفن المشترك ، ويقل العدد في غرف الدفن والممرات ، مما يدل على أن القبر قد استخدم مرات عديدة ، هذا ويدل وجود الهياكل العظمية خارج الجدران الخارجية على وجود ظاهرة التضحية البشرية التي تواكب مراسم الدفن حيث توضع جثث الأشخاص الذين يضحى بهم مع بعض خارج المبنى الذي يضم جثة المتوفي[5] .

وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى وجود مراكز استيطان عديدة في شمال شرق الجزيرة العربية ، تنتمي إلى حضارة « العُبيد » في العراق القديم ، من الناحية الزمنية ، فضلاً عن تشابه حضاري بينهما ، وأما موقع هذه المراكز فقد كان بحذاء

---

(١) J.B. Philby, op. cit., P. 373 وكذا P.B. Cornwall, op.cit., P. 36-37.

(٢) R. Sanger, op. cit., P. 141.

(٣) جواد علي ١/٥٤١-٥٤٢ ، تقرير عن الحفريات الأثرية في فيلكا ، الكويت ص ٢٤ .

(٤) P.B. Cornwall, op. cit., P. 37.

(٥) G. Bibby, Looking for Dilmun, P. 212
وكذا K. Thorvildsen, Kuml, 1962, P. 217-218.

الموتى يسمون « أهل الغرب » ، بل إن مقابرهم إنما كانت في كثير من الأحايين ، إنما تقع على الضفة الغربية من النيل .

وأياً ما كان الأمر ، فإن هناك من يرى أن القوم إنما كانوا يسكنون على ساحل الخليج العربي ، بينما يتخذون من جزيرة البحرين مقبرة لموتاهم ، على أن فريقاً آخر إنما يذهب إلى أن تلك المقابر ، إنما كانت مقابر الفينيقيين الذين كانوا يقطنون البحرين بعد هجرتهم إليها من الأفلاج والخرج ، وأنها إنما ترجع إلى الفترة ما بين عامي ٣٠٠٠ ، ١٥٠٠ قبل الميلاد(١) ، على أن هناك من يعارض هذا الإتجاه أصلاً ، ويرفض أن يكون الفينيقيون من هناك(٢) .

هذا وقد عثرت البعثة الدنمركية في عام ١٩٥٩م ،(٣) جنوب طريق البديع في البحرين ، على أربع مقابر ، ترجع إلى العصور الحجرية ، كما عثر بعض السياح على تلال في مواضع متفرقة في كل من عمان وقطر ، ترجع إلى ما قبل الميلاد ، هذا وقد عثر رجال شركة « أرامكو » على مقابر كثيرة في جبلي المذري الشمالي والجنوبي(٤) ، فضلاً عما عثر عليه « جون فلبي » و « كورنول » من مقابر في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، وفي « الرديف » — على مبعدة ١١٠ ميلاً شمالي غربي الدمام — وفي « المويه » — على مبعدة ١٤٣ ميلاً إلى الشمال الشرقي من مكة المكرمة — وفي « الرويق » ، وفي مرتفعات العلم الأبيض والعلم الأسود ، وفي كثير من هذه المقابر تمكن الباحثون من الحصول على أدوات من الفخار ، وعلى قطع من العاج ، وعلى قشور من بيض النعام ، وعلى أسلحة برنزية كما استدلوا من وجود

---

(١) H. St. J.B. Philby, Sheba's Daughters, 1939, P. 373.
وكذا سواد مل ١/٥٣٩–٥٤٠ وكذا R. Sanger, op. cit., P. 141. وكذا EI, I, P. 585
وانظر : كتابنا « إسرائيل » ص ٣٣٥ .

(٢) سير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ترجمة عبد القادر يوسف ، الكويت ، ص ٧٧–٧٩ .

(٣) P.V. Glob, Archaeological Invistigations in Four Arab States, 1959, P. 238.

(٤) J.B. Philby, oa. cit., P. 373.

بعضها في مناطق صحراوية بعيدة عن العمران الآن ، على أن هذه المناطق إنما كانت مأهولة بالسكان في تلك العصور العتيقة[1] .

ومن أسف أننا لا نملك دراسة علمية مقارنة عن هذه المقابر ، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أنها إنما ترجع إلى عصر « Chalcolithic » ، أو إلى العصر البرونزي ، بينما ذهب آخرون إلى أنها إنما ترجع إلى العصر البرونزي المتأخر [2] ، هذا وقد ذهب فريق ثالث إلى أن مقابر « أم النار » ، في أبو ظبي ، إنما ترجع إلى الألف الثالثة ق.م[3] ، وأما عن أصحاب هذه المقابر ، فإن الباحثين يتجهون إلى أن مقابر المرتفعات إنما كانت للصيادين أو الرعاة ، بينما كانت مقابر السهول للمزارعين المستقرين[4] .

ولعل مما تجدر ملاحظته أنه قد تبين من مخلفات المقابر في أم النار أنها إنما تضم العديد من الهياكل العظمية المتكدسة في المدفن المشترك ، ويقل العدد في غرف الدفن والممرات ، مما يدل على أن القبر قد استخدم مرات عديدة ، هذا ويدل وجود الهياكل العظمية خارج الجدران الخارجية على وجود ظاهرة التضحية البشرية التي تواكب مراسم الدفن حيث توضع جثث الأشخاص الذين يضحى بهم مع بعض خارج المبنى الذي يضم جثة المتوفي[5] .

وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى وجود مراكز استيطان عديدة في شمال شرق الجزيرة العربية ، تنتمي إلى حضارة « العُبيد » في العراق القديم ، من الناحية الزمنية ، فضلاً عن تشابه حضاري بينهما ، وأما موقع هذه المراكز فقد كان بحذاء

---

(١) J.B. Philby, op. cit., P. 373 وكذا P.B. Cornwall, op.cit., P. 36-37.

(٢) R. Sanger, op. cit., P. 141.

(٣) جواد علي ١/٥٤١-٥٤٢ ، تقرير عن الحفريات الأثرية في فيلكا ، الكويت ص ٢٤ .

(٤) P.B. Cornwall, op. cit., P. 37.

(٥) G. Bibby, Looking for Dilmun, P. 212

وكذا K. Thorvildsen, Kuml, 1962, P. 217-218.

ولعل من نتائج ذلك كله أن هناك عناصر حضارية ثلاث في شرق الجزيرة العربية في عصور ما قبل التاريخ ، تميزت الواحدة بصناعة الأدوات الحجرية ، وتأثرت الثانية بحضارة العبيد ، وأما الثالثة – ويمثلها موقع جزيرة تارون – فتنتمي إلى حضارة الألف الثالثة ق.م ، وما بعدها ، وقد كانت نتيجة للعلاقات التجارية بين الجانبين ، والتي قامت فيها شواطىء الخليج بدور هام[١] .

وطبقاً لعلم الطبقات ، فإن العنصرين الحضاريين وجدا أنهما على علاقة مباشرة ومتتابعة في موقع « عين قناص » في الداخل ، وفي جنوب غرب المنطقة الشرقية ، فضلاً عن ذلك ، فإن تحليل الرواسب من هذا الموقع أمدنا بدليل مباشر على تواجد سكاني دوري في المنطقة في العصر الحجري ، وهكذا يمكننا أن نستنتج أن حركات سكانية وهجرات دورية حدثت على المدى الطويل تجاه الوادي الغربي في جنوب العراق ، ومن الممكن أن نظن أن مواطن الإستقرار التي تنتمي إلى حضارة العبيد في بلاد العرب ، خاصة تلك التي تقع على طول الساحل ، تبادلت المواد الخام مع مثيلاتها في جنوب العراق ، فلقد كانت مواد التبادل هذه تتمثل في الأصداف واللآلىء والمنتجات البحرية الأخرى ، فضلاً عن المواد الحجرية المنتجة من سواحل الجزيرة العربية ، كما أن وجود حجر الأوبسيديون في مواقع الجزيرة العربية ، لدليل على العلاقات بين هذه الأخيرة وبين الشمال عن طريق جنوب العراق[٢] .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الفترة التي بدأت تتكون فيها المدن في العراق ، قد توافقت زمنياً مع فترة اختفاء حضارة العبيد في الجزيرة العربية ، مما يحمل على الظن بأن هجرة كبيرة من سكان الجزيرة نزحت إلى العراق القديم في نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد ، وهذا يتفق مع ما افترضه العلماء من أن تدفق السكان على سهول العراق كان حاسماً في قيام المراكز المدنية هناك[٣] .

---

(١) Abdullah Hassan Masry, op. cit., P. 18-19.

(٢) A.H. Masry, p. cit., P. 19.

(٣) A.H. Masry, op. cit., P. 20.

وعلى أي حال ، فلعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن المراكز الحضارية في منطقة الخليج العربي إنما قد تأثرت في عصور ما قبيل الكتابة بحضارات جنوبي بلاد الرافدين — كما أشرنا من قبل — ووادي السند ووادي النيل وإيران ، ذلك لأن المراحل الأخيرة في عصور ما قبل التاريخ إنما قد تأثرت إلى حد كبير بظاهرة الاتصالات الخارجية[1] .

وهناك ما يشير إلى تشابه في أشكال الأدوات الفخارية التي تنتمي إلى عصر حضارة العبيد ، وتلك التي في موقع أم النار في أبو ظبي بدولة الإمارات العربية ، وموقع باكون بإقليم فارس[2] في إيران .

هذا وقد قامت منطقة الخليج العربي بدور فعال في الإتصال بين حضارة جنوب وادي الرافدين وواد السند ، وهناك ما يشير إلى أن تجار منطقة وادي السند قد مارسوا التجارة مع سكان الخليج العربي ومدن وادي الرافدين[3] .

وفي هذا المجال فقد عثر في أم النار و « هيلي » — على مبعدة عشرة كيلومترات من مدينة العين — على أواني فخارية تحمل زخارف تشبه تلك التي عثر عليها في وادي السند ، هذا ويستدل على الإتصال التجاري مع وادي السند من العثور على العديد في الأختام المربعة التي تتميز بها حضارة وادي السند في فيلكا وفي البحرين ، وكذا العثور على أختام دائرية في موقع وادي السند يعود أصلها إلى فيلكا والبحرين[4] .

هذا وقد تبين من الدراسة والمقارنة لفخار أم النار ، وفخار « كولي » أن الأول ينتمي إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، وأن التشابه بين النوعين إنما يكمن في الصناعة

---

(١) رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا — الكتاب الأول — ص ٢٣٥—٢٣٧ .

(٢) يقع إقليم فارس في الجنوب الغربي من إيران ويوازي ساحل الخليج العربي ، وأهم مواقعه الأثرية موقع باكون ، ويقع على مبعدة ٥،٢ كيلومتراً جنوب بيرسبوليس القريبة من شيراز في سهول « مرفت داست » (D. Mccown, SAOC, 23, 1957, P. 23.)

(٣) Bridget and Raymond Allchin, The Birth of Indian Civilization, London, 1968, P. 270.

(٤) سليمان البدر : المرجع السابق ص ٣١٥—٣١٦ .

وتطبيق الألوان وأسلوب الزخرفة والحفر الباز ، وإن تميز فخار أم النار بتعدد ألوانه وأشكاله وزخارفه[1] .

وفي موقع بلوخستان الأيراني يوجد موقع « بامبور » (بجنوب شرق إيران) ويضم ست طبقات تؤرخ إبتداء من الربع الثاني من الألف الثالثة ق.م ، وحتى بداية الألف الثانية ق.م[2] ، و تمثل ست مراحل حضارية : عثر في الطبقات الأربعة الأولى منها على أواني فخارية رمادية تشبه فخار أم النار[3] ، أما المرحلة السادسة فإلى جانب تشابه فخارها مع. فخار أم النار ، فلقد كشف فيها كذلك عن ختم من أختام الخليج العربي ، يؤرخ بحوالي عام ١٩٢٣ ق.م[4] ، ومن ناحية أخرى فلقد وصلت أختام وادي السند — ومنها ما يحمل خصائص أختام الخليج العربي — إلى بلاد الرافدين ومواقع الخليج العربي[5] ، هذا فضلاً عما عثر عليه في البحرين وفيلكا من أدوات حجرية من وادي السند ، وكذا لوحة لعب من حجر اللازورد عثر عليها في موقع « باربار » في البحرين[6] .

وعلى أي حال ، فرغم أن هناك من يرى أن عصر ما قبل التاريخ قد بدأ في شبه الجزيرة العربية حوالي الألف الثالثة ق.م ، في وقت كان العصر التاريخي قد بدأ في أماكن أخرى[7] — كمصر والعراق القديم — فإن معلوماتنا الحالية لا تسمح لنا

---

(١) سليمان البدر : دراسة تاريخية لمنطقة الخليج العربي أثناء الألفين الثاني والأول قبل الميلاد — رسالة دكتوراه — الإسكندرية ١٩٧٦ ص ٤١ ، وكذا : حسين جعفر منديل : الآثار في أبو ظبي — مؤتمر الآثار السادس ، ١٩٧١ ص ١ وكذا

K. Thorvildsen, Burial Cairns on Umm-an-Nar, Kumal, 1962, P. 219.

(٢) De Cardi (B.), Excavations at Bampur, S.E. Iran, Iran, 6, 1968, P. 135.

(٣) A.S. Matheson, Persia, An Archaeological Guide, London, 1972, P. 274.

(٤) سليمان البدر : المرجع السابق ص ٥١ ، وانظر : B. De Cardi, op. cit., P. 135.

(٥) سليمان البدر : المرجع السابق ص ١٢٨-١٢٩ ، وكذا

B. De Cardi, CAH, I, Part, II, P. 453.

(٦) سليمان البدر : المرجع السابق ص ١٣٠ ، وكذا G. Bibby, op. cit., P. 354.

(٧) A.H. Masry, op. cit., P. 2.

بتحديد العصر الذي ينتهي فيه العصر الحجري القديم ، ويبدأ فيه العصر الحجري الحديث ، أو العصر التاريخي في بلاد العرب ، فإن ذلك ما زال متوقفاً على الأبحاث الأثرية .

على أن هناك حقيقة هامة تتلخص في أن الهجرات بدأت تفد إلى مصر من بلاد العرب منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، وإلى العراق قبل بداية الألف الثالثة قبل الميلاد[١] ، ذلك لأن شبه الجزيرة العربية ، فيما يرى غالبية العلماء — ومنهم سبرنجر[٢] وايرهارد شرادر[٣] ، وهربرت جريمة[٤] وروبرتسون سمث[٥] وكارل بروكلمان[٦] وكنج[٧] وجون ماير[٨] وستانلي كوك[٩] ، ورايت[١٠] وهوجو فنكلر وتيله والأب فنسان وجاك دى مورجان وكايتاني[١١] وديتلف نلسن[١٢] وفريتز هومل[١٣] وفلبي[١٤] وسايس[١٥] وحسن ظاظا[١٦] وسبتينو موسكاتي[١٧] وغيرهم—

---

(١) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص١٢٤ ؛ قارن : نجيب ميخائيل : المرجع السابق ١٨٢/٣-١٨٣ .

(٢) A. Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861, P.241.
وكذا A. Sprenger, Alte Geographie Arabiens, 1875, P. 293.

(٣) E. Shrader, ZDMG, 27, 1873, P. 397F.

(٤) H. Grimme, Mohammed..., 1904, P. 6F.

(٥) R. Smith, Kinship and Marriage in Early Arabia, P. 178.

(٦) C. Brocklemann, Grundriss der Vergleichenden Grammatik der Semitischen, Sprachen, Berlin, 1908, 1, 2.

(٧) L.W. King, History of Sumer and Akkad, London, 1915, P. 119.

(٨) J.L. Meyers, in CAH, I, 1923, P. 28.

(٩) S.A. Cook, in CAH, I, 1923, P. 192.

(١٠) E. Wright, Comparative Grammar of Semitic Languages, P. 8.

(١١) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٢) D. Nielsen, Handbuch, I, 1927, 47, 55.

(١٣) F. Hommel, Ethnologie und Geographie des Alten Orient, 1926, P. 10.
وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 14.

(١٤) J.B. Philby, The Background of Islam, P. 9F.

(١٥) A.H. Sayce, Assyrian Grammer, 1872, P. 13.

(١٦) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٥-١٦ .

(١٧) S. Moscati, Histoire et Civilisation des Peuples Semitiques, P. 32-3.

يرون أن الموطن الأصلي للساميين إنما هو شبه الجزيرة العربية[1] ، ذلك الخزان البشري الشهير ، الذي لم يتوقف عن أن يقذف – كإقليم طرد وكصحراء فقيرة ، ولكنها ولود – بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة ؛ وإلى وادي النيل ، عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق سيناء[2] .

ورغم اختلاف أصحاب هذه النظرية في المكان الذي كان الموطن الأصلي للساميين من الجزيرة العربية – فيما بين أواسط شبه الجزيرة العربية ولا سيما نجد ، وبين العروض ولا سيما جزيرة البحرين والسواحل المقابلة لها ، وبين الأقسام الجنوبية من بلاد العرب[3]– فالذي لا شك فيه أن الجزيرة العربية هي موطن الساميين الأول ، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير حركات القبائل السامية من البادية إلى أودية الأنهار الخصبة ، والتي بدأت منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولم تتوقف على الإطلاق حتّى الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي .

وهكذا انطلقت من شبه الجزيرة العربية هجرات ضخمة تتدفق في موجات متتابعة تشق طريقها إلى الأراضي الخصبة ، ويذهب بعض العلماء إلى أن الفترة بين الموجة والتي تليها تبلغ زهاء ألف عام[4] ، ولعل من أشهر هذه الموجات موجة

---

(١) أنظر مقالنا : الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي ، مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الرابع ، الرياض ١٩٧٤م ص ٢٤٥-٢٧١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(٣) A. Sprenger, op. cit., P. 241

وكذا J. Hastings, A Dictionary of the Bible, 1904, P. 74.

وكذا J. Montgomery, Arabia and the Bible, P. 126

وكذا J.B. Philby, op. cit., P.9.

وكذا W. Warrell, A Study of Races in Ancient Near East, 1927, P. 45, 94.

(٤) H, Winckler, The History of Babylonia and Assyria, N.Y., 1907, P. 18-22.

وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 21.

الأموريين[1] ، ثم الكنعانيين ــ أو الفينيقيين[2] ــ وأما ثالث الموجات فقد كانت الموجة الآرامية[3] .

وتشير الآثار المستخرجة من الأراضي فيما بين دجلة والفرات ، على أن أولى الهجرات السامية إنما بدأت حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م ، وأن هذه الاكتشافات لا تنفي فكرة وقوع هجرات سامية قبل هذا التاريخ[4] . فضلاً عن التي أتت بعده ، ومنها تلك التي كانت في بداية الألف الثالثة قبل الميلاد : والتي كان أصحابها على قدر غير قليل من الثقافة ، حتى أنهم استطاعوا على أيام سرجون الأول (حوالي عام ٢٣٥٠ ق.م) من أن يقيموا دولة اتسعت فتوحاتها حتى وصلت آسيا الصغرى ، وبدهي أنهم لن يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم على شعب ذى حضارة كالسومريين ، إلا إذا كانوا قد وصلوا إلى درجة من التقدم تجعلهم يعرفون كيف يستفيدون من غيرهم ، وتصبح لهم السيطرة على البلاد ، وأن تظل لغتهم الأصلية وكثير من مظاهر ثقافتهم ، ملازمة لهم قروناً طويلة ، ومن ثم يمكننا القول أن هؤلاء المهاجرين من بلاد العرب إلى العراق قبل خمسة آلاف سنة ، لم يكونوا قوماً بدائيين ، بل كانوا ذوى ثقافة خاصة بهم ، كما كان لهم نظمهم وحياتهم الاجتماعية[5] .

❖❖❖❖

(١) أنظر : كتابنا « إسرائيل » ص ٣٢١-٣٢٣ .
(٢) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٣٣٤-٣٣٧ .
(٣) أنظر كتابنا « إسرائيل » ش ٣٣٧-٣٤٢ .
(٤) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ١٨٢/٣-١٨٣ .
(٥) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٢٤ .

الفصل السابع

دولة معين

(١) معين والمعينيون :

يتفق العلماء — أو يكادون — على أن دولة معين ، إنما هي أول دولة نستطيع أن نلمح بعض معالمها وسط ضباب التاريخ القديم لبلاد العرب الجنوبية ، وأنها — طبقاً للنقوش التي تركتها في شمال اليمن حول بلدة معين — قد قامت في منطقة الجوف ، بين نجران وحضرموت ، وهي منطقة سهلة غرينية ، إشتهرت بنخيلها وأخشابها ومراعيها ، التي تعتمد على مياه «الخاردن» ، وعلى الأمطار التي تسقط هناك ، فتكوّن سيولاً تسيل في أودية ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله ، أن الجبال تحيط بها من جهات ثلاث ، مما يكّون حماية طبيعية لها ، لتبين لنا إلى أي مدى ساعدت تلك العوامل الطبيعية على أن تكون منطقة الجوف هذه ، مركزاً هاماً للحضارة في اليمن القديم[١] .

ومصادرنا الأصلية عن دولة معين ، إنما هي الكتابات التي تركها أصحاب هذه الحضارة ، فضلاً عن كتابات الرحالة القدامى من الأغارقة والرومان[٢] ، من أمثال

---

(١) زيد بن علي عنان : تاريخ اليمن القديم ص ٩٥ .

(٢) J.B. Philby, The Background of Islam, 1947, P. 141.

« ديودور الصقلي » (من القرن الأول الميلادي) ، و « سترابو » (٦٦ ق.م– ٢٤م) ، الذي دعاهم (Minae=Meinaioi) ، وأن عاصمتهم « قرناو » (Carna=Karna) وأما موقع بلادهم فقد رآه في الشمال من سبأ وقتبان ، وإلى الغرب من حضرموت[1] ، أضف إلى ذلك أن « ثيوفراستوس » قد ذكر – إلى جانب سبأ وقتبان وحضرموت – أرضاً دعاها «Mamali» ، رأى « أوليري » أن المراد بها « معين » (Minaea) ، وأن تحريفاً حدث في النسخ ، ومن ثم فقد صارت «Mamali»[2] ، وأما « بليني » (٣٢–٧٩م) ، فقد وضعهم على حدود حضرموت[3] .

وأما المصادر العربية ، فلا علم لها بهذه الدولة ، وإن عرفت إسم « معين » و « براقش » ، على أنهما موضعان في الجوف ، أو محفدان من جملة محافد اليمن وقصورها القديمة ، كما أنها جعلتهما من أبنية « التبابعة »[4] .

ويذهب « فريتز هومل » إلى أن صحة اللفظ ، إنما هو « معان » ، وليس معين ، وأن معان إنما هو النطق القديم جداً للكلمة[5] ، وربما كان « الويس موسل »[6] و « فيليب حتى » يريان نفس الرأي ، من أن لفظة معان العربية (والتي جاءت في التوراة تحت إسم ماعون ومعون ومعين ، على اعتبار أنها إسم موضع)[7] قد أصبحت بعد ذلك « معين » بمعنى ماء نبع[8] ، ومن ثم فقد رأى البعض أن هؤلاء المعينيين

---

(١) Diodorus of Sicily, 3, 42 (London, 1946) وكذا Strabo, Geography, XVI, 768.

(٢) O'leary (De Lacy D.D.), Arabia Before Muhammad, London, 1927, P. 93.

(٣) جواد علي ٢/٧٣–٧٤ وكذا Pliny, Natural History, 6, 28-32, 12, 30

(٤) البكري ١/٢٣٧–٢٣٨ ، ياقوت ١/٣٦٤ ، ٣/٢٣٥ ، ٥/١٦٠ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٦٧–١٦٨ ، ٢٠٣ ، الإكليل ٨/١٠٥ .

(٥) فريتز هومل : التاريخ العربي القديم ص ٦٣ .

(٦) الويس موسل : شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبدالمحسن الحسيني ص٢–١٠ (الإسكندرية ١٩٥٢).

(٧) قضاة ١٠ : ٢ ، أخبار أيام ثان ٢٦ : ٧ .

(٨) P.K. Hitti, History of Arabis, London, 1960, P. 55.
وكذا James A.Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia,1934, P.183.
وكذا EP, P. 3065.

المذكورين في التوراة ، إنما هم سكان النقب ، وحتى سيناء[1] ، بينما ذهب فريق آخر إلى أنهم سكان منطقة معان التي تقع إلى الجنوب الشرقي من البتراء[2] ، هذا وقد ذهب فريق ثالث إلى أنهم أهل « العلا » (ديدان) ، على أن التوراة قد جعلتهم من سكان النقب في بعض نصوصها . بينما جعلتهم في نصوص أخرى من القبائل العربية[3] .

هذا ويرى «فريتز هومل» أن كلمة «مجان» التي جاءت في نقش للملك الأكدي « نرام سن » يقول فيه أنه « أخضع بلاد مجان ، وأخذ مانيوم أمير مجان أسيراً »[4] إنما هو تحريف لإسم إقليم « معين » في اليمن[5] ، بل إن هناك رأياً غريباً – بعيداً عن المنطق الزمني والمنطق التاريخي – يذهب إلى أن « مجان » هذه التي جاء ذكرها في النص الآنف الذكر ، إنما هي « مصر » وأن « مانيوم ((مانو دانو) إنما هي تحريف لإسم « مني » (مينا) أول ملوك الأسرة الأولى الفرعونية[6] .

والرأي عند الدكتور حسن ظاظا أنه من المحتمل أن يكون لفظ « مجان » هو في الأصل « معان » في أقصى الشمال من الحجاز شرقي خليج العقبة ، وليس قرب

---

(١) J. Hastings, op. cit., P. 619.

(٢) الويس موسل : المرجع السابق ص ٩ ، وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 183.

(٣) أخبار أيام أول ٤ : ٤١ ، أخبار أيام ثان ٢٦ : ٧
وكذا J. Hastings, op. cit., P. 619 وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 183

(٤) Jean Bottero, The Near East, The Early Civilizations, London, 1967, P. 126.
وكذا L.W. King, Studies in Eastern History, I, P. 15. وكذا A. Grohmann, Arabien, P. 21
وكذا F. Thureau-Danging, Les Inscriptions de Summer et d'Akkad, Paris, 1905, P. 238-9 وكذا CAH, I, 1923, P. 415.

(٥) Henri Fleisch, Introduction a l'Etude des Langues Semitiques, Paris, 1947, P. 90.

(٦) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٤١٨
وكذا A.H. Sayce, Menes and Naram-Sin, JEA, 6, 1920, P. 296.
وكذا S. Langdon, JEA, 7, 1921, P. 121F
وكذا W.F. Albright, in JEA, 6, 1920, P. 89F.

هذا المكان من العراق هو الذي يدعو إلى ترجيح هذه الفكرة ، ولكن إسم هذا الأمير الذي كان يحكم الإقليم « مانيوم » الذي يبدو أنه نطق أشوري للإسم العربي « معن » (بالضم والتنوين) ، وهو شائع في أسماء عرب الشمال ، نادر في عرب الجنوب ، لا نجده فيما نعلم في النقوش اليمنية ، بينما يقابلنا بكثرة جداً في الشعر العربي الجاهلي ، وفي النقوش العربية القديمة التي عثر عليها في الشمال كالنقوش الصفوية مثلاً[1] .

على أن موقع « مجان » هذه ، قد أثار جدلاً طويلاً بين العلماء ، فذهب « هوجو فنكلر » إلى أنها في الأقسام الشرقية ، من شبه جزيرة العرب[2] ، وذهب آخرون إلى أنها «جرها» (جرعاء) على ساحل الإحساء[3] ، بينما ذهب فريق ثالث إلى أنها إنما تقع على مقربة من ساحل الخليج العربي في موضع « مجيمنة » جنوب « يبرين »[4] ، وذهب «فلبي[5]» إلى أنها على مقربة من الساحل عند مصب وادي شهبة ، وهي البقعة التي نشأت فيها مملكة مجان القديمة .

ويذهب « كيتاني » إلى أنها « مدين » ، والتي كانت حوالي الألف الخامسة قبل الميلاد كثيفة الأشجار ، وكان البابليون يأخذون منها الذهب والنحاس والأخشاب ، ويعارض « موسل » هذا الإتجاه ، محدداً موقع مجان على ساحل الخليج العربي[6] ، على أن هناك فريقاً سادساً إنما يذهب إلى أنها منطقة « عُمان » — أي الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية[7] — .

---

(١) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٢٦ .

(٢) E. Schrader, Die Keilschriften und des Alte Testament, P. 15F.

(٣) O'leary, op. cit., P. 47.

(٤) Major. R.E. Cheesman, In unkonwn Arabia, Londoe, 1925, P. 266.

(٥) J.B. Philby, The Empty Quarter, P. 119F.

(٦) A. Musil, Northern Nejd, P. 307.

(٧) W. F. Leemans, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960 P. 12.

وأخيراً ، فلقد حاول بعض المؤرخين أن يحدد موقعها بخط طول ٥٥ شرقاً ، وخط عرض ٢٤ شمالاً ، وبحوالي ٤٥٠ ميلاً إلى الشمال الغربي من مسقط ، وأن كلمة « مجان » إنما تتكون من الكلمة السومرية «Ma» بمعنى ميناء أو أرض السفن ، وذلك بسبب شهرة أهلها في ركوب السفن ، فضلاً عن أن هناك نصاً يرجع إلى أيام « دونجي » (أحد ملوك أور حوالي عام ٢٤٥٠ ق.م) يحدثنا عن صناع السفن من « مجان » ، وأن النصوص المسمارية قد وصفتها بأنها « جبل النحاس » ، كما أطلقت عليها النصوص السومرية « أرض الدولوريت » ، ومن ثم فإن الإشارة إلى مجان على أنها جبل النحاس ، تدفعنا إلى أن ندخل في دائرتها منطقة الجبل الأخضر بعمان ، حيث يوجد النحاس ، وهكذا يبدو واضحاً أن لدينا من القرائن القوية التي تقربنا من وضع مجان كرادف صحيح لعمان ، لأن كل ما ذكر آنفاً إنما هو موجود في عمان[١] .

وأياً ما كان الأمر بالنسبة إلى موقع « مجان » وصلتها بمعين ، فإن هناك من ذهب — قبل عصر الإكتشافات الحديثة — إلى أن المراد بلفظ «Minaei» إنما هم « المنائيون » نسبة إلى « منى » في مجاورات مكة المكرمة[٢] ، بل إن واحداً من المؤرخين المعاصرين ذهب إلى أن المعينيين إنما هم قوم عاد[٣] ، بينما ذهب آخرون إلى أنهم من بدو الأراميين الذين كانوا في أعالي جزيرة العرب قبل دولة حمورابي بعدة قرون ، فلما ظهرت هذه الدولة واقتبست حضارة السومريين — الدينية والتشريعية والإجتماعية — كان المعينيون في جملة القبائل التي نالت حظاً من ذلك كله[٤] ، وبعد فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق ، هاجر المعينيون— مع قبائل أخرى — من العراق والتمسوا مقراً متحضراً يقيمون فيه ، فنزلوا اليمن في إقليم

---

(١) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ١٣٣ .
(٢) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ١١٥ .
(٣) أمين مدني : العرب في أحقاب التاريخ ١٢٨/٢ .
(٤) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١١٨ .

الجوف وشيدوا القصور والمحافد على مثال ما شاهدوه في بابل[١] ، ويقدم هذا النفر من الباحثين أدلة على زعمهم هذا ، منها — فيما يرون — إشتراك المعينيين والأراميين في أسماء الأشخاص وأسماء المعبودات ، ومنها الإشتراك في أسس المعتقدات وطرق العبادة[٢] .

على أن أرجح الآراء — فيما نعتقد ونميل إلى الأخذ به — أن المعينيين من جنوب شبه الجزيرة العربية ، وأنهم لم يفدوا من الشمال كما زعم البعض[٣] ، وإن كانوا قد حققوا سيطرة على الطرق التجارية بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، وقد كانت وقت ذاك وسيلة نقل الطيب والبخور ، كما كانت تمتد في الشمال من غزة حتى مصر من ناحية ، ومن غزة إلى الشام من ناحية أخرى ، ومن ثم فقد أسسوا هناك مركزاً خاصاً بهم يبعد عن اليمن بحوالي ١٠٠٠ كيلومتراً ، وتفصل بينه وبين اليمن بلاداً عربية أخرى تقع على الطرق التجارية[٤] ، ثم سرعان ما بدأ نفوذهم السياسي يتسرب نحو الشمال بالتدريج ، حتى انتهى الأمر بسيطرتهم على شمال الحجاز ، ممثلاً في الحكومات المحلية في منطقة معان والعلا ، وكما يقول « الويس موسل » فإنه خلال الألف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب واقعاً في يد السبئيين والمعينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، وكان السبئيون والمعينيون أبناء جنس واحد ولكنهم كانوا يتنافسون على السيادة ، لا في بلادهم فحسب ، بل في الواحات التي كانت تمر بها الطرق التجارية كذلك[٥] .

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ١/٢٣ .

(٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١١٧—١١٩ .

(٣) Guidi (I.), L'Arabie Anteislamique, Paris, 1921, P. 64.

وانظر : السيد عبد العزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام ص ١٤٣ .

(٤) فريتز هومل : المرجع السابق ص ٥٧ .

(٥) الويس موسل : شمال الحجاز ص ١ .

(٢) عصر دولة معين :

لقد دار – وما يزال – جدل طويل حول عصر الدولة المعينية ، والفرق بين السنوات التي يقدمها العلماء جد شاسع ، حتى أننا نرى آراء تذهب إلى أنها إنما كانت بين الألف الثالثة والثانية ق.م ، بينما تأخرت بها آراء أخرى إلى النصف الثاني من الألف الأولى ق.م ، ذلك أن « إدوارد جلازر » يذهب إلى أن الأبجدية التي استعملها المعينيون في كتاباتهم إنما ترجع إلى الألف الثانية ، وربما الثالثة ق.م ، وهذا يعني أن تاريخ القوم إنما يرجع إلى ما قبل هذه الفترة[١] .

ويتجه « فريتز هومل » إلى أن دولة معين قد بدأت فيما بين عامي ١٥٠٠ ، ١٢٠٠ ق.م ، وانتهت حوالي عام ٧٠٠ ق.م ، بل نراه يحدد حوالي عام ١٣٠٠ ق.م، كبداية لظهور معين على مسرح التاريخ ، وأما الحضارة والكتابة المعينية فيجب أن تكون أقدم من هذا التاريخ ، وربما ترجع إلى منتصف الألف الثانية ق.م ، ومن ثم فهو يرى أن دولة معين كانت سابقة لدولة سبأ ، معتمد في ذلك على أن « جلازر » قد عثر على نقوش سبئية قديمة (جلازر ٤١٨ ، ٤١٩ ، ١٠٠٠) ، وفيها نقرأ عن سقوط الدولة المعينية على يد أحد حكام سبأ[٢] ، وأن النقش الكبير ، والمعروف بنقش صرواح[٣] ، يدلنا على أن العصر الذهبي لدولة معين ، إنما كان قبل ارتفاع شأن السبئيين[٤] .

هذا وقد حدد « فلبي » لدولة معين الفترة (١١٢٠–٦٣٠ ق.م)[٥] ، بينما ذهب فريق آخر من العلماء (ومنهم هاليفي وموللر وموردتمان وماير وسبرنجر

---

(١) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام – الجزء الثاني – ص ٧٧ وكذا
Eduard Glaser, Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens, P. 110, 330.

(٢) فريتز هومل : المرجع السابق ص ٦٤–٦٥ ، وكذا EI, 4, P. 13 وكذا BASOR, 73, 1959, P. 5

(٣) أنظر : أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٦٢–١٦٥ .

(٤) فريتز هومل : المرجع السابق ص ٦٥ .

(٥) J.B. Philby, op. cit., P. 141.

وليدزبارسكي) إلى أن ظهور دولة معين لا يمكن أن يتجاوز الألف الأولى قبل الميلاد[1] ، ولعل « ملاكر » يرى نفس الرأي ، وإن كان أكثر تحديد في تأريخه ، إذ جعل قيام دولة معين في عام ٧٢٥ ق.م ، ونهايتها في القرن الثالث ق.م[2] ، ولعل قريباً من هذا ما ذهب إليه «أوليري» من أن كتابات المسند جميعها – سواء أكانت معينية أو سبئية – لا ترجع في تأريخها إلى أقدم من عام ٧٠٠ ق.م ، وربما إلى القرن الثامن ق.م[3] .

ويذهب « وينت » إلى إعتبار سبأ وديدان أقدم الدول العربية ، معتمد في ذلك على ما ورد في التوراة[4] من قدم سبأ ، ومن ثم فإنه يرى أن قيام دولة معين لا يمكن أن يتجاوز عام ٥٠٠ ق.م ، وأن نهايتها إنما كانت فيما بين عامي ٢٤ ق.م ، ٥٠م[5] ، وأما « موسكاتي » فالرأي عنده أن الحفائر الحديثة وتطبيق « العملية الراديوكربونية » (Radiocarbon Precess) تشير إلى تعاصر دولتي سبأ ومعين ، وأن قيام دولة معين إنما كان حوالي عام ٤٠٠ ق.م[6] ، وأما « وليم أولبرايت » فقد حدد نفس العام (٤٠٠ ق.م) كبداية لدولة معين ، كما جعل نهايتها فيما بين عامي ٥٠ ، ٢٥ ق.م[7] ، ثم عاد بعد ذلك فعدّل تواريخه ، فجعل عام ٣٥٠ ق.م ، كبداية لقيام

(١) جواد علي ٧٧/٢
وكذا ZDMG, XIVII, P. 400 وكذا EI, 4, P. 13
وكذا Wissman and Hofner, op. cit., P. 105, 115
(٢) فؤاد حسنين : التاريخ العربي القديم ص ٢٧٣ .
(٣) جواد علي ٧٨/٢ وكذا O'leary, op. cit., P. 95
(٤) تكوين ١٠ : ٧ ، ٢٨ .
(٥) BASOR, 73, 1939, P. 8.
(٦) Sabatino Moscati, Ancient Semitic Civilizations, P. 174.
(٧) W.F. Albright, The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban, in BASOR, 119, 1950- P. 5-15, 129, 1953, P. 22.

الدولة ، وأما النهاية ففي الفترة ما بين عامي ١٠٠ ، ٥٠ ق.م[1] ، وأخير فهناك من جعل نهاية دولة معين في حوالي عام ١٠٠ م[2] .

وهكذا يبدو واضحاً مدى الخلاف بين العلماء على وقت قيام دولة معين ونهايتها ، وكيف أن الفرق بين التقديرات المختلفة جد شاسع ، وهنا لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا التفاوت الزمني يؤثر تأثيرا كبيرا في معرفتنا للدول العربية الأخرى ، وذلك لأن قيام كل دولة عربية جنوبية مرتبط بالأخرى ، بخاصة إذا ما سلمنا بأن الدولة السبئية قامت على أنقاض الدولة المعينية ، ومن ثم فإن ظهور سبأ على مسرح التاريخ العربي ، يجب أن يكون في رأي هؤلاء العلماء معاصرا لفترة الإضمحلال التي مرت بها دولة معين[3] .

أضف إلى ذلك كله ، أن الذين انتهوا بالدولة في فترة مبكرة ، ترجع إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون ، أو حتى الذين وصلوا بها إلى ما قبل الميلاد بقرن من الزمان ، قد يزيد أو ينقص قليلاً ، تجاهلوا أن الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان — ومنهم سترابو وبليني وديودورالصقلي — قد أشاروا إلى المعينيين وتجارتهم ، بل إن بطليموس (١٣٨—١٦٥ م) والذي أخرج كتابه « الجغرافية » حوالي عام ١٥٠م ، قد وصفهم بأنهم « شعب عظيم » ، فضلاً عن أن الكتابات المعينية في الجيزة ، إنما تشير إلى إشتغالهم بتجارة الطيب والبخور في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، ولعل هذا كله هو الذي دفع « أوليري » إلى القول بأن المعينيين كانوا نشيطين إلى ما بعد الميلاد ، وربما كانت نهاية دولتهم على أيام البطالمة أو الرومان ، إلا أن تحقيق ذلك — على

---

(١) BASOR, 176, 1964, P. 51. وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 434

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 434.
وكذا J. Pirenne, Le Royaume Sud-Arabe de Qataban et Sa datation, 1961, P. 7.

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

ضوء معلوماتنا الحالية — أمر لا نستطيع أن نقول فيه كلمة نزعم أنها القول الفصل : أو أنها أقرب إلى الصواب من غيرها[١] .

وأما بداية دولة معين ، فلعلنا إن إعتمدنا على التوراة ، لكان رأي الذين يرجعون بها إلى الألف الثانية ق.م ، صحيحاً إلى حد كبير ، ذلك أن سفر القضاة يحدثنا أن الصيدونيين والعمالقة والمعونيين كانوا يضايقون بني إسرائيل[٢] ، وإذا كان خروج بني إسرائيل من مصر — كما رجحنا في كتابنا إسرائيل — قد تم على أيام « مرنبتاح » (١٢٢٤—١٢١٤ ق.م)[٣] ، فإن عصر القضاة سوف يكون في الربع الأخير من الألف الثانية ق.م ، وإذا كان المقصود بالمعونيين هنا ، الجالية المعونية في شمال غرب الجزيرة العربية، فإن دولة معين لا بد وأن تكون قد قامت قبل هذه الفترة ، وربما في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد .

ونقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني .إشارات عن حرب دارت رحاها بين «يهوشافط» من ناحية ، وبين بني مؤاب وبني معون والعمونيين من ناحية أخرى[٤] ، وهذا يعني أن المعونيين كان لهم وجود على أيام الملك اليهودي « يهوشافط » (٨٧٣—٨٤٩ ق.م) — أي في القرن التاسع قبل الميلاد — ووفقاً لما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (٢٦ : ٧) ، فإن الملك « عزيا » (٧٧٩—٧٤٠ ق.م) قد حطم العرب الذين كانوا يسكنون في « حوربعل » ، كما حطم أهل معون ، ويفهم من نصوص التوراة هذه أن هؤلاء العرب كانوا يسكنون في الإقليم الواقع في الجنوب والجنوب الشرقي من البحر الميت — أي في نفس الإقليم الذي تقع فيه واحة معان[٥] ، ومعنى هذا

---

(١) مطهر علي الأرياني : في تاريخ اليمن ص ١٥ ، إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٢٤٥ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٦٩ ، وكذا جواد علي ٢/٨٠ . وكذا O'leary, op. cit., P. 94-5 وكذا Ptolemy, Geography, VI, 7, 23. وكذا BASOR, 73, 1939, P. 94-5.

(٢) قضاة ١٠ : ١٢ .

(٣) راجع كتابنا « دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم » — الجزء الثاني — إسرائيل — القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٦٨—٣٠٣ .

(٤) أخبار أيام ثان ٢٠ : ١ ، ١٠ ، ٢٢ .

(٥) الويس موسل : المرجع السابق ص ٣ .

— مرة أخرى — أن المعينيين كانوا أصحاب مستعمرات في شمال بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد ، ولعل هذا كله إنما يعضد فكرة البداية المبكرة لقيام دولة معين في حوالي الألف الثانية قبل الميلاد ، إلا إذا كانت « معون » التوراة ، لا صلة لها بمعين بلاد العرب ، وهو أمر لا يوافق عليه الكثير من الباحثين .

(٣) ملوك معين :

لقد توصل العلماء — عن طريق الرحالة والبعثات العلمية — إلى أسماء عدد من حكام معين ، إلا أن الأمر ما يزال موضع خلاف ، فيما يتصل بحكم هؤلاء الملوك ، ولعل السبب في ذلك يرجع (أولاً) إلى عدم الإتفاق بين العلماء على فترة حكم دولة معين ، وكذا على وقت سقوطها ، ويرجع (ثانياً) إلى أن الكتابات المعينية نفسها غير مؤرخة طبقاً لأي تقويم من التقاويم ، فضلاً عن أنها لم تقدم لنا الفترة الزمنية التي استغرقها حكم هؤلاء الملوك — كأفراد أو جماعات — ويرجع (ثالثاً) إلى أنها في جوهرها كتابات شخصية ، أكثر منها سياسية ، ومن هنا بات من الصعب على العلماء أن يتفقوا على قوائم ثابتة وصحيحة لملوك معين ، أو لمدد حكمهم[١] .

وقد رتب « هومل » ملوك معين في ثلاث أسرات ، تتكون الواحدة منها من أربعة ملوك ، ثم أسرة رابعة من ملكين[٢] ، بينما رتبهم « كليمان هوارت » في سبع طبقات ، مجموعها ٢٢ ملكاً ، تتكون الأولى من أربعة ملوك ، والثانية من خمسة ، والثالثة من أربعة ، والرابعة من اثنين ، والخامسة من ثلاثة ، بينما تتكون السادسة والسابعة من ملكين[٣] ، هذا وقد قدم لنا كذلك كل من « موللر » و « اوتووبير » و « موردتمان » و « ريكمانز » قوائم بملوك معين[٤] .

---

(١) جواد علي ٢/٨١ .
(٢) جواد علي ٢/٨٢ وكذا F. Hommel, Grundriss, I, P. 136.
(٣) جواد علي ٢/٨٢ وكذا C. Huart, Geschichte der Araber, I, P. 56
(٤) جواد علي ٢/١٢٤–١٢٨ وكذا F. Hommel, op. cit., P. 136 وكذا Mordtmann, ZDMG, 47, 1893, P. 397-417 وكذا J. Ryckmans, L'Institution Monarchique en Arabie Meridionale avant L'Islam, P. 335.

وأما « جون فلبي » فقد رتبهم في خمس أسرات : تفصل الواحدة عن الأخرى فترة مظلمة لا نعرف عنها شيئاً ، كما أن فترة حكم كل أسرة تقوم على الفرض والتخمين ، لا على الحقيقة والواقع ، فهو مثلاً يقدر أن فترة حكم الملك لا تتجاوز العشرين عاماً ، وأن فترة الانتقال بين الأسرة والأخرى تبلغ أيضاً عشرين عاماً[1] ، ويضع « فلبي » على رأس الأسرة الأولى « إل يفع وقه » ، متخذاً من عام ١١٢٠ ق.م، بداية لحكمه ، بينما يجعل « تبع كرب » (٦٥٠-٦٣٠ ق.م) الملك الأخير من الأسرة الخامسة[2] .

وفي عام ١٩٥٠م ، قدم لنا « وليم أولبرايت » قائمة تتكون من سبعة عشر ملكاً ، ثم ذكر أن هناك ما لا يقل عن خمسة ملوك لا يعرف فترة حكمهم[3] ، وفي عام ١٩٥٣م ، أعاد « اولبرايت » دراسة القوائم ثم قدمها لنا في ثلاث مجموعات ، تتكون الأولى من ١٢ ملكاً ، والثانية من ٦ ملوك ، والثالثة من ٣ ملوك[4] .

ولعل من أهم الأحداث التي روتها النقوش ما كان في عهد الملك « أب يدع يثع » عن حرب وقعت بين الجنوب والشمال ، ذلك أن نقوش (جلازر ١١١٥ ، هاليفي ٥٣٥ ، ٥٧٨) إنما تتحدث عن حرب وقعت بين « ذيمنت » و « ذشامت »[5] وكذا عن حرب أخرى وقعت بين « مذى » و « مصر » في وسط مصر[6] ، وأن المقصود من الكتابة إنما هو شكر لآلهة معين (عثتر ، ود ، نكرح) على نجاة القافلة المعينية من أضرار الحرب الأولى والثانية ، ووصولها إلى « قرناو » .

ويبدو أن القوافل بما تحمله من أموال ، كانت كثيراً ما تتعرض لهجوم من القبائل ومن العشائر ، فضلاً عن قطاع الطرق ، وهي وإن أمنت على نفسها بحماية من

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

(٢) J.B. Philby, The Background of Islam, P. 141.

(٣) W. F. Albright, BASOR, 119, 1950, P. 11.

(٤) W. F. Albright, BASOR, 129, 1953, P. 22.

(٥) جواد علي ٨٨/٢ .

(٦) جواد علي ٨٩/٢ .

الحكومة ، وباتفاق مع سادات القبائل نظير مبلغ من المال ، فهي لا تأمن على نفسها من القبائل المعادية ، ومن ثم فلا غرابة إن نذر أصحاب القوافل لآلهتهم عند عودتهم سالمين من تجارتهم ؛ أو عادت قوافلهم سالمة[1] .

وأما عن الحرب التي استعر أوارها بين الشمال والجنوب ، فالرأي عند « هوجو فنكلر » أنها كانت بين حكومة معين وحكومة عربية أخرى : هي حكومة « أربي » ، والتي كان نفوذها يمتد حتى دمشق[2] ، على أن الكتابة نفسها ، إنما حددت موضع الهجوم على القافلة بين معين (أو مادان) وبين رجمت[3] .

وقد قام جدل طويل بين العلماء فيما يختص بالحرب التي دقت طبولها بين « مذى » ومصر ، وكان أشد الجدل يدور حول المقصود بمذى هذه ، وحول تاريخ هذه الحرب ، فذهب فريق إلى أنهم « الماذيون » أي الماديون (الميديون) ، والميديون — كما نعرف — قبائل إيرانية كانت منتشرة في منطقة تمتد من جبال « دوماوند » حتى مدينة « همدان » ، ثم استطاعوا تحت قيادة « كياكسارس » السيطرة على فارس ، واتخاذ مدينة « أكباتانا » (ومكانها الآن مدينة همدان) عاصمة لهم ، بل والتعاون مع البابليين في القضاء على أشور ، واحتلال « نينوى » في عام ٦١٢ ق.م ، ثم الإستيلاء على الجزء الشمالي من الإمبراطورية الآشورية . إلا أن الأمور سرعان ما بدأت تتغير في هضبة إيران ، عندما تولى العرش الفارسي « كيروش الثاني » في عام ٥٥٩ق.م ، والذي كتب له نُجْحاً بعيد المدى في القضاء على الميديين ، وفي أن يصبح سيد المنطقة كلها[4] ، إلا أن تاريخ الميديين لم يحدثنا عن حروب وقعت بينهم وبين مصر ، سواء أكان المقصود بها « مصر » (كنانة الله في أرضه) ، أو تلك الولاية « مصرو » في شمال بلاد العرب ، والأمر كذلك بالنسبة إلى تاريخ مصر على أيام الفراعين .

---

(١) جواد علي ٢/٩٠ .

(٢) Hugo Winckler, Musri, Meluhha, Main..., P. 20, 22.

(٣) H. Winckler, op. cit., P. 20 وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 53.

(٤) A. Gardiner, op. cit., P. 357.

هذا ويرى « جون فلبي » أن « مذى » إنما هم المديانيون ، وأن الحرب التي وقعت إنما كانت بين المديانيين – والذين كانت أرضهم تمتد من خليج العقبة إلى مؤاب إلى سيناء – وبين « معين موصرو[١] » ، وأما « هومل » فالرأي عنده أن « مذى » إنما هم جماعة من بدو سيناء[٢] ، ويذهب « ملاكر » إلى أن الحرب بين مذى ومصر ، إنما هي إشارة إلى الحرب التي كانت بين المصريين والفرس ، والتي انتهت باستيلاء « قمبيز » على مصر في عام ٥٢٥ ق.م[٣] ، على أن « وينت » – وربما البرايت كذلك – إنما يتجهان إلى أنها لا تشير إلى فتح مصر ، وإنما إلى استعادتها مرة ثانية على يد « ارتكزركسيس الثالث » (أخوس) في عام ٣٤٣ ق.م[٤] ، ولعل هذا هو السبب في أن بعض المراجع إنما تضع حكم « أب يدع يثع » في حوالي عام ٣٤٣ ق.م[٥] .

وأما « جاكلين بيرين » فالرأي عندها أن مذى إنما تعني السلوقيين بصفة عامة ، وأن مصر إنما تعني البطالمة وأن هذه الحرب قد وقعت فيما بين عامي ٢١٠ ، ٢٠٥ ق.م وربما تشير إلى الإستيلاء على غزة في حوالي عام ٢١٧ ق.م ، وإلى المعركة التالية عند « رفح » (Rapheia)[٦] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن المعينيين ، رغم أنهم شعب عربي جنوبي وأن دولتهم قد قامت في بلاد العرب الجنوبية ، إلا أنهم قد انتشروا في شمال بلاد

---

(١) J.B. Philby, op. cit., P. 54.

(٢) Le Museon, LXII, 3-4, 1949, P. 238.

(٣) جواد علي ٩٢/٢ وكذا le Museon, LXII, 3-4, 1949, P. 231. ، وانظر عن الحرب بين مصر وفارس : كتابنا « حركات التحرير في مصر القديمة » ص ٣٤٤–٣٦٢ (دار المعارف ١٩٧٦) وكذا A. Gardiner, op. cit., P. 363-365.

(٤) BASOR, 73, 1939, P. 8, 119, 1950, P. 11. وانظر كتابنا « حركات التحرير في مصر القديمة » ص ٣٩٧ – ٤٠١ . وكذا A.T. Olmstead, History of the Persian Empire, P. 406 وكذا R. Ghirshman, Iran, P. 201.

(٥) فؤاد حسنين : التاريخ العربي القديم ص ٢٧٢ ، وكذا BASOR, 129, 1953, P. 22.

(٦) Jacqueline Pirenne, Paleographie des Inscriptions Sud Arabes, I, 1956, P. 211.

العرب ، بل إن هناك من يذهب إلى أن نفوذهم قد إمتد حتى الخليج العربي شرقاً وغزة غرباً ، كما أن علاقاتهم التجارية قد امتدت إلى سورية وإلى بلاد اليونان ومصر ، بدليل العثور على كتابات معينية في جزيرة « ديلوس » ، إحدى جزر اليونان[١] ، فضلاً عن العثور على كتابات معينية أخرى في الجيزة ، وعند قصر البنات — عند منتصف وادي الحمامات — وفي منطقة إدفو[٢] (بمحافظة أسوان) ، وترجع بعض هذه الكتابات إلى أيام قمبيز (٥٢٥—٥٢٢ ق.م) ، وبعضها الآخر إلى أيام البطالمة[٣] ، بل لقد حددها بعض الباحثين بعام ٢٦٤ /٢٦٣ ق.م[٤] ، فإذا ما تذكرنا صلات مصر القوية بفلسطين في العصور الفرعونية ، وتذكرنا في الوقت نفسه أن دولة معين إنما كانت تحكم في فترة ازدهارها ، ما يقال له الآن الحجاز وحتى فلسطين ، وأن معين كانت دولة تجارية أكثر منها عسكرية ، لتبين لنا أن العلاقات بين مصر ومعين — وبخاصة في الأمور التجارية — إنما كانت أمراً طبيعياً[٥] .

على أن أهم المراكز المعينية خارج اليمن ، ما كان في الشمال الغربي لبلاد العرب ، حيث تقع واحة ديدان (العلا) ، وفي واحة معون — وهي معان الحالية[٦] — ويرى بعض الباحثين أن منطقة ديدان وما صاقبها من أراض إنما كانت بمثابة جزء من دولة معين ، التي كان ملوكها يقومون بتعيين ولاة من قبلهم لإدارة هذه المنطقة يطلقون

---

(١) BASOR, 73, P. 7.

(٢) BASOR, 73, P. 7 وكذا Le Museon , XLVIII, P. 228, LXII, 1-2, P. 56.
وكذا A.E.P. Weigall, Travels in the Upper Egyptian Deserts, London, 1909, P. 1, IV, fig. 13, 14.
وكذا H. Winckler, Rock-drawings of Southern Upper Egypt, I, London, 1938, P. 1

(٣) مطهر الإرياني : في تاريخ اليمن ص ١٥ .

(٤) A. Grohmann , Arabien, P. 26.

(٥) أنظر مقالنا : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية — جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية — العدد السادس ، ١٩٧٦م .

(٦) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٨٧ .

على الواحد منهم لقب « كبر » أي « كبير » ؛ ويعهدون إليه بإدارة شئون المنطقة والمحافظة على الأمن فيها ، ثم جمع الضرائب وإرسالها إلى « قرناو »[1] .

وكان بجانب هؤلاء الولاة ، حامية عسكرية وجالية تتألف من الأوساط التجارية في تلك الواحات ، وكانت هذه البقاع مورداً للكسب بالنسبة لأهل الواحات الأصليين ، وللقبائل التي كانت تقيم في مجاوراتها ، فكانت القبائل الشمالية تقدم لهذه الجاليات ما تحتاج إليه من القوت والثياب ، وكان لهم — من أجل ذلك — نوع من السيطرة والسيادة[2] .

وقد أدى ذلك إلى نتائج هامة ، منها (أولاً) إحتكاك الحكام المعينيين بحكام سورية وأشور عن طريق التجارة الرئيسي ، ومن ثم فلم يعن الأخيرون بتفهم النظم السياسية المختلفة للواحات المتفرقة التي تقع على طول هذا الطريق ، ولم يهتموا بالمفاوضات مع الملوك المحليين للإقليم وأشرافه ، وإنما اتجهوا إلى ذلك المقيم الجنوبي الذي كان معروفاً لديهم بإشرافه على الإقليم ، وكانوا يخلطون بينه وبين الملك الجنوبي — الذي كان هذا المقيم يعمل في خدمته — فذكروا اسمه ، كما لو كان هو الملك الجنوبي ، وهذا يفسر لنا الإشارات التي ترد في الوثائق السريانية والعبرية عن المعينيين والسبئيين ، وتذكرهم كما لو كانوا يقيمون في الجنوب الشرقي للبحر الميت[3] .

ومنها (ثانياً) أن دولة معين إنما كانت — كما أشرنا آنفاً — تحكم كل ما يقال له الحجاز الآن إلى فلسطين ، فلما ضعف المعينيون أصبحت سيادتهم مقصورة على ما يسمى « معين مصرو » ، التي ما لبثت أن أصبحت بعد فترة تحت سلطان السبئيين ، حين كتب لهؤلاء السيادة على الجنوب والشمال معاً ، وأخيراً أصبح زمام الأمور بيد « اللحيانيين » الذين كونوا دولة مستقلة هي دولة « لحيان »[4] ، والتي امتد نفوذها

---

(١) A. Musil, op. cit., P. 295.

(٢) الويس موسل : المرجع السابق ص ٨٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١ .

(٤) A. Musil, op. cit., P. 295.

في أيام ازدهارها — فيما يرى البعض — على الأرض الممتدة غربي النفود ، من شمال يثرب إلى ما يحاذي خليج العقبة ، والذي أطلق عليه « أجاثر خيدس » ، في القرن الثاني ق.م ، أسم خليج لحيان ، ثم حرف فيما بعد إلى « لات » (إيلات)[1] .

وقد قام جدل طويل بين العلماء — ولا سيما المتخصصين منهم في الدراسات التوراتية — حول « معين موصرو » هذه ، فذهب فريق منهم إلى أن كلمة « مصرايم » التي جاءت في التوراة ، لا تدل على « مصر » ، وإنما على الإقليم الواقع شمال بلاد العرب ، والذي يمتد غرباً حتى حدود مصر الشرقية ، ولهذا فإن ما يقال عن إقامة العبرانيين في مصر ، إنما يعني إقامتهم في جنوب فلسطين ، أو في شبه جزيرة سيناء ، وطبقاً لهذا الاتجاه ، فإن خروج بني إسرائيل لم يحدث من مصر ، وإنما من هذه المناطق المشار إليها ، ذلك لأن الباحث اليهودي « هوجوفنكلر » إنما يرى أن إسم « مصرايم » لم يكن إستعماله في البداية مقصوراً على الإشارة إلى مصر ، ولكنه كان يشمل كذلك الإقليم الذي سماه الجغرافيون البابليون « مصر أو موصرى » ، والذي يقع جنوب البحر الميت ، شمال شبه جزيرة العرب ، ويمتد غرباً حتى حدود مصر الشرقية ، ويضم جبل سعير ومدينة البتراء وأراضي مدين وأدوم .

ويعتقد « فنكلر » أن التقاليد اليهودية الأصيلة ، عندما تحدثت عن إقامة الآباء الأولين — وخاصة موسى — في مصرايم ، إنما كانت تشير إلى ذلك الزمن حيث عاش أسلاف العبرانيين في صحراء جنوب فلسطين ، ثم بدأ سكان كنعان يستخدمون إصطلاح « مصرايم » على المراعي الجنوبية — وكذا على مصر نفسها — ذلك البلد الذي يقع بالنسبة إليهم فيما وراء الصحراء ، ولعل مما يفسر هذا الإفتراض أن الوادي القريب من « غزة » سمي « نهر مصرايم » ، على الرغم من أنه على مسيرة ثلاثة أيام

---

(١) F.V. Winnet and W. Reed, Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1961, P. 116F.

وكذا A. Musil, The Northern Hegas, N.Y., 1926, P. 295.

من الحدود المصرية ، ومن هنا فمن الممكن أن يشير إسم « مصرايم » في بعض النصوص والتقاليد العبرية ، إلى الصحراء المصرية ، وليس إلى إسم «مصر» بالذات[1] .

وقد ناقشنا ذلك الأمر في كتابنا « إسرائيل »[2] ، وخرجنا من المناقشة بأن الأدلة العلمية ، والتقاليد الإسرائيلية ، وما ورد في التوراة من وصف لجو مصر وأحوالها ، وأثر الأدب المصري في كتب الإسرائيليين ، والنصوص التوراتية الصريحة التي تتحدث عن دخول الإسرائيليين مصر ، بل وذكر أسماء الداخلين منهم أرض الكنانة ، كل ذلك وغيره مما يؤكد أن المقصود هنا أرض الكنانة ،[3] هذا فضلاً عن أن ذلك أمر أجمعت عليه الكتب المقدسة الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن العظيم) ، وإنكارنا لأمر تجمع عليه الكتب المقدسة ، لا يتفق ومنهج البحث العلمي ، فضلاً عن تعارضه مع إيماننا بما جاء في كتب السماء .

وانطلاقاً من هذا ، وترتيباً عليه ، فإن « مصر » التي جاءت في قصة الإسرائيليين ، ليست هي « موصري » الواقعة في شمال غربي بلاد العرب ، وإنما هي « مصر » ، كنانة الله في أرضه ، ومن ثم فإن ما جاء في نص « تجلات بلاسر الثالث » (٧٤٥– ٧٢٧ ق.م) من أنه قد عين « أدبئيل » حاكماً على « موصري » فإنما يعني هذه المقاطعة العربية ، والتي تقع إلى الشمال من « نخل موصري » أي « وادي موصري »[4] .

---

(١) A. Lods, op. cit., P. 197-199 وكذا H. Winckler, op. cit., P 5.
وانظر كذلك : مادة Exodus في The Jewish Encyclopaedia

(٢) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٢٢٥–٢٣٧ .

(٣) A. Lods, op. cit., P. 169-170
وكذا G.E. Wright , Biblical Archaeology, 1957, P. 53F.
وكذا J.M. Smith, AJSL, 49, P. 172-84
وكذا J.H. Breasted, History of Egypt, P. 350.
وكذا J. Finegan, Light from the Ancient Past, P. 134
وكذا W.S. Smith, JBR, 19, P. 12-15.

(٤) J.H. Breasted, op. cit., P. 549 وكذا H. Winckler, op. cit., P. 5.
وكذا W.O.E. Oesterley, Egypt and Israel, in the Legacy of Egypt, P. 228.

وهناك من يرى أن « معين موصرى » لم تكن تابعة لحكومة معين الجنوبية ، وإنما كانت منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، وحتى القرن الأول قبل الميلاد ، مستعمرة معينية مستقلة ، وأن لقب « كبير » الوارد في نصوصها لا يعني بالضرورة أن يكون حامله تابعاً لحكومة معين الجنوبية ، وإنما هو لقب كان يحمله في « معين موصرى » سيد القوم وحاكمهم ، على أن أصحاب هذا الرأي إنما يربطون زوال هذه المستعمرة بزوال الدولة المعينية في الجنوب ، وربما كان ذلك في الوقت نفسه دليلاً على أن المستعمرة الشمالية ، إنما هي ولاية تخضع للحكومة الجنوبية في معين[1] .

(٤) أهم المدن المعينية :

بقيت نقطة أخيرة تتصل بالمدن المعينية ، والتي أهمها دون شك « قرناو » العاصمة — وتقع على مبعدة سبعة كيلومترات ونصف إلى الشرق من قرية الحزم ، مركز الحكومة الحالي في الجوف — وقد عرفت « قرناو » كذلك بمعين ، كما عرفها الكتاب القـــدامى من الأغارقة والرومان بإسم (Carna, Karana, Karna)[2] ، وأما الأخباريون ، فإن معين — في رأيهم — إنما هي من أبنية « التبابعة » ، وأنها حصن بني في نفس الوقت مع « براقش » ، وبعد « سلحين » الذي بني — فيما يزعمون — في ثمانين عاماً[3] .

وأما أهم آثار قرناو فمعبد « رصاف » الذي يقع خارج أسوار المدينة ، فضلاً عن آثار سكنى في مواضع متفرقة من المدينة ، التي يرى البعض أنها ظلت مأهولة بالسكان حتى القرن الثاني عشر الميلادي ، ثم بدأت الظروف تتغير ، فأخذ سكان المدينة يتناقصون شيئاً فشيئاً حتى تحولت آخر الأمر إلى خرائب[4] .

---

(١) J. Grohmann, Arabien, P. 277.

(٢) Richard, H. Sânger, The Arabian Peninsula, P. 237
وكذا O'leary, op. cit., P. 95

(٣) البكري ١/٢٣٧–٢٣٨ ، ياقوت ١/٣٦٤ ، ٣/٢٣٥ ، ٥/١٦٠ .

(٤) جواد علي ٢/١١٦ ، وكذا
Hermann Von Wissmann und Maria Hôfner, Beitrage Zur Historischen Geographie des Vorislamischen Sudarabien, Wiesbaden, 1953, P. 14.

وهناك كذلك المركز الديني الهام « ياثل » (براقش) ، والتي بقيت حتى أيام الهمداني (٣٣٤هـ=٩٤٥م) فوصف آثارها وخرائبها[١] ، وهي نفسها مدينة (Athlula = Athrula) — آخر موضع وصلته حملة إليوس جالليوس الروماني على اليمن في عام ٢٤ ق.م — وأما سبب التحريف في اسمها ، فهو صعوبة لفظية ، فيما يرى البعض[٢] ، ولعل إسم المدينة (ياثل) قد أصبح في العربية الفصحى « وثلة » ، فقد ذكرها « الفيروز أبادي » في القاموس إسماً لقرية ، وقال من ناحية أخرى « وذو وثلة قيل » يعني من أقيال اليمن[٣] .

و « براقش » عند الإخباريين مدينة قديمة جداً ، كان يسكنها عند ظهور الإسلام « بنو الأوبر من بلحارث بن كعب ومراد »[٤] ، وأما سبب تسميتها ببراقش فموضع خلاف عندهم ، فرواية تذهب إلى أنها سمت كذلك نسبة إلى « كلبة » عرفت ببراقش ، بينما تجعلها رواية أخرى « إمرأة » أسند إليها والدها تصريف أمور الدولة أثناء غيابه في واحدة من غزواته ، فما كان منها إلا أن اهتبلت الفرصة ، فبنت مدينتي براقش ومعين تخليداً لذكراها ، إلا أن ذلك قد أغضب والدها الملك ، ومن ثم فقد أمر بهدم المدينة ، وذهبت رواية ثالثة إلى أنها نسبة إلى براقش إمرأة لقمان بن عاد ، وهكذا يحاول المؤرخون المسلمون تفسير الأمور ببساطة تدعو إلى العجب ، إلا أنه مما لا شك فيه أن المثل المشهور « على نفسها جنت براقش » كان سبباً في هذه التفسيرات المتضاربة[٥] .

وهناك كذلك مدينة « نشق » (البيضاء) التي استولى عليها السبئيون في أيام « يدع أل بين » مكرب سبأ ، وهي نفسها — فيما يري البعض — (Mesca=Mescus)

---

(١) الإكليل ١٣٨/٨ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) H. Von Wissmann und M. Hofner, op. cit., P. 32.

(٣) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣١ .

(٤) البكري ٢٣٨/١ .

(٥) الميداني ١٤/٢—١٥ ، اللسان ٢٦٦/١ ، البكري ٢٣٨/١ ، البيان والتبيين للجاحظ ٢٢٢/١ .

التي ذكرها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان ، وهي (Aska) — عند سترابو — وقد استولى عليها « إليوس جالليوس » إبان حملته على اليمن[1] .

وهناك كذلك « نشان » (نشن) — وهي الخربة السوداء الحالية — وقد اكتشف هناك ما يشير إلى أن المدينة كانت مركزاً صناعياً هاماً[2] ، وهناك كذلك موضع « لوق » وهو — فيما يرى جلازر (Labecia) — الذي ذكره بليني (٣٢-٧٩م) من بين الأماكن التي استولى عليها « إليوس جالليوس » ، بينما هو « لبه » (Labbah) فيما يرى « فون فيسمان »[3] .

---

(١) جواد علي ٢/١١٨-١١٩ ، وكذا الإكليل ١٢٨/٨

وكذا H. Von Wissmann and M. Hôfner, op. cit., P. 32.

(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٦٧ ، محمد توفيق : آثار معين ص ١١ ، جواد علي ٢/١١٨ ،

وكذا H. Von Wissmann and M, Hofner, op. cit., P. 16

وكذا Handbuch, I, P. 70, 82-83.

(٣) جواد علي ٢/١١٩

وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 15

وكذا le Museon, 1964, 3-4, P. 435.

الفصل الثامن

دولة حضرموت

تقع حضرموت إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب ، ويصفها « ياقوت الحموي » بأنها ناحية واسعة في شرق عدن بقرب البحر ، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف ، وبها قبر هود عليه السلام ، وبقربها بئر برهوت ، وبها مدينتان يقال لإحداهما « تريم » وللأخرى « شبام » ، وعندها قلاع وقرى[1] .

وقد تردد إسم حضرموت في كتابات اليونان والرومان ، مع شيء قليل أو كثير من التغيير أو التحريف ، فهو عند « إيراتوستينيس » (٢٧٦–١٩٤ ق.م) (Chatramotitae) وعند « ثيوفراستوس Hadramyta) وعند « بليني » (Atramitae) وعند بطليموس (Adramitae)[2] .

---

(١) ياقوت ٢/٢٧٠ ، وانظر : البكري ٢/٤٥٥ .

(٢) جواد علي ٢/١٢٩ ، وكذا Pliny, 6, 28, 32 وكذا EI, P. 207
وكذا O'leary, op. cit., P. 99 وكذا Ptolemy, VI, 7, 10
وكذا C. Forster, op. cit., P. 113, 194.
وكذا Theophrastus, Enquiry into Plants, 2, P. 235
وكذا le Museon, 1964, 3-4, P. 441.

وحضرموت عند الإخباريين « إبن يقطان » ، وتلك في الواقع رواية التوراة ، حيث نقرأ في التكوين وفي أخبار الأيام الأول ، أن « يقطان ولد الموارد وشالف وحضرموت ويارح »[1] .

وقد وصف صاحب كتاب « الطواف حول البحر الأرتيري » سواحل حضرموت الجنوبية بأنها مناطق موبوءة يتجنبها الناس ، ومن ثم فلا يجمع التوابل منها إلا « خول » ملك حضرموت ، وإلا أولئك الذين كتب عليهم القصاص من جريمة ما[2] ، وربما كان لذلك صلة بالمعنى العبري للكلمة « دار الموت » والذي نقله مسلمة أهل الكتاب ، كما نقلوا غيره إلى المصادر العربية[3] ، ومن ثم فقد قيل إسم حضرموت في التوراة « حاضرميت » ، وإن قيل كذلك ، إنما سميت حضرموت نسبة إلى « حضرموت إبن يقطن بن عابر بن شالح[4] » .

على أن « ياقوت الحموي » إنما يقدم لنا تعليلاً آخر — توراتياً كذلك — يجعل حضرموت إسماً لرجل ، هو « عامر بن قحطان » وأنه كان إذا حضر حرباً أكثر فيها من القتل ، ومن ثم فقد سمي بحضرموت[5] ، أو أنها على إسم « حضرموت إبن قحطان » الذي نزل هذا المكان فسمي به ، فهو إسم موضع ، وإسم قبيلة[6] .

وأياً ما كان الصواب في هذه التعليلات ، فمما لا شك فيه أن هناك دولة قامت في جنوب بلاد العرب تحمل إسم « حضرموت » ، وأنها كانت تعاصر معين وقتبان وسبأ ، إلا أن العلماء ما يزالون مختلفين على عصر هذه الدولة ، فذهب نفر منهم

---

(١) تكوين ١٠ : ٢٦ ، أخبار أيام أول ١ : ٢٠ .

(٢) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 87.

(٣) جواد علي ٢/١٣٠ ، قاموس الكتاب المقدس ١/٣٧٨
وكذا EP, p. 1976 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 333
وكذا J. Montgomery, Arabia and the Bible, P. 39.

(٤) ياقوت ٢/٢٧٠ .

(٥) ياقوت ٢/٢٧٠ .

(٦) ياقوت ٢/٢٧٠ .

إلى أنها إنما كانت في الفترة (١٠٢٠ ق.م – ٢٩٠ م)[١] ، بينما ذهب فريق آخر إلى أنها إنما كانت في الفترة (٤٥٠ق.م – القرن الثاني الميلادي)[٢] . هذا وقد قدمت لنا الإكتشافات الحديثة الكثير من أسماء ملوك حضرموت ، وإن كان العلماء لم يتفقوا بعد على ترتيبهم ترتيباً تاريخياً[٣] .

وعلى أي حال ، فما تزال البعثات العلمية توالي العمل هناك ، وآخرها تلك البعثة الأمريكية التي قامت في عام (١٩٦٢/١٩٦١) بمسح أثري للوادي ، واكتشفت هناك عدة قرى ومواقع أثرية ، وأطلال معابد وفخار ، فضلاً عن ١٢٠٠ نقشاً ، منها ١٨ نقشاً ثمودياً ، لعل أهمها نقوش قرية « سنا » حيث يقوم هناك معبد للإله القمر « سين » ، ونقوش « العقلة » التي تتضمن أسماء ملوك حضرموت وسبأ[٤] ، وإن كان معظمها قد صوره من قبل « فلبي » وكتب عنه .

وتدلنا النقوش التي تركها الحكام الحضارمة على مدى عنايتهم بالإصلاحات الداخلية ، فضلاً عن علاقتهم بالدويلات المجاورة ، ومن ذلك الكتابة التي تركها لنا « شكم سلحان بن رضوان » ، أحد كبار موظفي حكومة حضرموت ، ربما في عهد « يشكر إيل يهرعش بن أبيع » ، وفيها يتحدث الرجل عن بناء سور وباب وتحصينات لحصن « قلت » – ويشرف على واد تقطعه الطريق بين مدينة « حجر » وميناء « قنا » – فضلاً عن إنشاء جدار وحواجز في ممرات الوادي الرئيسية ، وذلك لحماية منطقة حجر من أي غزو أجنبي ، ولا سيما غزو الحميريين الذين كانوا يهددون حضرموت ، ويتدخلون في شئونها ، وأن ذلك العمل قد تمّ في خلال ثلاثة أشهر تقريباً ، كما أنشأ استحكامات ساحلية لحماية البر من أي هجوم بحري ،

---

(١) J.B. Philby, The Background of Islam, P. 141.

(٢) S. Moscati, op. cit., P. 179.

(٣) أنظر : جواد علي ٢/١٦٦–١٧٠ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٧٦–٢٧٨ .

(٤) أنظر : G. W. Van Beek, G.H. Cala, and A. Jamme, An Archaeological Reconnaissance in Hadhramout, South Arabia, Preliminary Report.

ومن ثم فقد أقام على ما يبدو حصوناً على لسانين بارزين في البحر لحماية الخليج الذي كان بينهما ، كما حصن المنفذ المؤدي إلى « إبنة » وإلى مدينة « ميفعة » حيث بنى سوراً قوياً ، فضلاً عن برجين وباب وأماكن للجنود لاستخدامها إبان الدفاع عن المدينة (١) .

هذا ويرى نفر من الباحثين أن الكتابة التي دونها صاحبنا « شكم سلحان » هذا ، إنما هي أقدم كتابة حضرمية وصلت إلينا حتى الآن ، وأنها ترجع إلى القرن الخامس أو أوائل القرن الرابع قبل الميلاد (٢) .

ويبدو أن حضرموت كانت تعاني في تلك الأيام من هجمات الحميريين المتتالية عليها ، ومن ثم فقد لجأت إلى سد الأودية بجدر حصينة قوية ، حتى يمكنها التحكم في المرور في الوادي ، وبالتالي تستطيع منع الحميريين من غزوها ، وكانوا في تلك الفترة يقيمون في جنوب وجنوب شرق لبنة وميفعة ، قبل أن يتحولوا إلى الأماكن التي عرفت باسمهم قبيل القرن الثاني ق.م (٣) .

ويرى « فون فيسمان » أن حمير قد استولت على ميناء « قَنَا » (Cana) في أيام الملك « يشكر إيل يهرعش بن أبيع » ، وقد كان ميناء قنا هو الميناء الوحيد الصالح للملاحة ، ومن ثم فإن حركة الملاحة بين حضرموت من ناحية ، والهند وأفريقية من ناحية أخرى ، قد تركزت فيه (٤) .

وهناك كتابة عثر عليها « فلبي » (عرفت بفلبي ١٠٣) تتحدث عن إنشاء طريق على أيام الملك « علهان بن يرعش » في ممر «Hamraban» شرقي شبوة ، لتسهيل

---

(١) جواد علي ٢/١٢٢–١٢٣ وكذا le Museon, 1964, 3-4, P. 444 وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 95.

(٢) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 109.

(٣) جواد علي ٢/١٢٤–١٢٥ .

(٤) Le Museon, 1964, 3-4, P. 44.

وصول القوافل إلى العاصمة ، فضلاً عن تسهيل وصول الجيش إلى مقر الملك للدفاع عنه[1] .

وهناك كتابة أخرى (فلبي ٨٢) ترجع إلى أيام الملك « العزيلط » ملك حضرموت دونها شريفان من حمير بعث بهما ملك سبأ وذي ريدان ، للمشاركة في الإحتفال بتتويج ملك حضرموت في حصن أنود ، وأخرى دونها الملك الحضرمي نفسه ، وفيها يقول « العزيلط ملك حضرموت ، إبن عم ذخر ، سار إلى حصن أنود ، ليتلقب بلقبه . . . »[2] .

وفي الواقع أننا نستطيع أن نستنتج من هذه النصوص عدة نتائج منها (أولاً) أن العلاقات بين حضرموت وسبأ كانت في تلك الأيام ودية ، ومن ثم فإننا نرى ملك سبأ يشارك — عن طريق مبعوثيه — في الإحتفال بتتويج الملك الحضرمي ، ولكن من ناحية أخرى ، ربما كان وجود المبعوثين السبئيين إشارة إلى أن ملك حضرموت ، إنما كان يتولى سلطانه برضى من ملك سبأ ، بخاصة وأن الكتابة إنما دونها مبعوثاً ملك سبأ[3] ، ومنها (ثانياً) أن القوم في حضرموت قد اعتادوا عند تنصيب ملك جديد ، أو إضافة لقب جديد إلى ألقاب الملك القديمة ، أن يتم ذلك عند حصن « أنود »[4] ، وإن كنا لا ندري متى بدأ هذا التقليد ، وعلى أي حال ، فلقد استمر ذلك حتى القرن الثاني الميلاد ي ، فيما يرى « أولبرايت » ، أو بالتحديد إلى عام ٢٠٠ م ، فيما يرى « ريكمانز »[5] ، ومنها (ثالثاً) أن هذا المكان ربما كان من الأماكن المقدسة عند القوم ، أو على الأقل ذا مكانة خاصة جرت العادة على أن يتوج الملوك فيه[6] .

---

(١) J.B. Philby, Three New Inscriptions from Hadhramout, JAS, 1945.

(٢) جواد علي ١٤٢/٢ وكذا J.B. Philby, Sheba's Daughters, London, 1939.P. 449-450

(٣) جواد علي ١٤٢/٢ .

(٤) حصن أنود (أنودم) : ويقع في موضع « عقلة الحالية » ، وهو على شكل مربع ، يشرف على واد يتصل بتلال « شبوة » ، وقد كان حصناً ومعسكراً يقيم فيه الجيش لحماية مزارع الوادي (أنظر : جواد علي ١٥٧/٢-١٥٨ وكذا J. B. Philby, Sheba's Daughters, London, 1939, P. 314F.)

(٥) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 108.

(٦) جواد علي ١٤٢/٢ .

وهناك نصوص تفيد أن « العزيلط » (وربما كان العزيلط الثاني) قد استقبل وفوداً من الهند ومن تدمر ومن الأراميين ، بل إن الكتابة المعروفة بـ (جام ٩١٩) تتحدث عن مرافقة عشر نساء قرشيات له إلى حصن أنود ، مما يدل على أن ملك حضرموت كانت له علاقات ودية — وربما تجارية في الدرجة الأولى — مع الهند وتدمر والآراميين ، كما أن ذكر قريش هنا — إن كان المقصود بها قريش المعروفة صاحبة مكة — يعدّ أقدم ذكر لها في وثيقة مدونة ، وإن كنا لا ندري ما هي صفة هؤلاء النسوة القرشيات[1] .

وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن نقش (فلبي ٨٤) ذى الأهمية الخاصة بالعاصمة « شبوة » ، حيث يتحدث فيه صاحبه « يدع إل بين بن رب شمس » بأنه من أحرار يهبأر — أي من صرحاء القبيلة — وأنه قد عمّر مدينة شبوة وأقام بها ، وبنى معبدها من الحجارة بعد الخراب الذي حلّ بها ، وأنه — إحتفالاً بهذه المناسبة — قد أمر بتقديم القرابين في حصن أنود ، فذبح ٣٥ ثوراً ، ٨٢ خروفاً ، ٢٥ غزالاً ، ٨ فهود[2] .

ومن أسف أن الملك الحضرمي لم يحدثنا عن سبب هذه المأساة التي حلت بشبوه ، ومن ثم فقد تضاربت آراء الباحثين حوله ، فذهب نفر منهم إلى أن ذلك إنما كان لأن سبأ قد استولت عليها ، وأن قتالا ضارياً قد وقع بين الفريقين ، بذل فيه « يدع إل بين » كل ما استطاع حتى لا تقع المدينة في أيدي الغزاة ، ومن ثم فقد كان خراب المدينة وتدمير معبد الإله « سين » بها .

وذهب فريق آخر إلى أن « يدع إل بين » كان ثائراً حضرمياً ساءه أن تحتل سبأ عاصمة بلاده ، ومن ثم فقد كانت الحرب الضروس بين الفريقين ، مما أدى إلى

---

(١) JA, 919, 931 وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 484
وكذا BASOR, 119, 1950, P. 14. وكذا Le Museon, LXIII, 3-4, P. 261, 62, 65.

(٢) جواد علي ١٤٧/٢ وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 541
وكذا Le Museon, LXI, 3-4, 1948, P. 190.

خراب المدينة ، وإعلان « يدع إل بين » نفسه ملكاً على حضرموت ، وذهب رأى ثالث إلى أن الحرب إنما كانت بين الحضارمة أنفسهم ، وأن « يدع إل بين » كان ثائراً على الملك الشرعي في حضرموت — وليس في سبأ — وأن الحرب قد انتهت بزوال الأسرة الملكية السابقة ، وتتويج « يدع إل بين » ملكاً على حضرموت ، وإن كتب على المدينة أن تلاقي الأمرين في هذه الحرب الأهلية ، وأن يدمر معبدها فيها ، وأما تاريخ هذا النص فهو القرن الثاني الميلادي ، على رأي «أولبرايت» ، وبعد عام ٢٠٠ م ، على رأي ريكمانز [1] .

على أن « هومل » إنما يرى أن « يدع إل بين » إنما كان آخر ملوك حضرموت ، وأن دولته قد دالت حوالي عام ٣٠٠ م ، وأن السبئيين قد ورثوها على أيام « شمر يهرعش [2] » ، غير أن « فلبي » قد اعترض على ذلك ، محتجاً بأنه قد عثر في عام ١٩٣٦م عند « العقلة » على نقش جاء فيه ذكر هذا الملك ، كؤسس لأسرة ظلت تحكم أجيالاً ، وكذلك كؤسس لمدينة « شبوة » التي كانت من المدن المشهورة على أيام «سترابو » (٦٦ق.م—٢٤م) و « بليني » (٣٢—٧٩م) ، هذا وقد عثر « هارولد إنجرامز » عام ١٩٣٩م ، على نقش عند أول وادي « عرمة » ، ربما يرجع إلى ما قبل تأسيس شبوة — (وإن كان من المحتمل أن يكون لغير هذا الملك رغم تشابه الأسماء) — ومن ثم فإن تاريخ شبوه وقيام هذه الأسرة بحكم حضرموت ، إنما يرجع إلى القرن الثاني ق.م ، بخاصة وأن الظروف وقت ذاك ، كانت تتطلب أسرة حضرمية جديدة ، تبادر إلى تأسيس عاصمة جديدة ، وتهيمن على طرق مواصلات تجارة البخور ، بعد أن بدأت عوامل الضعف تدب في مملكة سبأ منذ القرن الثالث قبل الميلاد [3] .

---

(١) جواد علي ٢/١٤٧—١٤٨
وكذا
H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 11 5.

(٢) فريتز هومل : المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٧٥ .

وأما متى إنتهت دولة حضرموت ، وكيف أصبحت جزءاً من مملكة سبأ وذى ريدان ، فذلك موضع خلاف بين الباحثين ، فهناك من يرى أن ذلك إنما كان في عام ٢٩٠م ، بينما يرى آخرون أنه كان على أيام « شمر يهرعش » ، وبعد عام ٣٠٠م ، وأخيراً فهناك فريق ثالث يذهب إلى أن سقوط حضرموت ، إنما كان في القرن الرابع الميلادي ، وقبل احتلال الحبشة الأول للعربية الجنوبية (الذي يرونه فيما بين عامي ٣٣٥ ، ٣٧٠م) بقليل[١] .

أهم مدن حضرموت :

لا ريب في أن « شبوه » العاصمة هي أهم مدن حضرموت ، وقد ذكرها الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان تحت إسم (Sabota, Sabotha, Sabbatha)[٢] ، وهي (Sabtah) عند « مونتجمري[٣] » و (Sawa) عند « هوجارث »[٤] ، وقد ذكرها الهمداني من بين حصون حضرموت ومحافدها[٥] ، وذهب « ياقوت » إلى أنها من حصون اليمن في جبل ريمة ، وقال « إبن الحائك » : شبوه مدينة لحمير ، وأحد جبلي الثلج بها ، والثاني لأهل مأرب [٦] ، هذا وقد خلط بعض المستشرقين بينها وبين « شبام »[٧] التي تقع على مقربة من صنعاء[٨] .

---

(١) فؤاد حسنين المرجع السابق ص ٢٧٧
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 116-144.

(٢) جواد علي ٢/١٥٧ وكذا Pliny, 6, 28, 32, Ptolemy, 6, 7, 38.

(٣) J. Montgomery, op. cit., P. 42.

(٤) D.G. Hogarth, The Penetraticn of Arabia, P. 149, 151, 221.

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٨٧–٩٨ ، الإكليل ٨/٩٠ .

(٦) ياقوت ٣/٣٢٣ ، وانظر : البكري ٣/٧٨٠ .

(٧) يذكر ياقوت الحموي أن في اليمن أربعة مواضع إسمها « شبام » ، شبان كوكبان غربي صنعاء ، وشبام سخيم قبلي صنعاء بشرق ، وشبام حراز غربي صنعاء ، وشبام حضرموت (ياقوت ٣/٣١٨) .

(٨) جواد علي ٢/١٥٧ وكذا
W. Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, Part the Second, P. 301.

ويرجع السبق في اكتشاف آثار شبوه إلى « جون فلبي » ، والتي من أهمها بقايا المعابد والقصور ، فضلاً عن بقايا السدود التي كانت مقامة على وادي شبوه لحصر مياه الأمطار ، والإفادة منها في إرواء المناطق الخصبة[1] ، وما يزال يشاهد في وادي « أنصاص » ، وفي خرائب شبوه ، بقايا سدود وقنوات للإفادة من المياه عند الحاجة إليها[2] ، على أن شبوه كانت كذلك أرض اللبان والمر ، وقد كانا يصدران من ميناء « قنا »[3] .

وهناك كذلك مدينة « ميفعة » ، العاصمة القديمة لحضرموت ، وهي نفسها (Mapharitis) التي أشار إليها صاحب كتاب « الطواف حول البحر الأرتيري »[4] على رأي بعض الباحثين[5] ، وهي (Maiph Metropolis) عند بطليموس الجغرافي (١٣٨—١٦٥م)[6] .

وهناك الكثير من النصوص التي تتحدث عن تحصين « ميفعة » وعن تسويرها بالحجارة وبالصخر المقدد وبالخشب ، فضلاً عن الأبراج التي أقيمت حول السور لصد الغزاة ، ومنها نص يشير إلى أن « هبسل بن شجب » قد بنى سور المدينة وأبوابها ، وأنه قد أقام فيها بيوتاً ومعابد ، وأن إبنه « صدق يد » قد زاد في أسوارها وأحكم بناءها ، على أن الخراب سرعان ما حلّ بها في القرن الرابع الميلادي ، ثم حل مكانها موضع عرف بـ (Sessani Adrumetorum) أي عيزان[7] .

---

(١) J.B. Philby, op. cit., P. 79.

(٢) جواد علي ١٥٧/٢ وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 108.

(٣) W. Vincent, op. cit., P. 301.
وكذا A.M. Fahmy, Muslim Seapower in the Eastern Mediterranean, P. 46.

(٤) يحدد البعض تاريخ هذا الكتاب بالفترة ٥٠—٦٠م (فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٤) ، بينما يرى آخرون أنه يرجع إلى عام ٧٥م (موسكاتي : المرجع السابق ص ٣٧٨) ، وأما « جاكلين بيرين » فالرأي عندها أنه كتب في عام ١٠٦م (J. Pirenne, op. cit., P. 167-193).

(٥) J.B. Philby, op. c P. 80. it.,

(٦) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 86.

(٧) جواد علي ١٥٨/٢—١٥٩ وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 86. وكذا REP. EPIG, 2640, V, I, P. 14.

وهناك مدينة « قَنَا » — ميناء حضرموت الرئيسي — حيث كان يجمع اللبان والبخور ، ثم يصدر منها براً وبحراً ، وأما موقع « قنا » فهو إلى الشرق من « عدن » ، وقد ذهب نفر من الباحثين إلى أنه في مكان « حصن الغراب » الحالي ، وكان يعرف قديماً باسم « عرمويت[1] » ، على أن نقش (CIH7 28) — والذي عثر عليه الضابط الانجليزي « جيمس ولستد » في حصن الغراب عام ١٨٣٤م — جاء فيه أن « صيد أبرد بن مشن » كان مسئولاً عن « بدش » وعن « قنا » ، وأن ذلك قد كتب على « عرموية » (عرماوية = حصن ماوية) ، فأما « قنا » فهو إسم الميناء المشهور ، وأما الحصن الباقي أثره حتى اليوم فهو « حصن ماوية » ، وأما « بدش » (باداش) فما يزال معروفاً حتى اليوم بشيء من التحريف ، حيث يعيش قوم رعاة يعرفون باسم « مشايخ باداس » ، ومن ثم فحصن غراب هو « عرمويت » وهو حصن مدينة قنا[2] .

وهناك مدينة « مذب » أو « مذاب » ، وقد اشتهرت بمعبدها المكرس لعبادة إله القمر « سين » ، وتقع بقاياه اليوم في الموقع المعروف باسم « الحريضة » ، وقد قامت ثلاث رحالات أوربيات (ج. كاتون طومسون ، أ. جاردنر ، ف. شترك) في عام ١٩٣٧م ، برحلة إلى حضرموت ، وهناك في وادي عمد ، مقابل حريضة ، كشفن عن معبد إله القمر « سين » ، كما عثرن على عدد من الكتابات تبين أن بعضها سبئية ، فضلاً عن العثور على بعض القبور والأواني الفخارية والخزفية ، التي يظن أنها ترجع إلى القرن السابع أو الخامس قبل الميلاد[3] ، إلا أن البعثة لم تتوصل إلى تاريخ

---

(١) C. Forster, The Historical Geography of Arabia, II, P. 186.

(٢) جواد علي ١٦١/٢ وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 91
وكذا J. Wellsted, Travels in Arabia, London, 1838
وكذا Le Museon, 1961, 1-2, P. 194.

(٣) Le Museon, LX, 1-2, 1947, P. 71.
وكذا G, Caton Thompson, The Tombs and Moon Temple of Hureidha,
Oxford, 1944, P. 15.

بناء المعبد بصورة نهائية ، وإن كانت بعض واجهات المعبد تعود إلى الفترة بين أواسط القرن الخامس ، وحتى القرن الرابع ق.م ، فضلاً عن أن بعض أجزاء المعبد ، إنما تعود إلى العهد السلوقي[1] ، وأخيراً فإن هناك من يرى أن مدينة « مذاب » ومعبدها ، إنما يعودان إلى الفترة ما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد[2] .

وهناك في حضرموت أماكن قديمة (حضرمية وسبئية) ، ينسبها القوم إلى عاد وثمود ، فقرية « سنا » يرون أن بها قبر هود عليه السلام ، وفي موضع « غيبون » خرائب يظنها القوم من آثار عاد ، بينما يرى الأثريون فيها بقايا مدينة حميرية ، وعند ملتقى وادي « منوة » بوادي « ثقبة » صخور مهيمنة على الوادي ، نقرها أصحابها لتكون مأوى للجنود ، تمكنهم من مهاجمة أعدائهم على غرة ، وعلى مقربة من « تريم » خرائب قديمة ، لعلها في أغلب الظن من آثار معبد قديم ، هذا فضلاً عن مواقع أثرية أخرى مثل حصن « عر » و « حدبة الغصن » و « المكنون » و « ثوبة » وغيرها ، مما يدل على أن حضرموت قد حصنت حدودها ، وأقامت عليها الحاميات العسكرية لحماية نفسها من أي طامع فيها ، أو ثائر من داخلها ، وأن هذه الحصون قد أقيمت في مواقع منيعة على التلال وقمم الجبال والمرتفعات ، حتى تستطيع بسهولة الإشراف على السهول ومضايق الأودية[3] .

*****

---

(١) G. Caton Thompson, op. cit., P. 153.

(٢) إيفاهويك : سنوات في اليمن وحضرموت ، ترجمة خيري حماد ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٧٠ ، جواد علي ١٦٣/٢ .

(٣) جواد علي ١٦٣/٢–١٦٥ وكذا

Van Der Muelen and Hermann Von Wissmann, Hadramaut, Some of its Mysteries Unveiled, Leiden, 1964, P. 57, 83, 130, 139, 145, 143, 173-4.

الفصل التاسع

دولة قتبان

تقع دولة قتبان – كما يروي سترابو ، نقلاً عن إيراتوستينيس – في الأقسام الغربية من العربية الجنوبية ، وفي جنوب السبئيين وجنوبهم الغربي ، وقد امتدت منازلهم حتى بلغت باب المندب[1] ، إلا أن قتبان كانت مبتعدة عن الساحل الهندي إلى الداخل ، حيث كانت تقوم بينها وبين البحر مملكة « أوسان » الصغيرة ، وأهم بلادها « شقرة » على ساحل المحيط الهندي ، ثم تنتهي إلى إمارة عدن[2] .

وعلى أي حال ، فلقد تحدثت المصادر الكلاسيكية عن القتبانيين ، فذكرهم « ثيوفراست[3] » و « سترابو[4] » و « بليني[5] » وغيرهم ، وأما المصادر العربية ،

---

(١) جواد علي ٢/١٧١-١٧٢ وكذا EI, 2, P. 810.

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٢٩ .

(٣) Theophrastus, II, P. 235.

(٤) O'leary, op. cit., P. 96. وكذا Strabo, 16, 4, 2

(٥) O'leary, op. cit., P. 108. وكذا Pliny, 6, 32

فليس فيها شيء يستحق الذكر عن قتبان ، سوى أنها موضع من نواحي عدن[1] ، وأنها بطن من رعين من حمير[2] ، ولعل السبب في ذلك هو ضعف قتبان وانضوائها تحت لواء حكومة سبأ وذي ريدان – وهي الحكومة التي يطلق عليها المؤرخون العرب إسم « حمير » – ولأن قبيلة حمير هذه كانت أقوى القبائل اليمنية عشية ظهور الإسلام ، فضلاً عن أنها هي التي قاومت الأحباش ، وهي التي تركت أثراً في القصص العربي ، وفي قصته أصحاب الأخدود[3] ، حتى أصبحت الحضارة الحميرية علماً على كل شيء في بلاد اليمن قبل الإسلام ، بحيث تلاشت الحضارات الصغرى التي ظهرت في اليمن في العصر الجاهلي[4] .

وقد اختلف المؤرخون في بداية الدولة القتبانية ونهايتها ، ورغم الدراسات التي قدمها العلماء المتخصصون في الدراسات العربية القديمة – ومنهم فريتز هومل[5] ونيكولوس رودكناكيس[6] وديتلف نلسن[7] ووليم أولبرايت[8] وأدولف جرومان[9] وهاري سان جون بريدجر فلبي[10] ومارتن هارتمان[11] وجاكلين

---

(١) ياقوت ٤/٣١٠ .
(٢) تاج العروس ١/٤٣١ .
(٣) جواد علي ١/١٧٣ .
(٤) أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ص ٥٣ .
(٥) فريتز هومل : المرجع السابق ص ١٠٠–١٠٤ .
(٦) Nikolaus Rhodokanakis, Katabanische Texte Zur Bodenwirtschaft, Wien, 1922.
(٧) Ditlef Nielsen, Neue Katabanische Inschriften, in MVAG, XI-IV, 1906.
وانظر : D. Nielsen, Katabanische Texte, I, P. 26, II, P. 98.
(٨) W.F. Albright, The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban, BASOR, 119, 1950, P. 11.
(٩) A. Grohmann, uber Katabanische Herrscherreihen, 1916, P. 42.
(١٠) H.St.J.B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, P. 143.
(١١) M. Hartmann, Die Arabische Frage in der Islamische Orient, II, Leipzig, 1909, P. 156.

بيرين[1] — فإن الخلاف ما زال قائماً على تحديد الفترة التي حكمت فيها دولة قتبان ، بخاصة وأنها قد عاصرت — كما جاء في الكتابات المعينية والسبئية — دولة معين ودولة سبأ ، ومن ثم فإن تاريخ هذه الدول جميعاً مرتبط بعضها بالبعض الآخر ، ومرتبط كذلك بالأبحاث والدراسات اللغوية ، وكل تلك أمور لم يتفق العلماء عليها حتى الآن .

ومن هنا رأينا بعض الباحثين يرجع تاريخ قتبان إلى القرن العاشر ، أو الحادي عشر ق.م ، وهو التاريخ الذي قد يرجع إليه النقش المخربش الذي حل رموزه « البرت جام » ، وهو يعتبر أقدم نص جاءنا من بلاد العرب الجنوبية ، كما أن عصر هذا النقش كان فترة إنتقال في تاريخ قتبان ، إذ سرعان ما يظهر بعده عصر المكاربة الذين حكموا قتبان عدة قرون ، وقد وصلنا أسماء عدد منهم في فترة حكمهم التي كانت فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد[2] .

على أن هناك من يرى أن دولة قتبان ، إنما كانت فيما قبل عام ١٠٠٠ ق.م ، وحتى القرن الثاني ق.م[3] ، ومن يرى أنها كانت في الفترة (٨٦٥—٥٤٠ ق.م)[4] ، ومن يرى أنها كانت فيما بين عام ٦٤٥ ق.م ، والقرن الثالث ق.م[5] ، ومن يرى أنها كانت فيما بين القرن السادس ق.م ، وعام ٥٠ ق.م[6] ، ومن يرى أنها في الفترة (٤٠٠—٥٠ ق.م)[7] ، ومن يرى أنها فيما بين القرن الرابع ق.م ، والأول الميلادي[8] .

---

(١) J. Pirenne, Le Royaume Sud-Arabe de Qataban et sa Datation, Louvain, 1961.

(٢) فؤاد حسنين : التاريخ العربي القديم ص ٢٨٦ .

(٣) F. Hommel, Grundriss der Geographie und Geschichte des Alten Orient, P. 139

(٤) J.B. Philby, p. cit., P. 60, 143.

(٥) جواد علي ٢/١٧٦—١٧٧ ، وكذا BASOR, 119, 1950, P. 3

(٦) BASOR, 119, P. 5.

(٧) S. Moscati, op. cit., P. 179.

(٨) W. Phillips, Qataban and Sheba, P. 222F.

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن نهاية دولة قتبان وتخريب عاصمتها « تمنا » (تمنع) إنما كان بين عامي ٢٠٠ ، ٢٤ق.م[١] ، بينما يذهب فريق آخر إلى أن ذلك إنما كان بعد الميلاد وليس قبله ، فالأب « ريكمانز » يرى أنها كانت عام ٢٠٧م أو ٢١٠م ، بينما يرى « فون فيسمان » أن ذلك إنما كان حوالي عام ١٤٠م أو ١٤٦م ،[٢] وأما عن أسماء ملوك قتبان ، فهناك كثير من القوائم التي قدمها العلماء ، ومنها قوائم فريتز هومل وروودكناكيس وكليمانت هوارت وفلبي اولبرايت[٣] .

ويحاول بعض الباحثين أن يقسم تاريخ قتبان إلى ثلاث فترات ، تختلف الواحدة منها عن الأخرى ، ولعل أهم حكام الفترة الأولى « يدع أب ذبيان » بن « شهر » ، وقد حكم في الفترة (٧٥٠–٧٣٥ ق.م) على رأي فلبي ، وفي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، على رأي أولبرايت ، وكان — في رأي الكثيرين — أول من حمل لقب « ملك » بجانب لقب « مكرب »[٤] ، ولعل في هذا ما يشير إلى أنه كان في بادىء الأمر كاهناً ، ثم حمل لقب ملك ، ثم اللقبين معاً ، وإن اقتصر في الفترة الأخيرة من حكمه على لقب « ملك » ، على أساس أنه اللقب الرسمي لحكام قتبان[٥] .

وهناك من يرجح أن « يدع أب ذبيان » هو الذي شيد المدخل الجنوبي لمدينة « تمنع »[٦] ، وطبقاً لنص (جلازر ١٦٠٠) فهو « مكرب قتبان وجميع أبناء «عم» (الإله الرسمي لقتبان) وأوسان وكحد ودهس وتبنو » ، هذا ويشير النص إلى إنشاء طريق في الجبل ، أو بعبارة أخرى ، ثغرة ليمر منها الطريق المار بالجبل من مكان إلى

---

(١) E. Glaser, Die Abessinier in Arabien and Africa, P. 114.

(٢) Le Museon, 3-4, 1964, P. 468.

(٣) أنظر : جواد علي ٢/٢٣٢–٢٤٠ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٧٩–٢٨٤ وكذا BASOR, 119, P. 11. وكذا C. Huart, op. cit., P. 57

(٤) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٥) جواد علي ٢/١٩١–١٩٢ ، وكذا le Museon, 3-4, 1964, P. 432.

(٦) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٦ وكذا Wendell Philips, Qataban and Sheba, London, 1955, P. 219.

آخر : فضلاً عن تجديد بيت « ود وعثر » ، إلى جانب بعض الأعمال الإنشائية الأخرى[1] .

وهناك نص آخر يصف الملك — إلى جانب الألقاب السابقة — « بمكرب «يرفأ» أو «يرفع» وأبناء الجنوب والشمال » ، وإن كنا لا ندري شيئاً عن صلة هذه القبائل ، غير القتبانية ، بالملك القتباني ، أكانوا تابعين له في تلك الأيام ؟ ومن ثم فقد اشتركوا في إنشاء الطريق الجبلي الآنف الذكر — الذي ربما كان للنص به صلة — أم أن هذه القبائل كانت ذات مصلحة فيه ، ومن ثم فقد شاركت في إنشائه ، إن الإجابة على واحد من هذه الأسئلة ما تزال في ضمير الغيب ، وعلى أي حال ، فإننا أمام عمل هندسي يستحق التقدير ، كما يدل على فن هندسي راق عند القتبانيين[2] .

هذا ويرجح بعض الباحثين أن « يدع أب ذبيان » قد شن عدة حروب كتب له فيها نصراً مؤزراً ، ومن ثم فقد مد حدوده إلى أوسان ومراد ، وحتى حدود سبأ ، ولعل هذا يفسر لنا اهتمامه بإنشاء الطرق التي تربط بين أطراف مملكته ، ومن أشهرها الطريق المعروف باسم « مبلقة »[3] ، ولم تكن هذه الطرق في الأرض السهلة ، وإنما كانت في المرتفعات والجبال ، ولعل الذي دفعه إلى ذلك عدة عوامل ، منها (أولاً) أن الطرق الممتدة في السهول هدف سهل للأعداء ، وأن جنوده قد يجدون صعوبة في الدفاع عن أنفسهم ، إذا ما هاجمتهم قوات غازية ، ومنها (ثانياً) أن الطرق الجبلية وإن كانت صعبة فهي أقصر من طرق السهول ، ثم إن الدفاع عنها ، لا شك أسهل من الأخرى ، فهي إذا أكثر أمناً ، كما أنها في أرضين تابعة له[4] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك وثيقة على جانب كبير من الأهمية ترجع إلى عهد هذا الملك (يدع أب ذبيان) لأنها تتصل بأصول التشريع وكيفية إصدار

---

(١) جواد علي ١٨٩/٢ .

(٢) جواد علي ١٨٩/٢-١٩٠ .

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٦ .

(٤) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 43-44.

القوانين عند العرب الجنوبيين في العصور القديمة ، فمنها نعرف أن الملك وحده هو الذي يملك حق إصدار القوانين ونشرها ، ثم الأمر بتنفيذها ، وأن مجلس الشعب (ويدعونه المزود) — ويتكون من رؤساء المدن والقبائل والشعاب — هو الذي يقترح القوانين ويضع مسودات اللوائح ، ثم يعرضها على الملك لإقرارها والأمر بتنفيذها[1] .

ولعلنا نستطيع أن نستنتج من ذلك كله ، أن قتبان قد عرفت نظاماً يتكون من مجالس تمثل الشعب تمثيلاً نيابياً ، فقد كان يوجد مجلس قبلي ، إلى جانب العرش ، كما كانت هذه المجالس تمثل القبائل المختلفة في الهيئات التشريعية المتعددة ، كما كانت إدارة البلاد بيدها ، وربما كان المجلس يعقد جلساته مرتين في العام ، وفي عاصمة الدولة ، وبدعوة من الملك ، ثم تصدر القوانين بعد ذلك باسم الملك ، ويبدو أن هذه المجالس كانت تجتمع عندما يظهر في الجو أسباب سياسية تتصل بسياسة البلاد الخارجية ، أو عند الرغبة في إدخال تغيير شامل على النظام الإقتصادي للدولة .

هذا وهناك نوع آخر من المجالس ، هو المجلس الإستشاري ، ويتكون من الملك ومن الأشراف أصحاب الأملاك (مسود أو مزود) ، ومن طائفتين أخريين لا يمكن تحديدهما بالضبط ، وقد يمثلان أصحاب الأملاك أو الموظفين ، ولهذا المجلس الاستشاري حق إصدار القوانين باسم الملك ، فضلاً عن العمل بالقوانين القديمة ، وتنظيم استخدامها ، كما كان من حقه أن يحل محل مجلس القبائل ، وأن يصدر أوامر العفو — كلياً أو جزئياً — عن المحكوم عليهم .

ولعل هذا كله يدل على أن الملك والمجلس الإستشاري ومجلس القبائل ، تكوّن جميعها الحكومة ، وأنه ليست هناك هيئة خاصة بالتشريع ، وأخرى للإدارة ، وثالثة للقضاة ، مستقلة عن بعضها — على الأقل فيما يتصل بالأمور المالية للدولة — أما فيما يتعلق بمعرفة الفترة التي كان هذا النظام مستعملاً فيها ، أو الحالات العديدة

---

(١) جواد علي ٢/١٩٢–١٩٣ ، وكذا

H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 37.

التي كان يطبق فيها ، فهذا ما لا نعرفه ، ولا نستطيع الحكم عليه من النصوص التي تحت أيدينا[1] .

وأما الفترة الثانية من تاريخ قتبان ، والتي استمرت زهاء قرن من الزمان (٣٥٠ــ ٢٥٠ ق.م) ، فقد كان أول ملوكها «أب شبم» ثم ابنه «شهر غيلان» ، الذي ترك لنا كثيراً من النصوص ، وجد بعضها في المدخل الثاني لمدينة « تمنع » هذا إلى جانب كتابة أخرى دونت عند تجديد إحدى العمارات وإنشاء برج[2] ، فضلاً عن الكتابة المعروفة بـ (جلازر ١٦٠١) والتي تتحدث عن جمع ضرائب من قبيلة « كحد » النازلة في « دتنه » ، وقد جاء فيها أن رئيس القبيلة هو المسئول عن جمع الضرائب ، والتي تساوي « عشر كل ربح صافي ، وكل ربح من التزام أو من بيع أو من إرث » ، كما تتحدث عن توريدها لخزانة الدولة في نهاية كل عام ، فضلاً عن ضرائب المعابد ، والتي تسمى « عصم » ، وهي لفظة ــ يروى رودكناكيس ــ أنها تطلق على كل ما يسمى للآلهة أو المعابد من ضريبة مقررة ، أو نذر ، أو صدقة[3] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن إدارة المعابد ، إنما كانت تتركز في العاصمة القتبانية ، وأنها قد تركت أثراً بعيداً في استغلال أراضي الدولة ، وفي الحصول على جزء من دخلها ، وأن الدولة نفسها قد منحت إدارة المعابد هذا الحق ، مجاملة منها لهذه المراكز الدينية التي انتشرت كذلك في خارج العاصمة ، وقد كانت القبائل مطالبة بأن تدفع للمعابد عشر الدخل والميراث والمشتريات ، إلى جانب ضريبة أخرى كانت تقدم للمعبد كهبة .

هذا وقد كان أفراد طائفة المعبد يسمون «المُطْعَمُون على يد عم» (وعم هو كبير آلهة قتبان) بسبب اتصالهم بكبار رجال الدين في قتبان ، وهم الذين كان القوم يعتقدون أن الله قد فوضهم في إدارة أراضيه الدنيوية ، وهكذا قامت الجماعة المعروفة باسم

---

(١) نيكولوس رودكناكيس : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية (من كتاب التاريخ العربي القديم) ص ١٣٢-١٣٦ .

(٢) جواد علي ٩٨/٢ وكذا BASOR, 119, 1950, P. 12.

(٣) جواد علي ١٩٩/٢ وكذا KTB, I, P. 11-12, 25.

« المُطْعَمُون من الله » ، وهي جماعة خاصة بالمعبد ، وتعيش على نفقة الدولة . مما جعلها في مركز يساعدها على المطالبة بالأراضي للمعبد ودخلها ، بدعوى أن هذا الدخل لله سيد الأرض[1] .

هذا وقد نال « معبد بيجان » عناية خاصة من « شهر غيلان » ، ومن ثم نراه يأمر بتجديد أقسامه القديمة ، وبناء أقسام جديدة فيه[2] ، ونعرف من نقش (ريكمانز ٢١٦) أن « شهر غيلان » قد انتصر على حضرموت ، وأنه تخليداً لذكرى هذا النصر فقد أقام معبداً للإله « عثتر » في « ذبحان » (بيجان القصب الحالية ، عند جبل ريدان ، حيث ما تزال حتى الآن توجد خرائب واسعة تدل على أنها كانت مدينة ، أو على الأقل قرية كبيرة) ، وأما زمن « شهر غيلال » هذا ، فقد كان في أخريات القرن الرابع ق.م ، فيما يرى « فيسمان » ، وفي القرن السادس ق.م ، فيما يرى « جون فلبي »[3] .

ولعل من أشهر ملوك هذه الفترة « شهر يجيل » ، وقد جاء إسمه في نقش (جلازر ١٦٠٢) ، وهو عبارة عن مرسوم ملكي يحدد كيفية جمع الضرائب من « طائفة معبد الإله عم في أرض لبخ » ، ويظهر من هذا المصطلح أن العرب الجنوبيين كانوا يؤلفون طوائف تنتمي إلى إله من الآلهة تتسمى به وتقيم حول معبده ، وربما كانت تتعاون فيما بينها في استغلال الأرض لخير الطائفة بأسرها ، وكانت الطائفة تقدم حقوق الحكومة إلى الجباة الذين يجبون تلك الحقوق ، فيقدمونها إلى « الكبير » (أي نائب الملك) ، ليقدمها بدوره إلى الملك[4] .

---

(١) نيكولوس رودكناكيس : الحياة العامة للدولة العربية الجنوبية ص ١٤٩ .

(٢) REP, EPIG, VII, P. 433. وكذا F. Stark, JRAS, 1939, P. 497.

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٠ ، جواد علي ٢/٠-٢ ، وكذا KTB, P. 8, 47 وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 48, 65.

(٤) جواد علي ٢٠١/٢ وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 47, وكذا le Museon, 1951, 3-4, LXIII, P. 268.

ويرى «أولبرايت» أن «شهر يجيل» قد حكم حوالي عام ٣٠٠ ق.م ، وأنه قد تغلب على دولة معين ، وأخضعها لسلطانه[١] ، ثم خلفه أخوه « شهر هلل يهنعم » وهو الذي أقام المسلة التي عثر عليها في مدينة « تمنع » ، وبوفاته انتهت الأسرة القتبانية الثانية ، وتناوب عرش البلاد عدد من الملوك لم نستطع حتى الآن تعيين أزمنتهم أو ترتيبهم بصفة نهائية ، وكان آخرهم « يدع أب غيلان » ، وقد بني في عهدة « بيت يفش » ، كما أنشئت ، أو على الأقل جددت ، مدينة « دغيلان » (غيلان) عند معبد « عم ذى لبخ » في موضع « ذغيلم » ، وأن هناك إتجاهاً يرجح أن ذلك إنما كان في القرن الثاني ق.م[٢] .

وأما الفترة الثالثة (١٥٠—٢٥ ق.م) فأول ملوكها (هوف عم يهنعم) والذي حكم حوالي عام ١٥٠ ق.م ، على رأي أولبرايت ، ثم جاء من بعده « شهر يجل يهرجب » الذي أعاد بناء المدخل الجنوبي لمدينة « تمنع » ، كما جدد كذلك بناء « بيت يفش » ، وقد حكم بعد عام ١٥٠ ق.م ، بقليل ، على رأي أولبرايت ، إعتماداً على تمثالين لأسدين عثر عليهما في خرائب « تمنع » ، وعليهما كتابة قتبانية ، جاء فيها إسم صانعهما « ثويبم » ، الذي ذكر في كتابة أخرى من نفس العهد ، وقد استنتج « أولبرايت » أن التمثالين من عهد « شهر يجل يهرجب » ، وأنهما صنعا على الطرز اليونانية[٣] في فترة لا تبعد كثيراً عن القرن الثاني ق.م ، ومن ثم فإن هذا الملك قد حكم حوالي عام ١٥٠ ق.م[٤] .

---

(١) W.F. Albright, BASOR, 119, 1950, P. 8.

(٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٧
وكذا A. Jamme, A New Chronology of the Qatabanian Kingdom, BASOR, 120, 1950, P. 26.
وكذا H. von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 47.

(٣) أنظر : G.E. Wirhg, op. cit., P. 313, 319,
وكذا R.L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, P. 155
وكذا AJA,59, P. 207.
وكذا J. Pirenne, la Grece et Saba, Paris, 1955.

(٤) W. F. Albright, BASOR, 119, 1950, P. 9.

وهناك ما يشير إلى أن قتبان في عهد « شهر يجل يهرجب » كان لها نفوذ من نوع ما على « معين » ، وإن كان العلماء مختلفين على طبيعة هذا النفوذ ، أهو خضوع من جانب معين لقتبان ؟ أم أنه نوع من التحالف بين الدولتين ، كانت فيه قتبان صاحبة اليد العليا[1] ؟ .

وأما إبنه « وروإل غيلان يهنعم » ، فقد نسب إليه أنه أول من صك نقوداً ذهبية عثر عليها مضروبة في مدينة « حريب »[2] كما أن هناك ما يشير إلى أنه ساعد قبيلة « ذو هربت » في مدينة « شوم » على بناء حصن « يخضر »[3] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك نصاً ، يرجع إلى عهد الملك هذا ، صاحبته امرأة تدعى « برت » تذكر فيه أنها قدمت إلى « ذات حميم عثر بعل » تمثالاً من ذهب في صورة امرأة ،تقرباً إلى الآلهة ووفاء لما في ذمتها للإله «عم ذربحو» ويبدو أن المرأة كانت كاهنة لمعبد الإله « عم » في « ريمت » ، فإذا كان ذلك كذلك، فنحن أمام امرأة كاهنة ، ومن ثم فإننا نستطيع القول أن المرأة في تلك الفترة من تاريخ قتبان قد وصلت إلى منصب الكهانة[4] .

وهناك نقش عثر عليه في « تمنع » (تمنا ـــ تمنة) جاء فيه اسم ملك يدعى « شهر هلال بن ذر أكرب » ، يرى فيه بعض الباحثين « شهر هلال يهقبض » بن « ذر أكرب » الذي حدد « أولبرايت » مكانه في نهاية الأسرة ، وأما النص فيقول « قانون أصدره شهر هلال بن ذر أكرب ملك قتبان لشعب قتبان وذى علش ومعين وذى عثم أصحاب أرض شدو » ، وقد نظم هذا القانون واجبات هذه الشعوب الأربعة

---

(١) جواد علي ٢٠٧/٢ ، وكذا . le Museon, LXII, 3-4, 1949, P. 233, 1964, 3-4, P, 446
وكذا Hndabuch, I, P. 18., 71. وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 56

(٢) W. F. Albright, BASOR, 119, 1950, P. 9.

(٣) جواد علي ٢١١/٢ وكذا REP, EPIG, VII, II, P. 194, VI, II, P. 259
وكذا le Museon, 1-2, 1951, P. 113.

(٤) R.L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, (John Hopkins Press 1958,) P. 191.

في كيفية استغلال الأراضي ، وعيّن الأعمال المترتبة عليها ، وأنذر المخالفين بأشد العقوبات ، فضلاً عن الإشارة إلى الموظف الموكل إليه تنفيذ هذا القانون . ولعل هذا كله يفيد أن هذه الشعوب الأربعة التي جاء ذكرها في القانون ، إنما كانت خاضعة لقتبان[1] .

ويرى « رود كناكيس » أن هذا النقش إنما يدل على أن معين إنما كانت خاضعة وقت ذاك لقتبان ، كما كانت كذلك على أيام « شهر يجل يهرجب » ، وإن كان ذلك لا يعني أن معين قد فقدت إستقلالها تماماً ، كما يذهب « رود كناكيس » كذلك إلى أن هذا النص إنما هو أقدم من نص (هاليفي ٥٠٤) ، ومن ثم فإن « شهر هلال » هذا أقدم من « شهر يجل يهرجب[2] » .

والواقع أن ما ذهب إليه « رودكناكيس » ربما كان أقرب إلى الصواب مما ذهب إليه «أولبرايت» ، بخاصة وأن الأخير قد ختم قائمة ملوك قتبان بالملك « شهر هلال » ، مشيراً إلى الدمار الذي حل بالعاصمة ، وإلى سقوط حكومة قتبان ، وليس من المقبول أن يكون ملكاً له كل هذا النفوذ على شعوب أخرى ، ثم تسقط دولته فجأة ، ذلك لأن سقوط الدول إنما هو دليل على ضعفها وانهيارها ، وليس في هذا النص إشارة إلى شيء من ذلك[3] .

وعلى أي حال ، فهناك من يميل إلى أن عصر قتبان الذهبي إنما كان في الفترة (٣٥٠–٥٠ ق.م) ، إذ تشير نصوص هذا العصر إلى أن قتبان كانت وقت ذاك أهم دول العربية الجنوبية ، وأنها قد أخضعت لسلطانها كلا من معين وسبأ ، لكن حدث قبيل الميلاد أن غزا شعب غير معروف على وجه التأكيد عاصمة قتبان وأحرقها ، ثم ظهرت بعد ذلك مملكة سبأ وذى ريدان ، على أنقاض كل من قتبان وسبأ ومعين[4] .

---

(١) جواد علي ٢/٢١٣ ، BASOR, 119, P. 9. وكذا KTB, I, 82, II, 5, 19

(٢) BASOR, 119, P. 13. وكذا KTB, I, 34, II, 7

(٣) جواد علي ٢/٢١٢–٢١٤ .

(٤) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٨ .

وهكذا يميل الباحثون إلى أن السبئيين هم الذين قضوا على دولة قتبان ، وإن اختلفوا في الوقت الذي حدث فيه ذلك ، فبينما يرى « فلبي » أن ذلك كان في عام ٥٤٠ ق.م[١] ، يذهب «أولبرايت» إلى أنه كان في عام ٥٠ق.م[٢]. على أن آخرين يرونه في عام ١٠ م[٣] ، بل إن هناك فريقاً رابعاً يراه فيما بين عامي ١٠٠ ، ١٠٦م[٤].

على أن الشيء الجدير بالملاحظة هنا أن دولة «سبأ وذي ريدان» ، لم تكن الوريثة الوحيدة لقتبان ، فقد شاركتها في الغنيمة « حضرموت » التي ضمت إليها جزءاً من قتبان ، وبذا استطاعت حضرموت منافسة « سبأ وذي ريدان » فترة امتدت حتى أخريات القرن الأول الميلادي ، هذا ويجب الإشارة هنا إلى أن قتبان لم تفقد استقلالها نهائياً ، كما أن الشعب القتباني لم يزل من الوجود أو يختفي اسمه تماماً ، ذلك لأننا نرى « بطليموس الجغرافي » يذكرهم بين الشعوب التي تقطن بلاد العرب ، وقد دعاهم (Kattabanoi = Kottabani)[٥] .

هذا وقد عثرت البعثة الأمريكية في مأرب على نقش جاء فيه أن الملك « نبط » ملك قتبان ، كان معاصراً لملك سبأ ، ويضعه «أولبرايت» في القرن الأول الميلادي ، والملك « نبط » هذا هو نفسه الملك « نبط بن شهر هلال » الذي جاء ذكره مع ابنه « مرثد » كملك لقتبان في نقش عثر عليه في « هجر بن جميد » عام ١٩٥١م ، ويبدو أن ملوكاً قتبانيين استطاعوا الحفاظ على الجزء الغربي من قتبان بعد سقوط « تمنع » ، متخذين من « حريب » مقراً لهم ، بينما اكتفى الحضارمة بالإستيلاء على جزء من شرقي البلاد ، وأن ذلك قد حدث فيما بين عامي ٢٥ ق.م ، والعام الأول الميلادي[٦].

---

(١) J.B. Philby, op. cit., P. 144.

(٢) BASOR, 119, 1950, P. 9.

(٣) BASOR, 160, 1960, P. 15.

(٤) le Museon, 3-4, 1964, P. 463.

(٥) جواد علي ٢١٧/٢ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٨ .

(٦) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٨ ، وكذا Albright, JAS, 73, 1953, P. 37 وكذا A.F.L. Beaston, OA, I, 1962, P. 47. وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 221

ويرى « فون فيسمان » أن نقش (جام ٦٢٩) والذي يتحدث عن حرب وقعت على مقربة من «وعلان» واشتركت فيها عدة أطراف ، إنما قد حدثت في عهد الملك « نبط عم » ملك قتبان ، وأن أصحاب هذا النقش إنما يذكرون أنهم قد حاربوا ضد ملك حضرموت وجيشها ، وضد «نبطم» ملك قتبان وآخرين . وأن النصر كان حليفهم ، ويحاول « فون فيسمان » أن يستنتج من عدم وجود كلمة « هجرن » بمعنى مدينة قبل إسم « تمنع » من أنها لم تكن وقت ذاك عاصمة قتبان ، وإنما كانت موضعاً صغيراً ، أو أسم أرض فحسب ، كما أن « نبط عم » وإن كان قد لقب هنا بملك قتبان ، إلا أنه لم يكن في الواقع إلا تابعاً لملك حضرموت ، وأخيراً فإنه يؤرخ لهذه الحرب بالفترة ما بين عامي ١٢٠ ، ١٤٠ م[١] .

وليس من شك في أن «تمنع» (تمنا = تمنة) هي أهم مدن قتبان ، وقد عرفت في كتابات الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان باسم (Thumna, Thomna, Tamna)[٢] كما أن « أوليري » يذهب إلى أن المدينة التي جاءت في جغرافية بطليموس تحت إسم (Thouma) إنما هي « تمنة »[٣] ، وقد وصف « بليني » مدينة (Thomna) بأنها من أكبر المدن في العربية الجنوبية ، وأن بها ٦٥ معبداً ، وأن المسافة بينها وبين « غزة » ٤٤٣٦ ميلاً ، تقطعها الإبل في ٦٥ يوماً على وجه التقريب ، وليست هذه المدينة سوى « تمنة » عاصمة قتبان[٤] .

وتقع « تمنع » في وادي بيجان في منطقة تدل آثار الري فيها ، على أنها كانت خصبة كثيرة المياه والبساتين ، وقد أثبتت أعمال الحفر التي قامت بها البعثة الأمريكية ،

---

(١) جواد علي ٢/٢١٦ ، وكذا le Museon, 3-4, 1964, P. 463.

(٢) جواد علي ٢/٢٢٢-٢٢٣
وكذا E. Glaser, Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895, P. 122
وكذا Pliny, 2, P. 453 وكذا F. Hommel, Grundriss, P. 137
وكذا ZDMG, XIIV, 184 وكذا A. Sprenger, op. cit., P. 160.
وكذا Ptolemy, VI, 7, 37.

(٣) O'leary, op. cit., P. 97.

(٤) Pliny, 6, 32. وكذا O'leary, op. cit., P. 97

تحت رياسة « وندل فيلبس » ، أن موقع « تمنة » القديم ، إنما هو في مكان خرائب كحلان (هجر كحلان الحالية) وأن المدينة قد خربت بسبب حريق هائل ، ربما أتى على المدينة كلها ، وأن هذا الحريق ربما كان بأيدي السبئيين إبان الحروب التي استعر أوارها بينهم وبين القتبانيين ، كما أثبتت الحفائر أن « تمنة » قد جددت عدة مرات ، وأن مقابرها كثيراً ما انتهكت حرماتها ، سواء أكان ذلك في الأيام الغابرة ، أو في العصر الحديث[1] ، وأخيراً فقد كشفت الحفائر في منطقة « تمنع » عن شبكة كاملة من السدود تتصل بها قنوات وصهاريج لتوفير مياه الري لرقعة واسعة من البلاد[2] .

ومن مدن قتبان الهامة كذلك « شور » (شوم) و « يرم » ، وكذا « حريب » التي ذكرها الهمداني[3] ، والتي اشتهرت بالنقود التي ضربت فيها ، وحملت إسمها ، كما أنها كانت عاصمة قتبان في أخريات أيامها[4] .

---

(١) جواد علي ٢/٢٢٢–٢٣٠ ، وكذا : وندل فيلبس : كنوز مدينة بلقيس ص ١٠٥ وما بعدها
وأنظر الأصل : Wendell Phillips, Qataban and Sheba, P. 58, 64, 119, 166

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٣) الهمداني : المرجع السابق ص ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣٤ .

(٤) جواد علي ٢/٢٣٠–٢٣١ ، وكذا
C.F. Hill, Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia P. IXXIV, 75, Pl. XI, 21.

الفصل العاشر

دولة سبأ

(١) سبأ :

تذهب الروايات العربية إلى أن « سبأ » إنما هو « عبد شمس بن يشجب بن يعرب ابن قحطان[١] » ، وأن سبب تسميته بسبأ أن الرجل كان أول من سبى من العرب[٢] ، بل ويذهب « ابن منبه » إلى أنه غزا بابل وأرمينية ومصر والمغرب ، وأنه قتل من الأمم وسبى من الذراري والعيال الكثير ، ومن ثم فقد سمي سبأ[٣] ، وأنه كان يسمى كذلك « الرائش » لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه ، ويزعم البعض أنه كان أول من توّج ، كما يزعم آخرون أنه كان مسلماً ، وله شعر بشر فيه بمبعث

(١) تاريخ الطبري ٢١١/١ ، أبو الفداء ١٠٠/١ ، ابن الأثير ٢٣٠/١ ، مروج الذهب ٢/٤٥-٤٨ ، أنساب الأشراف للبلاذري : ص ٤ ، المحبر ص ٣٦٤ ، الأخبار الطوال ص ١٠ ، المعارف ص ٤٦ ، ٢٧١ ، الإشتقاق ١٥٥/١ ، ٣٦١/٢-٣٦٢ ، تاريخ اليعقوبي ١٩٥/١ ، بلوغ الأرب ٢٠٧/١ .

(٢) كتاب التيجان ص٤٨-٥٠ ، مروج الذهب ٤٥/٢ ، تاريخ اليعقوبي ١٩٥/١ ، تاريخ ابن خلدون ٤٧/٢ ، بلوغ الأرب ٢٠٧/١ ، المعارف ص ٢٧١ ، قارن : ياقوت ١٨١/٣ (حيث يسمى عامراً بدل عبد شمس) ، روح المعاني ١٢٤/٢٢ أبو الفداء ١٠٠/١ ، ابن كثير ١٥٨/٢ .

(٣) وهب بن منبه : كتاب التيجان ص٤٨ ، ٥٠ ، قارن : عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٧٢/١ .

المصطفى – صلى الله عليه وسلم[1] – وأن الرجل قد حكم ٤٨٤ عاماً ، ثم جاء من بعده ولده «حمير» ، وأما أهم منشآته ، فقد كانت – طبقاً لمزاعم الأخباريين – بناء مدينة سبأ وسد مأرب في اليمن ، أما في مصر ، فقد كانت مدينة «عين شمس» التي خلفه عليها ولده «بابليون[2]» .

أما أن سبأ هو «عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان» ، فقد جاء ذلك في كتابة حفرت على نحاس في مجموعة (P. Lamare) ، وإن كان العلماء لم يقولوا حتى الآن الكلمة النهائية في نوع الكتابة وزمانها[3] ، وأما أن سبب التسمية كثرة الغزو والسبي حتى وصلت غزواته إلى بابل وأرمينية في آسيا ، ومصر والمغرب في أفريقيا ، فإن ذلك لم يحدث إلا في خيال «ابن منبه» ومن دعوا بدعوته ، فضلا عن أن تاريخ تلك البلاد لم يعرف سبأ هذا ، ولم يشر إليه ، حتى مجرد إشارة ، في النصوص التي ملأت آثار تلك البلاد ، وإن كان أصحاب تلك البلاد قد عرفوا السبئيين في فترات متأخرة من حضارتهم ، على أنهم من تجار البخور واللبان وغيرهما من مستلزمات المعابد القديمة ، وليس غزاة يحتلون البلاد ويبنون المدن .

وأما الدعوى بأن سبأ كان مسلماً ، وأنه بشر بمبعث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، فليست إلا من هذا النوع من الخيال الذي سوف يجعل «سيف بن ذي يزن» يبشر بعد ذلك بمبعث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، وإن كنت لا أدري – ولا أظن أن الذين كتبوا ذلك كله يدرون – على أي ملة كان إسلام «سبأ» هذا ؟

صحيح أننا نعرف أن الإسلام – في لغة القرآن العظيم[4] – ليس إسماً لدين خاص وإنما هو إسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء ، وانتسب إليه كل أتباع

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٨/٢–١٥٩ .

(٢) تاج العروس ١٦٩/١٠ ، تاريخ ابن خلدون ٤٧/٢ ، منتخبات ص٤٧ ، بلوغ الأرب ٢٠٧/١ ، الدميري ٤٤٥/١ ، روح المعاني ١٢٤/٢٢ .

(٣) جواد علي ٢٥٩/٢ .

(٤) أنظر : سورة البقرة : آية ١٣٢–١٣٣ ، سورة آل عمران : آية ٦٧ ، سورة المائدة : آية ١١١ ؛ سورة يونس : آية ٧٢ ، ٨٤ ، سورة النمل : آية ٣٠–٣١ .

الأنبياء[1] ، ومن ثم فإن الإسلام شعار عام يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر البعثة المحمدية[2] .

وسؤال البداهة الآن : هل كان سبأ يعي كل هذا ؟ حتى يصبح مسلماً — كما يقدم القرآن الإسلام — ثم كيف عرف سبأ ببعثة مولانا وسيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حتى يتنبأ بها قبل حدوثها بمئات السنين ، ثم يقول فيها شعراً ، وهل عرف رواة هذا الشعر ، أن عربية الجنوب تختلف كثيراً عن عربية الشمال[3] ، — عربية القرآن الكريم — وأن شعرهم المزعوم هذا ، إنما هو بعربية الشمال ، وليس الجنوب ، على أن العجب قد يزول ، إذا ما عرفنا أن هؤلاء الذين ينسبون الآن إلى سبأ شعراً ، إنما قد نسبوا إلى آدم وإبليس — بل وحتى الجن — شعراً عربياً فصيحاً كذلك .

أما أن سبأ قد بنى مدينة سبأ وسد مأرب ، فيكذبه أن التاريخ لا يعرف حتى الآن مدينة باسم سبأ ، وأما بناء سد مأرب[4] فتلك دعوى عريضة ، وإن كانت تفتقر إلى الصواب تماماً — الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في الجزء الأول من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » —

---

(١) محمد الراوي : الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ص ٥١ .

(٢) محمود الشرقاوي : الأنبياء في القرآن الكريم ص ٧٥–٧٦ .

(٣) Ignace Goldziher, History of Classical Arabic Literature, 1966, P. 2.

(٤) تختلف روايات الإخباريين فيمن بنى سد مأرب ، فرواية تذهب إلى أنه سبأ ، وأخرى أنها بلقيس ، وثالثة تذهب إلى أن سبأ قد بدأ بناء السد ثم أكمله ولده حمير ، ورابعة ترى أنه لقمان بن عاديا أو لقمان الأكبر العادي (مروج الذهب ٢/١٦٠–١٦٢ ، ياقوت ٤/٣٤–٣٥ ، الدميري ١/٤٤٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٠ ، ابن كثير ٢/١٥٩ ، وفاء الوفا ١/١١٧ ، تفسير الطبري ٢٢/٧٨–٨٠ ، تفسير روح المعاني ٢٢/١٢٦ ، تفسير القرطبي ١٤/٤٨٦ ، تفسير البيضاوي ٢/٢١٥٩ ، تفسير الفخر الرازي ٢٥/٢٥١) ، ومع ذلك فإن آثار السد نفسه تكذب كل تلك الأساطير ، فهو — كما سوف نعرف فيما بعد — قد بدأ بناءه « سمه علي ينوف » ثم ولده — « يثع أمر بين » ، ثم أخذ الملوك بعد ذلك يضيفون إليه أجزاء أخرى ، فضلا عن تقوية أجزائه القديمة . . .

وأما بناؤه لمدينة « عين شمس » بمصر ، وتولية ابنه « بابليون » عليها ، فزعم كذوب ، كما أني لا أظن أن الذين كتبوا كل ذلك كانوا يعلمون ، أن «عين شمس» قد ظهرت إلى الوجود قبل « سبأ » هذا ، بآلاف السنين ، وأنها كانت عاصمة مصر الموحدة ، ربما في الألف الخامسة قبل الميلاد ، وقبل التوحيد المعروف ، وقيام أول ملكية في التاريخ تحت قيادة « مينا » حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م ، بفترة طويلة ، ولعل شهرة عين شمس ، وما جاء عنها في التوراة من أن الصديق ، عليه السلام ، قد تزوج من « أسنات » إبنة كاهن عين شمس[1] ، كان سبباً في هذه الرواية ، ولكن هل يعلم أصحابنا الأخباريون أن اسم « عين شمس » إسم حديث نسبياً ، وقد سبقه إلى الوجود الإسم اليوناني للمدينة العريقة (هليوبوليس) ، ومن قبله بآلاف السنين كانت المدينة تحمل اسمها المصري « أون » (أونو) .

وأما تولية ابنه « بابليون » على عين شمس بعد بنائها ، أو على مصر بعد غزوها ، فمرة أخرى ، نقول : ليت الذين كتبوا ذلك كله كانوا يعرفون أن « بابليون » ليس إسماً لابن سبأ ، وإنما هو إسم لحصن[2] يقع على مقربة من النيل ، وأن بقاياه ما تزال قائمة حتى اليوم في حي مصر القديمة بالقاهرة ، وأنه كان موجوداً على أيام الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي ، وأنه كان يعرف بحصن بابليون ، وبالحصن وبقلعة الشمع ، وأن المسلمين قد استولوا عليه عام ٢٠هـ ، بعد حصار دام سبعة أشهر[3] .

---

(١) تكوين ٤١ : ٤٥ .

(٢) تذهب رواية إلى أنه سمي هكذا بسبب أن أحد الفراعين قد جلب أسرى من بابل وأنزلهم في هذا المكان، بينما تذهب رواية أخرى إلى أنه مشتق من إسم مصري قديم (أنظر : عبدالمنعم ماجد ٢١٩/١ ، بتلر : فتح العرب لمصر ص ١٨١ ، وكذا (Ency. de l'Islam, I, P. 560-561 ، على أن هناك من يري ان « تراجان » قد بناه عام ١٣٠م في مكان سجن كان الفرس قد أقاموه عند استيلائهم على مصر في القرن السادس قبل الميلاد ، وأطلقوا عليه إسم بابل ، فسموه حصن بابليون (القاهرة في الف عام ، القاهرة ١٩٦٩ ص ١٤، ٥١) .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٢-٦٣ ، ٦٩ ، الخطط المقريزية ٦١/٢ ، بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة أبو حديدة ص ١٨١ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ٢٣٦/٢ ، قارن : ياقوت ٣١١/١ .

وأما النصوص العربيـــة الجنوبية ، فليس فيها شيء عن سبأ أو عن لقبه المزعوم ، وكل ما فيها إنما يتحدث عن شعب يدعى « سبأ » له دولة ، وله حكام ، وله آلهة ، كغيره من شعوب العربية الجنوبية ، وإن كان مما لا ريب فيه أن المصادر التاريخية قد تحدثت عن دولة سبأ ، أكثر من غيرها من دول العربية الجنوبية .

السبئيون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي :

هناك نص سومري يرجع إلى عهد « أرادننار » من أسرة لجش الثانية — والتي تعاصر أسرة أور الثالثة التي حكمت في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد[١] — جاء فيه كلمة «Sabu» وتعني « سبأ »[٢] ، ويذهب « هومل »[٣] إلى أن هذه الكلمة (Sabum) التي وردت في النصوص السومرية إنما تعني « سبأ » التي وردت في التوراة ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن تاريخ سبأ يعود إلى الألف الثالثة ق.م[٤] ، ويرى « مونتجمري » أن قوم سبأ الذين تحدثت عنهم النصوص السومرية ، إنما كانوا من العربية الصحراوية ، أي من البادية ، ثم هاجروا إلى اليمن ، في وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين ، وإن ذهبت بعض الآراء إلى أن ذلك إنما كان في القرن الحادي عشر ق.م ، وبعد مئات من السنين من هجرة المعينيين والقتبانيين إلى اليمن[٥] .

على أن رأياً آخر إنما يذهب إلى أن هجرة أهل معين وقتبان وحضرموت إلى اليمن ، إنما كانت حوالي عام ١٥٠٠ق.م - بينما كانت هجرة السبئيين حوالي عام ١٢٠٠ق.م ،

---

(١) أنظر عن عصر أسرة أور الثالثة ، كتاب استاذنا الدكتور نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٥/١٦٠-١٦٢ .

(٢) EI, 4, P. 3 وكذا O'leary, op. cit., P. 87.

(٣) F. Hommel, in Hilprecht's Exploration in the Bible Land, P. 793 وكذا Encyclopaedia of Islam, 4, P. 3.

(٤) A. Grohmann, op. cit., P. 24.

(٥) R.F. Burton, Royal Inscriptions from Sumer and Akkad, P. 115. وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 24 وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 50.

وأن الأخيرين كانت لهم قوافل تجارية تصل إلى فلسطين قبل عام ٩٢٢ ق.م ، كما يفهم من بعض نصوص العهد القديم[١] .

ويذهب « هومل » إلى أن السبئيين إنما هم أصلاً من العربية الشمالية ، وأنهم كانوا يعيشون ، فيما يعرف عند الآشوريين بـ « أريبي » و « عريبي » ، وفي التوراة بـ « يرب » و « يارب » ، وفي القرن الثامن ق.م ، هاجروا إلى اليمن حيث استقروا في « صرواح » و « مأرب » التي جاء إسمها من « يارب » و « يرب » ، ويعتمد « هومل » في ذلك على أدلة ، منها (أولاً) ما جاء في نقش (جلازر ١١٥٥) من أن السبئيين قد تعرضوا لقافلة معينية في مكان ما بين « معان » و « رجمت » على مقربة من نجران ، ومن ثم فإن السبئيين إنما كانوا يقيمون في منطقة تقع إلى الشمال من دولة معين ، إبان ازدهارها الأخير ، ومنها (ثانياً) إختلاف لهجة السبئيين عن بقية الشعوب العربية الجنوبية ، مما يدل على أن السبئيين شماليون هاجروا إلى الجنوب[٢] .

على أن هناك وجهاً آخر للنظر ، يذهب إلى أن السبئيين إنما كانوا أسبق من المعينيين ، ذلك لأن النصوص القديمة التي ورد فيها اسمهم في التوراة وعند الآشوريين صرحت في الكلام عنهم ، كمجتمع منظم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، بينما لم يرد ذكر «معين» بصراحة وتحديد في نفس الفترة ، ومهما يكن من أمر الوثائق المكتوبة ، فإن الملاحظ من الناحية الأثرية هو أن الكتابات التي وردت بالخط المسند من ممالك اليمن المختلفة تبدأ بالكتابات السبئية ، ثم إن الآثار غير المكتوبة تبين لنا أن كل هذه التواريخ متأخرة بالنسبة لقيام الحضارة في اليمن ، فهناك بالتأكيد آثار ترجع إلى نهاية الألف الثاني ق.م[٣] .

---

(١) جواد علي ٢/٢٥٩–٢٦٠ وكذا، ملوك أول ٩ : ١٠ ، وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 24.

(٢) جواد علي ٢/٢٦٠

وكذا F. Hommel, Geographie und Geschichte des Alten Orients, I, P. 142.

(٣) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣٠ .

وهناك وجه ثالث للنظر ، يذهب إلى أن الحفائر الأثرية وتطبيق « العملية الراديو كربونية » «Radiocarbon Process» تشير إلى تعاصر السبئيين والمعينيين[1] ، ومن ثم فمن المحتمل أن تكون المملكتان قد قامتا في آن واحد ، أو في وقتين متقاربين جداً ، معين في الشمال ، وسبأ في الجنوب[2] .

هذا ونستطيع أن نستنتج من قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام – كما جاءت في الكتب المقدسة – أنه كانت هناك حكومة قوية ومنظمة في سبأ في القرن العاشر قبل الميلاد ، ذلك لأن سليمان إنما حكم في الفترة (٩٦٠–٩٢٢ ق.م)[3] ، وتلك في الواقع حقيقة يجب الإنتباه إليها ، ذلك لأن القرآن الكريم[4] – والتوراة[5] والانجيل[6] من قبل – قد تحدثت عن قصة سليمان مع ملكة سبأ ، وإن اختلفت الكتب المقدسة الثلاثة في سردها للقصة ، تبعاً للغرض من السرد نفسه ، ولكنها اتفقت جميعاً على وجود مملكة في سبأ ، على رأسها ملكة[7] ، وليس من العلم ، فضلاً عن الإيمان بكتب السماء ، أن نشك في أمر أجمعت عليه هذه الكتب المقدسة ،

---

(١) S. Moscati, op. cit., P. 178.

(٢) E. Dhorme, Langues et Ecritures Semitiques, P. 39.

(٣) يتفق المؤرخون على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنهم يختلفون في تحديد تلك الفترة من هذا القرن ، فبينما يرى « فضلو حوراني » أنها في الفترة (٩٧٤–٩٣٢) يرى الدكتور حسن ظاظا أنها في الفترة (٩٧٣–٩٣٦) ، ويرى « أبشتين » أنها في الفترة (٩٧٢–٩٢٢) ، ويرى « شموكل » أنها في الفترة (٩٧٠–٩٣٣) ، ويرى « فيليب حتى » أنها في الفترة (٩٦٣–٩٢٣) ويرى « هيتون » أنها في الفترة (٩٦١–٩٢٢) ويرى « اولبرايت » أنها في الفترة (٩٦٠ – ٩٢٢) وهكذا .

(٤) سورة النمل : آية ٢٠–٤٤ (وانظر : تفسير البيضاوي ١٧٣/٢–١٧٨ ، تفسير الطبري ١٩/ ١٤٣–١٧٠ ، تفسير روح المعاني ١٨٢/١٩–٢١٠ ، تفسير الطبرسي ٢٠٨/١٩–٢٣٠ ، تفسير ابن كثير ٣٦٠/٣–٣٦٦ ، في ظلال القرآن ٢٦٣١/١٩–٢٦٤٣ ، تفسير الكشاف ١٤٢/٣– ١٥١ ، تفسير القرطبي ١٧٦/١٣–٢١٣ ، تفسير أبي السعود ١٢٧/٤–١٣٤) .

(٥) ملوك أول ١٠ : ١–١٣ ، أخبار ثان ٩ : ١–١٣ .

(٦) متى ١٢ : ٤٢ .

(٧) أنظر مقالنا : «العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة» – مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – العدد السادس ص ٢٨٧–٤٣٧ ، الرياض ١٩٧٦ .

ومن ثم فإن وجود ملكة سبئية ، شمالية أو جنوبية ، في عهد سليمان — أي في القرن العاشر قبل الميلاد — حقيقة ترقى فوق كل شك ، وبالتالي فإن وجود السبئيين كقوة منظمة وقوية على رأسها ملكة في القرن العاشر ق.م ، حقيقة تاريخية .

على أن التوراة مضطربة في أصل السبئيين ، فهم مرة من الحاميين ، أبناء كوش ابن حام[1] ، وهم مرة أخرى من الساميين[2] ، وفرق كبير بين الحاميين والساميين ، كما هو معروف ، ثم إن سبأ (أو شبأ) تقدمة التوراة — وفي سفر التكوين بالذات — مرة على أنه من ولد يقطان[3] ، ولكنه مرة ثانية من ولد يقشان[4] ، والمعروف أن « يقطان » من ولد عابر ، ولكن « يقشان » من أولاد الخليل عليه السلام من زوجه قطورة الكنعانية[5] ، وفرق بين الإثنين كبير .

ولعل هذا الاضطراب في نصوص التوراة بشأن السبئيين ، هو الذي جعل بعض الباحثين يذهب إلى أن ما جاء في التوراة بشأنهم ، إنما هو من مصادر غير أصيلة لا يمكن الإعتماد عليها ، فضلاً عن الثقة بها ، فهي مادة كدرة ، ليس لها نصيب كبير من صواب[6] ، على أننا نري في نفس الوقت فريقاً من المتخصصين في الدراسات التوراتية يرون في هذا الاضطراب ، دليلاً على انتشار السبئيين في آسيا وأفريقية ، فهناك جاليات قد استقرت في أرتيريا والحبشة ، ومن ثم فقد جعلتهم التوراة من أبناء كوش ، بينما جعلت المستوطنين منهم في آسيا على فريقين ، الواحد ينتمي إلى يقطان والآخر إلى يقشان ، ومن ثم فقد صار السبئيون فرقاً ثلاث ، طبقاً لأماكن استقرارهم[7] .

---

(١) تكوين ١٠ : ٧ ، أخبار أيام أول ١ : ٩ .
(٢) تكوين ١٠ : ٢٨ .
(٣) تكوين ١٩ : ٢٨ .
(٤) تكوين ٢٥ : ٣ .
(٥) تكوين ٢٥ : ١—٢ .
(٦) W.F. Albright, The Bible and the Ancient Near East, London, 1961, P. 300.
(٧) J. Hastings, op. cit., P. 490. وكذا EB. P. 2564

ولست أدري كيف قبل هذا الفريق من العلماء هذا التقسيم لشعب واحد ، إلا أن يكون الإيمان بحرفية ما جاء في التوراة هو السبب ، حتى إن كان الذي جاء فيها يخالف المنطق ، فضلاً عن حقائق التاريخ وعلم الأجناس ، وإلا فخبرني بربك ، كيف قبل هذا الفريق من علماء التوراة ، أن يكون السبئيون حاميين وساميين في نفس الوقت ، وأن يكونوا من ولد يقشان ويقطان في الوقت نفسه مرة أخرى . ثم ألم يرجع سفر التكوين نفسه الكنعانيين إلى حام ، وذلك حين تعمد اليهود في توراتهم — كما يقول كارل بروكلمان — إقصاء الكنعانيين عن الإنتساب إلى سام بن نوح ، لأسباب سياسية ودينية ، مع أنهم كانوا يعلمون ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية[1] ، والأمر كذلك بالنسبة إلى المصريين الذين جعلوهم من الحاميين « بنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان »[2] .

إذن : فالأمر متعمد سببه العداء التقليدي الذي يكنه اليهود للمصريين بخاصة ، والعرب بعامة[3] ، وليس أدل على ذلك من أن سكان واحة ديدان ، والذين كانوا يتألفون من طائفتين ، أولاهما من أهل البلاد الأصليين ، والثانية هي الجالية السبئية التي هاجرت من جنوب بلاد العرب[4] ، تنظر إليهم التوراة مرة على أنهم من الكوشيين من جنوب بلادالعرب[5] ، ومرة اخري من السلالة السامية من ولد إبراهيم من زوجة قطوره[6] ، مما يدل على الإصرار — فضلاً عن الإضطراب — على أن السبئيين من كوش من ولد حام .

---

(١) جواد علي ٢٢٤/١ ، وكذا R.A. Nicholson, op. cit., P. XV.

(٢) تكوين ١٠ : ٦ .

(٣) أنظر : مقالنا «الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي» مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الرابع ص ٢٤٥–٢٧١ ، الرياض ١٩٧٤م .

(٤) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩٦ .

(٥) تكوين ١٠ : ٧ .

(٦) تكوين ٢٥ : ١–٤ .

وأما ما جاء في النصوص الأشورية بشأن السبئيين من عهد « تجلات بلاسر الثالث » (٧٤٥-٧٢٧ق.م) و« سرجون الثاني » (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) و «سنحريب» (٧٠٥-٦٨١ ق.م) بشأن الجزية التي تلقاها هؤلاء الملوك من الملكات العربيات : زبيبة وشمسي وغيرهن[1] ، والملكين السبئيين « يثع أمر » (أتعمارا) و « كرب إيلو »[2] ، ربما لم تكن جزية ، بقدر ما كانت هدايا ، وأن السبئيين إنما كانوا ينظرون إلى أنفسهم كأنداد لملوك أشور ، أو حلفاء لهم ، وربما كان هناك تحالف بين الفريقين ضد غارات البدو الجامحين في الشمال[3] .

على أن الذي لا شك فيه أن سبأ كان لها نفوذ واسع يمتد إلى نجد وإلى شمال الحجاز ، وكانت تسيطر على الطريق التجاري الرئيسي الذي يربط جنوب غرب شبه الجزيرة العربية بسورية ومصر ، وأن هناك حكاماً سبئيين معتمدين في الواحات الشمالية التي تقع على هذا الطريق ، فضلاً عن الحامية العسكرية التي تضمن بقاءه تحت النفوذ السبئي ، وكانت واحة ديدان (العلا) المركز الرئيسي الذي تمارس فيه دولة سبأ نفوذها في شمال بلاد العرب ، إلى جانب تيماء ومعان ، وإن كانت ديدان هي المقر الرسمي للحاكم السبئي المقيم[4] .

---

(١) S. Moscati, The Semites in Ancient History, P. 72, 123
وكذا N. Abbot, PreIslamic Arab Queens, AJSL, 58, 1941.

(٢) H. Fleisch, op. cit., P. 90 وكذا D.D. Luckenbill, op. cit., P. 518
وكذا D. Nielsen, Handbuch, I, P. 75.

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٧٦ ، ٨٧ ، وكذا
P.K. Hitti, op. cit., P. 38.

(٤) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٥٩-١٦٠ ، الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩٦-٩٧ .

أدوار التاريخ السبئي الأربعة الرئيسية

يقسم المؤرخون تاريخ سبأ إلى عصور أربعة ، معتمدين في ذلك على أن لقب حكام سبأ لم يكن لقباً ثابتاً ، إنما كان يتغير من عصر لآخر ، طبقاً لظروف الدولة نفسها ، وأما هذه العصور الأربعة فهي :

(١) العصر الأول :

ويمتد من حوالي عام ٨٠٠ ق.م إلى عام ٦٥٠ ق.م[١] ، وفيه كان حكام سبأ يحملون لقب « مُكَرِّب » ذلك اللقب الذي تغلب عليه الصبغة الدينية ، وتقابله في العربية الفصحى « مقرب » ، وهو أمير كان يقوم بذبح القرابين للآلهة[٢] ، كما كان يقوم كذلك بدور الوساطة بين الآلهة والناس ، وربما كانت وظيفة « المكرب » هذه تشبه إلى حد كبير وظيفة « المزواد » عند المعينيين[٣] ، والقضاة عند بني إسرائيل[٤] ، وربما لقب « إيشاكو » عند السومريين ، وكل هذه الألقاب إنما تعطي أصحابها صفة دينية في حكم بلادهم ، أو على الأقل إشارة إلى القداسة التي يرتكزون إليها في ممارسة هذا الحكم ، سواء أكان ذلك من الناحية الدينية أو المدنية .

(٢) العصر الثاني :

ويمتد من حوالي عام ٦٥٠ ق.م ، وحتى عام ١١٥ ق.م (أو عام ١٠٩ ق.م) ، وفيه حمل حكام سبأ لقب « ملك » كما اتخذوا من « مأرب » عاصمة لهم ، بدلاً من

---

(١) جواد علي ٢/٢٦٩ ، وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 7.

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٣) J. Hastings, op. cit., P. 504. وكذا EB, P. 2632

(٤) راجع عن القضاة عند بني إسرائيل : كتابنا إسرائيل ص ٣٧٥–٣٧٧ ، موسكاتي : المرجع السابق ص ١٤٠–١٤١ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ٣/٣٢٥ ، ول ديورانت ٢/٣٢٧ ، جوستاف لوبون : اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ص ٣٥ ، وكذا A. Lods, op. cit., P. 335.

« صرواح » عاصمة الدولة في العصر الأول ، وقد بدأ هذا العصر بـ « كرب إيل وتر » ، الذي كان آخر من حمل لقب « مكرب » ، وأول من حمل لقب « ملك » .

(٣) العصر الثالث :

ويمتد من حوالي عام ١١٥ ق.م ، وحتى عام ٣٠٠ م ، وفيه حمل حكام سبأ لقب « ملك سبأ وذى ريدان » إشارة إلى ضم « ريدان » إلى التاج السبئي ، وربما يشير كذلك إلى دولة قتبان أو حمير فيما يرى بعض الباحثين[١] ، ومن هنا رأينا بعض المراجع تطلق عليه تجاوزا إسم « عصر الدولة الحميرية الأولى » .

(٤) العصر الرابع :

ويمتد من حوالي عام ٣٠٠م ، وحتى عام ٥٢٥م ، وفيه حمل حكام سبأ لقب « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في المرتفعات وفي التهائم » (عصر الدولة الحميرية) ، وهو آخر دور من أدوار الحكم في سبأ وخاتمة الأدوار ، حيث تبدأ البلاد بعد ذلك تقاسي الأمرين من الحكم الأجنبي (الحبشي والفارسي) إلى أن يظهر نور الإسلام في مكة المكرمة ، وتنضوي اليمن تحت لوائه في عام ٦٢٨م ، وبذا ينتهي التاريخ اليمنى القديم .

والمفروض أنه — بناء على تطور هذه الألقاب — أن يكون السبئيون قد بدأوا أمراء صغاراً ممن يسميهم الكتاب العرب « الأذواء » وهم يقصدون بذلك جمع « ذو » أي صاحب ، التي يضاف إليها إسم المكان ، من حصن أو محفد ، مثل غمدان وصاحبه « ذو غمدان » ، وريدان ، وصاحبه « ذو ريدان » ، ثم تحولوا إلى أمراء لعدد من الحصون أو المحافد ممن يسميهم الكتاب العرب «الأقيال» (ومفردها قيل) ، وهم في الطريق إلى أن يسيروا ملوكاً أو أباطرة على كل البلاد[٢] .

---

(١) I. Shahid, Pre-Islamic Arabia, CHI, I, P. 9.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٨٩ .

أولا : عصر المكاربة

يرى بعض الباحثين ، كما أشرنا آنفاً ، أن هذا العصر يقع فيما بين عامي ٨٠٠ ، ٦٥٠ ق.م ، بينما حدد له آخرون الفترة (٧٥٠–٤٥٠ ق.م) [١] ، هذا إلى جانب فريق ثالث – وهذا ما نرجحه ونميل إلى الأخذ به – ذهب إلى أنه قد بدأ في القرن العاشر ق.م ، وربما في القرن التاسع ق.م[٢] ، وكانت عاصمة الدولة وقت ذاك مدينة « صرواح » ؛ كما أن ملكة سبأ المشهورة في تاريخ سليمان بن داود ، إنما تنتمي إلى هذا الفترة من الناحية الزمنية .

وأما أول المكاربة فهو « سمه علي »[٣] ، وقد حدد له « فلبي » الفترة (٨٠٠– ٧٨٠ ق.م)[٤] ، ثم عاد بعد عامين فحدد له عام ٨٢٠ ق.م ، كبداية لحكمه[٥] ، ويذهب بعض الباحثين إلى أن نقش (جلازر ١١٤٧) إنما يرجع إلى عهد هذا المكرب ، فضلاً عن نقش (جلازر ٩٢٦) الذي وردت فيه أسماء سبأ ومأرب وفيشان ، وكذا أسماء الآلهة « عثر والمقة وذات حميم » ثم إسم المكرب طبقاً للعادة المألوفة في التيمن بذكر إسم الحاكم من مكرب أو ملك[٦] .

---

(١) جواد علي ٢/٢٦٩
وكذا R. L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, P. 37

(٢) BASOR, 137, 1955, P. 38. وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 122

(٣) راجع قوائم مكاربة سبأ في : جواد علي ٢/٣٠٧–٣١٤
وكذا N. Rhodokankis, KTB, II, P. 49.
وكذا J. Ryckmans, L'Institution Monarchique en Arabie Meridionale avant
وكذا l'Islam, I, Louvain, 1951, P. 95.
وكذا Grundriss, P. 671 وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 141
وكذا le Museon, LXII, 1949, 3-4, P. 248.

(٤) J.B. Philby, The Background of Islam, 1947, P. 141.

(٥) Le Museon, LXII, 3-4, 1949, P. 248,

(٦) جواد علي ٢/٢٧٠ .

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى أن السبئيين إنما كانوا يعبدون « عثّر » (عشتر) الإله العربي الجنوبي على أنه إله ذكر ، ويرمزون له بنجم الزهرة ، بينما نظائره في جميع الأديان السامية البشرية الأخرى إلهة مؤنثة ، كعشتار عند البابليين والآشوريين ، وعشتارت عند الكنعانيين ، كما أن عبادة « عثّر » هذا لم تكن مقصورة على السبئيين ، وإنما كانت منتشرة كذلك بين المعينيين والقتبانيين [١] ، أضف إلى ذلك أن النصوص إنما تذكر عادة الآلهة (عثّر وهوبس والمقة) في صيغ التوسل كوحدة متكاملة ، فثلاثتها تأتي بعد (ياء) واحدة ، وربما تعني بحق (أي بحق عثّر وهوبس والمقة) ، بينما تأتي بقية الآلهة ، وكل منها له (ياؤه) الخاصة به — أي كل واحد تسبقه بكلمة بحق — أما الإلهة « ذات حمى » (ذات حميم) فمعظم الباحثين يرونها — وكذا ذات بُعدْن — إسماً للإلهة الشمس ، وأن « ذات حمى » ربما كانت بمعنى ذات حرارة ، على أساس أن حمى تعني الحرارة [٢] .

وهناك نقش — ربما كان هو الذي أشرنا إليه آنفاً — يتحدث عن تقديم المكرب « سمه علي » البخور والمر للإله القومي « المقه » (الموقاة) ، مما يشير إلى أن المكرب كان يقدم البخور باسمه ، ونيابة عن قبيلته التي قادها من القيافي والقفار إلى الأرض السعيدة التي تفيض لبناً وعسلاً [٣] .

وجاء بعد «سمه علي» ولده « يدع إيل ذريح » الذي يرى «فلبي» أنه حكم حوالي عام ٨٠٠ ق.م [٤] ، بينما يرى « فون فيسمان » أنه حكم حوالي القرن الثامن ق.م [٥] ويضعه « أولبرايت » في النصف الثاني من القرن السابع ق.م (في فترة مبكرة منه أو في أواسطه) [٦] ، وأخيراً فهناك من يحدد ذلك بعام ٧٥٠ق.م [٧] .

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٢ .
(٢) مطهر علي الأرياني : في تاريخ اليمن ص ١١—١٢ .
(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٨٩ .
(٤) Le Museon, LXII, 3-4, 1949, P. 248.
(٥) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 22.
(٦) W.F. Albright, BASOR, 143, 1956, P. 9.
(٧) A. Grohmann, op. cit., P. 157.

وقد قدمت لنا الحفائر عدة نقوش ترجع إلى أيام «يدع إيل ذريح» ، منها ذلك النقش الطويل الموجود على الجدار الخارجي لمعبد « صرواح » ، وقد جاء فيه أن هذا المكرب هو الذي بنى هذا الجدار ، كما يذكر النقش كذلك الإله المقة وعثّر ، والإلهة « ذات حميم » والذين يكوّنون معاً « ثالوث المدينة القديمة » ، هذا ويرى الدكتور أحمد فخري[1] أن هذا المعبد (معبد صرواح) — والذي يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد — إنما هو أقدم المعابد السبئية التي ظلت قائمة حتى اليوم .

وهناك نقش عثر عليه في « محرم بلقيس » عرف بنقش (جلازر ٤٨٤) يتحدث عن بناء « يدع إيل ذريح » لجدار في معبد الإله المقة في أوام ، وتقديم القرابين للإله « عثر »[2] ، كما أن هناك في منطقة المساجد بمأرب آثار معبد مستطيل الشكل يحمل نقشين من عهد « يدع إيل ذريح » يتضمنان نصاً ينسب إليه بناء هذا المعبد المعروف بمعبد « محرم بلقيس » والمخصص لإله سبأ الرئيسي « المقة »[3] .

وجاء بعد « يدع إيل ذريح » ولده « يثع أمر وتر » ، وقد جاء في النقش (CIH, 490) أنه أنشأ معبد الإله القمر الذي أطلق عليه السبئيون لفظ « هوبس » في قرية « دبير » — في منتصف المسافة بين مأرب والمدن المعينية في الجوف — وإن كان « هومل » يرى أن « دبير » هذه ليست قرية ، وإنما قبيلة بنت معبداً باسمها ، وأن « يثع أمر » إنما قام بتجديد هذا المعبد ، وسواء أكان هذا أو ذاك ، فإنه يعني على أي حال ، أن المكرب السبئي بدأ يتدخل في شئون معين منذ تلك الفترة المبكرة ، التي ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد[4] .

---

(١) أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ١٦٢ .

(٢) جواد علي ٢/٢٧٢ ، صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ١/١٩ .

(٣) أحمد فخري : أحدث الإكتشافات الأثرية في اليمن ، معبد المساجد ببلاد مراد ص ٢٥٥—٢٥٦ ، (القاهرة ١٩٦١) وكذا Le Museon, LXI, 3-4, 1948, P. 215, 218, 1949, 3-4, P.248.

(٤) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٠
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 23
وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 77.

وجاء بعده — فيما يرى هومل[1] — ولده « يدع إيل بين » ، وهناك ما يشير إلى أنه قام بتحصين مدينة « نشق » — التي عرفها الرومان باسم « نسكا Nesca » ، وتعرف الآن باسم «خربة البيضاء» الواقعة في الجوف — وربما قد يتبادر إلى الذهن أنه قد حصنها بعد نصر أحرزه على سكانها ، غير أن المؤرخين لا يعرفون متى تمّ هذا النصر — أفي عهده أم في عهد أبيه — وإن رأى « هومل » أنه إنما كان على يد « سمه علي ينف » ، الذي جاء ذكره على بعض النقوش التي عثر عليها في تلك المنطقة ، وإن لم يكن هناك من دليل يؤيد وجهة النظر هذه[2] .

وعلى أي حال ، فيبدو أن السبئيين إنما كانوا يحاولون الإستيلاء على معين على مراحل ، وقد رأينا من قبل أنهم استولوا على «دبير» ، ثم اتخذوا منها مركزاً للإغارة على المعينيين ، غير أن هناك ما يشير إلى أن « دبير » قد انفصلت عن سبأ ، ثم عادت مرة أخرى إلى النفوذ السبئي على أيام « كرب إيل وتر »[3] .

وجاء بعد ذلك المكرب « يثع أمر » ، والذي يرى فيه « هومل » إبنا لسلفه أو شقيقا له[4] ، وأما « فلبي » فقد ذهب مرة إلى أنه أحد أبناء « سمه علي ينف[5] » وذهب مرة أخرى إلى أنه شقيق أو إبن شقيق سلفه[6] ، وأنه المعاصر للملك الأشوري سرجون الثاني (٧٢٢—٧٠٥ ق.م)[7] وأنه قدم إليه الهدايا ، بل إن هناك ما يشير إلى أن «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥—٧٢٦ ق.م) ، قد أخذ الجزية من تيماء وغيرها من الواحات العربية ، فضلاً عن « سبأ » ، والتي ربما تعني الجالية السبئية التي خلفت المعينيين في ديدان ، ومن هنا فإنها ترد في النص بعد تيماء مباشرة[8] .

---

(١) J.B. Philby, op. cit., P. 37.

(٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٠ ، وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 77.

(٣) جواد علي ٢/٢٧٧ ، وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 15.

(٤) Handbuch, I, P. 77.

(٥) J.B. Philby, op. cit., P. 141.

(٦) Le Museon, LXII, 3-4, 1949, P. 248.

(٧) J.B. Philby, op. cit., P. 141.

(٨) A. Musil, The Northern Hegas, P. 288 وكذا Van den Branden, Histoire de Thamoud, P. 7.

وعلى أي حال ، فهناك ما يشير إلى أن « يثع أمر » كان يحكم كذلك في شمال بلاد العرب ، على مقربة من البادية (إما في أعالي الحجاز أو نجد ، وإما في المناطق الجنوبية من الأردن)[1] ، إلا أن عثور بعثة ألمانية على نقش يفيد تقديم هدايا للملك الآشوري « سنحريب » (٧٠٥–٦٨١ ق.م) من « كرب إيلو » السبئي ، جعل العلماء يرون أن الملكين اللذين قدما الهدايا للآشوريين ، إنما هما المكربان « يثع أمر » و « كرب إيلو[2] » ، وأن « يثع أمر » إنما قدم هداياه حوالي عام ٧١٥ ق.م »[3] ذلك لأننا نعرف أنه في حوالي عام ٧٢٠ ق.م ، وربما عام ٧١٥ ق.م ، قد انتشرت القلاقل والإضطرابات في سورية وفلسطين ضد الآشوريين بدرجة كبيرة ، وأن معظم سكان الولايات المختلفة هناك قد ساهموا فيها بدرجة كبيرة أو صغيرة ، وطبقاً لرواية التوراة[4] ، فقد أتى الإمبراطور الآشوري بقوم آخرين من « كوت وبابل وعوا وحماة وسفروايم » ، وأسكنهم في هذه الأقاليم ، وليس من شك في أن الآشوريين كانوا يهدفون من سياستهم هذه كسر التحالفات القديمة ، بإدخال أجانب في البلاد (وربما كانوا في بعض الحالات من الآشوريين أنفسهم) ، وبداية لظروف جديدة أكثر ملاءمة للإمبراطورية الآشورية الطموح[5] .

ونقرأ في حوليات سرجون الثاني من هذه الفترة ، أنه في السنة السابعة من حكمه ، وفي حوالي عام ٧١٥ ق.م ، « وطبقاً لوحي صادق من آشور إلهي ، قضيت على قبائل تامود وإيباديدي ومرسيمانو وجبايا[6] والعرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء ، والذين لا يعترفون برؤساء أو موظفين ، والذين لم يكونوا قد جاءوا بجزهم لأي ملك ، سبيت الأحياء منهم ونقلتهم إلى السامرة ، من بيرعو ملك مصرو ، ومن

(١) جواد علي ٢/٢٧٨ ، وكذا A. Musil, Arabia Deserta, P. 479.
(٢) جواد علي ٢/٢٧٨ : وكذا BASOR, 137, 1955, P. 232.
(٣) BASOR, 143, 1956, P. 10.
(٤) ملوك ثان ١٧ : ٢٤ ، عزرا ٢ : ٩ .
(٥) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٥١١ .
(٦) أنظر عن هذه القبائل : الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩١–٩٥ .

شمسي ملكة العرب ؛ ومن «أتعمارا» (يثع أمر) السبئي »[1] . ومن ثم فربما كان « فلبي » مصيباً في رأيه حين حدد الفترة (٧٢٠–٧٠٠ ق.م) لحكم « يثع أمر » هذا[2] ، وعلى أي حال ، فهناك من يرى أن نفوذ العاهل الأشوري إنما وصل إلى سبأ نفسها ، ومن ثم فقد أسرع ملكها بحمل الجزية إلى سرجون ، حتى لا تقع بلاده آخر الأمر ضمن أملاك الآشوريين[3] .

وجاء بعد « يثع أمر » ولده « كرب إيل بين » ، وطبقاً للنقش (CIH, 639) فإن الرجل قد وسع أطراف مدينة « نشق » ربما لأغراض سياسية واقتصادية ، هذا ونقرأ في حوليات « سنحريب » أنه تسلم هدايا من « كرب إيلو » ملك السبئيين ، أما الهدايا فقد كانت من الأحجار الكريمة والعطور ، وأما « كرب ايلو » فهو المكرب « كرب إيل بين » ، وإن كان الأشوريون قد أطلقوا عليه لقب « ملك » ، فليس لذلك من تعليل سوى أنهم كانوا يجهلون ألقاب حكام سبأ في تلك الفترة[4] .

وجاء بعد « كرب إيل بين » ولده « ذمار على وتار » ، ونقرأ في نقش (هاليفي ٣٤٩) أنه أمر بتوسيع مدينة « نشق » فيما وراء الحدود التي اختطها أبوه ، كما أمر بتحسين وسائل الري وباستصلاح الأراضي المحيطة بها واستغلالها في الزراعة ، وإن جعل ذلك مقصوراً على السبئيين ، على أن الاهتمام بمدينة « نشق » (المعينية الأصل) إنما يدل على مدى اهتمام حكام سبأ باستصلاح الأراضي البور فيها ، ثم توزيعها على السبئيين من أتباعهم ، وبالتالي تحويلها إلى مدينة سبئية بمرور الوقت[5] .

وهناك على مقربة من « مأرب » توجد فتحة لتنظيم تصريف المياه التي كانت تسير في القناة اليمنى (إحدى القناتين اللتين كانتا تخرجان من سد مأرب) وما زالت

---

(١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٧٥ ، وكذا A.L. Oppenheim, ANET, P. 286.

(٢) J.B. Philby, op. cit., P. 141.

(٣) F. Hommel, Grundriss, P. 580.

(٤) جواد علي ٢/٢٧٩–١٨٠ ، وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 76. وكذا EB, 19, P. 785

(٥) جواد علي ٢/٢٨٠ .

بقايا جداريها المشيدين بالحجر ، باقية حتّى الآن في الجهة الجنوبية من المدينة ، وهي أمام الباب الرئيسي من السور الذي كان يواجه معبد « أوام » أو محرم بلقيس ، وعلى الجدار الشمالي من ذلك الأثر النقش رقم (١-٤٤) وقد جاء فيه أن مكرب سبأ « ذمار على وتار » بن « كرب إيل » (الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد) هو الذي بنى هذه الفتحة ، أمام هيكل الإله « عثتر »[١] .

وجاء بعد « ذمار على وتار » ولده « سمه على ينوف » الذي ينسب إليه أنه صاحب فكرة ومنفذ أكبر مشروع للري عرفته بلاد العرب ، وذلك بالرغم من أن سكان « مأرب » كانوا ذوي خبرة بشئون الري ، إلا أن سدودهم كانت بدائية ، حتّى جاء « سمه علي ينوف » ، وأحدث تطوراً في وسائل الري ، وذلك حين شيد « سد رحب » للسيطرة على مياه الأمطار والإفادة من السيول ، وهكذا بدا المشروع العظيم ، والذي عرف في التاريخ باسم «سد مأرب» ، والذي نما على مر الأيام حتّى اكتمل في نهاية القرن الثالث الميلادي على أيام « شمر يهرعش » ، فنظم وسائل الري وأضاف مساحات كبيرة للأرض الزراعية[٢] .

ونعرف من نقش (جلازر ٥١٤) أن « سمه على ينوف » قد ثقب حاجراً في الحجر وفتح ثغرة فيه لمرور المياه إلى سد « رحب » ، ثم إلى منطقة « يسرن » التي كانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتي بالمياه من حوض السد[٣] ، وتبتلع مياهها من مسيل « ذنة » فتغذى أرضاً كانت ، وما تزال ، خصبة ، يمكن للقوم الإفادة منها إذا ما استعملوا الآلات الحديثة لإيجاد المياه[٤] .

وليس هناك من شك في أن عهد « سمه على ينوف » من أهم عهود مكاربة سبأ ، فيما يتصل بالتأريخ لسد مأرب ، وأن أقدم ما لدينا من وثائق عنه ، إنما

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧١ ، وكذا J. Ryckmans, op. cit., P. 62-63.

(٢) جواد علي ٢٨١/٢ ، وكذا R.L. Bowen and F. Albright, op. Cit P. 73.
وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 79.

(٣) جواد علي ٢٨١/٢-٢٨٢ ، وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P.27.

(٤) جواد علي ٢٨١/٢ ، نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العرب السعيدة ص ٨٨ .

يرجع إلى عهد هذا المكرب ، ربما إلى حوالي عام ٧٥٠ ق.م ، على رأي[١] ؛ وحوالي عام ٧٠٠ ق.م ، على رأي آخر[٢] .

وسار ولده وخليفته « يثع أمر بين » على سنته ، ويبدو أن سد « رحب » لم يف بجميع احتياجات الأراضي الصالحة للزراعة ، ومن ثم فقد عمل « يثع أمر بين » على إدخال التحسينات على هذا السد ، وإنشاء فروع له ، ومنها فتح ثغرة في منطقة صخرية حتى تصل المياه إلى أرض « يسرن » ، هذا إلى جانب تعلية «سد رحب »وتقويته ، أضف إلى ذلك بناء سد « هباذ » ، وهو أكبر من سد رحب ، والذي كان على الأرجح البوابة الأخرى على اليسار[٣] ، كما أقام سده الجبار المعروف باسم « سد حبابض » الذي مكن الأرض من الإفادة بأكبر كمية من المياه كانت تجري عبثاً ، فلا تفيد زرعاً ولا ضرعاً[٤] .

ولعل هذا كله هو الذي دفع بعض الباحثين إلى اعتبار « يثع أمر » وأبيه « سمه على ينوف » المؤسسين الحقيقيين لسد مأرب ، والذي يعتبر أكبر عمل هندسي شهدته بلاد العرب في تاريخها القديم ، وقد تم هذا العمل في القرن السابع ق.م (فيما بين عامي ٦٥٠ ، ٦٣٠ ق.م) ، هذا وقد كان من أثر الإهتمام بإنشاء السدود وتنظيم الري ، أن زادت مساحة الأراضي الزراعية ، وخاصة حول مأرب ، مما كان سبباً في الإعلاء من شأنها وزيادة سكانها ، ولما كان الرخاء الاقتصادي في سبأ يعتمد على الحياة النباتية — وليس الحيوانية — فإن الإهتمام بتنظيم الري إنما كان سبباً في الرخاء الذي ساد البلاد ، إبان تلك الفترة ، وجعل من مأرب مدينة مزدهرة ، وبالتالي فقد أوجد الصورة الرومانتيكية لبلاد العرب في عقول المؤلفين الكلاسيكيين ،

---

(١) جواد علي ٢٨٢/٢ وكذا R.L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, P. 75

(٢) جواد علي ٢١٠/٧ ، وكذا EI, 3, P. 290.

(٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٨٣ ، جواد علي ٢٨٢/٢ وكذا R.L. Bowen and F. Albright, op. Cit, P. 75.

(٤) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩١ ، وكذا EI, 3, P. 290.

فأطلقوا عليها « بلاد العرب السعيدة » ، وهكذا أصبحت مأرب تنازع صرواح مكانتها أول الأمر ، ثم احتلال هذه المكانة بعد حين من الدهر ، فغدت عاصمة « سبأ » ، وصاحبة معبد الإله الموقاة ، إله سبأ الكبير [١] .

هذا ولم يكن نشاط « يثع أمر » مقصوراً على النواحي الإقتصادية فحسب ، وإنما تعداه إلى النواحي الحربية ، ومن ثم فإننا نقرأ في نقش (فلبي ٧٧) أنه سوّر «حريب» وحصن قلعتها [٢] ، وأنه قام بحملات عسكرية ضد القبائل والدويلات المجاورة ، التي بدأ الضعف يتسرب إلى كيانها ، وأخذت حكوماتها تسير نحو الزوال بخطى حثيثة ، فطبقاً للنقوش التي عثر عليها في مأرب ، فإن « يثع أمر » قد هاجم قتبان على أيام ملكها «سمه وتر» ، وقتل منها قرابة أربعة آلاف رجل ، ولم يكن حظ معين بأفضل من حظ قتبان ، وإن كنا لا نعلم عدد الضحايا من أبنائها ، إلا أننا نعرف أنه قد تابع انتصاره عليها بنصر آخر أحرزه على القبائل والمدن التي لم تكن قد خضعت بعد لحكومته ، حتى وصل إلى نجران ، وهناك وعلى مقربة من نجران دارت رحى الحرب بينه وبين « مهأمرم » (مهامرم) و « أمرم » ، حتى قتل من أعدائه ٤٥ ألفاً ، وأسر ٦٣ ألفاً من الرجال ، وغنم ٣١ ألف راس من الماشية ، ودمر عدداً من المدن والقرى ، الواقعة بين رجمت ونجران [٣] .

وأما النشاط الديني ، فقد أسهم فيه ببناء « معبد نسور » و « معبد علم » ، و « معبد في ريدان» ، هذا فضلاً عن معبد للإلهة «ذات حميم» في «حنن» ، وعدة أبنية بإزاء معبد « دهب » ، كما أقام مذبحاً عند باب « نوم » للإحتفال بموسم « صيد عثتر » الذي لا نعرف عنه شيئاً ، وإن كان يبدو أن مكاربة سبأ إنما كانوا يحتفلون بالصيد

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩١ ، وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 39.
وكذا I. Shahid, op. cit., P. 10

(٢) J.B. Philby, Sheba's Daughters, P. 445.
وكذا . Le Museon, LXII, 3-4, 1949- P. 249.

(٣) جواد علي ٢٨٣/٢ ، وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 81 .
وكذا J.B. Philby, The Background of Islam, P. 39.

في مواسم معينة ، ثم يعقدون صلة بين هذه المواسم وبين الآلهة ، ربما إبتغاء مرضاة هذه الآلهة ، ورغبة منهم في أن تمنحهم صيداً وفيراً[1] .

وجاء بعد « يثع أمر » ، « كرب إيل وتار » والذي يعد عهده من العهود الحاسمة في تاريخ سبأ ، فهو بمثابة خاتمة لعهود المكربين ، وفاتحة لعهود ملوك سبأ ، أو بمعنى آخر ، الإنتقال من حكومة دينية إلى حكومة مدنية ، حيث بدأ الحكام السبئيون يخلعون لقب « مكرب » — والذي ربما كان يعني أمير كاهن أو الكاهن الأكبر[2] ، وربما الملك الكاهن ، مما يشير إلى الأساس أل « ثيوقراطي » الذي قامت عليه الدولة[3] — وعلى أي حال ، ففي أخريات عهد هذا الحاكم السبئي (كرب إيل وتار) بدأت الدولة تتحول إلى حكومة دنيوية ، وأصبح رئيسها يحمل لقب « ملك » .

ويرى « فلبي » أن « كرب إيل وتار » قد حكم في الفترة (٦٢٠—٦٠٠ ق.م) وأنه غيّر لقبه من مكرب إلى ملك حوالي عام ٦١٠ ق.م[4] ، بينما يرى آخرون أنه حكم في حوالي نهاية القرن الخامس ق.م[5] ، ويعد « نقش النصر » في صرواح ، والذي يغطي وجهي جدار مشيد من المرمر قائم في بهو المعبد ، من أهم مصادر التاريخ اليمني ، ذلك لأن صاحبه « كرب إيل وتار » قد دون فيه كل أعماله الحربية و الدينية .

ويبدأ النص (الذي تعد دراسة « نيكولوس رودكناكيس[6] » أهم دراسة له) ، بتوجيه الملك السبئي الشكر للآلهة السبئية التي أغدقت نعمائها عليه ، فوحدت

---

(١) جواد علي ٢/٢٨٤—٢٨٥ ، وكذا Le Museon, LXI, 3-4, 1948, P. 184.
(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ١٩٢ .
(٣) I. Shahid, op. cit., P. 7-8.
(٤) J.B. Philby, op. cit., P. 40, 141.
(٥) جواد علي ٢/٢٨٦ ، وكذا H. Von Wissmann, and M. Hofner, P. 9, 22, 25, 142.
(٦) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٣
وكذا أنظر : N. Rhodokanakis, Altsabaische Texte, I, P. 19F.

صفوف قومه ، وباركت أرضه ، ووهبتها أمطاراً سالت في الأودية وساعدته على إنشاء السدود وحفر القنوات ، لري الأرضين التي لم تصلها المياه ، ومن ثم فقد نحر الذبائح وقدم القرابين للآلهة — الموقاة وعثتر وهوبس — .

وينتقل النص بعد ذلك إلى مجال السياسة والحروب ، فيحدثنا كيف أن «كرب إيل وتار» قام بفتوحات كثيرة في البلاد المجاورة وانتصر على «سأد» و «نقبة» ، وأحرق جميع مدن «معافر» وقهر «ضبر» و «ضلم» و «أروى» وأحرق مدنهم وقتل منهم ثلاثة آلاف وأسر ثمانية ، وضاعف عليهم الجزية التي يدفعونها — ومن بينها البقر والماعز — هذا فضلاً عن انتصاره على «ذبحان ذو قشر» وعلى «شرجب» وإحراق مدنهما ، كما أستولى على جبل «عسمة» و «وادي صبير» ، وجعلهما وقفاً للإله الموقاة ، ولبني قومه من السبئيين[1] .

ولعل من أهم حروبه تلك التي استعر أوارها بينه وبين «أوسان» (أوزان) ، والتي كان من جرائها قتل ١٦ ألف ، وأسر ٣٠ ألف من أوسان — وهي دويلة صغيرة قامت في جنوب بلاد العرب ، ثم سرعان ما بدأت تنافس سبأ نفسها من ناحية ، وحضرموت من ناحية أخرى ، بعد أن ضمت إليها عدداً من الحلفاء مثل سعد ومعافر ، وإقليم دثينة ودهس وتبنو ، وسائر القبائل النازلة هناك شرقاً حتى حضرموت — وأما سبب تلك الحروب بين سبأ وأوسان ، فيرجع إلى أن حضرموت وقتبان كانتا حليفتين لسبأ ، فتقدم ملك أوسان واستولى عليهما ، ومن ثم فقد وجد «كرب إيل وتار» نفسه مضطراً لمناصرة حلفائه ، وهكذا اتجه إلى أوسان وأعمل السيف فيها حتى أخضعها ، والأمر كذلك بالنسبة إلى دهس وتبنو ، حيث قتل منهم ألفاً وأسر خمسة آلاف ، وأحرق كثيراً من مدنهم ، ثم ضمها إلى سبأ ، ثم أعاد إلى الحضارمة والقتبانيين ما كان لهم من أملاك في أوسان[2] .

---

(١) جواد علي ٢/٢٨٨ .

(٢) أنظر : فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩١ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٤ ، جواد علي ٢/٢٨٩–٢٩٠ .

واتجه « كرب إيل وتار » بعد ذلك إلى « معين » ، وطبقاً لما جاء في «نقش صرواح » ، فإن مدينة « نشان » (خربة السوداء) قد عارضت « كرب إيل وتار » وناصبته العداء ، ومن ثم فقد أرسل إليها جيشاً نجح في إيقاع الهزيمة بها ، كما نهب « عشر » و « بيجان » ومجاوراتها ، إلا أن نشان سرعان ما أعلنت الثورة من جديد ، غير أن ثورتها هذه لم يكتب لها نصيباً من نجاح ، فضرب الحصار على «نشق» قرابة أعوام ثلاثة ، إنتهت بضمها إلى سبأ ، وسقط ألف قتيل من « نشان » ، فضلاً عن الإستيلاء على أراضيها الزراعية والسدود التي تنظم الري فيها ، إلى جانب إسكان السبئيين فيها ، وبناء معبد للموقاة[1] .

ويتحدث نقش النصر بعد ذلك عن مدن « سبل » و « هرم » و « فنن » ، وأن الملك « كرب إيل وتار » قد أرسل إليها جيشاً كتب له نصراً مؤزراً عليها ، وأن ملوكها قد قتلوا في المعارك التي دارت رحاها بين جيشه وأهل تلك المدائن ، كما سقط منهم ثلاثة آلاف قتيل ، وأسر خمسة آلاف ، وغنم السبئيون ٥٠ ألف رأس من الماشية ، وفرضوا الجزية على أعدائهم ، فضلاً عن وضعهم تحت الحماية السبئية[2] .

ويشير آخر النقش إلى حملة « كرب إيل وتار » على « نجران » ، فيحدثنا عن أهل « مه أمر » (مهامر) و « مه أمرم » و « عوهب » ، وكيف أن الملك السبئي قد هزمهم ، وقتل منهم خمسة آلاف ، كما أسر إثني عشر ألف طفل ، وغنم إثني عشر رأس من الماشية ، وأن « مه أمرم » قد أحرقت وصودرت مياهها ، وفرضت الجزية على البقية الباقية من سكانها[3] .

وأما الوجه الآخر من النقش ، فيقدم لنا بياناً بأعمال التحصينات التي قام بها « كرب إيل وتار » لتحصين مدن مملكته ، كما يتحدث كذلك عن ممتلكات

---

(١) جواد علي ٢/٢٩٢-٢٩٣ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٢) جواد علي ٢/٢٩٣ ، وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 57F.

(٣) جواد علي ٢/٢٩٤ .

الملوك الذين دانوا لطاعته ، وعن خزانات المياه التي أصلحها أو شيدها ، وحدائق النخيل التي قام بغرسها .

وهكذا كانت حروب « كرب إيل وتار » فاتحة عهد جديد في تاريخ اليمن القديم ، وأصبح مكرب سبأ ملكاً على اليمن بأكملها ، بما في ذلك حضرموت ونجران ، وما كان يسمى بالمحميات ، واستمر ذلك المُلْك الواسع الكبير لسبأ عدة قرون[1] إلا أن هذه الحروب من ناحية أخرى قد أضرت كثيراً بمدن اليمن ، فقد أحرق فيها « كرب إيل وتار » الكثير من المدن ، كما قتل الكثير من أبنائها ، مما أدى إلى تدهور الأحوال في اليمن ، وفي بقية العربية الجنوبية ، وإلى اندثار الكثير من الأماكن بسبب إحراقها ، واهلاك سكانها[2] .

بقيت كلمة أخيرة تتصل بمدينة « صرواح » – مقر الإله الموقاة ، وعاصمة سبأ في تلك الفترة – وواحدة من أهم المدن السبئية لعدة قرون بعد ذلك – وتقع الآن في موضع « الخربة » و « صرواح الخريبة » ، ما بين صنعاء ومأرب ، هذا وقد تردد ذكرها في أشعار العرب ، ويصفها الهمداني بأنها لا يقارن بها شيء من المحافد المختلفة ، كما جمعُ الكثير من الشعر الجاهلي والإسلامي الذي ورد فيه اسمها[3] ، وفي هذا كله دلالة على أهمية تلك المدينة القديمة ، وعلى تأثيرها في نفوس الناس تأثيراً لم يستطع الزمن أن يمحوه بالرغم من أفول نجمها قبل الإسلام .

ويروي الإخباريون أنها حصن باليمن ، وأن الجن قد بنوه لبلقيس ملكة سبأ ، بناء على أمر من سليمان عليه السلام[4] ، ولا ريب في أن هذا من نوع الأساطير

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٢) جواد علي ٢/٢٩٩ .

(٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٠ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٠٢ ، ١١٠ ، ٢٠٣ ، الإكليل ٨/٤٥ ، ٧٥ ، ١٠/٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٠ ، منتخبات ص ٦٠ .

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ١٠٢ ، ١١٠ ، ٢٠٣ ، الإكليل ٨/٢٤ ومابعدها ، اللسان ٣/٣٤٣ ، ياقوت ٥/٤٠٢ .

التي لعب الخيال فيها دوراً كبيراً ، فضلاً عن جهل فاضح بالتاريخ ، إلى جانب أثر الإسرائيليات في إرجاع أي أثر لا يعرفون صاحبه إلى سليمان وإلى جن سليمان .

وتوجد المناطق الأثرية في صرواح في ثلاثة مناطق متقاربة ، واحدة منها هي منطقة البناء (مكان السد القديم) ، والثانية هي منطقة «القصر» – وهي قرية حديثة البناء استخدموا في تشييد بعض منازلها أحجاراً من المعابد – أما الآثار الباقية المهمة ففي منطقة « الخريبة »[1] ، على أن أهم آثار صرواح إنما هو المعبد الكبير ، معبد إله القمر (الموقاة) ، الذي استدارت إحدى ناحيتيه ، فجعلت منه بناء نصف بيضي الشكل ، ولا يمكن معرفة التصميم الأصلي للبناء الذي يبلغ ارتفاع جدرانه أكثر من عشرة أمتار ، إلا بعد عمل الحفائر حوله وتنظيف داخله ، لأنه قد استخدم خلال قرون طويلة كحصن في العصور الوسطى ، وفتحوا فيه بعض المداخل ، كما سدوا بعض أبوابه القديمة ، واستخدموا كثيراً من الأحجار الكبيرة في تلك الترميمات ، هذا وقد زار أستاذنا الدكتور أحمد فخري أنقاض معبد الموقاة ، وصور عدداً كبيراً من النقوش التي ترجم بعضها الأستاذ « ريكمانز »[2] ، هذا ، وإلى جانب معبد الموقاة ، توجد بقايا عدة مبان أخرى ، نقشت بعض أعمدتها بالكتابات ، فهناك دار بلقيس ،ومعبد يفعان ، الذي نال خطوة كبيرة لدى المكاربة[3] .

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٥٩–١٦٠ .

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٠–١٦٢

وكذا G. Ryckmans, The Publication of the Inscriptions, III, Cairo, 1951.

(٣) نزيه مؤيد العظم ٢/٣٤ ، وكذا D. Nielseon, op. cit., P. 78.

ثانيا : عصر ملوك سبأ

لعل أهم ما يميز هذا العصر أمران : الواحد : إنتقال العاصمة من صرواح إلى مأرب ، واتخاذ قصر « سلحين » الشهير قاعدة للعرش السبئي ، والآخر : أن حكام سبأ بدأوا يتخلون عن لقب «مكرب» ، ويتخذون بدلاً عنه لقب « ملك » ، وأما توقيت هذا العصر فموضع خلاف ، فبينما يذهب «هومل» إلى أنه إنما كان في الفترة (٦٥٠–١١٥ ق.م) – أو حتى عام ١٠٩ ق.م ، فيما يرى ريكمانز [١] – يذهب « فلبي » إلى أنه بدأ في عام ٦١٠ ق.م ، وأن « كرب إيل وتار » إنما كان في الفترة (٦٢٠–٦١٠ق.م) مكرباً لسبأ ، وليس ملكاً لها [٢] ، ويتجه «أولبرايت» إلى أن ذلك إنما كان بعد قرنين ، وأن «كرب إيل وتار» قد حكم كملك في حوالي عام ٤٥٠ق.م ، وبالتالي فإن عهد ملوك سبأ إنما يبدأ في تلك السنة [٣] .

وأياً ما كان الأمر ، فالذي لا شك فيه أن « كرب إيل وتار » هو أول ملوك هذه الفترة ، ومن الثابت تاريخياً أن هذا الأمير القوي الذي نستطيع أن نقول عنه أنه المؤسس الحقيقي للملكية السبئية كان يحتفظ كذلك بلقب « مكرب » المقدس ، – كما احتفظ به الذين جاءوا من بعده – وربما كان لقب مكرب السبئي هذا أصلاً لقب أمير قتبان [٤] .

وكان « سمه على ذريح » هو الملك الثاني [٥] ، وقد ذهب « فلبي » إلى أنه ربما كان إبنا لسلفه ، وأن حكمه قد بدأ حوالي عام ٦٠٠ ق.م [٦] ، ثم جاء من بعده ولده

---

(١) فريتز هومل : المرجع السابق ص ٨٧ ، جواد علي ٢/٣١٥ .

(٢) J.B. Philby, op. cit., P. 141.

(٣) JAOS, 73, 1953, P. 40. وكذا BASOR, 137, 1955, P. 38

(٤) فريتز هومل : المرجع السابق ص ٨٧–٨٨ .

(٥) Le Museon, LXII, 1-4, 1949, P. 249.

(٦) J.P. Philby, op. cit., P. 142.

« الشرح » ، ونقرأ في نص (CIH, 374) أنه أقام جدار معبد الإله الموقاة في محرم بلقيس في مأرب ، ورمم أبراجه ، وأدى ما كان قد نذره للموقاة ولعثر وهوبس وذات حميم ، وأنه أقام هذا النقش تخليداً لذكرى والده « سمه على ذريح » هذا وقد سجل هذا الملك إسم شقيقه « كرب إيل » ، الذي لا نعرف عنه شيئاً ، وإن كان « هومل » — وفلبي من بعده — إنما جعلاه خليفة لوالده ، بينما جعلا « الشرح » خليفة له ، كما بدأ «فلبي» حكم « كرب ايل » هذا ، بعام ٥٨٠ ق.م[١] .

وانتقل حكم سبأ بعد ذلك إلى « يدع إيل بين » الذي يرى بعض الباحثين أنه إنما حكم في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد ، معتمدين في ذلك على ذكر اسمه — وكذا حصن « إلو » — في نقش (جلازر ١٠٥) الذي يرون أنه يرجع إلى هذه الفترة[٢] ، وإن كان « فلبي » يرى أنه حكم في الفترة (٥٦٠—٥٤٠ ق.م)[٣] ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن سبأ لا بد وأن تكون قد فقدت نفوذها في شمال بلاد العرب في تلك الفترة من القرن السادس قبل الميلاد ، لأننا نعرف أن « نبونيد » (٥٥٥— ٥٣٩ ق.م) — ذلك الملك المثقف الذي اشتهر في التاريخ القديم بحبه للآثار وعنايته بها — قد قضى عشر سنوات في تيماء في شمال بلاد العرب[٤] ، بعد أن قام بحملته المشهورة التي أخضع فيها تيماء وديدان وخيبر وأتريبو (يثرب = المدينة المنورة) وكبدّ فيها العرب خسائر فادحة[٥] ، ثم أقام قصراً في تيماء بقي فيه حيناً من الدهر ، حتى أصبحت تيماء وكأنها قد غدت خليفة لبابل[٦] ، ولم يعد من تيماء إلا في عام

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٢ ، وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 87
وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 142.

(٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٣
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 19.

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٤) A. Gardiner, op. cit., P. 363.

(٥) C.J. Gadd, The Ḥarran Inscriptions of Nabonidus, P. 35, 79-80.
وكذا A.R. Burn, Persia and the Greeks, P. 38.

(٦) A. Musil, op. cit., P. 225. وكذا S. Smith, op. cit., P. 53, 88
وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 39
وكذا R.P. Doughterty, Nabonidus and Belshazzar, P. 106.

٥٤٦ ق.م ، عندما دعاه رعاياه الذين كان على خلاف معهم طوال تلك الفترة التي قضاها في تيماء ، وربما كانت عودته من هناك بسبب التهديدات الفارسية لبابل[١] .

وعلى أي حال ، فلقد جاء بعد « يدع إيل بين » ولده « يكرب ملك وتار » ؛ ولدينا من عهده نقش (هاليفي ٥١) ، وهو عبارة عن وثيقة تؤكد موافقته على قانون صدر أيام أبيه يبيح لشعب سبأ ــ وكذا لقبيلة « يهبلح » ــ حق استغلال أرض زراعية في مقابل ضريبة معينة تدفع للدولة ، فضلاً عن واجباتهما تجاه الخدمة العسكرية ، في أيام السلم والحرب سواء بسواء ، كما أشار القانون إلى وضع قبيلة « أربعان » التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي ، ولها رؤساء يحملون لقب « ملك »[٢] .

وجاء بعد ذلك « يثع أمر بين » ، وقد جاء إسمه في عدة كتابات تتصل بتقديم قرابين للإله « بعل أوام » والإله « عثر » ، وإن كانت الكتابة التي سجلها « تبع كرب » كاهن الإلهة « ذات غضرن » تتحدث عن ثلاثة ملوك (يدع إيل بين ، يكرب ملك ، يثع أمربين) ، وعلى أي حال ، فإن الكتابة إنما تروى قصة الدور الذي قام به صاحبها « تبع كرب » ، كقائد عسكري ، في الحروب التي أشعلت نيرانها قتبان ضد سبأ ، إلا أن هذا القائد الكاهن نجح في أن يصد هجوم القتبانيين ، وأن يسترد الأرضين التي استولوا عليها ، وأن يضع شروطاً للصلح بين سبأ وقتبان ، ثم يرسلها إلى « يثع أمر بين » في مأرب ، حيث تمت الموافقة عليها ، وأخيراً يسجل هذا النص، ثم يضعه في معبد الإله الموقاة ، المعروف عند السبئيين « بمعبد أوام بيت الموقاة » تمجيداً لإله سبأ الكبير ، وتخليداً لذكرى عمله الجليل هذا[٣] .

---

(١) R. P. Dougherty, op. cit., P. 107

وكذا A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 363, وكذا ، CAH, 4, P. 494.

(٢) جواد علي ٢/٣١٨ ، وكذا J. Halevy, in JA, 1872, P. 137

(٣) J. Halevy, JA, II, 1874, P. 581, 584.

جواد علي ٢/٣٢٠

وكذا R.L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, P. 222

ثم جاء « كرب إيل وتار » ، ولدينا من عهده عدة كتابات ، منها ما يتصل بطريقة جمع الضرائب — وهو أمر قد أوكل القيام به إلى رؤساء القبائل — ومنها ما يتصل بالأعمال الزراعية من بناء للسدود وحفر للقنوات ، كما ورد إسم الملك مع إسم « سمه على » في النص المعروف بـ (REP, EPIG, 4226)[1] .

وهناك كتابة ترجع إلى أيام « ذمار علي » بن « يدع إيل وتار » — وكذا إسم ابنه الذي ضاعت حروفه — وفيها ذكر لآلهة سبأ ومعين في نفس الوقت ، فإذا ما تذكرنا أن الرجل من « ريمان » (وهي عشيرة من سبأ) ، له بيت في «نمران» (بيت نمران الحالية) ، ومن ثم فقد اختلط هؤلاء بالمعينيين ، مما كان سبباً في ذكر آلهة معين مع آلهة سبأ ، وربما كان ملك سبأ هو الذي أسكن هذه الجماعة من الريمانيين عند « نشق » لحماية معين ، وللدفاع عنها بعد أن خضعت لسبأ[2] .

وجاء بعد ذلك عدة ملوك منهم « الكرب يهنعم » و « كرب إيل وتار » ثم « أنمار يهأمن » (أنمار يهنعم) ، والذي حدد له «فلبي» الفترة (٢٩٠—٢٧٠ ق.م)[3] ، وإن ذهب « فون فيسمان » إلى أنه حكم في القرن الأول قبل الميلاد (حوالي عام ٦٠ ق.م)[4] ، ثم جاء من بعده ولده « ذمار على ذريح » .

وانتقل العرش إلى « نشأ كرب يهأمن » (نشأ كرب يهنعم) ، وهناك ما يدل على أن تماثيل الإله « عثتر ذى ذب » ، قد أصابها بعض التلف ، وأنها قد رممت ، وأن الرجل قد قدم إلى « تنف ربة ذى غضران » أربعة وعشرين وثناً ، بغية أن تبعد الضرّ عنه وعن أهل بيته ، «بحق عثتر والموقاة ، وبحق شمس تنف ربة ذى غضران» ، وفي هذا دلالة على أن المعبد الذي قدمت فيه هذه الأصنام ، إنما كان في

---

(١) جواد علي ٢/٣٢٢ ، وكذا REP, EPIG, VII, I, P. 75, II, P. 151.

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 436.

(٣) J.B. Philby, op. cit., P. 88, 142f

(٤) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 18.

« ذى غضران » وأنه قد خصص للإلهة « الشمس الفائقة » وأن كلمة « تنف » إنما هي صفة لها[1] .

وهناك نقش يشير إلى أن أعراباً قد أغاروا على جماعة من السبئيين ، وربما أرض سبأ نفسها ، وأن الملك قد أرسل قوة من الجيش ومن الأهلين ، إلى أرض هؤلاء الأعراب ، نجحت في استرداد ما غنموه من أسلاب وأسرى ، وأن صاحب النقش (أبو كرب بن أسلم) قد قدم تمثالين من البرونز للموقاة تخليداً لذكرى هذا الحادث ، وشكراً للإله على نجاته ، ويعدّ هذا النقش من أقدم نصوص المسند التي تشير إلى الأعراب وإلى غاراتهم على السبئيين وقوافلهم ، وإن كنا لا ندري أين كانت مساكن هؤلاء الأعراب ، ذلك لأن الأعراب موجودون في كل مكان في شبه الجزيرة العربية ، ومنها اليمن[2] .

هذا ويتجه بعض الباحثين إلى اعتبار « نشأ كرب يهأمن » من قبيلة « همدان » معتمدين في ذلك علي أن اسمه من الأسماء الهمدانية المعروفة ، بينما يري آخرون أنه من « بنى جرت » من قبيلة « سمهر » (سمهرام) ، ويعارضون في أنه آخر الأسرة السبئية الحاكمة ، بل ونراهم كذلك في ريب من أن أباه كان ملكاً فعلياً في سبأ[3] .

هذا وتبيّن لنا النصوص أن الملك إنما كان يقيم في « قصر سلحين » بمأرب ، وأنه حكم في الفترة (١٧٥–١٦٠ ق.م) — فيما يري جام — وأنه كان يتقرب إلى « شمس تنف ربة غضران » حتى إبان إقامته في مأرب في قصر سلحين ، مما يدل

---

(١) جواد علي ٢/٣٢٧ : وكذا أنظر : Handbuch, I, P. 90.
وكذا Osiander, in ZDMG, XIX, 1865, II, P. 261
وكذا A. Jamme, Sabaen Inscriptions from Mahram Bilquis (Marib), 1962, P. 270.

(٢) جواد علي ٢/٣٢٧–٣٢٩
وكذا A. Jamme, op. cit., P. 31. وكذا Le Museon, 1967, 1-2, P. 279

(٣) جواد علي ٢/٣٢٩–٣٣٠ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 272.

على أنه لم ينس آلهة قبيلته «بني جرت» وعلى رأسها الإلهة الشمس ، ومن ثم فقد قدمها على الآلهة الأخرى بل وذكرها مع « الموقاة » إله سبأ الخاص[1] .

وجاءت بعد « نشأ كرب يهأمن » فترة ظلام ؛ يرى « فلبي » أنها ثلاثون عاماً (٢٣٠–٢٠٠ ق.م)[2] ، جاء بعدها « نصرم يهنعم » على رأس طائفة جديدة من الملوك ، وقد ذهب «فلبي» إلى أن «نصرم يهنعم» هذا ، قد حكم حوالي عام٢٠٠ق.م[3] وعلى أي حال ، فهناك نصوص جاء فيها اسم الرجل بدون لقب « ملك » ، كما أشار بعضها إلى « تالب ريام » رب معبد « حدثان » الذي ينتسب إليه الهمدانيون ، وربما كان عدم وجود لقب ملك بعد إسم «نصرم يهنعم» (ناصر يهأمن) ، دلالة على أنه لم يكن ملكاً ، وإنما كان أميراً ، ومن ثم فإن الدكتور جواد علي يرى أن الرجل — وكذا أخيه «صدق يهب»— لم يكونا ملكين ، وإنما كانا سيدين من سادات همدان ، لهما سلطان واسع على قبيلتهما وفي سبأ ، وربما كان «ناصر يهأمن» أميراً على همدان ، والأمر كذلك بالنسبة إلى أخيه ، وأن السبب في تقديم « ناصر يهأمن » إنما كان لأنه أكبر سناً[4] ، وأن الرجلين قد عاصرا «نشأكرب يهأمن» ؛ وبقيا حتى عصر « وهب إيل يحز » ، ومن ثم فإن « نصر يهأمن » قد عاش فيما بين عامي ١٧٥ ، ١٥٠ ق.م ، على أساس أن « نشأكرب يهأمن » قد عاش في الفترة (١٧٥–١٦٠ ق.م) وأن حكم « وهب إيل يحز » كان فيما بين عامي ١٦٠ ، ١٤٥ ق.م ، فيما يرى « البرت جام »[5] .

---

(١) جواد علي ٢/٣٣٠ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 279, 290

(٢) J.B. Philby, op. cit., P. 142.

(٣) J.B. Philby, op. cit., P. 142 وكذا J. Ryckmans, op. cit., P. 337

(٤) جواد علي ٢/٣٣١–٣٣٣ ، يحيى نامي : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب ص٣٢–٣٤ ، ٥٢ .

(٥) جواد علي ٢/٣٣٣ ، وكذا A.F.L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, in BASOR, 16, 1954, P. 27-56.
وكذا A. Jamme, op. cit., P. 277-78, 290. ، وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 88

وأياً ما كان الأمر ، فإننا الآن أمام ظاهرة جديدة ؛ تبدو واضحة من النصوص التي يتحدث فيها « ناصر يهأمن » وشقيقه « صدق يهب » بصراحة على أنهما من « همدان » ؛ مما يشير إلى أن قبيلة همدان أصبح لها المكانة الأولى بين القبائل ، حتى أن أمراءها أصبحوا يلقبون أنفسهم بلقب « ملك » متحدّين بذلك سلطة ملوك سبأ الشرعيين [1] .

ويرجع الأخباريون نسب قبيلة همدان إلى « أوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة ابن ربيعة الخيار بن زيد بن كهلان » على رأي ، وإلى « همدان بن مالك بن زيد ابن أوسلة بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان » على رأي آخر [2] ؛ وترجع بطون همدان إلى حاشد وبكيل ؛ فأما « حاشد » فتقع مواطنها في الأرض الغربية من همدان ؛ وأما « بكيل » فإنما تسكن المنطقة الشرقية منها ، وأن الإثنين (حاشد وبكيل) من نسل « جشم بن خيران بن نوف بن همدان » [3] وقد اتخذت همدان من « تالب ريام » إلهاً لها ، وسرعان ما ارتفع نجمه بارتفاع نجم همدان ؛ واغتصابها لعرش سبأ ، ومن ثم فقد أصبح الناس يتعبدون له ، كما يتعبدون للموقاة إله سبأ ، إلا أن الهمدانيين سرعان ما تنكروا لإلههم هذا ، ومن ثم نراهم — كما يقول ابن الكلبي [4] — يتعبدون وقت ظهور الإسلام لصنم هو « يعوق » كان له بيت في «خيوان» ؛ و يجعلون « تالب ريام » بشراً زعموا أنه جد همدان ، وأن أباه هو « شهران الملك » ، ثم زوّجوه من « ترعة بنت يازل بن شرحبيل بن سار بن أبي

---

(١) جواد علي ٣٣٤/٢ ، وكذا CIH, 287. وكذا A. Jamme, op. cit., P. 278

(٢) إبن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢٥٢/٢ ، تاج العروس ٥٤٧/٢ ، إبن هشام ٨٨/١ (طبعة مكتبة الجمهورية بمصر) ، منتخبات ص ١١٠ ، الإشتقاق ٢٥٠/٢ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٣٨ ، وكذا Ency. of Islam, II, P. 246.

(٣) الإكليل ٢٨/١٠ ، منتخبات ص ٢٧ ، ٥٣ ، تاج العروس ٢٣٢/٢ ، ٣٣٦ ، الإشتقاق ٢٥٠/٢ ، جمهرة أنساب العرب ص ٣٧٢ ، وكذا D. Nielsen , op. cit., P. 113. وكذا Ency. of Islam, II, P. 246

(٤) إبن الكلبي : كتاب الأصنام ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٧ .

شرح يحضب بن الصوار » ، وجعلوا له أولاداً منهم « يطاع » و « يارم »[١] . وهكذا لعب الخيال دوراً قد يرضي أهل الأخبار . ولكنه لا يتفق وحقائق التاريخ .

وعلى أي حال ، وأيا ماكان نسب همدان ، فإن « هومل » يقدم لنا « وهب إيل يحز » بعد « ناصر يهأمن » ، وقد تابعه في ذلك « فلبي » الذي رأى أن حكمه كان حوالي عام ١٨٠ ق.م ، ونقرأ في نقش (جلازر ١٢٢٨) إشارات عن حرب دارت رحاها بين « وهب إيل يحز » ، وبين الريدانيين بقيادة «ذمار علي» ، بغية انتزاع عرش سبأ[٢] ، ولعل مما تجدر ملاحظته أن نص (جلازر ١٢٢٨) هذا ، إنما يشير ، ولأول مرة ، إلى مدينة « صنعاء » (صنعو) ، والتي سوف يرد اسمها بعد ذلك في نقشي (جام ٦٢٩ ، ٦٤٤) ، ويبدو أنها كانت ضمن أراضي قبيلة « جرت » وعلى مسافة قريبة جداً من حدود أرض قبيلة «بتع »[٣] .

ومن عجب ، رغم أن هناك العديد من النصوص التي تشير إلى « وهب إيل يحز » ، وإلى حروبه ضد الريدانيين ، إلا أنه ليس هناك نص واحد يشير إلى أبيه ، مما جعل البعض يذهب إلى أن أباه لم يكن ملكاً من الملوك — أو حتى قيلاً من الأقيال البارزين — وإنما كان في غالب الظن واحداً من عامة الناس ، وأن ابنه « وهب إيل يحز » إنما نال ما ناله من قوة وسلطان عن طريق السيف ، فربما كان واحداً من الثائرين على ملوك سبأ في زمن لا ندريه على وجه التحقيق ، ثم كتب له نجحاً بعيد المدى في مسعاه ، فانتزع العرش من أصحابه ، ثم لقب نفسه بألقاب الملوك ، بل وجعل والده واحداً منهم ، على أن الأمر لم يكن كذلك ، إذ لو كان والده ملكاً

---

(١) الإكليل ٦٦/٨ ، ياقوت ١٠٩/٣—١١٠ ، ٤٣٨/٥ ، المحبر ص ٣١٧ ، بلوغ الأرب ٢٠١/٢ ، القاموس ٢٧٠/٣ ، تفسير ابن كثير ٤٢٦/٤ ، تفسير أبي السعود ١٩٨/٥ ، تفسير الطبرسي ٣٦٤/٥ ، تفسير الخازن ٣١٤/٤ ، البكري ٦٢٠/٢—٦٢١ ، جواد علي ٣٥٤/٢—٣٥٥ .

(٢) Le Museon, 1967, 1-2, P. 279.

وكذا E. Glaser, Die Abessinier in Arabien und Africa, P. 67.

(٣) Le Museon, 1964, 3-4, P. 460.

لما غفلت النصوص عنه ، إلا أن يكون ذلك ما يزال في باطن الأرض ، ولعل الإكتشافات تأتي لنا بما يؤيد مزاعم « وهب إيل يحز »[١] .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد خلف « وهب إيل يحز » ولده « أنمار يهأمن » الذي حدد له « جام » الفترة (١٤٥–١٣٠ ق.م) . غير أن غالبية المؤرخين لم تشر إليه ، ووضعت مكانه « كرب إيل وتار يهنعم[٢] » ، الذي ورد في النصوص إسم إله جديد من عهده لم يكن معروفاً من قبل ، وهو الإله « ذو سماوي » أو « ذو سماي » أي صاحب السماء أو رب السماء[٣] .

ونقرأ في نقش (جام ٥٦٤) إشارات عن ثورة قامت في مأرب ، ذلك لأن صاحب النص « أنمار » (من غيمان) كان – وكذا « رثد » (من مازن) – يحكمان من قصر سلحين في مأرب ، بتفويض من الملك وبأمر منه ، وأن هناك اضطراباً وقع في المدينة ولمدة خمسة شهور ، وأن الحاكمين لم يستطيعا أن يعيدا الأمور إلى نصابها ، إلا بعد الإستعانة بقوات من الجيش ، هذا ورغم أن النص لم يشر إلى سبب هذه الإضطرابات التي ألحقت بالمدينة أكبر الأضرار ، فربما كان السبب تعيين رجل من «غيمان» حاكماً على العاصمة التي كان أهلها يكنون لهم أشد البغض ، منذ وقعت الحروب بينهم وبين « غيمان » على أيام « أنمار يهأمن » شقيق « كرب إيل وتار يهنعم » ، ومن ثم فربما ثارت العاصمة السبئية بسبب تعيين « أنمار » الغيماني ، مطالبة بخلعه ، وأن الملك قد رفض أن يجيب القوم إلى سؤلهم ، ومن ثم فقد اشتدت نيران الثورة إشتعالا ، ولم تستطع قوات الأمن القضاء عليها لمدة خمسة أشهر ، مما اضطر الملك إلى أن يأمر بتدخل الجيش الذي أنهى الثورة[٤] .

---

(١) A. Jamme, op. cit., P. 280,

(٢) وكذا A. Jamme, op. cit., P. 281, 390. وكذا Le Museon, 1967, 1-3, P. 280

(٣) جواد علي ٣٣٩/٢ ، وكذا ZDMG, XIX, P. 269.
وكذا أنظر : J. Halevy, Etudes Sabeennes, JA, II, 1874, P. 500

(٤) جواد علي ٣٣٩/٢–٣٤٠ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 44, 47, 280
وكذا Le Museon, 1967, 1-2, P. 280.

هذا ، ويرى « البرت جام » أن حكم « كرب إيل وتار يهنعم » إنما كان في الفترة (١٣٠–١١٥ ق.م) أو في الفترة (١١٥–١٠٠ ق.م) ، ومن ثم فإن حكم « وهب إيل يحز » وحكم إبنيه « أنمار يهأمن » و « كرب إيل وتار يهنعم » قد امتد فيما بين عامي ١٦٠ ، ١١٥ ق.م ، أو (١٦٠–١٠٠ ق.م[1]) .

بقيت كلمة أخيرة تتصل بمدينة « مأرب » عاصمة الدولة في هذه الفترة ، وهي نفس المدينة التي جاءت في الآداب اليونانية والرومانية تحت اسم « ماريوبا » أو (مريابا Mariaba)[2] ، ويرى البعض أن لفظة « مأرب » مأخوذة من « يارب » و « يرب » اللتين وردتا في التوراة ، أو أنها أرامية الأصل مركبة من كلمتين « ماء » و «راب» ، أي الماء الكثير أو السيل الكبير[3] ، وقد توهم «ياقوت»—وتابعه كثيرون— أن سبأ هي مأرب ، على أن الصحيح غير ذلك ، فسبأ إسم البلاد والأمة ، ولم تكن بلدا أبداً ، كما توهموا أنها إسم لقصر كان للأزد باليمن ، أو أنها إسم لكل ملك كان يلي سبأ ، كما أن « تبعا » إسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضرموت[4] .

وتقع مأرب على مبعدة مائة كيلومتر إلى الشرق من صنعاء الحالية ، وعلى ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وتقوم بلدة مأرب الحالية فوق جزء مرتفع من كوم أثري كبير هو خرائب المدينة ذات الشهرة الذائعة الصيت في التاريخ ، وقد قدم لنا « جوزيف توما أرنو » رسماً تخطيطياً للمدينة القديمة ، وذكر أنها مستديرة وبها ثماني أبواب ، إلا أن وصف « أرنو » إنما يحتاج إلى تعديل ، فالمدينة مستطيلة — وليست دائرية — وأركانها مستديرة ، وربما لم يكن في أسوارها إلا أربعة أبواب فقط ، بوابة في وسط كل سور[5] .

---

(١) A. Jamme, op. cit., P. 390.

(٢) Pliny, II, P. 467.

(٣) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٤٨ .

(٤) أنظر ياقوت ١٨١/٣ ، ٥/٣٤–٣٨ ، وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 54.

(٥) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٥–١٦٦ ، وكذا J A, III, 1874, P. 11

على أن هناك من يرى أن مأرب — شأنها في ذلك شأن صرواح — إنما كانت في الأصل مدينة ذات بابين فقط[1] ، ويبدو أن هناك أماكن كثيرة مكسورة في الجدران ، اعتبرها « أرنو » أبواباً ، وسماها بالأسماء التي كان يطلقها عليها الأهالي في أيامه ، أما الباب الرئيسي في المدينة فقد كان في السور الغربي ، وهو الذي يسمى الآن باب المدينة ، وما زالت بقاياه موجودة ، وعلى كل من جانبيه آثار برج من الحجر ، وفي السور البحري باب آخر ، وهو الذي يستخدمه أهالي مأرب عند الخروج لدفن موتاهم ، في الجبانة الواقعة في الناحية البحرية من الخرائب ، ولهذا سموه باسمها ، أي باب المجنة[2] .

ومدينة مأرب — شأنها في ذلك شأن أغلب المدن الكبيرة في اليمن القديم — مدينة مسورة بسور قوي حصين له أبراج ، تمكن القوم من الدفاع عن مدينتهم ، وأن السور — طبقاً لما جاء في النقوش — قد بني من حجر البلق ، وهو حجر صلد قدّ من الصخر ، فوقه صخور من جرانيت ، ومن أسف أننا لا نعرف حتى الآن من النقوش التي تمّ الكشف عنها في مدينة مأرب ، إسم الملك الذي أسسها ، وربما كانت بعض أجزاء السور الحالي من السور القديم الذي بناه مكربو سبأ القدامى ، ونعرف من نقوش كثيرة أن واحداً منهم (إبن سمه على ينوف) قد بنى حائطاً حول مأرب ، كما نعرف من نقشي (جلازر ٤١٨ ، ٤١٩) أن « كرب إيل وتار » (من القرن السابع ق.م) قد أضاف بعض الأجزاء إلى سور مأرب ، كما بنى بوابتين وبعض الأبراج[3] .

ويروي الأخباريون أن مؤسس مدينة مأرب إنما هو « سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان[4] » ، كما أشرنا من قبل ، ويروي الهمداني في الإكليل أنه كان بمأرب

---

(١) H. Von Wissman and M. Hofner, op. cit., P. 27.

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٦–١٦٧ .

(٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٧ ، وكذا A. Fakhry, op. cit., III, Pl. XLIV, A.

(٤) ياقوت ١٨١/٣ ، تاج العروس ١٦٩/١٠ ، منتخبات ص ٤٧ ، بلوغ الأرب ٢٠٧/١ ، تفسير روح المعاني ١٢٤/٢٢ .

ثلاثة قصور (سلحين والمجر والقشيب) وأهم تلك القصور وأشهرها هو قصر « سلحين » ، الذي تردد ذكره كثيراً في كتب الأدب العربي على أنه قصر الملكة بلقيس ، وكثيراً ما أشاروا إلى أعمدته القائمة وقالوا إنها تحمل العرش ، وإن قواعدها تحت الأرض مثل ارتفاعها فوقها ، وهي ٢٩ ذراعاً[١] ، وأما خارج بلاد العرب فقد جاء إسم قصر سلحين في ألقاب ملوك السيادة التي اتخذها ملوك أكسوم في نقوشهم ، ومنها لقب « عيزانا » الذي اعتلى العرش حوالي عام ٣٢٥م[٢] .

ورغم أن هناك من يذهب إلى أن قصر سلحين إنما كان في الخرائب الواسعة في غربي المدينة ، فمن الصعب علينا — إعتماداً على أقوال الشعراء ومبالغات الكتاب العرب — تحديد هذا القصر الذي يسميه الكتاب العرب «قصر بلقيس» ، ذلك لأن اليمنيين إنما اعتادوا أن يطلقوا إسم بلقيس على كثير من المعابد في « صرواح » ، كما اعتادوا أن يطلقوا كذلك إسم بلقيس » على معبد يبعد عن خرائب مدينة مأرب ، بل إن اسم بلقيس كان يطلق أيضاً على آثار أخرى بعيدة عن منطقة أرض سبأ ، مثل ما جاء في « معجم ياقوت » من أن عرش بلقيس إسم لمكان على مسيرة يوم من «ذمار» ، حيث تقوم فيه ستة أعمدة من الرخام ، ومن المرجح أنه يشير هنا إلى أحد المعابد التي كانت في مدينة « ظفار » عاصمة الحميريين[٣] .

وهناك ، وعلى مبعدة أربعة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من مأرب الحالية ، تقع خرائب معبد الإله الموقاة رب أوام ، والمعروف « بحرم أو محرم بلقيس » ، وقد زار هذا المعبد « أرنو وجلازر ونزيه العظم وأحمد فخري » ، كما قامت

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٨ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٤٨ ، الإكليل ٨/٤٥ ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٣٨٢ ،
وكذا Ency. of Islam, III, P. 282.

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٢٥ .
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 27.

(٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٨ ، ياقوت ٤/١٠٠-١٠١ .

بعثة المؤسسة الأمريكية لدراسة الإنسان بالحفر في هذه المنطقة بالذات . ومن ثم فقد تمّ نقل كثير من النقوش ، فضلاً عما اكتشفته البعثة الأمريكية من بقايا معمارية هامة . هذا ويرى بعض الباحثين أن هذا المعبد — مثله في ذلك مثل معبد الموقاة في صرواح . ومعبد المساجد ببلاد مراد ، والذي يقع على مبعدة ١٧ كيلومتراً من مأرب — إنما تم بناؤه في القرن الثامن ق.م[1]

وعلى أي حال ، فطبقاً لأقدم نقوش الجدار الخارجي للمعبد[2] ، فإن « يدع إيل ذريح » بن « سمه على » ثاني مكاربة سبأ ، هو الذي بنى سور هذا المعبد المسمى « معبد أوام » ، وأنه قد كرسه لإله القمر الموقاة ، كما يسجل نقش آخر في الناحية الغربية من السور أن « إيل شريح » بن « سمه علي ذريح » ملك سبأ ، الذي حكم في القرن السادس ق.م (حوالي عام ٥٧٠ ق.م) ، و « يثع أمر بين » بن « يكرب ملك وتار » الذي حكم حوالي عام ٥٢٠ ق.م ، قد أتما بناء المعبد . هذا وهناك نقوش أخرى من عصور أحدث لملوك قاموا بأعمال خاصة في ذلك المعبد[3] .

على أن النقوش التي كشفت عنها البعثة الأمريكية في عام ١٩٥٢م ، على مقربة من باب المعبد ، إنما ترجع إلى عصور متأخرة ، وبعضها يرجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد ، أي أن هذا المعبد ظل يؤدي وظيفته في عبادة الإله الموقاة في مأرب قرابة ألف من الأعوام[4] .

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧٤ ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٣٨٣ ، جواد علي ٣/٨ ٤٣—٤٤ ، وانظر كذلك :

W. Phillips, Qataban and Sheba, 1955, P. 256F.

(٢) أنظر عن ترجمة النقوش : N. Rhodokanakis, Studien, II, P. 7FF.

(٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧٤—١٧٥ ، وانظر :

R.L, Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, P. 215F

(٤) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧٥ .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه ، أن هناك من يرى أن بقايا المعابد التي عثر عليها في روديسيا وفي أوغندة ، إنما هي من المعابد المتأثرة بطراز معبد أوام (محرم بلقيس) ، فإن بين هذه المعابد جميعاً شبهاً كبيراً في طراز البناء وفي المساحة وفي الأبعاد كذلك[1]

وهناك على مبعدة ١٤٠٠م إلى الشمال الغربي من « محرم بلقيس » ، وفي المنطقة المعروفة باسم « العمايد » نرى خمسة أعمدة قائمة ، إرتفاع الواحد منها خمسة أمتار عن سطح الأرض ، ومقاييس كل منها ٨٢ × ٦٣ سم ، وقد أحاطت بها الخرائب من كل جانب ، وطبقاً لما جاء في حجر مكتوب رآه « أرنو » عام ١٨٤٣م ، نعرف أن إسم معبد العمايد هو « باران » ، وأنه – طبقاً لما جاء في نقش (جلازر ٤٧٩) – قد شيّد للإله الموقاة ، وإن كانت الأعمدة الباقية – وكذا ما حولها من نقوش – لا تساعدنا على معرفة الملك الذي قام ببناء المعبد ، أو حتى تحديد عصره بوجه عام ، وليس أمامنا إلا الإنتظار حتى تجرى حفائر جديدة ، قد نعرف منها ما هو في ضمير الغيب الآن[2] .

---

(١) H. Von. Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 28.

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٧٢ ، وكذا
H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 28.

ثالثا : ملوك سبأ وذو ريدان

يتميز هذا العصر الثالث من تاريخ سبأ ، والذي يطلق عليه أحياناً « عصر الدولة الحميرية الأولى» ، بأن الملوك قد حملوا فيه لقب «ملك سبأ وذى ريدان» ، ولعله يعني – كما أشرنا من قبل – إشارة إلى ضم ريدان إلى سبأ ، وربما يشير إلى دولة قتبان أو حمير[1] ، غير أن أستاذنا الدكتور سعد زغلول إنما يرى أن الريدانيين هم الذين حققوا الوحدة بعد انتصارهم على السبئيين ، والقرينة على ذلك انتقال مركز الحكم إلى مدينتهم « ظفار » عاصمة الدولة المتحدة[2] .

وعلى أي حال ، فإن المؤرخين مختلفون في بداية هذه الفترة ، فهناك من يذهب إلى أن بدايتها إنما كانت في حوالي عام١١٨ ق.م (أو عام١١٥ ق.م ، وربما في عام ١٠٩ ق.م[3]) ، بينما يرى آخرون أن «الشرح يحصب» أول من حمل هذا اللقب من السبئيين ، إنما حكم في أخريات القرن الأول قبل الميلاد ، إبان حملة « إليوس جالليوس » الروماني على اليمن في عام ٢٤ ق.م[4] ، ومن ثم فإن لقب « ملك سبأ وذى ريدان » ، إنما كان في أخريات القرن الأول ق.م ، وليس في أخريات القرن الثاني ق.م[5] ، وبالتالي فإن عام ١١٥ ق.م (أو عام ١٠٩ ق.م) الذي يرى البعض أن الحميريين قد اتخذوه تقويماً ثابتاً يؤرخون به ، لأنه العام الذي قامت فيه الدولة

---

(١) Irfan Shahid, Pre-Islamic Arabia, in CHI, I, P. 9.

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٩٣ .

(٣) J.B. Philby, op. cit., P. 97.

(٤) أنظر عن هذه الحملة : فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٠–٣٠١ ، مقالنا : « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » ، مجلة كلية اللغة العربية – العدد السادس ص ٢٨٧–٤٢٧ ، الرياض ١٩٧٦ ، وكذا A. Sprenger, The Campaign of Aelius Gallus, JRAS, 1873.

(٥) D. Nielsen, op. cit., P. 89.
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. '42.

الحميرية[1] ، أمر يحتاج إلى إعادة نظر . فقد يكون له صلة بحادث ما غير قيام الدولة ، وأن هذا الحادث كان من الأهمية بحيث جعله القوم مبدأ تقويم يؤرخون به ، ولهذا رأينا بعض الآراء تذهب إلى أنه ربما كان تاريخ سقوط معين تحت سيادة سبأ ، بينما رأى آخرون أن هذا العام (عام ١١٥ق.م، أو ١٠٩ق.م) هو عام انتصار سبأ على قتبان ، وضمها إلى حكومة سبأ ، وأن «ريدان» هنا إنما هو قصر ملوك سبأ ومقر حكمهم ، ونظراً لأهمية هذا العام ، فقد اتخذه القوم مبدأ تأريخ وبداية تقويم ، على أننا لو أخذنا بهذا التفسير ، لكان ظهور لقب « ملوك سبأ وذى ريدان » في حوالي عام ٣٠ ق.م ، ففي هذا العام — فيما يري البعض — كان حكم « الشرح يحصب » و « شعر أوتار »[2] .

وهنا علينا أن نعود مرة أخرى إلى عهد « وهب إيل يحز » وولديه « أنماريهأمن » و « كرب إيل وتار يهنعم » حيث نجد أن الحكم إنما ينتقل إلى ملك آخر من همدان هو « يريم أيمن » ، ونقرأ في نقشي (جلازر ١٣٥٩ ، ١٣٦٠) أن « يريم أيمن » إنما يقدم ولاءه للإله «تالب ريام» ، على توفيقه في المهمة التي كلف بها من قبل «كرب إيل وتار يهنعم» ، في التوفيق بين ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت وقتبان ، وذلك بعد الحروب التي استعر أوارها بينهم ، مما يدل على أن حرباً ضروساً قد قامت في العربية الجنوبية في هذه الفترة ، وأن « يريم أيمن » قد كتب له نجحاً بعيد المدى في إطفاء نيران هذه الحرب ، وهو لا يعدو أن يكون « قيلاً » من الأقيال ، ومن ثم فقد نال حظوة لدى العامة ، وهيبة لدى الحكومات ، مما مهد الطريق أمامه لينازع ملك سبأ عرشه ، بعد حين من الدهر[3] .

ونقرأ في نقش دونه أحد أقيال قبيلة « سمعى » عرف بـ (Wien, 669) ويتصل بنذر للإله « تالب ريام » يطلب فيه — بجانب البركة لقومه وسلامة حصن ريمان —

---

(١) عن مبدأ التقويم الحميري : أنظر : E. Glaser, op. cit., I, P. 3.
وكذا F. Hommel, Geschichte Sudarabiens, I, 1937, P. 96
وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 407-427, 429-430.

(٢) جواد علي ٢/٤١٦–٤١٧ ، وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 89.

(٣) جواد علي ٢/٣٥٨–٣٥٩ ، وكذا J. Halevy, Revue Semitique, IV, 1897, P. 76
وكذا CIH, 315, IV, I, P. 346.

أن يبارك في « يرم أيمن » و « كرب إيل وتار » ملكي سبأ ، وأن يهلك أعداءهما ، وأن ينزل سخطه على من يريد بهما شراً[1] .

ويرى « فون فيسمان » أن « يرم أيمن » كان معاصراً لـ « أنمار يهأمن » و « كرب إيل وتار يهنعم » ، وأن الأخيرين كانا معاصرين لـ « شمر يهرعش » الأول من ملوك حمير أصحاب ظفار ، كما يرى أن « كرب إيل وتار يهنعم » معاصراً « لكرب إيل بين » ملك سبأ الشرعي في مأرب ، وأن « يرم أيمن » كان معاصراً لـ « مرثد يهقبض »من جرت ، و مرثد » الذي ذكر بعد « نبط يهنعم » آخر ملوك قتبان ، ولـ « يدع إيل بين » ملك حضرموت ، وأخيراً فإنه يرى أن حكم « يرم أيمن » إنما كان في الفترة (١٣٠–١٤٠م) .[2]

وأياً ما كان الأمر فلسنا ندري على وجه التحقيق ، متى أعلن « يرم أيمن » نفسه ملكاً على سبأ ؟ وربما كان ذلك في عهد « كرب إيل وتار يهنعم » وأنه استمر يحمل اللقب حتى وفاته ، فخلفه ولده « علهان نهفان » الذي عاصر « كرب إيل وتار يهنعم » وابنه « فرعم ينهب[3] » ، هذا ويفرق « نشوان الحميري » بين « علهان » و « يهفان » ويرى أنهما أخوان ولدى « ذى بتع بن يحصب الصوار »[4] .

وعلى أي حال ، فإن المؤرخين مختلفون في فترة حكم « علهان نهفان » هذا ، فبينما ذهب « فلبي » إلى أنها كانت حوالي عام ١٣٥ ق.م[5] ، يذهب « البرت جام » إلى أنها كانت في الفترة (٨٥–٦٥ ق.م)[6] ، هذا إلى أن آخرين يرون أنها

---

(١) جواد علي ٢/٣٦٠ ، وكذا REP, EPIG, 4190, VII, I, P. 131
وكذا Le Museon, 1967, 1-2, P. 282

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 498.

(٣) جواد علي ٢/٣٦١–٣٦٢ ، وكذا Le Museon, 1967, 1-2, P. 281.

(٤) نشوان بن سعيد الحميري : ملوك حمير وأقيال اليمن – القاهرة ١٣٧٨ هـ ص ٥٦–٥٧ ، منتخبات ص ٧٥ .

(٥) J.B. Philby, op. cit., P. 142.

(٦) A. Jamme, op. cit., P. 390.

كانت في النصف الأول من القرن الأول ق.م[1] . بل إن « وليم اولبرايت » إنما يحددها بعام ٦٠ ق.م[2] ، وأخيراً فإن « فون فيسمان » يذهب بعيداً عن الآخرين » فيرى أنها كانت في حوالي عام ١٦٠م[3] ، والأمر كذلك إلى « أدولف جرومان » الذي جعل حكم ابنه « شعر اوتر » في حوالي عام ٥٠ أو ٦٠م ، وهذا يعني أن « علهان » إنما كان يحكم في القرن الأول الميلادي[4] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن « علهان » قد نجح في أن ينتحل لقب « ملك سبأ » ، وإن كانت النصوص التي تشير إلى ذلك لا ندري شيئاً عن تأريخها ، كما أننا لا ندري متى أشرك « علهان » ولده « شعر أوتر » معه في الحكم ، فهناك من النصوص ما يشير إلى أن الرجلين قد حملا لقب « ملك سبأ » ، وربما كانت القلاقل التي كانت تمر بها البلاد ، والخصومات التي كانت تسود العلاقات بين حكام سبأ وحضرموت وحمير والحبشة ، هي السبب في ذلك[5] .

وعلى أي حال ، فلقد نجح « علهان » في أن يضم إلى جانبه « يدع أب غيلان » ملك حضرموت ، ومن ثم فقد وجه جهده ضد الحميريين حتى انتصر عليهم في « ذات العرم »[6] ، ثم إتجه بعد وفاة « يدع أب غيلان » إلى عقد معاهدة مع « جدرة » ملك الحبشة ، والذي كان فيما يرى فون فيسمان — يسيطر على ساحل البحر الأحمر الشرقي من ينبع حتى عسير ، فضلاً عن باب المندب[7] .

---

(١) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 113.

(٢) BASOR, 119, 1950, P. 9.

(٣) Le Museon, 1964, 3-4, P. 498.

(٤) A. Grohmann, op. cit., P. 28.

(٥) جواد علي ٢/٣٦٥ ؛ وكذا انظر : REP, EPIG, 4216.
وكذا A. Jamme, op. cit., P. 290

(٦) جواد علي ٢/٣٦٦-٣٦٧
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 113.
وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 466-68.

(٧) جواد علي ٢/٣٦٨ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 470-71 .

وانفرد « شعر أوتر » بالحكم . وهناك ما يشير إلى أنه حمل لقب « ملك سبأ وذي ريدان » . وإن كانت بعثة «وندل فيلبس» قد عثرت على كتابة ترجع إلى أوائل عهده . نشرها الدكتور خليل يحيى نامي . بدأت بجملة « شعر أوتر ملك سبأ بن علهان نهفان ملك سبأ » ، وفيها إشارة إلى حرب ربما امتدت إلى أرض حمير ، وقد انتصر فيها . ومع ذلك كله فإن نص (جلازر ١٣٧١) يشير إلى أن كلا من « علهان نهفان » وولده « شعر أوتر » قد حمل لقب « ملك سبأ وذي ريدان » ، مما يدل على أن اللقب قد ظهر على أيام « علهان » ، وليس على أيام ابنه « شعر أوتر »[١] .

ونقرأ في نص (CIH, 334) إشارات عن حرب شنها « شعر أوتر » ضد ملك حضرموت وانتصر فيها[٢] ، ويرى الدكتور جواد علي أن « شعر أوتر » قد وجه جيشاً من السبئيين والحميريين ، ومن قبائل أخرى إلى حضرموت للقضاء عليها ، وقد نجح في أن ينزل خسائر فادحة بقوات « العز » ملك حضرموت بعد معركة مريرة دارت رحاها في « ذات غيل » ، وحين أعاد الملك الحضرمي الكرة أصيب بهزيمة أخرى ، وهنا قام الردمانيون بهجوم مفاجيء على قوات « شعر أوتر » ولكنهم لم يفلحوا في إيقاع الهزيمة بها[٣] .

ونعرف من نصي (جام ٦٣٦ ، ٦٣٧) أن « شعر أوتر » قد انتصر على الحضارمة واستولى على عاصمتهم « شبوه » ، ومن ثم فقد قدم لمعبد « أوام » تمثالاً ، تعبيراً عن شكره له ، واعترافاً بفضله ، هذا ونعرف كذلك من نص (جام ٦٣٢) أن جيش « شعر أوتر » قد استولى على « شبوه » — وكذا على « قنا » ميناء حضرموت الرئيسي — بل إن هناك ما يشير إلى أن الهجوم على حضرموت قد تمّ عن طريق البر والبحر معاً ، وأن مدينة « قنا » إنما هوجمت عن طريق البحر[٤] .

---

(١) جواد علي ٢/٣٧٠ ، وانظر : مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — المجلد ٢٢ ، العدد الثاني — القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٣ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 295. وكذا Le Museon, 1967, 1-2, P. 271

(٢) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 113.

(٣) جواد علي ٢/٣٧٣ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 300.

(٤) A. Jamme, op. cit., P. 134, 139, 226.

ونقرأ في نص (Geukens, I) أن الردمانيين — كما أشرنا آنفاً — قد اهتبلوا فرصة انشغال « شعر أوتر » بمحاربة الحضارمة وانقضوا عليه من المؤخرة ، وأنهم ، وإن لم ينجحوا في إيقاع الهزيمة به ، فقد كبدوه خسائر ليست بالقليلة ، وفي نفس الوقت أغار الأحباش — وربما باتفاق مع بني ردمان — على جيش شعر أوتر كذلك ، فضلاً عن الإغارة على أرضين تابعة له ، وألحقوا بهما أضراراً بالغة[1] : وطبقاً لما جاء في نقش (جام ٦٣١) فإن « شعر أوتر » قد أوكل إلى قائده « قطبان أوكان » أمر الإنتقام من الأحباش ، ومن ثم فإن هذا القائد سرعان ما توجه إلى « بني ردمان » وأنزل بهم من العقاب ما يستحقون ، جزاء وفاقاً لما ارتكبوه من خيانة للملك « شعر أوتر » ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الأحباش ، وبمساعدة من قوات سبئية جاءت تعينه على مهمته هذه ، نجح في حصارهم ، ثم في مهاجمتهم على غرة ، ثم أعمل السيف فيهم ، حتى اضطرهم آخر الأمر إلى أن يتركوا منطقة ظفار ، وأن يتجهوا إلى المعاهر (معهرتن) ، ثم سجل ذلك كله شكراً للموقاة ، داعياً إياه أن يحفظ سيده « لحيعثت يرخم » ملك سبأ وذى ريدان وأن يمد في عمره ، وأن يقهر أعداءه ، وأن يبارك له ولأهله[2] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أمور عدة في هذا النص، منها (أولاً) أن الملك إنما أمر قائده أن يسير على رأس قوة إلى أرض الحبشة ، يحارب فيها « جدرة » ملك الحبشة وأكسوم ، فماذا يعني النص بأرض الحبشة هنا ؟ أهي الأرض الأفريقية المعروفة ؟ أم موضعاً في العربية الجنوبية ؟ إن الدكتور جواد علي يرى أنها أرض الحبشة في أفريقية ، وذلك لأن « جدرة » لم يكن يقيم في بلاد العرب ، وإنما في أفريقية ، هذا فضلاً عن أن الأحباش الذين كانوا في بلاد العرب إنما كانوا تحت

---

(١) جواد علي ٢/٣٧٦ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 301.
وكذا G Ryckmans, Inscriptions Sud-Arabes, in le Museon, XII, 1942, P. 297-308.

(٢) جواد علي ٢/٣٧٦-٣٧٧ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 132
وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 475

قيادة « بيجت » ولد النجاشي - وليس النجاشي نفسه ، ثم يفترض بعد ذلك أن « قطبان أوكان » ، ربما أبحر من « الحديدة » إلى السواحل الأفريقية ؛ وباغت القوم هناك بغزو غير متوقع . ثم جمع ما استطاع الإستيلاء علية ؛ وعاد سريعاً ليشترك في المعارك التي دارت رحاها ضد « بيجت » ومن معه من قوات [1] ؛ وفي الواقع أن هذا الرأي قد يبدو مقبولاً في ظاهره : إلا أن التكتيك العسكري قد يرفضه ؛ ذلك لأنه من الخطورة بمكان أن يجازف جيش « شعر أوتر » بهذه المغامرة غير المأمونة العواقب، في وقت تدق الحرب طبولها في اليمن نفسها، ثم كيف أمكن تحديد الإبحار من « الحديدة » بالذات ، وأخيراً فإننا لا نملك دليلاً تاريخياً يؤكد زعم الدكتور جواد علي هذا ، بخاصة وأن هناك من يشك في أن « جدرة » كان ملكاً أفريقيا ، بل ربما كان زعيماً لفرقة من الأحباش كانت تقيم في بلاد العرب نفسها[2] .

ومنها (ثانياً) أن « فون فيسمان »[3] قد استدل من عدم ذكر اسم الملك « شعر أوتر » في نهاية النص ، فضلاً عن وجود إسم لحيعثت يرخم « كملك لسبأ وذى ريدان» ، على أن «شعر أوتر » قد مات أثناء تدوين النص ، وأن « لحيعثت يرخم » قد خلفه على العرش .

ومنها (ثالثاً) أن النص لم يقل لنا شيئاً عن مصير « بيجت » إبن ملك الحبشة وأكسوم ، بعد هزيمته في ظفار وفي أرض معافر ، فربما بقي في أرض المعاهر، وأن الجيش السبئي لم يكتب له نجحاً في تطهير هذه الأرض من الأحباش ، ومن ثم فقد بقوا فيها بعد انتهاء المعارك ، بل إن نقش (جام ٦٣٥) ليحدثنا عن معارك دارت رحى الحرب فيها خلف «مدينة نجران» بين جيش «شعر أوتر» والأحباش ، وربما كان في ذلك إشارة إلى أن «نجران» إنما كانت في أيدي الأحباش في تلك الأونة[4] .

---

(١) جواد علي ٣٧٨/٢ .

(٢) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ص ٢٤ ، (القاهرة ١٩٤٧) .

(٣) Le Museon, 1964, 3-4, P. 475.

(٤) جواد علي ٣٧٨/٢-٣٨٠ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 135-6, 303-304
وكذا A. Sprenger, op. cit., P. 63

هذا ويشير نفس النقش (جام ٦٣٥) إلى أن « شعر أوتر » قد كلف « أبا كرب أحرس » بقيادة جيش من « خولان حضل » وبعض أهل نجران وبعض الأعراب ، لمحاربة المنشقين من « بني يونم » (بني يوان) ومن أهل « قريتم » (قرية لبني كهل) وأن الرجل قد نجح في مهمته إلى حد كبير ، ويرى بعض العلماء أن « بني يونم » إنما هم قوم من اليونان استوطنوا بلاد العرب ، وقد جاء ذكرهم في نص (جلازر ٩٦٧) وأنهم كانوا يحالفون « قرية » بني كهل هذه ؛ ومن ثم فقد هبوا لمساعدتهم ضد « شعر أوتر »[١] .

وأياً ما كان الأمر ، فليس من شك في أن « شعر أوتر » قد نجح في السيطرة على غالبية الحكومات والأقيال في العربية الجنوبية ، إلا أن الأمر لم يكن كذلك في العربية الغربية ، والتي تطل على سواحل البحر الأحمر ، حيث كان الأحباش أصحاب النفوذ فيها[٢] ، وأما فترة حكمه ، فقد كانت — فيما يرى «البرت جام» — في الفترة (٦٥—٥٥ ق.م) ، كما كان شقيقه « حيوعثتر يضع » في الفترة (٥٥—٥٠ق.م) ثم يبدأ السلطان ينتقل من أسرة « يرم أيمن » إلى أسرة « فرعم ينهب » ، والتي بدأت حكمها في مجاورات « صنعاء » ، ثم سرعان ما أصبحت صاحبة سبأ وذى ريدان[٣] .

وليس من شك في أن النص (CIH, 398) من النصوص الهامة في تاريخ سبأ ، ذلك لأنه يتحدث عن « شعر أوتر » كملك لسبأ وذى ريدان ، وفي الوقت نفسه يتحدث عن «الشرح يحصب» وأخيه «يأزل بين» ، بصفتهما ملكي سبأ وذى ريدان ، وهذا يعني ببساطة أن الملوك الثلاثة ، إنما كانوا يحملون في آن واحد لقب «ملك سبأ وذى ريدان »[٤] .

---

(١) جواد علي ٢/٣٨١ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 138.
وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 374
وكذا A. Jamme, South Arabian Inscriptions, Princeton, 1955, P. 503.

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 475.

(٣) A. Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilquis, P. 390.

(٤) J.B. Philby, op. cit., P. 95.

وقد أثار هذا النص جدلاً طويلاً بين العلماء ، فذهبت آراؤهم فيه مذاهب شتى ، وكذا في معاصرة « علهان نهفان » لـ « فرعم ينهب » ، فضلا عن حكم « شعر أوتر » و « الشرح يحصب » وشقيقه ، وبدهي ألا يكون مقبولاً أن تكون « مأرب » عاصمة لـ « شعر أوتر » و « الشرح يحصب » وشقيقه في نفس الوقت ، وأن يكون الثلاثة قد حكموا حكماً مشتركاً ، رغم ما بين أسرتيهما من تنافس قديم ، فضلاً عن أن يحمل الجميع لقب « ملك سبأ وذى ريدان » برضى من الثلاثة .

وقد ذهب فريق من الباحثين إلى أن النص لا يشير إلى أن الثلاثة قد حكموا في آن واحد ، وإنما يشير إلى أن « الشرح يحصب » وأخاه ، قد حكما بعد « شعر أوتر » ، وهنا فالأمر لا غرابة فيه ، وذهب فريق ثان إلى أن حكم الأخوين إنما كان مستقلاً عن « شعر أوتر » ، وأنهما كانا يعتبران نفسيهما خلفين شرعيين لأبيهما « فرعم ينهب » ، وذهب فريق ثالث إلى أن « فرعم ينهب » قد اتخذ من منطقة تقع إلى الغرب من « مأرب » مركزاً لنفوذه ، وأن ولديه قد خلفاه عليها ، وحين سنحت الفرصة لهما اتخذا لقب « ملك سبأ وذى ريدان » بعد اختفاء « شعر أوتر » وأخيه « حيو عثتر يضع » — الذي شاركه في حمل اللقب — من مسرح الأحداث ، وإن كان ملكهما إنما كان مقصوراً على جزء من المملكة[1] .

على أن هذه الألقاب الملكية التي كان يحملها « شعر أوتر » و « الشرح يحصب » وأخيه « يأزل بين » ، فضلاً عن « لعزرم يهنف يصدق » ، والذي رأى فيه بعض الباحثين ملك « ظفار » ومجاوراتها ، هذا إلى جانب ملك خامس يدعى « لحيعثت يرخم » ، كل ذلك يدل على أن واحداً لم يستطع أن يحمل اللقب بمفرده ، وأن هناك

---

(1) جواد علي ٢/٣٨٣-٣٨٤ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 305.
وكذا J. Ryckmans, op. cit., P. 297
وكذا A.F.L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, in BASOR, 16, 1954, P. 53.

آخرين ينازعونه سلطانه ، وربما استطاعوا آخر الأمر انتزاع العرش نهائياً ، كما فعل « الشرح يحصب » وأخوه[1] .

أضف إلى ذلك أن النصوص من تلك الفترة ، إنما تدل على أن البلاد كانت تمر بفترة اضطراب وقلق ، وأن الحرب ما تكاد تضع أوزارها في مكان ، حتى تدق طبولها في مكان آخر ، ثم تشتعل نيرانها في مكان ثالث ، وفي أغلب الأحايين كانت سجالاً بين المتحاربين ، وأن المغلوب منهم ، سرعان ما يعود بعد حين ، فيقف على قدميه ويحمل سيفه من جديد ، على أن الخاسر الوحيد فيها دائماً ، إنما كان هو الشعب ، يدفع ثمنها من دمه وماله ، حيث تساق العامة منه إلى ميدان القتال فتسمع وتطيع ، وإلا صبّ عليها من العذاب ألواناً ، أشد قسوة من أهوال الحروب ، وفي كل ذلك لا هدف يُرجى إلا إشباع شهوات الحكام ، وإرضاء رغباتهم في تحقيق أمجاد شخصية ، سرعان ما تزول بعد رحيلهم عن هذه الدنيا ، وربما في أحايين كثيرة قبل أن يرحلوا إلى عالم الآخرة .

وإلى هذه الفترة العصبية من تاريخ اليمن ، ترجع — فيما يرى كثير من الباحثين — حملة الرومان على العربية الجنوبية ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن ملوك سبأ وذى ريدان ما كانوا بقادرين على صدها ، فالفرقة من ناحية ، وضعف الإمكانيات من ناحية أخرى ، إنما يقفان حجر عثرة في سبيل ذلك .

ويحدثنا التاريخ أن الرومان بعد أن استولوا على أرض الكنانة ، بعون من الأنباط ، استطاع به « يوليوس قيصر » أن يقبض على ناصبة الأمور في الإسكندرية عام ٤٧ ق.م[2] ، بدأ الرومان يفكرون في نفس الشيء بالنسبة إلى بلاد العرب ، وهكذا كان مشروع حملة « إليوس جالليوس » عام ٢٤ ق.م ، للإستيلاء على اليمن ، لكثرة

---

(١) جواد علي ٢/٣٨٧–٣٨٨ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 134, 306

(٢) جواد علي ٢/٤٠ ، وكذا Die Araber, I, P. 360.

وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 541

وكذا Murry, The Rock city Petra P. 101.

خيراتها ، ولا حتكارها طرق النقل التجاري بين العالم ، ولجعل البحر الأحمر بحراً رومانياً ، وللقضاء على المنافسة العربية الخطيرة ، والتي كان الملاحون الروم يعملون لها ألف حساب عند اجتيازهم باب المندب ، أو عندما ترسو سفنهم على بعض الموانى في تلك المناطق[1] . ولو تمّ المشروع على نحو ما حلم به « أغسطس » (٣١ق.م — ١٤م) لكان حكم روما قد بلغ العربية الجنوبية ، وربما سواحل أفريقية كذلك ، إلا أن سوء تقدير الرومان له ، واستهانتهم بطبيعة بلاد العرب وعدم إدخالهم في حسابهم قساوة الطبيعة هناك ، وعدم تمكن الجيوش الرومانية النظامية من المجابهة فيها ، وتحمل العطش والحرارة الشديدة ، كل هذه الأمور أدت إلى خيبة المشروع منذ اللحظة الأولى ، فكانت انتكاسة شديدة في هيبة روما ، وفي مشاريعها التي أرادت تنفيذها في شبه الجزيرة العربية[2] .

على أن « سترابو » مؤرخ الحملة ، إنما يُرْجع فشلها إلى خيانة «صالح»— الوزير النبطي الذي صاحب الحملة كدليل لها — ، بأن أقنع قائدها بتعذر الوصول إلى اليمن براً ، لعدم وجود عدد كاف من الجمال ، مما عرض الحملة لمخاطر جسيمة عند عبورها البحر الأحمر ، فضلاً عن عدم وجود طرق برية لمرور الجيش الروماني ، وكان صالح — فيما يرى سترابو — يهدف من ذلك إلى إضعاف الروم وإذلالهم ، فضلاً عن إضعاف القبائل العربية نفسها ، ليكون سيد الموقف يتصرف فيه كيف يشاء ومتى شاء[3] ، وهكذا عمل صالح (سيلئيوس) إلى السير بالحملة في طريق مقفر ، وفي أرضين لا زرع فيها ولا ماء ، مما أدى في نهاية الأمر إلى فشل الحملة ، وإلى أن يحكم الروم على صالح بالإعدام[4] .

---

(١) جواد علي ٢/٤٣ ، وكذا O'Leary, op. cit., P. 74-5
وكذا Pliny, 11, P. 415, 6, 101

(٢) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٤١ ، جواد علي ٢/٤٣—٤٤ .

(٣) جواد علي ٢/٤٥ ، وكذا J. Pirenne, op. cit., P. 93F.
وكذا Strabo, XVI, IV, 23-24.

(٤) ERE, 9, P. 121. وكذا EI. 3, P. 801 وكذا O'Leary, op. cit., P. 75

وأياً ما كانت الأسباب في فشل هذه الحملة ، التي تعدّ أول — بل وآخر — غارة ذات بال ، قصدت بها دولة أوربية اكتساح داخل الجزيرة العربية ، فإن الحملة استطاعت أن تحدث بعض الخراب والدمار في نجران ونشق وكمناء ومأرب ولوق ، وربما حريب . وهي أبعد مدينة وصلتها الحملة[1] .

ومن الغريب أن المصادر العربية الجنوبية ، قد التزمت الصمت التام إزاء هذه الحملة ، وقد تساءل « إدوارد جلازر » عن سبب سكوت هذه المصادر عن حملة لا بدّ وأنها قد تركت أثراً بعيد المدى في نفوس السبئيين — بل وفي غيرهم من قبائل اليمن والحجاز — ثم رأى بعد ذلك أن نص (هاليفي ٥٣٥) إنما يتحدث عن حرب دارت رحاها بين « ذ شمت » و « ديمنت » ، وربما كان المراد بالأولين الرومان ، وبالآخرين السبئيين ، ومن ثم فإن النص إنما يتحدث عن حملته « إليوس جالليوس » هذه ، على أن الدكتور جواد علي إنما يستبعد هذا الرأي . ويرى أن سر الحملة ربما كان ما يزال تحت التراب ، وإن كانت الحفريات قد فشلت حتّى الآن في العثور على شيء يتصل بها ، كما فشل هاليفي وفلبي في العثور على شيء يميط اللثام عنها[2] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الروم بعد أن فشلت حملتهم هذه ، بدأوا يغيّرون سياستهم نحو العربية الجنوبية ، فتخلوا نهائياً عن السيطرة العسكرية ، وإن اتجهوا في الوقت نفسه نحو تقوية أسطولهم في البحر الأحمر ، ويقول سترابو أنهم كانوا يرسلون سنوياً ما لا يقل عن ١٢٠ سفينة إلى الهند ، وهو عدد لم يتعودوا إرساله فيما مضى ، كما عثر في الهند على نقود رومانية ، أضف إلى ذلك أن وجود معبد لأغسطس

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٠–٣٠١
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 31-4.
وكذا O'Leary, op. cit., P. 78. وكذا J. Pirenne, op. cit., P. 112
(٢) جواد علي ٢/٨٥ ، وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 32.
وكذا E. Glaser, op. cit., P. 65.

في « موزيريس » بساحل « مالابار » ، يدل على أن عدداً غير قليل من التجار اليونان والرومان كان يقيم هناك[1] .

هذا وقد عمل الروم في نفس الوقت على تقوية علاقاتهم بالعربية الجنوبية ، فاحتلوا ميناء عدن إبان حكم « كلاوديوس » (٤١-٥٤م) ، أو قبله ؛ وهكذا كان التحالف مع أمير ظفار ، مقروناً بوجود حامية رومانية في «عدن» ، أمراً لا شك في أنه كان ضماناً كافياً لسلوك العرب الجنوبيين مسلكاً طيباً ، يضمن للروم نفوذاً تجارياً في عدن[2] . وإن كان الرومان – دون شك – لم يحتلوا جنوب شبه الجزيرة العربية في يوم من الأيام[3] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن عهد ملوك سبأ وذى ريدان ، إنما يبدأ حقيقة إبان النزاع بين « الشرح يحصب » وأخيه « يازل بين » من ناحية ، وبين « شعر أوتر » من ناحية أخرى ، وليس من شك في أن المصادر الإسلامية إنما تحدثت عن « الشرح يحصب » أكثر من غيره من ملوك تلك الفترة : أو التي سبقتها ، فصاحب الإكليل يسميه « إلى شرح يحصب » وينسب إليه بناء قصر غمدان ، وأن « بلقيس » إبنته ، فضلاً عما ينسبه إليه من شعر مزعوم كالعادة[4] ، وأما « ياقوت الحموي » ، فيدعوه « ليشرح بن يحصب » ، كما ينسب إليه كذلك – نقلا عن ابن الكلبي – بناء قصر غمدان[5] ، ولم يفت « ابن جرير » أن ينسب إليه بلقيس ، وإن كان «حمزة الأصفهاني» قد جعلها حفيدته ، لأنها فيما يزعم – «بنت هداد بن شراحيل[6]» والذي يعني به « الشرح يحصب » .

---

(١) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٧٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٧٩-٨٠ .

(٣) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٤٢ ، وكذا
Jacqueline Pirenne, la Grece, et Saba, Paris, 1955.
وانظر : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » ص ٤١٦-٤٢٠ .

(٤) الإكليل ٨٦/٢ ، ١٩/٨ ، ٢٤ .

(٥) ياقوت ٢١٠/٤ ، وانظر : ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٦٨ .

(٦) حمزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ٨٣ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٧٤ ، تاريخ الطبري ٤٨٩/١ ، قارن : ياقوت ٢١٠/٤ .

ولا ريب في أن القول بأن « الشرح يحصب » ، كان أباً لبلقيس التي عاصرت سليمان ،أمر غير مقبول ، فالأخير قد عاش في القرن العاشر ق.م ، وأن الشرح يحصب — طبقاً لأعلى التقديرات — إنما كان في القرن الثاني ق.م ، وإن تأخر البعض به إلى القرن الرابع الميلادي ، هذا فضلاً عن أن القرن العاشر قبل الميلاد ، إنما هو تاريخ متقدم جداً — في نظر بعض الباحثين — لقيام دولة سبأ نفسها ، حتى على أيام المكاربة ، وليس الملوك ، فضلاً عن أن يكون ذلك على عهد « ملوك سبأ وذى ريدان » ، الذين ينتمي إليهم « الشرح يحصب » .

ويبدو أن الشرح يحصب كان محارباً ، إشترك في كثير من المعارك ، ونقرأ في نقش (جلازر ١١٩) أنه غزا حمير وحضرموت وعاد بالكثير من الغنائم والأسرى ، وهو ما يزال في درجة «كبير» ،[1] ويبدو أن الحميريين كانوا في تلك الفترة قوة فعالة فيالسياسة العربية الجنوبية،وأنهم كانوا لايهتمون كثيرا في أن يحاربوا في جانب هذا الفريق أو ذاك ، وأما حضرموت فكانت تقف في جانب « شعر أوتر » ضد « الشرح يحصب » ، ونقرأ في نقوش (جام ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٩٠ ، ٥٩٥) عن حرب نشبت في النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد ، بين « الشرح يحصب » وأخيه « يأزل بين » من ناحية ، وبين الأحباش من ناحية أخرى ، وأن الشرح يحصب وأخاه ، قد انتصرا على الأحباش في « وادي سهام » و « وادي سردد » — على مبعدة ٤٠ كيلومتراً إلى الشمال من الحديدة — وفي غير ذلك من المناطق التي كان يوجد فيها أحباش[2] .

(١) جواد علي ٢/٤٢٣ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 310
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner , op. cit. P. 18
وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 459.

(٢) جواد علي ٢/٤٢٤—٤٢٧ ، وكذا Handbuch, I, P. 92.
وكذا D.S. Margoliouth, Two South Arabian Inscriptions, P. 1
وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 94.
وكذا A. Jamme, op. cit., P. 60, 64, 310-311, 316
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 38.
وكذا عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٢٤—٢٦ .

وتشير نقوش (جام ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٩) إلى حرب دارت رحاها بين « الشرح يحصب » وأخيه ، وبين « كرب إيل ذى ريدان » وحلفائه في أرض « حرمة » وفي « عروش » أو بلاد العروش – وتقع على مبعدة ٩٥ كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من مأرب – وكذا في موقع يحمل نفس الإسم في منتصف المسافة بين صرواح وذمار ، وغير ذلك من الأماكن ، ونقرأ في نقش (جام ٥٨٦) أن الشرح يحصب قد سحق عصياناً قامت به حمير ، وأنزل بها خسائر فادحة ، والأمر كذلك بالنسبة إلى قوات « كرب إيل » ، ويسجل نقش (جام ٥٧٦) إنتصار الشرح يحصب على ملك كندة وحلفائه من إمارة « خصصتن » ، وكذا على قوات حبشية ، وعلى عشائر حمير بقيادة « شمر ذى ريدان »[1] .

ويفهم من نص (CIH, 314) أن « شمر ذى ريدان » من حمير – وكانت عاصمته ظفار – قد نازع الشرح يحصب عرشه ، وأنه استعان في ذلك بالأحباش . إلا أنه لم يحقق نجاحاً فيما أراده[2] ، هذا ويشير الدكتور جواد علي إلى أن في النص إشارات إلى تدخل الحبشة في شئون العربية الجنوبية وقت ذاك ، وإلى وجودهم في مواضع من الساحل ، وإلى تكوينهم مستعمرات فيها ، تتموّن من الساحل الأفريقي المقابل ، وربما كان الروم على اتفاق مع الأحباش ، يوم أرسلوا حملته « إليوس جالليوس » إلى اليمن عام ٢٤ ق.م ، وربما اشترطوا أن يسهل الأحباش مهمة الحملة في العربية الجنوبية ، وأن يقدموا لها المساعدات اللازمة ، وأن يتعاونوا جميعاً في الأمور السياسية والإقتصادية ، وفي مقابل ذلك على الروم أن يضمنوا مصالح الحبشة في العربية الجنوبية[3] .

---

(١) A. Jamme, op. cit., P. 83, 93, 96, 317-319.
وكذا W. Caskel, Entdeckungen in Arabien, Koln, 1954, P. 9.

(٢) جواد علي ٢/٤٢٩–٤٣٣ ؛
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 38
وكذا BASOR, 145, 1957, P. 28-29. وكذا Le Museon, 1948, 3-4, P. 232
وكذا E. Glaser, op. cit. P. 117.

(٣) جواد علي ٢/٤٣٩–٤٤١ .

ويبدو من النصوص أن الأحباش إنما كانوا يغيّرون سياستهم نحو العربية الجنوبية طبقاً للظروف ، فهم مرة مع الحميريين ، وتارة عليهم ، وهم مرة ثالثة في حلف مع « شعر أوتر » ، ومرة رابعة ضدة ، وهم في مرة خامسة على علاقة طيبة مع « الشرح يحضب » ، ثم مرة سادسة من ألد أعدائه ، وهكذا كانت سياستهم قلقة غير مستقرة ، بسبب الإضطرابات التي كانت تسود العربية الجنوبية ، ولكنها في كل الأحوال ، إنما كانت تخضع لمصالح الأحباش أولاً وأخيراً ، وتهدف إلى بسط سلطانهم على العربية الجنوبية ، وتوطيد هذا السلطان[1] .

هذا ، وهناك من يذهب إلى أن « شمر ذي ريدان » ، الذي طالما خاض غمار الحرب ضد الشرح يحضب وأخيه ، إنما هو الملك « شمر يهرعش » ، وهذا يعني أنه عاش في القرن الرابع الميلادي ، ومن ثم فانهم يتأخرون بتاريخه حوالي ٢٥٠ عاماً[2] ، بينما يذهب فريق آخر إلى أنه إنما كان معاصراً لامرىء القيس ، صاحب نقش النمارة ، وأن « مراقس » المذكور في نقش (ريكمانز ٥٣٥) هو « إمرؤ القيس »[3] ، إلا أن غالبية الباحثين تعارض هذا الاتجاه .

وعلى أي حال ، فإن « البرت جام » يرى أن « الشرح يحضب » وأخاه « يأزل بين » قد حكما حكماً مشتركاً في الفترة (٥٠–٣٠ ق.م) ، ثم حكم « الشرح يحضب » بمفرده حتى حوالي عام ٢٠ ق.م[4] ، أو بعد ذلك بقليل ، إلا أن غالبية الباحثين تذهب إلى أنه كان قبل ذلك ، حتى أن « جون فلبي » يذهب إلى أن حكمه إنما كان في الفترة (١٢٥–١٠٥ ق.م)[5]

---

(١) جواد علي ٢/٤٤١ .

(٢) BASOR, 145, 1957, P. 75.

(٣) جواد علي ٢/٤٤١–٤٤٢ ، وكذا le Museon, 1956, 69, P. 139 ، وكذا BASOR, 145, 1957, P. 25

(٤) A. Jamme, op. cit., P. 390.

(٥) J.B. Philby, op. cit., P. 142.

وقد اختلف العلماء في خليفة «الشرح يحصب» ، فذهب فريق إلى أنه شقيقه «يأزل بين» ، ثم ولده «نشأ كرب يهأمن يهرجب» ، وذهب فريق آخر إلى أنه «وتريهأمن» ولد «الشرح يحصب» وأنه كان في الفترة (٥ ق.م — ١٠م) ، بل إن هناك من يقدم «وتريهأمن» على أخيه «نشأكرب يهأمن يهرجب»[١] ، وأخيراً فهناك من يرى أن الشرح يحضب قد تبنى القيلين الجرتيين «سعد شمس أسرع» وابنه «مرثد يهحمد» ، وقد أصبح هذان القيلان من ملوك سبأ وذى ريدان ، نتيجة لهذا التبني السياسي الذي جعلهما ينسبان نفسيهما بعبارة «سعد شمس أسرع وابنه مرثد يهحمد ملكا ذى ريدان ، إبناً إيلشرح يحصب ملك سبأ وذى ريدان» ، وأن الرجلين قد آزرا «وتريهأمن» أخاهما بالتبني ، إلا أن الأمور رغم ذلك كانت في أيدي الحميريين من بني «ذى ريدان[٢]» .

وعلى أي حال ، فرغم ما تنسبه النقوش من انتصارات إلى «الشرح يحصب» ثم إبنه «نشأكرب» ، الذي نجح السبئيون على أيامه في الإستيلاء على ما كان عند الحضارمة من خيل وجمال وحمير ، ومن كل حيوان جارح ، فإن الدولة السبئية انتهت فعلا على أيام «نشأكرب» هذا ، بأيدي الحميريين[٣] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنه في عهد «الشرح يحصب» لمع إسم «صنعاء» (صنعو) ، فقد تردد اسمها في النصوص التي ترجع إلى ذلك العهد مثل نص (جام ٥٧٥) ، وفي أيام الحروب التي دارت رحاها بين «الشرح يخصب» و «شمر ذى ريدان» ، كما يشير إلى ذلك نقش (جام ٥٧٧) و (ريكمانز ٥٣٥) ، هذا وتشير الكتابة (CIH 429) إلى قصر غمدان (غندان) — بجانب قصر سلحين — كمقر للملوك ، ولعل في هذا إشارة إلى أن الشرح يحصب ، إنما كان يقيم في كلا

(١) A. Jamme, op. cit., P. 390 وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 142 وكذا J. Ryckmans, op. cit., P. 337

(٢) مطهر علي الأرياني : في تاريخ اليمن ص ١٨–١٩ ، وانظر كذلك نفس المرجع : ص ٢١–٣٤ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٩٤ .

القصرين (أي في مأرب وصنعاء) ، كما يشير كذلك إلى أن الهمداني وابن الكلبي ، ربما كانا على صواب فيما ذهبا إليه من أن الشرح يحصب هو الدي بنى قصر غمدان، وأن « شعر أوتر » هو الذي بنى سور صنعاء ؛ وإن كانت هناك رواية تذهب إلى أنه من بناء سليمان ، وعلى أي حال ، فكل هذا يدل على أن قصر غمدان من القصور الملكية السبئية القديمة ، وأن صنعاء بدأت تظهر بين مدن اليمن من تلك الفترة ، وأن مكانتها قد زادت على مر الأيام ، حتى صارت عاصمة اليمن ومقر الحكام حتى الآن[1] .

وبدهي أن ذلك لا يتفق وروايات الأخباريين من أنها كانت تدعى « أزال » ، وأن « وهرز » القائد الفارسي هو الذي أطلق عليها إسم « صنعاء » ، حين قال إبان دخوله إياها « صنعة صنعة » ، يريد أن الحبشة قد أحكمت صنعها ، أو أن التسمية إنما كانت نسبة إلى بانيها « صنعاء بن أزال بن عبير بن عابر بن شالخ » على رواية ، و « غُمدان بن سام بن نوح » على رواية أخرى ، فكانت تعرف تارة بأزال ، وتارة بصنعاء ، بل إن بعض الأخباريين لم يقف عند هذا الحد ، فزعم أنها واحده من مدن النار الأربع (أنطاكية والطوانة وقسطنطينية وصنعاء) في مقابل مدن الجنة الأربع (مكة والمدينة وإيلياء ودمشق)[2] .

وعلى أي حال ، فلقد جاء بعد فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق « ذمار على بين » ، ورغم أنه لم يحمل لقب « ملك سبأ وذى ريدان » ، فإن ابنه قد حمل اللقب العظيم ، ومن ثم فهناك من يرى التريث في الحكم على أنه كان ملكاً ، ويضعه «البرت جام» في الفترة (٣٠-٤٥م)[3] ، ثم خلفه ولده «كرب إيل وتار يهنعم» الذي أشرك معه ابنه « هلك أمر » في الفترة الأولى من حكمه - والتي كانت في منتصف

---

(١) جواد علي ٢/٤٤٢ ، اللسان ٣/٣٢٧ ، ياقوت ٤/٢١٠ ، وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 57
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 19
وكذا E. Glaser, Die Abessienier in Arabien und Africa, 1895, P. 121f

(٢) ياقوت ٣/٤٢٦-٤٢٧ ، البكري ٣/٨٤٣ .

(٣) A. Jamme, op. cit., P. 390.

القرن الأول الميلادي[1] — ثم ابنه الثاني « ذمار على ذريح » الذي جاء اسمه في عدد من النصوص في الفترة الثانية ، وقد حدد له « فلبي » الفترة (٧٥—٩٥م)[2] .

وفي أيام « يهقم » بن « ذمار على ذريح » كثرت الفتن والإضطرابات في البلاد ، ونقرأ في نقش (جام ٦٤٤) أن الثوار من قبيلة شداد (شددم) قد هاجموا قصر سلحين نفسه واستولوا عليه ، إلا أن الملك سرعان ما استعان بأمير قبيلة غيمان الذي كتب له النُجْحَ في القضاء على الثوار ، وطردهم من قصر سلحين ، بل ومطاردتهم حتى مأرب ، إلا أنهم سرعان ما نظموا صفوفهم مرة أخرى ، وتحصنوا في مواضع جديدة ، مما اضطر الملك إلى أن يلجأ مرة ثانية إلى عشائر «غيمان» وأن يطلب منهم مهاجمة أرض شداد ، وقد نجح أبناء « غيمان » في هزيمة الثوار عند « كومنان » واستولوا منهم على غنائم كثيرة من إبل وخيل ودواب[3] .

وجاء بعد ذلك « كرب إيل بين » وتدل النصوص من عهده على أن العلاقة بينه وبين حضرموت لم تكن طيبة ، وأن هناك حرباً دارت رحاها بين الفريقين ، إنتهت بعقد صلح تعهد فيه ملك حضرموت بالمحافظة على حسن الجوار ، وأن يكون إلى جانب ملك سبأ إذا ما حدث ما يستدعي ذلك ، وأن يضع قوة من حراس « يعكران » (وهو ملك صغير من ملوك حضرموت) تحت تصرف ملك سبأ ، إلا أن ملك حضرموت سرعان مانكث بالعهد ، بحجة أن ملك مأرب قد عمل ضد مصالحه، حين أرسل بعض قواته إلى منطقة « حنان » (هينان الحالية) ، التي كان ملك حضرموت يريدها خالية من الجند — رغم أنها منطقة سبئية ، وليست حضرمية — وربما كان يهدف من ذلك أن يجعلها غير قادرة على الدفاع ، حتى يستطيع التدخل في شئونها ، وتنفيذ مشروعاته التي كان يرمي من ورائها إلى الإستيلاء على القسم الجنوبي الشرقي من سبأ ، مستغلاً ضعف ملوك سبأ وقت ذاك لمصلحته[4] .

---

(١) R.L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, P. 22.

(٢) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٤ .

(٣) جواد علي ٤٧٧/٢ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 145.

(٤) جواد علي ٤٧٩/٢—٤٨٠ .

وهكذا منع ملك حضرموت قوات ملك مأرب من أن تعسكر في المدينة السبئية « حنان » ، بل واتجه إلى أرض « معين » ليهدد سبأ ، وسرعان ما هاجم « يثل » (المدينة المعينية القديمة) واستولى عليها ، ثم ضرب الحصار على مدينتي « نشق » و «نشان» ، ولم يفك الحصار عنهما إلا بعد وصول القوات السبئية ، وهنا رأى ملك سبأ وذى ريدان (كرب إيل بين) أن يهاجم خصمه بنفسه ، ومن ثم فقد اتجه إلى « يثل » ، كما أمر قواته المعسكرة عند نشق ونشان بالهجوم عليهما ، وهكذا وجد ملك حضرموت (يدع إيل) نفسه ، محاصراً من ناحيتين بقوات سبأ ، مما اضطره إلى الإنسحاب من « يثل » ، والإتجاه إلى « حنان » ، ولكنه حاول نهب مقتنيات المعبد (محرم بلقيس فيما يرى « البرت جام ») ، إلا أن القوات السبئية الزاحفة من نشق تمكنت من إنقاذ المعبد من النهب[١] .

وفي تلك الأثناء وصلت قوات إضافية من مأرب ، فواصل الملك السبئي زحفه إلى « حنان » ، حيث دارت هناك معارك رهيبة بين الفريقين ، كتب النصر فيها للسبئيين ، ودفع ملك حضرموت ثمن هزيمته ألفين من جنوده لقوا مصرعهم في ميدان القتال ، فضلاً عما استولى عليه السبئيون من خيل وجمال وحمير ، وكل حيوان جارح عند الحضارمة[٢] — كما أشرنا آنفاً —

وتمر فترة لا يستطيع المؤرخون فيها ترتيب الملوك أو معرفة فترات حكمهم ، فإذا مارجعنا إلى « ريكمانز » على سبيل المثال ، لوجدنا أنه قد ترك فراغاً بعد «هلك أمر » و « ذمار على ذريح » ، إشارة إلى فترة لا يدري من حكم فيها على وجه اليقين ، ثم يذكر بعد ذلك « وتريهأمن » ، ثم فراغاً آخر ، دوّن بعده إسم « شمدر يهنعم » ، ثم فراغاً ثالثاً بعد إسم « الشريحمل » ، ثم فراغاً رابعاً ، ثم إسم « عمدان بن يهقبض » ، ثم فراغاً خامساً يأتي بعده اسم « لعزنوفان يهصدق » ثم فراغاً سادساً دون بعده

---

(١) جواد علي ٢/٤٨١ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 348.

(٢) A. Jamme, op. cit., P. 144.

« ياسر يهصدق »[1] ، وإن كان « فلبي » يرى أن هذا الأخير جاء بعد « وتربهأمن » وربما كان والده ، وأنه بدأ حكمه حوالى عام ٦٠ ق.م[2] .

وأياً ما كان الأمر ، فلدينا من عهد « ياسر يهصدق » هذا ، نص (CIH, 41) وقد دونته جماعة من قبيلة « مهانف » (مهانفم) من « ضاف » بقاع جهران ، شمال ذمار ، ويذهب « فون فيسمان » إلى أنه أول نص يصل إلينا لقب فيه واحد من ملوك « حمير » بلقب « ملك سبأ وذى ريدان » ، وهذا يعني أن ملوك حمير قد نافسوا ملوك سبأ ، ثم نازعوهم عرشهم ، بل وحملوا ألقابهم كذلك[3] . ثم يذهب « فون فيسمان » بعد ذلك إلى أن الرجل قد حكم في الفترة (٧٥–٨٠م) ، وأنه اتخذ من « ظفار » مقراً له ، وأن خليفته إنما كان « الشرح » ، وأنه حكم حوالي عام ٩٠م ، وأن نص (CIH, 140) إنما يرجع إلى أيامه[4] ، غير أن « جام » إنما يضع حكم « ياسر يهصدق » في الفترة (٢٠٠–٢٠٥م)[5] .

ونقرأ في نص (CIH, 365) أن « ذمار على يهبر » بن « ياسر يهصدق »[6] — والذي ربما كان هو صاحب الإسم الذي جاء على بعض النقود[7] — قد شن حرباً ضد الأسرة السبئية المالكة ، إستولى فيها على حصن « ذات المخاطر » ، ولعل هذا هو الذي اعتمد عليه « فون فيسمان » في أن الحميريين قد استولوا على مأرب ، ولمدة عشر سنين[8] .

---

(١) جواد علي ٤٨٢/٢ ، وكذا J. Ryckmans, op. cit., P. 338.

(٢) J.B. Philby, op. cit., P. 142.

(٣) جواد علي ٢٨٣/٢ ، وكذا KTB, II, P. 64.
وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 448

(٤) Le Museon, 1964, 3-4, P. 495, 498.

(٥) A. Jamme, op. cit., P. 392.

(٦) Le Museon, 1948, LXI, 3-4, P. 232. وكذا O. Weber, op. cit., P. 36

(٧) جواد علي ٤٨٤/٢ ، وكذا D. Nielseon, op. cit., P. 94

(٨) Le Museon, 1964, 3-4, P. 459, 498.

وهناك عدد من النصوص جاء فيها اسم « ذمار على يهبر » بجانب اسم أبيه ، وأخرى جاء اسمه بجانب اسم ولده « ثاران يعب يهنعم » ، ويفهم منها أنه أشركه معه في الحكم ، كما يفهم منها كذلك أنه أعاد بناء سد ذمار[1] ، وأما الكتابة المعروفة بـ (REP, EPIG, 4909) ، فتتحدث عن وفد أرسله هذا الملك ليهنيء « العزيلط » ملك حضرموت باعتلائه العرش[2] ، وأن ذلك كان في حوالي عام ٢٠ ق.م ، على رأي[3] ، ٢٠٠م ، على رأي آخر[4] ، بل إن « جام » إنما يحدد لحكم « ثاران يعب يهنعم » الفترة (٢٦٥—٢٧٥م)[5] ، بينما يرى « فون فيسمان » أنها في الفترة (٢٣٠—٢٤٠م)[6]

وجاء « ذمار على يهبر » الثاني ، بعد أبيه « ثاران يعب يهنعم »[7] ، ثم جاء « شمر يهرعش » ، والذي لقبه « فون فيسمان » بالأول ، تمييزاً له عن « شمر يهرعش » المشهور ، والذي جاء بعده بفترة طويلة[8] .

ويذهب « جون فلبي » إلى أن عرش سبأ وذى ريدان ، إنما جلس عليه في الفترة (١١٥—٢٤٥م) ملوك من أسرة « بني بتع » من حاشد — وحاشد كما هو معروف من الهمدانيين — وأن عددهم كان إثنا عشر ملكاً[9] ، ثم جاءت من بعدهم أسرة من « بكيل » ، كان أول رجالها « العز نوفان يهصدق » الذي حكم في الفترة

---

(١) جواد علي ٢/٤٨٤—٤٨٥ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 459
وكذا REP, EPIG, IV, P. 355, VII, III, P. 360

(٢) J.B. Philby, Sheba's Daughters, P. 449.

(٣) J.B. Philby, The Background of Islam, P. 142.

(٤) H, Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 133, 144.

(٥) A. Jamme, op. cit., P. 392.

(٦) Le Museon, 1964, 3-4, P. 3498. وكذا A. Jamme, op. cit., P. 392

(٧) جواد علي ٢/٤٨٦—٤٨٧ .

(٨) Le Museon, 1964, 3-4, P. 398.

(٩) J.B. Philby, op. cit., P. 142.

(٢٤٥–٢٦٥م)[١] ، ثم جاء من بعده « ياسر يهنعم » والد « شمر يهرعش » الملك المشهور بين الإخباريين ، وبذلك ينتقل العرش إلى أسرة جديدة ، بل إلى عهد جديد ، عهد تسود فيه سيطرة الحميريين على بلاد العرب الجنوبية ، دون غيرهم من حكام اليمن ، ذلك لأن هذا العصر الثالث (١١٥ق.م–٣٠٠م) إنما كان النفوذ فيه لسبأ ولحمير معاً ، بعكس العصر الرابع (٣٠٠–٥٢٥م) الذي تسود فيه السيادة الحميرية .

ويعرف « ياسر يهنعم » في المصادر العربية باسم « ناشر النعم » أو « ياشر ينعم » أو « ياسر ينعم » أو « ياسر أنعم »[٢] لإنعامه عليهم (أي الحميريين) بما قوّى من ملكهم وجمع من أمرهم[٣] ، أو لإنعامه على الناس بالقيام بأمر الملك ورده بعد زواله[٤] ، أو لأنه رد ملك حمير بعد أن انتقل إلى سليمان بن داود عليه السلام[٥] ، وهو « عمرو بن يعفر بن حمير بن المنتاب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ[٦] » أو « يعفر بن عمرو بن حمير بن السباب بن عمرو ابن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ[٧] » ، أو « عمر ذو الادغار » أو «عمرو بن يعفر بن شرحبيل بن عمرو ذى الادغار» أو «مالك بن عمرو بن يعفر ابن عمرو بن حمير بن السباب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسكة المقعقع بن وائل بن حمير[٨] » ، إلى غير ذلك من أنساب ، الخطأ فيها أكثر من الصواب .

---

(١) Handbuch, P. 95. وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 143.

(٢) حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٨٣ ، وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٢١٩ ، تاريخ ابن خلدون ٥٢/٢ ، الأخبار الطوال ص ٢٠ ، نشوان بن سعيد الحميري : المرجع السابق ص ٨٩ ، تاريخ اليعقوبي ٥٠/٢ .

(٣) تاريخ الطبري ٥٦٦/١ ، وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٤٢٦ .

(٤) حمزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ٨٣ .

(٥) نشوان بن سعيد الحميري : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٦) تاريخ الطبري ٥٦٦/١ ، ١١/٢ ، الإكليل ٢٠٧/٢ ، مروج الذهب ٥/٢ .

(٧) وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٨) أبو الفداء ٦٧/١ ، وانظر : أخبار عبيد بن شرية ص ٤٢٥٦ ، كتاب التيجان ص ١٧٠ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٨٩ .

وقد ذهبت بعض المصادر العربية إلى أنه قد حكم بعد ابنة أخيه أو ابنة عمه ، « بلقيس بنت الهدهاد » صاحبة سليمان[1] ، لأن الهدهاد قد أوصى له بالملك في عهد بلقيس وبعدها ، فأجابته حمير وقدموه[2] ، أو أنه قد حكم بعد فترة تتراوح ما بين الثلاثين والأربعين عاماً من حكم سليمان لحمير ، حيث أخذه منه وأعاده إلى حمير ، وبقي صاحبنا هذا على عرشه قرابة خمس وثلاثين سنة[3] ، وهذا يعني — في نظرهم — أن « ياسر يهنعم » ، والذي عاش في القرن الثالث بعد الميلاد ، إنما كان معاصراً لسليمان ملك إسرائيل في القرن العاشر قبل الميلاد[4] ، والفرق بينهما ، كما نرى ، جد شاسع ، إذ أن سليمان عليه السلام ، إنما سبق « ياسر يهنعم » بزمن قد يزيد في مداه عن اثني عشر قرناً .

وأما الرواية التي ذهبت إلى أن سليمان قد حكم حمير ، فلست أدري — علم الله — من أين جاء بها أصحابها ، وليس هناك نص واحد — سواء أكان هذا النص من النصوص الحميرية ، أو حتى من توراة اليهود ، أو غيرها من المصادر اليهودية — يمكن الإعتماد عليه لتدعيم زعم الإخباريين هذا .

هذا وقد روى القرآن الكريم — وكذا التوراة[5] والانجيل[6] — قصة ملكة سبأ

---

(١) تاريخ الطبري ٥٦٦/١ ، أبو الفداء ٦٧/١ ، الأخبار الطوال ص ٢٠ ، كتاب التيجان ص ٢١٩ ، مروج الذهب ٥٠/٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٢) نشوان بن سعيد الحميري : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣) مروج الذهب ٥٠/٢ ، وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٤) يختلف المؤرخون في الفترة التي حكم فيها سليمان من القرن العاشر قبل الميلاد ، فهناك من يرى أنها في الفترة ٩٧٤—٩٣٢ ق.م (فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٣٤) ، ومن يرى الفترة ٩٧٣—٩٣٦ ق.م (حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص٨٤) ، ومن يرى الفترة (٩٧٠—٩٣٣ق.م) ، ومن يرى الفترة ٩٦٣—٩٢٣ ق.م (فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٥ ، عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص٢٨٧) ، ومن يرى الفترة ٩٦١—٩٢٢ ق.م (موسكاتي : المرجع السابق ص١٤٣ ، وكذا (E. W. Heaton, op. cit., P. 172. ، ومن يرى الفترة ٩٦٠—٩٢٢ ق.م .
(W.F. Albright, op. cit., P. 120-122).

(٥) ملوك أول ١٠ : ١—١٣ ، أخبار أيام أول ٩ : ١—١٢ .

(٦) متى ١٢ : ١٤ .

مع سليمان عليه السلام في سورة النمل[1] ، ومنها نعرف أن الملكة العربية حين تأكدت أنها أمام واحد من المصطفين الأخيار ، يريد لها ولقومها ، الهداية إلى سواء السبيل ، وليس رجلاً غرّته قوته ، فأراد أن يجعل من بلادها جزءاً من ممتلكاته ، فتقرر الذهاب بنفسها إلى النبي الكريم ، ويستعد سليمان لاستقبال الملكة العظيمة ، فيعدّ لها أمراً يخرج عن قدرة البشر العاديين ، ويدخل في عداد معجزات تلك الصفوة المختارة ، من رسل الله وأنبيائه الكرام ، فيأتي بعرشها إلى قصره ، حتى إذا ما وصلت ، «قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو »[2] ، ثم مفاجأة أخرى، « قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرح ممرد من قوارير »[3] .

وهنا كانت الملكة قد رأت كل ما يبعد عنها أية ريبة في أنها أمام نبي الله الكريم ، سليمان عليه السلام ، وليس ، كما كانت تظن – بادىء ذي بدء – أنها أمام ملك يطمع في دولتها ، أو يبغى الإستيلاء عليها ، ثم يجعل من أعزة قومها أذلة ، وكذلك يفعل الطامعون والمستعمرون ، وهنا أراد الله لها الهداية والإرشاد ، ومن ثم « قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين »[4] .

وليس في كل هذا مايفيد من قريب أو بعيد ، أن اليمن قد أصبحت مستعمرة لإسرائيل على أيام سليمان ، أو أن بلاد العرب قد أصبحت ضمن دولة اليهود ، وكذا ليس في قصة التوراة ما يفيد ذلك ، ومن ثم فإذا كان ذلك قد حدث ، فهو من

---

(۱) سورة النمل : آية ۲۰–٤٤ ، وانظر : تفسير البيضاوي ۲/۱۷۳–۱۷۸ ، تفسير الطبري ۱۹/ ۱٤۳–۱۷۰ ، تفسير ابن كثير ۳/۲٦۰–۲٦٦ (دار إحياء التراث العربي) تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ۲/۱۷۳–۱۷۸ ، تفسير روح المعاني ۱۹/۱۸۲–۲۱۰ ، تفسير الطبرسي ۱۹/۲۰۸–۲۳۰ ، تفسير الكشاف ۳/۱٤۲–۱٥۱ ، تيسير العلي القدير ۳/۲۳۳–۲٤۰ ، في ظلال القرآن ۱۹/۲٦۳۱–۲٦٤۳ ، تفسير القرطبي ۱۳/۱۷٦–۲۱۳ ، تفسير أبي السعود ٤/۱۲۷–۱۳٤ .

(۲) سورة النمل : آية ۳۸–٤۲ .

(۳) سورة النمل : آية ٤٤ .

(٤) سورة النمل : آية ٤٤ .

خيال الإخباريين ، طبقاً لإسرائيليات أوحى إليهم بها مسلمة أهل الكتاب ، وليس من حقائق التاريخ وأخباره الصحيحة[1] .

وعلى أي حال ، فإن الروايات العربية تنسب إلى « ياسر يهنعم » الفتوحات العظيمة ، فتزعم أنه خرج إلى ما حوى آباؤه من التابعة العظام ، فوطىء من الأرض موطئاً عظيماً ، ودوخ الشام ومصر وقبض أقواتهما ، ثم توجه إلى المغرب لرؤيا رآها ، يريد أن يبلغ وادي الرمل الذي يسيل ، وهكذا أخذ يسير حتى إذا ما بلغ البحر المحيط (ولعله هنا البحر الأبيض المتوسط) ، أمر ولده « شمر يرعش » أن يركب هذا البحر حتى يعبره ، ثم يرجع إليه بما رأى في وادي الرمل ، ويصدع « شمر يرعش » بأمر أبيه ، فينزل على صنم ذى القرنين ، ثم يبعث بعساكره إلى الإفرنج والسكس والصقالبة ، حيث يكتب لها النُجْح فيما أرادت ، فتعود وقد غنمت الأموال وسبت الذراري من كل أمة من جزر البحر ، على رواية ، وأن هذه الجيوش ، والتي كانت في عشرة آلاف مركب ، كانت بقيادة واحد من أهل بيت « ياسر يهنعم » — يقال له عمرو بن زيد بن أبي يعفر — وأنها ذهبت إلى وادي الرمل فلم تجد مخرجاً ولامجازاً ، لأن الوادي لا يَسْكن إلا يوم السبت فلا يجري ، وهكذا ضاعت هذه الجيوش ، وهنا أمر الملك بصنع تمثال من نحاس كتب عليه بالمسند « أنا الملك الحميري ياسر ينعم اليعفري ، ليس وراء ما بلغته مذهب ، فلا يجاوزه أحد فيعطب » ، على رواية أخرى[2] .

ولم تقتصر فتوحات « ياسر ينعم » — فيما تزعم المصادر العربية — على ذلك ، وإنما امتدت إلى الحبشة وإلى بلاد الروم والترك ، فضلاً عن التبت والصين والهند ، وأخيراً مات في « دينور » حيث دفنه إبنه هناك ، ثم جلس على عرشه من بعده[3] ،

---

(١) قدمنا دراسة مفصلة عن علاقة سليمان بملكة سبأ في دراستنا حول « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » ، مجلة كلية اللغة العربية — العدد السادس ، الرياض ١٩٧٦ ص ٢٨٧—٤٣٧ .

(٢) تاريخ الطبري ١/٥٦٦ ، ابن الأثير ١/٢٧٦ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٢ ، وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٢٢٠ ، صبح الأعشى ٥/٢٢ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٨٩—٩٠ .

(٣) وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٢٢٠—٢٢١ ، الإكليل ٢/٢٠٧—٢٠٨ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٨٩—٩٠ .

وإن قفزت بعض هذه المراجع ، فجعلت من « تبان أب كرب أسعد » خليفة له[1] ، كما أبت مراجع أخرى إلا أن تنسب للرجل شعراً فيه فخر وفيه حماسة ، كما نسبت لولده « شمر يرعش » شعراً كذلك ، يرثي فيه أباه ، ولم تنس هذه القرائح أن تقدم لنا نماذج من كلامه العربي الفصيح ، لترينا أنه كان — كسائر ملوك اليمن — يتكلم بلسان عربي مبين[2] .

وليس من شك في أن كل ما جاء في هذه الروايات عن «ياسر يهنعم» ، إنما هو من أساطير «ابن منبه» وغيره من الإخباريين الذين سودوا صفحات كتبهم عن هذه المرحلة من التاريخ العربي القديم بكل غث وسمين ، وإن كانت هناك روايات تاريخية عن حملات عسكرية قام بها الحميريون في وادي النيل الأوسط وشمال أفريقية[3] ، وقد أشار « ده برسيفال » إلى حملة قادها أبو مالك بن شمر يرعش إلى معادن الزمرد في أرض البجة ، ومن المحتمل أن يكون قد لقي حتفه هو ومعظم جيشه ، حوالي منتصف القرن الأول الميلادي[4] .

وعلى أي حال ، فهناك الكثير من النصوص التي تحدثت عن « ياسر يهنعم » هذا ، منها نص (CIH, 46) ، والذي عثر عليه في « يكاران » — ويرجع تاريخه إلى عام ٢٧٦م — وقد جاء فيه إسم الإله « عثتر » ، واسم قبيلتي « مهأنف » و و « شهر[5] » ، كما جاء إسمه واسم ولده « شمريهرعش » في نص مؤرخ بعام ٢٧٦م كذلك ، ولعل في هذا إشارة إلى اشتراكه معه في الحكم ، حيث لقبا بملكي

---

(١) تاريخ الطبري ٥٦٦/١ ، ابن الأثير ٢٧٦/١ .

(٢) أنظر : وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٢٢٠ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٨٣ ، جواد علي ٥٣٤/٢ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٨٩-٩٣ ، أخبار عبيد بن شريه ص ٤٢٦ .

(٣) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٠٨ .

(٤) مصطفى مسعد : المرجع السابق ص ١٠٨ ، وكذا :

Caussin de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, I, Paris, 1847, P. 82.

(٥) جواد علي ٥٣٥/٢ ، وكذا D.H. Muller, ZDMG, 37, 1883, P. 365-370

وكذا . J.B. Philby, op cit,. P. 109.

سبأ وذي ريدان[1] . هذا ويجب الإشارة هنا إلى أن القوم وقت ذاك ، إنما كانوا يؤرخون وفق تقويمين مختلفين ،وأن الفرق بينهما خمسون سنة ،أو خمس وسبعون سنة ، ثم أهمل أحد التقويمين وبقي الآخر ، وهو تقويم « مبحض بن أبحض » ، وتقع بدايته فيما بين عامي ١١٨ ، ١١٠ ق.م ، وإن لم يستعملوه في الكتابة إلا في القرن الثالث الميلادي[2] ، ويرى « ريكمانز » أن نصوص « ياسر يهنعم » وولده « شمر يهرعش » ، تختلف في تأريخها عن التأريخ السبئي المعروف ، والذي يبدأ في رأيه في عام ١٠٩ ق.م ، ومن ثم فلا يمكن إثباتها وفق هذا التقويم[3] .

ونقرأ في نقش (CIH, 353) عن ثورة حمل لواءها الحميريون ضد « ياسر يهنعم» وولده حوالي عام٣٠٠م،في منطقة «ضهر» —والتي لاتبعد كثيراً عن صنعاء[4]— هذا فضلاً عن اشتباكات جديدة بين « ياسر يهنعم » والهمدانيين ، والذين تعاونوا مع بني ريدان لمهاجمة مأرب ، إلا أن الملك الحميري سرعان ماهاجم الهمدانيين غربي صنعاء وانتصر عليهم[5] .

ولعل مما تجدر ملاحظته أن عهد ملوك سبأ وذي ريدان من أصعب العهود في تاريخ سبأ ، ورغم أن النصوص التي عثر عليها ليست بالقليلة ، إلا أنها لا تفيدنا كثيراً ، ثم إن بعضها قد أصابه التلف ، ومن هنا كان الإختلاف البيّن بين العلماء في تأريخ هذه الفترة ، هذا إلى جانب فترات مظلمة تماماً في كتابة هذا الفصل ، نتيجة اضطراب المؤرخين فيه ، وعدم اتفاقهم على رأي بشأنه ، وليس هناك من حل إلا مزيداً من الحفائر ، ثم مزيداً من الحفائر ، حتى يستطيع العلماء تقديم التاريخ العربي القديم في صورة متكاملة .

---

(١) J.B. Philby, op. cit., P. 110 وكذا REP, EPIG, VII, P. 138 وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 475.

(٢) A.F.L. Beeston, Epigraphic South Arabian Calendars and Dating, London, 1956, P. 26-37.

(٣) جواد علي ٢/٥٣٦-٥٣٧ ، وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner op. cit., P. 116

(٤) Ibid., P. 20.

(٥) A. Grohmann, op. cit., P. 29.

دويلات أوسان وسمعاي وأربع وجبان ومهأمر

لعل من الأفضل هنا أن نتوقف قليلاً – قبل الحديث عن الدولة الحميرية – لتشير إلى بعض الدويلات التي كان لها دور في الأحداث التي جرت في تلك الفترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية .

(١) أوسان :

رغم أن أوسان دويلة صغيرة في جنوب قتبان ، لم تبلغ في موازين القوى المعروفة وقت ذاك (معين وقتبان وحضرموت وسبأ) شيئاً يخشاه الآخرون ، فإنها قد انتهزت فرصة الضعف التي ألمت بدولة سبأ، بسبب ظهور قبائل أخرى على المسرح السياسي ، مثل همدان وخولان وريدان وغيرها ، فوطدت أقدامها في جنوب غرب بلاد العرب ، ثم أخذت تنافس سبأ من ناحية ، وحضرموت من ناحية أخرى ، وسرعان ما مدت نفوذها خارج حدودها ، فحكمت « دهس وتبنو وكحد » ، بل إن هناك من يحاول أن يرى في إطلاق مؤلف كتاب « الطواف حول البحر الأرتيري » على المنطقة شمال « بمبا Pemba » و « زنجبار » من الساحل الأفريقي للبحر الأحمر إسم «الساحل الأوساني» ، دليلاً على أن الأوسانيين قد حكموا تلك المنطقة ، في فترة ترجع إلى ما قبل عام ٤٠٠ق.م ، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن « أوسان » لا بد وأن تكون قوية وذات أرضين واسعه في العربية الجنوبية ، حتى يمكنها أن تستولي على هذه المنطقة من الساحل الأفريقي[١] ، فضلاً عن أن يكون لها نشاط واسع معها في الميدان التجاري ، والذي ربما كان من ميناء « عدن » الذي كان يتبع أوسان في تلك الفترة[٢]

---

(١) A. Gronmann, op. cit., P. 25. وكذا W. Schoff, op. cit., P. 22 وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 74. وكذا فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٨ .

(٢) جواد علي ٢/٥٠٢ ، وكذا R.L. Bowen and F. Albright, Archaeological Discoveries in South Arabia, 1958, P. 39.

ولعل من أشهر ملوك أوسان الملك « يصدق إل فرعم شرح عت »[1] بن « ود » (ودم) ، وقد دعا هذا اللقب بعض العلماء إلى القول بوجود فكرة تأليه الملوك في أوسان ، وأن الرجل إنما كان يعتقد أنه من نسل الإله « ود[2] » ومن ثم فقد اعتمد مؤرخو الأديان على هذه الحالة كدليل على قيام مملكة للإله في بلاد العرب الجنوبية ، ونحن نعرف أن « ود » هو الإله القومي لأوسان ومعين ، كما أن « عم » كان إله قتبان ، و « سين » معبود حضرموت ، وأما الموقاة (المقة) فهو إله سبأ[3] ، هذا وقد خصص الأوسانيون معبدهم الرئيسي في « وادي نعمان » للإله « ود »[4]

وعلى أي حال ، فهناك من يذهب إلى أن الملك « يصدق إل فرعم شرح عت » إنما كان في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد ، وحتى حوالي عام ٤٥٠ ق.م معتمدين في ذلك عن أن طرز اللباس التي تكسو تمثال الملك ، إنما هي طرز يونانية ترجع إلى ما قبل منتصف القرن الخامس ق.م ، وأنه وصل من اليونان إلى أوسان عن طريق غزة[5] ، إلا أن « جاكلين بيرين » قد ذهبت إلى أن أوسان كانت مملكة في أخريات القرن الأول ق.م ، أو بعد الميلاد بقليل ، وأن حكم الملك « يصدق إل فرعم شرح عت » بن « ودم » إنما كان حوالي ٢٤ ق.م[6] .

وهناك بعض الملوك في أوسان نكاد لا نعرف عنهم غير أسمائهم ، ومنهم « معد إيل سلحان بن ذى يدم » أو « زيدم » و « عم يثع غيلان لحى » ، الذي وجد اسمه محفوراً على تمثال من المرمر[7] .

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٩٨-٢٩٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٩٩ ، وكذا D.S. Margoliouth, op. cit., P. 9. وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 58.

(٣) Ibid., P. 58. وكذا I. Shahid, op. cit., P. 9.

(٤) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 58.

(٥) Ibid., P. 8, 58, 69, 70, 142. وكذ Le Museon, 1964, 3-4, P. 442.

(٦) J. Pirenne, op. cit., P. 138, 199. وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 442

(٧) جواد علي ٢/٥٠١-٥٠٢ .

ونقرأ في نقش النصر في صرواح — كما رأينا من قبل — عن « مارتو » ملك أوسان الذي اجتاحت قوات سبأ في عهد « كرب إيل وتار » بلاده ، وقتلت منهم ١٦ ألف رجل ، وأسرت أربعين ألفاً ، فضلاً عن احتلالها لعدة مواضع في أوسان[١] هذا ويذهب « فلبي » إلى أن حكم « مارتو » إنما كان في الفترة (٦٢٠—٦٠٠ ق.م) ليكون معاصراً ل « كرب إيل وتار »[٢] ، وإن رأى البعض أن «مارتو» إنما حكم حوالي عام ٤٥٠ ق.م[٣] ، وربما كان بعد ذلك بقليل ، وعلى أي حال فإن دولة أوسان قد انتهت على يد « الشرح يحصب » في حوالي عام ١١٥ ق.م ، فيما يرى « فلبي »[٤]

(٢) سمعاي :

وهي قبيلة همدانية سكنت المنطقة ما بين حاشد وحملان وفي الحجر[٥] ، وهي إمارة أو مشيخة قوية انتحل سادتها لقب « ملك » وتمتعوا بشيء من الإستقلال لا ندري مداه ، ولا الفترة التي حدث فيها هذا الإستقلال ، ولعل أهم أمرائها «يهعان ذبيان » و « سمه افق » اللذين جاء ذكرهما في نقش (جلازر ٣٠٢)[٦] .

(٣) أربع :

وهي قبيلة كان يلقب شيوخها بلقب « ملك » ، عرفنا منهم « نبط إيل » و « لحى عثت بن سلحان » و « عم أمن » ، والذي كان معاصراً لملك سبأ « يثع أمر يين » ، على أننا يجب ألا نفهم من لفظة ملك هنا ، المعنى المعروف من الكلمة ، ذلك لأن أربع لم تكن مملكة بالمعنى المفهوم ، وإنما كانت قبيلة لها شيوخ يتمتعون

---

(١) أنظر : أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٦٣—١٦٤ ، وكذا KTB, I, P. 283.
وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 144.

(٢) J.B. Philby, op. cit., P. 144.

(٣) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 8.

(٤) J.B. Philby, op. cit., P. 144.

(٥) D. Nielsen op. cit., P. 132.

(٦) جواد علي ٢/٤١٠—٤١١ .

بشيء قليل أو كثير من الإستقلال في حدود أرض قبيلتهم ، وإن خلعوا على أنفسهم لقب « ملك »[١] .

(٤) جبان :

يحدثنا « بليني » عن قوم دعاهم « الجبانيين Gebbanitae » يملكون عدة مدن ، لعل أهمها « نجية Nagia » و « تمنة Thamna » ، وأن بالأخيرة خمسة وستين معبداً[٢] ، وأن اللبان والكندر لم يكن يسمح بتصديره إلا بواسطة هذه المملكة ، وإلا بعد دفع ضرائب يحددها الملك ، وأما المر فكان الملك يأخذ منه لنفسه ربع الغلة ، كما كان يحتكر بيع القرفة[٣] .

وربما كان الجبانيون هؤلاء من قتبان ، وأنهم استقلوا في فترة لا تبعد كثيراً عن أيام « بليني » (٣٢–٧٩م) ، وأن مواطنهم لا تبعد كثيراً عن قتبان ، فهي إلى الجنوب الشرقي منها على رأي ، وإلى الغرب منها على رأي آخر ، ويذهب بعض الباحثين إلى أنهم من « جبأ » التي وصفها الهمداني ، بأنها مدينة المعافر ، وأنها كورة المعافر ، في فجوة بين جبل صبر وجبل ذخر في وادي الضباب[٤] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن أستاذنا الدكتور عبد العزيز صالح قد عقد مقارنة بين « الجنبتيو » (Gnbtyw) الذين ورد ذكرهم في حوليات الإمبراطور المصري العظيم «تحوتمس الثالث» (١٤٩٠–١٤٣٦ ق.م) ، على أنهم

---

(١) جواد علي ٢/٤٠٦–٤٠٧ ، وكذا Le Museon, 1949, LXII, 3-4, P, 249.
وكذا KTB, I, P. 74

(٢) جواد علي ٢/٥٠٦–٥٠٧.
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 50
وكذا Pliny, VI, 154, Vol., 2, P. 453f

(٣) جواد علي ٢/٥٠٦ ، وكذا Pliny, XII, 69, Vol. IV, P. 51.

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٥٤ ، ٩٩ ، ياقوت ٢/٩٦–٩٧
وكذا Encyclopaedia of Islam, 2, P. 810-812

جاءوا يحملون هداياهم أو منتجاتهم من الكندر (البخور) وصمغ كاي (؟) ، وبين هؤلاء : الجبانيين « (Gebbanitae) والذين كانوا ينتشرون في جنوب شبه الجزيرة العربية وحتى باب المندب ، ويتاجرون في الكندر ، كما أن ذكر بليني لهم ولدولتهم في وقت كانت فيه هذه الدولة قد أصبحت جزءاً من دولة سبأ وحمير (أي في القرن الأول الميلادي) ، يدل على أن مصدر معلوماته إنما يرجع إلى مصدر مبكر .

وهنا ربما يعترض البعض على أن الجبانيين لا يرجعون إلى هذه الفترة المبكرة (عصر تحوتمس الثالث) ، على أساس أن أقدم سجلات مكتوبة من بلاد العرب لا ترجع إلى ما قبل القرن العاشر ق.م ، غير أن هذا لا ينفي وجود القوم كجماعة في وقت أقدم بكثير من كتاباتهم ومدنهم ، وقد أثبت « وليم أولبرايت » أن هجرة القبائل المسماة بالقبائل السينية من شمال بلاد العرب إلى جنوبها ، إنما حدث قبل عام ١٥٠٠ ق.م ، أي قبل عصر تحوتمس الثالث .

أما الأسباب التي دفعتهم إلى تقديم هداياهم إلى العاهل المصري ، فربما كانت ترجع في الدرجة الأولى إلى الرغبة في حماية تجارتهم عبر طرق تجارة البخور التي كانت تمر في أراضي إمبراطورية تحوتمس الثالث الأسيوية الإفريقية[١]

(٥) مهأمر :

وهي إمارة مقرها « رجمت » (رجمة) ، إنتحل سادتها لقب ملك ، وربما جاءت أهميتها في أنها تقع على طريق القوافل التي تصل « معين » والعربية الجنوبية من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى[٢] ، ويذهب بعض الباحثين إلى أن « رجمت »

(١) Abdel Aziz Saleh, The Gnbtyw of Thutmosis III, ˢAnnales and the South. Arabian Gebbanitae of the Classical Writers, BIFA O, LXXII, 1972, P. 246-262.

(٢) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 9-10.

تقع الآن في أرض نجران ، أو في مجاوراتها من ناحية الشمال ، وربما كانت واحدة من مدن نجران ، وأن نجران نفسها لم تكن في الأصل مدينة معينة ، وإنما هي أرض تضم عدة مدن ، ومنها « رجمت » التي تحول اسمها بمرور الزمن إلى « نجران » وأن هناك الكثير من الأمثلة على ذلك في العربية الجنوبية[1] .

هذا ويذهب « موردتمان » إلى أن «رجمت» ربما كانت «رعمة» في التوراة ، وهو الإبن الرابع لكوش ، يقول سفر التكوين : « وبنو كوش سبأ وحويلة وسبته ورعمة وسبتكا » ، ثم يرى بعد ذلك أن المقصود « بكوش » هنا ، العربية الجنوبية ، وأن من أولاد كوش ، سبأ وديدان ، وأن تجار « رعمة » قد ذكروا في سفر حزقيال مع تجار سبأ[2] ، وبدهي أن « موردتمان » لم يفعل سوى أن ردد ما جاء في توراة اليهود[3] ، من إدعاء كذوب ، يسلب أغلب العرب ساميتهم ، فالعربية الجنوبية وبابل وأشور وكنعان ويبوس ومصر وغيرها من الشعوب العربية ، إنما هم جميعاً – في نظر توراة يهود – حاميون[4] .

****

(۱) J.B. Philby, Arabian Highlands, 1952, P. 257.
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 10.

(۲) جواد علي ۲/۵۰۷–۵۰۹ ، تكوين ۱۰ : ۷ ، أخبار أيام أول : ۱ : ۹ ، حزقيال ۲۷ : ۲۲
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 11.

(۳) تكوين ۱۰ : ٦–۲۰ .

(٤) أنظر مقالنا « الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي » مجلة كلية اللغة العربية – العدد الرابع ، الرياض ۱۹۷٤م ، ص ۲٤٥–۲۷۱ .

الفصل الحادي عشر

عصر الدولة الحميرية

يتميز هذا العصر من عصور التاريخ السبئي بأن الملوك قد حملوا فيه لقب «ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات» ، وهذا يعني أن حضرموت قد أصبحت من هذا العصر الرابع ، جزءاً لا يتجزأ من مملكة سبأ ، أما «يمنات» (يمنت) فهي لفظة جديدة لم تصل إلينا من قبل ، ومنها — فيما يرى البعض — ولدت كلمة « اليمن » التي توسع مدلولها في العصور الإسلامية حتى شملت أرضين واسعة لم تكن تعد من اليمن فيما قبل الإسلام[1] ، ومن ثم فقد قيل أن حدود اليمن إنما تقع بين عمان ونجران ، ثم تلتوي على بحر العرب إلى عدن إلى الشحر ، حتى تجتاز عمان فتنقطع عند بينونة ، وقيل حد اليمن من وراء تثليث وما سامتها إلى صنعاء ، وما قاربها إلى حضرموت والشحر وعمان إلى عدن أبين ، وما يلي ذلك من التهائم والنجود ، واليمن يجمع ذلك كله[2] .

واليمن — في رأي آخر — إسم عام أطلق على السواحل الجنوبية[3] ، وهي — في رأي ثالث — كلمة عامة تشمل الأرضين الواقعة جنوب غرب شبه الجزيرة

---

(١) جواد علي ٢/٥٣١ ، ياقوت ٥/٤٤٧–٤٤٩ ، الهمداني : المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) ياقوت ٥/٤٤٧ .

(٣) أنظر فيما بعد ص ٣٤٨–٣٤٩ ، وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 60.

العربية ، من باب المندب وحتى حضرموت ، وتتكون من عدة مخاليف ، يحكمها أقيال وأذواء شبه مستقلين ، إذ كانوا يخضعون لنفوذ « ظفار » أو « ميفعة » ، ولعل أشهر مدنها « Ocelis » عند باب المندب (ميناء الجبانيين) ، فضلاً عن « عدن » و « قنا » في حضرموت[1] ، وهي — في رأي رابع — القسم الجنوبي من حضرموت ، وقد كانت « ميفعة » عاصمة لها في ذلك الوقت[2] .

ويذهب المسعودي إلى أن اليمن ، إنما سمى يمناً لأنه على يمين الكعبة ، أو ليمنه ، أو لأن الناس حين تفرقت لغاتهم ببابل تيامن بعضهم يمين الشمس وهو اليمن[3] ، أو لأن الناس لما تكاثروا بمكة وتفرقوا عنها التأمت بنو يمن إلى اليمن ، وهو أيمن الأرض ، أو لأنها سميت يمناً نسبة إلى يمن بن قحطان[4] .

وعلى أي حال ، فإن عصر الدولة الحميرية هذا ، إنما تميز كذلك بأن لقب الملوك سرعان ما تغير مرة أخرى ، فأصبح الواحد منهم يلقب بلقب « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات ، وأعرابها في المرتفعات وفي التهائم » ، كما تميز كذلك بدخول اليهودية والمسيحية إلى بلاد اليمن ، ومحاولة زحزحة الديانة الوثنية — والتي كانت تدور حول عبادة النجوم والكواكب والشمس — وقد بدأت المسيحية على المذهب المنوفيزي ، القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، تأخذ طريقها من الشام إلى اليمن ، وكانت بيزنطة تشجع هذه الديانة وتستعين بالأحباش الذين تنصروا على نشرها ، ولما كانت بيزنطة تهدف من وراء ذلك أغراضاً سياسية أكثر منها دينية ، فقد شجع الحميريون اليهودية ، رغبة منهم في مقاومة المسيحية ، دين عدوهم السياسي والإقتصادي[5] .

---

(١) [illegible] علي ٢/٣١٥ وكذا
E. Glaser, Punt und die Sûdarabischen Reiche, MVG, 1899, P. 99.

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 456.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٢/٣ .

(٤) ياقوت ٥/٤٤٧ ، البكري ٤/١٤٠١ ، صبح الأعشي ٥/٦ ، اللسان ١٣/٤٦٢ ، ٤٦٤ .

(٥) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٦٥ .

ولعل من الأفضل هنا أن نتوقف قليلاً – قبل الإستطراد في الحديث عن العصر الحميري -- لنشير في اختصار إلى الحميريين أنفسهم :

كانت قبيلة حمير قبيلة قوية لها نفوذ كبير في العربية الجنوبية في أخريات أيام سبأ ، وقبل ظهور المسيحية ، ولهذا ظل اسمها يتردد دائماً في كتابات المؤرخين الرومان وفي كتابات العرب ، وأصبح اسمها صفة لكل ما يعثر عليه في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وصار اسم النقوش التي بدأ العلماء في حلها هو « النقوش الحميرية » ، بل إن كلمة الحضارة الحميرية أصبحت علماً على كل شيء في بلاد العرب قبل الإسلام[1] .

هذا وقد أطلق الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان على الحميّريين إسم (Homeritai) (Omyritai) (Hamiroei) (Omeritae) [2] ، هذا وقد اعتبر « بليني » الحميريين من أكثر الشعوب عدداً ، وأن عاصمتهم هي مدينة « سيفار Sapphar »[3] (أي ظفار) ، وقد جاءت في التوراة تحت إسم « سفار »[4] ، وهي مدينة في الداخل ، علي مبعدة مائة ميل إلى الشمال الشرقي من « المخا » ، وعلى الطريق إلى صنعاء ، وقد احتلت في تلك الفترة مكانة « مأرب » عاصمة سبأ ، و « قرناو » عاصمة معين ، وما تزال آثارها ماثلة للعيان على قمة تل مستدير بجوار بلدة « يرم » الحديثة[5] .

هذا وقد عرف الحميريون عند الأحباش باسم « Hemer »[6] ، كما أشار « بليني » إلى مدينة دعاها « مسلة Mesala »[7] – والتي رأي فيها « جلازر » المشاحة

---

(١) أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٢) جواد علي ٢/٥١٠ ، وكذا Pliny, VI, 28 .

(٣) EI, 2, P. 310, 3, P. 292. وكذا Pliny, VI, P. 104 وكذا ZDMG, 31, 1877, P. 69. وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 429, 438

(٤) تكوين

(٥) P.K. Hitti, op. cit., P. 56.

(٦) جواد علي ٢/٥١٠–٥١١ ، وكذا Le Museon, LXXVII, 3-4, 1964, P. 429.

(٧) le Museon, 1964, 3-4, P. 446. وكذا Pliny, VI, 32, 158

الحالية إلى الشرق من « مخا » — بينما ذهب « سبرنجر » إلى أنها « مأسل الجمع » ، وأن المقصود : (Homeritae) هنا ، جماعة أخرى دعاهم (Nomeritae) ، وأن التحريف إنما جاء من النساخ[1] .

ويذهب صاحب كتاب « الطواف حول البحر الأرتيري » إلى أن الحميريين إنما كانوا يحكمون منطقة واسعة تمتد من ساحل البحر الأحمر وساحل المحيط حتى حضرموت ، فضلاً عن ساحل « عزانيا » الأفريقي ، وأن ملكهم كان يسمى « كرب إيل » ، وأن ظفار كانت عاصمة لهم[2] ، وأن إسمهم قد جاء في ألقاب « عيزانا » ملك أكسوم ، حيث نقرأ في لقبه « ملك أكسوم وحمير وريدان وحبشةو السبئيين وصلح وتهامة[3] » ، ومن الغريب أن الكتاب المسيحيين والبيزنطيين إنما عدوهم من القبائل الحبشية[4] .

وقد شغل الحميريون في الكتب العربية صفحات ، ربما كانت أكثر مما شغلته بقية دول العربية الجنوبية مجتمعة ، وقد نسبوهم إلى « زيد » الذي لقبوه « حمير » ثم جعلوه إبناً لسبأ ، فهو — فيما يزعمون — « حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان »[5] ، وأنه أول من توّج بالذهب ، وقد ورث أباه في عرشه — ولمدة خمسين عاماً على رأي ، وخمسة وثمانين على رأي آخر — وأنه في أثناء ذلك مدّ حكمه إلى حدود الصين ، كما أخرج ثمودا من اليمن إلى الحجاز ، وأنه عاصر الخليل عليه السلام ،(أو على الأقل هو في درجته من النسب) ، ومن ثم فهو الذي سيّر جرهما إلى الحرم وأرض الحجاز ، حيث التقوا بهاجر وولدها إسماعيل الذي تزوج منهم ،

---

(١) Pliny, VI, XXXII, 158. وكذا E. Glaser, op. cit., II, P. 137.
(٢) EI, 2, P. 310.
(٣) فريتز هومل : التاريخ العربي القديم ص ١٠٨ .
(٤) EI, 2, P. 310.
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠٧/٢ ، ابن حزم : المرجع السابق ص ٣٢٩ ، ٤٣٢ ، تاريخ ابن خلدون ٥٠/٢ ، تاريخ اليعقوبي ١٩٥/١ ، مروج الذهب ٤٨/١ ، المعارف ص ٢٧١ ، ياقوت ٢٠٦/٢-٢٠٧ ، أبوالفداء ٦٦/١ .

وهكذا ذهب بعض الإخباريين إلى أنه إنما كان قبل عاد وثمود بدهور طويلة ، فضلاً عن أنه هو الذي بنى سد مأرب ، أو أكمله بعد أبيه سبأ ، ثم مات بعد عمر طال إلى ثلاثة قرون كاملة ، تاركاً وراءه بنين كثيرين ، وإن رأى البعض أنهم ستة تفرعت منهم قبائل حمير ، والتي لم يربط الود بينها ، بقدر مادقت طبول الحرب ، ويضيف البعض إلى ذلك ، أنه لما مات وثب أخوه «كهلان» على الملك فاغتصبه ، ولكن أبناء حمير سرعان ما استردوه ، ومن ثم فقد بقيت « كهلان » على الحدود ، فيما يلي الصحراء[1] .

وأما لماذا سمي حمير باسمه هذا ؟ فالجواب عند بعض الإخباريين ، لأنه كان يلبس حلة حمراء ، وإن وقف البعض الآخر موقفاً محايداً إزاء هذه التفسيرات ، فرأى أن هذه الأسماء مثل حمير — وكذا إسمه الآخر العرنج أو العرنجج — لا نقف لها على اشتقاق ، لأنها قد بعدت وقدم العهد بمن كان يعرفها .[2]

وبدهي أن هذه الروايات لا شك أن الكثير منها ، إنما هو أقرب إلى الأساطير منه إلى حقائق التاريخ ، وأن حمير — إن كان هناك من يدعى حمير — لم يمد حدوده إلى الصين ، ذلك لأن التاريخ لا يعرف أن العرب قد وصلوا إلى تلك البلاد غزاة فاتحين ، طوال تلك العصور الغابرة ، وإني لأظن — وليس كل الظن إثماً — أن هؤلاء الكتاب من الإخباريين إنما كانوا متأثرين بالفتوحات الإسلامية في تلك المناطق ، فخيل إليهم أن للأمر سوابق خلت ، فإذا كان ذلك كذلك ، فتلك مأساة ، إذ يصبح الإخباريون بعيدين عن تلك الروح التي تمت بها الفتوح الإسلامية ، والتي لم ولن يعرف التاريخ لها مثيلاً ، وذلك حين خرج المسلمون من بلاد العرب ينشرون التوحيد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤٧/٢ ، الإكليل ٩٨/١-٢-١ ، تاريخ اليعقوبي ٩٥/١ ، تفسير روح المعاني ١٢٦/٢٢ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٢-١٨ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٦٦ ، وقارن : تفسير البيضاوي ٢٥٩/٢ ، تفسير القرطبي ٤٨٦/١٤ ، تفسير الفخر الرازي ٢٥١/٢٥ ، تفسير الطبري ٧٨/٢٢-٨٠ .

(٢) اللسان ٢١٥/٤ ، الإشتقاق ٥٢٣/٢ .

والهداية والنور في جميع أنحاء الدنيا ، لا يبغون من وراء ذلك بلاداً يستعمرونها ، أو إمبراطورية يتربعون على عرشها ، أو أسلاباً يغنمونها ، وإنما كانوا يبغون أولا وأخيراً ، وجه الله ، وهداية الناس — كل الناس — إلى الإسلام ، دين الله الحنيف .

والأمر كذلك بالنسبة إلى إخراج ثمود من اليمن إلى الحجار ، ذلك لأن الثموديين[1] — كما تدل آثارهم — إنما كانوا أصلاً من شمال بلاد العرب ، وليس من جنوبها ، وقد انتشرت آثارهم في مناطق واسعة ، إمتدت من الجوف شمالاً ، إلى الطائف جنوباً ، ومن الأحساء شرقاً ، إلى يثرب فأرض مدين غرباً ، وفي المسالك المؤدية إلى العقبة والأردن وسورية ، ولعل في هذا تفسيراً لذكر القرآن الكريم لهم دون غيرهم من شعوب بلاد العرب ، ممن هم كانوا أكثر منهم شهرة في مجال التجارة أو المدنية أو القوة ، كالديدانيين والأنباط واللحيانيين[2] ، فضلاً عن العظة من قصة النبي الكريم سيدنا صالح عليه السلام ، هذا إلى أن الثموديين إنما كانوا يقيمون في شمال بلاد العرب في القرن الثامن ق.م ، كما تدلنا على ذلك النصوص الآشورية[3] ، بينما نحن الآن نتحدث عن حمير في فترة تقرب من الميلاد بقليل أو كثير ، وأما أنه كان في عصر إبراهيم عليه السلام ، فتلك مبالغة ، بخاصة إذا ما علمنا أن الخليل كان يعيش في الفترة (١٩٤٠—١٧٦٥ق.م)[4] ، والأمر كذلك بالنسبة لمن جعلوه قبل عاد وثمود ، وكذا بالنسبة إلى الفترة التي عاشها في هذه الدنيا

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى لقب « تبع » — وجمعه التبابعة — والذي ظهر في تلك الفترة من تاريخ اليمن القديم ، وهو لقب مجهول الأصل كان يطلق

---

(١) أنظر عن « الثموديين » ، الفصل السابع من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » ، ومقال د. الدكتور خالد الدسوقي « قوم ثمود بين روايات المؤرخين ومحتويات النقوش » ، مجلة كلية اللغة العربية ، العدد السادس — الرياض ١٩٧٦ ، والفصل الخامس من كتابنا هذا .

(٢) أحمد حسين شرف الدين : اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ص ٦١ .

(٣) أنظر : ANET, P. 287 . وكذا A. Van den Branden Histoire de Thamoud,
وكذا les Textes Thamoudeens de Philby, 1956,
وكذا les Inscriptions Thamoudeens, 1950.

(٤) أنظر عن عصر إبراهيم كتابنا إسرائيل ص ١٧١—١٧٧ .

على الملوك[1] ، ومن ثم فقد أصبح المؤرخون والمفسرون في حيرة من تفسير المراد به ، فهناك من يرى أن الملوك قد سموا به لأنهم إنما كانوا يتبعون بعضهم البعض الآخر في المُلك وفي السيرة ؛ وهناك من يرى أن « التبع » ملك يتبعه قومه ويسيرون تبعاً له ، أو لكثرة أتباعه أو من التتابع[2] ، ولست أظن أنهم كانوا في ذلك يختلفون عن غيرهم من الملوك ، فالملكية بطبيعتها نظام وراثي ، ثم إن الملك إنما يتبعه قومه ، لأنه صاحب الأمر فيهم ، كما أن أتباعه لا بد وأن يكونوا من الكثرة بحيث يكوّنون مملكة .

وهناك من يفرق بين لقب « تبع » ، ولقب «ملك» ، فذهب إلى أن اللقب الأول لا يلُـقّب به إلا من يملك اليمن والشحر وحضرموت ، وقيل حتى يتبعهم «بنو جشم ابن عبد شمس » ، فإن لم يكن كذلك فهو ملك ، وليس تبعاً[3] ، وأن أول من حمل لقب « تبع » إنما كان « الحارث بن ذى شمر » (الرائش) ، وأن هذا اللقب قد استمر حتى زال سلطانهم حين استولت الحبشة على اليمن[4] ، ولعلهم في هذا إنما يقصدون أن لقب « تبع » إنما هو أعظم من لقب « ملك » ، ومن ثم فإنهم في هذا لم يجانبوا الصواب كثيراً بالنسبة إلى تاريخ اليمن ، فلقد رأينا من قبل — كما في أربع وسمعاي وغيرهما — كثيراً من مشايخ القبائل والمشيخات الصغيرة ، الذين انتحلوا لقب « ملك » ، دون أن يكون لديهم شيئاً من مقومات الملكية المعروفة .

على أن أسوأ ما في الأمر ، مبالغة الأخباريين فيمن أرسلهم الله ، سبحانه وتعالى ، من المصطفين الأخيار للتبابعة ، فيذهب البعض منهم إلى أنهم كانوا اثني عشر ألف

---

(١) تفسير القرطبي ١١٤/١٦ ، الإكليل ٦٩/٨—٧٠ ، وكذا
F. Hommel, Explorations in Arabia, P. 727-41.

(٢) تاج العروس ٣٨٧/٥ ، اللسان ٣١/٨ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٨٢ ، تاريخ ابن خلدون ٥٠/٢—٥١ ، تفسير البيضاوي ٣٧٧/٢ .

(٣) ابن كثير ١٥٩/٢ ، تاج العروس ٢٨٧/٥ ، الإكليل ٥٥/٢ .

(٤) صبح الأعشى ٨٠/٥ .

نبي ، وإن تواضع البعض ، فجعلهم ثلاثة عشر نبياً[1] ، وأن واحداً من التبابعة قد صنع « الماذيات » من الحديد ، بل إن الحديد إنما قد سخر له ، شأنه في ذلك شأن داود عليه السلام[2] .

هذا وقد تحدث القرآن الكريم عن التبابعة ، فقال سبحانه وتعالى « أهم خير أم قوم تبع[3] » ، وقال « وأصحاب الأيكة وقوم تبع[4] » . إلا أن القرآن الكريم لم يحدد إسم هذا أل « تبع » ، ومن ثم فقد اختلف المفسرون فيه ، فرأى بعضهم أنه من حمير ، وأنه حيّر الحيرة ، وأتى سمرقند فهدمها ، وذهب بعض آخر إلى أن « تبعا » إنما كان رجلاً صالحاً من العرب ، وأنه لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، لأنه فارق دينهم . وانتهى الأمر بأن تحاكموا إلى النار . فانتصر الرجل على قومه الوثنيين ، ومن ثم فقد تهودت حمير ، وهدّم تبع « بيت رئام »[5] ، على أن الرواية نفسها ، إنما رويت كذلك عن « تبان أسعد أب كرب »[6] وعلى أي حال فإن هناك من يروي عن مولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال « لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم »[7] ومن يروي أنه — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — قال « ما أدري أكان تبع نبياً أم غير نبي »[8] .

---

(١) ابن كثير ١٥٩/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٤٢/٤ ، تفسير الطبرسي ١١٥/٢٥ ، تفسير الخازن ١١٥/٤ ، اللسان ٣١/٨ .

(٣) سورة الدخان : آية ٣٧ ، وانظر تفسير الطبري ١٢٨/٢٥—١٢٩ (طبعة الحلبي ١٩٥٤) ، تفسير القرطبي ١٤٤/١٦—١٤٧ (دار الكاتب العربي — القاهرة ١٩٦٧) ، تفسير البيضاوي ٣٧٦/٢—٣٧٧ (طبعة الحلبي ١٩٦٨) .

(٤) سورة ق: آية ١٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٢٨/٢٥—١٢٩ ، تفسير البيضاوي ٣٧٦/٢—٣٧٧ ، تفسير القرطبي ١٤٦/١٦ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٣٧٦/٢ ، ٤١٤ ، قارن ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١١٣ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٤/٢—١٦٦ .

(٧) ابن كثير ١٦٦/٢ ، تفسير الطبري ١٢٨/٢٥—١٢٩ ، ٩٧/٢٦ ، تفسير القرطبي ١٤٤/١٦—١٤٦ ، قارن : ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٢٢ .

(٨) تفسير البيضاوي ٣٧٧/٢ ، تفسير القرطبي ١٤٤/١٦—١٤٧ ، تفسير النيسابوري (حاشية على تفسير الطبري) ٨٦/٢٥ ، قارن : تفسير الطبري ١٢٨/٢٥—١٢٩ .

ولعل من الغريب أن نصوص المسند لم يرد فيها ذكر لكلمة « تبع » ، بمعنى «ملك» ، أو حتى بمعنى آخر يفيد معنى الرياسة ، وإنما كان القوم يستعملون بدلاً عنها كلمة « ملك » ، ومن ثم فقد ذهب بعض العلماء إلى أن كلمة «تبع» ، ربما كان المقصود بها «بتع» — وهو إسم لقبيلة همدانية[1]— ثم حرفت الكلمة إلى « تبع »[2] ، على أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى هذا الإتجاه ، فقد تكشف الحفريات عن نصوص ترد فيها هذه اللفظة بالمعنى المتعارف عليه ، أو بمعنى آخر .

وأما موطن الحميريين ، فقد كان إلى الشرق من القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، حيث يكوّن جزءاً من أرض قتبان ، فيقع إلى الجنوب من أرض « رشاي » و « حبان » ، وإلى الغرب من حضرموت ، وإلى الشرق من « ذياب » وتكوّن أرض « يافع » الموطن القديم للحميريين قبل هجرتهم حوالي عام ١٠٠ قبل الميلاد ، إلى مواطنهم الجديدة ، حيث حلوا في أرضين « دهس » و « رعين » مكوّنين حكومة « ذى ريدان » ، ومتخذين من « ظفار » عاصمة لهم ، وأما المصادر العربية فيفهم منها أن الحميريين إنما كانوا يقطنون منطقة « لحج » في ظفار ، وفي « سرو حمير » و « نجد حمير[3] » .

ورغم أن هناك من يرى أن الحميريين فرع من السبئيين[4] ، أو على الأقل يمتون إليهم بصلة قوية ، وأن لغتهم ليست إلا لهجة من لغتي سبأ ومعين[5] ، فإن العلاقات بين سبأ وحمير كان يسودها طابع العداء في أغلب الأحايين ، وكثيراً ما أشارت الكتابات السبئية إلى ذلك[6] .

---

(١) أنظر عن قبيلة بتع : جواد علي ٢/٤٠٧–٤٠٩ .

(٢) Ency. of Islam, 2, P. 311.

(٣) جواد علي ٢/٥١٨–٥٢٠ ، وكذا EI, 2, P. 310 وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 48, 66, 73.

(٤) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٥) P.K. Hitti, op. cit., P. 56.

(٦) Le Museon, 1964, 3-4, P. 451.

وعلى أي حال ، فهناك ما يشير إلى أن الحميريين قد استولوا على مأرب — العاصمة السبئية العتيقة — وربما استغلوا فرصة الضعف التي سادت البلاد في أعقاب حملة « إليوس جالليوس » الفاشلة ، على رأي ، وفي حوالي عام ١١٠م ، على رأي آخر ، ومن ثم فقد غير أحد ملوكهم — مجاراة ، وربما منافسة لملوك سبأ الشرعيين — لقبة من « ذى ريدان » إلى « ملك سبأ وذى ريدان » ، غير أن الأمراء الموالين لملك سبأ ، سرعان ما أخرجوا الحميريين من « مأرب » ، وأعادوا إليه لقبه ونفوذه ، وإن ظل الحميريون محتفظين بلقبهم الجديد ، ومن ثم فقد رأينا ملكين — الواحد سبئي والآخر حميري — وكل منهما يزعم أنه « ملك سبأ وذى ريدان »[1] ، هذا ويذهب « فون فيسمان » — اعتماداً على نقش جام ٦٥٣ — إلى أن الحميريين قد أعادوا الكرة واستولوا على مأرب مرة أخرى ، حوالي عام ٢٠٠م ، أو عام ٢١٠م[2] .

وأما أول من حمل لقب « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات » فهو « شمر يهرعش » حوالي عام ٢٩٠م ، ويبدو أن الرجل قد اتصل بالحكم منذ أيام أبيه « ياسر يهنعم » ، كما تشير إلى ذلك نصوص كثيرة ، ومنها نص يرجع إلى عام ٢٧٦م ، كما تدلنا كذلك النصوص التي ترجع إلى أيام أبيه ، على أنه قد شارك في الحرب التي نشبت في تلك الفترة .

ويحتل « شمر يهرعش » في قصص الأخباريين مكانة قد تفوق مكانة أبيه ، فهو عندهم « تبع » الذي جاء ذكره في كتاب الله الكريم ، لأنه « لم يقم للعرب قائم قط أحفظ لهم منه ، فكان جميع العرب — بنو قحطان وبنو عدنان — شاكرين لأيامه ، وكان أعقل من رأوه من الملوك ، وأعلاهم همة وأبعدهم غوراً ، وأشدهم مكراً لمن حارب ، فضربت به العرب الأمثال »[3] .

---

(١) جواد علي ٢/٥٢٠-٥٢١ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 451.

(٢) Le Museon, 1964, 3-4- P. 498.

(٣) وهب بن منبه : كتاب التيجان في ملوك حمير ص ٢٢٢ .

ويزعم الأخباريون أن صاحبنا «شمر يهرعش» ، علم أن الصفد والكرد وأهل نهاوند ودينور . قد هدموا قبر أبيه «ناشر النعم » فأقسم «ليرفعن ذلك القبر بجماجم الرجال حتى يعود جبلاً منيفاً شامخاً كما كان » ، وهكذا زحف بجيوشه إلى أرمينية وهزم الترك وهدّم المدائن بدينور وسنجار ، ودخل مدينة الصفد وراء جيحون ، هدمها فسميت « شمركند » — أو « شمركنداي » عند الفرس ، من «شمر» أي حرب ، في زعمهم — ثم عربت إلى سمرقند ، أو لأن شمر هدمها ، ثم أمر ببنائها فسميت به[1] .

ويبلغ الخيال أشده بالأخباريين ، حين يزعمون أن « شمر يهرعش » — أو شمر يرعش كما يدعونه[2] — قد وصل بفتوحاته إلى الصين ، وأنه ترك هناك بعضاً من جنوده ، ثم ينتقلون به فجأة من الصين إلى مصر فالحبشة ، ثم يعودون به مرة ثانية إلى المشرق ، حيث يقيم فترة في مدينة « شداد بن عاد » ، التي لا ندري عنها شيئاً ، وأخيراً يعودون به إلى اليمن ، فيقيم في قصر غمدان ، وبعد ذلك كله ، لا يرضى له الأخباريون إلا بملك الأرض كلها ، وإلا بعمر لا يقل عن ألف وستين عاماً[3] .

هذا إلى أن الرجل — فيما يزعمون — كان أول من أمر بصناعة « الدروع السوابغ المفاضة التي منها سواعدها وأكنها وهي الأبدان » ، فضلاً عن آلاف الدروع التي فرضها على الفرس والروم واليمن ، وكذا على بابل وعمان والبحرين ، ولم ينس الأخباريون أن يتحدثوا عن حكمته وشعره ، بل إن البعض منهم قد ذهب به الخيال إلى الحد الذي رأي فيه أهل التبت ، وكأنهم بقية من جنود شمر يهرعش ،

---

(١) وهب بن منبه المرجع السابق ص٢٢٣ ، أخبار عبيد بن شريه ص٤٢٩ ، البكري ٣/٧٥٤—٧٥٥ ، ياقوت ٣/٢٤٧ ، قارن : ملوك حمير وأقيال اليمن ص٩٣—٩٤ .

(٢) يروى الأخباريون أنه سمي « يرعش » بسبب ارتعاش مسه من شرب الخمر ، أو لأنه أصابه الفالج في آخر عمره فكان يرتعش منه ، أو لأنه كان « يرعش » (بضم الياء وكسر العين) كل من رآه هيبة (أنظر : وهب بن منبة : المرجع السابق ص ٢٢٠ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٩٣) .

(٣) ياقوت ٣/٢٤٧ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٢ ، وهب بن منبه : المرجع السابق ص٢٢٢ ، ٢٢٧—٢٣٦ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ٩٤—٩٥ .

فزيهم زي العرب ، وأخلاقهم أخلاق العرب ، وهم معترفون بأنهم من العرب ثم من اليمن[1] .

وبدهي أن كل هذا من اختراع « ابن منيه » ومن نحا نحوه من الأخباريين ، فليس في آثار اليمن نفسها — والتي ترجع إلى عهد شمر يهرعش — مايدل على ذلك ، كما أن الأمم الأخرى التي تحدث عنها الأخباريون ، وكأنها قد خضعت له ، لم يعرف تاريخها حتى إسم « شمر يهرعش » هذا ، بل إن النصوص لتشير إلى أن « امرا القيس ابن عمرو » ملك الحيرة ، قد هدد « شمر يهرعش » في دولته ذاتها ، حتى أن قواته قد وصلت إلى نجران ، كما سوف نشير فيما بعد ، ومع ذلك فربما كانت هذه الروايات عن فتوحاته في المشرق والمغرب ، إنما هي تعبير عن أصداء فتوحاته في اليمن في سبيل توحيدها تحت سلطانه[2] .

وعلى أي حال ، فالرجل عظيم ما في ذلك من شك ، وأنه أدى دوراً من أهم الأدوار في تاريخ اليمن القديم ، ما في ذلك من شك كذلك ، وأن الأحداث التي ترجع إلى أيامه ، إنما تدل بوضوح على أنه كان كذلك ، ولعل من الأفضل لنا أن نقسمها إلى قسمين ، الواحد : يتصل بالفترة التي كان يلقب فيها بلقب « ملك سبأ وذى ريدان » ، والآخر : يرجع إلى تلك الفترة التي حمل فيها لقب « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات » .

وهناك من الفترة الأولى نقش عرف بـ (جلازر ٥٤٢) ويتصل بالتشريعات الخاصة بأهل مأرب ومجاوراتها ، فيما يتصل ببيع المواشي والرقيق ، فلقد حددت تلك التشريعات فترة شهر يصبح بعدها البيع نهائياً ، كما حددت كذلك فترة تتراوح ما بين عشرة أيام وعشرين يوماً يجوز فيها رد المبيع للبائع ، فإن هلك الحيوان بعد أيام سبعة من شرائه ، وجب على المشتري دفع ثمنه كاملاً[3] .

---

(١) نشوان الحميري المرجع السابق ص ٩٣ ، وهب بن منبه : المرجع السابق ص ، الإكليل ص ٢١١ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٩٦ .

(٣) جواد علي ٢/٥٤٠–٥٤١ ، وكذا J.B. Philby, op. cit., P. 110.

ويشير نص (شرف الدين ٤٢) أن واحداً من قواد « شمر يهرعش » (لعله ريمان ذو حزفر) ، قد غزا مناطق على ساحل الخليج العربي كانت تخضع وقت ذاك لفارس ، وأعني بذلك قبائل تنخ أو تنوخ في الاحساء الحالية ،وقطو ،أي القطيف في الوقت الحاضر[1] ، إلا أن مكتشف النص — الزميل الأستاذ أحمد حسين شرف الدين — يذهب إلى أن الملك « شمر يهرعش » نفسه ، هو الذي قاد جيشه إلى الشمال ، فعبر بلاد الأزد ، واجتمع مع ملكها « مالك بن الكلاع » ، ثم سار إلى الشمال حتى بلغ « قط وصف » و « كوك » حاضرتي مملكة فارس وأرض تنوخ[2] ؛ وفي هذا الوقت كان « أذينه » ملك تدمر ، يقوم بحملاته ضد « سابور الأول » (٢٤١— ٢٧٢م) ملك فارس ، وحاصر المدائن (طيسفون) التي أشير إليها في النص الآنف الذكر باسم « قط وصف » ، ومن ثم فربما استعان « أذينة » — الموالي للروم — بالملك « شمر يهرعش » في محاربة الفرس الذين تغلبوا على الروم في معركة « اديسا » عام ٢٦٠م[3] .

وعلى أي حال ، فإننا نستطيع أن نستنتج من النص عدة نتائج ، منها (أولاً) أن شمر يهرعش يجب أن يكون — طبقاً لرواية الأستاذ شرف الدين — قد بدأ حكمه قبل عام ٢٦٠م[4] ، ومنها (ثانياً) أنه لا بد وأن يكون على علاقات طيبة بأعراب « نجد » — وبخاصة سادة كندة — ذلك لأن أعراب نجد هؤلاء كانوا يقيمون وقت ذاك في الخرج والأفلاج ، كما أن الأخيرة كانت تعد من مواطن كندة منذ أيام « شعر أوتر » في حوالي عام ١٨٠م ، وحتى أيام « الشرح يحصب » الثاني في حوالي عام ٢١٠م — طبقاً لتقدير فون فيسمان — كما أن « بليني » قد تحدث عن « آل ثور في عين الجبل » ، و « آل ثور » هم « كندة » فيما يرى الأخباريون[5] ، ومنها

---

(١) Le Museon, 1964, 3-4, P. 487. وكذا Le Museon, 1967, 3-4, P. 505, 508.

(٢) A.H. Sharafaddin, Selected Arabic Inscriptions, P. 31.

(٣) أحمد حسين شرف الدين : اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ص ٤٣ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٤—٤٥ .

(٥) Le Museon, 1964, 3-4, P. 487-88. وكذا Pliny, VI, 158.

(ثالثاً) لعل هذه الأحداث ربما كانت هي السبب في أن الروايات العربية ذهبت إلى أن الرجل قد غزا فارس ، وإن كانت هذه الروايات قد بالغت بدرجة غير مقبولة ، حتى غدت أقرب إلى القصص منها إلى حقائق التاريخ ، بخاصة وأن هناك من يعتبر الحملة إنما كانت مهمة سياسية أكثر منها حربية [١] .

وأياً ما كان الأمر ، فإننا نقرأ في نقش (CIH, 407) عن حرب شنها « شمر يهرعش » على قبائل تهامة في غربي اليمن ، والتي شملت عسير وصبية — بين بيش ووادي سهام — وأن جيوش الملك الحميري قد انتصرت على هذه القبائل براً ، ثم سرعان ما طاردتهم في البحر ، حيث أوقعت بهم خسائر فادحة ، وربما كان ذلك يشير إلى أن أولئك المهزومين إنما كانوا من الأحباش الذين كانوا يحكمون ساحل تهامة ، وأن المعركة إنما دارت في البحر الأحمر [٢] ، وأن « شمر يهرعش » قد استعان بقبيلة « سردود » في قتالهم ، وأن هذه المعارك ربما كانت السبب في تدخل الأكسوميين مرة أخرى في شئون العربية الجنوبية ، كما يفهم من دراسة النقود ، وإن كانت النقوش لا تقدم لنا عوناً في تفهم الأحداث وقت ذاك [٣] ، وأخيراً فهناك نصوص أخرى ، ومنها (جام ٦٤٩—٩٥١ ، ٩٥٣) ، تشير إلى حروب انتصر فيها « شمر يهرعش » على المناوئين لحكمه [٤]

وفي النصف الثاني من عهد « شمر يهرعش » نرى أن الملك الحميري يطلق على نفسه لقب « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات » ، ويدل هذا اللقب الجديد على أن « شمر يهرعش » قد استولى على حضرموت ، أو على الأقل على الجزء الأكبر منها [٥] ، أما يمنات — فكما أشرنا من قبل — ربما كانت إسما عاما أطلق على السواحل

---

(١) مطهر علي الأرياني : المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) H. Von Wišsmann and M. Hofner, op. cit., P. 119
وكذا RA, XXXV, 1899, P. 25 وكذا A. Jamme, op. cit,. P. 369.
وكذا le Museon, 1964, 3-4, P. 485. وكذا REP, EPIG, 189, I, III, P. 150

(٣) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٣٢—٣٣ .

(٤) A. Jamme, op. cit., P. 151-160, 369. ، وكذا : جواد علي ٥٤٢/٢—٥٤٧ .

(٥) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٣٢ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4. P. 485.

الجنوبية[1] ، وربما كانت الأرضون التي تكوّن القسم الجنوبي من مملكة حضرموت ، ويعتمد « فون فيسمان » — في رأيه هذا — على وجود عاصمتين لحضرموت وقت ذاك ،الواحدة «شبوة» ، والأخرى « ميفعة » ، مما يدل على انقسام الدولة إلى قسمين ، شمالي ويدعى حضرموت ، وجنوبي ويدعى « يمنات » (اليمن)[2] .

هذا وقد حكم « شمر يهرعش » في الفترة (٢٧٠—٣١٠م)[3] ، وإن كان « فون فيسمان » يذهب إلى أن النصف الثاني من عهده ، إنما كان في الفترة (٢٨٥—٢٩١م) ، أو في الفترة (٣١٠—٣١٦م) ، وأنه كان يعاصر « امرؤ القيس بن عمرو » ملك الحيرة (٢٨٨—٣٢٨م) ، وصاحب نقش النمارة[4] ، والذي أخضع عدة قبائل منها « مذحج ومعد وأسد ونزار » ، حتى وصل إلى نجران[5] .

ولعل من الأفضل هنا أن نعود إلى النص نفسه ، حيث نقرأ « تي نفس مر القيس برعمرو ملك العرب كله ذو أسر التج ، وملك الأسدين ونزار وملوكهم ، وهرب محجو عكدي وجا بزجي في حبج نجرن مدينت شمر ، وملك معدو ، وبين بنيه الشعوب ، ووكلهن فرسو لروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه ، عكدى هلك سنت ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول ، بلسعد ذو ولده » .

---

(١) P.K. Hitti, op. cit., P. 60.

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 485.

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٩٥ .

(٤) نقش النمارة : إكتشف هذاالنقش «رينيه ديسو وفردريك ماكلر» عام١٩٠١م ،على مبعدة كيلومتر واحد من النمارة، القائمة على أنقاض مخفر روماني شرقي جبل الدروز ،وهو في خمسة أسطر محفورة على حجر من البازلت علىقبر امرىء القيس المتوفي في٧ ديسمبر ٣٢٨م، وموجود الآن بمتحف اللوفر في باريس ، وواضح أن كاتبه نبطي ، فالخط المستعمل هو الخط النبطي ، واللغة العربية المستعملة تعرضت هي أيضاً لتحريفات نبطية .

(٥) جواد علي ٥٤٨/٢ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 456, 486.
وكذا F. Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, P. 127
وكذا REP, EPIG, 483.

وترجمته إلى لغة مفهومة قد تكون على النحو التالي : « هذا جسمان إمرىء القيس ابن عمرو ملك العرب جميعاً ، الذي عقد التاج وملك قبيلتي أسد ونزارا وملوكهم ، وصد بني محجج ؟ حتى اليوم ، وجاء بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمر ، وملك قبيلة معد ، وقسم على أبنائه الشعوب ، وجعلها فرساناً للروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه حتى اليوم ، مات سنة ٢٢٣ ، يوم ٧ (من شهر) كسلول ، السعادة لأولاده [١] » .

ومن أسف أن النص لا يشير إلى بقية إسم « شمر » صاحب مدينة نجران ، لنعرف من كان « شمر » هذا ، وإن كان قد أشار إلى أن قتالاً دار حول نجران بين قوات امرىء القيس وقوات شمر ، وأن النصر كان من نصيب الأولين ، فإذا كان صحيحا ما ذهب إليه « فون فيسمان » من أن « شمر يهرعش » كان يعاصر امرىء القيس ملك الحيرة ، فإن هذا يعني — فيما يرى الدكتور جواد علي — أن بلاد العرب كانت في أوائل القرن الرابع الميلادي ميداناً للتسابق بين هذين الرجلين القويين ، وأن العرب قد انقسموا إلى حزبين : عرب شماليين ، وعرب جنوبيين ، وأن امرأ القيس كان قد توغل في بلاد العرب حتى بلغ نجران ، وأعالي العربية الجنوبية ، وأخضع القبائل العربية المذكورة في النص ، والتي يرى النسابون أنها قبائل عدنانية في غالبيتها ، وأن وصول امرىء القيس إلى حدود العربية الجنوبية من ناحية الشمال ، قد جعله وجهاً لوجه أمام « شمر يهرعش » ، ومن ثم فقد بدأ النزاع بين الرجلين [٢] .

وعلى أي حال ، فليس بعيداً أن يحدث صدام بين امرىء القيس وشمر يهرعش ، أو بأي ملك آخر يملك نجران ، ما دام الأول قد حكم قبائل معد التي تسكن الحجاز ونجد ، وتتصل منازلها بتخوم نجران ، وقد خضعت معد لنفوذ الحيرة ، لأن نص شمعون من « بيت رشام » يذكر الأعراب الشماليين والمعديين في معسكر المنذر الثالث ملك الحيرة ، والأمر كذلك بالنسبة إلى نص « مريغان » [٣]

(١) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٦٥-١٦٦ .

(٢) جواد علي ٢/٥٤٩ ، وكذا Oriens Antiques, III, 1964, P. 81,

(٣) جواد علي ٢/٥٤٩ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., II, P. 321.

هذا وقد استدل بعض الباحثين من نص (ريكمانز ٥٣٥) أن « مر القيس بن عمرو ملك ..... » إنما هو « امرؤ القيس البدء » ملك الحيرة ، كما أن هناك من يرى أن « شمر ذى ريدان » المذكور في النص ، إنما هو « شمر يهرعش » ، إعتماداً على ورود الإسمين (شمر ذى ريدان ، وشمر يهرعش) في وثيقتين مدونتين في معبد الإله المقة بأوام في مأرب ، ومؤرختين بسنتي « تبع كرب بن ودد إل بن حزفر » ، الثالثة والسادسة ، ومن ثم فإن « مالك » ملك كندة كان معاصراً لكل من امرىء القيس وشمر يهرعش[1] ، وبالتالى فإن هذه النتائج تتعارض وما ذهب إليه الأستاذ « شرف الدين » من أن « شمر يهرعش » قد حكم قبل عام ٢٦٠م ، وأنه ساعد « أذينة » ملك تدمر في حروبه ضد الفرس[2] — كما أشرنا من قبل — .

وأيا ما كان الأمر ، فإننا لا نملك دليلاً على أن حرباً دارت رحاها بين امرىء القيس ملك الحيرة ، وشمر يهرعش ، غير أن نص (جام ٦٥٨) ، فيما يرى البعض ، إنما يشير إلى حرب بين الرجلين دارت رحاها في « وادي عتود »[3] ، هذا ورغم أننا لا نعرف كذلك كيف استطاع « شمر يهرعش » ضم حضرموت إلى سبأ ؟ فإن هناك من يرى أن ذلك قد تم في القرن الرابع الميلادي ، وقبل استيلاء الحبشة على العربية الجنوبية — للمرة الأولى[4] — بزمن قصير ، كما أن نقش (جام ٦٥٦) قد أشار إلى حرب استعر اوارها بين حضرموت و « شمر يهرعش » في « وادي السر » (سررن) — على مبعدة سبعة كيلومترات من وادي شبام — وأن شمر يهرعش قد لقب في هذا النص بلقب «ملك سبأ وذى ريدانوحضرموت ويمنات»،وأن نص (جام ٦٦٢) يشير إلى أن « شبوه » كانت تحت سيادة سبأ ، وأن الملك السبئي قد عين

---

(١) J. Pirenne, op. cit., P. 30, 166, 168 وكذا Le Museon, 69, 1956, P. 139 وكذا A. Altheim and R. Stiehl, op. cit, I, P. 322, IV, P. 272.

وكذا جواد علي ٥٤٩/٢—٥٥٠ ، مطهر علي الأرياني : المرجع السابق ص ٩٥-٩٦ .

(٢) أحمد حسين شرف الدين : المرجع السابق ص ٤٤-٤٥ .

(٣) Le Museon, 1964, 3-4, P. 486-7.

(٤) يرى « ريكمانز أن ذلك كان في الفترة ما بين عامي ٣٣٥ ، ٣٧٠م (أنظر : J. Ryckmans, op. cit., P. 338.)

عليها حاكماً من أشراف سبأ ، وأن نص (CIH, 948) يشير إلى انتصار « شمر يهرعش » على « شرح إيل » ملك حضرموت ، كما أن إسم « شمر يهرعش » جاء في النص شمر يرعش ، كما يكتبه الأخباريون[1] .

ويختلف المؤرخون فيمن خلف « شمر يهرعش » ، فذهب « فلبي » إلى أنه «يرم يهرحب» ، وأنه حكم حوالي عام ٣١٠م ، وربما كان إبناً له[2] ، وأما «فون فيسمان » فالرأي عنده أنه ولده « ياسر يهنعم » ، ولقبه بالثالث ، تمييزاً له عن جده ، وعن « ياسر يهنعم » الأول ، الذي عاش قبله بفترة[3] ، هذا ويذهب « ريكمانز أن « ياسر يهنعم » هذا لم يكن إبناً لشمر يهرعش ، وإنما كان أخوه ، وأنهما قد حكما معاً حكماً مشتركاً ، ثم انفرد « شمر يهرعش » بالعرش ، وعند وفاته عاد العرش مرة ثانية إلى أبيه ، فأشرك معه ابنه الآخر « ثاران أيفع » ، ثم ابنه الثالث « ذرأ أمر أيمن » ، ويعارض «فون فيسمان» هذا الإتجاه فهو أمر لم يسبق له مثيل (أولاً) ، ولأن « ياسر يهنعم » يكون قد عاش فترة طويلة ، (ثانياً)[4] .

وعلى حال ، فلقد رأى « فون فيسمان » أن « ياسر يهنعم » وابنه « ثاران أيفع » قد حكما في الفترة (٣١٠-٣٢٠م) ثم خلفهما « ثارن يركب » (٣٢٠-٣٣٠م) ، وأما «البرت جام» فقد ذهب إلى ما ذهب إليه «ريكمانز» من قبل ، مع قليل من التغيير في الفترة التي تلت موت « شمر يهرعش » ، وتقديم فترة اشتراك حكم « ذرأأمر أيمن » مع أبيه ، على فترة اشتراك أخيه « ثاران أيفع » مع أبيه كذلك وأن الفترة الأولى كانت (٣٠٥-٣٢٠م) وأن الثانية كانت (٣٢٠-٣٢٥ م)[5]

ونقرأ في نقش (جام ٦٦٥) عن حرب خاض غمارها أعراب من سبأ ومن كندة ، فضلاً عن أشراف من « أبعل » و « نشق » و« نشان » ، بأمر من الملكين

(١) جواد علي ٢/٥٥٣-٥٥٥ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 96, 163, 372-3,
(٢) J. Philby, op. cit., P. 143.
(٣) Le Museon, 1964, 3-4, P. 489.
(٤) Le Museon, 1964, 3-4, P. 489, 498.
(٥) Le Museon, 1964, 3-4, P. 498. وكذا A. Jamme, op. cit., P. 392.

« ذرأ أمر أيمن » وأبيه « ياسر يهنعم » — اللذين جاء إسم كل منهما في النقش — في أرض حضرموت ، وقد اشترك معهم ٧٥٠ من راكبي الجمال ، وسبعون من الفرسان ، فضلاً عن المشاة ، وقد تمكن قائد الحملة « سعد تالب » من إحراز النصر في عدة مواقع — في أرك ودهر ورخيت وأعين خرص[1]— وربما تشير هذه الحروب إلى انفصال حضرموت وسهرت (سهرتن) عن سبأ : هذا وقد استعاد الجيش كذلك السيطرة على سواحل جنوب غرب الجزيرة العربية ، كما أن رؤساء القبائل قد انتهزوا فرصة الإضطرابات هذه فأقاموا حكومات إقطاعية ، مما يدل على أن هذا العهد ، إنما كان من عهود الضعف في حكومة « سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات[2] ».

هذا ويذهب « البرت جام » إلى أن « كرب إيل وتار يهنعم » قد خلف « ثاران أيفع » وحكم في الفترة (٣٢٥—٣٣٠م) ، ثم جاء بعده « ثاران يركب » (٣٣٠—٣٣٥م) ، ثم « ذمار علي يهبر » الثاني (٣٣٥—٣٤٠م) ، ثم « ثاران يهنعم » الذي تلاه « ملكيكرب يهأمن » ، ثم « أب كرب أسعد » و « ذرأ أمر أيمن »[3] .

وأما « فون فيسمان » فقد وضع « ذمار علي يهبر » بعد « ثاران يركب » ، ثم عاد فوضع « ذمار علي يهبر » مع ابنه « ثاران يهنعم » ، وحدد لهما فترة حكم مشترك (٣٤٠—٣٥٠م) ، ثم « ثاران يهنعم » مع ابنه « ملكيكرب يهأمن » ، ثم « ملكيكرب يهأمن » ، مع ابنيه « أب كرب أسعد » و « ذرأ أمر أيمن » ، ثم انفرد « أب كرب أسعد » مع ابنه « حسن يهأمن » ، حوالي عام ٤٠٠م[4] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن نصوص (جام ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١) ، هي آخر النصوص التي نقرأ فيها إسم الإله الموقاة ، إله سبأ الكبير ، وقد عثر عليها

---

(١) جواد علي ٢/٥٥٩—٥٦١ وكذا Le Mueosn, 1964, 3-4, P. 490.
وكذا A. Jamme, op. cit., P. 375. وكذا A. Sprenger, op. cit., P. 189
ثم قارن : نقش الكهالي رقم ٣٢ ص ١٦٤—١٦٩ من كتاب « في تاريخ اليمن » لمطهر الأرياني .

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 490.

(٣) A. Jamme, op. cit., P. 393.

(٤) Le Museon, 1964, 3-4, P. 498.

في معبده المعروف بـ « أوام » في مأرب ، وترجع إلى أيام « ثاران يهنعم » وابنه « ملكيكرب يهأمن »[1] ، وليس من شك في أن هذا إنما يشير إلى إعراض القوم منذ ذلك العهد – أي منذ أخريات القرن الرابع الميلادي – عن عبادة « المقة » وبقية الآلهة السبئية ، وبداية عصر الديانات السماوية ، بل إن الملك « ملكيكرب يهأمن » قد تجاهل المقة ولم يتقرب إليه – كما كان يفعل أسلافه – وإنما بدأ يتقرب إلى الإله « ذى سموى » (ربّ السماء) ، مما يدل على أن عقيدة التوحيد إنما بدأت تأخذ طريقها إلى ملوك سبأ ، منذ اختفاء الآلهة الوثنية ، أمام رب السموات ، الأمر الذي لم يحدث فجأة ، وإنما كان عبارة عن تطور يتصل بالمعبود الذي كان يقدس إلى جانب « تالب » ، واسمه « ذو سماوى » ، وكذا « الله » سيد السموات والأرض ، ثم بعد ذلك سرعان ما يظهر « الرحمن » في صورة لا تعدلها تلك الصورة التي نجدها في اليهودية المتأخرة[2] .

وعلى أي حال ، فهناك رواية تذهب إلى أن هذا التطور الخطير في الديانة ، إنما حدث منذ أيام « ثاران يهنعم » إعتماداً على رواية (Philostorgios) التي ذهب فيها إلى أن«ثيوفيلوس» قد نجح في تنصير الحميريين ، وبناء كنائس في ظفار وعدن ، وأن الإمبراطور البيزنطي « قسطنطين الثاني » (٣٥٠–٣٦١م) هو الذي أرسل الرسل إلى اليمن للدعوة إلى النصرانية ، ومن ثم فإن « ثاران يهنعم » – طبقاً لهذه الرواية – هو الذي هجر دينه الوثني واعتنق النصرانية[3] ، إعتماداً على أن الكتابة التي جاء فيها إسم الإله « ذى سموى » ، والتي عثر عليها خارج « ظفار » ، إنما ترجع إلى عهد قريب من عهد « ثاران يهنعم » ، أي إلى حوالي عام ٣٧٨ ، أو عام ٣٨٤م ، وبعبارة أخرى إلى عهد ابنه « ملكيكرب يهأمن » ، وقد جاء فيها إسم ولديه « أب كرب أسعد » و « ذرأ أمر أيمن » كشريكين له في العرش[4] .

---

(١) Ibid., P. 451.

(٢) فريتز هومل : المرجع السابق ص ١٠٨ ، جواد علي ٥٦٧/٢ .

(٣) جواد علي ٥٦٧/٢–٥٦٨ وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 492 وكذا J. Ryckmans, op. cit., P. 22

(٤) Le Museon, 1950, 3-4, P. 270, 1964, 3-4, P. 492.

وعلى أي حال ، فهناك من يذهب إلى أن «ثيوفيلوس» لم يكتب له نُجْحاً يستحق التقدير في مهمته في اليمن بسبب تدخل الفرس – أعداء الروم – في تلك الفترة في شئون اليمن ، وتحريضهم اليمنيين على مقاومة نفوذ الرومان في بلادهم[1] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أن « سد مأرب » قد أصابه تصدع أدى الى سقوط أجزاء منه ، وأن الملك « ثاران يهنعم » قد قام بإصلاحه ، وإعادته إلى حالته الأولى[2] .

هذا ونشير كذلك إلى أن إسم « ملكيكرب يهأمن » قد جاء محرفاً في المصادر العربية ، فهو عند « حمزة الأصفهاني » « كلى كرب بن تبع » وقد حكم ٣٥ عاماً[3] ، وهو عند «ابن جرير» «ملكي كرب تبع بن زيد بن عمرو بن تبع»[4] ، وهو عند القلقشندي « كليكرب بن تبع الأقرن » ، وقد حكم ثلاثاً وخمسين سنة أو ثلاثاً وستين سنة ، بعد « شمر مرعش » (شمر يهرعش) وأن اسمه « زيد بن شمر » ، وقد عرف بالأقرن لشامة كانت في قرنه[5] ، وهو عند ابن الأثير « ملكيكرب تبع زيد بن عمرو بن تبع[6] » ، وهو عند المسعودي « كليكرب بن تبع[8] » ، وهو عند اليعقوبي « ملكيكرب بن تبع[7] » ، وهو عند نشوان الحميري « ملكي كرب » وهو الرائد بن تبع الأقرن بن شمر يرعش[9] .

---

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٣٩ .
(٢) جواد علي ٥٦٨/٢
وكذا Jamme 671. وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 491, 498
(٣) حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٨٥ .
(٤) تاريخ الطبري ٥٦٦/٢–٥٦٧ .
(٥) صبح الأعشى ٢٣/٥ .
(٦) ابن الأثير ٢٧٦/١ ، الإشتقاق ٥٣٢/٢ .
(٧) مروج الذهب ٥٠/٢ .
(٨) تاريخ اليعقوبي ١٩٦/١ .
(٩) ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١١٧–١١٨ .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد جاء بعد « ملكيكرب يهأمن » هذا ، ولده « أب كرب أسعد » وربما كان هو « أسعد كامل تبع » الذي يروى الأخباريون أنه أول من تهود من التبابعة ، ثم نشر اليهودية بين اليمنيين في قصة طريفة ، يذهبون فيها إلى أنه كان قد قدم المدينة المنورة غازياً بعد عودته من المشرق ، ربما لأن القوم قد قتلوا ولده الذي كان قد خلفه فيهم وهو في طريقه إلى المشرق ، وربما لأن رجلاً من بني عدى ابن النجار عدا على رجل من أصحابه فقتله ، وربما لأنه جاء لنصرة الأوس والخزرج من أبناء عمومته على اليهود ، وهنا جاءه «حبران من يهود بني قريظة» ينهيانه عن تدمير المدينة ، لأنها سوف تكون مهاجر نبي سوف يخرج من قريش — دعوه أحمداً مرة ، ومحمداً مرة أخرى — وهكذا صرف الحبران تبعاً عن تدمير المدينة ، فضلاً عن إيمانه بدينهما ، وقوله شعراً في النبي — صلى الله عليه وسلم — متمنياً فيه أن يعيش حتى يراه ، فيكون له وزيراً وابن عم ، فضلا عن القتال إلى جانبه ، لأنه كان على علم بما سيلاقيه الرسول — عليه الصلاة والسلام — من قومه من أذى ، ثم أودع هذا الشعر عند أهل يثرب ودفعه إلى كبيرهم ، وأن القوم كانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى عهد النبوة[1] .

ويتجه « أب كرب أسعد » صوب مكة في طريقه إلى اليمن ، حتى إذا ما كان بين « عسفان » و « أمج » أتاه نفر من « هذيل » يغرونه بسلب البيت الحرام ، ويستفتي « تبع » أحبار يهود فيصدقونه النصح قائلين : « ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذه في الأرض لنفسه غيره » ، ومن ثم فإنه إن سلبه كان هلاكه فيه ، ويعلم الرجل أن الصدق ما نصحا به الحبران اليهوديان ، فينتقم من هذيل ، ثم يمضي إلى مكة فيطوف بالبيت وينحر الذبائح ، ثم يقيم بمكة ستة أيام ، يرى أثناءها — فيما يرى النائم —

(١) الأزرقي ١/١٣٢–١٣٤، ابن كثير : البداية والنهاية ٢/١٦٣–١٦٤ ، تفسير ابن كثير ٤/١٤٢ ، تاريخ الطبري ٢/١٠٥–١٠٦ ، بلوغ الأرب ٢/١٧٠ ، ٢٤٠–٢٤١ ، ابن هشام ١/٢٥–٢٧ ، وفاء الوفا ١/١٢١ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٢٢–١٢٣ ، أخبار عبيد بن شريه ص ٤٦٠ ، مروج الذهب ١/٨٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٣ ، تاريخ اليعقوبي ١/١٩٧–١٩٨ ، تفسير القرطبي ١٦/١٤٥ .

وكأنه يكسو البيت الحرام ، وتتكرر الرؤيا ثلاث ليال ، ويفعل « تبع » ما أمر به في منامه ، ومن ثم يصبح أول من كسا البيت ، ثم يعود إلى اليمن فتتكرر قصة تهوده مرة ثانية ، وهنا يروي الأخباريون حديثاً نسبوه — عن طريق أبي هريرة — إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول فيه « لا تسبوا أسعد الحميري ، فإنه أول من كسا الكعبة »[1] ، ثم وصفوه بعد ذلك بأنه كان ملكاً عظيماً ، شاعراً فصيحاً ، عارفاً بالنجوم ، وهو أحد المعمرين ، عمّر ثلاثمائة وإحدى وخمسين سنة ، وكان ملكه ثلاثمائة وستة وعشرين سنة ، وكان مؤمناً بالله[2] .

وليس من شك في أن وراء هذا القصص ، وغيره من أساطير تمتلىء بها الكتب العربية ، كعب الأحبار ووهب بن منبه ، وغيرهما من مسلمة أهل الكتاب ، وهنا لعل سائلا يتساءل : أكان « تبع » هذا يقول الشعر بلغة قريش ، ونحن نعرف — من دراستنا للنصوص القديمة — أنها تختلف كثيراً عن لغة حمير ، حتى ذهب الأمر بعلماء العربية في الإسلام إلى إخراج الحميرية واللهجات العربية الأخرى من العربية ، التي جعلوها مقصورة على العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وحتى قال بعضهم : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[3] .

ثم كيف عرف الحبران اليهوديان أن هناك نبياً سوف يبعث من قريش ، ومبلغ علمي أن التوراة — وكذا التلمود — لم يرد فيهما نص صريح بذلك ، صحيح أن

---

(1) ابن كثير ٢/١٦٤-١٦٧ ، تاريخ الطبري ٢/١٠٧-١١١ ، تفسير الطبري ٢٧/١٥٤ ، تفسير الخازن ٤/١١٥ ، ١٧٥ ، تفسير القرطبي ١٦/١٤٥ ، تاريخ اليعقوبي ١/١٩٨ ، ابن هشام ١/٢٧-٣٠ ، العقد الثمين ١/٧١ ، وفاء الوفا ١/١٣٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٣-٥٤ د ، الأزرقي ١/٢٤٩ ، تفسير الطبرسي ٢٥/٦٦ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٣٤-١٣٥ ، الفتح الكبير للنبهاني ٣/٣٢٤ ، ثم قارن : المعارف ص ٢٧٥-٢٧٦ ، مروج الذهب ٢/٥١ ، تفسير الطبري ٢٥/١٢٨-١٢٩ ، تفسير البيضاوي ٢/٣٧٦-٣٧٧ ، وصايا الملوك ليحيى الوشاء ص ٣٠ .

(2) ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٢٢ .

(3) محمد بن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء ص ٤ وما بعدها وكذا Igance Goldziher, History of Classical Arabic Literature, P. 2.

هناك نصوصاً تشير إلى مبعث نبي من العرب ، وأن الإرهاصات بمولد المصطفى — صلى الله عليه وسلم — كثيرة ، وأن البشارات بمولد النبي الأعظم — عليه الصلاة والسلام — أكثر من أن تحصى ، بل إن كل ما في بلاد العرب يكاد يشير بالتغيير المنتظر ، على يد رسول الله وخاتم النبيين —صلوات الله وسلامه عليه— ولكن صحيح كذلك أنها لم تشر إلى أنه من قريش بالذات ، وأنه سوف يهاجر إلى المدينة كذلك بالذات ، وأما نص التوراة الذي تحدث عن البشارة بمبعث نبي من العرب ، فهو « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي ، أنا أطالبه »[١] .

ثم أليس من المضحك المبكي ، أن يكون اليهود أشد حرصاً على الحفاظ على الكعبة ، وأكثر توقيراً لها ، من العرب أنفسهم ، بل ألا يتأنى هؤلاء الرواة حين يجعلون من اليهود بالذات ، هداة ملوك العرب إلى مكانة الكعبة المشرفة بالذات كذلك ، وأن يصرحوا — كما يزعم هؤلاء الرواة — أن الله لم يتخذ له بيتاً في الأرض غيرها ، فإذا كان ذلك كذلك ، فلم لم يحج اليهود إليها ، كما كان يفعل العرب ؟ ثم ما هو موقف اليهود بالنسبة إلى هيكلهم المشهور بهيكل سليمان[٢] ، والذي يزعمون له ما يزعمون من قداسة ، ما بعدها قداسة ؟ .

ثم من أين عرف « تبع » هذا ، أن النبي — صلى الله عليه وسلم — سوف يسمى « أحمدا » ، كما جاء في الشعر المنسوب إليه ؟ بل إنه يسميه كذلك « المصطفى »[٣] ، على أن رواية ثالثة تسميه « محمداً »[٤] ، ومبلغ علمي أن ذلك لم يرد في نص من

---

(١) أنظر : سفر التثنية ١٨ : ١٥—١٩ ، سفر أشعياء ٤٢ : ١—١٣ ، إبراهيم خليل أحمد : محمد في التوراة والإنجيل والقرآن (مكتبة الوعي العربي ، القاهرة ١٩٦٤) محمد رضا : محمد رسول الله ، بيروت ١٩٧٥ ص ٤٥ وما بعدها ، عماد الدين خليل : دراسة في السيرة ، جامعة الموصل ، بيروت ١٩٧٤ ص ٢١٩ وما بعدها .

(٢) أنظر عن : هيكل سليمان : كتابنا إسرائيل ص ٤٦٤—٣٧١ .

(٣) ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٢٢ ، قارن : وصايا الملوك ليحيى الوشاء ص ٣٠ .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ١/١٢٣ .

النصوص العربية — التي سبقت عصر الرجل أو عاصرته — وإنما جاء ذلك في الإنجيل ، كما قال سبحانه وتعالى في القرآن الكريم — على لسان المسيح عليه السلام — « يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد »[1] .

ثم كيف آمن « تبع » برسول الإسلام الأعظم — صلى الله عليه وسلم — قبل مبعثه بنحو من سبعمائة عام — كما يروي الإخباريون[2] — ألمجرد أن الحبرين اليهوديين قد أخبراه أن يثرب سوف تكون مهاجراً لنبي يخرج من قريش ؟ لا أظن أن ذلك سبباً كافياً لإيمانه بنبي كان حتى تلك اللحظة ما يزال في ضمير الغيب ، أضف إلى ذلك أن الفترة بين عهد « أب كرب أسعد » وبين مبعث المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، ليست سبعة قرون بحال من الأحوال ، فإذا كان الرجل قد مات في حوالي عام ٤١٥م—أو عام ٤٢٠م ، أو حتى عام ٤٣٠م— كما سوف نرى ، وإذا كان الرسول — صلى الله عليه وسلم ، قد انتقل إلى الرفيق الأعلى في يونية ٦٣٢م[3] ، فإن الفرق بين وفاتهما لا تصل إلى أكثر من قرنين من الزمان .

---

(١) سورة الصف : آية ٦ ، وانظر : تفسير الطبري ٨٧/٢٨ ، تفسير الطبرسي ٦٠/٢٨–٦٢ ، تفسير الكشاف ٩٨/٤–٩٩ ، تفسير البيضاوي ٤٧٣/٢–٤٧٤ ، تفسير روح المعاني ٨٥/٢٨–٨٧ ، تفسير ابن كثير ٦٤٦/٦–٦٤٨ (دار الأندلس) ، تفسير القرطبي ٨٣/١٨–٨٤ ، تفسير أبي السعود ١٦١/٥ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٤٧٣/٢–٤٧٤ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٢١٣/٦–٢١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٤٤/٤ .

(٣) أرجح الآراء فيما نظن ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ولد في ٩ ربيع الأول (٢٠ أبريل ٥٧١م) وانتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٢ أو ١٣ ربيع الأول عام ١١هـ (٧ أو ٨ يونية ٦٣٢م) ، (أنظر : محمود باشا الفلكي : التقويم العربي قبل الإسلام ص ٣٨ ، محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٩٥–٩٦ ، تاريخ الطبري ١٥٤/٢–١٥٥ ، ابن الأثير ٤٥٧/١–٣٥٨ ، ابن كثير البداية والنهاية ٢٦١/٢–٢٦٢

وكذا Caussin de Perceval, Essi sur l'Histoire des Arabes, I, P. 286F.

وكذا P. Lammens, Age de Mohammad, P. 209F

وكذا R. Blachere, la Probleme de Mohamet, P. 15.

ومن ثم فأكبر الظن ، أن هناك — بجانب الإسرائيليات في هذه الروايات — هدفاً من ورائها ، يقصد منه رفع شأن القحطانيين إبان النزاع السياسي بينهم وبين العدنانيين ، ومن ثم فإن هذه الروايات جد حريصة على أن تقدم لنا « تبعاً » وقومه في صورة أفضل من صورة العدنانيين بصفة عامة ، والقرشيين بصفة خاصة ، فهم — أي القحطانيين — كانوا (أولاً) أول من قال الشعر في مدح المصطفى — صلى الله عليه وسلم ، فعل ذلك سبأ ، كما أشرنا من قبل ، ويفعله الآن « تبان أب كرب أسعد » ، وهم (ثانياً) كانوا على علم باسم المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — وبعثته ، بينما لم يكن العدنانيون يعرفون ذلك حتى ظهور الاسلام ، وهم (ثالثاً) قوم مؤمنون ، كسوا البيت وعمروه أكثر من مرة ، ثم قدروا مكانته قبل ظهور الإسلام بقرون ، حتى إن كان اليهود هداتهم إلى ذلك .

وأخيراً فإن هذا الإلحاح على أن التبابعة قوم مؤمنون بالله وبرسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ثم الإلحاح على عدم جواز سبهم ، إنما قد يدل على أن هناك من كان يسب التبابعة ويلعنهم ، وربما كان هذا السب وذلك اللعن ، لم يكن موجهاً بالذات إلى التبابعة ، وإنما كان موجها إلي اليمنيين بخاصة ، والقحطانيين بعامة ، ومن هنا كان هذا الإلحاح على عدم السب ، بل ربما قد وضعت —فيما يرى الدكتور جواد علي — هذه الأحاديث على لسان النبي — عليه الصلاة والسلام — للرد على هذه الحملة العدنانية ضد القحطانيين[1] ، أضف إلى ذلك أن هذا الإلحاح ربما كان الهدف منه كذلك ، إلقاء ظلال من شك على رواية تاريخية تذهب إلى أن «حسان بن عبد كلال » قد أقبل بجيش من اليمن يريد نقل حجارة الكعبة الشريفة من مكة إلى اليمن ، غير أن حملته هذه انتهت بالفشل[2] — كما سوف نشير فيما بعد — فضلاً عن حملة أبرهة على مكة ، والتي شاركت فيها بعض البطون اليمنية .

---

(١) جواد علي ٢/٥١٥—٥١٦ .

(٢) الإكليل ٢/٣٥٧—٣٥٩ ، تاريخ الطبري ٢/٢٦٢—٢٦٣ ، جواد علي ٢/٥٨٥ .

وأياً ما كان الأمر ، فإن المصادر العربية إنما تذهب إلى أن « أب كرب أسعد » قد خرج من اليمن حتى وصل إلى جبلي طيء فسار يريد الأنبار ، فلما انتهى إلى موضع الحيرة تحيّر وكان الوقت ليلاً فأقام مكانه ، فسمي ذلك المكان بالحيرة ، وخلف به قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة ، فبنوا وأقاموا به ، ثم انتقل إليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب والسكون وبلحرث بن كعب وإياد ، ثم توجه إلى الموصل ، ثم إلى أذربيجان ، فلقي الترك فهزمهم ، ثم عاد إلى اليمن ، فهابته الملوك وأهدوا إليه ، ومنها هدايا من الهند التي علم أنها من الصين ، ومن ثم فقد غزاها[1] .

وليس من شك في أن «أبا كرب أسعد» قد كتب له نُجْحاً كبيراً في توسيع ملكه ، وأنه قد بلغ البحر الأحمر والمحيط الهندي ، والأقسام الجنوبية من نجد ، وربما كان قد استولى على جزء كبير من الحجاز ، ومن ثم فإن في روايات الأخباريين عن فتوحاته أساسا من الصحة[2] ، إلا أن عنصر المبالغة فيها إنما قد أفسدها إلى حد كبير ، وإن كانت تدل في الوقت نفسه على قوة شخصيته التي مكنته من إتمام هذه الفتوح ، ومن السيطرة على الأعراب ، وبالتالي فقد أضاف إلى لقبه «ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات » جملة « وأعرابها في الجبال والتهائم » ، وهكذا ترك الرجل أثراً عميقاً في الأجيال القادمة ، فأضافت إلى فتوحاته ، ما شاء لها الخيال أن تضيف .

وقد اختلف العلماء في فترة حكم « أب كرب أسعد » ، فذهب فريق إلى أنها إنما كانت في الفترة (٤٠٠–٤١٥ أو ٤٢٠م) [3] ، وذهب آخرون إلى أنها في الفترة (٣٨٥–٤٢٠م) [4] ، على أن هناك فريقاً ثالثاً ذهب إلى أنها في الفترة (٣٧٨–٤١٥م) [5] ، ويتجه الدكتور جواد علي إلى أنها استمرت حتى عام ٤٣٠م[6] ،

---

(١) ابن الأثير ١/٢٧٦–٢٧٧ ، تاريخ الطبري ١/٥٥٦–٥٦٧ ، البكري ٢/٤٧٩ .
(٢) جواد علي ٢/٥٧٥ .
(٣) J.B. Philby, op. cit., P. 116, 143. وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 104
(٤) فريتز هومل : المرجع السابق ص ١٠٨ .
(٥) J.B. Philby, Note on the Last Kings of Saba, in le Museon, 1950, LXIII, 3-4, P. 269.
(٦) جواد علي ٢/٥٧١ .

ولعل السبب في ذلك أن نص (ريكمانز ٥٣٤) ؛ والذي جاء فيه ذكر « أب كرب أسعد » وستة من أولاده ، إنما يرجع إلى عام ٤٢٨م أو عام ٤٣٤م،[١] وهذا يعني أن حكم « أب كرب أسعد » قد جاوز عام ٤٢٨م ، وربما عام ٤٣٠م ، فإذا ما تذكرنا أن الرجل قد ذكر مع والده في نص يرجع إلى عام ٣٧٨م أو عام ٣٨٤م ، فإن حكمه يكون عندئذ قد جاوز نصف القرن من الزمان ، ولو افترضنا أنه كان شاباً في العشرين من عمره ، فإن الرجل يكون قد عاش حوالي السبعين عاماً ، وربما أكثر من ذلك بقليل[٢] .

هذا وقد أشرنا من قبل إلى أن «أبا كرب أسعد» قد أضاف إلى لقبه «ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات » جملة « وأعرابها في الجبال والتهائم » ، فكان بذلك أول من حمل هذا اللقب[٣] ، ولعل السبب في ذلك إنما هو ظهور قوة الأعراب وأهميتهم ، وبخاصة أعراب الهضاب وجنوب نجد وقبائل تهامة ،ومن ثم فقد أصبح لهم تأثير في الشئون الداخلية ، ربما قد يصل إلى إحداث تغيير في التنظيم السياسي نفسه ، وهكذا أضاف « أب كرب أسعد » اسمهم إلى لقبه ، دلالة على سيطرته عليهم وعلى خضوعهم له ، وهو في هذا إنما يتبع سنة أسلافه في تغيير ألقابهم ، كلما أخضعوا أرضاً جديدة ، مضيفين إلى لقبهم ما يدل على الوضع الجديد[٤] ، ومن ثم فإن اللقب الجديد إنما يدل على أن حكم «أب كرب أسعد» ، قد امتد إلى التهائم — بأعرابها وقراها — وإلى قبائل «معد» ، التي تمتد منازلها من نجران إلى مكة ونجد[٥] .

---

(١) جواد علي ٢/٥٧٤ . وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., IV, P. 273.
وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 492, 1955, P. 308.

(٢) Le Museon, 1964, 3-4, P. 492.
وكذا F. Altheim and R, Stiehl, op. cit., P. 273.

(٣) Le Museon, 1964, 3-4, P. 492.

(٤) أنظر : مثال لذلك من تاريخ مصر الفرعونية من عهد « منتوحتب الأول » من الأسرة الحادية عشرة ، حيث غير الملك لقبه ثلاث مرات (راجع كتابنا « حركات التحرير في مصر القديمة » — دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٦ ص ٩٦—٩٨) .

(٥) جواد علي ٢/٥٧١—٥٧٢ ، وكذا Die Araber, II, P. 321, IV, P. 274

وقد عثر « جون فلبي » في وادي مأسل الجمح – على الطريق بين مكة والرياض – على كتابة دونت بمناسبة إقامة حصن في هذا المكان ، عرفت بـ (فلبي ٢٢٧)[1] ، وقد استطاع العلماء أن يستخلصوا منها نتائج عدة ، منها (أولاً) أن هذا المكان من جملة الأرضين ، التي تخضع للملك «أب كرب أسعد» ، ومن ثم فإن نفوذه قد تجاوز اليمن حتى بلغ تلك المنطقة من «نجد» ، والتي كانت تعد من منازل « معد »[2]. ومنها (ثانياً) أن « أب كرب أسعد » قد أقام هذا الحصن في وادي مأسل ، ليكون معقلاً لقوات سبئية تحمي هذا الطريق ، الذي يربط اليمن بنجد وبشرق الجزيرة العربية ، من هجوم القبائل التي كانت تغير على قوافل التجارة[3] ، ومنها (ثالثاً) أن الهمداني كان قد ذكر أن « مأسل الجمح » إنما كان من مواضع « نمير » ، وهو إسم قريب من إسم قبيلة (Nomeritae) التي ذكرها بليني ، ومن ثم فقد ذهب البعض إلى أن « مأسل الجمح » إنما كانت من مواضع « نمير » على أيام « بليني » (٣٢–٧٩م) وبعده[4] : ومنها (رابعاً) أن النص إنما يذكر أن إسم والد « أب كرب أسعد » إنما هو « حسان ملكيكرب يهأمن » ، وليس «ملكيكرب يهأمن » ، ومن ثم فقد تساءل البعض : هل نحن أمام ملك واحد ، أما أمام ملكين مختلفين[5] ؟.

بقيت نقطة أخيرة تتصل بذلك الطريق البري، الذي يربط المناطق المرتفعة الزراعية بالمناطق الشمالية ، حيث يصل إلى شمال الطائف ، ويتصل بطريق الحجاز ، ويعرف بـ « درب أسعد كامل » – نسبة إلى الملك أب كرب أسعد – والطريق دون شك ، يعد تحولاً خطيراً في الطرق البرية القديمة ، التي كانت منتشرة في حافة الصحراء الشرقية المتصلة بالجوف ، إذ يشير إلى تحول هذا الطريق من الأرض السهلة إلى

(١) Le Museon, 1951, 1-2, P. 99, 1953, 3-4, P. 303.
وكذا J.B. Philby Motor Tracks and Sabaean Inscriptions in Najd, GJ, CXVI, 1950, P. 211-215.

(٢) جواد علي ٢/٥٧٣ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 492.

(٣) J.B. Philby. in GJ, 1950, CXVI, 4-6, P. 214.

(٤) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 120.

(٥) جواد علي ٢/٥٧٣–٥٧٤ .

الهضاب التي يعيش عليها المزارعون ، الذين يعيشون على الزراعة التي تعتمد على المطر ، وقد شمل هذا التحول فيما شمله طريق البخور واللبان القديم[1] .

ويروي الأخباريون أن الذي خلف «أب كرب سعد» ، إنما هو «ربيعة بن نصر اللخمي» ، وأنه قد رأى رؤيا هالته فسار بأهله إلى العراق وأقام بالحيرة وحكم فيها ، ومن عقبه كان « النعمان بن المنذر » ملك الحيرة[2] ، ثم عاد المُلْك إلى «حسان بن تبان بن أب كرب » ، وهو — فيما يرى البعض — أخو زرقاء اليمامة التي صلبت على باب مدينة «جو» ، والتي سميت فيما بعد « اليمامة » نسبة إليها[3] — الأمر الذي ناقشناه من قبل —

على أن « جون فلبي » قد جعل العرش بعد وفاة « أب كرب أسعد » لشقيقه « ورو أمر أيمن » (٤١٥–٤٢٥م) ، ثم إلى ابن أخيه «شرحبيل يعفر» والذي حكم في الفترة (٤٢٥–٤٥٥م) على رأي « فلبي »[4] وفي الفترة (٤٢٠–٤٥٥م) على رأي هومل[5] . وإن كان « فلبي » عاد مرة أخرى فحدد له الفترة التي حددها « هومل »[6] — ولعل من الغريب أن يتجاهل « فلبي » « حسان يهأمن » بن « أب كرب أسعد » — رغم أنه ذكر في نص (فلبي ٢٢٧) ونعت بأنه « ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال وفي التهائم »[7] .

ويروي الأخباريون أن « حسان » قد سار بأهل اليمن يريد أن يطأ أرض العرب والعجم ، فلما كان بالعراق كرهب قبائل اليمن المسير معه ، فكلموا أخاه عمراً في

---

(١) جواد علي ٢/٥٧٦–٥٧٧ ، وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 423, 493.

(٢) ابن الأثير ١/٤١٨–٤٢٠ ، صبح الأعشى ٥/٢٣ .

(٣) ابن كثير ٢/١٦٧ ، أخبار الزمان ص ١٢٤–١٢٦ ، ياقوت ٥/٤٤٢–٤٤٧ ، البكري ٢/٤٠٧ ، المعارف ص ٢٧٤–٢٧٥ ، مروج الذهب ٢/١١١–١١٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٤–٢٥ ، المقدسي ٣/١٧٨ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٤٢–١٤٣ .

(٤) J.B. Philby, op. cit., P. 143.

(٥) جواد علي ٢/٥٧٧ ، وكذا Handbuch, P. 104.

(٦) Le Museon, 1961, 1-2, P. 174. وكذا J.B. Philby, Arabian Highlands, P. 460

(٧) جواد علي ٢/٥٧٨ .

قتله وتمليكه من بعده ، وهكذا قتل عمرو أخاه ، غير أنه بمجرد عودته إلى اليمن قد أصيب بمرض نفسي جعله يفقد القدرة على التحكم في الأمور ، مما أدى به في نهاية الأمر إلى أن يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه ، ثم لم يلبث أن هلك[١] ، ويزعم الأخباريون أن الحميريين قد تفرقوا بعد هلاك عمرو ، فاغتصب العرش رجل من غير الأمراء ، دعوه « لخنيعة ينوف ذو شناتر » فقتل خيار القوم ، وعبث بأعراض الناس ، حتى قتله « ذو نواس » – في رواية مزرية سجلها الأخباريون في كتبهم – ثم جلس على العرش من بعده[٢] .

وعلى أي حال ، فإذا ما عدنا مرة أخرى إلى عهد « شرحبيل يعفر » ، لوجدنا أنفسنا أمام نص خطير (جلازر ٥٥٤) ، يتحدث عن تصدع سد مأرب ، وما قام به الملك إزاء هذا الحادث الخطير ، حيث نقرأ في النص أن « شرحبيل يعفر » قد قام بتجديد بناء السد وترميمه على مقربة من « رحب » وعند « عبرن » ، فضلاً عن إصلاح أجزاء منه حتى موضع « طمحن » (طمحان) ، وحفر مسايل المياه وبناء القواعد والجدران بالحجارة وتقوية فروعه ، وبناء أقسام جديدة بين « عيلان » و « مفكول » (مفلل) ، وتجديد سد « يسرن » ، ويذكر النص أن هذه الأعمال قد تمت في عام ٥٦٤/٥٦٥ من التقويم الحميري ، الموافق عام ٤٤٩/٤٥٠ من التقويم الميلادي[٣] .

---

(١) ابن كثير ١٦٧/٢ ، إبن الأثير ٤٢٠/١–٤٢١ ، تاريخ الطبري ١١٥/٢–١١٧ ، أبو الفداء ٦٨/١ ، الميداني ٧٣/١–٧٤ ، الإشتقاق ٥٢٣/٢ ، المقدسي ١٧٨/٣ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٤٢–١٤٥ .

(٢) ابن كثير ١٦٧/٢–١٦٨ ، تاريخ الطبري ١١٧/٢–١١٩ ، المعارف ص ٢٢٧ ، إبن الأثير ٤٢٤/١–٤٢٥ .

(٣) جواد علي ٥٧٩/٢–٥٨١ ، وانظر الفصل التاسع من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » –الجزء الأول– وكذا

E. Glaser, MVG, II, 1897, P. 372-379

وكذا A. Sprenger, op. cit. P. 13.

وكذا J.B. Philby, The Background of Islam, 1947, P. 118.

وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 493-494.

هذا ويتحدث النص كذلك عن انتشار عقيدة جديدة ، فهو يشير إلى ظهور « رب السماء والأرض » ، حيث نقرأ فيه « بنصر وردا إلهن بعل سمين وأرضن » أي « بنصر وبعون الإله رب السموات والأرض » ، وهي عقيدة ظهرت عند أهل اليمن بعد الميلاد بتأثير اليهودية والنصرانية ولا شك[1] .

وينتقل العرش بعد « شرحبيل يعفر » إلى « عبد كلال » والذي حكم في الفترة (٤٤٥-٤٦٠م) على رأي « فلبي » و « هومل »[2] ، وإن كان « فلبي » قد رأى أن الرجل كان كاهناً وشيخاً لقبيلة ، نجح — بمساعدة الأحباش — في اغتصاب العرش لمدة خمس سنين[3] ، هذا وقد ذكره الأخباريون بين ملوك حمير ، وأنه كان يدين بالنصرانية سراً ، وبالمصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — قبل مبعثه — شأنه في ذلك شأن سبأ ، وأب كرب أسعد — وأن من ولده «الحارث بن عبد كلال» ، وهو أحد الذين وفدوا على النبي — صلى الله عليه وسلم — فأفرشهم رداءه[4] ، غير أنهم يرونه قد تولى العرش بعد وفاة « عمرو بن تبان أسعد » ، فملك أربعاً وتسعين سنة — وهو تبع الأصغر — ثم خلفه أخوه « مرثد » ، وقد ملك سبعة وثلاثين عاماً[5] ، وقد أدى تشابه الإسمين (عبد كلال الذي جاء في نص جلازر ٧ ، وعبد كلال عند الأخباريين) إلى أن يرى بعض العلماء أن الأسمين لرجل واحد ، وأنه كان ملكاً[6] .

ويروي الهمداني أن « حسان بن عبد كلال » أقبل من اليمن ، « في حمير وقبائل من اليمن عظيمة ، يريد أن ينقل أحجار الكعبة من مكة إلى اليمن ، ليجعل حج البيت عنده ، وإلى بلاده » ، فأقبل حتى نزل « نخلة » ، فخرج إليه القرشيون بقيادة فهر بن مالك ، حيث دارت بينهما معركة ضارية ، إنتهت بانتصار قريش ،

---

(١) جواد علي ٨٢/٢ ، وكذا D.S. Margoliouth, op. cit., P. 68.
(٢) J.B. Philby, op. cit., P. 143.
(٣) J.B. Philby, Arabian, Highlands, P. 260.
(٤) منتخبات ص ٩٣ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٧٠ ، الإكليل ١٣٠/٢ .
(٥) وهب بن منبه : المرجع السابق ص ٢٩٩ ، صبح الأعشى ٢٣/٥ .
(٦) جواد علي ٥٨٤/٢ .

وأيهر « حسان بن عبد كلال »[1] ، فإذا كان ذلك كذلك ، فإن حملة أبرهة على مكة كانت سابقة يمنية من قبل ، ثم إذا ما تذكرنا أن هناك من يرى — كما أشرنا آنفاً — أن « عبد كلال » إنما اغتصب عرشه بعون من أكسوم ، فهل هذا يعني أن الحبشة النصرانية كانت وراء تلك الحملة ؟ لست أدري ، فتلك أخبار لا يوثق بها كثيراً ، ثم إن الهمداني يرفض القصة من أساسها ، وإن كان هناك من يتهمه بأنه متعصب ، لا يؤيد حرباً تنتصر فيها قريش على اليمن ، ثم يضع تبعة نقل حجارة الكعبة من مكة الى اليمن على عاتق « هذيل بن مدركه » أحد سادات مكة[2] ، وإن لم يبين لنا لماذا فعل « هذيل » ذلك ؟ وما الفائدة التي تعود عليه من فعله هذا ؟ .

وعلى أي حال ، فلقد جاء بعد ذلك « شرحب إيل يكف » (٤٦٠—٤٧٠م) فولداه « معد يكرب يهنعم » و « لحيعث ينوف » (٤٧٠—٤٩٥م) على رأي هومل[3] ، و « نوف » (٤٧٠—٤٨٠م) ، ثم « لحيعث ينوف » (٤٨٠—٥٠٠م) على رأي فلبي[4] ، وربما كان الأخير هو « لختيعة تنوف ذو شناتر » عند الإخباريين ، والذين رأوا أنه حكم سبعاً وعشرين سنة[5] ، ثم جاء « مرثد ألن ينوف » (٤٩٥—٥١٥م) ثم « ذو نواس » (٥١٥—٥٢٥م) ، وهو « زرعة ذو نواس بن تبان أسعد أب كرب » والذي سمى «يوسف» بعد تهوده ، وإن ذهب البعض إلى أنه من غير الأسرة المالكة[6] ، وأن السبب في تسميته « ذى نواس » أن كانت له ذؤابتان تنوسان على عاتقه[7] ، وعلى أي حال ، فهو الملك الذي احتل الأحباش اليمن في عهده ، وبقوا فيها قرابة

---

(١) الإكليل ٣٥٧/٢—٣٥٩ ، تاريخ الطبري ٢٦٢/٢—٢٦٣ .
(٢) الإكليل ٣٥٩/٢ ، جواد علي ٥٨٥/٢
(٣) جواد علي ٥٨٧/٢ ، وكذا Handbuch, P. 105.
(٤) J.B. Philby, The Background of Islam, P. 143.
وكذا Le Museon, 1961, 1-2, P. 174.
(٥) تاريخ الطبري ١١٧/٢ ، صبح الأعشى ٢٤/٥ ، تاريخ اليعقوبي ١٩٩/١ .
(٦) ابن الأثير ٤٢٥/١ ، المعارف ص ٣١١ ، مروج الذهب ٥٢/٢ ، وهب بن منبة : المرجع السابق ص ٣٠٠ .
(٧) تاريخ اليعقوبي ١٩٩/١ ، المعارف ص ٢٧٧ ، تفسير القرطبي ٢٩٣/١٩ .

نصف قرن من الزمان ، وإن كانت هذه ليست هي المرة الأولى التي يغزو الأحباش فيها اليمن ، فذلك أمر له سوابق خلت من قبل[1] — كما رأينا آنفاً — .

الإحتلال الحبشي لليمن

كانت اليهودية بدأت تأخذ طريقها إلى اليمن منذ فترة طويلة ، وإن ازدادت منذ تدمير بيت المقدس على يد « تيتوس » في عام ٧٠م ، ومن ثم فإن أصحاب هذا الإتجاه الأخير يرون أننا لو تفحصنا أسماء اليهود المقيمين في بلاد العرب ، لرأينا أن معظمهم أراميون وعرب متهودون ، وليسوا من ذرية إبراهيم الخليل من ولده إسحاق ، عليهما السلام[2] ، أو منذ تهود « أب كرب اسعد » وفرضها على الحميريين — طبقاً لرواية أخرى ، سبق لنا الإشارة إليها — أو منذ تهود ذي نواس ، سواء أكان ذلك رغبة منه في أن يقاوم ديناً سماوياً بدين سماوي آخر ، ومن ثم فهو يمثل الروح القومية في اليمن ، حين رأى في النصارى من مواطنيه ما يذكره بحكم الأحباش المسيحيين البغيض[3] ، بخاصة وأن المسيحية قد أصبحت وقت ذاك تستند إلى قوة الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في غزو اليمن[4] ، أو لأنه كان في الأصل — طبقاً لرواية ابن العبري — من أهل الحيرة ، وأن أمه يهودية من « نصيبين » وقعت في الأسر فتزوجها والد يوسف فأولده منها ، ومن ثم فهو يهودي وفد على اليمن من الحيرة[5] ، سواء أكان هذا أو ذاك ، فالذي يهمنا هنا أن الفرقة الداخلية —التي ترجع في الدرجة الأولى إلى دخول اليهودية والمسيحية إلى بلاد العرب الجنوبية— بدأت تدفع البلاد في طريق الإضمحلال[6] .

---

(١) A. Grohmann, Arabian, 1963, P. 29. وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 61.

(٢) P.K.Hitti, op. cit., P. 61.

(٣) Bont-Maury, L'Islamisme et le Christianisme en Afrique, Paris, 1906, P. 47. وكذا P.K. Hitti, op. cit., e. 62.

(٤) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٤٥ .

(٥) جواد علي ٥٩٣/٢ ، قارن : الإكليل ٦٣/٢ ، وانظر : F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, P. 630.

(٦) موسكاتي : المرجع السابق ص ١٩٣ .

وهكذا فإن ظروف اليمن الداخلية كانت من أهم العوامل التي مهدت للفتح الأثيوبي لليمن ، ذلك لأننا نقرأ في نقش (فلبي ٢٢٨) عن حرب داخلية أستعر أوارها قبيل الغزو الحبشي (وربما في عام ٥١٦م) ، واشتركت فيها قبائل سبأ وحمير ورحبة وكندة ومضر وثعلبة[١] ، ومن ثم فقد مهدت هذه الفتنة الطريق للأحباش بسبب الخصومات القبلية القديمة بين القبائل ، والتي أدت إلى ظهور الروح القبلية ، التي لا تعرف طريقاً للتعاون القومي ، إلا إذا كان من أجل القبيلة وفي مصلحتها ، دونما أي اهتمام بما يجره ذلك على الكيان القومي للبلاد من نكبات ، قد تودي باستقلال البلاد وخضوعها للأجنبي .

ونقرأ في نصي (ريكمانز ٥٠٧ ، ٥٠٨) — ويرجعان إلى عام ٥١٨م — إشارات عن حرب بين الأحباش وملك حميري ، هو «يسف أسأر» (يوسف اسار) ، ولعل عدم الإشارة هنا إلى اللقب الملكي الطويل ، ربما يعني أن سلطان « ذى نواس » لم يكن يمتد إلى كل بلاد العرب الجنوبية ، وإنما كان مقصوراً على أجزاء منها ، وأن الأحباش — فضلاً عن الأقيال اليمنيين — إنما كانوا يشاركونه هذا السلطان ، فظفار ومجاوراتها كانت في أيدي الأحباش ، كما كان الأقيال قد كونوا حكومات إقطاعية في إماراتهم ، كما كانوا يثيرون الفتن والقلاقل في أنحاء البلاد ، وهكذا كانت الأحوال الداخلية قلقة ، مما جعل البلاد آخر الأمر لقمة سائغة في أيدي المستعمرين الأحباش[٢] ، بل إن نص (ريكمانز ٥٠٨) ليشير إلى حرب وقعت بين الملك يوسف أسار من ناحية ، وبين الأحباش ، ومن كان يؤيدهم من أقيال اليمن ، من ناحية أخرى ، وأن الملك قد هاجم « ظفار » و « مخا » واستولى على كنائسها ، وإن كان أشد القتال إنما كان بينه وبين قبيلة « الأشاعر » ، حيث قتل منهم ثلاثة عشر ألفاً ، وأسر تسعة آلاف وخمسمائة أسير ، كما استولى على ٢٨٠ ألف رأس من الإبل والبقر والماعز ، ثم إتجه بعد ذلك إلى «نجران» حيث أنزل بالأحباش ومن سار في ركابهم ، خسائر فادحة[٣] .

---

(١) أنظر : GJ, Vol., CXVI, 4-6, 1950, P. 214

(٢) جواد علي ٢/٥٩٥-٥٩٦ ، وكذا Le Museon, 1953, 3-4, P. 284.

(٣) BSOAS, XVI, 1954, Part, 3, P. 434. وكذا Lo Museon, 1953, 3-4, P. 296,

وعلى أي حال ، فإن المؤرخين إنما يقدمون عدة أسباب لغزو الحبشة لليمن منها (أولاً) الرغبة في السيطرة على اليمن لضمان توزيع البضائع الحبشية ، دون أن تتعرض لاعتداءات الحميريين[1] ، ومنها (ثانياً) أن عداوة الحبش للعرب قديمة ، نشأت منذ أن كان عرب اليمن يخطفون الأحباش من سواحل الحبشة ويبيعونهم أرقاء في بلاد العرب ، حيث وجد الحبش في الحجاز[2] ، ومنها (ثالثاً) أن بلاد العرب الجنوبية كانت تقوم في ذلك الوقت بنفس الدور الذي تقوم به مصر الآن بعد حفر قناة السويس ، نظراً لمركزها الهام على البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وحيث يوجد مضيق باب المندب ، وفي تلك الأيام كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية حريصة على انتزاع هذه المكانة وإعطائها لمصر ، ومختلف الولايات الرومانية الشرقية الأخرى ، التي تستطيع الإفادة من مركزها الجغرافي ، وبخاصة فإن المسيحية كانت قد استقرت في كثير من الولايات الرومانية الشرقية ، حتى اضطر « قسطنطين » (٣٠٦–٣٣٧م) في عام ٣١١م إلى السماح بانتشار المسيحية في بلاده[3] .

وهنا بدأ الرومان يفكرون في استغلال الدين لضم بلاد العرب الجنوبية إلى إمبراطوريتهم ، فعمدوا إلى إرسال البعثات التبشيرية لتلك البلاد ، لنشر المسيحية بين الحضر والبادية من جهة ، ولتهيئة الأفكار والنفوس لقبول النفوذ الروماني من جهة أخرى[4] . ومن ثم فلم يكن تعذيب ذى نواس للنصارى في بلاده ، هو السبب الحقيقي للغزو الحبشي في اليمن ، ودليلنا على ذلك أن المصادر الإغريقية — بل والحبشية نفسها — إنما تذهب إلى أن الأحباش قد أغاروا على اليمن قبل قصة التعذيب هذه بسنين ، وأنهم قد انتصروا على « ذى نواس » واضطروه إلى الإلتجاء إلى الجبال

---

(١) مراد كامل : مقدمة كتاب « سيرة الحبشة » للحيمي الحسن بن أحمد ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦–٧ ؛ عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٢) يوسف أحمد : الإسلام في الحبشة ، القاهرة ١٩٣٥ ص٦–٧ : عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠١ .

(٤) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٣٦ .

إلا أنه استطاع بعد فترة أن ينجح في لمّ شمل جنده ، وأن يهاجم الأحباش وينتصر عليهم ، وأن يغير على « نجران » ويتمكن من الإستيلاء عليها ، بعد حصار دام سبعة أشهر [1] ، ثم ينتقم من أهلها شر انتقام [2] ، بل إن تدخل الأحباش في شئون اليمن ومحاولة غزوها ، قد بدأ – كما أشرنا من قبل – منذ القرن الرابع الميلادي ، وبعد وفاة « شمر يهرعش » وقبله .

وهكذا اتفقت مصالح الأحباش والرومان في السيطرة على بلاد العرب الجنوبية ، وكانت سياسة « ذى نواس » التي تربط بين إنتشار المسيحية في اليمن ، وبين ازدياد نفوذ الأحباش في البلاد ، سبباً في أن يتخذ من نصارى اليمن موقفاً عدائياً ، وكان ذلك ذريعة وجدها الرومان للقضاء على استقلال اليمن ، ولكن دون التدخل المباشر ، وإنما بتحريض الأحباش على غزوها ، بل إن هناك من يذهب إلى أن الروم قد اشتركوا بطريقة فعلية في غزو اليمن عن طريق إرسال أسطولهم من مصر ، محملاً بالأسلحة والمؤن إلى الثغور اليمنية ، ولعل الأمبراطور « جستين الأول » (٥١٨– ٥٢٧م) قد اتخذ هذه الخطوات نتيجة لأطماع الفرس التي ازدادت في بلاد العرب حتى أنهم استقروا في سواحل الخليج العربي كالبحرين [3] .

---

(١) J.B. Bury, op. cit., P. 323.

(٢) راجع عن قصة ذى نواس مع نصارى نجران والمعروفة بقصة أصحاب الأخدود : الفصل العاشر من الجزء الأول من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » ، ثم أنظر : (تاريخ الطبري ٢/١٢١–١٢٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٥٩–٦٠ ، تاريخ الخميس ص ٢١٩–٢٢٠ ، تاريخ اليعقوبي ١/١٩٩–٢٠٠ ، ابن الأثير ١/٤٣٠–٤٣٢ ، إبن كثير : البداية والنهاية ٢/١٢٩–١٣١ ، ١٦٢–١٦٩ ، المعارف ص ٢٧٧ ، كتاب المحبر ص ٣٦٨ ، الأخبار الطوال ص ٦١–٧٢ ، ياقوت ٥/٢٦٦–٢٦٨ ، مروج الذهب ١/٨٠–٨١ ، ٢/٥٢ ، المقدسي ٣/١٨٢–١٨٤ ، قصص القرآن ص ٢٩١–٢٩٣ ، تفسير الطبري ٣٠/١٣٣–١٣٤ ، تفسير البيضاوي ٢/٥٥٠ ، تفسير روح المعاني ٣٠/٨٨–٨٩ ، تفسير الفخر الرازي ٣١/١١٨ ، تفسير الكشاف ٢/١٥٩٤ ، تفسير القرطبي ١٩/٢٨٦–٢٩٣ .

(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٧٤ ، البلاذري : فتوح البلدان ص ٧٨ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٤٨ ، وكذا Graetz, History of the Jews, III, P. 88. وكذا A. Kammerer, la Mer Rouge , L'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, le Caire, 1929.

وهناك رواية تذهب إلى أن السبب المباشر لغزو الحبشة لليمن ، إنما كان لأن الملك الحميري « دميون » (دميانوس) ، كان قد أمر بقتل التجار الروم الذين كانوا في بلاده ؛ وبنهب أموالهم ، وذلك بسبب اضطهاد اليهود وإساءة معاملتهم في بلاد الروم ، مما أدى إلى أن يتجنب تجار الروم الذهاب إلى الحبشة واليمن ، أو حتى المناطق القريبة من « حمير » ،ومن هنا رأى البعض أن بعثة « ثيوفيلوس » التبشيرية إنما كانت لضمان حسن نية الأمراء اليمنيين إزاء تجار الروم ، غير أن تلك البعثة قد فشلت في تحقيق أهدافها بسبب نفوذ الفرس في اليمن وقت ذاك ، وقد أثر ذلك كله في التجارة مع الحبشة تأثيراً سيئاً، وهنا اضطر النجاشي إلى أن يقدم عروضاً رفضها الملك الحميري ، مما كان سبباً في نشوب الحرب بينهما ، وتزعم الرواية أن النجاشي كان حتى تلك اللحظة ما يزال على الوثنية ، ومن ثم فقد عُرض عليه أن يعتنق النصرانية إن كتب له النُجْح على الحميريين ، وحين انتهت الحرب في صالحه اعتنق المسيحية ، وأرسل إلى قيصر يطلب منه إرسال عدد من رجال الدين ليعلموه العقيدة الجديدة ، وقد تمّ له ما أراد[1] .

وعلى أي حال ، فإن الكتابات العربية الجنوبية قد أشارت إلى غزو الأحباش لليمن ، ذلك أن نقش حصن غراب ، والمعروف بـ (REP, EPIGR, 2633) — ويرجع تاريخه إلى عام ٥٢٥م — إنما يشير إلى أن الأحباش قد استولوا على اليمن في عهد ملك لم يذكر اسمه ، وأنهم قتلوا هذا الملك وأقياله[2] ، على أن « فنكلر » إنما يذهب إلى أن هذا الملك إنما هو « ذو نواس » ، وأنه البادىء بهذه الحرب ، وأن أصحاب النص (السميفع أشوع وأولاده) كانوا من أنصار الملك الحميري ، على غير رغبة منهم ، وأن المعارك قد انتهت بانتصار الأحباش ، ومن ثم فإن

---

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٣٩ ، ٤٥-٤٦ ، جواد علي ٣/٤٦٨-٤٦٩ ، وكذا J.B. Bury, op. cit., P. 322. وكذا ZDMG, VII, P. 357 وكذا E. Glaser, Die Abessinier in Arabien und Africa, 1895, P. 175.

(٢) جواد علي ٣/٤٥٩-٤٦٠ وكذا E. Glsaer, op. cit., P. 131-132. وكذا REP, EPIGR, V, I, P. 5.

« السميفع أشوع » وأولاده ، قد اضطروا إلى الإلتجاء إلى حصن « ماوية » حتى انتهت العاصفة ، ثم عقدوا صلحاً مع السادة الجدد[1] .

وقد اهتمت المصادر المسيحية المعاصرة بغزو الحبشة لليمن ، ومنها « قزماً » الذي كان في الحبشة إبان الاستعدادات لغزو اليمن ، وقد سجل لنا قصة الغزو ، مما بعد وقوعها بخمس وعشرين سنة ، وقد ذهب إلى أن الحملة إنما تمت في أوائل أيام القيصر « جستين الأول »[2] ، بل إن « ثيوفانس » و « سدرينوس » قد حدداها بالعام الخامس من حكم هذا القيصر ، أي في عام ٥٢٣م ، وأن سبب الحملة إنما كان تعذيب « ذي نواس » — الذي قتل في المعارك — لنصارى نجران ، على أنهما إنما يشيران إلى غزو ثان ، قام به الملك الحبشي «أداد» ضد ملك حمير « دميانيوس » ، في العام الخامس عشر من عهد القيصر « جستنيان » (٥٢٧—٥٦٥م) ، أي في عام ٥٤٢م[3] .

ولعل من أهم الوثائق المسيحية التي تتصل بتعذيب نصارى نجران ، إنما هي رسالة « مار شمعون » ، أسقف بيت رشام ، إلى رئيس أساقفة « دير جبلة » ، وفيها يتحدث « مار شمعون » كيف عرف بنبأ تعذيب نصارى نجران من رسالة من ملك حمير إلى ملك الحيرة ، يطلب منه فيها أن يفعل بنصارى مملكته ، ما فعله هو بنصارى نجران ، وأن شمعون قد تأكد بنفسه من الحادث عن طريق رسوله الذي أرسله إلى نجران ليتحرى الحقائق ، ومن ثم فقد وجه نداء إلى كل الأساقفة الرومان ، وإلى

---

(١) جواد علي ٣/٤٦٠ ، وكذا
H. Winckler, Zur Alten Geschichte Yemens und Abessiniens, AOF, IV, 1896, P. 327.

(٢) جواد علي ٣/٤٦١ ، وكذا Procopius, History of the Wars
وكذا Cosmas, P. 141 وكذا A. Musil, Palmyrena, P. 336.
وكذا J.B. Bury, op. cit., II, P. 323.

(٣) ZDMG, 31, 1877, P. 67. وكذا E. Gibbon, op. cit., II, P. 625.
وكذا Cerdenus, I, P, 656 وكذا Theophanes, I, P. 346.

بطريق الاسكندرية وإلى أحبار طبرية ، طالباً منهم بذل الجهود لإيقاف هذه المذابح البشرية ، ورغم ما تفيض به الرسالة من عواطف شخصية ، ومن مبالغات متعمدة لإثارة الحمية الدينية عند رجال الدين المسيحي ، ورغم أن ما جاء بها على لسان ملك حمير ، إنما هو من كلام مار شمعون ، وليس من كلام الملك الحميري ، فإن الرسالة بصفة عامة صحيحة ، ومن ثم فهي وثيقة تاريخية يمكن أن ينظر إليها باهتمام[1] .

وهناك رواية يونانية تذهب إلى أن « ذا نواس » (Dunaas) ملك حمير . قد عذب نصارى نجران ، في العام الخامس من عهد «جستين الأول» (٥١٨–٥٢٧م) ومن ثم فقد قام نجاشي الحبشة بغزو حمير ، وفر « Dunaas » إلي الجبال ، حتى إذا ما واتته الفرصة انقض على الجيش الحبشي ، فأباده واحتل نجران ، مما اضطر الأحباش إلى القيام بحملة ثانية انتصرت على الملك الحميري ، وعينت مكانه « Abrames »[2] .

على أن هناك رواية أخرى — يونانية كذلك — تذهب إلى أن الذي قضى على ذى نواس ، إنما هو قيل من اليمن يدعى «إيدوج» وذلك بسبب اضطهاد التجار المسيحيين الروم ، رداً على اضطهاد الروم لليهود : مما أدى في نهاية الأمر إلى أن يمتنع جميع التجار المسيحيين من دخول اليمن ، فأصيبت الأسواق التجارية اليمنية بالكساد ، وساءت الأحوال الاقتصادية في البلاد . وقد أدى ذلك كله إلى أن يجمع « إيدوج » الأقيال من حوله ، وأن يعلن الثورة ضد ذى نواس وأن يقتله ، بل ويعتنق المسيحية[3] .

---

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٥٥–٥٦ ، جواد علي ٣ /٤٦ ، النصرانية ١/٦١ ، مجلة المجمع العلمي ، المجلد ٢٣ عام ١٩٤٨ ص ١٨ (دمشق) .
وكذا J.B. Bury, op. cit., P. 322. وكذا ZDMG, 35, 1881, P. 2-4.

(٢) جواد علي ٣/٤٦٣ ؛
وكذا ZDMG, 31, 1877, P. 67 وكذا Graetz, op. cit., P. 88

(٣) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٤٦–٤٧ ؛
وكذا Graetz, History of the Jews, III, P. 408-409.

هذا النص يعضد ما ذهب إليه « بركوبيوس » من أن الذي حكم حمير بعد « ذى نواس » إنما هو « Esimiphaeus » (السميفع أشوع = سام يفع أشوع)[1] . على أنه لم يكن في الواقع إلا تابعاً لملك الحبشة ، وأنه قد بدأ حكمه في عام ٥٢٥م[2] .

وما أن تمضي سنون ستة ، حتى تبدأ البقية الباقية من جنود الحبشة في اليمن الثورة (في عام ٥٣١م) على « السميفع أشوع » ثم محاصرته في إحدى القلاع ، وتعيين « أبراهام » — وهو عبد نصراني كان مملوكاً لتاجر يوناني في مدينة عدولي — في مكانه ، وقد حاول النجاشي أن يقضي على هذه الثورة ، غير أن هزيمة قواته التي أرسلها مرة بعد أخرى ، جعلته يتقبل الوضع على علاته ، وما أن تنتهي حياته في هذه الدنيا ، حتى يسرع « أبراهام » (أبرهة) إلى عقد صلح مع خليفته يدفع له بمقتضاه جزية سنوية ، في مقابل أن يعترف النجاشي الجديد به نائباً للملك في اليمن[3] .

وتتجه المصادر العربية إتجاهاً مغايراً في كيفية وصول « أبرهة » إلى السلطان في اليمن ، فتذهب رواية إلى أنه جاء إلى اليمن جندياً تحت قيادة « أرياط » الذي فتح اليمن ، ولكن ما أن تمضي سنوات معدودات حتى ينازعه السلطان ، ثم يغدر به ويأخذ مكانه ، بينما تذهب رواية أخرى إلى أن النجاشي إنما كان قد أرسل جيشين ، أحدهما تحت قيادة « أبرهة » الذي نجح في أن يصبح ملكاً على صنعاء ومخاليفها بعد مقتل «ذى نواس» ، ومن ثم فقد غضب النجاشي وأرسل إليه جيشاً تحت قيادة « أرياط » ، فما أن حل بساحته ، حتى عرض عليه « أبرهة » أن يبارزه ، فأيهما ظفر بصاحبه كان المُلْك له ، فرضي أرياط بذلك ، وتبارزا ، ونجح أبرهة في أن

---

(١) جواد علي ٤٧٢/٣ ، وكذا Procopius, I, XX, 1.2

(٢) G. Hunt, Himyaric Inscriptions of Hisn Ghurab, 1848
وكذا CIH, 621, CIH, IV, III, I, P. 54 وكذا J.R. Wellsted, op. cit., P. 21.
وكذا جواد علي ٤٧٥/٣ وكذا Le Museon, LXIII, 3-4, 1950, P. 271

(٣) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 92, 120
وكذا John Malala, XVIII, 457. وكذا J.B. Bury, op. cit., P.324.

يوقع بأرياط عن طريق غلام له — هو عتودة — الذي كافأه أبرهة بألا تدخل عروس على زوجها في اليمن ، قبل أن يصيبها قبله ، مما كان سبباً في أن يدفع حياته ثمناً لرغبته اللئيمة هذه[1] .

وهكذا أصبح « أبرهة » (أبراهام) حاكماً على اليمن[2] ، وإن اعترف إسمياً بأنه « عزلي ملكن أجعزين » أي « نائب ملك الأجاعزة » على اليمن ، وليس هناك من دليل على أن أبرهة لم يكن الحاكم المطلق على اليمن ، ولم يترك لنجاشي أكسوم غير الإسم ، حتى أنه دعاه في نص (جلازر ٦١٨) وفي نص (CIH, 541) « بملك الجعز » فحسب ، بينما أطلق على نفسه في نفس النص « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال والتهائم » ، وهو ما يزال بعد — من الناحية الإسمية على الأقل — « نائب ملك الجعز[3] » .

وعلى أي حال ، فإن النص المذكور يشير إلى تهدم « سد سبأ » وترميمه في عام ٥٤٢م[4] — الأمر الذي ناقشناه في الجزء الأول من كتابنا «دراسات في التاريخ القرآني» — غير أن الذي يهمنا هنا تلك الثورة التي شبت بقيادة « يزيد بن كبشة » ، والذي عينه

---

(١) تاريخ الطبري ٢/١٢٧—١٣٠ ، ابن الأثير ١/٤٣١—٤٣٣ ، ابن كثير ٢/١٦٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٦٠—٦١ ، الأزرقي ١/١٣٦—١٣٧ ، تفسير القرطبي ٢٠/١٩٣—١٩٤ ، تفسير روح المعاني ٣٠/٢٣٣ ، تاريخ الخميس ص ٢٢٠—٢٢١ ، الأخبار الطوال ص ٦٢ ، اليعقوبي ١/٢٠٠ ، ابن هشام ١/٤٧—٤٨ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٩٨ .

(٢) جواد علي ٣/٤٨٠ .

(٣) جواد علي ٣/٤٨٤ ، وكذا
E. Glaser, Zwei Inschriftten den Dammbruch von Marib, II, 1897, P. 421

(٤) أنظر عن ترميم السد : كتابنا «دراسات في التاريخ القرآني» ، وكذا : جواد علي ٣/٤٨٣—٤٨٤ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٨٧ وكذا E. Glaser, MVG, II, 1897, P. 390
وكذا A.F.L. Beeston, in BASOR, 16, 1954.
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 587
وكذا Handbuch, P. 106 وكذا le Museon, 1953, 66, P. 340.
وكذا A. Sprenger, op. cit., P. 31-126.

« أبرهة » (Abramios=Abraham) نائباً عنه في قبيلة كندة ، وسرعان ما انضم إليه « معد يكرب » بن « السميفع أشوع » وبعض الزعماء اليمنيين ، ومن ثم فقد بدأت الثورة تنتشر في أجزاء كثيرة من اليمن ، حتى شملت حضرموت وحريب وذو جدن وحباب عند صرواح ، إلا أن أبرهة سرعان ما انتصر على الثوار وبطش بهم ، بمساعدة قبائل يمنية قوية ، ومن ثم فقد انصرف إلى إصلاح ما أفسدته الثورة في سد مأرب[1] ، وقد تم هذا الإصلاح الثاني في عام ٥٤٣م .

وتقرأ في نقش (ريكمانز ٥٠٦) — والذي يرجع تاريخه إلى عام ٥٣٥م، أو عام ٥٤٧م[2] — عن حرب أشعلها أبرهة ضد قبيلة «معد» ، وعن العلاقات بين ملوك الحيرة وحكام اليمن من الأحباش ، وعن نفوذ الأخيرين على قبائل مثل معد ، ولعل هذا يؤيد ما ذهب إليه الكتاب العرب من أن لليمن نفوذاً على قبائل معد ، وأن تبابعة اليمن كانوا ينصبون الملوك والحكام على هذه القبائل[3] .

ويبدأ أبرهة نصه هذا بقوله : « بخيل رحمنن ومسحهو » أي « بحول الرحمن ومسيحه» ، ثم يسبغ على نفسه الألقاب الملكية المعروفة للملوك سبأ ، ثم يتحدث بعد ذلك عن الحرب التي أشعلها ضد معد عند « حلبان » ، كما أمر رؤساء قبائل « كندة وعل وسعد » بالقضاء على ثورة « بني عامر » ، هذا ويشير النص كذلك إلى أن أبرهة قد انتصر على قبيلة مع[illegible] ، ثم أخذ الرهائن منها ، إنقاء لثورة أخرى قد تقوم بها ، [illegible] أن يبقى « عمرو بن المنذر » — الذي عينه أبوه « المنذر » أميراً على معد — [illegible]نه[4] .

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٣
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 121.

(٢) Le Museon, 66, 1953, P. 275.
وكذا A.F.L. Beeston, Notes on the Muraighan Inscriptions, in BASOR, 1954, P. 389.
وكذا S. Smith, Events in Arabia in the 6th Century A.D., P. 435.

(٣) جواد علي ٣/٤٩٤ .

(٤) E.A.W. Budge, A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, I, London, 1938, P. 266. وكذا Le Museon, 1953, 3-4, P, 277-279.
وكذا جواد علي ٣/٤٩٤–٤٩٦ .

وقد ذهب بعض الباحثين مذاهب شتّى في تفسيرهم لهذا النص ، فذهب البعض إلى أنه إنما يشير إلى حملة أبرهة على مكة في عام الفيل[1] ، وذهب آخرون إلى أنه إنما يشير إلى غزوة قام بها أبرهة تمهيداً لحملة كبيرة كان ينوي القيام به إلى أعلى شبه الجزيرة العربية ، ولكنه توقف عند مكة[2] ، بينما رفض فريق ثالث أن يربط بين الحملتين ، لأنهم يرون أن هذه الحملة إنما تمت في عام ٥٤٧م ، بينما كانت الأخرى في عام ٥٦٣م[3] ، وأخيراً فإن هناك فريقاً رابعاً يرى أن النص إنما يتحدث عن معركتين ، الواحدة قادها أبرهة عند « حلبان » ، والأخرى قامت به مجموعة قبائل من « تربة »[4] في بلاد بني عامر — وربما على مبعدة ثمانين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من الطائف[5] — .

وبعد أن فرغ أبرهة من القضاء على الثورات التي هبت ضده ؛ وبعد أن انتهى من ترميم سد مأرب ، انصرف إلى نشر المسيحية ومحاربة الأديان الأخرى في بلاد العرب . فقوّى ساعد مسيحيي بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ من «نجران» مركزاً رئيسياً لحملته الدينية ، فنجد جماعة مسيحية في صحراء اليمامة — في منتصف الطريق بين اليمن والحيرة — وفي يثرب ، وعلى إمتداد الطريق التجاري إلى فلسطين وسورية[6] وتبع ذلك إنشاء الكنائس في أنحاء مختلفة من اليمن ، لعل أهمها مأرب ونجران وصنعاء ، وفي هذه الأخيرة بنى كنيسته المشهورة «القُلَّيْس» بغية أن يصرف الحجيج من مكة إلى صنعاء ، فيكسب من ذلك فوائد مادية وسياسية وأدبية ؛ وبالتالي فقد كان

---

(١) جواد علي ٣/٤٩٥ ، وكذا Le Museon, 1965, 3-4, P. 426.
(٢) جواد علي ٣/٤٩٥ ، وكذا W. Caskel, Entdeckungen in Arabian, P. 30 وكذا Le Museon, 1965, 3-4, P. 426.
(٣) Le Museon, 1965, 3-4, P. 247.
(٤) جواد علي ٣/٤٩٦ وكذا BSOAS, 1954, P. 391 وكذا Le Museon, 1965, 3-4, P. 426
(٥) البكري ١/٣٠٨ .
(٦) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٤ .

ذلك سبباً في حملته المشهورة على مكة في العام المعروف بعام الفيل[1] — الأمر الذي ناقشناه في الفصل الحادي عشر ، من الجزء الأول من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » —

ويبالغ الأخباريون كثيراً في وصف «كنيسة القُلَّيْس» (وهي محرفة عن كلمة أكليسيا بمعنى كنيسة) ، حتى أنهم يروون أن أبرهة لما أتمّ بناءها كتب إلى النجاشي يقول : « إني قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبن العرب ولا العجم مثله »[2] أو « إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب »[3] .

وتذهب الروايات العربية إلى أن القليس إنما بنيت بجوار قصر غمدان ، وبحجارة من قصر بلقيس بمأرب ، وأن أبرهة قد كتب إلى قيصر الروم يطلب منه الرخام والفسيفساء ومهرة الصناع ، كما أنه قد استعمل في بنائها طبقات من حجر ذى ألوان

---

(1) أنظر عن حملة أبرهة على مكة : مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة »— مجلة كلية اللغة العربية — العدد السادس ، ١٩٧٦ من ٢٨٧—٤٣٧ ، وكذا : تاريخ الطبري ٢/١٣٠—١٣٩ ، ابن الأثير ١/٤٤٢—٤٤٥ ، ابن كثير ٢/١٧٦٠—١٧١ ، نهاية الأرب ١/٢٥١—٢٦٤ ، تاريخ الخميس ص ٢١٢—٢١٧ ، صحيح الأخبار ٣/٢١—٢٢ ، الإشتقاق ص ٣٠٦ ، مطلع النور ص ١٢١—١٢٢ ، ياقوت ٣/٥٣—٥٤ ، ٥/١٦١—١٦٢ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٥١— ٢٥٣ ، ٢/٧ ، ابن هشام ١/٤٣— ٥٢ ، الطبقات الكبرى ١/٥٥—٧د ، دلائل النبوة للبيهقي ١/٥٧ ، ٦٢—٦٦ ، أعلام النبوة للماوردي ص ١٤٩ ، الأزرقي ١/١٤٠—١٤٨ ، دلائل النبوة للأصفهاني ص ١٠٠ ، الإمام محمد عبده : تفسير جزء عم ص ١٢٠—١٢٢ ، تفسير [illegible] ٣٠/٣٠٠—٣٠٢ ، تفسير ابن كثير ٨/٥٠٣—٥١١ (طبعة الشعب) تفسير انيسابوري ٣٠/١٦٠ ، تفسير البيضاوي ٢/٥٧٦ ، تفسير الكشاف ٣/٢٨٨ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٢/٥٧٦—٥٧٧ ، في ظلال القرآن ٨/٦٦٤—٦٧٥ ، تفسير روح المعاني ٣٠/٢٣٣— ٢٣٧ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٣٩٤ ، المعارف ص ٣١٢ ، حياة محمد ص ١٠١— ١٠٢ ، مروج الذهب ٢/١٠٤—١٠٦ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧—٧٢٩٠ (طبعة الشعب) .

(2) تاريخ الطبري ٢/١٣٠ ، الأزرقي ١/١٣٨ ، إبن كثير ١/١٧٠ ، ابن هشام ١/٤٣ ، ياقوت ٤/٣٩٥ ، تفسير ابن كثير ٨/٥٠٤ ، تفسير القرطبي ٢٠/١٨٨ (دار الكتب) ، تفسير الطبري ٣٠/٣٠٠ .

(3) ابن كثير ١/١٧٠ ، ابن هشام ١/٣٤ ، تفسير ابن كثير ٤/٥٤٨ ، تفسير الطبري ٣٠/٣٠٠ ، الأزرقي ١/١٣٨ ، تفسير القرطبي ٢٠/١٨٧ .

مختلفة ، لها بريق ، وأنه نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء وألوان الأصباغ وصنوف الجواهر ، وسمموا بابها بالذهب واللؤلؤ ، ورشوا حوائطها بالمسك ، وأقاموا فيها صلباناً منقوشة بالذهب والفضة والفسيفساء ، وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البلق مربعة ، عشر أذرع في عشر ، تغشى عين من ينظر إليها من بطن القبة ، تودي [illegible] الشمس والقمر إلى داخل القبة . وكان تحت القبة منبر من شجر اللبخ – وهو [illegible] – مفصص بالعاج الأبيض ، ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهباً [illegible] ، و[illegible] في القبة سلاسل فضية[1] .

وفي الواقع ، فإن [illegible] ما وصف الأخباريين للقليس من مبالغات ، فإن العصر كان حقاً [illegible] بناء ال[illegible] الفخمة التي أنشئت في العالم المسيحي ، وأهمها : كنيسة « أيا [illegible] » في القسطنطينية ، و « كنيسة المهد » في « بيت لحم » ، واللتان تعودان إلى عهد الأمبراطور « جستنيان » (٥٢٧–٥٦٥م) ، وقد تأثرت جميعها بالفن البيزنطي ، وإن جمعت كنيسة القليس بين الفن العربي القديم ، والفن البيزنطي النصراني في بناء الكنائس[2] .

هذا وقد لجأ أبرهة في بناء « القليس » إلى السخرة ، فضلاً عن القسوة الشديدة التي كانت تصل إلى حد قطع يد العامل ، إن تهاون أو تكاسل في عمله ، ويروي « ياقوت الحموي » أن أبرهة استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة وجشمهم فيها أنواعاً من السخرة ، وكان ينقل اليها أدوات البناء كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس ، صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وكان فيه بقايا من آثار ملكهم ، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة وبهجتها وبهائها[3] .

---

(١) الأزرقي ١/١٣٨–١٣٩ ، أديان العرب ص ٣٥ ، ابن الأثير ١/٤٤٢ ، تاريخ الطبري ٢/١٣٠–١٣١ ، النويري ١/١٨٢–١٨٣ ، ابن سعد ١/٥٥ ، وكذا H. Scott, op. cit., P. 212.

(٢) هـ.ج. ويلز : موجز تاريخ العالم ص ١٩٣ .

(٣) ياقوت ٤/٣٩٤–٣٩٦ ، تفسير روح المعاني ٣٠/٢٣٣ .

وأياً ما كان الأمر ففي عام ٥٧٠م ، أو ٥٧١م ، مات أبرهة بعد فشله الذريع في حملته المنكودة على مكة المكرمة ، وخلفه ابنه « يكسوم » لفترة لا ندري مداها على وجه التحقيق[1] ، ويبدو أنه مارس الحكم منذ أيام أبيه ، حين اختاره — فيما يرى جلازر — حاكماً على أرض معاهر[2] ، وعلى أي حال ، فلقد كان « يكسوم » هذا شراً من أبيه ، كما كان أخوه وخليفته « مسروق » شراً من الإثنين ، ويرى الإخباريون أنه حكم ثلاث سنين انتهت بقتله ، وبخروج الأحباش من اليمن[3] ، بعد حكم دام نحو مائتي سنة على رأي ، وإثنين وسبعين على رأي آخر[4] ، وإن كان الصحيح — فيما يرى العلماء المحدثون — أنه لم يدم أكثر من سبع وأربعين سنة (٥٢٥— ٥٧٢م) ، على رأي ، وقرابة نصف قرن (٥٢٥—٥٧٥م) على رأي آخر[5] ، وذلك لأن هؤلاء الباحثين إنما يرون أن حملة أبرهة على مكة المكرمة (عام الفيل) إنما كانت في عام ٥٥٢م على رأي[6] ، وعام ٥٦٣ على رأي آخر[7] ، وكلاهما يخالف المعهود من أن الحملة إنما كانت في عام ٥٧٠م ، أو عام ٥٧١م .

حركة التحرير والسيطرة الفارسية

مرت الأيام ثقيلة كئيبة على أحرار اليمن ، ولم تكن للسياسة الإستبدادية التي خطها أبرهة — وسار على منوالها خليفتيه من بعده — من نتيجة ، سوى نفور اليمنيين من حكم الأحباش ، والرغبة في التخلص من احتلالهم البغيض ، وزاد الطين بلة أن

---

(١) مروج الذهب ٥٥/٢ ، موسكاتي : المرجع السابق ص ٢١٦ ، الأخبار الطوال للدينوري ص ٦٣ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٢) جواد علي ٥٠٤/٣ وكذا E. Glaser, MVG, P. 420, 461.

(٣) مروج الذهب ٥٧/٢ ، تاريخ الطبري ١٣٩/٢ ، المقدسي ١٨٨/٣ .

(٤) ابن الأثير ٤٥٠/١ ، مروج الذهب ٥٧/٢ .

(٥) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٦٥ ، وانظر : سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٩٩ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٤١—١٥١ .

(٦) جواد علي ٥٠٠/٣ ، وكذا Le Museon, 1965, 3-4, P. 427-28.

(٧) جواد علي ٤٩٦/٣ ، وكذا Le Museon, 1965, 3-4, P. 427.

الأزمة الإقتصادية قد استحكمت في ظل الإحتلال الأثيوبي ، فبينما كان الحكام المسيحيون يبنون الكنائس ويحاولون الإندفاع نحو الشمال — كما فعل أبرهة — كانت البلاد تزداد اضمحلالا ، لخمود النشاط التجاري الذي كان يتوقف عليه بقاؤها إلى حد كبير ، ذلك لأن الحياة الإقتصادية في بلاد العرب الجنوبية ، إنما كانت تقوم على التجارة الدولية — فضلاً عن مواردها الزراعية — حيث أن هذه العربية الجنوبية ، إنما كانت مركزاً أساسياً لتبادل السلع ، وكانت مرسى المحيط الهندي للتجارة بين البحر المتوسط ، كما أتاحت القواعد التجارية التي أقامها العرب الجنوبيون على سواحل الهند والصومال لهم ، إحتكار تجارة الذهب والبخور والمر وأخشاب الزينة ، التي تصدرها تلك المناطق إلى الشمال[1] .

غير أنه في فترة الإحتلال الحبشي هذه، إزداد استعمال الطرق البحرية التي سيطر عليها الرومان والمصريون والهنود ، فكانت هذه المنافسة الجديدة كارثة على تجارة القوافل بين العربية الجنوبية ، وبين أرض الرافدين وفلسطين ، وأخيراً أدى انهيار سد مأرب في عام ٥٤٣م، إلى خراب أراضي الري اليانعة ، وسدد ضربة الموت إلى ازدهار البلاد[2] ، محولاً إياها إلى مناطق مقفرة ، إلا القليل من أرضها التي ترويه الأمطار الصيفية ، أو تنساب فيه بعض السيول أو الجداول[3] .

ومن ثم فقد كانت الثورات تقوم الواحدة تلو الأخرى ، حتى جاءت الفرصة المنتظرة في شخص زعيم وطني من « حمير » يدعى « سيف بن ذى يزن » ويكنى « أبا مرة » ، وهو « معد يكرب بن أبي مرة » ، والذي فرّ أبوه « أبو مرة بن ذى يزن » إلى الحيرة والتجأ إلى ملكها « عمرو بن هند » بعد أن انتزع منه أبرهة زوجه « ريحانة بنت علقمة » وأم ولده « سيف » هذا ، ثم أولدها أبرهة ولده « مسروق » وابنته « بسباسة »[4] .

---

(١) موسكاتي : المرجع السابق ص ١٩٣ ، ١٩٧ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٩٣ .
(٣) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٣٥ .
(٤) ابن الأثير ٤٣٣/١ ، تاريخ الطبري ١٣٠/٢ ، قارن : المقدسي ١٨٨/٣ .

وتذهب بعض الروايات إلى أن « سيفا » هذا ، إنما قد توجه أول الأمر إلى «بيزنطة» ، وحاول عبثاً إقناع قيصرها إرسال حملة تقاتل إلى جانب اليمنيين ، الذين يبغون تحرير بلادهم من سيطرة الأحباش ، وفي التقاليد المنقولة أن سيفاً إنما أخفق في الحصول على عون من القسطنطينية ضد الحبشة ، لما يربط القيصر بحلفائه الأحباش من علاقات سياسية واقتصادية ، فضلاً عن الروابط الدينية ، حتى أن المسعودي ليروي أنه رده قائلاً : « أنتم يهود ، والحبشة نصارى ، وليس في الديانة أن ننصر المخالف على الموافق » ، ثم إن مناصرة العناصر الوطنية في اليمن لن تزيد القيصر على ما كان يلقاه من امتيازات في اليمن ، إمتيازات أخرى[1] .

وهكذا فشل « سيف بن ذى يزن » في أن يحصل على أي عون من الإمبراطورية الرومانية ، ومن ثم فقد اتجه إلى فارس لتشد أزره ، أسوة بمناصرة الروم للأحباش ، ويبدو أنه لجأ إلى النعمان بن المنذر حاكم الحيرة حتى يقدمه إلى « كسرى أنوشروان » (٥٣١–٥٨٩م) ، على رواية ، أو أنه اتصل به مباشرة بناء على وعد سابق لأبيه بالمساعدة، على رواية أخرى ، وأياً ما كان الأمر ، فإن كسرى قد شق عليه أن يضحي بأبناء فارس ، ويطعمهم لرمال الصحراء القاسية ، ومن ثم فقد قال له : « بعدت بلادك عنا وقل خيرها ،والمسلك إليها وعر ، ولست أغرر بجيشي» ، وأمر له بمال ، فخرج « سيف » وجعل ينثر الدراهم فانتهبها الناس فسمع كسرى ، وعندئذ سأل عما حمله على ذلك ، فقال : لم آتك للمال ، وإنما جئتك للرجال ، ولتمنعني من الذل والهوان ، وإن جبال بلادي ذهب وفضة» ، فأعجب كسرى بقوله ، وقال : « يظن المسكين أنه أعرف ببلاده مني »[2] .

وسواء أصحت هذه الروايات ، أم أنها من نوع أساطير الأخباريين ، فالذي لا شك فيه أن الأحباش قد أصبحوا أصحاب الكلمة العليا في سياسة العربية الجنوبية ،

---

(١) مروج الذهب ٢/٥٥ ، تاريخ الطبري ٢/١٤٢ ، تاريخ الخميس ص ٢١٨ ، الأخبار الطوال ص ٦٣ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٠٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٦٣ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٦ ، وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 66.

(٢) إبن الأثير ١/٤٤٨ ، تاريخ الطبري ٢/١٤٠–١٤٣ ، تاريخ الخميس ص ٢١٨ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٦٣ ، الأخبار الطوال ص ٦٤ ، المقدسي ٣/١٨٩–١٩٠ .

منذ اختفاء ذى نواس من المسرح السياسي في اليمن ، ومن ثم فقد عملوا على تدعيم المسيحية ؛ وإتاحة الفرصة للنفوذ الروماني من أن يقوى ويشتد ، الأمر الذي أزعج الفرس إلى حد بعيد ، فعملوا علي بث النفور في نفوس اليمنيين ضد الأحباش والرومان على السواء ، ومن هنا نرى الهمداني يحدثنا عن نقش وجده في بلاد الحميريين — وإن ذهب البكري إلى أن قريشاً إنما وجدته في أساس الكعبة عند إعادة بنائها قبل البعثة — على حجر مكتوب بالمسند[1] ، جاء فيه : « لمن ملك ذمار ؟ لحمير الأخيار ، لمن ملك ذمار ؟ للحبشة الأشرار ، لمن ملك ذمار ؟ لفارس الأحرار لمن ملك ذمار ؟ لقريش التجار »[2] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الرواية تذهب بعد ذلك إلى أن « كسرى أنو شروان » (٥٣١—٥٨٩م) قد استشار وزراءه في الأمر ، وتمت الموافقة على مساعدة « سيف ابن ذى يزن » ، ربما تحقيقاً لحلم فارس في السيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر ، فضلاً عن القضاء على النفوذ الروماني — السياسي والاقتصادي والديني — في اليمن ، وأن تكون الحملة على اليمن من نزلاء السجون الفارسية ، وأن يتراوح عددها بين ثمانمائة أو أكثر — وإن كانت هناك رواية جعلتهم سبعة آلاف وخمسمائة فارس — وأن تكون تحت قيادة الضابط الفارسي « وهريز » ، وأن يتزوج الفرس من نساء اليمن ، وأن لا يتزوج اليمنيون من النساء الفارسيات ، فضلاً عن خراج سنوي يحمله « سيف بن ذى يزن » إلى فارس[3] ، وهكذا وجدت فارس في طلب يهود العرب ووثنيهم مؤازرتها ضد الدولة النصرانية ، وسيلة للتوسع في بلاد العرب ، ومن ثم فإن بادية الشام في الشمال ، وإن حالت دون توسع القوى الكبرى

---

(١) البكري ٢/٦١٤—٦١٥ ، ياقوت ٣/٧ .

(٢) الهمداني : الإكليل ، نشر نبيه فارس ص ١٥٦ ، ابن هشام ١/٧٨ (طبعة مكتبة الجمهورية بمصر) ، عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٥٦—٥٧ .

(٣) المعارف ص ٦٣٨ ، ابن خلكان ٦/٣٥—٣٦ ، مروج الذهب ٢/٥٥—٥٦ ، تاريخ الطبري ٢/١٤٤ ، الأخبار الطوال ص ٦٣—٦٤ ، تاريخ ابن خلدون ، المعارف ص ٦٣٢ ، فضلو حوراني : المرجع السابق ص ١٠٤ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٦٥ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٤٩—١٥٠ .

في تلك الفترة من التاريخ في شبه الجزيرة العربية ، فقد أصبحت أرض الجنوب مدخلا لتلك الدول توصلها إلى قلب البلاد[1] .

وتبحر الحملة إلى اليمن في ثماني سفائن ، غرقت منها سفينتان ، ووصل إلى ساحل عدن ست سفائن ، وهنا يروي الإخباريون رواية ، تكررت من قبل مع « أرياط » ، إذ يزعمون أن « وهريز » قد أمر بأن تحرق السفائن جميعاً ، ليعلم جنوده أنه ليس أمامهم ، سوى النصر أو الموت ، وأنه سأل « سيفاً » عما عنده ، فأجابه : «ما شئت من رجل عربي وسيف عربي ، ثم اجعل رجلي مع رجلك ، حتى نموت جميعاً أو نظفر جميعاً »[2] ، وعلى أي حال ، فإن الحملة ما أن بلغت اليمن حتى انضم اليها الكثير من أتباع سيف ، وفي نفس الوقت سار إليها « مسروق » في مائة ألف من الحبشة وحمير والأعراب — طبقاً لبعض الروايات — إلا أن المعركة سرعان ما انتهت باندحار الأحباش وأتباعهم ، ولقى « مسروق » حتفه فيها ، ودخل « وَهْرِيز » صنعاء ، وملك اليمن ، ونفى عنها الحبشة ، ثم تركها — بأمر من كسرى أنوشروان — لسيف بن ذى يزن ، الذي رضي بدفع جزية وخراج يؤديه كل عام[3] .

وهكذا نجح العرب اليمنيون في تحرير بلادهم من ربقة الإستعمار الحبشي ، وقنع الفرس — على ما يبدو — بإقامة حكم وطني في اليمن يدين بالتبعية لهم ، ومن ثم فقد أصبح « سيف بن ذى يزن » ملكاً على اليمن ، في حوالي عام ٥٧٥م ، فيما

(١) P.K. Hitti, op. cit., P. 66.

(٢) ابن الأثير ٤٤٩/١ ، مروج الذهب ٥٥/٢-٥٦ ، تاريخ الخميس ص ٢١٨ ؛ تاريخ الطبري ١٤٤/٢-١٤٦ .

(٣) ابن الأثير ٤٤٩/١-٤٥١ ، ابن كثير ١٧٧/٢-١٧٨ ، الأخبار الطوال ص ٦٤ ، تاريخ ابن خلدون ٦٣/٢-٦٤ ، تاريخ الطبري ١٤٦/٢-١٤٨ ، تاريخ اليعقوبي ٢٠٠/١ ، مروج الذهب ٥٦/٢-٥٧ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٥١-١٥٢ ، فضلو حوراني ص ١٠٤ ، قارن : سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٩٩ ، المعارف ص ٢٧٨ ، المقدسي ١٩٠/٣-١٩٥ ، جواد علي ٥٢١/٣-٥٢٣ .

يرى المؤرخون المحدثون ، وإن كان حكمه لم يشمل كل أنحاء البلاد . بل يبدو أن هناك رجالاً من الفرس كانوا يحكمون في اليمن ، منذ حوالي عام ٥٩٨م ، وأنهم كانوا يحملون لقب « وال » (ستراب)[١] ، وعلى رأسهم من لقبه العرب بـ « الإصبهبذ »[٢] ، وهذا يدل على أن الفرس قد استمرأوا المرعى فأقاموا في البلاد ، وكأني بالعرب الجنوبيين وقد استبدلوا استعمار باستعمار[٣] .

وعلى أي حال ، فإن خلاص اليمن من نير الاحتلال الحبشي كان له رنة فرح هائلة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على « سيف بن ذي يزن » يهنئونه بتحرير البلاد وعودة الملك إليه ، ومن هذه الوفود وفد إمارة مكة برياسة سيّدها وكبيرها « عبد المطلب بن هاشم » — جد النبي صلى الله عليه وسلم — ومعه أمية بن عبد شمس ، وعبدالله بن جدعان ، وأسد بن خويلد ابن عبد العزى ، في ناس من أشراف قريش ، فأعظمهم سيف وأجلهم ، ووصلهم بذهب وفضة ، وإبل وجوار وعبيد ، وقيل أنه أعطى عبد المطلب أضعاف ما أعطى غيره من الوفد ، وهنا لم يرض أصحابنا الأخباريون أن يكون « سيف بن ذي يزن » أقل من غيره من ملوك اليمن العظام ، الذين بشروا بمبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن ثم فقد جعلوه يبشر عبد المطلب بمولد مولانا وسيدنا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ويخبره بما يعلم عنه[٤] .

ويرى الدكتور جواد علي أننا إذا أخذنا برواية المسعودي وغيره عن وفد مكة ، وبما يذكره أهل الأخبار من أن فترة الإحتلال الحبشي لليمن كانت إثنتين وسبعين

---

(١) H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 121
وكذا W. Phillips, op. cit., P. 223.

(٢) سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٩٩ ، مروج الذهب ٢/٥٥ .

(٣) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٥ .

(٤) العقد الفريد ١/١٣١ ، ابن كثير ٢/١٧٨ ، ٣٢٨-٣٣١ ، بلوغ الأرب ٢/٢٦٦-٢٦٩ ، تاريخ ابن خلدون ، تاريخ الخميس ص ٢٧١-٢٧٢ ، كتاب التيجان ص ٣٠٨-٣٠٩ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٥٢-١٥٤٧ ، وصايا الملوك ليحيى الوشاء ص ٣٨-٤٠ (طبع بغداد ١٣٣٢هـ) ، قارن : مروج الذهب ٢/٥٧-٦٠ .

سنة ، فإن الوفد الملكي يجب أن يكون قد ذهب إلى صنعاء في عام ٥٩٧م ، الأمر الذي يتناقض ووفاة عبد المطلب في العام الثامن من حملة الفيل — أي حوالي عام ٥٧٨ أو ٥٧٩م — وفي هذا الحين كان الأحباش ما يزالون يحتلون اليمن ، ومن ثم فعلينا أن نأخذ برأي المؤرخين المحدثين ، والذين ذهبوا إلى أن طرد الأحباش من اليمن ، إنما كان في عام ٥٧٥م ، ومن ثم تصبح زيارة وفد مكة برياسة « عبد المطلب لليمن ، أمراً مقبولاً »[1] .

وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى « سيف بن ذى يزن » ، لوجدناه يتخذ سياسة في منتهى العنف بالنسبة إلى البقية الباقية من الحبش ، فقتل البعض ، واتخذ من البعض الآخر عبيداً يسعون بين يديه بالحراب ، ويبدو أن هذه المعاملة القاسية قد أثرت في نفوسهم ، حتى أنهم انتهزوا أول فرصة ، فوثبوا عليه وقتلوه[2] .

ويعلم « كسرى » بالأمر ، فيرسل « وهريز » في أربعة آلاف من الفرس ، ويأمره ألا يترك باليمن أسود ، ولا ولد عربية من أسود ، إلا قتله ، صغيراً كان أم كبيراً ، ولا يدع رجلاً جعداً قططاً قد شرك فيه السواد ، إلا قتله » ، ويفعل « وهريز » ما أمر به كسرى ، فيستأصل البقية الباقية من الأحباش في اليمن[3] .

ويبدو أن الفرس — الذين كانوا قد توسعوا في شبه الجزيرة العربية — قد طمعوا في اليمن ، لأهميتها التجارية والسياسية (أولاً) ، وليمنعوا بيزنطة من الإستيلاء عليها (ثانياً) ، ويبدو كذلك أن « سيفا بن ذى يزن » كان قد أحس بتدخلهم في كل شئون بلاده ، ومن ثم فقد بدأ يعد العدة للتخلص منهم ، كما تخلص من الأحباش من قبل ، إلا أن الفرس كانوا قد فطنوا إلى خطته ، ومن ثم فقد تآمروا عليه ودبروا أمر قتله ،

---

(١) مروج الذهب ٥٧/٢ ، جواد علي ٥٢٦/٣ .

(٢) تاريخ الطبري ١٤٨/١ ، إبن الأثير ٤٥٠/١ ، تاريخ ابن خلدون ٦٤/٢ ، حمزة الأصفهاني المرجع السابق ص ٩٠ .

(٣) حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٩٠ ، مروج الذهب ٦٢/٢–٦٣ ، تاريخ ابن خلدون ٦٤/٢–٦٥ ، الأخبار الطوال ص ٦٤ ، تاريخ الطبري ١٤٨/١ .

وربما كان بعض الأحباش وسيلتهم إلى ذلك ، حتى تصبح اليمن واحدة من ولايات الإمبراطورية الساسانية[١] .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد أصبح أمر اليمن بيد « وهريز » من قبل كسرى ، ثم جاء من بعده ولده « المزربان » ثم حفيده « البينجان » ثم « خرخرة » بن « البينجان » وأخيراً « باذان » الذي قدر له شرف الدخول في الإسلام[٢] ، وهنا لعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن حكم الفرس لليمن ، إنما كان يكاد يكون مقصوراً على العاصمة «صنعاء» ومجاوراتها ، وأن قبائل اليمن إنما كانت تتمتع أبداً بحريتها[٣] ، وأن الحكم فيها إنما ترك لأبناء الملوك من الأسر المالكة القديمة ، وللأقيال والأذواء ، وهم الذين عرفوا عند الإخباريين بملوك الطوائف[٤] ، وأن القبائل اليمنية أصبحت تعيش كبقية قبائل شبه الجزيرة العربية في صراع فيما بينها ، كما أصبح لها أسواق ، تشبه أسواق بقية عرب داخل شبه الجزيرة ، تأمن فيها على دمائها وأموالها[٥] .

ومع ذلك فليس هناك من شك في أن الفرس قد كسبوا الكثير من احتلالهم لليمن ، فقد أصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الطريق البحري التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر ، كما سيطروا كذلك على الطريق البري — طريق الحجاز — ولم يلبث الفرس أن توّجوا جهودهم بفتح الشام ومصر ، وأدرك « هرقل » (٦١٠–٦٤١م) أن الفرس قد أصبحوا أصحاب السلطان الفعلي على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وأنهم خنقوا دولة أكسوم الحبشية — حليفة الروم — ولكن هذا الوضع سرعان ما تغير

---

(١) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ش ٢١٣ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٧٦–٧٧ ، قارن : مروج الذهب ٦٠/٢ .

(٢) تاريخ الطبري ١٤٨/١ ، مروج الذهب ٦٢/٢ ، المعارف ص ٣١٣ ، ابن هشام ٤٦/١ .

(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٧٧ ، وكذا
E. Gibbon, the Decline and Fall of the Roman Empire, 5, 1950, P. 216.

(٤) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧٨ .

(٥) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٧٧ .

سريعاً ، إذ تمكن هرقل من استرداد سلطانه على الشام ومصر بعد حملة بحرية واحدة[1] .

أما اليمن فكان الأمر فيها مختلفاً إلى حد كبير ، ففي السنة السادسة من هجرة مولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دخل « باذان » في الإسلام ، ومن ثم فقد قُضي على اليهودية والنصرانية والوثنية في اليمن ، فضلاً عن الحكم الأجنبي — حبشياً كان أم فارسياً[2] — في الفترة ما بين عامي ٦٢٨، ٦٣٠[3] ، وإن كانت رواية الطبري يفهم ، منها أن «باذان» إنما أسلم في عام ٦٢٨م ، حيث تذكر أنه أسلم بعد أن جاءته الأخبار من فارس بقتل « كسرى أبرويز » (٥٩٠ —٦٢٨م) وتولية « شيرويه » بعده ، والذي لم يبق على العرش أكثر من ثمانية شهور[4] .

---

(١) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١٤—٢١٥ ، إبراهيم أحمد العدوي : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط — القاهرة ١٩٦٣ — ص ١١ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/٦٥٦—٦٥٧ ، ابن الأثير ٢/٢١٣—٢١٥ ؛ إبن هشام ١/٧٦—٧٧ .

(٣) جواد علي ٣/٥٢٨ ، وكذا W. Phillips, op. cit., P. 223.

(٤) جواد علي ٣/٥٢٨ ، وكذا EI, 4, P. 178. ، وانظر : تاريخ الطبري ١/٦٥٦—٦٥٧ ، ابن الأثير ١/٤٩٢—٤٩٧ ، ٢/٢١٤—٢١٥ .

الفصل الثاني عشر

مكة المكرمة

(١) مكة : نشأتها وتطورها

ليس من شك في أن مكة المكرمة أهم مواضع الحضر في الحجاز على الإطلاق ، وأنها ربما ترجع في نشأتها الأولى إلى عهد الخليل وولده إسماعيل ، عليهما السلام ، وأن سكانها من الإسماعيليين ، إلى جانب قبائل عربية ، لم يذكر لنا المؤرخون عنها معلومات دقيقة ، كالعماليق وجرهم وخزاعة[١] ، وأن الإسماعيليين – أو العدنانيين كما يسميهم المؤرخون المسلمون – كانوا يتكلمون اللغة العربية التي لم تصلنا بها نقوش مكتوبة ، ربما بسبب عدم وجود خط متميز لهم قبل الإسلام – كخط المسند في الجنوب – وربما لأن طبيعة السكان في الحجاز لم تكن تميل إلى الكتابة[٢] ، وإن وجدت كتابات لغير الإسماعيليين في الحجاز .

ويختلف المؤرخون في اشتقاق كلمة «مكة» ، فذهب فريق إلى أنها إنما سميت كذلك ، لأنها تمك الجبارين ، أي تذهب نخوتهم ، وذهب فريق ثان إلى أنها إنما

---

(١) الأغاني ٩٤/١٩ ، المعارف ص ٣١٣ .

(٢) النويري ٢٧٨/٢ ، كشف الظنون ٢٥/١-٢٦ ، أصل الخط العربي ص ٧ ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ٧٧/١ ، وكذا E. Gibbon, op. cit., 5, P. 220.

تقع بين جبلين مرتفعين عليها ، وهي في هبطة بمنزلة المكوك ، وذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة مشتقة من «أمتك» من قولهم : أمتك الفصيل ضرع أمه ، إذا مصه مصاً شديداً ، ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة فقد امتكت الناس ، أي جذبتهم من جميع الأطراف[1] ، إلى غير ذلك من التفسيرات المألوفة عند الإخباريين في تفسير الأسماء القديمة التي لا علم لهم بها .

غير أن إسم مكة لما كان سابقاً لتفسيرات الإخباريين هذه ، ولما كان الجنوبيون قد سكنوا مكة مع الإسماعيليين ، فإن هناك من يرجح أن الإسم إنما أخذ من لغة الجنوب ، مستنداً إلى البيت الحرام ، فمكة أو «مكرب» — في رأي هذا الفريق من العلماء — كلمة يمنية مكونة من « ملك » و « رب » ، وملك بمعنى بيت ، فتكون « مكرب » بمعنى « بيت الرب » أو « بيت الإله » ، ومن هذه الكلمة أخذت مكة ، — أو بكة بقلب الميم ياء على عادة أهل الجنوب - ويرى « بروكلمان » أنها مأخوذة من كلمة « مقرب » العربية الجنوبية ، ومعناها « الهيكل »[2] .

ويطلق القرآن الكريم على مكة عدة أسماء ، منها « بكة » لقوله تعالى « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين »[3] ، وهنا يحاول الإخباريون أن يفرقوا بين مكة ، وبكة ، فالأولى هي القرية كلها ، والثانية إنما المراد بها موضع البيت الحرام ، أو أن « بكة » هي موضع البيت ، ومكة ما سوى ذلك[4] .

---

(١) ياقوت ١/١٨١–١٨٢ ، ابن هشام ١/١٢٥–١٢٦ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص٤٣٩١ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٩٧–٩٨ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ١/٣٣ ، وكذا Gerald De Gaury, Rulers of Mecca, London 1951, P. 24.

(٣) سورة آل عمران : آية ٩٦ (وانظر : تفسير الطبري ٧/١٩–٢٧ (دار المعارف) ، تفسير مجمع البيان للطبرسي ٤/١٤٤–١٥٠ ، تفسير المنار ٤/١–١٤ ، تيسير تفسير ابن كثير ١/٢٩١–٢٩٥ (بيروت ١٩٧٢) ، تفسير إبن كثير ٢/٧٣–٧٤ ، تفسير النسفي ١/١٧٠–١٧١ ، في ظلال القرآن ٤/٤٣١–٤٣٦ (دار الشروق ، بيروت ١٩٧٤) ، تفسير القرطبي ٤/١٣٧–١٣٩ ، الكشاف ١/٤٤٦–٤٤٧ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٢/٥٢–٥٥ .

(٤) الأزرقي ١/١٨٨ ، ياقوت ٥/١٨٢ ، ١/٤٧٥ ، نهاية الأرب ١/٢٢٧–٢٢٨ ، نزهة الجليس ١/٢٧ ، صبح الأعشي ٤/٢٤٨ ، تاريخ الكعبة المعظمة ص ٣٣ ، تاج العروس ٧/١٧٩ ، تفسير الطبري ٧/٢٣–٢٦ ، تفسير المنار ٤/٧ ، تفسيز الكشاف ١/٤٤٦ ، تفسير البيضاوي ١/١٧٢ .

ومنها « أم القرى » لقوله تعالى « ولتنذر أم القرى ومن حولها »[1] ، ولعل هذه التسمية إنما تشير إلى أن مكة إنما هي أعظم مدن الحجاز ، ولأنها تضم بيت الله ، أول بيت وضع للناس ، فيه الهدى وفيه البركة ، وفيه الخير الكثير ، جعله الله مثابة أمن للناس[2] ، وللأحياء جميعاً ، ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض ، ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل ، وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل الأجناس[3] ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق[4] » .

ومن أسماء مكة كذلك « البلد » لقوله تعالى « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد »[5] ، ومنها « البلد الأمين[6] » لقوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين[7] » .

---

(١) سورة الأنعام : آية ٩٢ ، وانظر : تفسير القرطبي ٣٨/٧ ، تفسير الطبري ٥٣٠/١١-٥٣٢ (دار المعارف) ، تفسير روح المعاني ٢٢١/٧-٢٢٢ ، تفسير المنار ٥٦٣/٧-٥٦٥ ، الكشاف ٣٥/٢ ، في ظلال القرآن ١١٣٦/٧ ، ١١٤٧-١١٤٨ ، تفسير ابن كثير ٥٤/٣-٦٥ ، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ٣٣/٢-٣٤ ، وانظر : تفسير سورة الشوري : آية ٧ .

(٢) هناك رواية تنسب إلى الإمام علي – كرم الله وجهه – أن رجلا سأله عن البيت الحرام : أهو أول بيت ، فقال : لا ، قد كان قبله بيوت ، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً ، وأول من بناه إبراهيم الخليل (أنظر : تفسير الكشاف للزمخشري ٤٤٦/١ ، تفسير الطبري ٦٩/٣ ، ١٩/٧ ، قارن ٢٠/٧ ، ٢٢ ، البداية والنهاية ٢٩٩/٢) .

(٣) في ظلال القرآن ١١٤٨/٧ ، ٣١٤٢/٢٥ .

(٤) سورة الحج : آية ٢٧ .

(٥) سورة البلد : آية ١-٢ ، وانظر تفسير الطبري ١٩٣/٣٠-١٩٥ ، تفسير البيضاوي ٥٥٧/٢ ، تفسير الفخر الرازي ١٨٠/٣١-١٨١ ، تفسير القرطبي ٥٩/٢٠-٦١ ، تفسير روح المعاني ١٣٣/٣٠-١٣٤ .

(٦) راجع أسماء أخرى في : ياقوت ٤٧٥/١ ، ١٨١/٥-١٨٢ ، العقد الثمين ٣٥/١-٣٦ ، ابن هشام ١٢٥/١-١٢٦ ، تاريخ الخميس ص ١٢٥ ، تاريخ مكة ص ٣٧ ، النويري ٣١٣/١-٣١٤ ، بلوغ الأرب ٢٢٨/١ ، القاموس ٢٣٥/١ ، ٢٣٩ ، ٩٧/٣ ، ٣١٩ ، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص١٨ (طبعة ليبزج ١٨٥٧م)، صبح الأعشى ٢٤٨/٤ ، تفسير البيضاوي ٥٥٩/٣ ، تفسير القرطبي ٥٩/٢٠-٦٠ ، تفسير الفخر الرازي ١٨٠/٣١ ، تفسير الطبري ١٩/٧-٢٦ (دار المعارف) ، ١٩٣/٣٠-١٩٤ (طبعة الحلبي) .

(٧) سورة التين : آية ١-٣ ، وانظر : تفسير روح المعاني ١٧٣/٣٠-١٧٥ ، تفسير الطبري ٣٠/ ٢٣٨-٢٤٦ ، تفسير البيضاوي ٥٥٦/٢ ، تفسير القرطبي ١١٠/٢٠-١١٣ ، تفسير الفخر =

وأما أقدم ذكر للبلد الحرام في النصوص القديمة ، فإنما يرجع إلى القرن الثاني الميلادي ، إذ يحدثنا الجغرافي اليوناني بطليموس (١٣٨—١٦٥م) عن مدينة دعاها « ماكورابا » (مكربة) « Macoraba » ، رأى العلماء ، أنها مكة المكرمة[١] ، هذا ويذهب « أوجست ميلر » وغيره ، إلى أن المعبد الذي ذكره « ديودور الصقلي » — (من القرن الأول الميلادي) في أرض قبيلة عربية دعاها «Bizomeni» ، إنما يعنى به «بيت مكة» ، أمر غير مقبول ، فهو يقع بعيداً عن مكه في «حسمى» في مكان دعاه « الويس موسل » باسم « عوافة » ، حيث بنت قبيلة ثمود ، فيما بين عام ١٦٦ ، وبداية عام ١٦٩م معبداً هناك[٢] ، وربما كان هذا المعبد هو الذي أشار إليه « ديودور » على أنه المعبد الذي يقدسه العرب[٣] .

على أن تاريخ المدينة إنما يعود إلى ما قبل عصر بطليموس بكثير ، فهناك من يرى أنها سابقة لكتابة أسفار العهد القديم (التوراة)[٤] ، فإنما هي « ميشا » المشار إليها في سفر التكوين[٥] ، وهي « ميشا » الّتي يقول الرحالة « برتون » أنها كانت بيتاً

الرازي ٣٢/٨—١٠ ، مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٣٠/١٧٧—١٨١ (بيروت ١٩٦١) ، الكشاف ٢٦٨/٤ ، تيسير العلي القدير ٤٠٥/٤—٤٠٦ ، تفسير ابن كثير ٣٢٣/٧—٣٢٤ (دار الأندلس) ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٦٥/٦—٣٦٦ ، في ظلال القرآن ٣٩٣٢/٦ (بيروت ١٩٧٤) تفسير النسفي ٣٦٦/٤—٣٦٧ ، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) ٢٧١/٥—٢٧٢ .

(١) كارل بروكلمان : المرجع السابق ٣٣/١
وكذا Ptolemy, VI, 7, 32. وكذا Gerald De Gaury, op. cit., P. 24

(٢) أنظر عن معبد العوافة :
J.B. Philby, The Land of Midian, MEG, 9, 1955, P. 127F.
وكذا Van den Branden, Histoire de Thamoud, P. 15,
وكذا BIOR, 15, 1958, P. 8-9.

(٣) جواد علي ٩/٤—١٠
وكذا C.H. Oldfather, Diodorus Siculus, Bibliotheca, Book, III, XXXI,
وكذا Gerald de Gaury, op. cit., P. 12.

(٤) أنظر : عن تاريخ كتابة أسفار التوراة « كتابنا إسرائيل » ص ٢٤—٤٥ .

(٥) التوراة : سفر التكوين ١٠ : ٣٠ .

مقصوداً لعبادة أناس من الهند ، ويقول الرحالة الشرقيون أنها كانت كذلك بيتاً مقصوداً للصابئين ،الذين أقاموا فيجنوب العراق قبل الميلاد بأكثر منعشرة قرون[١] .

على أنه من الغريب أن بعض المؤرخين العرب إنما يذهب إلى أن تأسيس المدينة المقدسة ، إنما كان في منتصف القرن الخامس الميلادي [٢] ، ومن ثم فإنه يتأخر بتاريخها حوالي ثلاثة وعشرين قرناً ، لسبب لا أدريه ، وإن كان يخيل إليّ أنه اعتبر تاريخ مكة لا يبدأ إلا بقصى بن كلاب ، الذي حدد له القرن الخامس الميلادي[٣] ، وطبقاً لرواية الأخباريين التي ذهبت إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى أمرها « قصى بن كلاب » ، ذلك لأن جرهم وخزاعة — فيما يزعمون — لم يكونوا براغبين في إقامة بيوت بجوار بيت الله الحرام[٤] ، وكأنما يريد هؤلاء الأخباريون أن يقولوا لنا أن مكة ظلت على بداوتها ، منذ أن أقام بها إسماعيل ، عليه السلام ، في القرن التاسع عشر ق.م ، وحتى أصبح أمرها بيد « قصى بن كلاب » في القرن الخامس الميلادي ، وتلك مبالغة — فيما أظن — غير مقبولة .

هذا وقد ذهبت آراء أخرى إلى أن تأريخ مكة ، إنما يرجع إلى القرن الأول ق.م ، إعتماداً على رواية « ديودور الصقلي » — الآنفة الذكر — ورغم أن ديودور لم يذكر تاريخ وإسم المعبد ، إلا أن أصحاب هذا الإتجاه إنما رأوا أن وصف ديودور للمعبد بأنه كان محجة للعرب جميعاً ، لا ينطبق إلا على الكعبة المشرفة[٥] ، ولكن « ديودور » لم يحدد لنا بدء سكنى المدينة المقدسة ، فضلاً عن تحديد تاريخ بناء المعبد نفسه ، ومن ثم فربما اعتمد المؤرخون في تحديدهم للقرن الأول ق.م ، كبداية لسكنى مكة ، على أنه العصر الذي عاش بعده ديودور الصقلي .

---

(١) عباس العقاد : مطلع النور ص ١١٣ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ، ٤٥/١ ، صبح الأعشى ٢٥٠/٤ .

(٣) حسن إبراهيم : المرجع السابق ص ٤٦ .

(٤) تاريخ اليعقوبي ١٩٧/١ .

(٥) جواد علي ١٢/٤ ، وكذا R. Dozy, Die Israeliten zu Mekka, P. 13
وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 50.
وكذا Caussin de Perceval, op. cit., I, P. 174.

ويذهب « دوزي » إلى أن تاريخ مكة إنما يرجع إلى أيام داود عليه السلام ، حيث أقام بني شمعون بن يعقوب – والذين يسميهم الأخباريون جرهم – الكعبة[1] ، في القرن العاشر ق.م[2] ، وتلك أكذوبة كبرى لأسباب ، منها (أولاً) أن قبيلة شمعون الإسرائيلية لم تهاجر أبداً إلى مكة ، وإنما كل ما جاء عنها – وطبقاً لرواية التوراة نفسها[3] – أنها هاجرت على أيام حزقيا ملك يهوذا (٧١٥–٦٨٧ ق.م) إلى الجنوب الغربي من واحة معان ، ثم تابعت سيرها حتى نهاية الجنوب الغربي لجبال سعير ، حيث قضوا على بقايا ضعيفة ، أو جيوب صغيرة للعماليق هناك[4] ، و (ثانياً) أن قبيلة شمعون هذه كانت أضعف القبائل الإسرائيلية حتى عشية موت سليمان ، عليه السلام ، في عام ٩٢٢ ق.م ، وانقسام الدولة بعد ذلك مباشرة ، إلى يهوذا وإسرائيل ، ويكاد يجمع المؤرخون اليهود أنفسهم على أن قبيلة شمعون إنما كانت دائماً وأبداً تعيش على هامش القبائل الاسرائيلية ، وأنها أبداً لم تحتل المكانة التي تجعلها تقوم بدور مستقل في العصر التاريخي الإسرائيلي[5] ، فضلاً عن أن تقوم بهجوم ساحق على بلاد العرب وتستولي على مكة .

ومنها (ثالثاً) أن التوراة نفسها تكاد تتجاهل سبط شمعون ، دون غيرة من أسباط إسرائيل ، ربما لضآلة شأنه ، حتى أنها لا تكاد تتعرض لذكر هذا السبط ، إلا عند دخول بني اسرائيل أرض كنعان[6] ، وإلا بعد طلب من يهوذا[7] ، ثم مرة أخرى ، عند رحيله من جنوب يهوذا إلى واحة معان ، في أخريات القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق.م ، كما أشرنا من قبل ، مما دفع بعض الباحثين إلى أن يذهبوا بعيداً ، فيرون أن سبط شمعون لم يكن له وجود في عالم الحقيقة .[8]

---

(١) R. Dozy, op. cit., P. 15.
(٢) أنظر عن تاريخ داود ، كتابنا إسرائيل ص ٤١٧–٤١٨ .
(٣) أخبار أيام ثان ٤ : ٤١–٤٣ .
(٤) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٥–٩ ، وكذا D.S. Margoliouth, op. cit., P. 51.
(٥) M. Noth, The History of Israel, P. 23.
(٦) يشوع ١٩ : ١–٩ .
(٧) قضاة ١ : ٣ .
(٨) C.F. Burney, Israel's Settlement in Canaan, P. 37-58.
وكذا إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٣ .

إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون[1] » ، وإذا ما تذكرنا أن الخليل عليه السلام ، كان يعيش في الفترة (١٩٤٠– ١٧٦٥م ق)[2] ، وأنه قد رزق بولده إسماعيل ، وهو في السادسة والثمانين من عمره[3] ، فإن اسماعيل يكون قد ولد حوالي عام ١٨٥٤ ق.م ، ولما كان قد عاش ١٣٧ عاماً[4] ، فإنه يكون قد انتقل إلى جوار ربه الكريم ، حوالي عام ١٧١٧ق.م ، ومن ثم فإنه قد عاش في الفترة (١٨٥٤– ١٧١٧ ق.م) ، وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه قد شارك أباه في بناء الكعبة ، وهو في الثلاثين من عمره[5] ، تصديقاً لقوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم[6] » ، فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي عام ١٨٢٤ ق.م ، وهذا يعني أن مكة قد عمرت منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ق.م ، وهو تاريخ يجعلها واحدة من أقدم مدن بلاد العرب الجنوبية والشمالية سواء بسواء .

وعلى أي حال ، فلقد عاش إسماعيل بجوار بيت الله الحرام ، وتزوج من إمرأة

= من الناس» فاختص به المسلمون (أنظر : تفسير ابن كثير ١٤٢/٤ ، تفسير البيضاوي ٥٣٣/١ ، تفسير القرطبي ٢٧٣/٩ ، التفسير الكبير للفخر الرازي ١٣٧/١٩ ، تفسير النسفي ٢٦٤/٣ ، تفسير روح المعاني ٢٣٨/١٣–٢٣٩ ، تفسير الطبري ٢٣٣/١٣–٢٣٤ .

(١) سورة إبراهيم : آية ٣٧ ، وانظر : تفسير روح المعاني ٢٣٦/١٣–٢٤١ ، مجمع البيان للطبرسي ٢٢٤/١٣–٢٣٠ ، تفسير الطبري ٢٢٩/١٣–٢٣٥ ، تفسير إبن كثير ١٤١/٤–١٤٢ ، تفسير الكشاف ٣٨٠/٢ .

(٢) أنظر كتابنا إسرائيل ص ١٧١–١٧٧ .

(٣) تكوين ١٦:١٦ .

(٤) تكوين ٢٥:١٨ .

(٥) مروج الذهب ٢٢/٢ ، وانظر مقالنا « قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة » مجلة كلية اللغة العربية ، العدد الخامس ، ص ٣٨٣–٤٥٧ (الرياض ١٩٧٥) .

(٦) سورة البقرة : آية ١٢٧ ، وانظر : تفسير الطبري ٥٧/٣–٧٣ ، الكشاف ٣١١/١ ، تفسير روح المعاني ٣٨٣/١–٣٨٤ ، تفسير البحر المحيط ٣٨٧/١–٣٨٩ ، تفسير النسفي ٧٤/١ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ١٢٥/١–١٣٧ (طبعة طهران ١٣٧٧هـ) ، تفسير القرطبي ١٢٠/٢–١٢٦ ، تفسير أبي السعود ١٢٤/١–١٢٥ ، في ظلال القرآن ١٠٩/١–١١٣ (دار الشروق ، بيروت ١٩٧٣) .

مصرية على رواية التوراة[1] ، ومن يمنية على رواية الإخباريين[2] وقد أنجب من زوجته المصرية أو اليمنية ، لست أدري على وجه التأكيد ، أولاده الإثني عشر ، وهم – طبقاً لرواية التوراة[3] – «بنايوت وقيدار وأدبئيل ومبسام ومشماع ودومه ومسا وحدار وتيما ويطور ونافيش وقدمه» وقد نقلهم الأخباريون في كتبهم بشيء قليل أو كثير من التحريف[4] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن اسماعيل قد ظل – بعد إبراهيم – يدعو الناس إلى عبادة الله في مكة ومجاوراتها ، حتى إذا ما انتقل إلى جوار ربه الكريم ، قام بنوه من بعده على السلطة الزمنية في مكة ، وعلى خدمة البيت الحرام ، غير أن «جرهم» – طبقاً لرواية الإخباريين – سرعان ما تولت أمر البيت ، وأبناء إسماعيل مع أخوالهم لا يرون أن ينازعوهم الأمر ، لخؤولتهم وقرابتهم ، وإعظاماً للحرمة أن يكون بها بغي أو قتال ، إلى أن قدمت قبائل «الأزد» مهاجره من اليمن ، في فترة لا نستطيع تحديدها على وجه اليقين ، ونازعت واحدة من هذه القبائل (خزاعة) جرهم أمر البيت ، حتى استولت عليه وطردت جرهم من مكة ، ولم يلبث أبناء اسماعيل أن انتشروا في أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وخاصة في شمالها ، وليست أسماء القبائل التي تنسب إلى إسماعيل ، إلا أسماء أبنائه أو أحفادهم[5] .

وتاريخ بني إسماعيل من هذه الفترة ، وحتى عهد قصي ، غامض غموضاً شديداً ، ولا يعرف حتى المؤرخون العرب كيف يملأون فراغ هذه القرون المتطاولة ،

---

(1) تكوين ٢١ : ٢١ .

(2) ابن كثير ١/٢-١-١٩٣ ، تاريخ الطبري ١/٣١٤ ، إبن الأثير ١/٤-١-١٠٥ ، ١٢٥ ، الأزرقي ١/٨٦ ، مروج الذهب ٢/٢٠-٢١ ، تاريخ ابن خلدون ١/٣٧ ، المعارف ص ١٦ .

(3) تكوين ٢٥ : ١٤-١٦ .

(4) ابن الأثير ١/١٢٥ ، تاريخ الطبري ١/٣١٤ ، إبن كثير ١/١٩٣ ، مروج الذهب ١/٢١-٢٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٩ ، الأخبار الطوال ص ٩ ، تاريخ الخميس ص ١١١ ، جمهرة أنساب العرب ص ٧ ، ٩-١٥ ، شفاء الغرام ٢/١٧-١٨ .

(5) مروج الذهب ٢/٢٢-٢٤ ، الأخبار الطوال ص ٩-١٠ ، صبح الأعشي ١/٣١٥ ، العقد الثمين ١/١٣١-١٣٢ ، تاريخ الخميس ص ١٢٤-١٢٦ ، أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ١٠١ ، مبروك نافع : المرجع السابق ص ١٣٣ ، إبن هشام ١/١٢٥ .

ولا تبزغ شمسهم – مشبعة بالغيوم – فوق أفق التاريخ الحقيقي ، إلا من عهد قصي في منتصف القرن الخامس الميلادي ، على أن هذا لا يمنعنا أن نذكر – طبقاً لروايات الإخباريين – أنهم هم الذين قاموا على الحكومة والبيت في مكة ، ثم تلاهم الجراهمة ، فالخزاعيون ، ثم ردت إليهم بضاعتهم من جديد ، على أيام قصي بن كلاب[1] .

(٢) مكة في عصر قصي :

لعل أهم ما يميز ذلك العصر ، أنه العصر الذي تبدأ به السيادة القرشية على مكة ، بقيادة رجلها العظيم « قصي بن كلاب » – الجد الرابع للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه – الذي جمع أمر مكة في يديه ، ثم ورّثه لأبنائه من بعده ، بعد أن أزاح الخزاعيون عنها في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي ، مما اضطرهم إلى الرحيل عن مكة ، والنزول في بطن مر (وادي فاطمة) ، وهكذا أصبح قصي رئيساً للحكومة المكية وزعيماً لديانتها ، ومن ثم فقد اجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء ودار الندوة ، وهي أمور لم تجتمع لرجل من قبله[2] .

ويجمع المؤرخون على أن قصياً هذا من ولد إسماعيل ، فهو « قصي[3] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد » ، وإن

---

(١) مبروك نافع : المرجع السابق ص ١٣٣ ، تاريخ الطبري ٢/٢٨٤ ، المعارف ص ٣١٣ ، إبن سعد ١/٣٦–٤٢ ، ابن خلدون ٢/٣٣٢–٣٣٥ ، شفاء الغرام ٢/٤٨–٥٤ ، اليعقوبي ١/٢٢٢ ، الأزرقي ١/٨٢–٨٧ .

(٢) ١ ١٣–١٣٧ ، أحمد إبراهيم : المرجع السابق ص ١٠٥ ، مبروك نافع : المرجع السابق ص ١٣٣ .

(٣) تذهب المراجع العربية إلى أن قصيا إنما كان على أيام المنذر بن النعمان ملك الحيرة (٤١٨–٤٦٢م) ، وبهرام جور ملك الفرس (٤٢٠–٤٣٨م) (ياقوت ٥/١٨٦ ، بلوغ الأرب ١/٢٤٧ ، وكذا Ency, of Islam, 4, P. 174. ، ويرى « وليم موير » في كتابه (حياة محمد The Life of Mohammed, Edinburgh, 1923
أنه ولد في حوالي عام ٤٠٠م ، وولده عبد مناف في حوالي عام ٤٣٠م ، وولد هاشم في حوالي عام ٤٦٤م ، ثم ولد عبد المطلب في حوالي عام ٤٩٧م ، أما عبدالله والد النبي صلى الله عليه وسلم فحوالي عام ٥٤٥م .

كانوا يختلفون في أسماء الفترة حتى إسماعيل ، ولعل أرجح سلسلة الأنساب هي التي تقول أن عدنان هو « إبن أدد بن زيد بن ثرى بن أعراق الثرى » ، وأما « ثرى » فهو نبت أو نابوت ، وأما « أعراق الثرى » فهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام[1] : وإلى هذا يشير الحديث الشريف « اختار الله من ولد إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بني هاشم من قريش ، واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار[2] » .

ويروي الأخباريون أن «فاطمة بنت سعد» قد تزوجت بعد وفاة «كلاب» برجل من « بني عذرة » ، فحملها معه إلى مواطن قبيلته على مشارف الشام ، فأخذت معها ولدها زيد ، والذي لقب بقصي لبعده عن ديار أبيه ، ولما بلغ قصي مبلغ الرجال وعرف حقيقة نسبه ، وأنه قرشي — وليس عذرياً — عاد إلى مكة ، ثم تزوج من ابنة حليل الخزاعي ، غير أن الرجل لم يلبث إلا قليلاً حتى هلك ، وهنا يعلن قصي حقه في ولاية البيت الحرام — إرثاً من جده إسماعيل — فتقوم الحرب بين خزاعة وحلفائها من جانب ، وبين قصي ومن ناصره من كنانة وإخوته من بني عذرة من جانب آخر ، ويكتب في نهايتها لقصي نُجْحاً بعيد المدى في هزيمة خزاعة ومن والاها من بكر ، وفي أن يجليها عن المدينة المقدسة ، وفي أن يصبح سيد مكة دون منازع[3] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٥٤–٢٧٥ ، ابن الأثير ٢/١٨–٣٣ ، إبن خلدون ٢/٢٩٨ ، تاريخ الإسلام للذهبي ١/١٨ ، الإشتقاق ١/٢٠–٣٢ ، الإكليل ١/١١٠–١١٦ ، أخبار الزمان للمسعودي ص ١٠٤ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٢٣–٢٥ (القاهرة ١٩٥٩) ، المعارف ص ٢٩–٣٢ ، الزبيري : كتاب نسب قريش ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٣–١٤ .

(٢) إبن كثير : البداية والنهاية ٢/٢٠٢ ، وأنظر : المواهب للقسلاني ١/١٣.

(٣) تاريخ الطبري ٢/٢٥٤–٢٥٨ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٤ ، إبن الأثير ٢/١٨–٢٠ ، إبن هشام ١/١٢٨–١٣٥ (مراجعة محمد خليل هراس) ، البداية والنهاية ٢/٢٠٥–٢٠٦ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٣٧–٢٣٩ ، الأزرقي ١/١٠٣–١٠٧ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٣٦٥–٣٦٦ (طبعة بغداد ١٩٥٨) ، الدميري : حياة الحيوان ٢/٢٧٨ ، نسب قريش للزبيري ص١٤ ، أنساب العرب للبلاذري ١/٤٨ ، المحبر ص٥٦٢ ، حسين باسلامة : تاريخ الكعبة المعظمة ص ٢٨١– ٢٨٣ ، حياة محمد ص ١١٠ – ١١١ .

وتذهب بعض المراجع إلى أن القيصر إنما قد أعان قصياً على خزاعة[١] ، فإذا كان ذلك كذلك ، فربما كان الغساسنة هم وسيلة قيصر إلى ذلك ، وربما كانت قبيلة عذرة — التي تربى فيها قصى — هي التي قامت بهذا الدور ، بخاصة وأنها من القبائل المتنصرة ، التي كانت تعيش على مقربة من النفوذ الروماني في الشام ، والذي ربما كان يمتد إليها كذلك ، وهنا فلعل أقرب الفروض إلى الصواب ، أن تكون المساعدة الرومية لقصى عن طريق واحد من حكام الولايات الجنوبية ، ولعلها « بصرى » في شكل مساعدة مالية ، أو بإيعاز إلى إحدى القبائل الظاعنة حول الحدود الفلسطينية ، بمساعدة قصى[٢] ، وإذا كان صحيحاً ما ذهبت إليه المراجع العربية ، من أن أخوة قصى من عذرة قد ساعدوه في القضاء على خزاعة[٣] ، كما أشرنا من قبل ، فإن قبيلة عذرة هي التي قامت بهذا الدور .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد نجح قصى في القضاء على نفوذ خزاعة ومن والاها من بكر ، وفي أن يجليهم عن مكة ، وفي أن يصبح هو سيد المدينة المقدسة ، وصاحب ولاية البيت الحرام ، وأن يفرض نفوذه على بطون كنانة التي كانت تلى بعض مناسك الحج ، وأن ينزل قريشاً مكة ، وكان بعضاً من بطونها مقيماً في الشعاب ورؤوس الجبال ، ثم يقسمها أرباعاً بينهم ، ومن ثم فقد سمى « مجمعاً » ، وهكذا تزعم قصى قومه فملكوه عليهم ، فكان أول ولد كعب بن لؤى أصاب ملكاً وأطاع له به قومه ، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف قريش كله[٤] .

---

(١) أنظر : المعارف ص ٣١٣ ، وكذا
H. Lammenes, la Mecque a la Veille de l'Hegire, P. 289.

(٢) جواد علي ٤/٣٩ ، وكذا
W. Montgomery Watt, Muhammed at Mecca, Oxford, 1953, P. 13.

(٣) إبن الأثير ٢/١٩ ، إبن كثير ٢/٢٠٥ ، تاريخ الطبري ٢/٢٥٦–٢٥٧ ، تاريخ إبن خلدون ٢/٣٣٤ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٣٨ ، إبن سعد ١/٦٨ ، الأزرقي ١/١٠٥ .

(٤) ابن كثير ٢/٢٠٥–٢٠٩ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٣٧–٢٤٠ ، تاريخ الطبري ٢/٢٥٤–٢٥٨ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٤ ، مروج الذهب ٢/٣١–٣٣ ، الأزرقي ١/١٠٣–١٠٧ ، صبح الأعشي ١/٣٠٠–٣٠٦ ، نهاية الأرب للقلشقندي ص ٣٩٩–٤٠٠ ، نهاية الأرب للنويري ١/٢٤٦–٢٤٧ ، بلوغ الأرب للألوسي ٢/١٧٣ ، ٢٨٥ ، أنساب الأشراف ١/٥٠ ، الطبقات =

ولعل هذه الأحداث هي التي كانت سبباً في أن يذهب بعض المستشرقين الذين اعتادوا الشك في كل رواية عربية أو إسلامية ، إلى أن قصياً إنما هو شخصية خيالية ، إبتدعها خيال الإسلاميين على زعم ، وشخصية حربية جاءت من الشمال من السهوب المحيطة بسورية على زعم آخر ، ويبلغ الخيال أشده بهؤلاء المؤرخين الأوربيين حين يزعمون أن قريشاً نفسها — تلك القبيلة التي نجحت في أن تحكم مكة وأن تنقلها من مرحلة البداوة إلى زعامة شبه الجزيرة العربية ، وأن تنشىء لنفسها من التنظيم السياسي والإقتصادي والديني ما يكفل لها هذا التقدم ، وما يدل على معرفة كبيرة بشئون الحكم والاستقرار — لا يمكن أن تكون من هذه القبائل المتبدية في تهامة والحجاز ، ومن ثم فلا بد أن تكون — فيما يزعمون — قد قدمت من الشمال ، أو من وديان العراق ، وربما كانت من بقايا الأنباط الذين قضى الرومان على دولتهم في أوائل القرن الثاني الميلادي ، بخاصة وأن قريشاً قد برعت في التجارة التي برع الأنباط فيها من قبل ، كما أن لغتها التي سادت بلاد العرب ، إنما هي لغة شمالية أكثر منها جنوبية[1] .

ولاريب في أن هذا الزعم قد جانبه الصواب إلى حد كبير ، وذلك لأسباب منها (أولاً) أن قصياً إنما هو شخصية حقيقية قد عاشت في فترة لا تبعد كثيراً عن الإسلام ، ومن ثم فلا يمكن القول أن الخيال قد اختلط بالتاريخ فيما يدور حولها من أحداث ، ومنها (ثانياً) أن القرشيين أنفسهم قد سبقوا هؤلاء المتشككين من المستشرقين إلى القول ، بأنهم إنما يرتبطون بالأنباط بصلات القربى حتى أن « ابن عباس » قد أعلن منذ ما يقرب من أربعة عشر قرناً « نحن معاشر قريش من النبط » ، فضلاً عن أن لغة الحجاز لم تتطور من اليمنية مباشرة ، وإنما جاء التطور

— الكبرى ١/٣٦-٣٩ ، ٤/١٠٩ ، الميداني ١/٢١٦-٢١٧ ، المعارف ص ٢٧٩ ، شفاء الغرام ١/٥٤، ٦٧-٧٢ ، الإشتقاق ١/٣٦-٣٩، ١٥٥ ، ٢/٤٦٩ ، العقد الثمين ١/١٤٥-١٤٧ ، أحمد السباعي: تاريخ مكة ص ٤٥ ، حياة محمد ص ١١١ ، تاريخ الكعبة المعظمة ص ٢٨١-٢٨٤ .

(١) أحمد إبراهيم : المرجع السابق ص ١٠٥-١٠٦ ، شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص ٤٩ ، وكذا W.M. Watt, op. cit., P. 4 وكذا H. Lammens, op. cit., P. 148-94,

من العربية القديمة إلى الآشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية[1] ، ومن ثم فإن القرابة بين الأنباط والقرشيين أمر معروف ، وما أتى المستشرقون بجديد فيها — الأمر الذي سنشير إليه عند الحديث عن الأنباط —

ومنها (ثالثاً) أن هناك في المراجع العربية ما يشير إلى أن قريشاً عندما طردت خزاعة من مكة ، فإن بعضاً من رجال خزاعة قد وهب مسكنه ، ومنهم من باعه ، ومنهم من أسكنه ، مما يدل على أن مكة إنما كانت عشية تسلم قصي زمام السلطة فيها مأهولة بسكانها من الخزاعيين ، فما فعل قصي إلا أن أحل قريشاً مكان خزاعة ، بعد أن كان بعض منها يسكن الشعاب ورؤوس الجبال — كما أشرنا من قبل — ويؤيد هذه الحقيقة أن القرآن الكريم إنما يسمى مكة «أم القرى»، حيث يقول سبحانه وتعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرءاناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها »[2] ، ويقول : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا »[3] ، وبدهي أن ذلك إنما يعني أن مكة كانت عاصمة المنطقة وقت ذاك ، وأن أهل المنطقة إنما كانوا يعرفون هذه التسمية التي أطلقها القرآن الكريم على مكة ، كما أن مكة هذه

---

(١) العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٣٦–١٣٧ ، عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن القبائل البائدة ص ٨٩ ، فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٠٨–١٠٩ ،
وكذا The Universal Jewish Encyclopaedia, I, P. 198.
وكذا M. Sprenling, The Alphabet, its Rise and Development from the Sina Inscriptions. P. 52

(٢) سورة الشورى : آية ٧ ، وانظر : تفسير النسفي ١٠٠/٤ ، تفسير أبي السعود ٢٩/٥ ، الكشاف ٢٧٥/٣ ، تفسير البيضاوي ٣٥٣/٢ ، تفسير الطبري ٨/٢٥–١٠ ، تفسير القرطبي ١٦/١٦ ، تفسير الطبرسي ٣٨/٢٥–٣٩ ، تفسير روح المعاني ١٣/٢٥–١٤ ، تفسير ابن كثير ١٨٨/٦–١٩٠ ، تيسير العلي القدير ٥٦٤/٣ ، وأنظر : سورة الأنعام : آية ٩٢ .

(٣) سورة القصص : آية ٥٩ ، وانظر : تفسير البيضاوي ١٩٨/٢ ، تفسير الطبري ٦٥/٢٠–٩٦ ، تفسير روح المعاني ٩٨/٢٠ ، تفسير الطبرسي ٣٠٥/٢٠–٣١٠ ، تفسير ابن كثير ٣٩٥/٣–٣٩٦ (دار إحياء التراث العربي) تفسير القرطبي ٣٠١/١٣–٣٠٣ ، تيسير العلي القدير ٢٧٣/٣ ، في ظلال القرآن ٢٦٩٦/٢٠–٢٦٩٧ ، ٢٧٠٤–٢٧٠٥ (بيروت ١٩٧٤) ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ١٨٦/٣ .

لن توجد بين عشية وضحاها ، أو أن العمران يتطور فيها إلى أن تصبح عاصمة للحجاز ، فيما بين عهد قصي والبعثة النبوية الشريفة ، وهي فترة لا تزيد كثيراً عن قرن ونصف قرن من الزمان .

ومنها (رابعاً) أن مكة إنما تقع على طريق القوافل بين جنوب بلاد العرب وشمالها ، فضلاً عن أنها قريبة من البحر الأحمر ، ومن ثم فمن غير المقبول أن نتصور مكة ، ولها مثل هذا الموقع الجغرافي الممتاز ، دون أن تتصل بالعالم الخارجي ، وتأخذ عنه بأسباب الحضارة ، وقد فعلت مكة ذلك منذ أيام خزاعة على الأقل ، على أن ما أقرته مكة في عهد قصي من نوع الحكم ، إنما هو في جوهره تنظيم قبلي موجود في تشكيل القبيلة العربية[1] .

وأخيراً منها (خامساً) فإن هناك من آثار قصي ، وأعني به دار الندوة ، وما بقي حتى أيام الأمويين والعباسيين من بعدهم ، ويحدثنا التاريخ أن معاوية بن أبي سفيان (٤١–٦٠هـ — ٦٦١–٦٨٠م) قد اشترى دار الندوة من صاحبها بمائة ألف درهم ، وجعلها داراً للإمارة في مكة ، وأن الخليفة العباسي المعتضد بالله قد أمر بهدمها وإدخالها في المسجد الحرام[2] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن قصياً إنما هو أول رئيس من رؤساء مكة يمكننا الحديث عنه ، دون أن يخالجنا ريب فيما نقول ، فالرجل قد خلد ذكراه في التاريخ بأعماله العظيمة في مكة ، رغم ريب المرتابين ، والرجل قد أوجد من النظم في تنظيم الحج إلى بيت الله الحرام ، ما بقي بعده مئات السنين ، والرجل هو الذي جعل البلد الحرام خالصاً لأهله من بني كنانة من ولد إسماعيل ، عليه السلام ، بعد أن أبعد عنه المغتصبين من خزاعة .

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ١٠٧–١١٠ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١١٠ (القاهرة ١٩٧١) .

(٢) إبن الأثير ٢١/٢ ، إبن كثير ٢٠٧/٢ ، السهيلي ٨٨/١ ، العبادي : صور من التاريخ الإسلامي– العصر العربي – ص ١٢ .

وقد قام قصى بعدة إصلاحات في مكة ، فبعد أن جمع القرشيين المبعثرين في نواحي متعددة إلى وادي مكة ، جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة ، حتى تكون منازل القوم بجوار البيت الحرام ، فيتعهدونه بالصيانة ، ويدفعون عنه الخطر ، ومن ثم فإنه لم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش ، إلا بمقدار ما يسمح للناس بالطواف ، وإن كان أهم أعماله إنما هو إنشاؤه « دار الندوة » ، حيث كان يدار فيها — تحت رياسته ، كل أمر قريش — وما أرادوه من حرب أو تجارة أو مشورة أو نكاح ، فما كان لرجل ولا لامرأة أن يتزوج إلا فيها ، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها ، ومن ثم فقد كان على صاحب الدار أن يشق درعها بيده ، وكان القوم يفعلون ذلك ببناتهم إذا بلغن الحلم ، وربما كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش — ذكوراً كانوا أم إناثاً — وأما أعضاء دار الندوة هذه ، فكانوا جميع ولد قصى ، وبعضاً من غيرهم ، على شريطة أن يكون الواحد منهم قد بلغ الأربعين من عمره ، أو كان من ذوى القدرات الخاصة[1] ، وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد ، يديرها الملأ من القوم — الذين كانوا يشبهون إلى حد ما أعضاء مجلس الشيوخ الآثيني[2] — ويتكونون من رؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحكمة فيهم ، للنظر فيما يعترض القوم من صعاب[3] .

وكان قصى شديد العناية بعمارة البيت الحرام ، الذي يزعم البعض أنه أعاد بناءه ، ومن ثم فهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش ، ثم سقفها بخشب الدوم

---

(١) عبدالحميد العبادي : المرجع السابق ص٨–٩ ، الأغاني ٣٨٤/٤ ، الألوسي ٢٤٨/١ ، إبن هشام ١٣٤/١–١٣٦ (مكتبة الجمهورية بمصر) ، ابن سعد ٣٩/١–٤٠ ، المقدسي ١٢٧/٤ ، الأزرقي ٢٠٧/١–١٠٩ ، ياقوت ١٨٦/٥–١٨٧ ، تاريخ الطبري ٢٥٧/٢–٢٥٩ ، تاريخ اليعقوبي ٢٤٠/١ ، تاريخ إبن خلدون ٣٣٥/٢ ، أنساب العرب للبلاذري ٥٢/١ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص٤٣٠٠ ، شفاء الغرام ٨٦/٢–٨٧ ، الإشتقاق ١٥٥/١ ، تاريخ مكة ص ٤٥ ، حياة محمد ص ١١١ ، أحمد إبراهيم : المرجع السابق ص ١١٥ ، P.K. Hitti, op. cit., P. 104.

(٢) W.M. Watt, op. cit., P. 9.

(٣) جواد علي ٤٧/٤ ، وكذا De Lacy O'Leary, op. cit., P. 183.

وجريد النخل ، كما كان أول من أظهر الحجر الأسود بعدآن دفنته «إياد» في جبال مكة ، ثم أوكل أمره من بعده إلى جماعة من قريش ، حتّى أعاد القوم بناء الكعبة في عام ٦٠٦م (٣٥ ق.هـ) ، فوضعوه في ركن البيت بإزاء باب الكعبة في آخر الركن الشرقي ، ويحدثنا التاريخ أن القوم كادوا يقتتلون على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، لولا حكمة سيد الأولين والآخرين — محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وذلك بأن وضع الحجر في ثوب ، ثم أمر بأن تأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم رفعوه جميعاً ، فلما بلغوا موضعه ، وضعه بيدهالشريفة ، ثم بنى عليه[1] .

ولعل من أهم أعمال قصى أنه جعل وظيفة «سدانة الكعبة» — وهي خدمة البيت الحرام — من أهم الوظائف في عهده ، والأمر كذلك بالنسبة إلى وظيفة « السقاية » ، بخاصة في بلد شحت مياهه في وقت كان يستقبل فيه أكثر مما يطيق من الحجيج ، ومن ثم فقد كان على صاحب السقاية توفير المياه لزوار بيت الله الحرام ، حتّى ييسر لهم مهمة الحج ،ويجعل الإقبال عليه كبيرا ، ومن ثم يذهب الأخباريون إلىأن قصياً قد حفر بئراً سماها «العجول» ، وكانت «الرفادة» — وهي خرج تدفعه قريش من أموالها إلى قصى ليصنع منه طعاماً للحجاج ممن لم يكونوا على ميسرة —من الوظائف الهامة التي ظهرت في مكة على أيام قصى ،وتروي المصادر العربية أن قصياً قال لقومه : « إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتّى يصدروا عنكم » ، ففعلوافكانوا يخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام « منى » ، فجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والإسلام ، وأخيراً كان من أعمال قصي «اللواء»— وهو رياسة

---

(١) مروج الذهب ٢/٢٧٢–٢٧٣ ، مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٥–٢٦ ، تاريخ الطبري ٢/٢٨٨–٢٩٠ ، إبن كثير ٢/٢٩٩–٣٠٤ ، ابن الأثير ٢/٤٤–٤٥ ، ياقوت ٤/٤٣٦٦ ، ابن هشام ١/١٩٩–٢٠٠ ، الأزرقي ١/١٥٧–١٦٤ ، تاريخ الخميس ص ١٢٦–١٣١ ، المقدسي ١/١٤٠ ، إبن سعد ١/٩٣–٩٥ ، تفسير القرطبي ٢/١٢٢–١٢٣ ، هيكل : حياة محمد ص ١٤١–١٤٢ .

الجيش في الحروب — ويسند لمن بيده اللواء ، يسلمونه إليه عند قيام الحرب [١] ، وتجمع المصادر الإسلامية على أن مولانا وسيدنا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد ألغى هذه المناصب جميعاً يوم فتح مكة ، إلا سقاية الحاج وسدانة الكعبة [٢] .

ويجمع المؤرخون على أن قصياً إنما ظل يمسك بهذه الوظائف جميعاً حتى وفاته ، كما ظل كذلك الرجل الوقور المطاع في قومه ، لا يُخالف ، ولا يرد عليه شيء أقره ، ولعله في جمعه لرياسة دار الندوة وعقده اللواء وجمعه الرفادة ، يقابل في اصطلاحاتنا الحديثة ، رياسة السلطات التشريعية والحربية والمالية — إن جاز هذا التعبير [٣] —

ولعل هذا هو الذي دفع «الأب هنري لامانس» إلى القول ، بأن مكة إنما كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، وقد يكون لشخصية «قصى» الفذة تأثير في ذلك ، إلا أن تنظيمات قريش لم تكن في واقع الأمر ، إلا تنظيماً قبلياً في جوهره ، وإن بدا في ظاهره تنظيماً جمهورياً ، لأن الزعيم لم يكن يحمل لقباً معيناً ، فضلاً عن أن هناك من الأدلة ما يشير إلى أن العشيرة إنما كانت تتمتع بحرية كاملة ، ولا تخضع لسلطان غيرها في كثير من الأحايين ، بل إن كثيراً من الأفراد إنما كانوا يخرجون على رأي العشيرة نفسها ، ومن النوع الأول عدم مشاركة بني زهرة لقريش في موقعة بدر ، رغم موافقتها على القتال وخروجها إليه ، بل إن بني عدى لم يخرجوا للقتال أصلاً ، ومن النوع الثاني خروج أبي لهب على رأي بني هاشم ، وانضمامه إلى بقية بطون قريش في مقاطعتها لبني هاشم ، وبقاء العباس على علاقاته الودية ببطون قريش ، رغم تضامنه مع بني هاشم ، هذا إلى جانب أن العشيرة إنما كانت تخرج

(١) إبن الأثير ٢/٢١–٢٣ ، الطبري ٢/٢٥٨–٢٦٠ ، ابن هشام ١/١٣٤–١٤٠ ، ياقوت ٥/١٨٧٦ ، إبن سعد ١/٤١ ، البلاذري ١/٥١ ، إبن خلدون ٢/٢٣٥ ، اليعقوبي ١/٢٤٠–٢٤٢ ، الأزرقي ١/٦٢ ، ١٢٧ .

(٢) العقد الفريد ٣/٣١٣–٣١٥ ، إبن كثير ٤/٣١٠ ، تاريخ مكة ص ٥٣ ، الطبري ٣/٦٠–٦١ ، المقدسي ٤/١٢٧–١٢٨ ، الأزرقي ١/١١٠–١١١ ، ١١٤–١١٥ ، شفاء الغرام ٢/١٢٠ .

(٣) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ١٣٩ .

أحياناً على رأي مجلس القبيلة ، ومثال ذلك اجتماع بني هاشم والمطلب على حماية المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — ومواجهة قريش[1] .

ويرى الدكتور طه حسين — يرحمه الله — أنه من العسير أن نحدد لمكة نظاماً من نظم الحكم التي يعرفها الناس ، فلم يكن لها ملك ، ولم تكن جمهورية أرستقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة ، ولم تكن جمهورة ديمقراطية بالمعنى المألوف لهذه العبارة أيضاً ، ولم يكن لها طاغية يدير أمورها على رغمها ، وإنما كانت قبيلة عربية احتفظت بكثير من خصائص القبائل البادية ، فهي منقسمة إلى أحياء وبطون وفصائل، والتنافس بين هذه جميعاً قد يشتد حيناً ويلين حيناً آخر ، ولكنه لا يصل إلى الخصومات الدامية ، كما هو الحال في البادية، وأمور الحكم، تجري كما تجري في البادية ، وكل ما وصلت إليه قريش من التطور في شؤون الحكم هو أنها لم يكن لها سيد أو شيخ يرجع إليه فيما يشكل من الأمر، وإنما كان لها سادة أو شيوخ يلتئم منها مجلس في المسجد الحرام، أو في دار الندوة[2] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن قريشاً هذه — كما يجمع المؤرخون الإسلاميون — إنما هي من نسل رجل واحد ، هو « فهر بن مالك بن النضر بن كنانة » من ولد إسماعيل عليه السلام ، وأن إسم قريش لم يعرف إلا منذ أيام « فهر » ، ومن ثم فقريش هم « فهر » ومن تحدر من صلبه من سكان مكة وظواهرها[3] .

وأما أقدم ذكر لقريش في النصوص العربية الجنوبية القديمة ، فربما كان — كما أشرنا من قبل — يرجع إلى أيام الملك الحضرمي « العزيلط » ، والذي حكم في القرن

---

(1) أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١١٢–١١٣ ، إبن هشام ١/٣٦٥ ، الطبري ٢/٣٢٣–٣٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣٢ ، إبن الأثير ٢/٨٧ ، ١١٧ ، ١٢١ ، إبن كثير ٣/٨٤–٨٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، وكذا H. Lammens, La Republique Marchand de la Mecque

(2) طه حسين : مرآة الإسلام ص ٢٢ .

(3) البلاذري ١/٣٩ ، نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ص ٩ ، إبن سعد ١/٥٥ ، نهاية الأرب ص ٣٦٤ (بغداد ١٩٥٨) ، ابن هشام ١/١٠٣ ، المعارف ص ٣١ ، شفاء الغرام ٢/٦٣–٦٤ ، نسب قريش للزبيرى ص ١٢ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٢٤ ، قارن الإشتقاق ١/٢٧ .

الأول قبل الميلاد على رأي ، وفي القرن الثالث الميلادي على رأي آخر[1] ، فهناك ما يشير إلى أن عشر نساء قرشيات رافقن الملك « العزيلط » إلى حصن « أنو » ، فإذا كان النص يعني حقاً بقريش ، قريش صاحبة مكة ، فإننا نكون قد وقفنا لأول مرة على إسم قريش في وثيقة مدونة من عصر هذا الملك[2] .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد أنجب قصى ثلاثة أبناء — عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى — ورغم أن عبد الدار كان أكبر أخوته ، إلا أن عبد مناف كان أكثر شهرة ، وأرفع شأناً ، وأعظم مهابة ، ومن ثم فقد رأى قصى أن يعوض عبد الدار عما فقده من مقومات الزعامة ، فأسند إليه كثيراً من الوظائف ليقاوم شخصية أخيه القوية ، وتمضي الأيام ويرث الأبناء الآباء ، ويقوم النزاع بينهم ، حتى ينتهي آخر الأمر ، بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة (مفاتيح الكعبة) واللواء ورياسة دار الندوة لبني عبد الدار[3] .

ويتولى هاشم السقاية والرفادة بعد أبيه عبد مناف ، ويروي المؤرخون أنه كان غياث قومه في عام المجاعة ، فرحل إلى فلسطين حيث اشترى كميات من الدقيق وقدم بها إلى مكة ، فبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس أو وارد عليه ، وسمي بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع إلى قصاعه ، بدلاً من إسمه الأصلي عمرو ، ومما يروى عنه كذلك أنه أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء

---

(١) فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٢٧٤—٢٧٩ ، وكذا
H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit., P. 114.
وكذا BASOR, 119, P. 14.
Le Museon, 1964, 3-4, P. 484.

(٢) جواد علي ٢/١٤٥ ، وكذا

(٣) إبن الأثير ٢/٢١ ، تاريخ الطبري ٢/٢٥٥ ، ٢٥٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٥—٣٣٦ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٤١ ، تاريخ الكعبة المعظمة ص٢٨٤ ، إبن سعد ١/٤١—٤٢ ، المحبر ص ١٦٦ ، المعارف ص ٦٠٤ ، أنساب الأشراف ١/٦٠ ، العقد الثمين ١/١٤٨ ، شفاء الغرام ٢/٧٥—٧٦ ، ٨٧ ، نسب قريش ص ١٤ ، ياقوت ٥/١٨٧ ، جمهرة أنساب العرب ص ١٤ ، نهاية الأرب ١/٢٤٨ ، الأزرقي ١/١٠٩—١١٠ .

والصيف ، وحقيقة ذلك فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات أنه كان يحمي تلك الرحلات وينظمها ، فنسب إليه أنه أول من سنها[1] .

هذا بالإضافة إلى أن الرجل العظيم قد عقد بنفسه مع الإمبراطورية الرومانية ، ومع أمير غسان : معاهدة حسن جوار ومودة ، وحصل من الإمبراطور الروماني على الأذن لقريش بأن تجوب الشام في أمن وطمأنينة ، كما عقد نوفل والمطلب حلفاً مع فارس ، ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن[2] .

ويذهب الأخباريون إلى أن هاشماً وعبد شمس توأمان ، وأن أحدهما ولد قبل الآخر وأصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه ،فنحيت فسال الدم ،فقيل يكون بينهما دم ، ومن ثم فإنهم يرون أن أمية بن عبد شمس قد حسد هاشماً على رياسته وإطعامه ، فتكلف أن يصنع مثله ، ولكنه قد عجز ، ومن ثم فقد شمت به ناس من قريش ، وتنافر هو وهاشم ، وانتهى الأمر بجلاء أمية عن مكة عشر سنين ، فكان ذلك أول خلاف بين بني هاشم وبني أمية[3] .

وفي الواقع — وكما يقول الأستاذ العقاد — فلقد كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة ، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء ، وينعقد

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٥١-٢٥٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٣٣٦-٣٣٧ ، تاريخ الكعبة المعظمة ص ٢٨٥-٢٨٦ ، ابن هشام ١/١٤٥-١٤٦ ، أنساب الأشراف ١/٥٨ ، الإشتقاق ١/١٣ ، المقدسي ٤/١٢٨-١٢٩ ، إبن سعد ١/٤٣-٤٤ ، ذيل الأمالي والنوادر ص ١٩٩-٢٠٠ ، حياة محمد ص ١١٢ ، العقاد : المرجع السابق ص ١٢٠ ، الأزرقي ١/١١١ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٤٢-٢٤٣ ، صبح الأعشي ١/٣٥٨ ، نهاية الأرب للقلشقندي ص ٣٩٥ ، العقد الثمين ١/١٤٨ ، بلوغ الأرب ٢/٢٨٤ ، شفاء الغرام ٢/٧٧ ، ٨٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ١/٢٤٢-٢٤٣ ، تفسير الفخر الرازي ٣١/١٨٠ ، ثمار القلوب للثعالبي ص ١١٥-١١٦ ، ذيل الأمالي والنوادر ص ١٩٩ ، حياة محمد ص ١١٥ وكذا

L. Caetani, Annali dell' Islam, 1905, P. 109.

(٣) إبن الأثير ٢/١٦-١٧ ، تاريخ الطبري ٢/٢٥٢-٢٥٤ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٤٢ ، إبن سعد ١/٤٤ ، ٥٢ ، شفاء الغرام ٢١/٨٥ ، نسب قريش ص ١٤ ، بلوغ الأرب ٢/٢٨٣-٢٨٤ ، نهاية الأرب ١/٣٠٧-٣٠٨ ، المقريزي : كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ص ٢ ، ٧ ، جواد علي ٤/٧١-٧٢ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ١/١٠٣-١٠٤ ، قارن : تفسير المنار ١١/٩٧ .

الإجماع – أو ما يشبه الإجماع – على أخبار الجاهلية التي تنم على هذه الخصال في الأسرتين ، وبقي الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه[1] .

وورث عبد المطلب زعامة أبيه هاشم ، فأصبح سيد قريش ، وإن لم يكن أغناها ، وهكذا تولى السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم ، وفي الواقع فإن عبد المطلب لم يكن عظيماً عند قريش فحسب ، وإنما كان عظيما كذلك في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فإن المؤرخين يرون أنه قد ذهب إلى اليمن مهنئاً بالملك ، عندما تولى « معد يكرب » (سيف بن ذى يزن) عرش اليمن ، بعد أن – نجح بمساعدة الفرس – في طرد الأحباش من اليمن[2] ، مما يدل على أن الرجل كان ذا مكانة عند ملوك العرب ، تعطيه الحق في الإتصال بهم ، ثم تهنئتهم بعروشهم ، كما يدل في الوقت نفسه على مكانته عند قريش ، حتى أنه كان رئيساً لوفدها في هذه المهمات العظيمة ، والتي ربما كان من نتائجها أن يأخذ إيلافاً لقومه من ملوك اليمن ، ومن ثم فقد أصبحت قريش تنظم عيراً إلى اليمن في كل عام[3] .

هذا وتذهب المصادر العربية إلى أن عبد المطلب قد لقى الكثير من المتاعب في توفير المياه للحجيج عندما تولى أمر السقاية والرفادة ، وذلك بسبب دفن زمزم ، ربما منذ أيام جرهم ، وزاد الأمر صعوبة أن مكة كانت آن ذاك تمر بفترة قاسية ندرت فيها الأمطار ، وجفت مياه الآبار – أو كادت – في وقت كان موسم الحج قد بدت طلائعه ، وهنا رأى عبد المطلب – فيما يرى النائم – أنه يؤمر بحفر طيبة ،

---

(1) العقاد : مطلع النور ص ١١٨ .

(2) مروج الذهب ٢/٥٧–٥٩ ، ابن الأثير ١٢/٢ ، بلوغ الأرب ٢/٢٦٦–٢٦٩ ، تاريخ الخميس ص ٢٧١–٢٧٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٦٤ ، إبن كثير ٢/٣٢٨–٣٣٠ ، الأزرقي ١/١٤٩–١٥٤ ، ابن هشام ١/١٥١ ، تاريخ الطبري ٢/٢٥١ .

(3) ذيل الأمالي ص ١٩٩ ، جواد علي ٣/٧٧–٧٨ .

وحين يسأل عنها لا يتلقى جواباً ، غير أن الرواية تتكرر أياماً ثلاثة ، يؤمر فيها عبد المطلب بحفر «برة» ثم «المضنونة» ثم «زمزم» ، وحين يسأل عبد المطلب عن «زمزم» يجيبه الهاتف «تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبداً ولا تذم ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل» ، وينجح عبد المطلب في حفر زمزم، غير أن قريشاً سرعان ما تطالب بحقها في زمزم ، على أساس أنها بئر أبيهم إسماعيل ، وإن انتهت الأمور إلى جانب عبد المطلب[1] .

وعلى أي حال ، فلقد تميز عبد المطلب – جد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم – بأريحه لا نستطيع أن نسميها إلا «بالمطلبية» ، أريحة فريدة في نوعها ،لا تدل إلا عليه ولا تصدر إلا منه ، وكانت كلها مزيجاً من الأنفة والكرم ، والرصانة والإستقلال ، ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة ، وهناك طائفة من أخباره لا تفتقد في واحدة منها تلك المناقب المطلبية التي تعز على خيال المتخيل ، ما لم يكن وراءها أصل تحكية وترجع إليه ، فعلى سبيل المثال ، يروي المؤرخون في حادث فداء ولده عبدالله ، أن القداح بعد أن خرجت على الإبل – التي بلغ عددها مائة على رواية ، وثلاثمائة على رواية أخرى – فإذا بعبد المطلب يأمر بذبحها ، وحين تنحر تترك في الفضاء لا يمنع من لحمها أنس ولا وحش ولا طير ، إلا أن يكون ذلك عبد المطلب وولده[2] .

---

(١) إبن الأثير ١٢/٢–١٤ ، ابن كثير ٢٤٤/٢–٢٤٨ ، تاريخ الطبري ٢٥١/٢ ، الروض الأنف ٨٠/١ ، ٩٨ ، المقدسي ١١٣/٤ –١١٤ ، الطبقات الكبرى ٤٩/١–٥٠ ، أنساب الأشراف للبلاذري ٧٨/١ ، سيرة النبي لابن هشام ١٥١/١–١٥٨ ، تاريخ اليعقوبي ٢٤٦/١–٢٤٧ ، الأزرقي ٤٢/٢–٤٧ ، تاريخ الخميس ص ٢٠٢–٢٠٤ ، ياقوت ١٤٩/٣ ، كتاب المناسك للحربي ص ٤٨٥ .

(٢) العقاد: مطلع النور ص١٢١–١٢٤ ، وأنظر، شرح نهج البلاغة ٨٨/١ ومابعدها، الطبقات الكبرى ٥٠/١ ، ٥٣–٥٤ ، المقدسي ١١٤/١–١١٦ ، مروج الذهب ١٠٤/٢ ، الأزرقي ٤٣/٢–٤٤ ، ٤٧–٤٩ ، إبن الأثير ٥/٢–٧ ، تاريخ الطبري ٢٣٩/٢–٢٤٣ ، ابن كثير ٢٤٨/٢–٢٤٩ ، تاريخ الخميس ص ١٢٩ ، ٢٠٦–٢٠٧ .

وهناك ما يشير إلى أن المنافرات بين البيتين – الهاشمي والأموي – قد استمرت وذلك أمر لا غرابة فيه ، فالبيتان – فيما نظن – على طرفي نقيض ، وربما خفي السبب الذي يرجع إليه هذا الفارق بين الأسرتين ، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول ، وقد رُمّي الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة في عمود النسب، وعرض لهم بذلك أناس من ذوي قرباهم في صدر الإسلام ، وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة « ذكوان » الذي يقولون أنه من آبائهم ، ويقول النسابون أنه عبد مستلحق على غير سنة العرب في الجاهلية ، وعلى أي حال ، وأياً ما كان سر هذا الفارق البيّن ، فلقد كان بنو هاشم – أسرة النبي صلى الله عليه وسلم – أصحاب رئاسة ، وكانت لهم أخلاق رئاسة ، عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة ، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق في حادثة مأثورة مذكورة ، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التي يتبرع بها الشعراء ، أو من الكلمات التي ترسل إرسالاً على الألسنة ولا يراد بها معناها .

ويبلغ هذا التنافر بين الأسرتين شأواً بعيداً ، فيما بين عبد المطلب وحرب بن أمية ، إذ كان كلاهما نمطاً في بابه ، ويروي المؤرخون أن حرباً نافر عبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب – وإن رأى البعض أن المنافرة إنما كانت مع هاشم – وأن نفيلا قد قضى فيها لعبد المطلب ، وأنه خاطب حرباً قائلاً : « أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً ، وأطول منك مذوداً[1] » .

وأما في الإسلام ، فقد كان بنو أمية حجر عثرة في سبيل الدعوة الإسلامية وناصبوها العداء الشديد، إلا قليلاً منهم ممن هداهم الله للإسلام، وبعد هجرة الرسول – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – إلى المدينة المنورة ، واشتباك المسلمين مع مشركي قريش ، كان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قائد الجيش في غزوة بدر ، وكان

---

(١) العقاد : مطلع النور ص ١١٨–١٢٠ ، وانظر : بلوغ الأرب ١/٣٠٧–٣٠٨ ، أعلام النبوة للماوردي ص١٣٨ (القاهرة ١٩٣٥) ، عبد الفتاح شحاته : تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام ٢/٢٤٩–٢٥٠ .

أبو سفيان قائد العير ، وفي غزوتي أحد والأحزاب كان أبو سفيان قائداً للجيش ، بل إن أبا سفيان ، حتى بعد إسلامه يوم فتح مكة ، فقد كان — وكذا ولده معاوية — من المؤلفة قلوبهم ، فضلاً عن أنه هو القائل بعد اضطراب المسلمين في غزوة حنين والأزلام في كنانته « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » ، تعبيراً عما في نفسه من الضغن على الإسلام ورسول الإسلام[1] .

وعلى أي حال ، فلقد تمّ في عهد عبد المطلب إعادة حفر زمزم ، كما حدث في عهده أخطر الأحداث في تاريخ مكة القريب من الإسلام ، وأعني به حملة أبرهة الحبشي — الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » — على أن أهم الأحداث من عهده دون منازع ، ليس في تاريخ مكة فحسب ، وإنما في تاريخ البشرية جمعاء ، إنما كان مولد جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم[2] — وبذا كتب للرجل العظيم أن يكون جد المصطفى ، صلى الله عليه وسلم .

---

(1) عبد الفتاح شحاته المرجع السابق ص٢٥٠ ، إبن الأثير ١٢٣/٢–١٢٤،١٤٩،١٧٨،٢٦٣،إبن كثير ٢٦٩/٣–٢٧٠ ، ١١/٤ ، ٩٥ ، ٣٢٧ ، تاريخ الطبري ٤٤٢/٢–٤٤٣ ، ٥٠١ ، ٥٦٦ ، ٧٤/٣ ، المعارف ص ٧٥ ، المحبر ص ٤٧٣ ، تفسير الطبري ٣١٣/١٤ (دار المعارف ١٩٥٨) ، نهاية الأرب للقلشقندي ص ٧٩٨ (بغداد ١٩٥٨) ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ١١٣ ، ١١٥–١١٧ .

(2) تذهب الروايات العربية إلى أن المولد النبوي الشريف إنما كان في عام الفيل ، غير أن هذا العام غير معروف على وجه التحديد (عام ٥٥٢ أو ٥٦٣ ، أو ٥٧٠ أو ٥٧١م) وكذا من رأوه يتفق وموقعة ذي قار ، ومن ثم فقد اعتمد العلماء على تاريخين محققين من سيرة النبي ، وهما تاريخ الهجرة في عام ٦٢٢م ، وتاريخ الإنتقال إلى الرفيق الأعلى في عام ٦٣٢م ، ومع ذلك لم يصلوا إلى نتيجة مؤكدة ، وعلى أي حال فهناك من يرى أنه في ٢٧ أغسطس عام ٥٧٠م ، أو ٢٩ أغسطس عام ٥٧٠ ، وأما محمود الفلكي فقد رآه في يوم ٩ ربيع الأول (٢٠ أبريل ٥٧١م) ، وعلى أي حال ، فيكاد المؤرخون يجمعون على أنه كان في يوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، والموافق للعام الثالث والخمسين قبل الهجرة (٥٧١م) ، وأما الإنتقال إلى الرفيق الأعلى فقد كان في يوم ١٢ أو ١٣ من ربيع الأول عام ١١هـ (٧ أو ٨ يونيو عام ٦٣٢م) ، بعد أن بلغ ٦٣ عاماً قمرياً بالكامل (أكثر من ٦١ عاماً شمسياً) (أنظر : تاريخ الطبري ١٥٥/٢–١٥٧ ، ابن الأثير ٤٥٨/١–٤٥٩ ، ابن كثير ٢٥٩/١–٢٦٢ ، ياقوت ٢٩٣/٤–٢٩٤ ، الفلكى : التقويم العربي =

(٣) مكانة مكة :

أصبحت مكة منذ آل أمرها إلى قريش على أيام قصى مركزاً للحياة الدينية في شبه الجزيرة العربية ، تشد إليه الرحال ، وتشخص إليه الأبصار ، وفيها أكثر من كل جهة سواها، كانت ترعى الأشهر الحرم، بسبب وجود الكعبة المشرفة هناك ، لذلك كله ، ولمركزها الممتاز في تجارة العرب ، كانت تعتبر وكأنها عاصمة شبه الجزيرة العربية .

وفي الواقع أنه رغم وجود « البيوت الحرام » في بلاد العرب ، كبيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة وبيت صنعاء وبيت نجران وغيرها من البيوت الحرام[1] ، فإن واحداً منها لم يجتمع له ما اجتمع لبيت مكة ، ذلك لأن مكة إنما كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال ، وبين الشرق والغرب ، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام ، ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطىء الجنوب ، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ، ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل في باديتها أو في رحلاتها ، فليست في مكة دولة كدولة التبابعة في اليمن، أو المناذرة في الحيرة ،أو الغساسنة في الشام ، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان، كسلطان الروم أو الفرس أو الأحباش ؛ وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطىء،أو بين بوادي الصحراء ، وإنما كانت مكة بمثابة عبادة وتجارة ، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالي من عداه ، وهي وإن لم تكن

— قبل الاسلام ص ٣٨ ، دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٢ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ١/٩٥-٩٦ ، المحبر ص ٨-٩ ، « دراسات في التاريخ القرآني »

وكذا P. Lammens, Age de Mohammad, P. 209 F

وكذا R. Blachere, Le Problem de Mahomet, P. 15.

وكذا Caussin des Perceval, Essi sur l'Histoire des Arabs, I, P. 283.

(١) أنظر : ياقوت ١/٢٣٨ ، ٣/٤٢٧ ، ٤/٣٩٤-٣٩٥ ، ٥/٢٦٨-٢٦٩ ، بلوغ الأرب ١/٣٤٦-٣٤٧ ، ٢/٢٠٢ ، ٢٠٧-٢٠٩ ، ١١٢ ، جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٣ ، الأصنام ص ٣٨ ، الروض الأنف ١/٦٦ ، الأغاني ٣/١٧٢ .

كذلك من أقدم زمانها ، فقد صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق، الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة[1] .

وزاد من قيمة مكة أن اليمن — بعد الاحتلال الحبشي في عام ٥٢٥م — لم تنجح في سد الفراغ الذي تركته البحرية الرومية ، ربما لظروف جغرافية أكثر منها سياسية ، ومن ثم فقد أصبح الطريق البري — عبر تهامة والحجاز — هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة ، وكان لا بد — بعد زوال النشاط اليمني — أن يوجد من يسد هذا الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين ، لنقل التجارة ، وقد وجد هذا الوسيط ممثلاً في مكة[2] ، التي حظيت منذ منتصف القرن الخامس الميلادي بمكانة ممتازة بين عرب الشمال ، فضلاً عن طرفي الصراع الدولي (الفرس والروم) وقت ذاك ، وساعد على ذلك رغبة الفريقين المتنافسين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية ، وبُعد مكة وصعوبة الوصول إليها ما ناحية أخرى[3] .

وهكذا كان موقع مكة الجغرافي سبباً في أن يجعل من المدينة المقدسة عقدة تتجمع فيها القوافل، التي ترد من العربية الجنوبية تريد الشام، أو القادمة من الشام تريد اليمن، حتى إذا ما كان القرن السادس الميلادي نجح القرشيون في احتكار التجارة في بلاد العرب ، فضلاً عن السيطرة على طرق القوافل التي تربط اليمن بالشام من ناحية ، وبالعراق من ناحية أخرى[4] .

وقد بلغت شهرة القرشيين في التجارة ومهارتهم فيها ، إلى أن يذهب البعض إلى القول بأن « قريشاً » إنما سميت كذلك لاحترافها التجارة ، لأن التقرش إنما هو

---

(٦) العقاد : مطلع النور ص ١١٢-١١٣ .

(٢) أحمد ابراهيم : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول — القاهرة ١٩٦٥ — ص ١٥٤

وكذا S.A. Huzayyin, Arabia and the Far East, P. 142-3.

وكذا E. Gibbon, op. cit., 5, P. 213.

(٣) أنظر كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » .

(٤) W.M. Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, P. 3.

التجارة والاكتساب[1] . وإلى أن تذكر رحلاتهم التجارية في القرآن الكريم ، حيث يقول سبحانه وتعالى « لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف[2] » .

هذا وقد كانت قوافل مكة ... به بالحملات تكون بآلاف الإبل ، التي يقوم على حمايتها جيش خاص دعوه « الأحابيش[3] » لعلهم من العرب أو السودان ، فكانت مكة أشبه ببنك كبير ، فلم تكن القوافل ملكاً لشخص واحد ، وإنما كانت هناك طريقة لجمع المال من عدة أسر معروفة ، كهاشم وأمية ومخزوم ونوفل[4] . وقد أدى ذلك إلى تضخم أموال قريش ، حتى بلغت قوافلهم التجارية في عهد غزوة بدر[5] ألف بعير ، مضافاً اليها خمسون ألف دينار منقولة بين أثقالهم ، بل إن رجلا واحداً — هو سعيد بن العاص (أبو أحيحة) - استطاع أن يسهم في رأس مالها بثلاثين ألف دينار ، كما بلغت قوافلهم في بعض المرات ألفين وخمسمائة بعير ، وهي نسبة

---

(١) إبن هشام ١/٦٠ ، ياقوت ٤/٣٣٦ ، مجمع الأمثال ٢/٧٢ ، نهاية الأرب ص ٣٦٤ (بغداد ١٩٥٨) ، فجر الإسلام ص ١٣—١٤ ، تاريخ مكة ص ٥٩ ، البلاذري ١/٥٩ ، وراجع تفسيرات أخرى في : ياقوت ٤/٣٣٦—٣٣٧ ، تفسير روح المعاني ٣٠/٢٣٨ ٢٣٩ ، تفسير الفخر الرازي ٣٢/١٠٦ .

(٢) سورة قريش ، وانظر : تفسير القرطبي ٢٠/٢٠٠ ٢٠٩ (دار الكتب المصرية) ، تفسير الفخر الرازي ٣٢/١٠٣—١١٠ ، تفسير البيضاوي ٢/٥٧٧ ، تفسير الطبري ٣٠/٣٠٥ ٣٠٩ (طبعة الحلبي) ، تفسير روح المعاني ٣٠/٢٣٨-٢٤١ .

(٣) أنظر عن الأحابيش : تاج العروس ٤/١٣٠ ، ٩/٢٠٠ ، تاريخ الطبري ٢/٥٠١ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٤١ ، تاريخ مكة ص ٥٢ ، نسب قريش ص ٣٨٩ ، إبن الأثير ٢/١٤٩ ، المعارف ص ٣٠٢—٣٠٣ ، العمدة ٢/١٩٤ ، اللسان ٦/٢٧٨ ، البلاذري ١/٥٢ ، ٧٦ ، المحبر ص ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، العبادي : المرجع السابق ص ١٢-١٣ ، جواد علي ٣/٣٠-٣٦ .

(٤) تاريخ الطبري ٢/٤٢١—٤٢٢ ، تاريخ إبن خلدون ٢/١٧ ، الطبقات الكبرى ١/٤٠ ، عبد المنعم ماجد ١/٧٩ ، وكذا Essad Bey, la Vie de Mahomet, P. 42.

(٥) أنظر عن « غزوة بدر » (يوم الجمعة ١٧ رمضان ٢هـ = ١٤ مارس ٦٢٤م) : تاريخ الطبري ٢/٤٢١-٤٧٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/١٧-٢١ ، ابن الأثير ٢/١١٦ ١٣٧ ، ابن كثير ٣/٢٥٦ ٣٤٤ ، وفاء الوفا ١/١٩٦—١٩٧ ، إبن هشام ٢/٦٣-٨٤ ، المعارف ص ٧٥-٧٨ ، الأغاني ٤/١٧٦-٢٠٩ ، ياقوت ١/٣٥٧—٣٥٨ ، البكري ١/٢٤١-٢٣٢ ، تفسير الطبري ١٣/٤٠٩ ، ٤٤٣ ، ٥٧٨ .

بها قيمتها المادية ، إذا قيست بالثروات في عهدها ، هذا وقد بلغ ثراء قريش إلى أنها قد استطاعت في غزوة بدر أن تفتدي أسراها من المكيين بأربعة آلاف درهم للرجل ، إلى ألف درهم ، إلا من عفا عنهم النبي — صلى الله عليه وسلم — من المعدمين[1] .

وعلى أي حال ، فإن ظروف مكة السياسية والإقتصادية والجغرافية قد جعلت منها مدينةعربية بلجميع العرب ، فلم تكن كسروية أو قيصرية ، ولا تبعية أو نجاشية ، كما عساها أن تكون لو استقرت على مشارف الشام ، أو عند تخوم الجنوب ، ولهذا تمت لها الخصائص التي كانت لازمة لمن يقصدونها ، ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة ، لا على حكم القهر والإكراه[2] .

وقد عملت قريش على توفير الأمن في منطقة مكة ، وهو أمر ضروري في بيئة تغلي بالغارات وطلب الثأر ، حتى يكون البيت الحرام ملاذاً للناس وأمناً ، وحتى يجد فيها من تضيق به الحياة ، ويتعرض لطلب الثأر ، الأمن والحماية ، ولعل هذا هو السبب في أن تسن قريش الأشهر الحرم في موسم الحج ، حتى يأمن الناس فيه على أنفسهم وأموالهم ، هذا فضلاً عن حركة إصلاح أخرى قامت بها قريش ، مؤداها ألا تقر بمكة ظلماً ، سواء أكان من أهلها أم من سائر الناس ، فعقدت مع قبائلها ومع القبائل الأخرى المجاورة حلفاً عرف « بحلف الفضول » ، يروى المؤرخون أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف ، فاجتمع في دار « عبدالله بن جدعان» بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتعاهدوا على أن لا يظلم بمكة غريب ولا قريب ، ولا حر ولا عبد ، وإلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة وبعثوا به إلى البيت الحرام ، فغسلت به أركانه وشربوه ، ومن عجب أن الأمويين وبني عبد شمس قد أبوا على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف ، وقد روى عن رسول الله — صلى الله عليه

---

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ص ٣٦-٣٧ ، المغازي ص ١٣٦ ، وكذا
P.K. Hitti, op. cit., P. 104,

(٢) العقاد : مطلع النور ص ١١٣ .

وعلى آله وسلم — أنه قال « لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو ادعى به في الإسلام لأجبت »[1]

ولم تكتف قريش بذلك ، وإنما عملت على توفير الماء والطعام للحجيج في منطقة يشح فيها الماء ويقل الطعام ، ومن ثم فقد قامت بحفر الآبار في منطقة مكة وأنشأت فيها أماكن للسقاية ، ثم أوكلت سقاية الحاج إلى البطون القوية منها ، وهكذا غدت سقاية الحاج — بجانب عمارة البيت وسدانته — عملاً يراه القوم في قمة مفاخرهم وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله[2] » .

وكان أمر ضيافة الحجيج عملاً لا يقل عن سقايتهم ، وقد أسندتها قريش إلى الأغنياء من رجالاتها ، لأن قدوم الحجاج من أماكن بعيدة من شبه الجزيرة العربية ، يصعب معه حمل الزاد ، ومن ثم فقد كانت الرفادة تكلف أصحابها الكثير من أموالهم ، بجانب ما تقدمه قريش لهم ، إلا أن هذا الأمر في الوقت نفسه قد أفاد قريشا كثيراً ، إذ كانت المؤاكلة في نظر العرب ، إنما عقد حلف وجوار ، فضلا عن أن الضيافة في ذاتها من أكبر ما يحمد الرجل عليه ، وهكذا كانت قريش بعملها هذا ، وكأنها تعقد حلفاً مع كل القبائل العربية ، تحمي به تجارتها ، وتسبغ على رجالاتها نوعاً من التقدير والإحترام عند العرب ، لا يتوفر لغيرهم[3].

---

(١) العقاد : المرجع السابق ص١١٣ ، ١١٩ ، إبن هشام ١/١٤٣–١٤٥ (مكتبة الجمهورية بمصر) ، المحبر ص١٦٧ ، المعارف ص٢٩٤ ، ابن كثير ٢/٢٩١–٢٩٣ ، إبن الأثير ٢/٤١–٤٢ ، السيرة الحلبية ١/١٥٧ ، الروض الآنف ١/٩١ ، ثمار القلوب للثعالبي ص ١٤١ ، تاريخ اليعقوبي ٢/١٧ وما بعدها ، عبد المنعم ماجد ١/٨٣ ، محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٣٥ (القاهرة ١٩٧١) .

(٢) سورة التوبة : آية ١٩ ، وانظر : تفسير الطبري ١٤/١٦٨–١٧٣ ، تفسير المنار ١٠/٢١٥–٢٢٠ ، الكشاف ٢/١٨٠ ، تفسير ابن كثير ٣/٣٧٣–٣٧٤ ، تفسير القرطبي ٨/٩١–٩٢ ، في ظلال القرآن ١٠/١٦١٤–١٦١٥ ، تيسير العلي القدير ٢/٢١٦–٢١٧ .

(٣) إبن هشام ١/١٤٥ ، إبن سعد ١/٥٨ .

وخطت قريش خطوة أخرى في اجتذاب القبائل العربية ، فنصبت أصنام جميع القبائل عند الكعبة[1] ، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتي في الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها ، وهكذا أخذ عدد الأصنام يزداد عند الكعبة بمرور الزمن ، حتى جاء وقت زاد عددها على ثلاثمائة ، كان منها الكبير ومنها الصغير ، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات ، وإن كان أكبرها جميعاً إنما هو « هبل » الذي جعله القوم على هيئة إنسان من عقيق أحمر[2] .

ويبدو أن الأساس الذي قامت عليه مكانة الكعبة ، أن البيت الحرام بجملته كان هو المقصود بالقداسة ، غير منظور إلى الأوثان والأصنام التي اشتمل عليها ، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل ، وتزدريه قبائل أخرى ، فلا يغض ذلك من مكانة البيت عند المعظمين والمزدرين ، واختلفت الشعائر والدعاوي التي يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه ، ولم تختلف شعائر البيت — كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره والمتكلفون بخدمته — فكانت قداسة البيت هي القداسة التي لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية ، وجاز عندهم — من ثم — أن يحكموا بالضلالة على أتباع صنم معلوم ، ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير[3] .

---

(١) تعرضت الكعبة قبيل الإسلام لعدة سيول في أوقات مختلفة ، أدت إلى تصدع جدرانها ، مما اضطر القوم إلى هدمها وإعادة بنائها ، ويكاد يجمع المؤرخون أن ذلك تم ، والمصطفى — صلى الله عليه وسلم — في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف ، فإذا كان ذلك كذلك ، وإذا كان المولد النبوي في ٢٠ أبريل ٥٧١م — كما حدده محمود الفلكي — فإن إعادة بناء الكعبة إنما كان في عام ٦٠٦م (أنظر : الطبري ١٨٧/٢—٢٩٠ ، إبن الأثير ٤٢/٢—٤٥ ، المسعودي ٢٧١/١—٢٧٣ ، إبن كثير ٢٩٩/٢—٣٠٤ ، ياقوت ٤٦٦/٤ ، الأزرقي ١٥٧/١—١٦٧ ، اليعقوبي ٢٥٤/١—٢٥٥ ، العمري ٦٤/١ ، المقدسي ١٣٩/٤—١٤٠ ، إبن هشام ١٩٢/١—١٩٩ ، التقويم العربي قبل الإسلام ص ٣٨ ، تفسير الطبري ١٢٢/٢—١٢٣ ، تاريخ الخميس ص ١٢٦—١٣٦ ، نهاية الأرب ٢٣٢/١ ، مدخل إلى القرآن الكريم ص ٢٥—٢٦ ، وكذا A. Guillaume , op. cit., P. 23
وكذا I. Shahid, in CHI, I, 1970, P. 31.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢٥٤/١—٢٥٥ ، الروض الأنف ٢٧٦/٢ ، الأزرقي ١٢٠/١—١٢١ ، لوبون : حضارة العرب ص ١٢٤ ، تاريخ التمدن الإسلامي ٣٧/١ ، الأصنام ص ٢٧—٢٨ ، وكذا
E. Gibbon, op. cit., P. 225.

(٣) العقاد : مطلع النور ص ١١٥ .

وانطلاقاً من هذا كله . فقد كان يتفق في موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب ،يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة ، ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحو واحد ، ومامن كلمة من كلمات الفرائض لم تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها : كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة ، ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله[1] .

وهكذا تمضي الأيام ، وتزداد مكانة الكعبة عند العرب ، حتى تصبح آخر الأمر المفخرة القومية والحرم الإلهي عندهم ، ثم تغدو بعد حين من الدهر ، الجوار الوحيد الذي يشعر العرب عنده بشعور العروبة الموحدة ، عالية الرأس ، غير مستكينة لأجنبي ، كائناً من كان، ذلك لأنهم إنما كانوا يحسون أنهم من رعايا الروم في الشام ، ومن رعايا الفرس في الحيرة ، وأتباع للفرس أو الأحباش في اليمن ؛ ولكنهم هنا . في مكة ، عند بيت الله في حرم الله يقدسونه جميعاً ، لأنه لهم جميعاً يضمهم إليه كما يضم أصنامهم وأوثانهم وأربابهم ، يلوذون به ويأوون إليه ، فكلهم من معبود أو عابد في حماية الكعبة بيت الله . وشعورهم هنا بأنهم « عرب » لم يماثله شعور قط في أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه ، على الرغم من سادته وحكامه ، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانتها ، ويقيموا لها نظيراً في أرضهم ،لو كان شعب اليمن منصرفاً عنها غير معتز بها كاعتزاز البادية والصحراء[2] .

ولعل هذه المكانة الفريدة للكعبة هي التي دفعت بأصحاب القوة في تلك الأيام إلى محاولة هدمها ، أو على الأقل إنضوائها تحت لوائهم ، فعل ذلك «حسان بن عبد كلال » ولكن أمره انتهي بفشل ذريع ، وبأن يصبح أسيراً في مكة سنوات ثلاث[3] ، وفعل ذلك أبرهة الحبشي ، ولكن الله سبحانه وتعالى « أرسل عليهم طيراً أبابيل ،

---

(١) العقاد : المرجع السابق ص ١١٦ .
(٢) العقاد : مطلع النور ص ٥٦ .
(٣) تاريخ الطبري ٢/٢٦٢-٢٦٣ ، الإكليل ٢/٣٥٧-٣٥٩ ، جواد علي ٢/٥٨٤-٥٨٥ .

ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول [1] » ، وفي هذا العصف المأكول كان أبرهه نفسه [2] — وقد ناقشنا ذلك كله بالتفصيل في الجزء الأول من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » —

وتمضي السنون ، ويغيّر الرومان بمرور الزمن من سياستهم نحو العرب ، ويرون أن الوسائل غير المباشرة ربما كانت أجدى في السيطرة على شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فقد كانوا من وراء حملة أبرهة على مكة ، وحين تفشل هذه ، ويطرد الأحباش من اليمن ، يعملون على تمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لهم ، ومن ثم فقد ارتضى قيصر أن يكون « عثمان بن الحويرث » ملكاً على مكة من قبله ، وإن باءت محاولته هذه بالفشل كذلك [3] .

وليس من شك في أن هذه المحاولة السياسية ، إنما غرضها غرض تلك المحاولة العسكرية ، وأن المحاولتين قد فشلتا ، وبقيت مكة — كما أراد الله ، ولحكمة لا يعلمها إلا هو — حرماً آمناً للعرب وغير العرب ، وبذلت قريش في المحاولتين جهداً لإخفاق الواحدة تلو الأخرى ، وليس من شك في أن الأولى كانت أشد خطراً ،

---

(١) سورة الفيل : آية ٣—٥ .

(٢) أنظر عن حملة الفيل : إبن الأثير ١/٤٤٢—٤٤٧ ، إبن كثير ٢/١٧٠—١٧١ ، تفسير إبن كثير ٨/٥٠٣—٥١١ ، تفسير النيسابوري ٣٠/١٦٣ ، الكشاف ٣/٢٨٨ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٦/٣٩٤ ، في ظلال القرآن ٨/٦٦٤—٦٧٥ ، تفسير روح المعاني ٣٠/٢٣٤—٢٣٧ ، إبن هشام ١/٤٨—٦٩ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٢—٢٥٣ ، صحيح الأخبار ٤/٢١—٢٢ ، مروج الذهب ١/١٠٤—١٠٦ ، تفسير البيضاوي ١/٥٧٦ ، تفسير الطبري ٣٠/٣٠٠—٣٠٤ ، تفسير القرطبي ص ٧٢٧٧—٧٢٩٠ (طبعة الشعب) تفسير الفخر الرازي ٣٢/٩٦—٩٧ ، دلائل النبوة للأصبهاني ص ١٠٠ ، الأزرقي ١/١٤١—١٤٩ ، ياقوت ٣/٥٣—٥٤ ، ٥/١٦١—١٦٣ ، مطلع النور ص ١١٤ .

(٣) العقاد : المرجع السابق ص ١١٤—١١٥ ، إبن هشام ١/٢٢٤ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ١١٨ ، شمال الحجاز ص ٣١ ، الروض الأنف ١/١٤٣٦ ، الأغاني ٣/١١٢ ، العقد الثمين ١/١٥٣ ، شفاء الغرام ٢/١٠٨—١٠٩ ، جواد علي ٤/٣٩—٤٠ .

وإن دفعت في الثانية ببعض رجالها ، يقضون في سجون القيصر فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق ، ثم سرعان ما عادت الأمور إلى سيرتها الأولى[1] .

وبدهي أن هذه المحاولات — السياسية والعسكرية — إنما تثبت قيام كعبة الحجاز على كره من ذوي السلطان ، في الجنوب والشمال ، وفي كل الحالات استطاعت الكعبة أن تحتفظ بمكانتها ، على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها ، بل لقد استطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش ، وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص ، وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم ، دون أن يسخرهم المسخرون ، أو يستبد فيهم فريق يسخرهم تسخير السادة للأتباع المكرهين على الطاعة وبذل الإتاوة[2] .

وهكذا كان المكيون يشعرون بمكانة الكعبة عند العرب عامة ، ومن ثم فقد كانوا يرون لأنفسهم ميزة لا يتطاول إليها غيرهم من العرب ، لأنها تتصل بكرامة البيت الحرام وحرمته ، فهم أولياؤه ، وهم سدنته والقائمون بالأمر فيه ، يسقون الحجيج ويطعمونهم ، ويوفرون لهم الأمن والراحة ، ومن ثم فقد نشأ عندهم ما يسمى بنظام «الحمس»[3] ، ويعنون به ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطني المقيم ، والذي ينتمي إلى الكعبة والمقام ، فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت ، وقطان مكة وساكنيها[4] ، ومن ثم فقد نادوا بين الناس « نحن بنو إبراهيم وأهل

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٣٢٧/٢ ، أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص١٦٢–١٦٣ ، الروض الأنف ١٤٦/١ ، وكذا

W. Montgomery Watt, Muhammad at Mecca, Oxford, 1953, P. 16.

(٢) العقاد : مطلع النور ص ١١٥ .

(٣) كانت قريش هي التي ابتدعت نظام الحمس هذا ، ثم انضمت إليها كنانة وخزاعة ، وربما بنو عامر ابن صعصعة من هوزان ثم الأوس والخزرج (أنظر ابن هشام ٢٠١/١–٢٠٢ ، تاريخ مكة ص ٣٤) .

(٤) ابن هشام ١٩٩/١ ، المحبر ص ١٧٨–١٧٩ ، شفاء الغرام ٤٣/٢ ، علي حسني الخربوطلي : الكعبة على مر العصور ص ٥٠ .

الحرمة وولاة البيت وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا »[1] .

وكانوا إذا بلغت الفتاة سن الزواج ألبسوها ما يزينها وخرجوا بها سافرة إلى المطاف ثم أعادوها إلى بيتها لتبقى حبيسة فيه لا تخرج إلا إلى بيت من تزوجها ، وهم يريدون بطوافها ذلك عرضها سافرة على أعين الخاطبين ، ولعلهم اختاروا المطاف ، ليأمنوا في جوار البيت نظرات الفاسقين ، هذا وقد كان الحمس يختنون أولادهم ويغتسلون من الجنابة ، وقد تباعدوا في المناكح من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت ، كما كانوا يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً ، وإذا ما تزوجت امرأة منهم بغريب عنهم ، إشترطوا أن يكون أبناؤها منهم .

هذا وقد جعل الحمس لأنفسهم علامة ، وهي ألا يعظم الأحمس شيئاً من الحل ، أي الأرض التي وراء الحرم ، كما يعظم الحرم وقالوا « إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم » ، ولذا فقد تركوا الوقوف بعرفة — لأنه خارج الحرم — والإفاضة منها ، مع إقرارهم بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها ، وأن يفيضوا منها ، وأما هم فقد جعلوا موقفهم في طرف الحرم من «نمرة» يقفون به عشية «عرفة» ، ويظلون به يوم عرفة في الأراك من نمرة ، ويفيضون منه إلى «المزدلفة» ، فإذا عممت الشمس رؤوس الجبال دفعوا ، وكانوا يقولون : « نحن قطين الله ، نحن أهل الحرم ، فليس لنا أن نخرجَ من الحرمة ولا نعظم غيرها ، كما نعظمها » ، فأظهروا بذلك تعصبهم لبقعة من الأرض وترفعوا أن يخرجوا عنها ، ولو كان في خروجهم إتمام لمشاعر الحج[2] ، وبقي الأمر كذلك حتى بعث الله محمداً

---

(١) تفسير الطبري ١٨٨/٤ ، ابن هشام ٢٠١/١ ، الأزرقي ١٧٦/١ ، محمد الخضري ٥٦/١–٥٧ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ص ٣٥ .

(٢) تفسير الطبري ١٨٤/٤–١٩١ (دار المعارف) ، صحيح البخاري ١٦٣/٢ ، ٤١١/٣–٤١٣ ، ١٣٩/٨ ، صحيح مسلم ٣٤٨/١ ، إبن كثير ٢٣٣/١ ، ٢٩٣ ، إبن هشام ٢٠١/١–٢٠٢ ، العقد الثمين ١٤١/١ ، نهاية الأرب ٢٤٤/١ ، المقدسي ٣٢/٤ ، تفسير القرطبي ٤٢٧/٢–٤٢٨ ، =

ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ فأنزل الله عليه ـ حين أحكم له دينه ، وشرع له سنن حجه ـ «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم»[1].

هذا وقد بلغ من تشدد الحمس أن الرجل منهم إذا ما أحرم بالحج أو العمرة لا يدخل داراً أو حائطاً ، وقد تعرض له الحاجة فلا يدخل بيته ، بل ينقب نقباً في ظهره وينادي بأهله ليخرجوا له ما أراد ، وكان بعض منهم إذا أرادوا بعض أطعمتهم وأمتعتهم تسوروا من ظهر بيوتهم وأدبارها حتى يظهروا على السطح ، ثم ينزلون في حجراتهم ، ويحرمون على أنفسهم أن يمروا تحت عتبة الباب .

وكانوا بعد الإحرام يحرمون على أنفسهم السمن واللبن والزبد ولبس الوبر ، كما كانوا لا يدخلون بيتاً من الشعر ، ولا يستظلون ـ إن استظلوا ـ إلا في بيوت الأدم ، فهم إذن يحرمون على أنفسهم أشياء لم تكن العرب تحرمها ، كما أنهم اختصوا أنفسهم بالقباب الحمر ـ وهي علامة الشرف والرياسة ـ تضرب لهم في الأشهر الحرم ، كما فرضوا على العرب ألا يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً ، ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثيات الحمس ، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل وامرأة ، ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ، ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً ، وكانت العرب تسمى تلك الثياب « اللقى »[2] ، وبقي الأمر كذلك حتى أنزل الله سبحانه وتعالى

١/١٧٦—١٨٠ ، تاريخ اليعقوبي ١/١٥٦ ، تاريخ مكة ص ٣٤—٣٥ ، محمد الخضري ١/٢د ، جواد علي ٦/٣٦٢ ، أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ١٨٨ ، وكذا ـ
EI, II, P. 335.

(١) سورة البقرة : آية ١٩٩ ، وانظر : تفسير الطبري ٤/١٨٤—١٩٥ ، تفسير روح المعاني ٢/٨٦—٩٠ ، تفسير الطبرسي ٢/١٦٢—١٦٤ ، الكشاف ١/٣٤٩—٣٥٠ ، تيسير العلي القدير ١/١٦٣—١٦٤ .

(٢) ابن كثير ٢/٣٠٥ ، تفسير الطبري ٤/١٨٨—١٨٩ ، الأزرقي ١/١٨٠—١٨٢ ، ابن هشام ١/٢٠٤—٢٠٦ ، ابن سعد ١/٤١ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٧ ، المقدسي ٤/٣٢—٣٣ ، نهاية الأرب ١/٢٤٤ ، شفاء الغرام ٢/٤١—٤٢ ، ياقوت ٥/١٨٤ ، المعارف ص٢٦٩ ، صحيح ـ

قوله « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون[1] » ، فوضع الله تعالى أمر الحمس — وما كنت قريش ابتدعت منه على الناس — بالإسلام حين بعث الله به رسوله — صلى الله عليه وسلم —[2] .

وكان من مناسك الحمس أن يطوف الحجاج في صفوف وهم يعجون بالأناشيد ويصفرون وكأنهم يتعبدون ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصديه فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون[3] » ، هذا وقد كان الحمس كذلك يدخلون الكعبة لابسي أحذيتهم ، حتى سن لهم « الوليد بن المغيرة » خلعها ، وكانت الحوائض من نسائهم لا يدنين من الكعبة ولا يتمسحن بأصنامها ، بل يقفن بعيداً عنها ، وكان الطائف منهم يبدأ باساف فيستلمه ، ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يجعل الكعبة على يمينه فيطوف بها ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن ثم استلم نائلة[4] .

❁❁❁❁

= البخاري ٢/١٦٣ ، تاج العروس ٤/١٣٢–١٣٣ ، محمد الخضري ١/٥٧ ، أحمد إبراهيم : المرجع السابق ص ١٨٩–١٩٠ ، العقاد : مطلع النور ص ١١٧ ، وكذا

H. Lammens, L'Arabie Occidentale avant l'Hegire, Beyrouth, 1928, P. 130.

(١) سورة الأعراف : آية ٣١–٣٢ ، وانظر : تفسير الطبري ١٢/٣٨٩–٣٩٥ (أدار المعارف) ، تفسير ابن كثير ٣/١٦٠–١٦٣ (دار الأندلس) ، تفسير الكشاف ٢/٧٦ .

(٢) ابن هشام ١/٢٠٦ .

(٣) سورة الأنفال : آية ٣٥ ، وانظر : تفسير الطبري ١٣/٤٢١–٥٢٨ (دار المعارف ١٩٥٨) .

(٤) أحمد السباعي : تاريخ مكة ص ٣٥–٣٦ (مكة المكرمة ١٣٨٧ هـ) ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٤ .

الفصل الثالث عشر

المدينة المنورة

المدينة المنورة ، ثاني مدن الحجاز بعد مكة دون ريب ، ودار الهجرة التي نصرت الإسلام ، وأعزت كلمة المسلمين ، فاستحقت التكريم والتخليد حتى يقوم الناس لرب العالمين ، ثم شاءت إرادة الله — الكريم المنان ذى الفضل العظيم — أن تعطى المدينة ما لم تعطه لغيرها من المدائن ، وأن تخصها بميزة لا تتطاول إليها واحدة من مدن الدنيا ، حيث شرفت بأن تضم في ثراها جثمان سيد الأولين والآخرين ، جدنا ومولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — .

هذا إلى أن بالمدينة المنورة ثاني الحرمين الشريفين ، فضلاً عن أنها البلد الذي اختاره الله ، ليكون أول عاصمة إسلامية في التاريخ ، تخرج منها جيوش النور ، تحمل راية الإسلام ، وهداية القرآن ، إلى جميع أنحاء المعمورة ، فتنشر التوحيد والحب والعدل والإخاء والمساواة ، ومن ثم فقد كانت وما زالت — وسوف تظل أبد الدهر إن شاء الله — قلوب المؤمنين في كل أنحاء الدنيا تنبض بحب المدينة ، وتهفو إلى زيارتها ، وتتعبد إلى الله في مسجدها ، وتنعم بالصلاة في روضته الشريفة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما عليها .

هذا وقد حبت الطبيعة المدينة المقدسة[1] بمزايا لم تعرفها مكة المكرمة ، من طيب الهواء وجودة التربة ، كما أنها لم تكن على طريق القوافل التي تحمل الطيوب بين اليمن والشام فحسب ، بل كانت واحة حقيقية ذات تربة صالحة لزراعة النخيل ، وهو كثير فيها ، ومن ثم فقد أصبحت المدينة واحدة من أمهات المراكز الزراعية في بلاد العرب[2] .

والمدينة المنورة لم تكن تعرف بهذا الإسم قبل نصرتها للإسلام، وهجرة المصطفى، صلى الله عليه وسلم ، إليها في عام ٦٢٢م ، وإنما كانت تسمى «يثرب» ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا »[3] ، وقد ذكرت يثرب في الكتابات المعينية ، ربما بسبب وجود جالية معينية كانت تقيم هناك ، خلفتها أخرى سبئية ، بعد أن ورث السبئيون دوله معين في اليمن ، ومستعمراتها في شمال غرب شبه الجزيرة العربية ، ولعل هذا هو السبب الذي دفع بالنسابين من بعد أن يروا في سكان يثرب من العرب ، أزداً من قحطان[4] .

ولعل أقدم إشارة إلى « يثرب » في النصوص البابلية ، إنما ترجع إلى القرن السادس ق.م ، إذ تحدثنا كتابة عثر عليها في « حران » عام ١٩٥٦م ، تتحدث عن أعمال الملك البابلي « نبونيد » (٥٥٥–٥٣٩ ق.م) في بلاد العرب ، فتروى أن ذلك الملك

---

(١) كتب السمهودي في كتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم » باباً كاملا من ستة عشر فصلا في فضائل المدينة ، فليرجع إليه من يشاء (وفاء الوفا ١/١٩–١٠٩) .

(٢) P.K. Hitti, History of Arabs, P. 104.

(٣) سورة الأحزاب : آية ١٣ ، وانظر : تفسير القرطبي ١٤/١٤٧–١٤٩ (دار الكتب) ، تفسير الفخر الرازي ٢٥/١٩٩–٢٠٠ ، تفسير روح المعاني ٢١/١٥٨–١٦١ ، تفسير البيضاوي ٢/٢٤٠–٢٤١ ، تفسير الطبري ٢١/١٣٤–١٣٧ ، تفسير أبي السعود ٣/٢٠٥ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/١٨٧–١٨٨ ، تيسير العلي القدير ٣/٣٥٥–٣٥٦ ، تفسير الكشاف ٣/٢٥٤ ، في ظلال القرآن ٢١/٢٨٣٨–٢٨٣٩ .

(٤) جواد علي ٤/١٢٨ ، وكذا Ency. of Islam, III. P, 83.
وكذا H. Winckler, Arabisch-Semitisch Orientalisch, in MVG, 1901, P. 63.

لنقف الذي اشتهر بحبه للآثار[1] ، قد قام بحملة في العام الثالث من حكمه إلى ال غرب شبه الجزيرة العربية ، احتل فيها تيماء وديدان وخيبر ويثرب ، والتي جاءت تحت إسم «أتريبو» ، وكانت آخر موضع وصل إليه العاهل البابلي في بلاد العرب ، وربما كان السبب في هذه الحملة ، إنما كان مهاجمة العرب لمناطق خاضعة للبابليين ، وربما كان رغبة البابليين في السيطرة على الطريق التجاري البري بين الشام وجنوب بلاد العرب[2] .

وأياً كان السبب ، فإن العاهل البابلي قد استقر في « تيماء » فترة تقرب من سنوات عشر ، بعيداً عن عاصمته « بابل » التي لم يعد إليها إلا بسبب التهديدات الفارسية لها ، فضلاً عن بلاد العرب نفسها ، وإلا بعد دعوة رعاياه الذين كانوا على خلاف معه طوال تلك الفترة[3] .

هذا وقد جاء إسم « يثرب » كذلك في جغرافية بطليموس ، وعند « إصطفيانوس البيزنطي » تحت إسم « يثربة Jathripa »[4] ، أما الأخباريون فيعرفونها باسم « أثرب » و « يثرب »[5] ، وأن يثرب — في رأيهم — إنما هي « أم قرى المدينة » ، التي حددوا امتدادها من طرف وادي قناة شرقاً ، إلى طرف الجرف غرباً ، ومن زبالة

(1) A. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, P. 363.

(2) A.R. Burn, Persia and The Greeks, P. 38.
وكذا C.J. Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, P. 35
وكذا A. Musil, Northern Nejd, P. 225. وكذا AS, 8, 1958,. P. 84.
وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 39. وكذا S. Smith, op. cit., P. 53, 88

(3) هـ. ج. ويلز : موجز تاريخ العالم ص ٨٦ ، لودز : أنبياء بني إسرائيل ص ٢٠٥ (باريس ١٩٣٥) ،
وكذا CAH, 4, P. 194.
وكذا R.P. Doughty, Nabonidus and Belshazzar, 1929, P. 107
وكذا A. Gardiner, op. cit., P. 363.

(4) جواد علي ٤/١٣٠ ، وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 104
وكذا Ptolemy, VI, 7, 31,

(5) السمهودي : وفاء الوفا ١/٦—٧ — القاهرة ١٣٢٦ هـ - خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ص ٦—٧ (المدينة المنورة ١٩٧٢) ، ياقوت ٥/٨٤ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٣٥ .

الزج جنوباً ، إلى البساتين التي كانت تعرف بالمال شمالاً ، وأما وادي قناة فيقع في الناحية الشمالية من المدينة ، ويبعد عنها بأربعة كيلو مترات ونصف ، ويقع في شمال جبل أحد ، الذي يبعد عنه بنحو كيلومتر واحد تقريباً ، وأما المال فهو بعض بساتين العيون في الشمال الغربي ، وأما زبالة فالزج فهي قرية من قرى المدينة كانت بشمالي «سلع» إلى قرب وادي قناة . إندثرت آثارها فلم تعد معروفة . وذلك اعتماداً على رواية السمهودي عن « زبالة الزج » بأن « كان لأهلها أطم. وعلى روايته « وكان بالمدينة في الجاهلية سوق بزبالة من الناحية التي تدعى يثرب ومن ثم فإن حدود المدينة المنورة[1] — طبقاً لرواية السمهودي — إنما كانت تتمثل في الأرض كثيرة النخل غربي مشهد سيدنا حمزة ، رضي الله عنه ، وشرقي البركة التي هي مصرف عين الأزرق ، قريباً من مسجد قباء[2] .

وعلى أي حال ، فلم ينس أصحابنا الأخباريون أن يختلقوا تعليلاً للإسم ، فهي « يثرب » نسبة إلى « يثرب بن قانية بن مهلائيل من ولد سام بن نوح » أو « يثرب بن قائد بن عبيل بن مهلائيل » ، وهو أول من نزل بها عند تفرق ذرية نوح ، على زعم ، وهي من الثرب بمعنى الفساد ، ، أو التثريب أي المؤاخذة بالذنب ، على زعم آخر ، وهي نسبة إلى رئيس العماليق الذين نزلوا بها بعد أن طردوا منها بني عبيل ، من ولد سام كذلك ، على زعم ثالث ، بل إن هناك رواية رابعة تنسب إلى ابن عباس — وتذهب إلى أن يثرب في الأصل إنما كان إسماً لابن عبيل ، الذي هو أول من نزل المدينة[3] .

---

(١) تقع المدينة المنورة على مبعدة ٤٤٣ كيلومتراً من مكة المكرمة عن طريق وادي فاطمة ، وعلى مبعدة ٥٠٢ كيلومتراً عن طريق جده المسفلت .

(٢) محمد بن محمود بن النجار : الدرر الثمينة في تاريخ المدينة ص ٣٢٣ ، إبراهيم بن علي العياشي : المدينة بين الماضي والحاضر ص ٤٩٠ ، عبد القدوس الأنصاري ، آثار المدينة المنورة ص ١٧٧—١٧٨ (المدينة ١٩٧٣) ، وفاء الوفا ٧/١ ، الأعلاق النفيسة ص ٦٢ .

(٣) وفاء الوفا ٨/١ ، ١٠٩—١١٠ ، خلاصة الوفا ص ٧ ، ددا ، الإشتقاق ٣٥٠/٢ ، البكري ١٣٨٩/٤ ، ياقوت ٤٣٠/٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢٨٦/٢ ، أحمد بن عبد الحميد العباسي : عمدة الأخبار في مدينة المختار ص ٤١—٤٢ ، مروج الذهب ١٢٧/٢ ، أنساب الأشراف للبلاذري ص ٦ ، عبد القدوس الأنصاري : المرجع السابق ص ١٧٧ .

وأما إسم المدينة ، والذي جاء في القرآن الكريم : حيث يقول سبحانه وتعالى « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم[1] » و يقول « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه[2] » ويقول « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة »[3] ، فهو إسم شرفها به المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — حتى وإن رأى البعض أن الإسم مأخوذ من الكلمة الأرامية « مدينتا » (Medinto, Medinta) بمعنى « الحمى » أي المدينة ، على رأي من يرى أن اليهود المتأثرين بالثقافة الآرامية ، أو بعض المتهودة من بني إرم الذين نزلوا يثرب ، هم الذين دعوها « مدينتا » ، وأنها ربما عرفت بمدينة يثرب — كما جاء في اصطيفان البيزنطي — ثم اختصرت إلى « مدينتا = أي المدينة » ، ثم عرفت بمدينة الرسول . صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، بعد هجرته إليها[4] .

---

(١) تفسير روح المعاني ١١/٩-١٢ ، تفسير المنار ١١/١٣-٢٢ ، تفسير الطبري ١٤/٤٤٠-٤٤٥ ، تفسير البحر المحيط ٥/٩٢-٩٣ ، الكشاف ٢/٢١١-٢١٢ ، تفسير إبن كثير ٣/٤٤٥-٤٤٧ ، تفسير القرطبي ٨/٢٤٠-٢٤١ ، وانظر الآية الكريمة : سورة التوبة ١٠١ .

(٢) سورة التوبة : آية ١٢٠ ، وانظر : تفسير الطبري ١٤/٥٦١-٥٦٤ ، تفسير القرطبي ٨/٢٩٠-٢٩٢ ، تفسير البحر المحيط ٥/١١٢-١١٣ ، تفسير روح المعاني ١١/٤٥-٤٧ ، تفسير المنار ١١/٧٤-٧٦ ، تفسير ابن كثير ٣/٤٤٧-٤٤٨ ، الكشاف ٢/٢١٩-٢٢٠ ، في ظلال القرآن ١١/٢٨٣٨-٢٨٣٩ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٦٠ ، وانظر : تفسير البيضاوي ٢/٢٥٢ ، تفسير روح المعاني ٢٢/٩٠-٩١ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٢/٢٥٢ ، تفسير الطبرسي ٢١/١١٤-١٢٠ ، تفسير الطبري ٢٢/٤٧-٤٨ (طبعة الحلبي) ، تفسير القرطبي ١٤/٢٤٥-٢٤٧ (دار الكتب المصرية) تفسير الفخر الرازي ٢٥/٢٣٠-٢٣١ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/٢٢٢-٢٢٣ الكشاف ٣/٢٧٤ ، تفسير أبي السعود ٣/٢١٩ ، في ظلال القرآن ٢٢-٢٨٨٠-٢٨٨١ ، تيسير العلي القدير لا ختصار تفسير إبن كثير ٣/٣٩١-٣٩٢ .

(٤) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٣٧ ، أحمد إبراهيم : المرجع السابق ص ٢٩١ ، جواد علي ٤/١٢٠ ، وكذا O'Leary, op. cit., P. 17 وكذا EI, III, P. 83
وكذا H. Winckler, op. cit., P. 53 وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 104
وكذا ZDMG, 22, P. 668

هذا ويرى « البتنوني » — طبقاً لرواية سوف نناقشها فيما بعد — وتتصل بغزو إسرائيلي للمدينة بأمر من الكليم عليه السلام ، أن الجنود الإسرائيليين هم الذين أطلقوا عليها إسم « يثرب » ، تحريفاً لكلمة مصرية هي « أتريبس » ، كما أن إسم طيبة الذي استعمل إسماً للمدينة مأخوذ عن طيبة المصرية [1] .

على أن هذا الرأي يحتاج (أولاً) أن تكون قصة الغزو المزعومة حقيقة ، وهو أمر تقوم كل الأدلة التاريخية على نقيضه ، ثمّ هو يحتاج (ثانياً) إلى إيجاد إسم آخر ليثرب قبل هذا الإسم ، على أيام العماليق الذين تزعم قصة الغزو المزعومة أنهم كانوا يسكنونها ، الأمر الذي لم يشر إليه صاحب هذا الرأي ، وأخيراً (ثالثا) إذا كان صحيحاً أن الجنود الإسرائيليين هم الذين أطلقوا على المدينة إسم « يثرب » ، لكان من الأولى أن يطلقوا عليها واحداً من أسماء المدن التي كانت في المنطقة التي كانوا يعيشون فيها في مصر — هناك على أطراف الدلتا الشرقية — مثل « بي رعمسيس » العاصمة المصرية وقت ذاك ، أو « تانيس » التي جاءت في التوراة تحت إسم « صوعن »

وأما أن يثرب تحريف للكلمة المصرية « أتريبس » ، ولعله يعني « أتريب » (بنها الحالية) ، فليس هناك من دليل على ذلك ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن تكون تحريفاً لـ « أتريبو » ، التي جاءت في نص نبونيد الآنف الذكر ، كما أن القول بأن إسم «طيبة» منقول عن إسم العاصمة المصرية الشهيرة «طيبة» [2] أمر يحتاج

---

(١) محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية – القاهرة ١٣٢٩ هـ – ص ٢٥٢–٢٥٣ .

(٢) تقع طيبة (الأقصر الحالية) على مبعدة حوالي ٥٠٠ كيلومتراً إلى الجنوب من القاهرة ، وأما إسم المدينة الأصلي فهو « ويسة » (ويزة) ، بمعنى الصولجان وهو رمز الحكم والسلطان عند الفراعين ، وأما إسم طيبة فربما كان مصري الأصل ، ويتكون من «إبه» أحد أماكن عبادة آمون ، ومن أداة التعريف « تي » بحيث يصبح الإسم كله « تيبه » (طيبة) ، ولما جاء الإغريق إلى مصر لم يجدوا مشقة في الملاءمة بين ذلك الإسم وبين إسم مدينتهم المعروفة « طيبة » ، هذا وقد اشتهرت المدينة بعدة أسماء منها « نو آمون » أي مدينة آمون و « المدينة » فقط ، و « المدينة الجنوبية » ، تمييزاً لها عن « منف » التي تقع على مقربة من القاهرة الحالية ، و « سيدة المدائن » ، ثم خلع عليها الإغريق إسم « ديوس بوليس مجنا » (مدينة الله الكبرى) ، ثم أطلق عليها الكتاب القدامى من أمثال ديودور وسترابو =

إلى نظر ، لأسباب منها (أولاً) أن طيبة كانت وقت ظهور الإسلام قد ودعت أمجادها التليدة ، يوم أن كانت عاصمة للإمبراطورية المصرية لمئات السنين ، ومنها (ثانياً) أننا حتى لو افترضنا أن المسلمين كانوا يعرفون شيئاً عن المدن المصرية القديمة الكبرى في تلك الفترة ، بسبب العلاقات بين مصر وبلاد العرب ، والتي بدأت منذ فترة مبكرة في التاريخ ، واستمرت حتى الفتح العربي لمصر (عام ٢٠هـ ــ ٦٤٠م)[1] ، فإن طيبة إنما تقع في منطقة نائية هناك في الصعيد الأقصى ، وأن القادمين من بلاد العرب ينتظر أن يكونوا على معرفة بالإسكندرية ، عاصمة مصر وقت ذاك ، فضلاً عن مدن الدلتا القريبة من سيناء ــ حلقة الإتصال بين مصر وبلاد العرب ــ ثم إن إسم طيبة نفسه قد لا يشجع على القول بأن المسلمين قد أخذوه عن العاصمة المصرية القديمة ، فهو إسم وثني يرتبط بالإله آمون على رأي ، ومأخوذ عن إسم المدينة اليونانية « ضيبة » على رأي آخر .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد كثرت أسماء المدينة المنورة في العصر الإسلامي ، حتى بلغت عشرة أسماء على رأي ، وأحد عشر إسماً على رأي آخر ، وتسعة وعشرين على رأي ثالث ، وأربعة وتسعين على رأي رابع ، وإن كان أهمها جميعاً : المدينة ويثرب وطيبة وطابة والعاصمة والقاصمة والجدية والمحبوبة والمؤمنة والمباركة والمحفوظة والمختارة والجابرة والعذراء والغراء والبارة والمقدسة والناجية وذات الحرار ومدخل صدق وقرية الأنصار وسيدة البلدان والخيرة وأرض الهجرة ودار

= وبليني واصطيفانوس البيزنطي إسم « طيبة ذات المائة باب » ، وأما إسمها الحالي «الأقصر» (جمع تكسير لكلمة قصر) فقد أطلقه العرب عليها حين بهرتهم عمائرها الكبرى فعدوها قصوراً ، هذا وقد كانت طيبة عاصمة لمصر في أغلب عصور إزدهار الحضارة المصرية (أنظر : أحمد بدوي : في موكب الشمس ٣١٧/٢–٣٥، ؛ إرمياء ٤٦ : ٢٥ ؛ وكذا

J. Baiki, Egypt. Antiq. in The Nile Valley, P. 342. F.

(١) أنظر عن هذه العلاقات مقالنا « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » ــ مجلة كلية اللغة العربية ــ العدد السادس ــ الرياض ١٩٧٦ .

الهجرة ودار الأخيار ودار الإيمان ودار الأبرار ودار السنة وبيت الرسول ومدينة الرسول ومضجع الرسول وحرم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم[1] .

ومن أسف أن تاريخ يثرب القديم مجهول ، فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها ، ولم تقم بها حفريات علمية يمكن أن تقدم لنا معلومات ذات قيمة عن تاريخ المدينة المقدسة القديم ، وإن كانت هنالك حفريات قد أجريت دون أن يقصد بها ذلك الهدف العلمي — كالتي حدثت في الأعوام ١٣٣٣ ، ١٣٣٥ ، ١٣٥٢هـ — في أحد البساتين ، وإبان حفر أساس القسم الشمالي لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء ، وفي المناخية جنوبي السبيل ، إلا أنها قد كشفت عن بعض أشياء قد تشير إلى أن المدينة الحالية ، إنما قامت على أنقاض مدينة أخرى — الأمر الذي أشار إليه السمهودي منذ القرن التاسع الهجري — ومن ثم فإن معلوماتنا الحالية ، إنما تعتمد في الدرجة الأولى على روايات الإخباريين ، وأكثرها من ذلك النوع الذي عرفناه من قبل[2] .

سكان المدينة

يرى الإخباريون أن سكان يثرب إنما كانوا من العماليق، ثم اليهود ، ثم العرب —من أوس وخزرج— وأن العماليق إنما كانوا أول من زرع الزرع واتخذ بها النخيل، وعمر بها الدور والآطام ، واتخذ الضياع ، وأنهم يرجعون في نسبهم إلى عملاق ابن ارفخشد بن سام[3] .

---

(١) وفاء الوفا ١/٧—١٩ ، خلاصة الوفا ص ٧—١٧ ، الدرر الثمينة في تاريخ المدينة (ملحق بالجزء الثاني من شفاء الغرام) ص ٣٢٣ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٣٠ (ليدن ١٩٠٦) ، الأغلاق ص ٥٩ ، ٨٧ ، البكري ٤/١٢٠١—١٢٠٢ ، ياقوت ٥/٨٢—٨٣ ، ٤٣٠ ، عمدة الأخبار ص ٤١ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٣٨ .

(٢) عبد القدوس الأنصاري : آثار المدينة المنورة ص ١٩١—١٩٤ ، أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٢٩٠—٢٩١ ، محمد حسين هيكل : في منزل الوحي ص ٥١٢—٥١٤ .

(٣) وفاء الوفا ١/١٠٧ ، ١١١ ، خلاصة الوفا ص ١٥٤—١٥٦ ، ياقوت ٥/٨٤ (مادة مدينة) .

(١) اليهود :

وقصة اليهود — طبقاً لرواية الأخباريين ، ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين — أمرها عجب ، إذ تذهب رواياتهم إلى أن موسى — عليه السلام — بعد أن أظهره الله على فرعون وطىء الشام وأهلك من بها من الكنعانيين ، أو أنه بعث اليهم بعثاً أهلك من بها ، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز ، للعماليق الذين كانوا يسكنون المدينة قبل بني إسرائيل ، وكانوا أهل بغي وغزو ، ملكوا على أنفسهم رجلاً يقال له «الأرقم» ، وتذهب الرواية إلى أن موسى كان قد بعث الجنود إلى الجبابرة من أهل القرى ، فضلاً عن جيش من بني إسرائيل كان قد بعثه إلى العماليق ، وأمره أن يقتل القوم جميعاً ، لا يستبقي منهم أحداً ، وأن هذا الجيش قد كتب له نجحاً بعيد المدى في مهمته هذه ، فقتل العماليق جميعاً ، ولم يبق على أحد منهم إلا ولداً للأرقم كان وضيئاً فأشفقوا على شبابه ، ومن ثم فقد حملوه إلى موسى ليرى رأيه فيه ، غير أن موسى كان قد انتقل إلى الرفيق الأعلى قبل عودة الجيش بولد الأرقم ، وقد اعتبر الإسرائيليون أن إبقاء الجيش على حياة ولد الأرقم خروج على تعليمات موسى ، ومن ثم فقد رفضوا أن يسمحوا للعائدين بدخول الشام ، مما أضطر هذا الجيش إلى العودة إلى المدينة والإقامة فيها ، ومن ثم فقد كانوا أول من سكن المدينة من يهود[1] .

والقصة على هذا النحو توجه إليها سهام الريب من أكثر من جانب ، وليس بالوسع القول بأنها ترقي إلى ما فوق مظان الشبهات ، هذا إذا لم تكن هي نفسها شبهة ، وذلك لأسباب كثيرة : منها (أولا) أن هذا الرأي الذي ذهب إلى أن موسى عليه السلام قد وطىء الشام وأهلك الكنعانيين ، لا أقول يتعارض مع الحقائق التاريخية

(١) الأغاني ١١٦/٣ ، ٩٤/١٩ ، ياقوت ٨٤/٥ ، أبو الفداء ١٢٣/١ ، تاريخ ابن خلدون ٨٧/٢–٨٨ (القسم الأول) ٢٨٦/٢–٢٨٧ (القسم الثاني).(طبعة بيروت ١٩٧١ عن طبعة بولاق ١٢٨٤هـ) ، إبن هشام ١٧/٢ ، جواد علي ٥١٦/٦–٥١٧ ، الإعلاق ص ٦٠–٦١ ، الدرر الثمينة ص ٣٢٤ ، المدينة بين الماضي والحاضر ص ١٤–١٥ ، وفاء الوفا ١١١/١ ، خلاصة الوفا ص ١٥٦–١٥٧ ، عبد الفتاح شحاتة ، المرجع السابق ص ٢٧١–٢٧٢ ، إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦ (القاهرة ١٩٢٧) ، الروض الأنف ١٦/٢ .

فحسب ، وإنما يتعارض كذلك مع آيات القرآن الكريم — فضلاً عن نصوص التوراة — ولتقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة المائدة ، يقول سبحانه وتعالى « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين »[1] .

والأمر كذلك بالنسبة إلى التوراة[2] التي تحدثت عن كل صغيرة وكبيرة في حياة موسى ، وهكذا فإن كل النصوص المقدسة — آيات القرآن وإصحاحات التوراة — تشير إلى أن الإسرائيليين الذين صحبوا موسى في رحلة الخروج من مصر ، لم يكتب لواحد منهم — بما في ذلك موسى [3] وهارون[4] عليهما السلام — أن يدخل الأرض المقدسة أبداً ، إذا استثنينا يشوع بن نون وكالب بن يفنه[5] ، وقد ناقشنا ذلك كله بالتفصيل في كتابنا إسرائيل[6] .

ومنها (ثانياً) أن القرآن الكريم — والتوراة من قبل — يكذبان إرسال جيش إسرائيلي إلى الحجاز ، فالقوم الذين جبنوا عن أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها

---

(١) سورة المائدة : آية ٢١-٢٦ ، وانظر : تفسير روح المعاني ٦/١٠٦٧-١١١ ، تفسير الطبرسي ٦/٦٢-٧١ ، تفسير الطبري ١٠/١٦٧-٢٠٠ ، تفسير المنار ٦/٨١-٨٩ ، الكشاف ١/٦٠٢-٦٠٦ ، تفسير ابن كثير ٢/٥٣٢-٥٤١ (دار الأندلس) تفسير القرطبي ٦/١٢٣-١٣٣ ، تفسير أبي السعود ٢/١٧-١٩ ، تيسير العلي القدير ١/٤٧٣-٤٧٥ .

(٢) عدد ١٣ : ١-١٤ : ٤٥ .

(٣) تثنية ٣ : ٢٧-٢٨ ، ٣٢ : ٢٨-٥٢ ، ٣٤ : ١-٦ .

(٤) عدد ٢٠ : ٢٢-٢٩ .

(٥) عدد ١٤ : ٢٤ ، ٣٠ ، تثنية ٣ : ٢٨ .

(٦) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٣١٧-٣٢٩ .

الله لهم ، ويصفون أنفسهم بأنهم « كالجراد في أعين الجبابرة من بني عناق » من سكان كنعان[1] ، هؤلاء القوم ليسوا هم الذين يجتازون صحراوات بلاد العرب حتى يصلوا إلى يثرب ، ثم يقوموا فيها بمجزرة بشرية تنتهي بإفناء بلد بأسره ، إلا ولد الأرقم ملكها ، ثم أليسوا هم أنفسهم الذين حاول الكليم عليه السلام أن يحرضهم على القتال ، حتى يصدعوا بأمر الله ويدخلوا الأرض التي كتبها لهم ، إلا أنهم كانوا مع كثرتهم « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » ، كانوا يخافون الحرب ويهابون القتال ، بعد أن تمكنت منهم المذلة والصغار ، ومن ثم فقد صاحوا بموسى — كما تروي توراتهم — « ليتنا متنا في أرض مصر ، أو ليتنا متنا في هذا القفر ، ولماذا أتى بنا الرب لنسقط بالسيف[2] » .

وليت الأمر اقتصر على هذا ، فإن التمرد سرعان ما يمتد إلى حد الثورة على موسى شخصياً ، والمناداة بخلع رياسته وقيام سلطة جديدة تعود بهم إلى مصر ، تقول التوراة على لسان الإسرائيليين : « أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر ، فقال بعضهم نقيم رئيساً ونرجع إلى مصر »[3] . هذه هي النصوص القرآنية والتوراتية وكلها تتحدث عن جبن الإسرائيليين وتقاعسهم عن القتال ، أفليس من الغريب بعد ذلك أن يأتي بعض المؤرخين — ويا للعجب فهم من المسلمين — فيزعم لليهود أمجاداً عسكرية ما كانت لهم أبداً ، والحق يقال : أنهم ما زعموها لأنفسهم أبداً .

ومنها (ثالثاً) أن التوراة تحدثنا عن معارك دارت رحاها بين اليهود والعماليق ، ولكن ليس في المدينة المنورة — كما يزعم بعض المؤرخين المسلمين القدامى ، ومن تابعهم من المحدثين — وإنما في سيناء ، حيث كان يقيم فريق من العماليق[4] في منطقة منها تدعى « رفيديم » ، وأن العماليق استمروا يضايقون الإسرائيليين حتى

---

(1) عدد ١٣ : ٢٥–٣٣ .
(2) عدد ١٤ : ١–٣ .
(3) عدد ١٤ : ٣–٤ .
(4) أنظر عن العماليق : ما كتبناه هنا عن مواطنهم (في الفصل الخامس) ، وانظر كتابنا « إسرائيل » ص ٢٤٨–٢٤٩ .

أيام شاؤل (١٠٢٠–١٠٠٠ ق.م)[١] ، أول ملوك إسرائيل ، كما يروي سفر صموئيل الأول[٢] .

ومنها (رابعاً) أن الرواية تقدم لنا موسى عليه السلام في صورة لا تتفق ومكانة الكليم ، فليس من شيم الأنبياء أن يرسلوا الجيوش لتقتل الناس جميعاً ، كنت أفهم أن يدعو الكليم العماليق إلى عبادة الله الواحد القهار ، فاذا ما رفضوا كانت الحرب ولينصرن الله من ينصره ، أما أن يرسل النبي الكريم – فيما يزعم الرواة – جيشاً إلى المدينة ليقوم فيها بمجزرة بشرية مروعة ، تنتهي بإفناء القوم جميعاً ، إلا طفل ضنوا عليه من الموت لوضاءته ، فأمر لا يمكن أن يقبل على علاته من عامة الناس . فضلاً عن أن يكون ذلك من كليم الله عليه السلام ، وحتى هذه . فما شأن موسى بالعماليق في وسط بلاد العرب ، أنسي أصحاب هذه الرواية أن موسى قد أرسل إلى بني إسرائيل خاصة[٤] ، وليس العماليق بالتأكيد من بني إسرائيل ، كما أنهم هنا في المدينة المنورة – بعيداً عن مصر وعن فلسطين ، فضلاً عن صحراء التيه – لم يعترضوا

---

(١) هناك عدة آراء عن فترة حكم شاول منها الفترة (١٠٢٠–١٠٠٤ق.م) ومنها (١٠٣٠–١٠٠٤ق.م) ومنها (١٠٢٥–١٠١٣ ق.م) ومنها (١٠٠٠–٩٨٥ ق.م) ثم انظر :

W.F. Albright, The Archaeology of Palestine, P [illegible].

وكذا I. Epstein, Judaism, P. 35 وكذا W. Keller, op. cit., P. 181

وكذا HAHL, P. 81.

(٢) خروج ١٧ : ٨–١٦ ، صموئيل أول ١٥ : ١–٣٥

وكذا The Universal Jewish Encyclopaedia, I, P. 218.

وكذا J. Hastings, op. cit., I, P. 77. وكذا A. Musil, op. cit., P. 460

(٣) من المعروف أنه ليس هناك نبي على الإطلاق قد أرسل إلى الناس كافة ، غير سيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم (أنظر : مقالنا « قصة الطوفان بين الآثار الكتب المقدسة » مجلة كلية اللغة العربية بالرياض ، العدد الخامس ص ٣٨٣–٤٥٧ ، وانظر ، على سبيل المثال الآيات الكريمة من سورة النساء (٧٩) والأعراف (١٥٨) وإبراهيم (٣١–٣٣ ، ٥٢) والأنبياء (١٠٧) والحج (٤٩) والفرقان (١) وسبأ (٨٢) وص (٨٧) ، وانظر تفسير الطبري ٥٦١/٨ ، ١٧٠/١٣ (دار المعارف) ، ١٦٩/١٨–١٨٠ ، ٩٦/٢٢ ، ١٨٨/٢٣–١٨٩ (الحلبي) ، تفسير القرطبي ٣٠٠/١٤–٣٠١ (دار الكتب) ٢٢٩/١٥–٢٣١ (الكاتب العربي) ، تفسير البيضاوي ٨٣/٢ ، ٩٥ ، ١٢٧ ، ٢٦١–٣١٦ ، تفسير روح المعاني ١٦٠/١١–١٦١ ، ٢٥٨/١٣–٢٦٠ .

دعوته ، وربما لم يسمعوا بها أبداً ، وحتى لو كانوا قوماً جبارين — كما تذهب الرواية — أفكان موسى مكلفاً بالقضاء على الجبارين في الأرض ، وإذا كان ذلك كذلك ، فلماذا القضاء على العماليق بالذات ، وليسوا هم وحدهم الجبارين في الأرض ، ثم ما هو الموقف بالنسبة إلى العماليق في غير يثرب ؟

ومنها (خامساً) أن بعض المؤرخين المسلمين أنفسهم إنما يشكون في صحة الرواية[1] ، ومنها (سادساً) أن هناك رواية أخرى — إخبارية كذلك — تقدم سبباً مختلفاً لإقامة اليهود في المدينة ، ذلك أن موسى — طبقاً لهذه الرواية — قد حج إلى بيت الله الحرام ومعه أناس من بني إسرائيل ، وعند العودة رأوا في موضع المدينة صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين ، ومن ثم فقد أقاموا في موضع سوق بني قينقاع ، ثم تألفت إليهم أناس من العرب ، فرجعوا على دينهم ، فكانوا أول من سكن موضع المدينة[2] ، وهكذا يبدو التضارب واضحاً في روايات الإخباريين ، بل إن البعض منهم قد ذهب إلى أن هارون عليه السلام قد دفن بالمدينة كذلك ، وهنا تتجه الروايات إتجاهاً غريباً ، حيث تذهب إلى أن موسى وهارون قد خرجا حاجين أو معتمرين ، حتى إذا ما قدما المدينة خافا من يهود ، فنزلا أحد ، وهارون مريض ، فحفر له موسى قبراً بأحد ، وقال : أدخل فيه فإنك تموت ، فقام هارون فدخل في لحده فقبض فحثى عليه موسى التراب[3] .

ولست أدري كيف يخاف موسى وهارون من اليهود ، أما كان الأولى أن يقول أصحاب هذه الرواية أن النبيين الكريمين قد خافا من العماليق ، بخاصة وأن أصحاب الرواية نفسها ، إنما يزون أن الذين كانوا بالمدينة من يهود من بني قينيقاع ، وهم من وفي شيعة موسى وهارون ، وفي نفس الوقت كان العماليق — طبقاً للرواية نفسها —

(١) السهيلي : الروض الأنف ٢/١٦ ، قارن إبن خلدون ٢/٨٨ .
(٢) وفاء الوفا ١/١١٠ ، خلاصة الوفا ص١٥٥-١٥٦ ، الدرر الثمينة ص٣٢٤-٣٢٥ ، علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ص١٣-١٤ ، قارن ابن كثير ١/٣١٦ .
(٣) وفاء الوفا ١/١١٣-١١٤ ، خلاصة الوفا ص ١٥٦ ، الدرر الثمينة ص ١٥٦ ، إبراهيم العياشي : المرجع السابق ص ١٥-١٦ .

يملأون السهل والجبل ، وفيهم بنو هف وبنو مطر وبنو الأزرق ، ثم كيف علم موسى أن هارون سوف يموت ، وعلم ذلك عند ربي وحده ، ثم كيف يأمر موسى هارون بدخول القبر قبل أن يموت ، وأخيراً فإن قبر هارون معروف ، هناك على جبل هور في أرض التيه ، ثم أليست هذه الرواية هي رواية التوراة — كما جاءت في سفر العدد (٢٠ : ٢٢—٢٩) — وإن غيّر أصحابنا الإخباريون فيها ، بأن جعلوا موت هارون على جبل أحد في المدينة المنورة ، بدلاً من موته على جبل هور في أرض التيه ، وإن كانت رواية التوراة جعلت ذلك بوحي من الله لموسى ، وإن انحرفت عن الجادة من الصواب بعد ذلك ، فجعلت الموت إنما كان سببه العصيان[١] .

ومنها (سابعاً) أن سكنى اليهود في يثرب — طبقاً لهذه الرواية — بعيد جداً ، بخاصة إذا ما تذكرنا أن موسى عليه السلام قد خرج ببني إسرائيل من مصر حوالي عام ١٢١٤ ق.م[٢] — ولا أقول في عام ١٤٤٧ ق.م ، كما ترجح بعض الآراء[٣] — هناك من يذهب إلى أن الخروج إنما كان في حوالي عام ١٥٧٥ ق.م[٤] ، طبقاً التي تربط بين اليهود والهكسوس[٥] .

ولعل سؤال البداهة الآن : إذن ما هو أصل هذه الروايات التي جعلت موسى عليه السلام يرسل جيشاً إلى المدينة المنورة يقضي على سكانها ؟ ومن أين جاء بها الإخباريون ؟ .

---

(١) عدد ٢٠ : ٢٤ ، تثنية ٣٢ : ٤٨—٥٠ ، كتابنا إسرائيل ص ٢٢٥—٢٢٩ .

(٢) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٢٩٢—٣٠٣ .

(٣) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٢٦ ، وكذا J. Finegan, op. cit., P. 117-118
وكذا J.A. Jack, The Date of the Exodus, 1925
وكذا A. Lods, op. cit., P. 128
وكذا Orr, The Problem of the Old Testament, P. 422-4.

(٤) باهور لبيب : لمحات من الدراسات المصرية القديمة : ص ٤١—٥٤ ، كتابنا « حركات التحرير في مصر القديمة » ص ١٣١—١٣٧ (دار المعارف — ١٩٧٦) ، كتابنا « إسرائيل » ص ٢٦٩—٢٧٦ ، وكذا H.R. Hall, The Ancient History of the Near East, P. 406-9.

(٥) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٢٦٨—٣٠٣ .

والرأي عندي أن مصدرها التوراة ، وأنها وصلت إلى الإخباريين محرفة حتى ، ثم أفترض بعد ذلك مصدرين لها من قصص التوراة ، الواحد قصة موسى والمديانيين ، والأخر قصة شاؤل والعماليق ، وأن المؤرخين المسلمين لم يطلعوا حتى على أي من القصتين في التوراة ، ومن ثم فقد نقلوها عن مصادر غير عليمة بما جاء في التوراة ، وربما عن مسلمة أهل الكتاب .

وعلى أي حال ، ففي الأولى نرى رب إسرائيل يأمر موسى بالإنتقام من المديانيين ، ومن ثم نرى الجيش يخرج إلى مديان فيقتل الذكور منهم ، ويسبي النساء ، ثم ينهب المواشي ويحرق المدن ويهدم الحصون ، ثم يعود ومعه « الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم » ، فيخرج إليهم موسى غضبان أسفاً ، مهدداً ثائراً ، آمراً إياهم « أن اقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر[1] » ، وهكذا يأبى كاتبوا التوراة — المتداولة الآن — إلا أن يصوروا موسى عليه السلام ، حريصاً على قتل رجال مديان ، فضلاً عن السبايا من نسائهم ، والذين لم يبلغوا الحلم من ذكورهم[2] .

وفي الرواية الأخرى يأمر رب إسرائيل ملك إسرائيل بأن يقضي على العماليق الذين استذلوا يهود ، ومن ثم فإن شاؤل سرعان ما يخرج على رأس جيشه فيبيد عماليق ، وإن أبقى على « أجاج » ملكهم ، فضلاً عن خيار الغنم والبقر ، وعن كل ثمين غال مما يملكون ، وهنا يغضب « يهوه » رب إسرائيل ، فيتراءى لصموئيل النبي ، معلناً أنه قد « ندم على أن جعل شاؤل ملكاً » لأنه خالف أمره ، فلم يقض على عماليق وما يملكون ، وكانت النتيجة أن ذبح ملك العماليق في الجلجال ، ورفعت بركة رب إسرائيل عن شاول ، وأعطيت لواحد من يهود من غير بيت شاؤل[3] .

---

(١) عدد ٣١ : ١-١٨ .
(٢) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٧٨-٧٩ .
(٣) التوراة : سفر صموئيل الأول ١٥ : ١-٣٥ .

ولا ريب في أن كل أقاصيص التوراة هذه ليس لها ظل من حقيقة ، وإنما هي روايات سجلها يهود الأسر البابلي (٥٨٦-٥٣٩ ق.م) ، وبعد حدوثها بقرون وقرون ، ولعل في بعد الشقة ما بين وقوع الأحداث وتسجيلها ما يشفع في هذا الخلط العجيب ، بل ما يشفع في المغالات والتفاخر بما ارتكبت يهود من مجازر ، لم يكن لها من أساس الا في أذهان مؤلفيها ، الذين شهدوا بربرية الأشوريين والبابليين ، فخيل إليهم أن أسلافهم مارسوا نفس اللون من القهر والإذلال[١] .

ويبقى بعد ذلك سؤالنا : متى أتى اليهود إلى يثرب ؟

في الواقع إن الآراء متضاربة في هذا الأمر إلى درجة أننا لا نستطيع التوفيق بينهما ، إذ تذهب بعض الآراء إلى أن ذلك إنما حدث في القرن الثالث عشر ق.م[٢] ، بينما تذهب آراء أخرى إلى أنه إنما كان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد[٣] ، والفرق بينهما جد شاسع ، قد يصل إلى حوالي أربعة عشر قرناً ، ومن هنا كانت الصعوبة في التوفيق بين هذه الآراء المختلفة أحياناً ، والمتضاربة أحياناً أخرى .

لقد رأينا من قبل كيف أن بعض الروايات إنما تذهب إلى أن وجود اليهود في يثرب ، إنما كان منذ أيام موسى عليه السلام ، ورأينا كذلك كيف أن هذه الروايات لا تستطيع حتى أن تقف على قدميها ، ومن ثم فإننا نتجه إلى رواية أخرى ، تذهب إلى أن اليهود إنما قدموا على أيام داود عليه السلام (١٠٠٠-٩٦٠)[٤] ، ذلك أن

---

(١) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ٣/٣٢٢ .

(٢) وفاء الوفا ١/٧٠٠ ، ١١١ ، الروض الأنف ٢/١٦ ، أبو الفداء ١/١٢٣ ، ياقوت ٥/٨٤ ، ابن خلدون ٢/٨٧-٨٨ (القسم الأول) ٢/٢٨٦-٢٨٧ (القسم الثاني) ، الأغاني ٣/١١٦ ، ١٩/٩٤ .

(٣) Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3-4
وكذا IC,III, P. 170. وكذا O'Leary, op. cit., 173

(٤) هناك إتجاهات مختلفة لفترة حكم داود ، فهي في الفترة (١٠١٠-٩٥٥ ق.م) أو (١٠٠٤-٩٦٣ق.م) أو (١٠٠٠-٩٦٠ق.م) أو (٩٧٥-٩٦٣ق.م) أو (١٠١٢-٩٧٢ق.م) : أنظر : نيبب حتى : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، وكذا W.F. Albright, op. cit., P. 120-122
وكذا I. Epstein, op. cit., P. 35 وكذا G. Roux, op. cit., P. 454
وكذا Historical Atlas of the Holy Land, P. 81.

الإسرائيليين — فيما يرى البعض — قد خلعوا طاعة داود وانضموا إلى ولده « أبشالوم » ، وأن النبي الكريم قد لجأ إلى أطراف الشام ، ثم لحق بخيبر وما إليها من بلاد الحجاز ، ثم أعد العدة لاستعادة ملكه فحارب ولده وانتصر عليه ، ثم انتهى الأمر بقتل أبشالوم على يد « يؤاب » قائد جيش داود ، فضلاً عن قتل عشرين ألفاً من بني إسرائيل[1] ، ولعل « دوزي » يتجه نفس الإتجاه ، وإن رأى أن الأمر كان ممثلاً في هجرة سبط شمعون قبيل أيام داود[2] ، ومن ثم فالهجرة لا علاقة لها بداود — الأمر الذي ناقشناه من قبل —

وعلى أي حال ، فإن رواية الأخباريين الآنفة الذكر ، لا تعدوا أن تكون تحريفاً لأحداث جاءت في التوراة ، حيث تروى أن أخريات أيام داود قد تميزت بعدة ثورات ، امتدت حتى إلى أهل بيته ، ومنها ثورة ولده أبشالوم الذي نجح في أن يـ[illegible] إليه قبائل إسرائيل الثائرة ضد أبيه ، دون سبب ندريه على وجه اليقين ، ثم [illegible] أبشالوم من خلع أبيه ، وتنصيب نفسه ملكاً على إسرائيل في مكانه ، مما اضطر داود إلى أن يذهب إلى «محانيم» في شرق الأردن ، حتى لا يفاجأ بأبشالوم وأتباعه في أورشليم ، إلا أن تصرفات أبشالوم المخزية مكنت داود من استعادة ولاء بعض القبائل الإسرائيلية القوية ، والإنتصار على أبشالوم وقتله كذلك ، على الرغم من أوامر داود الصريحة لجنوده بعدم قتله ، مما أدى إلى حزن داود المرير على ولده[3] .

وهكذا يبدو واضحاً أن الأخباريين لم يفعلوا أكثر من نقل القصة التي روتها التوراة ، وإن غيروا فيها بما يجعل اليهود يصلون إلى بلاد العرب على أيام داود عليه السلام ، بل إن هناك من يذهب به الخيال إلى أن يرى أن داود قد غزا يثرب ، وكان يسكنها صلع وفالج ، وأنه قد أخذ من سكانها مائة ألف عذراء ، وأن الله قد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٩٧ ، وفاء الوفا ١/١١٠-١١١-١١٢ ، خلاصة الوفا ص ١٥٧ .

(٢) R. Dozy, op. cit., P. 40-48.

(٣) صموئيل ثان ١٣ : ١-١٨ : ٣٣ ، ف.ب. ماير : حياة داود ص ٢٦٢
وكذا M. Noth, op. cit., P. 201-202.

سلط الدود على أهل يثرب بعد ذلك فأهلكهم ، ثم دفنوا في السهل والجبل في ناحية الجوف[1] .

غير أن أصحابنا الأخباريين لم يقولوا لنا ماذا فعل النبي الأواب بهذه المائة ألف من عذارى يثرب ، فضلا عن السبب في سبيّهم ، ثم وهل صحيح أن يثرب كان بها في تلك الآونة من القرن العاشر قبل الميلاد مائة ألف من العذارى؟، ثم وهل صحيح كذلك أن الله قد أهلك أهل يثرب جميعاً ؟، وأخيراً ماذا فعل هؤلاء الناس ليصب عليهم داود نقمته إلى هذا الحد ؟ ، وهكذا يبدو لنا بوضوح ما في هذه الرواية من بعد عن الصواب .

وهناك فريق ثالث يذهب إلى أن اليهود إنما قدموا إلى بلاد العرب في القرن الثامن قبل الميلاد ، بعد سقوط السامرة —عاصمة إسرائيل— في أيدي الأشوريين عام ٧٢٢ ق.م[2] ، وليس من شك في أن هذا الإتجاه قد تأثر إلى حد كبير بسقوط السامرة في يوم ما من شهر ديسمبر عام ٧٢٢ ق.م[3] ، وأن العاهل الأشوري « سرجون الثاني » (٧٢٢—٧٠٥ ق.م) قد هجّر أكثر عناصر السكان أهمية ، وربما النبلاء والأغنياء ، غير أن النهجير إنما كان — طبقاً لرواية التوراة[4] — إلى « حلج وخابور ومدن مادى » ، وحين تكررت العملية في عام ٧٢٠ أو ٧١٥ ق.م ، فإن العاهل الأشوري قد جاء بقوم من « بابل وكوت وحماة » ، ومن سرسة وعيلام ، فضلاً عن قبائل ثمود (تامود) ومرسيمانو وجبايا ، والعرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء وأسكنهم في السامرة ، وذلك رغبة من العاهل الأشوري في كسر التحالفات القديمة

---

(١) وفاء الوفا ١/١١٠ ، خلاصة الوفا ص ١٥٦ ، الدرر الثمينة في تاريخ المدينة ص ٣٢٣ ، جواد علي ١٢٩/٤ .

(٢) A. Guillaume, Islam, 1964, P. 11.

(٣) A.T. Olmstead, in AJSL, 47, P. 262.

وكذا A. Leo Oppenheim, in ANET, P. 284

وكذا J. Finegan, op. cit., P. 210

وكذا A.G. Lie, The Inscriptions of Sargon II, Part, I, The Annals, 1929, P. 5.

(٤) ملوك ثان ١٧ : ٦ .

في سورية وفلسطين ، بإدخال أجانب إلى البلاد[1] ، وهكذا يبدوا واضحاً أنه ليست هناك أية إشارة في التوراة ، أو في النصوص الآشورية ، إلى تهجير يهود من السامرة إلى يثرب ، وإلى غيرها من بلاد العرب ، ومن ثم فإن المؤرخين يرفضون هذا الإتجاه .

وهناك فريق رابع يرى أن هجرة اليهود إلى يثرب إنما كانت بعد سقوط اليهودية وتدمير الهيكل في القرن السادس قبل الميلاد ، على يد « نبوخذ نصر » في عام ٥٨٦ ق.م — وربما في أغسطس ٥٨٧ ق.م — وإبعاد كثير من اليهود إلى بابل ، وهو ما عرف في التاريخ « بالسبي البابلي »[2] ، وعندما قتل اليهود «جداليا» نائب نبوخذنصر في أورشليم[3] ، أدركوا مدى الكارثة التي حلت بهم ، وخوفاً من انتقام العاهل البابلي ، فقد كان الهروب إلى مصر هو سبيل النجاة الوحيد أمامهم ، ونقرأ في التوراة « فقام جميع الشعب من الصغير إلى الكبير ورؤساء الجيوش وجاءوا إلى مصر ، لأنهم خافوا من الكلدانيين[4] » ، ومرة أخرى ليس في هذه الأحداث إشارة إلى هروب يهود إلى يثرب ، كما تذهب الروايات العربية[5] .

على أنه في هذه الاضطرابات ، لا يمكنا القول إن مصر كانت هي سبيل النجاة الوحيد أمام اليهود — كما تقول التوراة — ومن ثم فربما فرّ فريق من يهود إلى بلاد العرب ، وإن كنا لا نستطيع —بحال من الأحوال— أن نقول أنهم قد ذهبوا إلى يثرب

---

(١) ملوك ثان ١٧ : ١-٢٦ ، عزرا ٤ : ٢ ، ٩ ، كتابنا « إسرائيل » ص ٥٠٩-٥١٢
وكذا A.L. Oppenheim, in ANET, P. 260
وكذا S.A. Cook, in CAH, III, P. 385
وكذا C. Roth, A Short History of the Jewish People, P. 28-9.

(٢) تاريخ الطبري ٥٣٩/١ ، أبو الفداء ١٢٣/١ ، الأغاني ٩٤/١٩ ، الروض الأنف ١٦/٢ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦
وكذا E. Dozy, op. cit., P. 135. وكذا A. Guillaume, op. cit., P. 11

(٣) إرمياء ٤١ : ١-١٨ ، زكريا ٧ : ٥ .

(٤) ملوك ثان ٢٥ : ٢٦ .

(٥) وفاء الوفا ١١٢/١ ، تاريخ إبن خلدون ١٠٧/٢ .

بالذات ، ولعل الذهاب إلى تيماء وإلى وادي القرى ومجاوراتهما ، ربما كان أقرب إلى الصواب من الذهاب بعيداً إلى يثرب ، ذلك لأن الطريق إلى الحجاز لم يكن مقفلاً أمام يهود في تلك الفترة ، بخاصة وأن اليهود كانوا هاربين من فلسطين ، يبحثون عن ملجأ يقيهم شر العذاب الذي يمكن أن يصبه عليهم العاهل البابلي ، والحجاز أقرب المناطق إلى فلسطين ، كما أن وجود بعضاً من يهود على طرق التجارة بين جنوب بلاد العرب وشمالها فيما بعد في العصر الروماني ، قد يدعم الرأي القائل بوجود هجرة يهودية إلى بلاد العرب منذ تلك الفترة[1] .

غير أن حملات البابليين المتكررة بعد ذلك على شمال بلاد العرب ، فضلاً عن استقرار « نبونيد » في تيماء ، ولمدة قد تقرب من سنوات عشر ، كما أشرنا من قبل ، قد يضعف هذا الإتجاه ، ورغم أن هناك من يذهب إلى أن حملة نبونيد على بلاد العرب ، قد ضمت بين رجالها بعضاً من يهود ، وأن هذا النفر من يهود ، إنما أقاموا في شمال الحجاز — وحتى يثرب — إقامة دائمة استمرت حتى ظهور الإسلام ، فإن العاهل البابلي لم يشر أبداً إلى عناصر يهودية في جيوشه ، أو أنه قد أسكن يهود في تلك المناطق ، كما أننا لا نملك من الأدلة ما يؤيد وجهة النظر هذه[2] .

وهناك فريق خامس يذهب إلى أن وجود اليهود في يثرب إنما يرجع إلى القرنين الأول والثاني بعد الميلاد ، وليس من شك في أن الأدلة التاريخية ، إنما هي في جانب هذا الإتجاه أكثر من غيره ، ولعل من أهم هذه الأدلة أن الظروف السياسية التي كانت يهود تمر بها في تلك الفترة — بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول ق.م ، وعلى اليهودية ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد — قد ساعدت هذه الظروف على هجرة أعداد من يهود إلى شبه الجزيرة العربية ، التي كانت بعيدة عن السيطرة الرومانية ، فضلاً عن أن بلاد العرب إنما كانت ما تزال في بداوة تشبه ما كان عليه اليهود إلى حد ما ، هذا إلى أن اليهود أنفسهم إنما كانوا

---

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٦ ، وكذا A. Guillaume, op. cit., P. 11.
جواد علي ٥١٣/٦ .

ينظرون إلى العرب على أنهم من ولد إسماعيل ، وبما أنهم — أي اليهود — من ولد إسحاق ، فهم جميعاً إذن من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام ، وبالتالي فهم من ذوي رحمهم ، ولهم بهم صلة من قربى ، هذا فضلاً عن أن أمر هروب اليهود إلى أعالي الحجاز ودخولهم إليه أمر سهل ميسور ، فالأرض واحدة وهي متصلة ، والطرق مفتوحة مطروقة ، ولا يوجد مانع يمنع اليهود ، أو غير اليهود ، من دخول الحجاز ، ولا سيما أن اليهود كانوا خائفين ، فارين بأنفسهم من فتك الرومان ، وأقرب مكان مأمون إليهم هو الحجاز [1] .

غير أن الهجرة الحقيقية إنما كانت بعد الثورة اليهودية ضد الرومان ، ثم إخماد هذه الثورة بأشد العنف وأقسى أنواع التدمير على يد « تيتوس » في عام ٧٠م ، حيث دمرت المدينة المقدسة ، وأحرق المعبد اليهودي الذي بناه « هيرودوس » إحراقاً تاماً ، حتى أن القوم نسوا بعد حين من الدهر ، إن كان المعبد قد بني على التل الشرقي أو الغربي من أورشليم ، وحتى أن محاولة بنائه — اعتماداً على وصف التوراة له — قد فشلت نهائياً ، كما منع بقية السكان من مجرد الإقتراب من أورشليم ، ومن ثم فقد هاجرت مجموعات من السكان إلى بلاد العرب ، ووصلت إلى يثرب .

غير أن الثورة سرعان ما تجددت مرة أخرى على أيام هدريان ، فيما بين عامي ١٣٢ ، ١٣٥م ، وانتهت الثورة إلى القضاء تماماً على اليهود ، ككيان سياسي في فلسطين ، وتغيّر إسم المدينة المقدسة (القدس) إلى « إيليا كابتيولينا » وتحول المعبد اليهودي إلى معبد لإله الرومان « جوبيتر » ، ثم بيعت النساء اليهوديات كإماء ، وضاع اليهود في غياهب التاريخ ، وسرعان ما فرّ — من أسعده الحظ فنجا — إلى مكان يحتمي به من غضبة الرومان القاسية ، وكان من هؤلاء المحظوظين فريق من يهود وصلوا إلى يثرب ، وكان هؤلاء — إلى جانب من وصلوا بعد تدمير القدس على يد تيتوس — هم الذين

---

(1) جواد علي ٦/٥١٤ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., II, P. 74
وكذا O'Leary, op. cit., P. 173.

كونوا الجالية اليهودية في شمال الحجاز ، وفي يثْرب بصفة خاصة[1] ، وزاد عددهم بمرور الزمن ، حتى إذا ما ظهر الإسلام كان معظم سكان وادي القرى إلى يثْرب من اليهود ، هذا وهناك في الحجر ، وفي مواضع أخرى من أرض الأنباط ، كتابات نبطية ، يرجع بعضها إلى القرن الأول الميلادي ، وبعضها الآخر إلى القرن الرابع الميلادي ، وردت بها أسماء عبرية تشير إلى أن أصحابها من يهود[2] .

وتؤيد المصادر العربية هذا الإتجاه ، فتذكر أنه لما ظهرت الروم على بني إسرائيل جميعاً بالشام فوطؤوهم ونكحوا نساءهم ، خرج بنو النضير وبني قريظة وبنو هدل (بهدل) هاربين إلى من بالحجاز من يهود ، فلما فصلوا عنهم بأهليهم اتبعهم الروم فأعجزوهم ، وهلك جند الروم في المفاوز والصحاري الخالية من الماء ؛ وهذه الروايات مأخوذة عن يهود المدينة أنفسهم ، ثم أخذت جموع اليهود في الجزيرة العربية تزداد وتكثر بعد اضطهاد الروم لهم ، ثم قصد بنو النضير وقريظة منطقة يثْرب ، وارتادوا حتى تخيروا أخصب بقاعها فسكنوها[3] .

وهكذا سكنت جاليات يهودية منطقة يثْرب ، والطرق المؤدية إلى الشام ، وإن تركزت كتل اليهود الكبرى في يثْرب بالذات ، حيث كان فيها ثلاث قبائل ، ربما بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من [illegible] ، وهي قينقاع[4] والنضير وقريظة ، إلى جانب

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٧٥-٢٧٧ ، وكذا
Josephus, The Jewish War, II, 18, 1, 3-4.

(٢) J. Horovity, Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islamic Times, IC, III, 1929, P. 170.
وكذا جواد علي ٦/٥١٣ .

(٣) الأغاني ١٩/٩٥ ، ابن خلدون ٢/٢٨٧ ، وفاء الوفا ٢/١١٢ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٩ ، ١٠ ، أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٤) يرى «أوليرى» أن بني قينقاع إما عرب متهودون ، أو من بني أدوم (op. Cit, P, 173) ، وانظر عن موقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن علاقاتهم مع غيرهم من يهود بني قريظة وبني النضير ، واشتراكهم في يوم بعاث (ابن كثير ٤/٣-٤ ، المقدسي ٤/١٩٥ ، ابن خلدون ٢/٢٣ ، ابن هشام ٢/٣٣٤ ، المعارف ص ٩٤ ، تاريخ الطبري ٢/٤٧٩-٤٨٣ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٢٧-١٣١) .

بطون وعشائر يهودية أخرى ، ذهب الأخباريون إلى أنها بلغت أكثر من عشرين بطناً ، منهم بنو عكرمة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو الشطية وبنو جشم وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص (العصيص) وبنو ثعلبة[1] .

هذا وهناك من يرجع بنسب بني النضير وبني قريظة إلى طبقة الكهان ـ سلالة هارون عليه السلام ـ وأما بقية يهود بلاد العرب ، فبعضهم يرجع إلى نفس طبقة الكهان ، وبعضهم الآخر إنما ينتمي إلى نسل الأسباط العشرة المفقودة[2] .

غير أننا لا نستطيع أن نوافق على هذا الاتجاه ، ذلك لأن الأسباط العشرة ـ والذين كانت تتكون منهم دويلة إسرائيل التي قامت عقب انفصال الدولة عشية موت سليمان في عام ٩٢٢ ق.م ، إلى إسرائيل وعاصمتها السامرة ، ويهوذا وعاصمتها أورشليم[3] ـ إنما ضاعوا في غياهب التاريخ بعد الإحتلال الأشوري للسامرة في عام ٧٢٢ ق.م ، ثم قيام سرجون الثاني بتهجير أكثرهم إلى مناطق أخرى من الإمبراطورية ، ثم أتى بقبائل أخرى من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب ، لتحل محل الإسرائيليين المسبيين ، ثم أسكنهم في السامرة ومجاوراتها ، ومن هذا الخليط الجديد ظهر في التاريخ ما سمي « بالسامريين »[4] .

وهكذا وضع سرجون الثاني نهاية لكيانهم كأمة ، وأنهى وجود الأسباط العشرة كدولة ، ولم يقدر لهم العودة مرة أخرى إلى المنطقة التي أخذوها غيلة واغتصاباً من أصحابها ، ثم سرعان ما اندمجوا مع غيرهم من السكان الأصليين في المناطق التي

---

(١) وفاء الوفا ١/١١٢–١١٦ ، ابن هشام ٢/٢٥٩ ، الأغاني ١٩/٩٥ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٤ ، أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٢٩٤–٢٩٥ ، جواد علي ٦/٥٢٢ .

(٢) Freidlander, The Jews of Arabia and the Rechabites, in JQR, 1910-1911, P. 254. وكذا O'Leary, op. cit., P. 173

(٣) ملوك أول ١١ : ٢٦–٤٠ ، ١٢ : ٢٠–٢٥ ، وكذا M. Noth, op. cit., P. 58 وكذا C. Roth, op.cit., P. 23.

(٤) فيليب حتي : المرجع السابق ص ٢١٠ ، وكذا C. Roth, op. cit., P. 28-29. وكذا The Book of Jewish Knowledge, 1964, P. 126.

أجبروا على الإقامة فيها : وليست هناك أية إشارة على أن بلاد العرب كانت ضمن هذه المناطق ، وإن ذكرت نصوص العاهل الأشوري أن من بين من أتى بهم إلى السامرة قبائل من بلاد العرب[1] — كما أشرنا من قبل — فهل أتى سرجون بجزء من الأسباط العشرة في مكان هؤلاء المهجرين من بلاد العرب ؟ هذا ما سكتت عنه النصوص تماماً ، ومن ثم فإننا لا نستطيع القول بأن بعضاً من يهود بلاد العرب كانوا من الأسباط العشرة .

وعلى أي حال ، فإن فريقاً من المؤرخين إنما يذهب إلى أن يهود بلاد العرب ، إنما هم عرب تهودوا ، وإن لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية في التوحيد ، وأنهم لم يكونوا خاضعين لقانون التلمود كله ، حتى أن بعضاً من يهود دمشق وحلب في القرن الثالث الميلادي أنكروا عليهم يهوديتهم ، وإن كانوا مع ذلك شديدي التمسك بدينهم[2] .

هذا ويذهب فريق من المؤرخين إلى أن بني النضير وبني قريظة فرعان من قبيلة جذام العربية ، تهودوا وسموا باسم المكان الذي نزلوا فيه[3] ، وطبقاً لرواية الأخباريين ، فإن « جبل بن جوال » من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، قد تهود هو وقومه ، وعاش مع بني قريظة ، حتى ظهور الإسلام ، ثم هداه الله إلى الدين القويم فأسلم[4] .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يهود بلاد العرب إنما هم من يهود فلسطين ، وأنهم قد تركوها فيما بين عامي ٧٠ ، ١٣٥م[5] ، كما أشرنا من [illegible] يذهبون إلى

---

(١) A.L. Oppenheim, ANET, P. 286.

(٢) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٣ ، ٧٢ ، حسن إبراهيم : المرجع السابق ص ٧٣
وكذا D.S. Margoliouth, op. cit., P. 60
وكذا H. Lammens, op. cit., P. 66, 81
وكذا Graetz, History of the Jews, III, P. 51, 75.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٣٦/٢ ، ٣٩ .

(٤) جواد علي ٥١٥/٦ ، وكذا الأصابة ٢٢٣/١ وما بعدها (رقم ١٠٧١) .

(٥) O'Leary, op. cit., P. 173.

أن يهود بني النضير وبني قريظة من نسل هارون[1] ، وأن بقية البطون اليهودية من أسباط بني إسرائيل الأخرى[2] ، وأن يهود خيبر من نسل « يهونا داب بن ركاب » ، وأنهم قد هاجروا إلى خيبر بعد خراب الهيكل الأول في عام ٥٨٦ ق.م ، ثم بقوا فيها حتى عهد الخليفة الراشد « عمر بن الخطاب » (١٣-٢٣هـ - ٦٣٤-٦٤٤م) ، وأن كلمة «خيبر» كلمة عبرانية بمعنى الطائفة والجماعة ، وبمعنى الحصن والمعسكر[3] ، وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه الأخباريون ، وإن نسبوها إلى رجل دعوه «خيبر بن قانية بن مهلائيل» ، ورأى فيه البعض « شفطيا بن مهللئيل » من بني فارص[4] ، على أن هناك من يفسرها بمعنى مجموعة من المستوطنات ، وإن رأى أن اللفظة عبرية[5] .

على أن الإستدلال ببحث لغوي على جنسية يهود بلاد العرب ، طبقاً لما تشير إليه الأسماء التي يحملها اليهود -قبائل وأفراداً- لا يمكن أن يعتد به أو يعول عليه ، فمن الحق أن بعض أسماء القبائل اليهودية عربية محضة ، ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس ، إذ يمكن أن تكون جموع اليهود التي هاجرت إلى بلاد العرب ، قد اتخذت أسماء الأماكن التي نزلت بها أسماء لها ، بل إن الواقع إنما يدلنا على أن اليهود كانوا قد تركوا منذ أمد طويل الإنتساب إلى قبائلهم ، وأصبحوا يعرفون بأسماء القرى والأقاليم التي جاءوا منها ، فكان يقال فلان الأورشليمي أو فلان الحبروني . . وهكذا ، ومن ثم فالطريقة المثلى - فيما يرى إسرائيل ولفنسون - إنما هي النظر في الأخلاق والتقاليد ، واتجاه الأعمال والأفكار ، وهنا فسوف نجد أن يهود بلاد العرب

---

(١) D.S. Margoliouth, op. cit., P. 59. وكذا Graetz, op. cit., P. 56

(٢) جواد علي ٦/٥٢٢-٥٢٣ ، وكذا Freidlander, op. cit., P. 254

(٣) ملوك ثان ١٠ : ١٥-٢٨ ، البكري ١/٥٢١ ، تاج العروس ٣/١٦٨ ، زاد المعاد ٢/١٢٣ وكذا Graetz, op. cit., P. 56 وكذا C.C. Torrey, The Jewish Foundations of Islam P. 13. وكذا EI, 3, P. 869 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 784

(٤) أبوا الفداء ١/٨٩ ، وكذا R. Dozy, op. cit., P. 136

(٥) جواد علي ٦/٥٢٦ ، وكذا G. Weil, Mohammed der Prophet, P. 185.

يهوداً أكثر منهم عرباً ، هذا إلى جانب أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال بلاد العرب ، إنما أتى اليهود بها من فلسطين ، حيث تكثر هناك الحصون المنيعة في الجبال[1] .

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما وجه الخطاب إلى اليهود بتعبير « بني إسرائيل » ، ونعى عليهم مسلك اليهود الأقدمين مع موسى والأنبياء من بعده ، وما كان منهم من تعجيز وإحراج وكفر وتكذيب وغدر ، ونقض للشرائع وتحريف للكلام عن مواضعه ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وذلك في صدد التنديد بموقفهم من النبي — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وفي كثير من الآيات جعل اليهود المعاصرين والقدامى موضوع خطاب وسياق وسلسلة واحدة ، حيث يوجه الخطاب إلى بني إسرائيل أو إلى اليهود بصيغة المخاطب القريب ، فيقص ما كان من الأقدمين وما كان من المعاصرين بأسلوب يرجح أن المقصود به تقرير الصلة النسبية بين هؤلاء وأولئك ، وربط ما بدا من أخلاق المعاصرين ومواقفهم بما كان من أخلاق القدماء ، كأن الجميع يصدرون عن جبلة واحدة وأخلاق متوارثة ، وإذن : فتوجيه الخطاب في القرآن الكريم إلى يهود يثرب بـ « بني إسرائيل » يسوغ الترجيح ، بل الجزم ، بأن اليهود الذين كانوا في الحجاز ، بصفة عامة ، هم نازحون وأنهم إسرائيليون ، وأنهم ليسوا قبائل عربية تهودت ، وإن كان هناك عرب تهودوا ، فإنهم لم يكونوا جماعة محسوسة ، وليسوا إلا أفراداً[2] .

على أنه يجب ألا يفهم من هذا كله ، أن كل يهود بلاد العرب من أصل يهودي ، فهناك الكثير من العرب المتهودين ، ولا سيما القبائل اليهودية المسماة بأسماء عربية أصيلة ، لها صلة بالوثنية ، مما يدل على أنها إنما كانت وثنية قبل أن تتهود ، وهناك الكثير من البطون العربية التي تهودت[3] ، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد

(١) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٥-١٦ .

(٢) عبد الفتاح شحاتة : تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام – الجزء الثاني – ص ٢٧٩-٢٨٠ .

(٣) T. Noldeke, op. cit.- P. 52.

وكذا D.S. Margoliouth, op. cit., P. 60.

خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير ، وتهود قوم من بني الحارث بن كعب ، وقوم من غسان ، وقوم من جذام ، وقوم من «بلي»[1] ، فضلاً عن أن هناك ما يشير إلى أن المرأة المقلات في الجاهلية كانت تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده ، ومن ثم فقد تهود بعض منهم ، فلما جاء الإسلام أراد الأنصار إكراه أبنائهم عليه ، فنهاهم الله عن ذلك[2] ، حيث يقول سبحانه وتعالى « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »[3] ، كما أن اليهود قد عملوا على التبشير بدينهم بين العرب إلى حد ما .

(٣) العرب :

يروي الإخباريون أن القبائل العربية —من أوس وخزرج— قد هاجرت من اليمن إلى يثرب على إثر حادث سيل العرم، وهناك في يثرب وجدت تلك القبائل أن الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود ، فضلاً عن العدد والقوة ، فأقام الأوس والخزرج مع اليهود، وعقدوا معهم حلفاً يأمن به بعضهم إلى بعض، ويمتنعون به ممن سواهم[4] .

وهكذا فان هجرة الأوس والخزرج إلى يثرب ، إنما كانت — طبقاً لرواية الإخباريين — بسبب سيل العرم ، الأمر الذى لا يمكن تحديد زمنه بسهوله ، ذلك لأن سد مأرب إنما

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٥٧/١ ، جواد ٥٢٥/٦
وكذا Graetz, op. cit., P. 408. وكذا Islamic Culture, III, 2, P. 177.

(٢) أديان العرب فى الجاهلية ص ٢٠١ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٨٨ ، السنن الكبرى للبيهقي ١٨٦/٩ ، سنن أبي داود ٧٨/٣-٧٩ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٥٦ ، وانظر : تفسير الطبري ٤٠٧/٥-٤٢٤ (دار المعارف بمصر) ، تفسير القرطبي ٢٧٩/٣-٢٨٢ ، تفسير روح المعاني ١٣/٣-١٥ ، تفسير مجمع البيان للطبرسي ٣٠٤/٣-٣٠٧ ، تفسير المنار ٣٥/٣-٤٠ ، تفسير أبي السعود ١٨٩/١-١٩٠ ، تفسير ابن كثير ٣١٠/١-٣١٢ (دار إحياء التراث العربي) ، تيسير العلي القدير ٢٢٠/١-٢٢٢ ، تفسير الكشاف ٣٨٧/١ ، في ظلال القرآن ٢٩٣/٢-٢٩٦ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٢٩/١-٣٣١ ، تفسير النسفي ١٢٩/١ .

(٤) ابن كثير ١٦٠/٢ ، الأغاني ٦٩/١٩ ، ياقوت ٣٥/٥-٣٨ ، تاريخ اليعقوبي ٢٠٣/١-٤٢٠ ، ابن هشام ١٧/١-١٩ ، الأعلاق النفيسة ص ٦٢ ، جواد علي ١٢٩/٤ ، علي حافظ : فصول من تاريخ المدينة ص ١٤-١٥ .

تهدم عدة مرات ، خلال الفترة الطويلة التي مضت منذ تشييده في منتصف القرن السابع ق.م — وربما الثامن ق.م[1] — وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣م ، على أيام أبرهة الحبشي طبقاً لما جاء في نصي (جلازر ٦١٨) و (CIH, 541)[2] ، إذ أن هناك عدة إشارات إلى تهدم السد وإصلاحه ، منها ما حدث على أيام « شمر يهرعش[3] » ، ومنها ما حدث على أيام « ثاران يهنعم » عندما تهدم السد عند موضع « حبابض » و « رحبتن » ، وأن القوم قد كتب لهم نجاحاً كبيراً في إصلاحه[4] .

ولعل التهدم الذي حدث على أيام « شرحبيل يعفر » في القرن الخامس الميلادي ، إنما كان واحداً من أشد تهدمات السد خطورة ، لأن آثارة تعدت الآثار الجانبية ، إلى هرب سكان المنطقة إلى الهضاب والجبال ، ثم هجرتهم من هذه المنطقة إلى أرضين أخرى ، ربما لأنه كان بسبب كوارث طبيعيه ، كالزلازل والبراكين ، وليس لمجرد سقوط أمطار غزيرة ، ومع ذلك فقد نجح القوم بعد كل هذا في تجديد بناء السد وترميمه ، على مقربة من «رحب» وعند «عبرن» ، فضلا عن حفر مسايل للمياة ، وبناء القواعد والجدران ، كما أشرنا من قبل ، وقد تم ذلك في عام ٤٤٩/٤٥٠م ،[5] وأخيراً ذلك التهدم الذي كان على أيام أبرهة الحبشي .

---

(١) جواد علي ٢/٢٨١ ، نزيه مؤيد العظم : المرجع السابق ص ٨٨
وكذا D. Nielsen, op. cit., P. 79. وكذا Die Araber, P. 27

(٢) F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 587.
وكذا A. Sprenger, op. cit., P. 31-126 . وكذا E. Glaser, op. cit., P. 390
وكذا Le Museon, 1953, 66, P. 340.
وكذا A.F.L. Beeston, Problems of Sabaean Chronology, BASOR, 16, 1954.

جواد علي ٧/٢١٠ .

(٤) A. Jamme, op. cit., P. 176. وكذا Le Museon, 1964, 3-4, P. 491-498

(٥) E. Glaser, in MVG, II, 1897, P. 372-379, 389-390
وكذا Le Museon, 1964,3-4, P. 493-4.
وكذا H. St. J. B. Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, P.118.
وكذا A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens, Berlin, 1875, P. 13, 20, 28.

وهكذا يبدو بوضوح أن تحديد تاريخ معين لخراب سد مأرب ، وهجرة القبائل العربية من اليمن إلى وسط بلاد العرب وشمالها ، أمر لا يمكن — على ضوء معلوماتنا الحالية — أن نقول فيه كلمة نظن أنها القول الفصل ، أو حتى قريباً من هذا القول ، وأن الأمر ما يزال في مرحلة الحدس والتخمين ، حتى تقدم لنا الأرض الطيبة في اليمن أو في غيرها ، ما ينير أمامنا الطريق .

وأما الروايات العربية ، فإن بعضاً منها إنما يشير إلى أن ذلك إنما قد حدث قبل الإسلام بأربعة قرون ، بينما يشير البعض الآخر إلى أن تلك الهجرات إنما تمت في القرن الخامس الميلادي ، وعلى أيام « حسان بن تبان أسعد[1] » ، على أن هناك فريقاً ثالثاً إنما يقترح أخريات القرن الرابع الميلادي ، معتمداً في ذلك على نسب « سعد ابن عبادة الخزرجي » ، وجعله مقياساً للزمن الذي ربما تكون الهجرة تمت فيه ، فنسب سعد — طبقاً لرواية النسابين — إنما هو « سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج الأصغر بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر بن حارثة » ، فمن سعد إلى الخزرج الأكبر أحد عشر جيلاً ، وإذا افترضنا أن الفرق بين كل جيلين خمسة وعشرين عاماً ، كانت المدة بين الهجرة النبوية الشريفة (في عام ٦٢٢م) ، وبين الخزرج الأكبر ، حوالي مائتين وخمس وسبعين سنة ، أي أن هجرة الأوس والخزرج ، ربما كانت في أخريات القرن الرابع[2] ، هذا ويحدد « سديو » هذه الهجرة بعام ٣٠٠م ، ثم الإستيلاء على المدينة في عام ٤٩٢م[3] .

وأما أن تهدم السيل كان بسبب « جرذ » له مخالب وأنياب من حديد[4] ، فتلك

---

(١) ياقوت ٣٥/٥ ، جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص ١٥٥ ، وانظر : الفصل التاسع من كتابنا « دراسات في التاريخ القرآني » .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ص ٣١٥ .

(٣) لويس أميل سديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ص ٥١ .

(٤) ابن خلدون ٥٠/٢ ، اليعقوبي ٢٠٥/١ ، ياقوت ٣٥/٥ ، وفاء الوفا ١١٧/١–١٢٠ ، مروج الذهب ١٦٣/٢–١٦٤ ، نهاية الأرب ٢٨٣/٣–٢٨٨ ، الدرر الثمينة ص ٣٢٦ ، الميداني ٢٧٥/١–٢٧٦ ، الدميري : حياة الحيوان الكبرى ٤٤٥/١ .

أساطير لا تدور إلا في رؤوس أصحابها، ومن ثم فهي لا تعرف نصيباً من صواب، أو جانباً من منهج علمي، الأمر الذي ناقشناه بالتفصيل في كتابنا «دراسات في التاريخ القرآني»، كما أن «كيتاني» قد جانبه الصواب كثيراً حين ظن أن خراب سد مأرب، إنما كان بسبب الجفاف الذي أثر على السد، بل إن ضغط الماء على جوانب السد، ثم حدوث سيل العرم، إنما هو في حد ذاته لدليل على فساد نظرية الجفاف هذه[1]، فضلاً عن معارضتها لما جاء في القرآن الكريم عن حادث السيل هذا[2].

على أن المؤرخين إنما يتشككون كثيراً في أن يكون السيل وحده هو سبب هجرة الأوس والخزرج، ذلك لأن السد إنما كان يسقي ربوة من الأرض لم تكن مسكناً لكل بطون الأزد، ومن ثم فإنه يصبح من الصعب أن نتقبل القول، بأن جميع البطون الأزدية قد هاجرت إلى شمال شبه الجزيرة العربية بسبب انهيار السد وحده، وإنه لمن المحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى تعاونت مع سيل العرم، واضطرت بعض هذه البـ[illegible]ـك وطنها مهاجرة إلى الأرجاء النائية[3].

ولعل أهم هذه الأسباب إنما هو ضعف الحكومة، ثم تحول الطرق التجارية، فضعف الحكومة في اليمن أدى إلى تزعم سادة القبائل والرؤساء، وانشقاق الزعامة في البلاد، فضلاً عن المشاحنات الدينية بين أتباع النصرانية وأتباع الموسوية في اليمن، وزاد الطين بلة أن صاحب تلك القلاقل الداخلية تدخل الحبشة ثم الفرس في شئون

---

(١) جواد علي ٢٤٤/١-٢٤٦، وكذا I. Caetani, Studi della Historia Orientale, I,P.267, 296 وكذا A. Musil, op. cit., P. 310.

(٢) سورة سبأ: آية ١٥-١٩، وانظر: تفسير البيضاوي ٢٥٨/٢-٢٥٩، التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥٠/٢٥-٢٥٢، تفسير القرطبي ٢٨٢/١٤-٢٩١ (دار الكتب المصرية ١٩٤٥)، تفسير الطبري ٧٦/٢٢-٨٧ (طبعة الحلبي ١٩٥٤)، تفسير روح المعاني ١٢٤/٢٢-١٣٤، ابن هشام ١٧/١-١٩ (مكتبة الجمهورية بمصر)، تفسير الجلالين (نسخة على هامش تفسير البيضاوي) ٢٥٨/٢-٢٥٩، مروج الذهب ١٦٣/٢-١٦٤، الدميري ٤٤٥/١، البداية والنهاية لابن كثير ١٥٨/٢-١٦١، الميداني ١٨٥/١، وفاء الوفا ١١٦/١-١٢٢.

(٣) إسرائيل ولفنسون: المرجع السابق ص ٥٤.

اليمن الداخلية ، وكان نتيجة ذلك كله اضطراب الأمن في البلاد ، وظهور ثورات داخلية وحروب ، كما تدلنا على ذلك نقوش النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، فألهى ذلك الحكومة عن القيام بواجباتها ، مما أدى إلى إهمال السد ، ومن ثم فقد تصدعت جوانبه ، وكان السيل الذي أغرق مناطق واسعة من الأرض الخصبة ، التي كان القوم يعتمدون عليها في حياتهم الإقتصادية[1] ، فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن اليمن لم تصبح في تلك الفترة صاحبة السيادة على الطرق التجارية، كما أنها لم تعد الوسيط الوحيد في نقل التجارة إلى المناطق الشمالية ، بل ربما لم يعد دور اليمن — بعد سيطرة الرومان على البحر الأحمر ونقل تجارة الهند عن طريق هذا البحر ، فضلاً عن ظهور القرشيين وقيامهم برحلتي الشتاء والصيف المشهورتين — إلا دوراً ثانوياً ، وهكذا تجمعت العوامل السياسية والإقتصادية معاً على إهمال الزراعة وكساد التجارة ، مما دفع بقبائل عربية غير قليلة إلى الهجرة إلى بلاد العرب الشمالية ، وكان من بين المهاجرين الأوس والخزرج[2] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن القول بأن قبائل الأزد هاجرت دفعة واحدة، أمر غير مقبول ، ذلك لأن خزاعة — وهي بطن من الأزد — كانت ما تزال تحكم مكة حوالي عام ٤٥٠م ، وكانت قد استمرت مدة طويلة تلي هذا الأمر — رأى البعض أنها حوالي ثلاثة قرون ، ورأى آخرون أنها خمسة قرون — وهذا يعني أنها هاجرت من اليمن حوالي منتصف القرن الثاني، وربما منذ بداية القرن الثالث ، في عام ٢٠٧م[3] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الأخباريين يذهبون إلى أن الأوس[4] والخزرج أخوان ، فهما أبناء « حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة

---

(١) جواد علي ٢٤٦/١ ، وكذا
Corpus Inscriptionum Semiticarum, Part, 4, Vol. 2, 384, 540-41, 554-64

(٢) Alois Musil, Northern Nejd, N.Y., 1928, P. 309-317.

(٣) أحمد إبراهيم : المرجع السابق ص ٣١٥ ، إبن كثير ١٨٣/٢ .

(٤) هناك من يفسر كلمة الأوس بأنها اختصار لجملة « أوس مناة » وهو صنم جاهلي (جواد علي ١٣٥/٤) .

الغطريف بن امرىء القيس البطريق ، بن ثعلبة بن مازن بن الأزد »[1] ، الذي ينتهي نسبه إلى «يعرب بن قحطان» ، ولكن القوم إنما كانوا ينتسبون إلى أمهم «قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة » ، ولهذا كانوا يدعون « أبناء قيلة » ، مما يدل على أن هذه المرأة إنما كانت تتمتع بشهرة عريضة ، دفعتهم إلى الإنتساب إليها[2] .

وعلى أي حال ، فلقد أقام الأوس والخزرج في المدينة ، وربما لم يكونوا في أول الأمر يملكون من القوة وكثرة العدد ، بحيث يخشى اليهود بأسهم ، هذا ويبدو أن اليهود قد عملوا على الإفادة من خبراتهم التي اكتسبوها منذ فترة طويلة ، في مجال الزراعة والتجارة في مواطنهم القديمة في اليمن ، ومن ثم فقد سمحوا لهم بالإقامة في مجاوراتهم ، إلا أن وجود الثروة والسلطان في أيدي اليهود جعل الأوس والخزرج يعيشون حياة قاسية ، ومن ثم فقد كان الواحد منهم ، إما أن يعمل في مزارع يهود ، وإما أن يستغل خبرته السابقة في الزراعة ، فيعمل في أرض لا تنتج الكثير من الغلات ، لأنها في غالب الأحايين إنما كانت أرض موات تركها اليهود ، وفي كلا الحالين فقد كان القوم غير ميسر عليهم في الرزق[3]

وما أن يمضي حين من الدهر ، حتى استطاع أصحابنا من أوس وخزرج أن يكونوا أصحاب مال وعدد ، ~ ، أن يهود بني قريظة والنضير أحسوا أنهم لو تركوهم على حالهم هذا ، فقد يشكلون في وقت قريب خطراً ، قد يهدد مصالح يهود في المدينة ، وربما قد يهدد القوم أنفسهم ، ومن ثم فقد « تنمروا لهم حتى قطعوا

---

(1) إبن الأثير ٦٥٥/١ ، وفاء الوفا ١٢٤/١ ، اللسان ١٨/٤ ، تاج العروس ١٠٣/٤ ، العقد الفريد ١٦/٣ ، ١٥٩ ، ابن هشام ٣٤٧/٣ ، الإشتقاق ٤٣٥/٢ ، ٤٣٧ ، ياقوت ٢٠٣/٤ ، ٨٥/٥ ، المعارف ص ٤٩ ، المقدسي ١٢٠/٤-١٢١ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٣ ، جمهرة أنساب العرب ص ٣٣٢ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٥٢-٥٣ ، ٩٣-٩٤ .

(2) ابن حزم ٣٣٢/١ ، اللسان ٥٨٠/١١ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٠٤ ، المعارف ص ٤٩ ، خلاصة الوفا ص ١٦٤ ، التنبيه والإشراف للمسعودي ص ١٧٤ ، ياقوت ٨٥/٥ ، وفاء الوفا ١٢٤/١ ، جواد علي ١٣٣/٤ .

(3) تاريخ ابن خلدون ٢٨٦/٢-٢٨٧ ، الأغاني ٦٩/١٩ ، خلاصة الوفا ص ١٦٥ ، وفاء الوفا ١٢٥/١ ، علي حافظ : المرجع السابق ص ١٥ .

الحلف الذي بينهم ، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم خائفين أن تجليهم يهود ، حتى نجم منهم مالك بن العجلان ، من بني سالم بن عوف بن الخزرج ، فكان سببا في أن يسود الحيان ، الأوس والخزرج[1] » .

وهنا تجنح المصادر العربية إلى رواية — علم الله — أننا ما كنا براغبين في التعرض لها ، لولا أنها — وأمثالها — قد تكررت بصورة أو بأخرى في مواضع وأزمنة مختلفة ، وفي مراجع لها من القيمة مالها عند الناس ، ورغم ذلك فهي لا تتعارض مع المنطق والتاريخ فحسب ، ولكنها تتعارض كذلك مع العادات والتقاليد العربية التي يعترف الأعداء بها قبل الأصدقاء ، والمخالفون قبل الموافقين ، فضلاً عن الحاقدين والمتشككين في كل خلة عربية كريمة .

تزعم المصادر العربية — دون غيرها من المصادر ، حتى اليهودية — أن واحداً دعوه « الفيطون » (الفطيون أو الفطيوان) كان ملكاً على يهود في يثرب ، وأنه كان جباراً غشوماً ، فاجراً فاسقاً ، حتى أن المرأة من الأوس والخزرج — وكذا من اليهود في بعض الروايات — كانت لا تهدى إلى زوجها حتى تدخل عليه أولاً ، فيكون هو الذي يفتضها ، ثم إن أختاً لابن العجلان — دعوها فضلاء — قد تزوجت برجل من قومها ، فلما كان يوم زفافها ، خرجت على مجلس قومها ، وفيه أخوها مالك ابن العجلان ، فكشفت عن ساقيها ، فغضب مالك ، ولكنها ردت عليه إن « الذي يراد بي الليلة أشد من هذا ، أدخل على غير زوجي » ، وهنا أضمر مالك في نفسها أمراً ، أسر به إلى أخته .

وهكذا ما أن ذهبت النسوة بفضلاء إلى الفيطون ، حتى كان مالك معهن في زي امرأة ، وانتظر هناك في مخدع العروس ، حتى خرجت النسوة ودخل الفيطون ، فما أن أراد أن يقضي من فضلاء وطره ، حتى صرعه مالك بسيفه فأرداه قتيلاً ،

---

(١) السمهودي ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/١٢٥-١٢٦ ، الدرر الثمينة ص ٢٢٦-٢٢٧ ، الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ٦٣ ، أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣٢٤-٣٢٥ .

ثم ولى هارباً إلى الشام ، مستنجداً بأبي جبلة ملك غسان ، الذي أسرع بنجدته ، فأقبل في جيش كثيف من الشام ، حتى إذا ما وصل يثرب ، نزل « بذى حرض » .

وبدأ يكتب ليهود يتودد إليهم ويدعوهم لزيارته ، حتى إذا ما لبوا دعوته انقض عليهم وقتلهم ، ثم قال للأوس والخزرج « إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء لأحرقنكم » ، ثم رجع إلى الشام ، ومنذ ذلك اليوم بدأت كفة العرب ترجح على يهود ، وأصبح الأوس والخزرج أعز أهل المدينة ، فتفرقوا في عالية يثرب وسافلها يتبوؤن منها حيث يشاؤون ، واتخذوا الديار والأموال والآطام ، غير أن يهود مالبثت غير قليل حتى بدأت تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم ، فرأى مالك أن الغلبة لم تكتمل لهم بعد على يهود ، فكادهم كيداً شبيهاً بكيد أبي جبلة ، وقتل منهم من قتل ، فذلوا وقل امتناعهم ، وضاع سلطانهم على الأرض ، وأخذوا يصورون مالكاً في بيعهم وكنائسهم في صورة شيطان رجيم ، يلعنونه كلما دخلوا هذه البيع وكلما خرجوا منها ، فضلاً عن ذكره في شعرهم في أقبح هجاء قالوه[1] .

ولعل من الأفضل هنا أن نناقش هذه الروايات ، على أنها تتكون من شقين ، الواحد يتصل بقصة الفيطون ، وعرائس يثرب العربيات ، والآخر يتصل بغلبة الأوس والخزرج على يهود يثرب .

وقد اختلفت الآراء في الرواية الأولى ، فذهبت جمهرة من المؤرخين على رفضها ، فالدكتور إسرائيل ولفنسون يذهب إلى أن القصة ملفقة ، معتمداً في ذلك على أدلة ،

---

(١) وفاء الوفا ١/١١٥ ، ١٢٦-١٢٩ ، خلاصة الوفا ص ١٥٩ ، ١٦٦-١٦٧ ، إبن الأثير ١/٦٥٦-٦٥٨ ، الإشتقاق ص ٢٥٩ ، ٢٧٠ ، ياقوت ٢/٢٤٢ ، ٥/٨٤-٨٧ ، أبو الفداء ١/١٢٣ ، المقدسي ١/١٧٩-١٨٠ ، البكري ٢/٤٣٩ ، جمهرة أنساب العرب ص ٣٥٦ ، الدرر الثمينة ص ٣٢٧ ، إبن خلدون ٢/٢٨٧-٢٨٩ ، الأغاني ١٩/٩٦-٩٧ ، عبد حافظ : المرجع السابق ص ١٥ ، إسرائيل ولفنسون ص ٥٦ ، الشريف : المرجع السابق ص [illegible] ،
وكذا C. de Perceval, op. cit., II, P. [illegible]
وكذا [illegible], Essai de l Histoire des Juifs de Medine, REJ, VII, 1883,

منها (أولاً) أن أصحابها لم يكن لهم إلمام كاف بحياة العرب في الجاهلية ، بل كانوا يعتبرونهم متوحشين همجيين لا يعرفون من النظم الاجتماعية شيئاً ، ولا يفهمون من الآداب قليلاً ولا كثيراً ، ولا ينقادون إلا لما يدعو إليه الخرق والسفاهة ، ولا شك أن قولاً كهذا ليس إلا طعناً فاحشاً في قبائل العرب في الجاهلية ، وإنكاراً شنيعاً لما هو معروف عنهم من الأنفة والغيرة وإباء الضيم والشجاعة والبسالة ، إلى حد التضحية بكل شيء في سبيل العرض وحفظ الشرف والكرامة .

ومنها (ثانياً) أن يهود الحجاز إنما كانوا أصحاب دين سماوي يأمر بالمعروف وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وليس من المعقول أن يرتكب ملك يهودي جريمة منكرة كهذه، تناقض روح التوراة وتخالف الإيمان بإله موسى ، دون أن يجد مقاومة عنيفة وإنكاراً شديداً من شعبه وأبناء جلدته ، ومنها (ثالثاً) أنه لم يوجد في المدينة ملوك من يهود ، ومنها (رابعاً) أن الطبري يذكر قصة تشبه هذه عن طسم وجديس .

ومنها (خامساً) أننا لا نجد صلة بين هذه القصة وبين « يوم بعاث » الذي جاء بعدها ، بل على العكس من ذلك ، فإننا نستطيع أن نستنتج — اعتماداً على الأخبار التي وصلتنا عن يوم بعاث — أن اليهود كانوا متمتعين بجميع حقوقهم السياسية والاجتماعية ، وكانت مزارعهم وأموالهم وآطامهم كاملة غير منقوصة .

ويخلص الدكتور إسرائيل ولفنسون من ذلك كله إلى أن الباعث على إختلاق هذه القصة وتلفيقها ، إنما هو محاولة إخفاء الحقيقة في حادثة غدر ابن العجلان ، بدليل أن ابن هشام ، والواقدي ، وصاحب الأغاني، قدموا أسباباً أخرى — غير حادث الفطيون — لتغير الأحوال بين العرب واليهود في المدينة ، ومن ثم فالقصة — في رأيه — لا تعدو أن تكون واحدة من الخرافات عند أمم الشرق في قصصهم وتواريخهم[1] .

---

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب — القاهرة ١٩٢٧ — ص ٥٦-٦١ .

وذهبت قلة من المؤرخين — ومنهم الدكتور عبد الفتاح شحاتة - إلى أن القصة حقيقية ، وأن حكم الدكتور ولفنسون عليها بالخرافة والتلفيق ليس عجباً ، فاسمه يغني عن التعريف به ، وإنما العجيب حقا محاولته إخفاء الحقائق التاريخية من أخلاق اليهود والعرب ، ثم يقدم أدلة على صحة رأيه ، منها (أولاً) أن العرب من أوس وخزرج لم يسكتوا على هتك الأعراض وثلم الشرف ، ودبروا الخطة للتخلص من الفيطون وقتلوه دفاعاً عن شرفهم ، وإذا كانوا قد رضوا بالسكوت على العار حيناً من الدهر ، فإنما كان ذلك تحت جبروت الملك وبطش السلطان ، ويشهد لذلك أن مالكاً لما همّ بقتل الملك لم يتمكن من ذلك علانية ، بل تنكر في زي النساء ، ومنها (ثانياً) أن كون دين اليهود ينهي عن الفحشاء والمنكر ، لا يمنع من أن يخرج على تعاليم الدين ومبادىء الأخلاق الفاضلة من يتبع هواه ويركب رأسه ، ثم هل كل من يعتنق ديناً ينهي عن الفحشاء والمنكر منزه عن الإثم والخطأ ؟

ومنها (ثالثاً) أن رواية الطبري وغيره عن أمثال هذه القصص ليست دليلاً على أنها من الأساطير ، وقد تكون من العادات التي شاعت في تلك العصور الأولى عند الملوك والرؤساء ، ثم يتساءل الدكتور شحاته بعد ذلك عن الدوافع التي دعت الطبري وغيره إلى اختلاق مثل هذه القصة عن طسم وجديس ، ويدفع مؤرخي العرب الآخرين إلى اختلاق قصة الفيطون ؟ ثم يجيب بعد ذلك عن تساؤله : بأنه إذا كان المراد منها إخفاء غدر مالك بجيرانه اليهود ، كما يزعم ولفنسون ، فذلك أمر بعيد ، فمالك ليس قديساً من القديسين ، بل رجل جاهلي ، الظلم عنده قوة ، وسفك الدماء بطولة وشجاعة[1] .

ولعل أفضل ما نفعله في موقفنا هذا أن نناقش حجج الطرفين — قبل أن ندلي بدلونا في القضية — حتى نرى في كل منها موقف القوة والضعف ، فضلاً عن جانب الخطأ والصواب ... وأن الطرفين يمثلان اتجاهين مختلفين ، لا التقاء بينهما ، فالأول إسرائيلي يهودي ، والثاني عربي مسلم .

(1) عبد الفتاح شحاته : تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام — الجزء الثاني — القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨٦–٢٩٢ .

يرى الدكتور إسرائيل ولفنسون أن أخلاق العرب تتعارض وقصة الفيطون ، وهو أمر لا نشك فيه لحظة واحدة ، وأن اليهود لم يكن لهم ملوك في يثرب ، وتلك حقيقة أخرى نوافقه عليها تماماً ، كما نوافقه كذلك على أن قصة الفيطون تشبه إلى حد كبير قصة طسم وجديس — كما رواها الطبري — وعلى أن يهود كانوا أصحاب دين سماوي ينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي .

غير أننا نختلف معه تماماً في أنه ليس من المعقول أن يرتكب ملك يهودي مايناقض روح التوراة ، دون أن يجد مقاومة عنيفة من اليهود أنفسهم ، وسوف نحتكم إلى التوراة نفسها التي يحتج بها الدكتور ولفنسون ، لنرى رأيها فيما تعرض له ، ولن نلجأ إلى الغزل المكشوف فيها ، الذي ينتمي إلى مدرسة « عمر بن أبي ربيعة » وإلى كل مدرسة غزلية إباحية لا تهتم إلا بالجسد وحده[1] ، كما أننا لن نلجأ إلى ما جاء في التوراة — المتداولة حالياً — من تهم بذيئة ألصقتها بالمصطفين الأخيار ، والتي تتصل بمثل هذه الأمور[2] ، ولكننا سوف نقدم بعض الأدلة المحدودة .

تقول توراة اليهود — المتداولة اليوم ، وليست توراة موسى بالتأكيد — أن رأوبين بكر اسرائيل ، قد زنى ببلهة ، زوج أبيه يعقوب وأم أخويه دان ونفتالي[3] ، ولم تحدثنا التوراة عما فعل يعقوب وبنوه إزاء تلك الجريمة النكراء ، حتى أننا لا ندري سبباً مقبولاً أو غير مقبول لسكوتها ، هذا إلى جانب مأساة أخرى تسجلها توراة اليهود — ولا أقول توراة موسى — تذهب فيها إلى أن يهوذا — رابع أبناء يعقوب — قد زنى بزوجة ابنه « ثامارا »[4] ، وموقف التوراة هنا ، هو موقفها في

---

(١) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٨٨ ، حبيب سعيد : المدخل إلى الكتاب المقدس ص ١٤٥ ، ١٥٥ ، عبده الراجحي : الشخصية الإسرائيلية ص ٦١ ، كتابنا إسرائيل ص ١٣٤-١٣٨ ، التوراة : سفر نشيد الإنشاد (أنظر جميع إصحاحات السفر) .

(٢) كتابنا إسرائيل ص ٦٩—٨٧ ، ف. ب. ماير : حياة إبراهيم ص ٦٥ ، ٢٢١ ، القس عبد المسيح عبد النور : إبراهيم السائح الروحي ص ٢٦ ، وانظر في التوراة : سفر التكوين ، صموئيل ثان ، ملوك أول .

(٣) التوراة : سفر التكوين ٣٥ : ٢٢ ، كتابنا إسرائيل ص ٧٦-٧٧ .

(٤) التوراة : سفر التكوين ٣٧ : ١٢—٣٠ ، كتابنا إسرائيل ص ٧٧-٧٨ .

القصة الأولى ، رغم أن نصوصها صريحة ، في أنه : « إذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه ، فقد كشف عورة أبيه ، إنهما يقتلان ، وكلاهما دمهما عليهما[1] » ، وأنه « إذا اضطجع رجل مع كنته (زوجة ابنه) فإنهما يقتلان كلاهما ، فقد فعلا فاحشة ، دمهما عليهما[2] » ، وأخيراً فإن التوراة التي حرمت الزنا في الوصايا العشر[3] ، هي نفسها التوراة التي تصمت تماماً عن زنى « راؤبين » بزوج أبيه ، وزنى « يهوذا » بزوج ابنه ، وهي نفسها التي تمجد الفتاة اليهودية « أستير » على ما ارتضته من أن تكون محظية الملك الفارسي وعشيقته ، ما دام في ذلك تحقيق لمصلحة مبتغاة ، بل لقد وصل هذا التمجيد بالتوراة إلى أن تفرد لها سفراً خاصاً من أسفارها ، هو سفر استير[4] .

وتلك مأساة ثالثة ترويها توراة اليهود — ولا أقول توراة موسى — حين تروي أن « أمنون » بن داود عليه السلام ، قد أحب أخته « ثامارا » ، إلا أنه لم يستطع أن يشبع منها شهوته ، لأن الفتاة إنما كانت عذراء ، ومن ثم فإنه يلجأ إلى إعمال الحيلة ، وبمشورة إبن عم لهما ، حتى تصل الفتاة إلى مخدعه ، فيراودها عن نفسها ، فترفض ، ومع ذلك فإنها تقترح عليه أن « كلم الملك فإنه لا يمنعني منك » ، ولكن أمنون يأبى إلا أن ينالها اغتصاباً ، وليت الأمر اقتصر على ذلك — وما أشنعه وأخزاه — بل إن أمنون بعد أن ينال وطره منها ، يأمر خادمه أن يطردها ويقفل الباب من ورائها، وهنا لا تملك الفتاة المجروحة إلا أن تهيل التراب على رأسها ، ويسمع أبوها بالمأساة فيغضب ، ولكن غضبه لا يمتد إلى عقاب الجاني ، مما اضطر شقيقها « أبشالوم » إلى أن يثأر لعرضها ، فيقتل أمنون[5] ، غير أنه سرعان ما يتجاوز كل حدود

---

(١) لاويين : ٢٠ : ١١ .
(٢) لاويين ٢٠ : ١٢ .
(٤) صبري جرجس : التراث اليهودي الصهيوني ص ٦٦ .
(٣) خروج ٢٠ : ١–١٧ .
(٥) صموئيل ثان ١٣ : ١–٣٩ .

الشرف ، فيثور على أبيه وينتزع منه عرشه ، ثم لا يتورع عن أن ينتهك عرضه على مرأى من عامة القوم ، وفي خيمة نصبت له على سطح بيت أبيه[1] .

ولعل الدكتور إسرائيل ولفنسون لا ينسى ما جاء في توراة يهود[2] بشأن قصة داود ، و «بتشبع» امرأة أوريا الحثي ، وكيف تصور توراة قومه النبي الأواب ، وقد قضى منها وطره ، ثم دبر أمر قتل زوجها في ميدان القتال ، ثم ضمها آخر الأمر إلى حريمه[3] .

هذا أمثلة عن رأي التوراة فيما تعرض له « ولفنسون » ، وهو رأي لا يسر على أي حال ، ونحن نؤمن—الإيمان كل الإيمان—أن هذه الأكاذيب قد دستها طغمة باغية من يهود ، ومن ثم فقد لعبت أصابع التحريف بتوراة موسى عليه السلام ، وبالتالي فقد بعدت نسبتهاإليه ، فضلاً عن أن تكون من لدن عليّ قدير ، فجلّ الله عما يقول المبطلون من بني إسرائيل ، ويفتري الظالمون من يهود ، ومن ثم — والحال كما قدمنا ، وفيها من النصوص ما رأينا — فلا يصح أن يتخذ منها «ولفنسون» ، دليلاً على أن من يرتكب جريمة تناقض روح التوراة ، لن يجد من يهود ، إلا كل المقاومة ، وكل الإنكار ، وانطلاقاً من هذا ، فإن كذب رواية الفيطون ، ليس لأن مرتكبها يؤمن

---

(١) صموئيل ثان ١٦ : ٢٠—٢٣ .

(٢) صموئيل ثان ١١ : ٣—٣٧ ، ١٢ : ١—٣١ .

(٣) أخطأ بعض المفسرين خطأ كبيرا ، عندما فسروا ما جاء في سورة « ص » (آية ٢١—٢٥) عن داود والخصمين اللذين اختصما إليه على النحو الذي جاء في التوراة ، مع أن العبارة التي ذكرت بها القصة في القرآن الكريم لا تدل صراحه على شيء من ذلك ، ومن هنا ختمت هذه الآيات الكريمة بقوله تعالى « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » ، ولا يمكن أن يكون هذا للزناة القتلة ، ولهذا يروى عن الإمام علي — كرم الله وجهه — أنه قال « لو سمعت رجلا يذكر أن داود عليه السلام قارف من تلك المرأة محرماً ، لجلدته ستين ومائة ، لأن حد قاذف الناس ثمانون ، وحد قاذف الأنبياء ستون ومائة ، بل إن ابن العربي يرى أن من قال إن نبياً زنى فإنه يقتل » (أنظر : تفسير القرطبي ص ٥٦٢٥ (طبعة الشعب) ، تفسير النسفي ٤/٢٩—٣٠ ، تفسير ابن كثير ٤/٣٠—٣١ ، تفسير الخازن ٦/٣٨—٤٢ ، تفسير الطبري ٢٣/١٤١—١٥٢ ، تفسير البيضاوي ٢/٣٠٧—٣١٠ ، تفسير روح المعاني ٢٣/١٧٣—١٩٠ ، تفسير مقاتل ٣/١٢٦٦—١٢٦٨ ، تفسير الفخر الرازي ٢٦/١٨٨—١٩٨ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٢/٢٠٧—٣١٠) .

باليهودية ويقرأ التوراة ، وإنما كذبها - فيما أرى - لأنها لم تحدث أصلاً ، وما أكثر ما ارتكب اليهود من جرائم يندى لها جبين الإنسانية ، فضلاً عن الشرف والكرامة .

ثم هناك التلمود - وهو في نظر اليهود يقف على قدم المساواة مع التوراة - يرى أن اليهودي إذا اعتدى على عرض الأجنبية لايعاقب ، لأن كل عقد نكاح - فيما يرى التلمود - عند الأجانب (أي الأمميين) فاسد ، وذلك لأن المرأة غير اليهودية ، إنما تعتبر بهيمة ، والعقد لا يصح بين البهائم ، ومن ثم فلليهودي الحق في اغتصاب النساء غير المؤمنات ، أي غير اليهوديات ، لأن الزنا بغير اليهود - ذكوراً وإناثاً - لا عقاب عليه ، لأن كل الأجانب إنما هم من نسل الحيوان[1] .

وهكذا يبدو بوضوح أن الإعتماد على كتب اليهود الدينية - سواء أكانت توراة أو تلموداً - إنما تؤكد قصة الفيطون ولا تنفيها ، وإنما يمكن نفيها - كما أشرنا من قبل - عن طريق دراسة أحوال العرب وتقاليدهم في تلك العصور الخالية ، بل وفي كل عصور التاريخ قاطبة ، وحتى يومنا هذا .

وأما الدكتور عبد الفتاح شحاته ، فلم يقدم لنا في الواقع أدلة مقنعة تثبت هذه الرواية ، وإنما أخذ أضعف مواقفها واتخذها حججاً له ، فقتل الفيطون - كما جاء في القصة - لا يثبت شرفاً ، ولا ينفي عاراً ، وأما أن أمثال هذه القصة حدثت في أوربا في العصور الوسطى ، ومن ثم فقد تكون عادة شائعة في تلك العصور القديمة عند بعض ملوك الشرق ورؤسائه ، فليست حجة يحتج بها لإثبات قصة الفيطون وأمثالها ، فليس هناك من شك في أن ما يحدث في بلد قد لا يحدث في بلد آخر ، لاختلاف العادات والتقاليد ، فضلاً عن الظروف السياسية والإقتصادية ، ولست أدري كيف قبل الشيخ الجليل أن يجعل تاريخ أوربا في عصورها الوسطى نموذجاً يحتذى عند بعض ملوك الشرق القديم ورؤسائه ، والفرق بين العادات والتقاليد في

(١) أنظر مقالتنا عن « التلمود » ، مجلة الأسطول ، العدد ٧٠ ، الإسكندرية ١٩٧٠ ص ٥-٢١ .

المنطقتين كان — وما يزال — جد شاسع ، بل إن أمور العرض هذه قد يختلف الناس عليها في بلد واحد ، وفي عصر واحد ، فما أشد الخلاف حتى اليوم في كيفية معالجة هذه الأمور — خطأ أو صواباً — في صعيد مصر ، وفي غيره من أقاليم الكنانة .

وأما عن تساؤله عن الدوافع التي دعت الطبري وغيره إلى اختلاق مثل قصة طسم وجديس وغيرها ، فليس ذلك إثباتاً لها ، وما أكثر ما جاء في كتب المؤرخين من روايات لا تتفق مع المنطق والتاريخ ، فضلاً عن تعارضها في بعض الأحايين مع الخلق والدين ، وليس من المنطق ، فضلاً عن التاريخ الصحيح ، القول بأن كل ما جاء في كتب المؤرخين صحيح ، لمجرد التساؤل عن الدوافع التي دعت إلى هذا القول أو ذاك ، أو حتى عدم معرفة هذه الدوافع ، وأخيراً فنحن لسنا مسئولين عن هذه الدوافع ، فضلاً عن الدفاع عنها .

والرأي عندي أن القصة مختلقة تماماً ، وذلك لأسباب منها (أولاً) أنها تتعارض مع حقائق التاريخ ، تلك الحقائق التي لا تعرف لليهود في يثرب ملكاً ، وبالتالي فليس هناك ملك يدعى الفيطون ، وحتى لو وجد الشخص بذاته ، فلا يعدو أن يكون رئيس قبيل ، وفي أحسن الظروف زعيم يهود في يثرب ، ومن ثم فليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض من أن كلمة « الفيطون » إنما تعني « ملك » ، وأنها تقابل النجاشي عند الأحباش ، و « خاقان » عند الأتراك[1] .

ومنها (ثانياً) أن تاريخ الغساسنة لا يعرف ملكاً باسم « أبي جبلة » ، والذي يزعم الأخباريون أن « مالكا بن العجلان » قد لجأ إليه ، يستنصره ضد يهود ، ومرة أخرى ، حتى لو عرف هذا الشخص بذاته ، فربما كان واحداً من المقربين لأمراء بني غسان ، وإن صدقت « نسبة أبي جبلة » هذا إلى الخزرج ، وأنه رحل إلى الشام وأقام عند الغساسنة[2] ، فأكبر الظن أن الرجل قد أصبح واحداً من رجال البلاط الغساني ،

(١) الإشتقاق ٢٥٩/٢ ، جواد علي ٥٢٢/٦ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٢٨٩/٢ ، إبن الأثير : الكامل في التاريخ ٦٥٧/١ ، الإشتقاق ٢٧٢/٢ ، وفاء الوفا ١٢٦/١ ، إبن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٣٦ .

وربما كان ذا مكانة عند ذوي قرباه ، ومنها (ثالثاً)أن بعضاً من المؤرخين — كالسمهودي — إنما ينكر هذه القصة ، بل إن هذا الفريق من المؤرخين إنما يرى أن الفيطون كان يمارس هوايته الدنئية هذه في غير الأوس والخزرج ، وعندما أراد ذلك مع بنات « بني قيلة » قتله مالك بن العجلان[1] ، ومنها (رابعاً) أن بعضاً آخر من المؤرخين المسلمين — كابن هشام والواقدي والأصفهاني — إنما تجاهلوا الرواية تماماً .

ومنها (خامساً) أن الأخباريين لم يستقروا على رأي واحد ، بشأن ذلك الذي لجأ إليه ابن العجلان ، فبينما يذهب فريق إلى أنه « أبو جبلة » ، كما رأينا ، يذهب فريق آخر إلى أنه إنما كان «تبع الأصغر بن حسان» — الذي رأوا فيه «أسعد أب كرب» أو «تبع بن حسان» — ملك اليمن ، وليس ملك غسان[2] ، ومنها (سادساً) ذلك الخلاف بين الإخباريين على جنسية الفيطون هذا ، فهناك آراء ذهبت إلى أنه يهودي ، كما أشرنا من قبل ، بينما ذهبت آراء أخرى إلى أنه عربي ، ومن اليمن كذلك ، وأنه يدعى « عامر بن عامر بن ثعلبة بن حارثة » ، وينتهي نسبه إلى « عمرو مزيقياء[3] » ومنها (سابعاً) ذلك الخلاف بين الإخباريين فيمن أرسله القوم إلى الشام ، أهو « مالك بن العجلان » نفسه ، أم هو شخص آخر دعوه « الرمق بن زيد بن امرى القيس الخزرجي »[4] .

ومنها (ثامناً) أن عنصر الخيال قد لعب دوراً في هذه القصة ، ومن الغريب أن نقرأ قصصاً — كقصة الفيطون — يرويها الأخباريون عن ملوك اليمن ، وعن ولعهم بالنساء وعمل المنكر بهن ، ومنها واحدة تتصل بملكة سبأ — «بلقيس»[5]

---

(١) وفاء الوفا ١/١٢٦–١٢٧ ، إبراهيم العياشي : المرجع السابق ص ٣٤–٣٥ .

(٢) وفاء الوفا ١/١٢٨ ، ١٣١ ، خلاصة الوفا ص ١٦٧–١٦٩ ، المقدسي : البدء والتأريخ ٣/١٧٩ ، تاريخ اليعقوبي ١/١٩٧ ، ٢٠٤ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦١–٦٢ .

(٣) الإشتقاق ٢/٤٣٦ .

(٤) وفاء الوفاء ١/١٢٦–١٢٧ .

(٥) ابن الأثير ١/٢٣٢–٢٣٣ ، تاريخ الخميس ص ٢٧٦ .

صاحبة سليمان عليه السلام – وأخرى عن « عتودة » مولى أبرهة الحبشي [1] ، وكلها تشبه قصة الفيطون ، أضف إلى ذلك أننا نجد للعلاقات الجنسية مكانة في هذا القصص الجاهلي الذي يرويه الأخباريون ، وما قصة الفيطون إلا واحدة من هذا القصص الذي تلعب الغرائز الجنسية فيه مكانة بارزة [2] ، على أن الشبه أكثر وضوحاً بين قصة الفيطون هذه ، وبين قصة « عملوق » ملك طسم ، الذي كان يفعل بالعذارى من بنات جديس ، ما يفعله الفيطون ببنات الأوس والخزرج ، فضلاً عن عذارى يهود [3] .

ومنها (تاسعاً) أن الطريقة التي قدمتها الرواية عن قتل زعماء يهود في « ذي حرض » طريقة ساذجة ، لا تتفق وما عرف عن يهود من مكر وخداع ودسيسة ، فضلاً عن أن يهود إنما كانوا يتخذون دائماً جانب الحذر والحيطة من الروم وعمالهم بسبب ما لاقوه من الروم الذين قضوا عليهم في فلسطين ، ثم شردوا البقية الباقية منهم في جميع أنحاء الدنيا ، بل إن وجودهم نفسه في يثرب لم يكن إلا بسبب الروم .

ومنها (عاشراً) أن القصة ، كما يرويها الأخباريون ، تتعارض تماماً وأخلاق العرب الذين كانوا يشعلون نار الحرب لأقل كلمة ، يمكن أن تفسر على أنها تسيء إلى الكرامة والشرف ، فضلاً عن تعارضها مع أخلاق قوم يصل بهم الحفاظ على العرض إلى ارتكاب أكثر الجرائم قسوة ، حتى كان البعض منهم يلجأ إلى وأد بناتهم ، خوفاً من عار قد تجلبه هذه البنت أو تلك ، إذا ما كبرت وتعرضت للسبي ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون [4] » .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/١٢٨–١٢٩ ، ابن الأثير ١/٤٣٢–٤٣٣ .

(٢) جواد علي ٤/١٣٥ .

(٣) تاريخ الطبري ١/٦٢٩–٦٣٢ ، ابن الأثير ١/٣٥١–٣٥٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٤–٢٥ ، مروج الذهب ٢/١١١–١١٩ ، وفاء الوفا ١/١٢٩–١٣٢ .

(٤) سورة النحل : آية ٥٨–٥٩ ، وانظر : تفسير روح المعاني ١٤/١٦٨–١٧٠ ، الكشاف ٢/٤١٤ ، تفسير ابن كثير ٤/٢٠٠–٢٠٢ ، تفسير القرطبي ١٠/١١٦–١١٨ ، في ظلال القرآن ١٤/٢١٧٨–٢١٧٩ .

ومنها (حادي عشر) أن القصة تصور القوم وكأنهم لا يثورون على هذا الوضع الدنيء ، إلا بعد أن ظهرت « فضلاء » أمام قومها وقد كشفت عن ساقيها ، فيغضب أخوها ، وهنا تذكره أخته بأمر هذه الليلة ، وكيف أنها سوف تزف ليلة عرسها إلى غير زوجها ، ومن ثم فإن مالكاً إنما يتذكر شرفه وشرف قومه المستباح ، فيغضب ويقتل الفيطون ، وهذا يعني ببساطة أن القوم ما كانوا يأنفون من أن ينتهك الفيطون أعراضهم ، ولكنهم يثورون أشد الثورة إذا ما بدت ساقا أخت مالك هذا ، أمام بعض رجالات قومها ، فهل هذا صحيح ؟ ثم كيف استطاع اليهود أن ينزلوا بالعرب كل هذا الهوان ، وفي وسط بلاد العرب ، أي في عرين الأسد كما يقولون ؟

وهل صحيح أن اليهود كانوا بقادرين في أي فترة من فترات التاريخ أن يفعلوا بالعرب ما تصوره قصة الفيطون ؟ إن التاريخ يحدثنا — واليهود يشهدون بذلك — أن العكس هو الذي حدث ، وأن كل شعوب المنطقة إنما فعلت ذلك باليهود ، فالفراعين يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم[1] ، والآشوريون والبابليون يأخذون نساء اليهود سبايا[2] ، بل إن انتهاك أعراض اليهود إنما تم في مصر وفي فارس برضى من اليهود أنفسهم ، ونقرأ في كتاب يهودي ، أن الإسرائيلي الذي كان يريد الراحة في مصر يهب زوجته لمن يقوم عليه من المصريين ، حتى تحمل منه فيردها لزوجها بحملها[3] ، ونقرأ في كتاب آخر ، أن رؤساء العمل كان يأخذون النساء الإسرائيليات ليضطجعن معهن حتى يحبلن ، فإذا حبلت المرأة اليهودية ترد إلى

(١) أنظر على سبيل المثال : سورة البقرة : آية ٤٩ ، وكذا تفسير روح المعاني ٢/٢٥٣–٢٥٤ ، تفسير البحر المحيط ١/١٨٧–١٨٨ ، تفسير الطبري ٢/٣٦–٤٩ ، تفسير المنار ١/٣٠٨–٣١٣ ، الكشاف ١/٢٧٩–٢٨٠ ، تفسير ابن كثير ١/٩٠–٩١ (دار إحياء التراث العربي) ، في ظلال القرآن ١/٧٠–٧٢ ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور ١/٦٨–٦٩ (طهران ١٣٧٧هـ) وانظر سورة القصص ، آية ٤ ، وكذا تفسير الطبري ٢٠/٢٧–٢٨ ، تفسير ابن كثير ١٣/٢٧٩–٢٨٠ ، روح المعاني ٢٠/٤٢–٤٤ ، في ظلال القرآن ٢٠/٢٦٧٦ ، وانظر التوراة : سفر الخروج ١/٢٢: .

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) أنظر : كتاب عذاب عبيد الرب في مصر ، لمؤلفه عزرا ، محمد فؤاد الهاشمي : اليهود في الكتب المقدسة ص ٦٩ .

زوجها فتلد له إبناً ينسب إليه[1] ، وأما في فارس فما جاء في التوراة عن « أستير » ليس في حاجة إلى بيان[2] ، والأمر كذلك بما فعله الرومان ببنات يهود — طوعاً أو كرهاً ، ومن عجب أن يحدثنا التاريخ بكل هذا — ويقر اليهود به — ثم يأتي بعض مؤرخي المسلمين ، فيجعلوا[4] بنات يثرب العربيات متاعاً مباحاً لشخص — لا يدري التاريخ عنه شيئاً — دعوه الفيطون ، ثم يأتي بعض المؤرخين المحدثين ، فيجهدوا أنفسهم في إثبات تلك الأكذوبة ، لا لسبب ، إلا ليثبتوا أن مؤرخينا القدامى فوق الخطأ ، وكأن تاريخ أمة يمكن أن يدنس ، رغبة في إثبات أن مؤرخيها ما عرفوا الخطأ أبداً .

ومنها (ثاني عشر) أن المرأة — وليس الرجل — في كل هذه الروايات ، هي التي تأنف من العار ، وتأبى الذل ، وتحرض الرجال على الإنتقام للعرض المستباح ، فبلقيس سبأ تقول لقومها « أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته[3] » و« عفيرة » جديس تقول :

لا أحـــد أذل من جـــديس	أهكذا يفعـــــل بالعـــروس
يرضى بذا يا قوم بعل حـــــر	أهدى وقد أعطى وثيق المهر
ولو أننا كنا رجالاً وكنتـــــم	نساء لكنا لا نقر بذا الفعـــــل
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوكم	ودبوا لنار الحرب بالحطب الجزل
وإن أنتم لم تغضبـــوا بعد هـــذه	فكونوا نساء لاتعاب من الكحل
ودونكم طيـــب النساء فإنمـــا	خلقتم لأثواب العروس وللنسل[3]

و « فضلاء » يثرب تقول « الذي يراد بي الليلة أشد من ذلك ، أهدى إلى غير زوجي[5] » ، فهل حقاً كانت النساء تغير على العرض أكثر من الرجال ؟ ، ثم وهل

(١) أنظر : كتاب أخبار إسرائيل في مصر ، لمؤلفه حاييم ناحوم .
(٢) أنظر سفر أستير ١-١٠ .
(٣) ابن الأثير ٢٢٣/١ .
(٤) ابن الأثير ٣٥٢/١-٣٥٣ .
(٨) ابن الأثير ٦٥٧/١ .

حقاً هذا الحديث —نثراً وشعراً— قالته النسوة اللآتي أشرنا إليهن؟ ، أم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون أسطورة من أساطير الأخباريين ، ولكنها هذه المرة مؤلمة ، أشد ما يكون الألم ، حيث تجعل أعراض العرب مستباحة ليهود .

ومنها (ثالث عشر) أن الذين يذهبون إلى صحة هذه الروايات الكذوب ، لا يعرفون أن مسألة العرض مسألة تتصل بنفس الأصول التي قامت عليها العصبية القبلية بالمعنى المفهوم القديم ، باعتبارها عاملاً دموياً حيوياً ، فأساس العصبية هو الرباط الدموي القائم بين الأفراد ، وأساس العرض هو الحرص —كل الحرص— على ألا يدنس هـذا الرباط الدموي بحال من الأحوال[1] ، ومن ثم فإن صيانة المرأة صيانة لعرض العشيرة كلها ، بهدف الرغبة في الإبقاء على نقاء الدم فيها بعدم دخول غريب عليها مهما علا قدره[2] ، فما بالك إذا كان دخول هذا الغريب إلى دماء القبيلة ليس عن طريق الزواج ، وإنما كان الإغتصاب وسيلته ، وبأحط الطرق وأعنفها ، وذلك بأن يقدم القوم ابنتهم بأنفسهم إلى هذا الرجل أو ذاك ، ليفترعها أمام أعين أبناء القبيلة ، وعلى مسمع من الشيبة والشبان فيها ، فضلاً عن الصبايا وذوات البعول .

ومنها (رابع عشر) هذا التشابه العجيب بين قصة الفيطون وقصة عملوق ، ففي كل منهما تنتهك أعراض القوم ، حتى لا تهدى بكر إلى زوجها قبل أن تدخل على الفيطون أو عملوق فيفترعها ، وفي كل من الروايتين للعروس أخ ذو حسب وجاه في قومه ، يقتل الفاعل ثم يهرب إلى تبابعة اليمن ، وإن ترددت قصة الفيطون بين ملوك اليمن وأمراء غسان ، وفي كل من الروايتين ، فإن المرأة هي التي تثور لشرفها ، وتحرض الرجال من قومها على الإنتقام لعرضها المستباح ، وفي كل من الروايتين ينتهي الأمر بنصرة المظلومين عن طريق قوة تأتي من خارج القبيلة . . . الخ .

---

(١) مصطفى محمد حسنين : نظام المسئولية عند العشائر العراقية العربية المعاصرة — القاهرة ١٩٦٧ ص ٦٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٦١ .

وسؤال البداهة الآن : والذي كان يجب أن يسأله لأنفسهم هؤلاء لصحة هذه الرواية وأمثالها ، كيف قبل هؤلاء الأخباريون أن يجعلوا أعراض عرب مباحة لكل من يريدها ؟ فمرة بينهم وبين بعضهم الآخر ، كما في قصة بلقيس وقصة طسم وجديس ، ومرة أخرى لعبد حبشي دعوه « عتودة » ، ومرة ثالثة ليهودي دعوه الفيطون أو الفيطوان ، وليست واحدة من هذه الروايات لها ظل من حقيقة ، حتى نقبلها على مضض ، ثم نسدل الستار على هفوة في تاريخ العروبة المجيد ، ولكن أن تكون الرواية مجرد زعم كذوب ، ردده بعض الأخباريين في كتبهم ، ثم جاء من بعدهم من تابعهم في هذا دون أدنى تمحيص أو تحقيق ، وكذبه المؤرخون المحققون ، وحتى الأعداء منهم ، ثم يأتي بعض مؤرخينا في العصر الحديث فينبري للدفاع عن هذه الرواية المختلقة ، فشيء آخر تماماً ، وكان الأولى بهم أن يسألوا أنفسهم : أيستحق تصديق مؤرخ — كائناً من كان — أن يسوّد تاريخنا المجيد من أجله ، وأن نسلب الأسلاف العظام كل مقومات الشرف والكرامة ، لتكون روايات الأخباريين تاريخاً صحيحاً ، اللهم لا ، وألف لا .

وأما الشق الثاني من الموضوع : فهو غلبة الأوس والخزرج على يهود يثرب .

وهنا فيما يبدو لي ، فإن العامل الإقتصادي قد لعب دوراً هاماً فيما آلت إليه الأمور فيما بعد ، وتقدم لنا المصادر العربية ما يشير إلى أن العرب في المدينة قد قبلوا الحياة القاسية في أول الأمر ، لأنهم ما كانوا بقادرين على مجابهة اليهود ، فلما اشتد ساعدهم وقويت شوكتهم ، سرعان ما تطلعوا إلى وضع اقتصادي أفضل عن طريق مشاركة يهود في تملك الأرض الخصبة أو مغالبتهم عليها ، وهناك رواية تذهب إلى أن « عمرا بن النعمان البياضي الخزرجي » قال لقومه بني بياضه : « إن أباكم أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسي ماء حتى أنزلكم منازل قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل أو قتل رهنهم[1] » ، وهذا القول ، وإن كانت المصادر

---

(١) إبن الأثير ١/٦٧٩ ، الأغاني ١٥/١٥٥-١٥٩ ، وفاء الوفا ١/١٥٣ .

العربية قد أوردته في ذكر « يوم بعاث » بين الأوس والخزرج ، ومن حالف الطرفين من يهود ، إلا أنه يعطينا فكرة عن اتجاه العلاقات العامة بين السكان في يثرب ، وأن العامل الإقتصادي إنما كان هو الموجه لها[1] .

على أن « إسرائيل ولفنسون » إنما يحاول أن يربط هذه الأحداث التي كانت تجري في يثرب ، سواء أكانت بين اليهود والعرب ، أو بين العرب أنفسهم ، من أوس وخزرج ، بالسياسة الدولية وقت ذاك ، وبين الصراع الديني بين اليهودية والمسيحية ، ويجعل من نكسة اليهود في حمير ، سبباً في نكستهم في يثرب ، وأن الدولة البيزنطية إنما كانت من وراء ذلك كله ، فقضت على اليهودية في اليمن بعد حملة أبرهة المعروفة ، والتي أدت إلى جعل اليمن مستعمرة حبشية ، ثم دفعت بالغساسنة إلى التدخل في شئون يثرب ، وتعضيد الأوس والخزرج ومناصرتهم ضد يهود[2] .

وربما كان « ولفنسون » متأثراً في هذا ، بما ذهب إليه من قبل « جريتز » حين رأى أن الأوس والخزرج لم يصارحوا اليهود بالعداوة والمعصية إلا بعد النكبة التي حلت بيهود في اليمن ، لأنه من غير المقبول — فيما يرى — أن يُضْطهد اليهود في الحجاز ، في الوقت الذي كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ويتعصبون لدينهم ، ويناهضون كل من يناهضهم أو يعتدي عليهم[3] ، أضف إلى ذلك أن مؤرخي العرب — كما أشرنا من قبل — يرون أن شمال الحجاز ، إنما كان في شبه تبعية للحميريين ، حتى أنهم كانوا لهم بمثابة الخلفاء الراشدين للمسلمين[4] ، ويضيف « كوسان ده برسيفال » أن واحداً من الأسرة المالكة في اليمن كان يشرف على شئون الطوائف المختلفة في شمال الحجاز[5] .

(١) أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣٢٧-٣٢٨ .
(٢) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٥٩-٦١ .
(٣) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦١ ، وكذا .
Graetz, History of the Jews, III, P. 91, 410.
(٤) إبن الأثير ١/٥١١-٥١٢ .
(٥) Caussin de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme, 2, P. 654.

ويخرج « ولفنسون » من ذلك كله بأن البطون العربية بقيت في يثرب عصوراً طويلة على موالاة اليهود ومناصرتهم ، دون أن يظهر عليهم شيء يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل ، إلى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكايد وتحرض عليهم زعماء الأوس والخزرج ليفتكوا بهم ، وأن غسان إنما فعلت ذلك بإيعاز من الروم ، الذين أرسلوا أسطولهم لمساعدة الحبشة في الإستيلاء على اليمن ، والذين كانت لهم سياسة واضحة في شبه الجزيرة العربية أثناء القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد[1] .

على أن المؤرخين المحدثين إنما يعارضون هذا الإتجاه ، ويرون أن النزاع كان محلياً بين العرب واليهود في يثرب ، وأنه كان بسبب الظروف الإقتصادية ، واعتماد السكان في المدينة على استثمار الأراضي الزراعية ، ويقدمون على ذلك عدة أدلة ، منها (أولاً) استمرار هذا النزاع بين الأوس والخزرج أنفسهم بعد تغلبهم على اليهود ، واشتراك كل طوائف المدينة فيه تبعاً لمصلحتها الإقتصادية[2] ، ومنها (ثانياً) أننا لا نستطيع تحديد تاريخ هذا النزاع ، وهل كان بعد استيلاء الأحباش على اليمن ، أم كان قبله ؟ ، على أننا لو أخذنا بوجهة نظر «سديو» في أن سيادة الأوس والخزرج على المدينة إنما كانت في عام ٤٩٢م ، وما ذهبت إليه المصادر العربية من أن الحرب بين الأوس والخزرج قد استمرت مائة وعشرين سنة حتى جاء الإسلام ، وأن هذه الحرب لم تبدأ بين الحيين العربيين إلا بعد سيادتهم على المدينة ، فإن الإتجاه الذي ذهب إلى أن هذه السيادة إنما حدثت قبل استيلاء الحبشة على اليمن ، ربما كان أقرب إلى الصواب[3] .

غير أننا سوف نواجه هنا بمشكلة موقف الحميريين أمام القضاء على نفوذ أبناء دينهم في يثرب ، وأكبر الظن عندي — إن صح هذا الأمر — أن ظروف اليمن

---

(١) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(٣) أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٢٢٩—١٣٠ ، لويس أميل سديو : تاريخ العرب العام ص ٥١ ، السمهودي : وفاء الوفا ١٥٢/١ .

الداخلية ، وتهديدات الأحباش لها ، ربما لم تمكنها من التدخل في هذا النزاع ، أو أن الحميريين لم يروا معاداة العرب بتدخلهم ضد الأوس والخزرج — وهم في نفس الوقت من قبائل الأزد اليمنية — ومناصرة يهود الذين أصبحوا يرتبطون بهم برباط الدين .

ومنها (ثالثاً) أن العلماء يكادون يجمعون — كما أشرنا من قبل — أن أبا جبلة لم يكن ملكاً في غسان ، وإنما كان زعيماً من الخزرج عاش في البلاط الغساني ، ومن ثم فإن نصرته للعرب — إن صحت الرواية ، وهذا ما نشك فيه — لا تعني تدخل دولة بني غسان ، إذ لو كان الأمر كذلك ما اقتصر التدخل على يهود يثرب ، ولشمل الجاليات اليهودية في خيبر ووادي القرى ، فضلاً عن تبوك وتيماء ، ومن ثم فإن هذا العون ربما كان من نوع المحالفات القبلية ، وربما قد حالف الأوس والخزرج وقت ذاك بطوناً من بني غسان لمحاربة يهود ، وأنه مجرد استنفار أمير خزرجي لنصرة ذوي قرباه ، ويبدو هذا واضحاً في طريقة القضاء على زعماء يهود ، الأمر الذي لا يدل على أن هناك جيشاً غسانياً جاء ليحارب يهود يثرب ، وإنما هي فرقة على رأسها أبو جبلة ، مما اضطره إلى استعمال الحيلة والمكر لتنفيذ خطته [1] .

ومنها (رابعاً) أن الصراع لم يكن صراعاً دينياً ، وإنما كان صراعاً اقتصادياً في الدرجة الأولى ، وسياسياً في الدرجة الثانية ، ومن ثم فليس صحيحاً ما ذهب إليه « فلهاوزن » من أن الكفاح بين النصرانية واليهودية في الحجاز كان عنيفاً جداً ، وأن غارات الفرس على حدود الإمبراطورية الرومانية أوقفت الملحمة الفاصلة لوقت ما ، ولولا ظهور الإسلام لأصبحت بلاد العرب منقسمة دينياً إلى قسمين ، يهودية

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٨٩ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٣٦ ، إبن الأثير ١/٦٥٧ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٥٥٨ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٠٣ ، أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣٣٠ .

ونصرانية[1] ، صحيح أن الدين كان وسيلة من وسائل الصراع الهامة ، ولكن صحيح كذلك أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن تعمل لقهر اليهودية كدين ، كما أن الفرس لم يكونوا يشجعونها لغرض ديني ، وإنما كان الغرض سياسياً عند كلتا الدولتين ، على أن علاقة اليهود لم تكن سيئة ببلاد الشام ، بل إنها على الأرجح كانت حسنة ، فكان بعض اليهود يرسلون قوافلهم التجارية إلى بلاد الغساسنة ، فضلاً عن أن يهود عندما أجلاهم المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — عن يثرب ، إنما هاجروا إلى بلاد الشام ، ولو كانت العلاقة بينهم وبين الغساسنة أو الروم سيئة لاتجهوا إلى مكان آخر ، كالعراق الذي كانت به جاليات يهودية ، تحت سيادة الدولة الفارسية التي كانت تشجع اليهود في بلاد العرب[2] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الغلبة في هذا الصراع إنما كانت من نصيب الأوس والخزرج ، ومن ثم فقد أصبح لهم كيان سياسي في يثرب ، يفوق ما كان لليهود فيها ، ومن أسف أن القوم ما لبثوا أن أصيبوا بلعنة الصراع القبلي ، وتحولت المنافسات التي كانت بينهم وبين يهود ، إلى مشاحنات بينهم وبين بعضهم البعض الآخر ، أدت في النهاية إلى قيام الحروب بين الحيين العربيين ، لعبت فيها العوامل السياسية والتنافس على الزعامة في يثرب دوراً كبيراً ، هذا فضلاً عن العوامل الإقتصادية والتي تتلخص في رغبة في كل من الفريقين في الإستيلاء على ما عند يهود ، ثم حدث أن احتل الأوس بقاعاً أخصب وأغنى من تلك التي احتلها الخزرج ، في الوقت الذي كان الخزرج يتمتعون فيه بمركز الصدارة ، لأن نصرة العرب ، إنما جاءت على يد رجل خزرجي — هو مالك بن العجلان — .

وهكذا كان الخزرج ينفسون على الأوس مكانتهم الإقتصادية ، بينما كان الآخرين ينفسون على الأولين ، مكانتهم السياسية ، حدث هذا في وقت كانت فيه

---

(١) إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ١٢ ، وكذا
J. Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten, Berlin, 1899, P. 12.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣٢١ .

سياسة اليهود مع القبائل العربية إنما تقوم على الإيقاع بينها ، وإثارة الأحقاد بين المتخاصمين منهم ، كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان ، ومن ثم فقد عملت يهود على إذكاء روح التحاسد والتباغض التي بدأت تظهر في سماء العلاقات بين الحيين العربيين الشقيقين ، حتى يشعلوا ناراً ، إن لم تقض على الأوس والخزرج معاً ، فعلى الأقل تشغل كل فريق بالآخر ، وتنتهز يهود الفرصة استعداداً لجولة قادمة ، أو على الأقل الحفاظ على ما هي عليه .

وحققت يهود نُجْحاً بعيد المدى فيما تريد ، ودقت طبول حرب بين الفريقين ، تناوب فيها الأوس والخزرج النصر والهزيمة ، وكان من أهمها ما عرف بحرب سمير ، وحرب كعب بن عمرو المازني[1] وحرب حاطب بن قيس[2] ، فضلاً عن يوم السرارة[3] ويوم فارع[4] ، ويوم الفجار الأول والثاني[5] ، وحرب الحصين ابن الأسلت[6] ، ثم حرب بعاث ، وكان أولها حرب سمير ، وآخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات[7] ، (٦١٧م) .

وأما يوم سمير ، فقد كان -طبقاً لرواية الأخباريين- كأغلب أيام العرب لسبب غير خطير ، ذلك أن رجلاً من بني ذبيان يقال له « كعب الثعلبي » نزل ضيفاً على مالك بن العجلان ، ثم خرج إلى سوق بني قينقاع ، فرأى رجلاً من « غطفان » معه فرس ، وهو يقول « ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب » فقال كعب : مالك ابن العجلان ، فسمعه « سمير » الأوسي فشتمه ثم قتله بعد مدة في حديث طويل ،

---

(١) ابن الأثير ١/٦٦٠-٦٦٢ ، وفاء الوفا ١/١٥٢ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٦٩-٧١ .
(٢) ابن الأثير ١/٦٧١-٦٧٢ .
(٣) ابن الأثير ١/٦٦٢-٦٦٥ .
(٤) ابن الأثير ١/٦٦٨-٦٧١ .
(٥) ابن الأثير ١/٦٧٦ ، ٦٧٨-٦٨٠ .
(٦) ابن الأثير ١/٦٦٥-٦٦٦ .
(٧) وفاء الوفا ١/١٥٢ ، ١٥٥ ، ابن الأثير ١/٦٥٥-٦٨٤ ، الأغاني ٣/١٩-٤٢ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦٨ .

وخاف الحيّان أن تنشب الحرب ، وقبل الأوس أن يدفعوا للخزرج دية الحليف ، وهي نصف دية النسيب ، إلا أن الخزرج أبو إلا ديّة الصريح ، ولج الأمر بينهم حتى أتى إلى المحاربة ، فاجتمعوا واقتتلوا اقتتالاً شديداً على مقربة من « قباء » ، ثم انصرفوا منتصفين ، ثم التقوا مرة ثانية عند إطم لبني قينقاع ، فانتصر الأوس ، وانتهى الأمر إلى أن يحتكموا إلى « المنذر بن حرام » الخزرجي ، جد حسان بن ثابت ، الذي حكم بأن تدفع الأوس ديّة الصريح ، وانتهت الحرب ، وإن افترق القوم وقد شبت البغضاء في نفوسهم وتمكنت العداوة بينهم[1] .

وأما « يوم بعاث » ، فقد كان آخر الحروب التي نشبت بين الأوس والخزرج ، وقبل هجرة المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — بخمس سنوات ، وتروي المصادر العربية أن الحروب السابقة بين الأوس والخزرج ، إنما كانت في غالبيتها للخزرج ، ومن ثم فقد رأى الأوس محالفة بني قريظة ، فأرسلت إليهم الخزرج ، «لئن فعلتم فأذنوا بحرب» ، فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج « إنا لا نحالفهم ولا ندخل بينكم » ، ومع ذلك فقد استمر كل فريق يستميل إليه يهود ، فضلاً عن قبائل عربية أخرى ، ولعب اليهود أخطر الأدوار في إشعال نار الحرب بين الحيين العربيين ، بغية تفتيت وحدتهم ، وأملاً في أن يكتب لهم نجاح في القضاء على الوحدة العربية ، وبالتالي عودة السيادة لهم في يثرب من جديد .

وهكذا جدد بنو قريظة والنضير تحالفهم مع الأوس ، ثم ضموا إليهم قبائل أخرى من اليهود واستعدوا للحرب ، وخشي الخزرج أن تنزل بهم هزيمة ، فراسلوا حلفاءهم من بني أشجع وبني جهينة ، وراسل الأوس حلفاءهم من بني مزينة . وأخيراً نشبت الحرب بين الفريقين عند «بعاث» —حصن بني قريظة — وانهزم الأوس

---

(١) إبن الأثير ١/٦٥٨–٦٦٢ ، أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣٣٣ ، المفضليات ص ١٣٥ ، البدء والتأريخ ٣/١٣٠ ، الإشتقاق ١/٢٦٦ ، الأعلاق النفيسة ص ٦٤ ، وفاء الوفا ١/١٥٢ ، الأغاني ٢/١٦١–١٦٤ . أيام العرب في الجاهلية ص ٦٢–٦٨ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٣٦١–٣٦٢ ، قارن : تاريخ الجاهلية ص ١٢٣–١٢٤ .

في اليوم الأول ، غير أن « عمرا بن النعمان » قائد الخزرج ، سرعان ما قتل ، وانتهز الأوس الفرصة ، فمالوا على الخزرج ميلة رجل واحد ، يقتلون رجالهم ويحرقون منازلهم ونخيلهم ، بعد أن كانت يهود قد نهبت ما استطاعت من أموالهم ، ولم ينقذ الخزرج من الكارثة ، إلا خشية الأوس من أن يستعيد اليهود مركزهم السابق في يثرب ، فيضطروا لمواجهتهم منفردين بعد القضاء على الخزرج ، وفعلاً فلقد بدت نيات اليهود واضحة في تحطيم الخزرج وإذلالهم ، بخاصة وأنهم أصحاب اليد الطولى في القضاء على نفوذ اليهود في المدينة ، ومن ثم فقد فضلت الأوس الإكتفاء بالقضاء على روح التسلط في الخزرج ، وصاح واحد منهم « يا معشر الأوس : أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب » .

ويروي أن السيدة عائشة — رضي الله عنها — قالت عن هذا اليوم « كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا ، قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في دخولهم الإسلام » ، ذلك لأن يوم بعاث قد أضعف بطون يثرب كلها وأوجد فيها ميلاً إلى الإتحاد ، كما أضعف كذلك روح العداوة والحقد في نفوس البطون اليثربية ، حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال ، وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتاً حاراً على نار العداوة الكامنة في القلوب ليزيد في ضرامها ، ويعظم من أوارها ، سعى كثير من الزعماء وذوي النفوذ من الطرفين لكف يده حتى لا تسل السيوف من أغمادها ، وجاء الاسلام واتفقت الكلمة ، واجتمع الأوس والخزرج على نصرة الإسلام وأهله ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ، وأصبح القوم بنعمة الله إخوانا[1] .

---

(١) وفاء الوفا ١/١٥٢—١٥٥ ، خلاصة الوفا ص ١٧٧—١٧٨ ، البكري ١/٢٥٩—٢٦٠ ، ياقوت ١/٤٥١ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٨٩—٢٩٠ ، ابن الأثير ١/٦٨٠—٦٨٤ ، الأغاني ٣/١٩—٤٢ ، الميداني ١/٢ ، اللسان ٦/١٨ ، تاج العروس ١/٦٠٤ ، شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٢٧٨ ، ابن هشام ٢/١٨٣ ، صحيح البخاري ٥/١٠٨ ، إسرائيل ولفنسون : المرجع السابق ص ٦٢—٧٠ ، أحمد إبراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣٢٦ ، محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية ص ٧٣—٨٤ ، إبراهيم العياشي : المدينة بين الماضي والحاضر ص ٤١—٤٣ ، وكذا
P.K. Hitti, op. cit., P. 89.

من مدن الحجاز

بقي أن نتحدث بإيجاز شديد عن أهم المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية ، غير مكة والمدينة ، مثل الطائف وتيماء ودومة الجندل ومدائن صالح .

(١) الطائف :

تقع الطائف على مبعدة حوالي ٩٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مكة ، على جبل غزوان ، أبرد مكان في الحجاز ، وتتميز على مكة المكرمة بأنها ذات جو طيب في الصيف ، وبأنها كثيرة الشجر والثمر ، وأكثر ثمارها الزبيب والرمان والموز والأعناب »[١] .

وتاريخ الطائف ما يزال غامضاً ، وإن عثر الباحثون على كتابات مدونة على الصخور المحيطة بالمدينة ، وفي مواضع ليست بعيدة عنها ، بعضها بالنبطية ، وبعضها بالثمودية ، وبعضها الثالث بعربية القرآن الكريم ، كما عثر على كتابات تشبه اليونانية ، وأخرى تشبه الخط الكوفي ، وإن كانت جميعها لم تدرس حتى الآن[٢] .

ويذهب الأخباريون الى أن اسمها القديم «وج» نسبة إلى «وج» أخو « أجأ » الذي سمي به أحدجبلى طيء ، وهما من العماليق ،وإنما سميت بالطائف بحائطها المطيف بها ، وقد أقامه رجل دعوه « الدمون » حتى لا يصل اليهم أحد من العرب ، ثم حاولوا بعد ذلك إعطاء المدينة صفة مقدسة ، ربما بتأثير من بني ثقيف سكان الطائف ، فزعموا بأنها من دعوات إبراهيم الخليل ، وأنها أرض ذات شجر كانت حول الكعبة ، ثم انتقلت من مكانها بدعوة إبراهيم ، فطافت حول البيت ، ثم استقرت في مكانها ، فسميت الطائف . وزعم آخرون أن جبريل قد اقتطفها من فلسطين ،

---

(١) ياقوت ٤/٩ ، تقويم البلدان ص ٩٥ ، جواد علي ٤/١٤٢ .

(٢) جواد علي ٤/١٤٣ ، وكذا
Osman R. Rostem, Rock Inscriptions in the Hijaz, P. 11.

وسار بها إلى مكة فطاف بها حول البيت . ثم أنزلها حول الطائف[1] . . . إلى غير ذلك من أساطير لا تقدم نفعاً ، ولا تفيد علماً .

هذا وهناك من يزعم أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق ، ثم غلبهم عليها بنو عدوان من قيس بن عيلان ، ثم بنو عامر بن صعصعة ، ثم أخذتها منهم ثقيف[2] ، ورغم آخرون أن الذين سكنوا الطائف بعد العماليق ، إنما هم قوم ثمود قبل ارتحالهم إلى وادي القرى ، ومن ثم فقد ربط أصحاب هذه الرواية نسب ثقيف بالثموديين الذين نسبوهم إلى جد أعلى هو «قسى بن منبه» ، الذي يجعله بعضهم من « إياد » ، بينما يجعله البعض الآخر من « هوزان »[3] .

وأما أهم معبودات الطائف في الجاهلية ، فقد كانت « اللات » — الأمر الذي سوف نناقشه في كتابنا عن «الحضارة العربية القديمة» — وقد هدمها « المغيرة بن شعبه » بعد أن اعتنق أهل الطائف الإسلام ، وأعطى أموالها وحليها لأبي سفيان بن حرب[4] ، ويختلف أهل الطائف عن أهل مكة وعن الأعراب ، من حيث ميلهم إلى الزراعة والإشتغال بها ، وعنايتهم بغرس الأشجار المثمرة التي كانوا دائمي السعي إلى تحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة منها ، كما كان لهم خبرة ومهارة بالأمور العسكرية ، الأمر الذي ظهر واضحاً إبان محاصرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — لمدينتهم وتحصنهم بسورها ، هذا إلى جانب ميل إلى الحرف اليدوية كالدباغة والنجارة والحدادة ، وهي أمور مسهتجنة في نظر العربي[5] .

---

(١) ياقوت ٤/٩ ، ١٢ ، البكري ٣/٨٨٦ ، تاج العروس ١/١٨٤ ، المقدسي ٢/١٠٩ ، تقويم البلدان ٣/٤٩٩ وما بعدها .

(٢) المعارف ص ٩١ ، تاج العروس ٢/١١٠ ، اللسان ٢/٣٩٧ .

(٣) الأغاني ٤/٧٤ ، أنساب الأشراف ص ٢٥ ، الإشتقاق ص ١٨٣ ، ياقوت ٣/٩–١١ ، ابن خلدون ٢/٢٤ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ١٩٨ ، ٢٠٠ ، وكذا EI, 4, P. 734. وكذا J.A. Montgomery, op. cit., P. 137

(٤) ياقوت ٤/١١–١٢ ، تاريخ الطبري ٣/٩٦–١٠٠ ، ابن الأثير ٢/٢٨٣–٢٨٤ .

(٥) ابن سعد ١/٣١٢ ، أنساب الأشراف ١/٣٦٦ ، تاريخ الطبري ٣/٨٢–٨٥ ، ابن الأثير ٢/٢٦٦–٢٦٨ ، ابن كثير ٤/٣٤٥–٣٥٢ ، ابن خلدون ٢/٥٠–٥١ ، السيرة الحلبية ٣/١٣١ .

(٢) تيماء :

تقع تيماء على مبعدة ٦٥ ميلاً إلى الشمال من العلا ، على الطريق التجاري بين جنوب بلاد العرب وشماليها ، وقد بدأت تيماء تظهر في التاريخ على الأقل منذ أيام الملك الآشوري « تجلات بلاسر الثالث » (٧٤٥–٧٢٧ ق.م) الذي تدلنا حولياته التي عثر عليها في « كالح » أنه أخذ منها الجزية ، كما أخذها من زبيبي (زبيبه) ملكة دومة الجندل ، ومن « شمسي » ، فضلا عن الجالية السبئية في ديدان[١] ، هذا وقد جاء ذكر « تيماء » في التوراة[٢] — كما في أسفار أيوب[٣] وأشعياء[٤] وأرميا[٥] وحبقوق[٦] وعوبديا[٧] وعاموس[٨] —

وتيماء في الروايات العربية ، بلد في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق ، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عاديا اليهودي[٩] مشرف عليها من ناحية الغرب[١٠] ، وهو مربع الشكل تقريباً ، وفي وسطه بئر ،

---

(١) Van den Branden, Histoire de Thamoud, P. 7
وكذا A.I. Olmstead, History of Assyria, P. 189.
وكذا ANET, P. 280. وكذا A. Musil, op. cit., P. 288

(٢) أنظر تاريخ كتابة أسفار التوراة ، كتابنا اسرائيل .

(٣) أيوب ٦ : ١٩ .

(٤) أشعياء ٢١ : ١٤ .

(٥) أرمياء ٤٩ : ٧ .

(٦) حبقوق ٣ : ٣ .

(٧) عوبديا ١ : ٩ .

(٨) عاموس ١ : ١٢ ، وانظر قاموس الكتاب المقدس ٢٩٦/١ وما بعدها .

(٩) هناك من يذهب إلى أن الرجل إنما كان عربياً غسانياً (المحبر ص٣٤٩ ، الإشتقاق ٤٣٦/٢) وهذا يتمشى مع الفترة السياسية التي حكم فيها الغساسنة وعاصرها السموأل ، فقد كان الغساسنة هم المسيطرون على الطريق التجاري من الشمال صوب الجنوب ولذلك فهم في حاجة إلى من يحمي الطريق ، ولا يستبعد أن يكون السموأل ممن لهم سلطة في هذه الناحية مستمدة من صلته بالغساسنة (عبد الرحمن الأنصاري : مجلة الدارة ٨٢/١) .

(١٠) ياقوت ٦٧/١ ، البكري ٣٢٩/١–٣٣٠ ، اللسان ٧٢/١٢ ، تقويم البلدان ص ٨٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٣٠/٦ .

وله دعامات من الخارج ، ويشبه في تصميمه وتنفيذه حصن كعب بن الأشرف في المدينة المنورة[1] ، وإن كان هناك من يذهب إلى أن الحصن ربما كان من بقايا قصر نبونيد ، أو من بقايا قصور رجاله ، أو من بقايا أبنية غيره ممن نزل هذا المكان[2] .

ونقرأ في النصوص البابلية — كما أشرنا من قبل — إلى أن نبونيد (٥٥٥— ٥٣٩ ق.م) قد قام بحملة في العام الثالث من حكمة ، استولى فيها على عدة مدن في شمال غرب الجزيرة العربية ، ثم أقام قصراً في تيماء بقي فيه حيناً من الدهر ، قارب سنوات عشر ، حتى أصبحت تيماء وكأنها قد غدت خليفة لبابل[3] .

وهناك على مقربة من تيماء بقايا معبد عثر فيه على نقش ، محفوظ الآن بمتحف اللوفر ، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، نقرأ فيه بلغة أرامية ، أن كاهناً قد أتى بصنم جديد (صلم هجم) ، وبنى له معبداً وعين له كهاناً ، كما صوره في زي آشوري ، مما دفع البعض إلى أن يذهب إلى أن قدوم هذا الإله إنما كان على أيام نبونيد[4] .

هذا وقد عثر « Euting » على آثار معبد قديم ، وعلى كتابة أرامية ، تعود إلى فترة كانت المدينة فيها تحت السيطرة الفارسية ، وإن أشارت الكتابة إلى ازدهار

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ١/٨٢ (الرياض ١٩٧٥) .

(٢) جواد علي ٥٢٩/٦ .

(٣) R.P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzar, New Haven, 1929, P. 106-7.
وكذا S. Smith, op. cit., P. 53, 88 وكذا A. Musil, Northern Nejd, P. 225
وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 39.
وكذا C.J. Gadd, The Harran Inscriptions of Nabonidus, AS, 8, 1958, P. 8.

(٤) J.A. Montgomery, op. cit., P. 67 وكذا S. Smith, op. cit., P. 79-80
وكذا G.A. Cooke, op. cit., P. 195-6.

المدينة وقت ذاك[1] ، هذا فضلاً عن أن « جوسين وسافينياك » قد عثرا كذلك على تل هناك ، فيه بقايا معبد ومجموعة من قبور القوم[2] .

وفي عام ١٨٨٣م ، عثر « هوبر » في تيماء على مسلتها المشهورة ، والتي كتبت على وجه واحد بالخط الأرامي ، وعلى الجانب الأيسر نقش عليها رسمان ، ربما كانا للملك وكاهن ، يتجه بعض الباحثين إلى أن الملك هنا إنما هو نبونيد ، إعتماداً على المقارنة بين هذه المسلة ومسلة حران ، وعلى أي حال ، فمن المتفق عليه الآن أن هذه المسلة إنما ترجع إلى القرن الخامس ق.م[3] .

(٣) دومة الجندل :

وتسمى دومة الجندل الآن « الجوف » ، وكان يطلق عليها في العصور الآشورية « أدوماتو » ، وفي التوراة « دومة » ، وفي جغرافية بطليموس « Adomatho » (Doumatha)[4] ، وأما في المصادر العربية فهي « دومة الجندل » ، نسبة إلى دوم (أو دومان أو دما أو دوماء) بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام[5] وعلى أي حال فقد نسبت إلى الجندل لأن حصنها مبني بالجندل وهو الصخر ، وهي في رأي « السكوني » حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيء ، كانت به بنو كنانة من كلب[6] .

---

(١) جواد علي ٥٢٨/٦ ، وكذا EI, 4, P. 622.

(٢) جواد علي ٥٢٩/٤
وكذا A.J. Jaussen and R. Savignac, Mission Archeologique en Arabie, II, P. 133, 163.

(٣) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٢ .

(٤) W.F. Albright, JRAS, 1925, P. 293
وكذا F. Hommel- op. cit., P. 581, 594.

(٥) ياقوت ٤٨٦/٢-٤٨٧ ، البكري ٥٦٥/٢ ، وتلك رواية إسرائيلية في الواقع ، حيث تذهب نصوص التوراة إلى أن سلالة إسماعيل إنما كانت تسكن في المنطقة الواقعة إلى شمال البحر الأحمر ، وتمتد من حدود مصر حتى دومة الجندل (تكوين ٢١ : ٢١ ، الويس موسل : شمال الحجاز ص ٦٧) .

(٦) ياقوت ٤٨٧/٢ ، قارن : البكري ٥٦٤/٢-٥٦٥ .

ودومة أو دومة الجندل . واحة آدوم الكبيرة ، وتقع على مبعدة ٤٠٠ كيلومتر إلى الشرق من البتراء عاصمة الأنباط [١] ، على حافة النفود الكبير ، ومن ثم فقد كانت ذات أهمية كبيرة في التاريخ القديم ، إذ كانت تعتبر بمثابة قلعة الجزيرة العربية الشمالية في وجه المهاجمين من الشمال والشمال الشرقي ، وإذا ما سقطت دومة الجندل تساقطت بالتالي باقي المدن المجاورة [٢] .

ونقرأ في حوليات العاهل الأشوري « تجلات بلاسر الثالث » التي عثر عليها في « كالح » عن جزية من « زبيبي » ملكة بلاد العرب ، التي يرى « الويس موسل » أن مقرها إنما كان في « دومة الجندل » [٣] ، كما نقرأ كذلك في نقوش الملك « إسرحدون » (٦٨٠–٦٦٩ ق.م) أن أباه « سنحريب » (٧٠٥–٦٨١ ق.م) قد أخضع أدوماتو (أدومو Adumu) حوالي عام ٦٨٨ ق.م ، وأخذ أصنامها إلى عاصمته ، والأمر كذلك بالنسبة إلى الأميرة « تاربي » (تبؤة Tabua) ، وكانت ملكة دومة الجندل « تلخونو » (تعلخونو) قد امتد سلطانها حتى حدود بابل ، ثم وقفت بجانب الثوار البابليين ضد « سنحريب » (٧٠٥–٦٨١ ق.م) ، ومن ثم فإن العاهل البابلي ما أن انتهى من القضاء على الثورة ، حتى اتجه إلى دومة الجندل وفرض الحصار عليها [٤] ، وهناك ما يشير إلى أن خلافاً قد حدث بين الملكة وبين حزائيل — سيد قبيلة قيدار — الذي تولى قيادة الجيوش ضد سنحريب ، مما أدى إلى استسلام الملكة وفرار حزائيل إلى البادية ، فضلاً عن أسر الأميرة تبؤة وأخذها إلى بابل ، تمهيداً لإعدادها لتكون ملكة على قومها ، تعمل بأمر آشور ، وتنفذ سياسة ملوكها فيما

(١) الويس موسل : شمال الحجاز ص ١٢٨ .

(٢) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٢ .

(٣) A.T. Olmstead, op. cit., P. 189. وكذا A. Musil, Arabia Deserta, P. 477

(٤) D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, II, 518
وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 38 وكذا ANET, P. 290.
وكذا A. Musil, op. cit., P. 48.

يختص بالأعراب[1] ، غير أن آمال الآشوريين في الملكة الجديدة قد خابت ، فما أن يتم تعيينها ملكة على دومة الجندل حتّى تفشل في مهمتها ، ولعل السبب في ذلك إنما يرجع إلى العداء الدفين بين العرب والآشوريين ، والذي ما كان في استطاعة تبؤة القضاء عليه[2] .

وعلى أي حال ، فيبدو أن دومة الجندل كانت في هذه الفترة مركزاً دينياً هاماً للقبائل العربية ، كما أن هذه المنطقة قد عرفت في هذه الفترة حكم الملكات اللآتي كن يجمعن بين السلطتين الدينية والزمنية ، ولعل أشهرهن زبيبه (زبيبى) وشمسي وتعلخونو وتبؤة[3] .

وفي العهد البابلي خضعت دومة الجندل للملك نبونيد ، وكما أشرنا من قبل ، فلقد جرد الملك البابلي في العام الثالث من حكمه حملة على المدينة واحتلها[4] .

هذا وتشير المراجع العربية إلى دومة الجندل إنما كانت مدينة محصنة بسور ، في داخله حصن منيع ، يقال له «مارد» ، نسبة البعض — طبقاً للروايات التقليدية — إلى سليمان عليه السلام ، ونسبه آخرون إلى « أكيدر الملك بن عبد الملك السكوني » ، وهو يهودي على رأي ، وعربي من كندة على رأي آخر ، وعلى أي حال ، فإن الحصن على ما يبدو قد بني قبيل القرن الثالث الميلادي ، لأسباب منها صلة السكونيين بكندة ، ومنها أن الحصن يشتمل في بعض أجزائه على نقوش نبطية — والأنباط كما

---

(١) British Museum Tablets, K, 3087, 3405.
وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 38.

(٢) A.L. Oppenheim, in ANET, P. 291
وكذا D. J. Wiseman, The Vassal — Treaties of Esarhaddon, London, 1958, P. 4

(٣) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٢
وكذا N. Abbot, Pre-Islamic Arab Queens, in AJSL, 58, 1941.

(٤) CAH, 4, P. 194 وكذا P.R. Dougherty, op. cit., P. 107
وكذا C.J. Gadd, op. cit.,P. 35.

نعرف قد انتهت دولتهم في عام ١٠٦م – ومع ذلك فالحصن ليس من عمل فرد واحد ، ولا من فترة واحدة ، وإنما من فترات متعاقبة ، لعل آخرها منذ نصف قرن فقط [١] .

وهناك في المصادر العربية ما يشير إلى أن سكان دومة الجندل ، إنما كانوا أصحاب نخل وزرع ، يسقون على النواضح ، وزرعهم الشعير ، وكان في بلدهم سوق يبدأ في أول يوم من شهر ربيع الأول ، وينتهي في النصف منه ، هذا وقد كانت تسكن دومة قبل الإسلام قبائل كلب وجديلة وطيء ، كما كان يتنازع السلطان فيها « الأكيدر » و « قنافة الكلبي » الذي كان يتولى الأمر فيها ، حين تكون الغلبة من نصيب الغساسنة ، مما يدل على التنافس بين كندة وبني غسان على الطريق التجاري [٢] ، « وكانت مبايعة العرب في دومة إلقاء الحجارة ، وذلك أنه ربما اجتمع على السلعة النفر ، يساومون بها صاحبها ، فأيهم رضي ألقى حجره ، فربما اتفق في السلعة الرهط ، فلا يجدون بداً من أن يشتركوا وهم كارهون ، وربما اتفقوا فألقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمر بينهم ، فوكسوا صاحب السلعة إذا طابقوا عليه [٣] » .

(٤) الحجر (مدائن صالح) :

وتقع على مبعدة ١٥ كيلومتراً إلى الشمال من مدينة العلا الحالية ، على الطريق التجاري العظيم الذي يربط جنوب بلاد العرب بسورية ، وتتكون من عدة جبال رملية متناثرة ، ومن ثم فقد سهل على سكانها أن ينحتوا فيها مقابر لهم ، انتشرت في معظم هذه الجبال [٤] .

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٤ ، ياقوت ٤٨٧/٢ ، جواد علي ٢٣٦/٤–٢٣٧ .

(٢) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص٨٤ ، تاج العروس ٥١٨/٣ ، ٢٩٧/٨ ، المحبر ص ٢٦٣–٢٦٤ ، التاريخ الكبير لابن عساكر ٨٩/١ ، وما بعدها ، نسب قريش ص٢٧٦ ، جواد علي ٢٢/٤–٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ .

(٣) أبو جعفر محمد بن حبيب : كتاب المحبر – حيدر أباد الدكن ١٩٤٢ – ص ٢٦٤ .

(٤) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨١ .

هذا وقد جاء ذكر المدينة في جغرافية بطليموس[1] ، كما ذكرها « إصطيفانوس البيزنطي »[2] ، والحجر - فيما يرى البعض - هي « أجرا Egra » التي ذكرها « سترابو » في حديثه عن حملة « إليوس جالليوس » على اليمن في عام ٢٤ ق.م ، وربما كان لها ميناء يعرف بـ « فرضة الحجر » ، ومن الممكن ، بل من المحتمل أن تكون هذه الفرضة معروفة بنفس الإسم الذي عرفت به الحجر [3] - كما أن ميناء مدين كانت تعرف كذلك باسم مدين - وأن ميناء الحجر هذه ربما كانت هي بعينها الميناء التي تعرف اليوم باسم « الوجه »[4] .

وتشير الكتابات التي وجدت في مدائن صالح إلى أن المدينة ربما كان قد أنشأها المعينيون ، كما تشير مقابرها التي جمعت في نحتها عناصر فنية مختلفة - فرعونية وإغريقية ورومانية وعربية - إلى أنها تشبه إلى حد كبير ما هو موجود في البتراء ، ولعل هذا سببه أنهما ذات حضارة واحدة ، وإن كانت مقابر مدائن صالح إنما تتميز بوجود شواهد عليها ، مكتوبة بالخط الأرامي النبطي[5] ، كما أن هناك في جبل أثلت معبداً يذكرنا بمعابد البتراء ، فضلاً عن معبد آخر صغير يقع على مبعدة ١٥٠م إلى الجنوب من الجبل الآنف الذكر[6] . وأخيراً فلعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك من يرى في الموقع النبطي « إرم » الذي اكتشف على مبعدة ٢٥ ميلاً إلى الشرق من العقبة ، « إرم » المذكورة في القرآن الكريم[7] .

---

(١) Ptolemy, VI, 7, 29.

(٢) Stephanus Byzantus, I, 260. وكذا A. Grohmann, Arabien, P. 44

(٣) يذهب بعض الباحثين إلى أن الحجر إنما هي مدائن صالح ، بينما يذهب آخرون إلى أن مدائن صالح هي العلا ، لا الحجر ، وفرق آخرون بين موضع مدائن صالح والعلا (جواد علي ٣/٥٥ ، وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 4, 15, 39, 40

(٤) الويس موسل : شمال الحجاز ص ١٠٦ .

(٥) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨١ .

(٦) جواد علي ٣/٥٦ ، وكذا A. Musil, Arabia Petrae, P. 133, 146 وكذا C.M. Doughty, op cit, I. P. 113. وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 66

(٧) أنظر : سورة الفجر : آية ٨-٩ ، وانظر : تفسير البيضاوي ٢/٥٥٧ ، تفسير الطبري ٣٠/١٧٥-١٨٠ (طبعة الحلبي ١٩٥٤) ، التفسير الكبير للفخر الرازي ٣٠/١٦٦-١٦٩ ، تفسير القرطبي ٢٠/٤٤-٤٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠) ، وانظر. P.K. Hitti, op. cit., P. 73

ويشير « بليني » في « التاريخ الطبيعي (١٥٦:٦) أن عاصمة اللحيانيين هي « هجرا Hagra » ، وأن مركزهم الرئيسي هو واحة ديدان — على مبعدة ١٥ كيلومتراً إلى الجنوب من الحجر — وأن اللحيانيين إنما كانوا يسكنون بكل تأكيد في واحة الحجر ، كما كانوا يسكنون كذلك في ديدان ، ومن هذا يمكن أن نستنتج أن « هجرا » عاصمة اللحيانيين ، هي بعينها الحجر [١] .

وأما المصادر العربية فتذهب إلى أن الحجر ، إنما هي ديار ثمود ، ناحية الشام عند وادي القرى [٢] ،وهم قوم سيدنا صالح عليه السلام، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم [٣] ، وفي الحديث الشريف [٤] .

وعلى أي حال ، فإن المدينة قد أخذت مكانها بالتدريج ، حتى إذا ما كان القرن العاشر الميلادي أصبحت خرائب لا يسكنها أحد ، هذا وقد عثر في هذه الخرائب — التي تقع بين جبل أثلت وقصر البنت وسكة حديد الحجاز القديمة — على آثار حصن قديم ، وبقايا أبراج وأعمدة ومزولة شمسية ، فضلاً عن نقود ترجع إلى أيام الحارث الرابع النبطي (٩ ق.م — ٤٠ م [٥]) .

---

(١) الويس موسل : شمال الحجاز ص ١٠٧ .

(٢) تاريخ الطبري ٢٢٦/١ ، البكري ٤٢٦/٢ ، ياقوت ٢٢٠/٢—٢٢١ ، ابن بطوطة ص ٢٥٩ ، المحبر ص٣٨٤ ، المعارف ص ١٤ ، نهاية الأرب ص ١٩٩—٢٠٠ ، اللسان ١٧٠/٤ ، الويس موسل : المرجع السابق ص ١٠٨—١٠٩ ، ابن الأثير ٨٩/١ ، تاريخ الخميس ص ٨٤ ، قصص الأنبياء ص ٥٨—٥٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٠/١ ، تفسير ابن كثير ١٧١/٤ ، تفسير النسفي ٢٧٧/٢ ، تفسير روح المعاني ١٦٢/٨ ، ٧٦/٤ ، ١٢٤/٣٠ ، تفسير المنار ٥٠١/٨ ، ١٢٠/١٢ ، تفسير الطبري ٥٢٤/١٢ ، ٥٢٨ ، ٤٩/١٤—٥٠ ، تفسير البيضاوي ٥٤٥/١ ، تفسير القرطبي ٤٦/١٠ ، ٤٨/٢٠ ، تفسير الجلالين (نسخة على هامش البيضاوي) ٥٤٥/١ .

(٣) سورة الحجر : آية ٨٠—٨٤ ، وانظر : تفسير القرطبي ٤٥/١٠—٤٦ ، تفسير روح المعاني ٧٥/١٤—٧٧ .

(٤) اللسان ١٧٠/٤ .

(٥) جواد علي ٥٦/٣ ، وكذا A. Grohmann, op. cit., P. 66
وكذا C.M. Doughty, op. cit., P. 113.
وكذا A.J. Jaussin and R. Savignac, Mission Aracheologique en Arabie, I, P. 316.

الفصل الرابع عشر

الأنباط

إن تاريخ شبه الجزيرة العربية — إذا استثنينا الجزء الجنوبي منها — هو تاريخ الأحداث التي شهدتها جماعات سياسية صغيرة ، قامت واحدة وراء الأخرى على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الأحمر ، إلى أطراف سورية وفلسطين وأرض الرافدين ، ولم تكن هذه الدويلات مستقرة في تركيبها ، وكانت قصيرة العمر ، فهي في الواقع ليست سوى نتاج فرعي لعملية الاتصال والانتقال بين منطقة البداوة ومنطقة الحضارة المستقرة ، فهي لم تكن فقط ملتقى ومحطاً لحركات التوسع الموسمية ، وإنما كانت في الوقت نفسه ستار حماية تنصبه المناطق المحيطة بالصحراء[1] .

وقد شجعت الدول الكبرى التي كانت تسيطر بجوار هذه المناطق على قيام هذه الدويلات ، واتخذتها درعاً تتقي به من غارات البدو على تخوم حدودها ، فكانت أشبه بالدويلات الحاجزة (Buffer State) ، ولا ريب أن حب العربي للوفاء جعله يستطيع أن يتعامل مع هذه الأمم الغريبة عنه ، فكان لقاء « جُعْل » أو « إتاوة » يترك مهنته في الغارة ، ويخفر حدود حلفائه من تعدي القبائل الأخرى ، وينعم في

(١) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٠١ .

الوقت ذاته بحياة مستقرة نوعاً ، ولكن الفرس والروم لم يكونوا يبقون على ثقتهم الدائمة في عرب الحدود ، ولذلك كانوا يقضون أحياناً على هذه الممالك البدوية أو يهملونها ، فكانت تعود إلى حياتها الأولى[1] .

ولكن بالإضافة إلى هذا العامل الجغرافي ، شاركت قوى اقتصادية في تكوين شبه الجزيرة العربية في العصور القديمة ، فقد كان يحدّ شبه الجزيرة طريقان أساسيان على حافة الصحراء ، تنتقل عليها السلع من المحيط الهندي إلى موانىء فلسطين وسورية ، فكان أحد هذين الطريقين التجاريين يمتد من اليمن إلى جنوب فلسطين ، والثاني يمتد من الخليج العربي ، ويدخل وادي الرافدين ، ثم ينحرف إلى سورية قاصداً دمشق ، فعلى هذين الطريقين قامت دويلات الحدود العربية[2] .

ولعل من أهم هذه الدويلات «دولة الأنباط» ، التي قامت على الأطراف الخارجية لمنطقة فلسطين ، في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، متخذة من « البتراء » عاصمة لها ، ومكونة حضارة عربية في لغتها ، أرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها ، يونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية ، وهي لذلك حضارة مركبة ، سطحية في مظهرها الهليني ، ولكنها عربية في أساسها[3] .

هذا وقد اختلف المؤرخون في الموطن الأصلي للأنباط ، فذهب فريق إلى أنهم من أهل العراق ، وأن لغتهم التي تركوها على آثارهم ، إنما هي أرامية متخلفة عن لغة ما بين النهرين ، وأنهم قد هاجروا من العراق إلى « أدوم » ، وذهب فريق آخر إلى أنهم عراقيون أتى بهم « نبوخذنصر » في القرن السادس قبل الميلاد ، عندما اكتسح فلسطين ، فأنزلهم «البتراء»[4] ومجاوراتها ، وذهب فريق ثالث إلى أنهم من جبل « شمر » في أواسط بلاد العرب ، ثم سرعان ما نزحوا إلى العراق ، وأقاموا هناك

(١) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ٨٣–٨٤ ، الاصطخري : مسالك الممالك ص ١٤ وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 216

(٢) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٠١ .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٦ .

(٤) هناك « بتراء » أخرى في نجد تقع إلى الغرب من « بريدة » بحوالي ١٣٦ كيلا ، ومن الرياض ٦٢٠ كيلا عن طريق بريدة ، ٥٨٠ كيلا عن طريق عنيزة

حتى دهمهم الآشوريون أو الميديون ، فأخرجوهم من هناك ، وأخيراً ذهب فريق رابع إلى أنهم من شواطىء الخليج العربي[١] ، بينما ذهب فريق خامس إلى أنهم من قبائل بدوية ، نزحت في القرن السادس قبل الميلاد (في حوالي عام ٥٨٧ ق.م) إلى شرق الأردن ، فنزلت أرض الآدوميين — أحفاد عيسو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام[٢] — وانتزعت منهم « البتراء » ثم سرعان ما امتدت سلطتهم إلى المناطق المجاورة[٣] .

ويرى المسعودي أن السريانيين إنما هم من النبط ، وأن أهل « نينوى » — وكذا بابل — من السريان والنبط كذلك[٤] ، ويذهب أستاذنا الدكتور سعد زغلول[٥] إلى أن للمسعودي من بين آرائه العبقرية التي كانت مصدر إلهام « ابن خلدون » في « مقدمته » ، نظرية تقول أن النبط وملوكها ترجع في أنسابها إلى « نبيط بن ماش » ومنهم كل العرب البائدة من عاد وثمود وجديس وطسم وعمليق ، إلى جانب « عيلام في الأهواز وفارس » و «نبيط في بابل والعراق» ، فكأنه ربط بين تاريخ بلاد العرب القديم جميعاً .

غير أن الأمر ، إن كان صحيحاً بالنسبة إلى القبائل العربية في بلاد العرب والعراق فقد يحتاج — فيما نظن — إلى إعادة نظر ، فيما يختص بعيلام وفارس ، وقد سكنتهما شعوب هندوأوربية ، وليست عربية على أي حال .

ومهما يكن من أمر ، فإن النبط الذين أشار إليهم الأخباريون ، إنما هم من بقايا الآراميين في العراق والشام ، وهم — وإن كانوا يتكلمون بلهجات ربما كانت

---

(١) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) أنظر عن الادوميين : كتابنا إسرائيل ص ٣٤٢—٣٤٤ ، وكذا عدد ٢٤ : ١٨ ، يشوع ١٥ :١ ، صموئيل أول ٨ : ١٤ ، إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١٠٤—١٠٥
وكذا M. Noth, op. cit., P. 154-155. وكذا A. Lods, op. cit., P. 58.

(٣) P. K. Hitti, op. cit., P. 67.

(٤) مروج الذهب ١/٢٣ ، ٢٣٨—٢٤٢ ، ٢/٢٥—٢٦ .

(٥) سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٣٦ ، وكذا مروج الذهب ٢/٢٥—٢٦ (دار الأندلس ، بيروت ١٩٧٣) .

عربية ، إلا أنها بلكنة غريبة عن العربية ــ ربما كانوا غير النبط الذين نتحدث عنهم وقد عاشوا في العربية الحجرية ، ولهم كتابات دونت بالأرامية ، وأن فريقاً منهم قد عاش في « تدمر »[١] .

وأما استعمال الأنباط للغة الأرامية ، فلأنها اللغة الشائعة في ذلك العصر ، بل إننا نرى الآرامية ، منذ حوالي عام ٥٠٠ ق.م ، قد أصبحت لغة المراسلات الدولية في منطقة الشرق الأدنى القديم ، كما أصبحت اللغة التي يستعملها سكان منطقة الهلال الخصيب ــ وكذا الأنباط[٢] ــ كما أنها سوف تصبح لغة المسيح وشعبه فيما بعد[٣] ، فضلاً عن أن الحروف العربية لم تكن قد وجدت بعد[٤] ، ومن ثم فلا عجب إذا ما دوّن الأنباط أو غيرهم من العرب بالأرامية ــ لغة الفكر والثقافة ــ وتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان ، وقد كان الأعاجم في الإسلام يتكلمون بألسنة أعجمية ، ويدونون باللسان العربي ، لسان العلم والفكر والقرآن الكريم[٥] .

ولعل الخلاف الأصلي بين الباحثين يكمن في أن الأنباط : قوم عرب ، أم آراميون؟

وتتجه الآراء الحديثة إلى أنهم عرب ، حتى وإن تبرأ العرب منهم ، ربما لأنهم تأثروا بحضارة الآراميين ، وكتبوا بلغتهم ، وربما لأنهم خالفوا سواد العرب في احترافهم مهناً يزدريها العربي الصميم ، ويحتقر من يشتغل بها كالزراعة والصناعات اليدوية[٦] ، وإن كانت بعض المراجع إنما تصف الأنباط بأنهم قوم يكرهون الزراعة ويزدرونها ، كما كانوا يأنفون من السكنى في بيوت مستقرة ، وقد كانوا رعاة يربون الأغنام وغيرها من الماشية ، كما كانوا لا يأمنون وجود الأجانب بينهم ، خشية أن يقعوا تحت سيطرتهم ، ومن ثم فقد كانوا إذا ما وجدوا غريباً بينهم قتلوه[٧]

---

(١) جواد علي ٣/١٣-١٤ .

(٢) أنظر : J. Cantineau, le Nabateen, 2 Vols, Paris, 1930, 1932.

(٣) أنظر : C.C. Torrey, our Translated Gospehs, N.Y., 1936.

(٤) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٧ .

(٥) جواد علي ٣/١٠ ، وكذا EB, P. 277, 282

(٦) جواد علي ٣/١٧ .

(٧) F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 283.

وأياً ما كان الأمر ، فإن العلماء يقدمون كثيراً من الأدلة على عروبة الأنباط ، منها (أولاً) أن أسماءهم — كما ظهرت في النقوش النبطية — إنما هي أسماء عربية خالصة ، ومن ذلك نقش « بوتيولي » ، على مقربة من نابلي بإيطاليا ، حيث نقرأ — ولأول مرة — إسم « علي » الذي شاع بين المسلمين بعد ذلك ، كما نقرأ كذلك في نقوش أخرى أسماء عربية — مثل حبيب وسعيد وكهلان وسعدالله ومرة وخلف وتيم الله وعميرة ووهب وحميد وسكينة وجميلة[1] — ومنها (ثانياً) أن الأنباط إنما كانوا يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز ، مثل « دوشرا » (ذو الشرى) واللات والعزى ومناة ، ومنها (ثالثاً) أن أثر التحريف العربي في كتاباتهم الآرامية ، لا يدع مجالاً للشك بأن لغتهم الوطنية ، إنما كانت لهجة عربية شمالية ، حتى بلغ الأمر من كثرة استعمال الكلمات العربية الصرفة في إحدى الكتابات الأثرية المتأخرة — والتي ترجع إلى حوالي عام ٢٦٨م — أن النص كله يكاد يكون عربياً[2] .

ومنها (رابعاً) أن أسماء ملوكهم — كالحارث وعبادة ومالك وجميلة — أسماء عربية ، وليس من شك في أن للأعلام دخل كبير في بيان أصول الأمم[3] ، ومنها (خامساً) أن الكتاب القدامى من الأغارقة والرومان — وكذا المؤرخ اليهودي يوسف ابن متى — إنما يطلقون على النبط كلمة « العرب » ، وعلى أرضهم لفظ « العربية الحجرية » (Arabia Petraea)[4] ، ومنها (سادساً) أن لغتهم الأصلية إنما كانت العربية ، وأنهم لم يستعملوا اللغة والكتابة الآرامية إلا في النقوش[5] .

(١) Corpus Inscriptionum Semiticarum, P. 242, 260.

(٢) ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي ص ٥٦ .
وكذا A.J. Jaussen and R. Savignac, op. cit., P. 172-6.

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٨١ .

(٤) جواد علي ٩/٣ .

(٥) بلاشير : تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي — بيروت ١٩٥٦ ص ٥٥—٥٦
وكذا R. Dussaud, les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907
وكذا E. Dhorme, op. cit., P. 34.
وكذا A. Kammerer, Petra et la Nabatene, Paris, 1929, P. 27.

وهكذا يتجه كثير من العلماء إلى أن الموطن الأصلي للأنباط ، إنما هو بلاد العرب — سواء أكان ذلك في الوسط أو في الجنوب — ومن ثم فإن فريقاً من الباحثين يذهب إلى أنهم قد نزحوا من البوادي إلى أعالي الحجاز ، حيث استقروا هناك واشتغلوا بالزراعة والتجارة والإشراف على القوافل التجارية ، بينما ذهب فريق آخر إلي أنهم من العربية الجنوبية ، ومن ثم فقد كان هذا سبباً في احترافهم للحرف المألوفة في بلاد العرب الجنوبية منذ العهود القديمة[1] .

ويرى الدكتور جواد علي أن الأنباط عرب ، بل هم أقرب إلى قريش وإلى القبائل الحجازية التي أدركت الاسلام ، من العرب الجنوبيين ، ذلك لأنهم إنما يشاركون قريشاً في كثير من الأسماء ، مثل حبيب وسعيد والحارث وقصي وعمرو ومسعود ، وفي كثيرا من عبادة الأصنام كاللات والعزى ومناة — كما أشرنا آنفاً — ولأن خط النبط قريب من خط كتبة الوحي ، ولأنهم يتكلمون لهجة قريبة من العربية ، بل إن كثيرا من الكلمات العربية المدونة بالأرامية ، من نوع عربية القرآن الكريم[2] ، ثم هناك ما جاء في التوراة [3] من أن « نبايوت » — وهو نابت عند الأخباريين — إنما هو الإبن الإكبر لإسماعيل ، عليه السلام[4] ، وإسماعيل — كما هو معروف — جد العرب العدنانية .

وأخير فهناك الخبر الذي جاء على لسان « ابن عباس » ، « نحن معاشر قريش من النبط ، من أهل كوثاريا ، قيل إن إبراهيم ولد بها ، وكان النبط سكانها »[5] ،

---

(١) جواد علي ٣/١٠ .

(٢) جواد علي ٣/١٤ ، يحيى نامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ص ٧
وكذا G.A. Cooke, op. cit., P. 18.
وكذا E. Littmann, Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, P. 17, 24.

(٣) تكوين ٢٥ : ٣ ، أخبار أيام أول ١ : ٢٩ .

(٤) J. Flavius, Antiquities of the Jews, I, XII, 4, P. 103.
وكذا J. Hastings, ERE, 9, P. 121. ثم قارن : E. Schrader, KLT, P. 151:

(٥) اللسان ٧/٤١١ .

وأما أن « إبراهيم » قد ولد في « كوثاريا » فتلك رواية المصادر العربية[1] ، وإن كانت رواية التوراة تذهب إلى أنه ولد في « أور »[2] — سواء أكانت في منطقة الفرات الأدنى ، أو في منطقة العراق الأعلى في منطقة الجزيرة بين دجلة والفرات [3] — بل إن هناك رواية أخرى — عربية كذلك — تنسب قريشاً إلى « كوثا » (كوثى) هذه ، فقد روى ابن الأعرابي أن رجلاً سأل الإمام علي بن أبي طالب — رضي الله عنه وكرم الله وجهه — فقال : أخبرني يا أمير المؤمنين عن أصلكم معاشر قريش ، قال : نحن قوم من كوثى ، فقال قوم إنه أراد كوثى التي ولد بها إبراهيم ، وتأولوا في هذا قول الله عز وجل « ملة أبيكم ابراهيم »[4] ، وسواء أصحت هذه الروايات أم داخلها التحريف ، فإنها تشير دون شك إلى صلة قريش — أبناء إبراهيم عليه السلام — بالأنباط وبكوثى في العراق ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فإن الأنباط يصبحون إذن من المجموعة الآرامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية بعد الآموريين والكنعانيين — وكانوا — بادىء ذى بدء — يجوبون أنحاء وادي الجزيرة من ناحية الشمال ، ويتحوكون إلى الشرق من ناحية العراق ، وإلى الغرب من ناحية سورية ، حتى بدأوا يستقرون في العراق الأوسط[5] ، ومن المعروف أن هناك من يجعل قوم إبراهيم من هذه المجموعة الآرامية ، وفي هذا ما يفيد إلى حد كبير صحة ما ذهبت إليه المصادر العربية ، من وجود قرابة بين القرشيين من ناحية ، وبين الأنباط من ناحية أخرى .

ويرى الأستاذ العقاد — طيب الله ثراه — أن مباحث اللغة إنما تقدم لنا البيّنة الكبرى على قرابة النبطيين لأهل الحجاز ، ذلك لأن لغة الحجاز لم تتطور من اللغة

---

(١) ياقوت ٤/٤٨٧—٤٨٨ ، البكري ٤/١١٣٨ ، ابن الأثير ١/٩٤ ، الطبري ١/٢٣٣ ، اليعقوبي ١/٢٣ ، ابن خلدون ٢/٣٥ .

(٢) تكوين ١١ : ٢٨ ، ٣١ ، ١٥ : ٧ ، نحميا ٩ : ٧٨ .

(٣) أنظر عن موطن الخليل عليه السلام ، كتابنا «إسرائيل» ص ١٦٥—١٧١ .

(٤) البكري ٤/١١٣٩ .

(٥) كتابنا إسرائيل ص ٣٣٧ .

اليمنية مباشرة، وإنما جاء التطور من العربية القديمة إلى الآشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية ، فتقارب لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل ، وكان التقارب بينهما في الزمان والمكان ، أو في درجات التطور ، ولم يكن تقارباً يقاس بالفراسخ والأميال ، وكانت هذه هي البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين ، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين أو فقهاء الإسلام ، ولكنها كانت قرابة الواقع التي حفظتها أسانيد اللغة والثقافة ، واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة[1] .

هذا وقد أشار من قبل « مارتن شبرنجلنج » إلى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية من منطقة مدين إلى الحجاز ، وإلى تطور الخط العربي عن الخط النبطي[2] ، ومن ثم فإن الكتابة التي نكتب بها اليوم ، إنما هي كتابة متطورة عن الخط النبطي ، وهذا بدوره متطور عن الخط الآرامي ، الذي استعمل في شمال شبه الجزيرة العربية منذ حوالي القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد كان منذ القرن السادس قبل الميلاد ، خط كثير من دول الشرق الأدنى القديم[3] ، وأما أقدم نص عربي وصلنا بالخط النبطي ، فهو « نقش النمارة » ، الذي يرجع إلى عام ٣٢٨م ، وقد سبق لنا مناقشته بالتفصيل من قبل .

وعلى أي حال ، فلقد أخذ النبط الأبجدية التي تلقاها الآراميون عن الفينيقيين ، ثم طوروها وحولوها من كتابة منفصلة الحروف ، إلى كتابة متصلة الحروف ، وبهذا أراحوا الكتاب من كتابة كل حرف على حدة ، ومن وضع خطوط رأسية ، أو نقط

---

(١) عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٣٦–١٣٧ .

(٢) Martin Sprengling, The Alphabet, its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, P. 52 وكذا UJE, I, P. 198.

(٣) عبد الرحمن الأنصاري : لمحات من القبائل البائدة في الجزيرة العربية ص٨٩، وانظر : فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٠٨–١٠٩ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٨١ ، ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٤٠–٤١ ، محمد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ١٢٧ .

لتحديد حدود كل كلمة ، أو ترك مسافات بيضاء بين كل كلمة وأخرى ، وعنهم أخذ العرب الكتابة التي ما زلنا نستعملها إلى اليوم[1] — كما أشرنا آنفاً — .

على أن هناك من يرى أن الألفاظ العربية التي وجدت في الآرامية النبطية ، فضلاً عن تشابه الأسماء بين العرب والنبط ، إنما كان من أثر الإختلاط بينهما بسبب السكنى والجوار ، وليس بسبب روابط جنسية بين الفريقين ، ومن ثم فإن الأنباط إنما هم أراميون احتكوا بالعرب وتأثروا بهم ، أو على الأقل ، إنما هم أراميون استعربوا بعد حين من الدهر[2] .

وعلى أي حال ، فإن أقدم معلوماتنا عن النبط ، مصدرها مؤلفو العصر الهلينستي ، ومنهم « ديودور » و « استرابو » ، وقد أخذ الأخير معلوماته عن « أثينودورس » ، ذلك الفيلسوف الذي ولد وعاش بين النبط[3] ، هذا وقد اصطدم الأنباط باليهود مراراً ، ولهذا يحدثنا المؤرخ اليهودي « يوسف بن متى » عنهم كثيراً ، وقد كان الأنباط — فيما يرى — يسكنون منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات ، فتتاخم بلاد الشام حتى تنزل إلى البحر الأحمر[4] ، كما أنه يرى — وكذا سان جيروم (٣٤٥—٤٢٠م) — أن هناك صلة بين إسم « نبايوت » بن إسماعيل ، وبين إسم النبط[5] ، غير أن يوسف اليهودي لم يهتم بتاريخ الأنباط ، إلا إذا كان هذا التاريخ له علاقة بتاريخ قومه اليهود[6] .

هذ اوقد ترك لنا الأنباط كتابات كثيرة في مواضع متفرقة — كالبتراء والحجر

---

(١) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٤ .

(٢) A.B.W. Kennedy, Petra, its History and Monuments, London, 1925, P. 34.
وكذا ، جواد علي ٣/١٠ ، قاموس الكتاب المقدس ١/٥٨ .

(٣) A.B.W. Kennedy, op. cit., P. 33.

(٤) J. Flavius, Antiquities of the Jews, I, 21, 4.

(٥) جواد علي ٣/١٦ ، وكذا EB, P. 3254

(٦) P.K. Hitti, op. cit., P. 69.

والعلا وتيماء وخيبر ، وفي صيدا ودمشق ، فضلاً عن أماكن أخرى في حوران واللجاة وسيناء والجوف واليمن ومصر وإيطاليا – اهتم العلماء بدراستها ونشرها[١] .

وعلى أي حال ، فيمكننا القول أن مملكة الأنباط قد وصلت إلى أوج مجدها على أيام « الحارث الرابع » (٩ ق.م – ٤٠م) ، وأنها كانت تشمل منطقة واسعة تضم دمشق وسهل البقاع ، والأقسام الجنوبية الشرقية من فلسطين ، وحوران وأدوم ، ومدن العلا وسواحل البحر الأحمر ، وبعبارة أخرى ، فإنها كانت تضم جنوبي فلسطين وشرق الأردن وسورية الجنوبية الشرقية وشمالي شبه الجزيرة العربية ، وأن القسم السوري منها إنما كانت تفصله عن قسم شرقي الأردن منطقة «اتحاد الديكابولس[٢]» ، وأن وادي السرحان كان يربط ما بين القسمين ، وأخيراً فهناك ما يشير إلى وجود آثار للأنباط في الأقسام الشرقية من دلتا النيل[٣] .

وقد ظهر الأنباط لأول مرة في القرن السادس قبل الميلاد ، كقبائل بدوية في الصحراء الواقعة شرقي الأردن ، ثمّ استمروا كذلك حتّى القرن الرابع ق.م ، رحلا يعيشون في خيام ، ويتكلمون العربية ويكرهون الخمر ، ولا يهتمون كثيراً بالزراعة ، وفي القرن التالي تركوا حياة الرعي ، واتبعوا حياة الإستقرار ، وعملوا في الزراعة والتجارة ، وفي أواخر القرن الثاني قبل الميلاد تحولوا إلى مجتمع منظم جدا متقدم في الحضارة ومتصف بالتطور والترف ، وكان مثالهم هذا مثالاً آخر[٣]

---

(١) A. Musil, Arabia Deserta, P. 471.

(٢) اتحاد الديكابولس : أو « حلف المدن العشر » ، والتي تبدأ حيث يتصل مرج ابن عامر بوادي الأردن ، ثم تمتد نحو الشرق ، وكانت هذه المدن التي كانت تسيطر على تلك المنطقة هي « بيت شان » (بيسان) وبيلا وديون (تل الأشعري) وجرش وفيلادلفيا (ربة عمان = عمان الحالية) وجدرة ورافانا (الرافة في حوران) وكناثا (القنوات) وهيبوس (قلعة الحصن جنوب شرق بحيرة طبرية) ودمشق ، وقد أضيفت إليها مدن أخرى بعد ذلك ، فأصبح العدد ثمانية عشر (فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٣٥٠–٣٥١ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٤ ، وكذا Pliny, V, 16)

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٢ ، جواد علي ١٥/٣
وكذا Clermont Ganneau, les Nabatiens en Egypte, in Recveil d'Arc:eol. Orientale, II, P. 229. وكذا EI, 3, P. 801.

(٤) المثال الأول هو العبرانيون ، أنظر : فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٢١ ، وكذا كتابنا إسرائيل

يوضح الحادث الذي كان يتكرر في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وهو تحول الرعاة إلى مزارعين ثم إلى تجار في بلاد قليلة الموارد ، ولكنها حسنة الموقع بالنسبة إلى تجارة القوافل التي عوضت قلة مواردها الطبيعية[١] .

وأما أقدم ما وصلنا من أخبار عن الأنباط ، فإنما يرجع إلى عام ٣١٢ ق.م ، حيث يسجل هذا العام انتصار الأنباط على قوات « انتيجونوس » ، ذلك أن « ديودور الصقلي » يروى أن « انتيجونوس » الذي خلف الأسكندر المقدوني (٣٥٦—٣٢٣ ق.م) في سورية[٢] ، قد أغار على « البتراء » في عام ٣١٢ ق.م ، بسبب موالاة النبط لـ « بطليموس الأول » (٣٢٢—٢٨٣ ق.م) ، ومن ثم فقد أعد حملة تحت قيادة صديقه « أثنيوس » ، من أربعة آلاف من المشاة وستمائة فارس ، ليجبرهم على التحالف معه ضد « بطليموس » ، ونجح « أثنيوس » في أن يخفي أمر حملته ، وأن يسير إلى البتراء عن طريق أدوم ، وأن يباغتها ليلاً ، والناس نيام ، فضلاً عن غياب حراسها من الشباب والرجال الأشداء في سوق لهم ، ومن ثم فقد كتب له النجح عليها ، ونهب ما استطاع من بخور وتوابل وطيب وفضة ، إلا أن الأنباط سرعان ما علموا بالأمر ، فطاردوا الغزاة ذات ليلة كانوا يستريحون فيها من وعثاء السفر ومشقة الطريق ، وأعملوا السيف فيهم ، حتى قضوا عليهم ، إلا خمسين فارساً هربوا بسلام ، وإن أصيبوا بجراح من سيوف الأنباط ، ويعلل « ديودور » ذلك الفشل الذي منيت به الحملة ، بأن رجالها ما كانوا يتوقعون أن أن يطاردهم الأنباط بهذه السرعة ، ومن ثم فقد أهملوا الحراسة ، وكانت المأساة[٣] .

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤١٧ .

(٢) أنظر عن الظروف التي أحاطت بدولة الاسكندرية عقب وفاته في بابل في ١٣ يونية ٣٢٣ ق.م ، وتقسيم امبراطوريته بين قواده (إبراهيم نصحي : تاريخ الحضارة المصرية — العصر اليوناني الروماني ص ٤—٨ ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ٢/٤٥ وما بعدها ، لطفي عبد الوهاب : دراسات في تاريخ مصر ١/٨٥—٩٤ ، مصطفى العبادي : مصر من الإسكندر حتى الفتح العربي ص ٢٨—٤٤ ، و. و. تارن : الاسكندر الأكبر ص ١٨٥) .

(٣) A.B.W. Kennedy, op. cit., P. 3. وكذا J. Hastings, ERE, 9, P. 121 وكذا EI, 3, P. 801. وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 33.

وعاد الأنباط إلى البتراء ، وكتبوا رسالة بالسريانية[1] إلى « انتيجونوس » (Antigonus) يحملون فيهـا قائده وزر ما حدث ، ويرد عليهم الرجل رداً مرضياً ، أن ما حدث إنما كان بغير علم منه ، وأن قائده قد تصرف برأيه ، ثم يختم رسالته بأعلان صداقته لهم ، بينما كان في واقع الأمر ، إنما يعدّ لجولة جديدة ، قد يهيئ لها من الأسباب ما يكفل لها النجاح ، وهكذا ما أن يمضي طويل وقت ، حتى يرسل إليهم ولده « ديمتريوس » على رأس حملة قوامها أربعة آلاف من الفرسان ، ومثلهم من المشاة ، ويبدو أن الأنباط إنما كانوا يتوقعون الخيانة من « أنتيجونوس » . ومن ثم فقد كانوا في حيطة من أمرهم ، فأمنوا أموالهم في مواضع حصينة لا تصل إليها أيدي الطغـاة الطامعين ، ثم تفرقوا في الصحراء ، وهكذا ما أن وصل « ديمتريوس » إلى الصخرة (أم البيارة) حتى هاجمها بعنف وشراسة ، إلا أن محاولته هذه لم يُكتب لها نصيب من نجاح ، ومن ثم فقد عاد بخفى حنين ، قانعاً بما قدم إليه الأنباط من هدايا[2] .

ويبدو أن علاقة الأنباط بالبطالمة بدأت تتدهور على أيام « بطليموس الثاني » (٢٨٤—٢٤٦ ق.م) ذلك أن الرجل قد بدأ يفكر في احتكار التجارة البحرية والسيطرة على البحر الأحمر ، ومن ثم فقد أمر بإعادة فتح القناة القديمة التي كانت

---

(١) اللغة السريانية : لهجة أرامية قديمة نشأت في إقليم الرها (أديسا عند الرومان ، أورفا الحالية ، في جنوب شرق تركيا ، قريباً من الحدود السورية) ، وقد بدأت لغة الرها الأرامية هذه تسمى « السريانية » بعد انتشار المسيحية ، تمييزاً لها عن الآراميات الوثنية أو اليهودية ، لا سيما أن لفظ أرامي كان قد اتخذ في أذها ن العامة في هذا الإقليم مدلولا يشبه لفظ « جاهلي » عند المسلمين ، أي لا يؤمن ويعبد الأصنام ، وهكذا أصبحت السريانية – لغة اديسا – لغة الكنائس في سورية ولبنان وبلاد الرافدين ، فيما بين القرنين ، الثالث والثالث عشر الميلادي ، ومن ثم فقد أصبح المسيحيون الآراميون يعرفون باسم « سوريين » تمييزاً لهم عن بني جنسهم الوثنيين ، ثم سرعان ما استعملت التعابير اليونانية ، وهي « سوري » بالنسبة للشعب ، و « سرياني » بالنسبة إلى اللغة (أنظر : فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٨٤—١٨٥ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٨—١١٩) .

(٢) جواد علي ١٩/٣—٢٠ ، صالح العلي : محاضرات في تاريخ العرب ٣٧/١
وكذا A.B.W. Kennedy, op. cit., P. 31.
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 32.

تصل النيل بالبحر الأحمر[1] ، وهو المشروع الذي طالما فكر المصريون في تنفيذه على أيام الدولة الحديثة (١٥٧٥-١٠٨٧ ق.م) ، ثم على أيام « نخاو الثاني » (٦١٠-٥٩٥ ق.م) ، الذي تخلى عنه فجأة ، لأن نبوءة جاءت من « بوتو » تقول أن القناة ليست في مصلحة مصر ، وأنه لن يستفيد منها إلا الأجانب[2] ، وهو نفس المشروع الذي أتمه « دارا الأول » الفارسي (٥٢٢-٣٨٦ ق.م) لمصلحة بلاده[3] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن بطليموس الثاني قد أرسل بعد ذلك « أرستون » لكشف الساحل الشرقي للبحر الأحمر[4] ، إلى جانب إنشاء موانىء على هذا البحر[5] ، فضلاً عن توسيع دائرة التبادل التجاري بين مصر وبلاد العرب والهند ، وذلك رغبة منه في تصريف المنتجات المصرية كالمنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال ، فضلاً عن الحصول على العطور والبهار والبخور والمر والقرفة والعاج والأرز والأصداف واللآلىء والأصباغ والقطن والحرير من الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية والهند[6] .

وهكذا وضع بطليموس الثاني الساحل العربي للبحر الأحمر تحت سلطانه ، كما عمل في نفس الوقت على توطيد علاقاته الطيبة بـ « ديدان » على طريق القوافل ، وربطها بميناء جديد على البحر الأحمر ، مما أدى في نهاية الأمر إلى تحويل تجارة

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ٦/٤٨٠ ، إبراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر ص ١٢٤ .

(٢) G. Posener, le Canal du Nil a la Mer Rouge, in Chronique d'Egypte, 26, P. 272.

(٣) أحمد فخري : مصر الفرعونية ص ٤٢٦ .

(٤) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٣ ، إبراهيم نصحي : المرجع السابق ص ١٢١ وكذا W.W. Tarn, JEA, 15, P. 14.

(٥) جواد علي ٢١/٣
وكذا W. Vincent, The Periplus of the Erythrean Sea, P. 309.
وكذا M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, I, P. 387.

(٦) إبراهيم نصحي : تاريخ الحضارة المصرية – العصر اليوناني الروماني – ص ٤٥ .

البخور عن طريقها القديم الذي كان يمر ببلاد الأنباط إلى هذا الطريق الجديد ، ثم العمل على نقلها بعد ذلك إلى مصر ، عبر البحر الأحمر ، عن طريق المراكب[١] .

وقد أدى ذلك كله إلى أن تشهد العلاقات التجارية بين مصر وبلاد العرب ، نشاطاً لم تعهده من قبل[٢] ، ولا أدل على ذلك من أن البطالمة قد أنشأوا منصباً جديداً في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد ، وهو منصب « قائد البحر الأحمر والبحر الهندي » ، الذي يرجح أن الذي كان يتولاه في بادىء الأمر ، قائد مديرية « قفط » (بمحافظة قنا) ، أما بعد عام ٧٨ ق.م فقد شغل المنصب قائد منطقة طيبة[٣] .

على أن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى الأنباط ، فقد كان استكشاف السواحل العربية على البحر الأحمر ، وإعادة القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر ، فضلاً عن خضوع فلسطين وفينيقيا لمصر ، إنما يعني سيطرة مصر على التجارة البحرية ، وهذا يعني ببساطة خسائر فادحة للأنباط الذين كانوا يحصلون على أرباح باهظة من تجارة القوافل التي كانت تمرّ ببلادهم ، ومن ثم فقد انتهز القوم فرصة الحروب التي استعر أوارها بين البطالمة والسلوقيين ، وأخذوا يشنون الغارة تلو الأخرى على السفائن الذاهبة أو الآتية من مصر[٤] ، وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى أن ينشيء بطليموس الثاني قوة بحرية لحراسة هذه السفن التجارية[٥] ، بل إن هناك من يرى أن الرجل

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٦/٤٨٠-٤٨١ .

(٢) فضلو حوراني : المرجع السابق ص ٥٥-٥٦

وكذا S.A. Huzayyin, Arabia and the Far East, Cairo, 1942, P. 86.

وكذا De Lacy O'Leary, Arabia before Muhammed, London, 1927, P. 71.

(٣) إبراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر ص١٠١ ، وكذا M. Rostovtzeff, op. cit., P. 928.

وانظر مقالنا : « العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة » مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، العدد السادس ص ٢٨٧-٤٣٧ .

(٤) جواد علي ٢/٢٠-٢١ ، وكذا Strabo, III, P. 402

وكذا Murry, The Rock City Petra, P. 80.

(٥) M. Rostovtzeff, op. cit., P. 383F.

ربما قد أرسل — عقب رحلة أرستون — حملة ضد النبط [1] ، فضلا عن الإستيلاء على أهم المحطات والموانيء التجارية . كميناء أيله عند خليج العقبة [2] ، و « لوكي كومي » على ساحل الحجاز — وهي الحوراء مرفأ سفن مصر إلى المدينة على رأي ، [3] والمويلح على رأي آخر ، [5] وعينونة أو الخريبة على رأي ثالث [4] .

ومن المحتمل أيضاً أن بطليموس الثاني قد استولى وقت ذاك على الشاطيء الشرقي للبحر الميت الذي كان في قبضة النبط ، كما أن هناك احتمالاً أنه قد شجع « ميليتوس » على إنشاء مستعمرة لها على الشاطيء الشرقي للبحر الأحمر ، في مواجهة « المدينة المنورة » ، ومن هذا الثغر الذي عرف باسم « أمبلوني Amplone » كانت تجارة بلاد العرب والهند تنقل إلى مصر [6] .

ملوك الأنباط :

كان « الحارث الأول » (١٦٩–١٤٦ ق.م) على رأس هؤلاء الملوك [7] ، وكان يدعى عند اليهود « أريتاس Aretas » ملك العرب [8] ، وقد تسمى باسم « الحارث » كثير من ملوك الأنباط ، ومن ثم فقد ذهبت بعض الآراء إلى أن هذا الإسم إنما كان لقباً للملوك الأنباط ، مثله في ذلك مثل فرعون عند المصريين ، وقيصر عند الروم ، وكسرى عند الفرس ، والنجاشي عند الحبشة ، وتبع عند اليمنيين [9] .

---

(١) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٢) جواد علي ٣/٢٧ .

(٣) C. Forster, op. cit., P. 220.

(٤) C. Forster, op, cit. P. 285. وكذا W. Vincent, op, cit. P. 230.

(٥) جواد علي ٣/٢٨ .

(٦) إبراهيم نصحي : المرجع السابق ص ١٢٢–١٢٣ .

(٧) G.A. Cooke, op. cit., P. 216.

(٨) مكابيين ثان ٥ : ٨ .

(٩) جواد علي ٣/٢٢ ، وكذا The Bible Dictionary, I, P. 107.

وكان الحارث معاصرا لمؤسس الأسرة المكابية[1] ، وأن الأسرتين قد بدأتا عهدهما كحليفين طبيعيين ضد ملوك سورية السلوقيين[2] ومن ثم فإننا نقرأ في سفر المكابيين الثاني[3] أن « اريتاس » (الحارث) قد طرد « جاسون » — الحاخام اليهودي في بيت المقدس — من بلاده ، وأن الأخير قد اضطر إلى الفرار إلى مصر ، كما وقف « أريتاس » كذلك إلى جانب المكابيين في ثورتهم ضد السلوقيين[4] .

وجاء « زيدإيل » (١٤٦—١١٠ ق.م) بعد الحارث الأول ، ثم خلفه « الحارث الثاني » في الفترة (١١٠—٩٦ ق.م) ، على رأي[5] ، وفي الفترة (١٣٩—٩٧ ق.م) على رأي آخر ، وربما في الفترة (١٢٠—٩٦ ق.م) على رأي ثالث[6] ، وعلى أي حال ، فهو المعروف باسم « إيروتيموس Erotimus » ، وربما كان هو الذي عناه « يوسف اليهودي » في أحداث عام ٩٧ ق.م ، فيما يرى بعض الباحثين[7] ، وذلك حين لجأ إليه أهالي غزة يطلبون معونته أثناء حصار « اسكندر جنايوس » (١٠٣—٧٦ ق.م) لمدينتهم ، إلا أنه لم يكن عند حسن الظن به على رأي[8] ، وأنه قدم إليهم ما يطلبون على رأي آخر[9] ، ومن ثم فقد بدأت العلاقات بين الطرفين تأخذ اتجاهاً آخر ، حين رأى الأنباط أن المكابيين إنما يسعون إلى الإستيلاء على الأردن ،

---

(١) هو يهوذا المكابي الذي قام بثورة في عام ١٦٨ ق.م ، ضد الأرستقراطية اليهودية ، ثم سرعان ما تحولت إلى ثورة لتحرير اليهودية نفسها من سيطرة « أنطيوخس الرابع» (١٧٥—١٦٤ ق.م) ، وانتهت بتنصيب « سمعان » شقيق يهوذا كاهناً وحاكماً على اليهودية في عام ١٤١ ق.م (مكابيين أول ١٣ : ٣٤—٤٢) ، وهكذا ولدت دويلة يهودية دامت حتى مجيء الرومان بعد ثمانين عاماً (فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٦٧—٢٦٩) .

(٢) مكابيين أول ٥ : ٢٤—٢٧ ، ٩ : ٣٥ .

(٣) مكابيين ثان ٥ : ٨ .

(٤) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٣٠ ، تاريخ يوسفيوس ص ٧٠ .

(٥) EI, III, P. 801 وكذا وكذا J. Hastings, ERE, 9, P. 121.

(٦) جواد علي ٣/٢٥ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 290. وكذا E. Schrader, op. cit., P. 153.

(٧) KLT, P. 153. ، وكذا EI, III, P. 801. وكذا J. Hastings, op. cit., P. 121

(٨) F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 290.

(٩) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤١٩ .

ثم التوغل في أرض النبط نفسها ، مما كان سبباً في أن يقف الأنباط في وجه السياسة المكابية[1] .

وفي عهد الملك « عبادة الأول » نجح الأنباط في إلحاق الهزيمة باسكندر جنايوس في موقعة دارت رحاها على الشاطىء الشرقي لبحر الجليل ، ومهدت الطريق لاحتلال الجنوب الشرقي من سورية (منطقة حوران وجبل الدروز اليوم) أما اسكندر المكابي فقد فرّ إلى القدس ، حيث قوبل هناك بمعارضة شديدة ، سرعان ما تحولت إلى عداء صريح ، يتمثل في استدعاء أحد الحكام السلوقيين وتنصيبه ملكاً ، وهكذا وضعت الظروف « اسكندر » بين خصمين قويين (ديمتريوس الحاكم السلوقي وعبادة الملك النبطي) ، ومن ثم فقد رأى « اسكندر » أن من الخير له أن يكسب ودّ الأنباط ، حتى يستطيع الحفاظ على عرشه ، فتنازل لهم عن مؤاب وجلعاد ، وأماكن أخرى كان يخشى من انضمامها إلى أعدائه[2] .

ويعد « الحارث الثالث » — الذي جاء بعد « رب إيل الأول »[3] — من أشهر ملوك الأنباط ، وإن اختلف المؤرخون في فترة حكمه ، فهي في الفترة (٨٧—٦٢ ق.م) على رأي ، وفي الفترة (٨٥—٦٠ ق.م) على رأي آخر[4] ، إلا أنه مما لا شك فيه أن عهده قد اقترن بفتوحات واسعة ، بدأت باستيلائه على دمشق ، وعلى سهل البقاع في حوالي عام ٨٥ ق.م ، وذلك بناء على دعوة تلقاها من سكان المدينة

---

(١) جواد علي ٣/٢٦
وكذا The Universal Jewish Encyclopaedia, 8, P. 79.

(٢) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤١٩ ، جواد علي ٣/٢٧
وكذا CAH, 9, P. 409. وكذا EI, 3, P. 801 وكذا J. Hastings, ERE, 9, P. 121
وكذا Josephus The Jewish War, I, IV, 3-4.

(٣) يبدو أن حكمه كان قصيراً لم يتجاوز العام (٨٧/٨٦ ق.م) ، وقد عثر له عن تمثال في البتراء عام ١٨٩٨م (أنظر : J. Cantineau, op. cit., P. 1.
وكذا Syria, IV, 1923, P. 152. وكذا Die Araber, I, P. 291

(٤) جواد علي ٣/٢٩ ، وكذا E. Schrader, op. cit., P. 153.

العريقة – وكانت عاصمة السلوقيين وقت ذاك – لإنقاذهم من هجوم « الأيتوريين »[1] الذين كانوا يطمعون في الإستيلاء عليها ، ومن ثم فقد أطلق عليه القوم « محب اليونانيين وحاميهم »[2] .

وكان الحارث قد بدأ يستغل ضعف السلوقيين في مصلحته ، ومن ثم فقد اهتبل فرصة هجوم « أنطيوخس الثاني عشر » (٨٨–٨٤ ق.م) على بلاده ، ولقنه درساً قاسياً عند « Kana » عند ساحل « يافا » في عام ٨٦/٨٥ ق.م (أو في عام ٨٤/٨٣ ق.م) ، قضى فيها على معظم جيشه[3] .

وهكذا استطاع الحارث الثالث أن يوطد حكمه في الداخل ، وأن يفرض نفوذه في الخارج ، وقد واتته فرصة نادرة بعد استيلائه على دمشق ، وذلك حين انضم إلى جيشه فريق من رجال الحرب اليونان ، وقد عمل الحارث على الإفادة منهم في تنظيم جيشه وتدريبه ، بل وتحويله من جيش يعتمد على رجال من الأعراب ، يخوضون المعارك بروح من البداوة التي لا تقبل الخضوع للأوامر والنظم العسكرية ، وتهتم أول ما تهتم بالغنائم والأسلاب ، إلى جيش نظامي مدرب ، كان الدعامة الأساسية في فرض نفوذه في الخارج ، فضلاً عن أن الرجل قد نجح بقوة هذا الجيش في أن يصبح أقوى حاكم عرفته بلاد الأنباط حتى يومه ، ومن ثم فقد بدأ الحارث يتدخل في شئون مملكة يهوذا المتداعية ، في أول الأمر ، ثم يقدم على مواجهة جيوش الرومان بعد ذلك ، وإن كانت النتيجة في كلتا الحالتين مختلفة[4] .

---

(١) الإيتوريون : من أصل عربي ، ولغتهم آرامية ، وهم « يطور » في التوراة (أنظر : تكوين ٢٥:١٥ ، أخبار أيام أول ١:٣١ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٦٩) .

(٢) جواد علي ٣/٣٠ ، وكذا A. Kammerer, op. cit., P. 515.
وكذا R. Dussaud, la Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955, P. 55.

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢٧٠–٢٧١ ، جواد علي ٣/٢٩–٣٠
وكذا CAH, 9, P. 400 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 147
وكذا Josephus, The Jewish War, I, IV, 7-8, Antiquities, XIII, 15, 2.

(٤) جواد علي ٣/٣٠

كانت الأمور في دولة يهوذا قلقة ، ومن ثم فقد كان على الحارث أن يضع حدا لهذا القلق ، فإن لم يفعل ، فإن الأحزاب اليهودية ما كانت بقادرة على أن تتركه على الحياد ، وهكذا ما أن يمضي حين من الدهر ، حتى يبدأ الجيش النبطي يهاجم يهوذا ، ويشتبك معها في معركة ضارية عند « Addida » (الحديثة على مقربة من اللد) ، ينهزم فيها جيش اليهود شر هزيمة ، ويطلب « اسكندر » الصلح على شروط الأنباط ، التي تجاهلها المؤرخ اليهودي « يوسفيوس » ولم يقل لنا عنها شيئاً[1] .

ويبدو أن الظروف السياسية دعت الحارث مرة أخرى للتدخل في شئون يهوذا ، إبان الخلاف الذي دبّ بين ولدي « إسكندر جنايوس » (أرسطو بولس وهركانوس) ، وانقسام اليهود إلى فريقين ، الصدقيون ويؤيدون « أرسطوبولس » ، والفريسيون ويؤيدون « هركانوس » ، الذي فرّ إلى البتراء ، لعله يجد الحمى عند الحارث ، فضلاً عن إعادة التاج إليه وتثبيت ملكه ، على أن يعيّد للحارث في مقابل ذلك ، المدن الإثني عشر التي كان قد أخذها أبوه من العرب ، ويقبل الحارث العرض أملا في أن يوسع أملاكه على حساب يهوذا ، إن لم يُقدّر له أن يوجه إليها الضربة القاضية ، وهكذا يوجه الحارث جيشاً قوامه خمسون ألف رجل لمهاجمة « أرسطو بولس » الذي سرعان ما يفر إلى القدس بعد هزيمة منكرة ، فيتابعه الحارث إلى المدينة المقدسة ، ويكاد يستولي عليها ، لولا قيام الرومان بالهجوم على دمشق ، ثم إرسال حملة عسكرية إلى القدس نفسها للتدخل في النواع القائم وقت ذاك ، ولمنع الأنباط من الإستيلاء عليها [2] .

وهكذا يضطر الحارث إلى فك الحصار عن القدس ، إلا أن « أرسطوبولس » — الذي نجح في أن يضم إليه قائد الحملة الرومانية — سرعان ما يتعقب الأنباط ،

---

(١) جواد علي ٣/٣١ ، وكذا Josephus, XIII, XV, 2, Vol. II, P. 428
وكذا J. Hastings, op. cit., P. 12. وكذا EB, P.1932. وكذا CAH, IX, P. 400
(٢) تاريخ يوسفيوس ص ١١٠–١١٥ وكذا Josephus, The Jewish War, P. 302.

وهم في الطريق إلى « ربة عمون[1] » ، وهناك عند « بابيرون Ppayron » دارت معركة بين الجانبين ، انتصر فيها « أرسطوبولس » ، وقتل ستة آلاف من أتباع الحارث[2] .

وفي عام ٦٢ ق.م ، بدأ الرومان يتحرشون بالحارث النبطي ، ورغم أنه قد صمم — بادىء ذى بدء — على أن يعلنها حرباً شعواء على الرومان واليهود سواء بسواء ، إلا أنه سرعان ما أدرك الحقيقة المرة ، وهي أن جيشه ما كان في استطاعته أن يقف أمام جيوش الرومان الكثيرة العدد والعدة ، والمدربة تدريباً يفوق تدريب جيوشه إلى حد كبير ، ومن ثم فقد لجأ إلى مهادنة هذا العدو القوي الشرس ، وتم الصلح بينهما على أن يدفع الحارث جعالة للرومان ، واعتبر « بومبي » أن ذلك إنما هو خضوع من الأنباط للرومان ، ومن ثم فقد وضع صورة الحارث في موكب نصره ، كما أمر القائد الروماني « سكورس » أن تضرب النقود وعليها صورة الحارث ، وهو منكس الرأس ، وحاملاً سعفه ، تعبيرا عن استسلامه[3] .

وهكذا انتهت آمال الحارث في أن يرث مملكة السلوقيين في الشام ، بخاصة وأن «بومبي » كان قد استولى على دمشق منذ عام ٦٤ ق.م ، بعد أن كان الحارث قد أخلاها منذ عام ٧٠ ق.م ، وإن رأى البعض أن الحارث قد احتفظ بدمشق في مقابل

---

(١) وتسمى « ربة » كذلك ، ثم تغير اسمها في العصر الاغريقي إلى « فيلادلفيا » نسبة إلى بطليموس فيلادلفيوس (بطليموس الثاني) وهي في موقع « عمان » الحالية عاصمة الأردن ، حيث يوجد في اسمها جزء من إسم العمونيين الذين تنسبهم التوراة إلى « بني عمى » بن لوط ، وكانوا يسكنون إلى الشمال الشرقي من « مؤاب » في الاقليم الأعلى من « يبوق » (أنظر : تكوين ١٩ : ٣٨ ، كتابنا « إسرائيل » ص ٣٤٥-٣٤٦

وكذا M. Noth, op. cit., P. 157-8. وكذا F. Unger, op. cit., P. 45

(٢) جواد علي ٢/٣٣

وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 302. وكذا CAH, IX, P. 382

(٣) F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 303

وكذا J. De Morgan, Manuel de Numisme Orient, 2, 1924, P. 237.

وكذا جواد علي ٣/٣٣ .

مبلغ ضخم من المال ، وعلى أي حال ، فإن « بومبي » قد ضم سورية الجغرافية والتقليدية في ولاية واحدة وجعل من « انطاكية » عاصمة لها[١] .

وهناك في البتراء كتابة عليها اسم الحارث ، دونها أحد قواده في « المدراس » — وهو معبد ذى الشرى إله الأنباط الكبير — هذا وقد كان الحارث مغرماً بالحضارة الهلينيستية ، ومن ثم فقد ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه للتأثيرات اليونانية ، فهو أول من سك نقودا نبطية ، اقتبس لها النموذج المعروف عند البطالمة ، كما أتى بالصناع السوريين الذين أدخلوا النماذج الهلينستية إلى عاصمته ، وربما كانوا هم الذين نحتوا الواجهة الجميلة المعروفة اليوم « بالخزانة » ، كما يرجح أن المسرح — وهو بناء على الطراز اليوناني — قد بنى زمن الرومان ، وهكذا بدأت البتراء تتخذ مظاهر مدينة هلينستية نموذجية ، فكان فيها شارع رئيسي جميل ، وعدة أبنية دينية وعامة[٢] .

وجاء بعد الحارث ولده « عبادة الثاني » الذي حكم في الفترة (٦٢—٦٠ ق.م) على رأي ، وفي الفترة (٦٢—٤٧ ق.م) على رأي آخر ، ولدينا من عهده نقد من الفضة من فئة « الدراخما » ، يرجع إلى العام الثاني أو الثالث من حكمه ، وقد صور الملك عليه بوجه حليق ورأس ذات شعر قصير ، ويبدو أن سياسة الأنباط منذ أيام هذا الرجل كانت مقصورة على المحافظة على استقلالهم ، والإرتباط بالرومان بروابط الحلف والولاء ، ومن ثم فقد شاركوا على أيام مالك الأول في حملة « يوليوس قيصر » على الاسكندرية في عام ٤٧ ق.م ، بفرقة من الفرسان ، ساعدته على القبض على ناصية الأمور هناك ، والخروج من المأزق الذي كان فيه[٣] .

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣٠٩ ، جواد علي ٢٩/٣ ، وكذا EB, P. 991.

(٢) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٠ وكذا Clermont-Ganneau, RAO, II, P. 379 وكذا Provincia Arabia, I, P. 209.

(٣) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٨٨ ، صالح العلي : المرجع السابق ص ٣٩ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٣٤ ، جواد علي ٣٤/٣
وكذا H. Von Wissmann and M. Hofner, op. cit , P. 306
وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 68.

وجاء « مالك الأول » ، وقد حكم في الفترة (٤٧—٣٠ ق.م) على رأي ، وفي الفترة (٥٠ أو ٤٧—٣٠ ق.م) على رأي ثان ، أو (٥٠—٢٨ ق.م) على رأي ثالث ، بل إن هناك من يذهب إلى أنه قد حكم بعد « الحارث الثالث » مباشرة وأن ذلك إنما كان في الفترة (٦٢—٣٠ ق.م)(١) .

وأيا ما كان الأمر ، فإن التاريخ يحدثنا أن الأنواء قد عصفت بسفينة الأنباط على أيامه ، ولم يكن ذلك بسبب يتصل بالرجل ، بقدر ما كان يتصل بالتغييرات التي حدثت في « يهوذا » ، ذلك أن الرومان كانوا قد عهدوا بأمور الشرق إلى « مارك أنطونيو » (٤٠—٣٦ ق.م) الذي عمل على القضاء على سلطة المكابيين ، وإقامة سلطة أخرى من الأدوميين على رأسها «هيركانوس»، إلا أن زمام الأمور إنما كان بيد « انتيباتر » ، وما أن جاء عام ٣٧ ق.م ، حتى أصبح « هيرودوس » بن « انتيباتر » ملكاً على أورشليم ، واستمر كذلك حتى عام ٤ ق.م ، وبعد نحو عامين من مولد السيد المسيح عليه السلام ، الذي رأى العلماء أنه كان حوالي (٦—٢ ق.م) إلا أن « هيرودوس » كان طوال تلك الفترة أداة طيعة في أيدي الرومان الذين نصبوه ملكاً على اليهودية(٢) .

وفي تلك الأثناء كانت العلاقات بين الروم والنبط قد تدهورت إلى حد كبير ، ربما بسبب امتناع الأنباط عن دفع الجزية للرومان ، وربما لأن النبط قد وقفوا إلى جانب الفرس عندما أرادوا الإستيلاء على فلسطين ، وأياً ما كان السبب ، فإن الروم ، —وقد انتصروا على الفرس— بدأوا يتجهون نحو النبط ، ومن ثم فقد أجبروهم حوالي عام ٤٠ ق.م ، على دفع جزية كبيرة ، ثم زاد الموقف تعقيد عندما منح « مارك أنطونيو » جزءاكبيرا من فينيقيا وسورية ، فضلاً عن بلاد الأنباط ،إلى « كليوبترا » ملكة مصر ، كما بايع ولده منها — ويدعى بطليموس — ملكاً على سورية ، وهكذا

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٠ وكذا J. Hastings, ERE, 9, P. 121.

(٢) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣١١—٣١٢ جواد علي ٣/٣٥—٣٦ وكذا Josephus, Antquities, XIV, 8, 3, 5, XV, 6, 4, The Jewish War, I, XIII, 8

أصبحت « كليوبترا » صاحبة الحق في جزية الرومان من الأنباط ، غير أن النبط قد امتنعوا عن دفع الجزية لملكة مصر ، ومن ثم فقد طلبت كليوبترا من مارك أنطونيو الإسراع في تأديب الأنباط .

وكانت سياسة « كليوبترا » تهدف إلى السيطرة على بلاد العرب الشمالية ، فضلاً عما منحه إياها « أنطونيو » من أجزاء في فينيقيا وسورية ، ومن ثم فقد أرادت التخلص من ملكي العرب واليهود على السواء ، وهكذا شجعت « هيرودوس » ملك اليهودية على محاربة الأنباط ، ويبدو أن « هيرودوس » كان ينتظر هذه الفرصة ، ومن ثم فقد أسرع بشن هجوم على الأنباط عند « اللد » وما أن يتم له النصر هنا ، حتى يسرع بالهجوم عليهم مرة أخرى عند « قنا » في البقاع ، ويكاد ينتصر عليهم ، إلا أن موازين النصر سرعان ما تغيرت إلى جانب النبط ، فقتلوا عددا كبيرا من جيشه ، وأسروا آخرين ، وفرّ « هيرودوس » إلى القدس[1] .

وهنا بدأ « هيرودوس » يعدّ العدة لجولة أخرى ، بخاصة وأن النبط بدأوا يهاجمون مدنه ، مما أدى إلى قيام سلسلة من المعارك تبادل فيها الجانبان النصر والهزيمة ، فضلاً عن الخسائر في الرجال والمعدات ، ويزعم المؤرخ اليهودي يوسفيوس أن النصر كان في النهاية إلى جانب اليهود ، وذلك حين جمع هيرودوس قواته وأعاد تنظيمها ، فعبر الأردن ، والتحم مع الأنباط في معركة ضارية عند « عمان » فأنزل بهم خسائر فادحة ، فاقت خمسة آلاف قتيل ، وأربعة آلاف أسير ، فضلاً عن سبعة آلاف أخرى لقوا حتفهم بأيدي اليهود ، حينما حاولوا الفرار من الحصار ، وكان نتيجة ذلك كله أن اضطر الأنباط إلى دفع جزية لـ « هيرودوس » ، وإذا كان ما زعمه المؤرخ اليهودي صحيحاً ، أو حتى قريباً من الصواب ، فليس هناك من ريب في أن

---

(١) تاريخ يوسفيوس ص ١٦٨ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣١١-٣١٢ ، جواد علي ٣/٣٥-٣٦ ،
وكذا The Jewish War, I, XVIII, 4, 1-4
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, P. 3-6 307.

قوة هيرودوس لم تكن وراء هذه الانتصارات ، وإنما كان السبب قوة الرومان الطاغية ، وجنود الأنباط غير المدربين[1] .

وجاء « عبادة الثالث » (٣٠-٩ ق.م) ، وربما لقي ميتة عنيفة على يد وزيره صالح (سيليئوس) الذي لقي نفس المصير في روما حوالي عام ٥ ق.م[2] ، وعلى أي حال ، فإلى عهد هذا الملك ترجع الحملة الرومانية على اليمن بقيادة « إليوس جالليوس » — الأمر الذي أشرنا إليه من قبل — وإنه لمن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هناك كتابة أثرية على تمثال لـ « عبادة الثالث » هذا ، تصفه « بالإلهي » ، مما يدل على أن الأنباط كانو يؤلهون ملوكهم بعد الموت[3] ، وربما كان الأنباط في ذلك يقلدون السلوقيين الذين لقبوا أنفسهم بلقب « ديوس Deos » أي « الإله » .

وخلف عبادة الثالث على عرش الأنباط « الحارث الرابع » ، لمدة تقارب نصف القرن من الزمان (٩ ق.م — ٤٠ م) وقد حمل لقب « رحم عم » أي المحب لأمته ، ولقب « ملك النبط »[4] ، ورغم أن الرجل كاد أن يفقد عرشه حين تولاة دون إذن من « أغسطس » (٢٧ ق.م — ١٤ م) ، قيصر روما ، إلا أن عهده كان عهد رخاء وسلام ، تابع فيه نشر الحضارة الرومانية ، كما كانت علاقاته بجيرانه اليهود في بادىء الأمر طيبة ، ومن ثم فقد زوج ابنته من « هيرودوس » حاكم اليهودية ، وابن هيرودوس الكبير ، إلا أن هيرودوس قد تجرأ بعد حين من الدهر ، فطلق إبنة الحارث الرابع ، ليتزوج من راقصة كانت السبب في مقتل « يوحنا المعمدان » .

ونقرأ في الإنجيل أن هيرودوس أراد أن يتزوج من « هيروديا » امرأة أخيه « فيلبس » ، إلا أن يوحنا المعمدان قد أفتى بغير ذلك ، ومن ثم فقد قرر هيرودوس

---

(١) جواد علي ٣٧/٣ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 306 وكذا Josephus, The Jewish War, I, P. 383.

(٢) F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 286 وكذا EI, 3, P. 801 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 121.

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٣ ، وكذا G.A. Cooke, op. cit., P. 244

(٤) J. Hastings, op. cit., 9, P. 121.

التخلص منه ، غير أنه خشي غضب القوم « لأنه كان عندهم مثل نبي »[1] ، ومن ثم فقد اكتفى بإلقائه في غياهب السجون ، وتنتهز هيروديا فرصة عيد ميلاد هيرودوس فتتفق مع ابنتها « سالومي » على أن ترقص شبه عارية لعمها الملك ، وحين تنتهي من رقصتها ، ويفتن الملك بها ، تطلب منه أن يعطيها رأس يوحنا في طبق ، وتفعل سالومي ما أرادت أمها ، وهنا يضطر الملك إلى تنفيذ رغبتها ، بناء على وعد منه أن يعطيها ما تريد ، أياً كان هذا الذي تريد[2] .

والأمر بهذه الصورة يحتاج إلى وقفة ، (فأولاً) ليس هناك من شك في أن يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) نبي من أنبياء الله المصطفين الأخيار ، (وثانياً) لماذا يمنع يوحنا هذا الزواج ، ومبلغ علمي أن اليهودية — دين هيرودوس — لا تمنع ذلك بل تفرضه على المؤمنين بها ، كما تفرض كذلك أن ينسب الأبناء من هذا الزواج الجديد إلى الأخ المتوفي[3] ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فإن المسيحيين إنما يفسرون الأحداث طبقاً لتعاليم دينهم ، وما كان هيرودوس مسيحياً ، وإنما كان ملكاً يهودياً على دولة يهودية ، فالتاريخ حتى تلك اللحظة لا يتعامل مع ملوك ، أو حتى شعوب مسيحية ، كما أن يحيى — أو يوحنا المعمدان ، كما يسمونه — لم يكن نصرانياً ،

---

(٢) ليس من شك في أن يوحنا المعمدان نبي من أنبياء الله الكرام ، وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وقد جاءت نبوته صريحة في القرآن الكريم (آل عمران آية ٣٩) وأما عصره فقد كان على أيام المسيح ، وربما على أيام القيصر أغسطس ، وقد كان يحيى يعمد القوم ، أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا (متى ٣ : ٥—٦) وقد عمد المسيح نفسه (متى ٣ : ١٣—١٦) .

(٢) متى ١٤ : ٣—١١ ، تاريخ يوسفيوس ص ٢١٤ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٠ ، ٤٢٢ . قارن : ابن الأثير ١/٣٠١—٣٠٢ ، تاريخ الطبري ١/٥٨٥—٥٩٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢/١٤٤ ، ولكن للأسف ، فإن المراجع العربية (ابن الأثير ، الطبري) مضطربة في تأريخها لهذه الفترة ، حتى أنها تذهب إلى أن الله — سبحانه وتعالى — قد سلط على اليهود « بخت نصر » (نبوخذنصر ٦٠٥—٥٦٢ ق.م) جزاءاً وفاقاً لما ارتكبروه في حق النبي الكريم سيدنا يحيى عليه السلام ، وأنه قتل منهم سبعين ألف رجل وامرأة حتى سكن دم يحيى ، مع العلم بأن العاهل البابلي كان يعيش في أخريات القرن السابع ، وحتي عام ٦٢ من القرن السادس قبل الميلاد ، وأن سيدنا يحيى عليه السلام كان يعيش بعد ذلك بحوالي ستة قرون ، حيث عاصر المسيح عليهما السلام .

(٣) تكوين ٣٨ : ٦—١١ .

حتى يفتي بشريعة النصارى ، إلا أن يكون السبب الوسيلة التي تزوج بها « هيرودوس » من « هيروديا » ، حيث تذهب بعض الروايات إلى أنه قتل أخاه « فيلبس » زوج هيروديا .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الحرب سرعان ما تدق طبولها بين اليهود والأنباط ، ولكن ليس بسبب قتل النبي الكريم ، وإنما بسبب زواج هيرودوس بأرملة أخيه ، وطلاق ابنة الحارث الرابع ، فضلاً عن اختلافهما على بعض مناطق الحدود ، وهكذا نشبت المعارك بينهما ، وانتهت بانتصار الحارث في « جلعاد » ، ومن ثم فقد استنجد « هيرودوس » بالقيصر « تيبيريوس » (١٤–٣٧م) الذي أمر عامله في سورية بالقضاء على الأنباط ، ولكن بينما كانت القوات الرومانية تتحرك نحو « البتراء » تأتي الأخبار بوفاة القيصر ، فتتوقف الحرب ، وينجو الحارث الرابع ، بل وتسوء حالة « هيرودوس »، فيضطر الرومان إلى تنحيته عن العرش ، ونفيه إلى أسبانيا[١] .

وإذا ما عدنا مرة أخرى إلى الإنجيل ، فإننا نقرأ أن دمشق كانت في يد الحارث الرابع ، وأن عامله هو الذي سعى إلى القبض على بولس الرسول ، الذي استطاع أن ينجو منه بأن تدلى من طاقة في زنبيل من السور[٢] ، وأما متى خضعت دمشق للحارث ، فربما كان ذلك حوالي عام ٣٧م ، وإبان الحرب التي استعر اوارها بينه وبين هيرودوس[٣] ، وربما بقيت تحت سيادة الأنباط ، في مقابل مبلغ يدفعونه للرومان .

وهناك عدد من النقوش جاء فيها ذكر الحارث الرابع ، ومنها (CIH, 11, 160, 197-217, 354) ، وترجع في تواريخها إلى السنوات ، الخامسة والتاسعة والثالثة عشرة والتاسعة والعشرين والأربعين والثالثة والأربعين ، من حكم هذا الملك ، وهي

(١) تاريخ يوسفيوس ص ٢١٣ ، جواد علي ٣/٤٣–٤٤
وكذا Josephus, Antiquities of the Jews, 18, V, 1.
(٢) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١١ : ٣٢ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 69.
(٣) J. Hastings, EB, P. 206.

نصوص تتحدث في أمور دينية مرة ، وفي أمور شخصية مرة أخرى ، وتذكر أسماء بعض الأفراد مرة ثالثة ، ومنها عرفنا أسماء بعض آلهة الأنباط مثل « دوشرا » و « منوتو » (مناة) و « قيشح[1] » ، وقد وصف الحارث في بعضها بـ « رحم عم » أي المحب لأمته ، كما جاء في بعضها أسماء بعض أفراد الأسرة المالكة ، مثل « شقيلة » ملكة الأنباط وزوج الحارث ، ومالك وعبادة ورب إيل ، فضلاً عن مجموعة أسماء كانت شائعة عند العرب قبل الإسلام ، مثل كهلان ووعلان وسعد الله ومرة وسكينة وحميد وحوشب وخلف وقين وتيم الله وجهلمة وعميرة ووهب[2] .

وخلف « مالك الثاني » (٤٠–٧١ أو ٧٥م) أباه الحارث الرابع[3] ، ويبدو أن الأنباط قد فقدوا على أيام هذا الرجل مدينة دمشق ، وإن كانت مجاوراتها من الناحية الشرقية والجنوبية الشرقية ظلت تحت السيادة النبطية[4] ، هذا وقد وصلتنا من عهد مالك الثاني عملات فضية وبرنزية ، نقشت عليها صورته وصورة زوجته التي وصفت بأنها «شقيقة الملك» ، مما يشير إلىأن بعض الملكات كن زوجات شقيقات للملوك الحاكمين ، متبعين في ذلك عادة البطالمة ، والذين نقلوها بدورهم عن الفراعنة ، وتشير كتابة أثرية على تمثال للملك عبادة بأن إحدى زوجات الحارث كانت أخته كذلك[5] ، ولعل ذلك كله — بجانب ظهور التماثيل النصفية المزدوجة للزوجين منذ عهد عبادة الثالث ، وحتى نهاية عهد الملكية — يشير إلى أن المرأة النبطية ، إنما قد وصلت إلى منزلة رفيعة أثناء عهد الملكية .

---

(١) جواد علي ٤١/٣ ، وكذا J. Hastings, ERE, 9, P. 121.
وكذا EI, 3, P. 801 وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 304
وكذا ZDMG, 1869, XXIII, P. 435.

(٢) جواد علي ٤١/٣–٤٣ ، وكذا REP, EPIG, 1, II, P. 44, II, III, P. 357
وكذا CIS, II, 354 وكذا G.A. Cooke, op. cit., P. 244
وكذا Pronvincia Arabia, I, P. 283.

(٣) جواد علي ٤٦/٣ ، وكذا J. Hastings, ERE, 9, P. 121. وكذا EI, 3, P. 801

(٤) N Glueck, op. cit., P. 542.

(٥) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٣ ، وكذا A. Kammerer, op. cit., P. 254

وهناك ما يشير إلى أن الملك النبطي قد اشترك بفرقة من جيشه ــ بلغ عددها خمسة آلاف من المشاة ، فضلاً عن ألف من الفرسان ، في الهجوم الذي شنه « تيتوس » في عام ٧٠م على أورشليم ، والذي انتهى آخر الأمر بتدمير المدينة المقدسة ، وبانتهاء اليهود ككيان سياسي له وزن في فلسطين[1] .

وجاء بعد مالك الثاني ولده « رب إيل » الثاني (سوتر Soter) وقد حكم في الفترة (٧٠ــ١٠٦م) أو (٧٥ــ١٠١م) [2] ، ويبدو أن حكمه كان تحت وصاية أمه « شقيلة » ، وأن أخاه « أنيس» (أنيشو) كان يساعد أمه في شئون الحكم ، وحينما بلغ الملك الصبي رشده ، تزوج من أخته «جميلة» التي نقشت صورتها بجانب صورته على إحدى العملات واستقل بالحكم[3] ، ويبدو أنه هو الذي وصف بأنه « الذي جلب الحياة والخلاص لشعبه[4] » .

ويبدو أن الظروف السياسية بدأت تتغير عند وفاة « رب إيل الثاني » ، ذلك أن الإمبراطورية الرومانية التي كانت قد ابتلعت الدويلات الصغيرة في سورية وفلسطين ، بدأت تعد العدة لجولة فاصلة مع « الفريتيين » ، ومن ثم فقد بدأ القادة الرومان يرون ضرورة إخضاع كل الدول التي كانت تفصل بينهم وبين أعدائهم ، وهكذا أمر « تراجان » (٩٨ــ١١٧م) نائبه في سورية « كورنيليوس بالما » في عام ١٠٦م ، بأن يزحف على البتراء ، وأن يضم دولة الأنباط إلى الإمبراطورية الرومانية ، وهكذا أصبحت تعرف فيما بعد باسم « المقاطعة العربية Provincia Arabia » ، وغدت « بصرى »[5] عاصمة لها ، بينما أخذت البتراء تتضاءل شيئاً فشيئاً ، حتى

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٣ ، وكذا Josephus, The Jewish War, III, 4, 2.

(٢) J. Hastings, ERE, 9, P. 121. وكذا EI, 3, P. 801

(٣) جواد علي ٤٨/٣ ، وكذا REP, EPIG, 468

(٤) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٢٤ ، وكذا A. Kammerer, op. cit., P. 255-6.

(٥) أنظر : فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣٢٣-٣٢٤ ، مكابيين أول ٥ : ٢٦ ، ٢٨ ، البكري ٢٥٣/١-٢٥٤ ، ياقوت ٤٤١/١-٤٤٢ .

أصبحت في القرن الثالث الميلادي مجرد مكان ضئيل الشأن ، وإن احتفظت بمكانها كمركز ديني مسيحي هام[١] .

على أن نشاط الأنباط الإقتصادي – رغم ضياع نفوذهم السياسي – لم يتوقف ، وظلوا يمارسون التجارة وقيادة القوافل بين مصر وبلاد العرب وموانىء البحر الأحمر ، وبخاصة تلك التي تواجه السواحل المصرية ، كما تدلنا على ذلك كتابات نبطية من سيناء ومن داخل مصر ، ومنها تلك الكتابة ، التي ترجع إلى عام ٢٦٦م[٢] ، وأخيراً فإن بعضاً من المستشرقين إنما يظن أن « عرب الحويطات » القاطنين في منطقة « حسمى » في شمال الحجاز ، إنما هم من بقايا النبط[٣] .

البتراء :

تعد البتراء واحدة من أشهر مدن العالم القديم ، كانت عاصمة لأدوم[٤] ، ثم صارت لمؤاب[٥] ، ومن بعدهم أصبحت عاصمة للأنباط ، وتقع إلى الشرق من وادي عربة، في منتصف المسافة تقريباً بين رأس خليج العقبة والبحر الميت ، أو على مبعدة خمسين ميلا إلى الجنوب من البحر الميت[٦]

والبتراء : كلمة يونانية تعني الصخر[٧] ، ولعلها ترجمة للكلمة العبرانية « سلع » التي جاءت في التوراة[٨] ، والتي كانت تطلق على البتراء من قبل[٩] ،

(١) N. Glueck, op. cit., P. 543. وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 214

(٢) E. Littmann, Nabataean Inscriptions from Egypt, P. 1.
وكذا H. Winckler, Rock-Drawings of Southern Upper Egypt I, London, 1938
وكذا جواد علي ٣/٤٩–٥٠ .

(٣) جواد علي ٣/٥٠ ، وكذا EI, I, P. 368, III, P. 802.

(٤) أنظر عن مؤاب وأدوم ، كتابنا إسرائيل ص ٣٤٢–٣٤٥ .

(٥) قاموس الكتاب المقدس ٥٢٨/١ .

(٦) جواد علي ٥٣/٣ .

(٧) Pliny, 2, P. 447.

(٨) أشعياء ١٦ : ١ ، ٤٢ : ١١ .

(٩) أنظر : كتابنا إسرائيل ص ٣٤٤ .

كما تعني كذلك «الشق في الصخر» ، وربما كانت التسمية العبرية أكثر دقة ، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف اليوم باسم « السيق » ، ولعله لفظ نبطي متوارث ، حرفه الناس عن « الشق » في السبئية القديمة[1] ، وعلى أي حال ، فإن العرب قد عرفوا هذه التسمية كذلك ، وقد ذكر ياقوت بأن « سلع » حصن بوادي موسى عليه السلام ، بقرب بيت المقدس[2] .

وأما الإسم العربي للبتراء فهو « الرقيم » ، وربما هو إسم ثان للبتراء كان الأغريق يعرفونها به هو « Arke » فحرفه العرب إلى الرقيم ، وربما أرادوا بالرقيم « خزانة فرعون » بالذات[3] ، وأما اسمها الحديث فوادي موسى[4] .

ونقرأ في التوراة أن « أمصيا » (٨٠٠–٧٨٣ ق.م) قد خلف أباه « يهواش » على عرش يهوذا ، وأنه حاول أن يسترد أدوم وسلع ، وقد نجح في الإستيلاء على الأخيرة ، ومن ثم فقد أطلق عليها إسم « يقتئيل » بمعنى « الخاضع لله »[5] .

وقد وصف « سترابو » البتراء بأنها عاصمة الأنباط ، ولا تبعد عن أريحا إلا بأربعة أيام ، وعن غابة النخيل بخمسة أيام ، وهي موضع غني بالمياه ، بل ربما كانت هي البقعة الوحيدة بين نهر الأردن وأواسط بلاد العرب ، التي كان يوجد فيها الماء الصافي بكثرة ، هذا ويشير سترابو كذلك إلى سكنى بعض الأجانب في المدينة ، ومنهم جمع من الروم[6] .

---

(١) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٢٤ ، لا نكستر هاردنج : آثار الأردن ص ١١٧ .

(٣) ياقوت ٢/٢٣٦ .

(٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٧٣ .

(٤) ياقوت ٥/٣٤٦ .

(٥) ملوك ثان ١٤ : ١–٧ ، وكذا A.B.W. Kennedy, op. cit., P. 78.
وكذا A. Lods, op. cit., P. 385-6 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 853
كذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 283.

(٦) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٨٧ ، جواد علي ٣/٥٤
وكذا Strabo, 16, 779 وكذا A. Kammerer, op. cit., P. 510
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 285.

ولقد ازدهرت البتراء في أخريات القرن الرابع ق.م ، واستمرت كذلك حوالي أربعة قرون ، كانت تشغل أثناءها مركزاً خطيراً على طريق القوافل ، الذي يقطع الصحراء واصلاً بين سبأ في الجنوب ، وثغور بحر الروم في الشمال[1] ، ويبدو أن ملوك الأنباط في أخريات أيام دولتهم قد أقاموا في أكثر الأحايين في « بصرى » ، ثم جاء الغزو الروماني للمدينة في عام ١٠٥م (أو ١٠٦م) ، فنقل مركز الثقل بصفة نهائية إلى بصرى ، وسرعان ما أخذت أهمية المدينة تتضاءل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت في ذمة التاريخ ، وأخيراً كشف عنها « بوركهارت » في عام ١٨١٢م[2] .

ولعل أهم آثار البتراء « خزانة فرعون » المنحوتة في الصخر ، ومعبد ربما بني في القرن الأول قبل الميلاد ، ويشبه إلى حد ما الكعبة في الجاهلية ، حيث كان يضم عدة أصنام على رأسها « دوشرا » (ذو الشرى) ، وكان يعبد على شكل حجر أسود مستطيل، ويعتبر إله الكرمة، وقد جيء به إلى أرض الأنباط في الحقبة الهلينية فاكتسب صفات « ديونيسوس » ، أما سيدة الآلهات عندهم فهي « اللات » التي اعتبرها « هيرودوت » «أفروديت» ، هذا وهناك كذلك « النجر » وهو جبل مقدس ، تمتد على مقربة منه مذابح لتقديم القرابين[3] .

وأخيراً ، فلعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — حينما خرج في السنة السادسة من الهجرة لغزو بني لحيان ، سار على غراب (جبل بناحية المدينة على طريق الشام) ثم على مخيض ثم على « البتراء »[4] ، هذا فضلاً عن أن ابن إسحاق قد ذكر من بين مساجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مسجد بطرف البتراء[5] .

---

(١) P. K. Hitti, op. cit., P. 67.

(٢) أنظر : J. L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, P. 418-34, (London, 1822).

(٣) The Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine, VII, 1938, Pl. 1. وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 72. وانظر كذلك : المشرق ، الجزء ٢١ عام ١٩٠٥ ص٩٦٥ وما بعدها ، فيليب حتى : المرجع السابق ص٤٢٨-٤٢٩ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص٨٩ وكذا Herodotus, BK. III, Ch. 8.

(٤) تاريخ الطبري ٥٩٥/٢ ، البكري ٢٢٤/١ ، ياقوت ٣٣٥/١ .

(٥) البكري ٢٢٤/١ ، ياقوت ٣٣٥/١ .

الفصل الخامس عشر

اللحيانيون

يختلف المؤرخون في أصل اللحيانيين هؤلاء ، فمنهم من يرى أنهم فرع من ثمود[1] ، بينما يرى آخرون أنهم من شعوب العربية الجنوبية ، بدليل ورود إسم لحيان في نص عربي جنوبي[2] ، وربما كان السكان يتألفون من طائفتين أولاهما من أهل البلاد الأصليين ، والثانية هي الجالية السبئية التي هاجرت من جنوب بلاد العرب ، وربما يفسر لنا هذا اضطراب التوراة بالنسبة إليهم فهي تعتبر « ددان » تارة من الكوشيين من جنوب بلاد العرب ، وتارة أخرى من الساميين من ولد إبراهيم من زوجته قطورة[3] .

وكانت العلا (أو الخريبة وهي جزء منها) مركزا للحيانيين ، وهي على أي حال مستعمرة معينية قديمة ، كما أنها القاعدة الشمالية القصوى للحضارة العربية الجنوبية ، وتقع في وادي القرى جنوب شرق حرة العويرض بين سلسلة من الجبال في الشرق والغرب ، وعلى مبعدة حوالي ١٥كم إلى الجنوب من مدائن صالح ، وكانت تسمى

---

(١) P. .K. Hitti, op. cit., P. 72.

(٢) جواد علي ٢/٢٤٤ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 93.

(٣) الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩٦ ، تكوين ١٠ : ٧ ، ٢٥ : ١-٤ .

على أيام النبي — صلى الله عليه وسلم — وادي القرى ، وأما الإسم القديم فهو « ددان » (ديدان) — كما جاء في التوراة وفي النصوص المعينية — وقد اختلف العلماء في مدلول هذه الكلمة ، فمنهم من رأى أنها إسم للمكان نفسه ، ومنهم من حاول أن يقرن بين هذا الأسم وبين إسم الإله « دد » ، الذي كان يعبد لدى الساميين الشماليين [1]

وقد اختلف الباحثون فيمن حكم هذه المنطقة أولاً : أهم الديدانيون أم المعينيون أم اللحيانيون ؟ ، فذهب فريق إلى أن الديدانيين إنما كانوا هم السابقون ، وأنهم قد حكموا فيما بين القرنين السادس والخامس ق.م ، على رأي ، وفي حوالي عام ٥٠٠ ق.م على رأي آخر ، وفي عام ١٦٠ ق.م ، على رأي ثالث ، ثم جاء المعينيون وانتزعوا الحكم منهم [2] ، على أن فريقاً آخر إنما يذهب إلى أن المعينيين إنما كانوا هم السابقون ، وأن اللحيانيين قد ورثوا سلطتهم هناك ، مكونين دولة مستقلة — هي دولة لحيان [3] — والتي امتد نفوذها على الأرض الممتدة غربي النفود ، من شمال يثرب إلى ما يحاذي خليج العقبة [4] ، بل إن هناك من يرى أنها قد امتدت حتى شملت نجداً ووصلت إلى الأحساء ، ويعتمد أصحاب هذا الاتجاه على محاولة الجمع بين إسم الإله « ذو خرج » — وهو أحد معبودات اللحيانيين — وبين إله مدينة « الخرج » ، على أساس أن مدلول الكلمتين واحد ، وهو الخصوبة وكثرة المياه ، ولكن توارد الأسماء متشابهاً بين مكان وآخر ، وبين معبود وإسم مكان ،

---

(١) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٠٣ ، عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ٧٩/١ (١٩٧٥) ، تكوين ١٠:٧ ، ٢٥:٣ ، أشعياء ٢١:١٣—١٥ ، إرمياء ٢٥:٢٣ ، ٤٩:٨ ، حزقيال ٢٥:١٣ ، ٢٧:٢٠

وكذا W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, P. 44.

(٢) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ٧٩/١ ، جواد علي ٢٤٣/٢ ، ٢٤٦ وكذا

وكذا BASOR, 73, 1939, 119, 1953, P. 23.

وكذا Le Museon, 1938, 51, P. 307.

(٣) جواد علي ٢٤٥/٢ وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 94.

وكذا A. Musil, The Northern Hegas, P. 29.

(٤) F.V. Winnet and W. Reed, op. cit., P. 116F.

لا يمكن أن يقوى كدليل على اتساع مملكة لحيان ، ومع ذلك ، فليس من المستبعد أن يكون نفوذها التجاري قد اتسع حتى شمل هذه المنطقة ، كما لا يستبعد كذلك وجود جاليات لحيانية عاشت فيها حفاظاً على الطريق التجاري في شمال الحجاز ، أما اتساع مملكة لحيان شمالاً ، فمن المحتمل أن يكون قد وصل إلى البتراء ، إذا أخذنا تسمية خليج العقبة بخليج لحيان في الاعتبار[١] ، والذي حرف فيما بعد إلى « لات » أو « إيلات »[٢] .

وعلى أي حال ، فإن تسمية خليج العقبة باسم «خليج لحيان» ، إنما يدل على أن لحيان أو اللحيانيين — والذين ذكرهم « بليني » تحت إسم « لخيني »[٣] — لم يكونوا يسيطرون على طريق التجارة البري فقط ، بل كانوا يسيطرون كذلك على الطريق البحري إلى «إيلات» ، وأن البحارة والتجار الإغريق كانوا يدفعون الجزية للجباة من لحيان[٤] .

وكانت تجارة اللحيانيين مع مصر في الدرجة الأولى ، ومن ثم فقد كانت علاقاتهم بها جداً وثيقة ، فتأثروا بالثقافة اليونانية التي كانت منتشرة في مصر وقت ذاك ، حتى أنهم سموا ملوكهم بأسماء يونانية مثل « تخمى » و « بتحمى » و « تلمى » التي أخذت من بطليموس[٤] ، بل إن هناك من يذهب إلى أن الدولة نفسها ، إنما قامت على أيام بطليموس الثاني (٢٨٤—٢٤٦ ق.م) ، وبتشجيع من الحكام المصريين أنفسهم ، وذلك للضغط على الأنباط[٦] ، الذين كانوا في منافسة تجارية مع البطالمة — كما أشرنا من قبل — انتهت بسيطرة مصر على الساحل العربي للبحر الأحمر .

---

(١) عبد الرحمن الطيب الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٢) F. V. Winnet and W. Reed, Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970, P. 116·F.

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب — الجزء الأول ص ٤ ، وكذا Pliny, VI, 23.

(٤) الويس موسل : المرجع السابق ص ٩٩ .

(٥) جواد علي ٢/٢٤٤—٢٤٥ ، وكذا W. Caskel, op. cit., P. 39.

(٦) EI, 3, P. 26. وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 104.

هذا وقد اختلف المؤرخون في التأريخ لدولة لحيان ، فذهب فريق إلى أنها إنما كانت فيما بين بداية القرن الخامس ونهاية القرن الثالث ق.م[1] ، وذهب فريق آخر إلى أنها إنما كانت فيما بين القرن الثاني قبل الميلاد (حوالي عام ١٦٠ ق.م)[2] وبين نهاية القرن الثالث بعد الميلاد[3] ، بل إن الذين ذهبوا إلى أنها إنما كانت بتشجيع البطالمة ، حددوا الفترة مابين عامي ٢٨٠ ، ٢٠٠ قبل الميلاد لقيامها[4] ، وأن نهايتها إنما كانت على يد الأنباط الذين استولوا على « الحجر » في عام ٦٥ ق.م ، و « ديدان » في عام ٩ ق.م[5] ، وربما كان سندهم في ذلك شاهد قبر عثر عليه في العلا ، يرجع إلى أيام الملك النبطي الحارث الرابع (٩ ق.م — ٤٠ م) ، وكذا عدم إشارة « سترابو » إلى مملكة لحيانية أثناء حديثه عن حملة « إليوس جالليوس » إلى اليمن في عام ٢٤ ق.م، فضلا عن أن حديثه عن دولة الأنباط قد يشير إلى أن دولتهم قد امتدت حتى يثرب[6] .

وعلى أي حال ، فإن هناك من يرى أن نهاية دولة لحيان إنما كانت على أيدي المعينيين ، وأن ذلك كان فيما بين نهاية القرن الثالث ، والقرن الأول قبل الميلاد ، وإن كان هذا لا يعني نهاية اللحيانيين ، فإن هناك — في رأي هذا الفريق من العلماء — إتفاقاً بين الطرفين على أن يكون للمعينيين إدارة النواحي التجارية ، وللحيانيين الناحية الإدارية وتنظيم شئون الحكم ، ويستدل على ذلك من أن شخصية معينية قدمت قرباناً للمعبود اللحياني « ذو غبت » (صاحب الغابة) ، وإن كنا لا نستطيع أن نستدل من ذلك على استمرار دولة لحيان ، فأمر كهذا لا يعني أكثر من أن بعض

---

(١) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٢) جواد علي ٢/٢٤٥ .

(٣) جواد علي ٢/٢٤٧ وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 95 وكذا CIH, 2, I, 232. وكذا W.Caskel, op. cit., P. 35

(٤) جواد علي ٢/٢٤٦ ، وكذا EI, III, P. 26.

(٥) جواد علي ٢/٢٤٦ ، وكذا W. Caskel, op. cit., P. 35.

(٦) جواد علي ٢/٢٤٧ وكذا CIH, II, I, 332. وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 95.

الولاة إنما يقومون بمشاركة الشعب الذي يحكمونه ، وخاصة إذا ما كان مفهوم هذا المعبود يتفق مع مفهوم أحد معبودات الحاكم في العصور القديمة[1] .

هذا وقد عثر في العلا على ما يقرب من أربعمائة نقش لحياني ، غير أن الكثرة المطلقة منها عبارة عن مخربشات صغيرة ، وبعضها — كما هو الحال في النقوش العينية الشمالية — عبارة عن أجزاء صغيرة من نقوش ، وجدت في غير أماكنها الأصلية ، وقد استخدم القوم حجارة هذه النقوش أخيراً كمواد للبناء ، حيث نجدها في جدران المنازل وأسوار الحدائق في العلا الحالية ، ومن ثم فنصوص هذه أوضاعها لا يمكن الإفادة منها كثيراً ، لذا لم يتمكن إلا قليل من العلماء من ترجمة بعض جملها ، وإن كان من حسن الحظ أننا وجدنا فيها بعض أسماء الملوك والآلهة ، فضلاً عن الفائدة اللغوية والثقافية لهذه النقوش[2] .

وأما الكتابة اللحيانية ، فكتابة محلية حروفها سامية جنوبية ، وقريبة جداً من الكتابة العربية الجنوبية والحبشية ، أما اللهجة فعربية شمالية ، وهي أيضاً سامية جنوبية ، وأما عصرها ، فلن يكون أحدث من القرن الخامس أو السادس ق.م ، وعلى أي حال ، فرغم أن البعض يعتقد أنها مسيحية ، فمن الثابت أنها عربية جاهلية وضعت قبل ظهور الإسلام[3] .

وقد قدمت لنا هذه النقوش بعض أسماء ملوك لحيان ، منها « هنوس بن شهر » و « ذو أسفعين تخمى بن لوذان » الذي يرجع حكمه إلى النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، وقد أنشأ بيتاً للإله « ذو غابت » إله لحيان ، كما نعرف من النص (JS, 85) الذي يذكر كذلك الملك « شامت جشم بن لوذان »[4] .

---

(١) عبد الرحمن الطيب الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية — مجلة الدارة ، العدد الأول ، مارس ١٩٧٥ ص ٨٠ ، قارن : الويس موسل : شمال الحجاز ص ٩٨—٩٩ .

(٣) ديتلف نلسن : التاريخ العربي القديم ص ٤٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٣—٤٤ .

(٤) جواد علي ٢/٢٤٨ ، وكذا W. Caskel, op. cit., P. 41, 88-90

ونقرأ في النص (JS, 85) أن معبد المدينة قد أصيب بهزة أرضية في عهد الملك « منعى لوذان بن هانؤاس) – والذي حكم فيما بين عامي ٣٥–٣٠ ق.م ، فيما يرى كاسكل – وقد كانت تلك الهزة من القوة بحيث سقط سقف المعبد على أعضاء مجلس المدينة (هجبل – هاجبل) الذين كانوا مجتمعين في المعبد وقت الحادث ، ثم قتل أكثرهم ، وأن القوم لم يتمكنوا من إعادة بناء المعبد ، إلا بعد فترة طويلة ، فيما بين عامي ١٢٧ ، ١٣٤ م ، مما يدل على الحالة الإقتصادية السيئة التي كانت تمر بها البلاد ، فضلاً عن الإضطرابات ، وضعف الحكومة[١] .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا المعبد ، الذي يقع في الخريبة الحالية ، والذي أشار إليه « جوسين وسافينياك » قد وجدت فيه تماثيل بطول الإنسان لملوك لحيان ، كسر بعضها أهل العلا أنفسهم ، وأنقذ البعض الآخر ، وإن كنا لا نعرف مكانها الآن ، وعلى أي حال ، فهذه التماثيل متأثرة بالنحت الفرعوني في النصف الأعلى من الجسم ، ومن حيث اللبس ، ولكنها تحمل الطابع العربي المتمثل في شكل الوجه ، وما وضع على الرأس مما يشبه العقال والعمامة[٢] .

ويذهب « كاسكل » إلى أن الأنباط قد استولوا على « الحجر » في عام ٦٥ ق.م ، ثم ساروا منها إلى « تيماء » ، ثم قطعوا كل اتصال للحيانيين بالبحر ، فاستولوا على ميناء « لوكى كومه » التابع للحيانيين ، وأحاطوا بهم من كل الجهات ، كما يبدو أن الطريق التجاري قد غيّر اتجاهه بفعل النبطيين في جنوب الحجر ، فكان يمر على مسافة سبعة كيلات إلى الشرق من واحة ديدان القديمة ، وهكذا تم القضاء على البقية الباقية منها ، ثم أخضعوها لنفوذهم ، وإن عاد السلطان مرة أخرى للحيانيين بعد سقوط البتراء على أيدي الرومان في عام ١٠٦م[٣] ، والذين مدوا نفوذهم إلى منطقة تبعد عشرة كيلومترات إلى الشمال من ديدان[٤] .

---

(١) جواد علي ٢٤٩/٢ ، وكذا W. Caskel, op. cit., P. 41-2.

(٢) عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨١ .

(٣) جواد علي ٢٥٠/٢ ، وكذا W. Caskel, op. cit., P. 42.

(٤) جواد علي ٢٥٣/٢ ، قارن : P. K. Hitti, op. cit., P. 72.

على أن الأمر . إنما كان جد مختلف بالنسبة إلى سلطة الملوك ، إذ انتقلت سلطاتهم إلى مجلس المدينة . ومن ثم فقد بدأ القوم لا يهتمون كثيراً بتسجيل أسماء الملوك في كتاباتهم[1] ، بل إن النصوص من هذه الفترة إنما تدل على اضطراب في الأمور . وعلى حكم غير مستقر ، وعلى سلطة غير وطيدة الأركان ، ويذهب « كاسكل » إلى أن النصوص قد تشير كذلك إلى هجوم حبشي على طول سواحل البحر الأحمر العربية[2] ، يرى بعض العلماء أنه ربما وقع على أيام ملك أكسوم (Sembruthes) فيما بين نهاية القرن الرابع ، وبداية القرن الخامس الميلادي[3] .

هذا وقد عثر على كتابات عبرية ونبطية في وادي « ددان » (ديدان في الترجمة السبعينية[4]) ، ترجع إلى حوالي عام ٣٠٠م ، وما بعدها ، مما يدل على أن قوماً من يهود ، فضلاً عن قوم من النبط ، أو ممن يتكلمون بالنبطية ، قد استقروا في هذه المنطقة ، وعلى أي حال ، فإن اليهود كانوا قد بدأوا يهاجرون إلى الحجاز منذ القرن الأول والثاني بعد الميلاد ، حتى إذا ما ظهر الإسلام كان معظم سكان وادي القرى إلى يثرب من يهود[5] .

وأما الدين اللحياني ، فهو دين عربي جنوبي ، كما يتبين من أسماء الآلهة وأسماء الأفراد ، ومن ثم فإننا نجد إلى جانب الأسماء السامية المشتركة لبعض المعبودات — مثل «إل» .. أسماء آلهة سامية جنوبية مثل «ود وسميع ونسر ومناة» ، أما كبير الآلهة اللحيانية فهو « ذو غابت » ، وقد كان له معبد عثر على أنقاضه في خرائب المدينة ، كما عثر على إسم إله آخر هو « سلمان » الذي كان يكنى « أبا إيلاف » ، وهو إله القوافل الذي كان يتولى حمايتها وحراستها في ذهابها وإيابها ، وهناك كذلك الإله

---

(١) W. Caskel, op. cit., P. 43.

(٢) جواد علي ٢/٢٥٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥٣ وكذا F. Altheim and R.Stiehl, op. cit., P. 100.

(٤) أونظر عن الترجمة السبعينية للتوراة ، كتابنا « إسرائيل » ص ٤٨—٥٠ .

(٥) جواد علي ٢/٢٥٦
وكذا W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, Koln und Opladen, 1954, P. 44.

« كاتب » ، والذي يرى فيه « كاسكل » الإله المقابل للإله «تحوت» ، إله الكتابة والحكمة عند المصريين القدامى[١] .

وعلى أي حال ، فلقد انتهت دولة اللحيانيين في فترة لا نعرفها على وجه التحقيق ، بل لا نعرف كذلك كيفا نتهت ، ومن الذي قضى عليها ؛ وإلى أين ذهب اللحيانيون بعد سقوط دولتهم ، فربما عاد معظمهم إلى البادية ، واندمج في قبائلها[٢] ، وربما اتجه فريق منهم — كما تذكر المصادر العربية — إلى العراق ، وتركزوا في الحيرة ، ومن هنا رأى البعض أن « أوس بن قلام » منهم ، وأنه حكم الحيرة حيناً من الدهر[٣] ، وربما بقوا في نفس منطقتهم ، كما نفهم من الأحداث التي جرت عند ظهور الإسلام.

ويروي الأخباريون أن القوم من « بني لحيان بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر » ، فهم عدنانيون ، كانوا ينزلون في شمال شرقي مكة ، ويبدو أنهم لم يكونوا من القبائل القوية عند ظهور الإسلام[٤] .

وتروي المصادر العربية أن اللحيانيين كانوا على خلاف مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — في بدء الدعوة ، وأنه — صلوات الله وسلامه عليه — قد قام بغزوهم في السنة السادسة من الهجرة (٦٢٨م) في ديارهم ، بين أمج وعسفان ، فاعتصموا برؤوس الجبال ، وهجم الرسول — صلى الله عليه وسلم — على طائفة منهم على ماء لهم ، يقال له « الكدر » فهزموا وغنم المسلمون أموالهم[٥] ، وربما كان ذلك بسبب غدرهم « بمرثد بن أبي مرثد الغنوي » وصحبه ، فيما عرف بغزوة الرجيع في السنة الرابعة من الهجرة[٦] (٦٢٥م) .

---

(١) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، محمد أنور شكري ، القاهرة ١٩٥٢ ص ٦٧—٦٨ ، جواد علي ٢/٢٥٦—٢٥٧ ، ديتلف نلسن : المرجع السابق ص ٤٤ ، وكذا Urk, IV, P. 53.

(٢) جواد علي ٢/٢٥٥ ، وكذا W. Caskel, op. cit., P. 44.

(٣) المحبر ص ٣٥٨ ، وكذا W. Caskel, op. cit., P. 44.

(٤) المعارف ص ٣١ ، الاشتقاق ١/١٠٩ ، تاج العروس ١٠/٣٢٤ .

(٥) تاريخ الطبري ٢/٥٩٥ ، ابن الأثير ٢/١٨٨ ، ابن كثير ٤/١٤٩ ، المحبر ص ١١٤ .

(٦) ابن الأثير ٢/١٦٧—١٦٨ ، المحبر ص ١١٨ ، تاريخ الطبري ٢/٥٣٨—٥٤٢ ، ابن كثير ٤/٦٢—٦٩ ، وكذا EI, III, P. 26-27.

الفصل السادس عشر

التدمريون

(١) مدينة تدمر وتطورها التاريخي :

تقع مدينة تدمر على مبعدة ١٠٠ كيلومتراً من حمص ، ١٥٠ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من دمشق ، في منتصف المسافة تقريباً بين دمشق والفرات[١] ، ومن ثم فقد كانت موقعاً هاماً على الطريق التجاري بين العراق والشام ، بل كانت نقطة التقاء التجارة القادمة من أسواق العراق ، وما يتصل بها من أسواق في إيران والهند والخليج والعربية الشرقية ، وبين تلك التي على البحر المتوسط ، وبخاصة في الشام ومصر ، فضلاً عن اتصالها بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال أفريقية والعربية الجنوبية والهند . وهكذا أصبحت « تدمر » ملتقى جميع القوافل ، وبخاصة فيما بين القرن الأول قبل الميلاد ، وعام ٢٧٣م ، ومن ثم فقد وجد في نقوشها عبارة « زعيم القافلة » و « زعيم السوق » ، باعتبار أن المشار إليه من زعماء المواطنين[٢]

---

(١) EB, 17, P. 161.

(٢) جواد علي ٨١/٣ ، تارن : مروج الذهب ٢٤٤/٢-٢٤٥ ، وانظر :
P. K. Hitti, op. cit., P. 73.
وكذا G. A. Cooke, op. cit., P. 274, 279.

وإسم « تدمر » إسم سامي ، يرجع ظهوره للمرة الأولى إلى أيام الملك الأشوري « تجلات بلاسر » الأول (١١١٦—١٠٩٠ ق.م) في صورة « تدمر أمورو »[١] ، وأما إسم « تدمر » فهو النطق الآرامي لكلمة « تتمر » العربية ، ومعناها المدينة التي يكثر فيها التمر والنخيل[٢] ، وإن كنا على غير يقين من اشتقاق كلمة « تدمر » ؛ وربما كان لها صلة بكلمة « تدمورتا » (Tedmorta) السريانية ، ومعناها « يعجب من »[٣] .

وقد ورد اسم « تدمر » في المصادر اليهودية ، فكاتب الحوليات العبراني يسجل في التوراة ، أن سليمان قد بنى مدينة تدمر في البرية[٤] ، والأمر كذلك بالنسبة إلى المؤرخ اليهودي « يوسف بن متى »[٥] ، وليس من شك في أن وجهة النظر اليهودية هذه خاطئة ، ذلك لأن المدينة — كما أشرنا آنفاً — إنما ذكرت في الوثائق الآشورية قبل أن يولد سليمان نفسه ، وبفترة تسبق ما دون في التوراة بشأنها ، بأكثر من سبعة قرون[٦] .

ومن هنا فقد رأى العلماء أن الرواية التي تذهب إلى أن سليمان هو الذي بنى تدمر ، إما أنها أرادت تعظيم شأن مملكة سليمان كعادة الروايات اليهودية — وكأن مكانة النبي الكريم لا تأتي إلا ببناء المدن واتساع مملكته ، وليست برسالته السماوية — ومن ثم فقد نسبت اليه بناء هذه المدينة ، التي تقع في منطقة بعيدة عن حدود دولته

---

(١) D. D. Luckenbill, op. cit., I, 287, 308.
وكذا E. Dhorme, Palmyra dans les Assyriens, RB, 1924, P. 106
وكذا EB, 17, P. 161. وكذا EI, 3, P. 1020.

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٣ .

(٤) ملوك أول ٩ : ١٨ ، أخبار أيام ثان ٨ : ٤ .

(٥) EI, III, P. 1020. وكذا F. Hommel, ZDMG, XIIV, 547
وكذا E. Dhorme, op. cit., P. 106.

(٦) أنظر عن تاريخ كتابة أسفار التوراة كتابنا « إسرائيل » ص ٢٣—٣٤ .

إسرائيل[1] ، وأما أن هناك خطأ وقع فيه كاتب الحوليات العبراني حين خلط بين « ثامار » التي أسسها سليمان ، وهي موضع جاء ذكره في سفر حزقيال[2] ، ويقع إلى الجنوب الشرقي من «يهوذا» ، وإن كنا لا ندري موقعه الآن على وجه التحقيق[3] ، وربما كانت الشهرة التي اكتسبتها « تدمر » على أيام كتبة الأسفار العبرانيين هي السبب في نسبة بنائها إلى النبي الكريم ، ومن ثم فقد ذهب هؤلاء الكتبة إلى أن المدينة التي بناها سليمان ، ليست هي « ثامار » ، وإنما « تدمر » والتي كانت مدينة عامرة بسكانها ، وذات شهرة في مجاوراتها فيما بين عامي ٣٠٠ ، ٢٠٠ ق.م[4] .

وأما الإسم اليوناني للمدينة فهو « بالميرا » « Palmyra » ، وهي ترجمة لكلمة « ثامار » العبرية ، وتعني مدينة النخيل ، وإن كان هناك من يرى أن كلمة (Palmyra) من كلمة (Palma) بمعنى النخل حتى الآن في بعض اللغات الأوربية ، وأن الإسكندر المقدوني هو الذي أطلق عليها إسم (Palmyra) بعد أن استولى عليها ، بسبب ما يكتنفها من غابات النخيل ، ومن ثم فقد عرفت عند اليونان واللاتين بهذا الإسم ، وهو رأي ما يزال بعد في مرحلة التخمين ، ويحتاج إلى ما يدعمه من أدلة وبراهين[5] .

وهناك ما يشير إل وجود نفوذ سلوقي في تدمر ، وربما كانت من نصيب السلوقيين بعد وفاة الأسكندر الأكبر في عام ٣٢٣ ق.م ، وتتسيم أمبراطوريته بين قواده ، وعلى أي حال ، فهناك حصن سلوقي في المدينة ، وربما أقيم في عام ٢٨٠ ق.م ،

---

(١) جواد علي ٧٧/٣ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٢ — وكذا EB, P. 4886 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 889

(٢) حزقيال ٤٧ : ١٩ .

(٣) جواد علي ٧٧/٣ ، قاموس الكتاب المقدس ٢٨٢/١ .

(٤) جواد علي ٧٨/٣ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 344 وكذا J. Hastings, op. cit., P. 889

(٥) عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٢٢ ، وكذا EI, III, P. 1020.

كواحد من سلسلة الحصون التي أقامها القوم في المناطق الإستراتيجية التي خضعت لهم [١] .

أما الروايات العربية فلا تفيد علماً ، ولا تصلح أن تكون دليلاً ، فهي روايات متأخرة دخلت إلى المسلمين من أهل الكتاب ، فأخذوها بغير تحقيق ولا تدقيق [٢] ، فضلاً عن أن ضخامة آثار المدينة وعظمتها ، ربما أدهشتهم ، ومن ثم فقد نسبوا بناءها إلى الجن بأمر من سليمان عليه السلام [٣] ، على أن « ياقوت الحموي » إنما يستبعد نسبة تدمر إلى سليمان ، معللاً ذلك بأن أهلها إنما يزعمون أنها ترجع إلى ما قبل عهد سليمان ، بفترة تقارب ما بيننا وبينه ، وأن الناس إذا ما رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه ، أضافوه إلى سليمان وإلى الجن [٤] .

ومع ذلك فهناك من يقدم لنا أبياتاً من شعر «النابغة الذبياني» ، يذهب فيه إلى أن المدينة من بناء جن سليمان ، وفات أصحاب هذا الزعم أن النابغة لم يكن عالماً من علماء التاريخ والآثار ، حتى يكون شعره حجة في بناء مدينة يرجع ظهورها في التاريخ إلى أخريات القرن الثاني عشر ، أو الحادي عشر قبل الميلاد ، ثم من أدرانا أن هذا الشعر للنابغة الذبياني حقاً ، فإن من نسبوا شعراً إلى آدم وهابيل وقابيل ، وإلى الجن وإبليس ، أليسوا بقادرين على وضع شعر على لسان النابغة الذبياني [٥] ، وأما قصة بناء المدينة بأمر من امرأة تدعى «تدمر بنت حسان بن اذينة » ، فليست إلا من هذا النوع من الكتابات التي ملأ الأخباريون بها صفحات كتبهم [٦] .

---

(١) جواد علي ٨٥/٣ ، وكذا Freya Sterk, Rome on the Euphrates, 1967, P. 242.
(٢) جواد علي ٧٨/٣ .
(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٣ ، بلوغ الأرب ٢٠٩/١-٢١٠ ، ياقوت ١٧/٢-١٩ ، البكري ٣٠٦/١-٣٠٧ ، صحيح الأخبار ٦/٢-٧ ، قارن : مروج الذهب ٢٤٤/٢-٢٤٥ .
(٤) ياقوت ١٧/٢ ، قارن : الأخبار الطوال ص ٢٠ .
(٥) جواد علي ٧٩/٣ ، صحيح الأخبار ٦/٢ ، بلوغ الأرب ٢٠٩/١-٢١٠ ، المشرق ، العدد ١١ ، عام ١٨٩٨م ص ٤٩٦ ، ياقوت ١٧/٢ .
(٦) البكرر ٣٠٧/١ ، ياقوت ١٧/٢ .

ولعل « بليني » (٣٢-٧٩م) أول الكتاب الكلاسيكيين الذين أشاروا إلى تدمر ، فوصفها بأنها مدينة شهيرة ذات موقع ممتاز ، وأرض خصبة ، وأن بها عيوناً وينابيع ، وتحيط بحدائقها الرمال ، وأنها تقع بين الأمبراطورية الرومانية والفارسية ، ومن ثم فقد اضطر أهلها — ضماناً لاستقلالهم — أن يقفوا موقف الحياد بين هاتين القوتين المتصارعتين ، ثم تابع « بليني » من جاء من بعده من الكتاب ، مما يدل على أن شهرة المدينة كانت في ازدياد[1] .

وأما أقدم كتابة عثر عليها في المدينة ، فإنما ترجع إلى شهر نوفمبر من السنة التاسعة قبل الميلاد[2] ، وإن كان قد عثر في مدينة « دورا » — وتقع في مكانها الصالحية الحالية — على العرات الأوسط تجاه تدمر ، على نقش يعتبر من أقدم النقوش التدمرية التي كشف عنها حتى الآن — ويرجع إلى عام ٣٣ ق.م[3] ، وفي هذا الوقت كانت تدمر مركزاً تجارياً خطيراً بين دولتي الروم والفرس ، ومع ذلك فإن أكثر ما تعرفه عنها إنما يرجع إلى ما بعد الميلاد ، حيث لدينا نصوص إلى عام ٢٧١م[4] .

وليس من شك في أهل تدمر كانوا عرباً — شأنهم في ذلك شأن الأنباط في البتراء — بدليل وجود بعض المصطلحات والكلمات العربية الأصيلة في كتاباتهم ، كما أن أسماء الأصنام عندهم عربية ، والأمر كذلك بالنسبة إلى أسماء الأعلام ، ومن ثم فقد رأى بعض العلماء أنهم من القبائل العربية التي أخذت تستولي على المناطق الخصبة في شرق الأردن ، عقب إنهيار الدولة البابلية الحديثة ، وسقوط بابل تحت السيادة الفارسية في عام ٥٣٩ ق.م ، ثم أخذت تستعمل الآرامية — وهي لغة الكتابة والثقافة في غرب الفرات وقت ذاك — لغة لها ، ومع هذا فإن لغتهم هذه ، ليست إلا

---

(١) W. Wright an Account of Palmyra and Zenibia with Travels and Adventures in Bashan and the Desert, P. 110.
وكذا Pliny, V, XXI, 88 وكذا EB, P. 4886

(٢) جواد علي ٨١/٣ ، حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٥
وكذا G. A. Cooke, op. cit., P. 141.

(٣) CAH, IX, P. 599.

(٤) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٥ .

لهجة من اللهجات الآرامية العربية ، وأنها لا تختلف كثيراً عن لغة الأنباط ، وعن الأرامية المصرية(١) .

ومع ذلك فإن اللهجة الآرامية التدمرية لها مميزات بررت أن يختصها بعض الباحثين بدراسة لغوية منفصلة ، ومن أشهر هذه الدراسات كتابات المستشرق الفرنسي « كانتنيو »(٢) ، وقد طور التدمريون الكتابة الآرامية ، وعنهم انتقلت إلى السريان في « الرها » فظهر منها الخط السرياني القديم المعروف باسم « الخط السرنجيلي » الذي ظهر بعد الإنشقاق المذهبي بين سريان الرها في عام ٤٨٩م ، ثم ظهور لهجة غربية تسمى اليعقوبية ، وشرقية تسمى النسطورية(٣) .

وأما الثقافة التدمرية ، فكانت مزيجاً من الثقافات العربية والآرامية واليونانية واللاتينية ، ذلك لأن تدمر — كما كانت البتراء من قبل — قد نمت في ظل حضارة الأراميين ، واتخذت لغتهم ، فضلاً عن المبادىء الأساسية في تفكيرهم الثقافي والديني ، هذا في الوقت الذي أخذت فيه كذلك كثيراً عن دنيا اليونان والرومان(٤) .

هذا ، وقد قامت كذلك في تدمر جالية يهودية ، منذ وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين ، فربما كان ذلك قبل سقوط القدس في أيدي الرومان على أيام الأمبراطور « فسباسيان » (٦٩—٧٩م) ، ثم عمل هؤلاء اليهود بالتجارة وربما نشطوا في تهويد بعض السكان ، وأن فريقاً من هؤلاء اليهود ، ربما رجعوا إلى القدس قبل تدميرها — المشار اليه آنفاً — على يد « تيتوس » في عام ٧٠م(٥) .

---

(١) محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ص ٣٤٢—٣٤٣
وكذا R. Ghirshman, Iran, 1954, P. 131-132 وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 76
وكذا EB, 17, P. 161
وكذا A.T. Olmstead, History of the Peresian Empire, Chicago, 1970, P.50-51.
(٢) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١١٥ ، وكذا
J. Cantíneau, Grammaire du Palmyrenien Epigraphique, le Caire, 1935.
(٣) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١١٥—١٢١ .
(٤) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٠٣ .
(٥) جواد علي ٨٤/٣ ، وكذا UJE, 8, P. 381

وعلى أي حال ، فلقد بدأت تدمر تزداد قوة وشهرة منذ النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، بسبب الأهمية التجارية والدبلوماسية لموقعها بين امبراطوريّي الفرس والروم المتنافستين ، ثم ساعد موقعها الجغرافي على عدم تمكن أي من الفريقين المتنازعين من سهولة الإستيلاء عليها[1] ، وقد حاول « مارك أنطونيو » عام ٤١ ق.م ، الإستيلاء على خزائن المدينة ففشل ، وإن أصابها منه ضرر كبير[2] ، بيد أن مدينة مهمة كتدمر ، لها مال وثروة ، وليس لها جيش قوي ضخم ، ولا مجال لتكوين هذا الجيش فيها ، لايمكن أن تبقى في مأمن ومنجاة من مطامع الغزاة ، ولو كانت في بقعة منعزلة ، أو في بادية بعيدة[3] .

ومن هنا ، فإن تدمر — على الأرجح — قد اعترفت بنوع من السيادة عليها للرومان ، منذ وائل العصور المسيحية ،ودليلنا على ذلك المراسيم الإمبراطورية التي ترجع إلى عهد «تيبيريوس» (١٤—٣٧م)[4] ، والتي تتعلق بالرسوم الجمركية ، وقد عثر في تدمر على قوائم ترجع إلى عام١٧م ، وتبيّن بعض الرسوم على البضائع وأثمانها باليونانية والتدمرية[5] ، هذا ويبدو أن تدمر قد أصبحت على أيام « فسباسيان » تحت الإشراف الروماني ، وإن كان هذا لا يعني الخضوع لروما ، أو أن الإشراف على الشئون المدنية بالمدينة كان بأيدي الرومان ، وإنما كان هناك إشراف رومي عام على المدينة ، بدليل أن الروم قد سمحوا للمدينة بحق الاحتفاظ بحامياتها (Militia) في خارج تدمر[6] .

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٣ .

(٢) EB, 17, P. 162. وكذا W. Wright, op. cit., P. 110

(٣) جواد علي ٨٤/٣ .

(٤) بدأ السيد المسيح عليه السلام ، وكان قد ناهز الثلاثين من عمره ، يبشر بدعوته في يهوذا في عهد هذا الإمبراطور ، وكان قد ولد على أيام سلفه أول قياصرة روما « أغسطس » (٢٧ ق.م — ١٤ م) ، ويرى بعض الباحثين أنه ولد فيما بين عامي ٦ ، ٢ ق.م ، بينما يرى آخرون أنه ولد في عام ٤ م ورفع إلى السماء في عام ٢٧ م وربما ، في٢٣ مارس ٢٩م (أنظر : هـ. ج . ويلز : موجز تاريخ العالم ص ١٧٢ ، ٤١٦ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٣١١—٣١٢ ، ٣٦٣) .

(٥) G.A. Cooke, op. cit., P. 313-332.

(٦) جواد علي ٨٦/٣ ، وكذا J. Starcky, Palmyre, P. 27

وقد بذل « تراجان » (٩٨–١١٧م) جهده لضم تدمر إلى المقاطعة العربية ، التي أنشأها في عام ١٠٦م ، واتخذ من « بصرى » مقراً لها ، وفي عام ١٣٠م ، زار « هدريان » (١١٧–١٣٨م) تدمر ، وجعلها تابعة لروما ، ثم منحها لقب « هدريانا بالميرا » (Hadriana Palmyra) و « هدريانوبوليس » (Hadrianopolis) ؛ كما أصبحت المدن التابعة لتدمر ، تابعة لروما[1] ، وفي الواقع لقد نالت تدمر عناية كبيرة من « هدريان » ، حتى قيل أنه « المؤسس الثاني » لها ، فاهتم بحماية الطرق البرية التي توصلها إلى نهر الفرات ، والتي كانت شرياناً هاماً للتجارة العالمية وقت ذاك ، ثم كانت العلاقة الطيبة بين الفرس والروم في عهده سبباً في رخاء تدمر ، فوصلت الحاميات الرومية إلى شواطىء الفرات الغربية ، وأقام التجار في مدينة (Vologasia) ، كما بنوا لهم معبداً هناك[2] ، ولدينا كتابة ترجع إلى عام ١٣٧م ، أصدرها مجلس شيوخ المدينة لتنظيم التجارة وتثبيت الضرائب ، وكيفية جبايتها[3] .

وفي أوائل القرن الثالث الميلادي منح « سبتميوس سيفيروس » (١٩٣–٢١١م) تدمر حقوق المستعمرة ، واستمرت كذلك حتى على أيام « كراكلا » (٢١١–٢١٧م) ، وهكذا اكتسبت تدمر حق الملكية والإعفاء من الخراج ، فضلاً عن الحرية التامة في إدارة شئونها ، وبدأ كبار القوم يضيفون إلى أسمائهم العربية أو الآرامية ، أسماء رومية ، بل وقد أضافت إحدى الأسر أسم « سبتميوس » أمام أسمها السامي ، مما يدل على نوالها حق الرعاية في عهد « سيفيروس » ، وربما كان ذلك بسبب الخدمات التي قدمتها في الصراع ضد الفرس ، إلا أن ذلك لا يعني أن

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٥ ، وكذا EB, 17, P. 162.

(٢) جواد علي ٣/٨٧ ، وكذا M. Rostoutzeff, Caravan Cities, P. 144
وكذا F. Stark, op. cit., P. 253.
وكذا Mommsen, Provinces of the Roman Empire, 2, P. 236.

(٣) جواد علي ٣/٨٧ ، المشرق ، الجزء ١٢ ، عام ١٨٩٨ ، ص ٥٣٨ ، وكذا EB, 17, P. 162
وكذا W. Wright, op. cit., P. III, وكذا G. A. Cooke, op. cit., P. 322

تدمر ، إنما أصبحت مقاطعة رومية تماماً ، وإنما كانت حكومة شبه مستقلة ، تدير شئونها الإدارية بنفسها ، ولكنها تخضع لإشراف روما عليها[1] .

وانتهزت تدمر فرصة انشغال روما بغزوات الجرمان التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية ، وأخذت توسع رقعتها ، وإن ظلت وفية للروم ، وهكذا أصبحت دولة تدمر تشمل عدداً من المدن الصغيرة التابعة لها ، مثل «دورا» و «الرصافة»[2] ، وقد استخدمت «دورا» كمعقل لحماية تجارة تدمر الناشئة ، وقد وجدت فيها بقايا أبنية ذات زخارف نافرة تمثل جنوداً تدمريين ، وأما «الرصافة» فقد دعيت في كتابة أثرية أشورية تعود إلى أخريات القرن التاسع قبل الميلاد باسم «رصابا Rasappa» ، وهي نفس المدينة التي جاءت في التوراة[3] تحت إسم « رصف » بمعنى « الجمر المتوهج » وهدمها « سنحريب » (٧٠٥–٦٨١ ق.م) في أوائل القرن السابع ق.م ، وقد عرفت فيما بعد باسم « سرجيوس بولس » نسبة إلى قديسها المحلي « سرجيوس » الذي استشهد في عهد « دقلديانوس » (٢٨٤–٣٠٥م)[4] .

(٢) أذينـــة :

ارتفعت أسرة أذينة التي كان يتصدر اسمها كلمة « سبتميوس » إلى مكان الزعامة في تدمر في منتصف القرن الثالث الميلادي ، وهناك ما يشير إلى أن جد « أذينة » الكبير كان يدعى « ناصر » (نصرو) والد « وهب اللات » (وهبلات) ، وأن هذا الأخير إنما هو والد « خيران » أبو « أذينة »[5] ، وهناك كتابة ترجع إلى عام ٢٣٥م

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٥–٤٣٦
وكذا G.A. Cooke, op. cit., P. 250, 312 وكذا CAH, XI, P. 139, XII, P. 18

(٢) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٤٩ .

(٣) ملوك ثان : ١٩ : ١٢ ، أشعياء ٢٧ : ١٢ .

(٤) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٦ ، وكذا EB, 17, P. 162.

(٥) جواد علي ٣/٩٠–٩١ ، وكذا Franz Altheim and Ruth Stiehl, op. cit., P. 252
وكذا J. Cantineau, Inventaire des Inscriptions de Palmyre, 8, 1936, No. 55.
وكذا J. Cantineau, Palmyrenien du Temple de Bel, P. 138
وكذا Syria, XII, 1931.

ورد فيها اسم « أذينة بن خيران بن وهب اللات بن نصرو » ، وأنه كان عضواً بمجلس الشيوخ الروماني[1] ، كما أن أباه « خيران » كان يحمل لقب « سبتميوس خيران » ، وأنه كان « رأس » تدمر ، وعضو مجلس شيوخها الممتاز ، وأنه قد تمكن من تثبيت حكم أسرته ، ومن الهيمنة على شئون المدينة ، ومن توسيع تجارتها ، فاكتسب بذلك منزلة كبيرة عند أهل تدمر وعند الرومان[2] .

وفي عهد « خيران » هذا ، أخذت تدمر دورها في القضايا الدولية ، وما أن قامت الدولة الساسانية في عام ٢٢٦ م ، تحت زعامة « أردشير بن بابك بن ساسان » (٢٢٦–٢٤١م)[3] ، حتى بدأ الشرق يضطرب بالصراع بين الروم والفرس ، وكان على التدامرة أن يختاروا الإنضمام إلى إحدى القوتين الكبيرتين ، فآثروا الإنضمام إلى الروم بسبب العلاقات القديمة ، ولأن الأمبراطور الروماني بسبب بُعْد روما ، إنما هو أقل خطراً عليهم من الإمبراطور الساساني القريب منهم ، واغتنم أهل تدمر فرصة نجاح «سابور» (٢٤١–٢٧٢م) ملك فارس في التوغل في سورية ، والقبض على الإمبراطور الروماني « فاليران » (٢٥٣–٢٦٠م) بعد هزيمة مخجلة للجيوش الرومانية قرب « اديسا » في عام ٢٦٠م ، كسب الساسانيون من ورائها شهرة عريضة ، فضلاً عن أسر ستين ألفاً من جنود الرومان ، واستيلاء الفرس على آسيا الصغرى وشمال سورية[4] .

وكان أذينة له ثأر عند الرومان ، منذ أن قتل قائدهم « روفينوس » أباه « أذينة الأول» ، وعدم موافقة الإمبراطور فاليران على أن يأخذ له بثأر أبيه من «روفينوس» ، ومن ثم فإنه ما أن علم بهزيمة الروم في عام ٢٦٠م ، وأسر « فاليران » حتى أسرع

---

(١) F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 252.

(٢) جواد علي ٣/٩١ ، المشرق ، الجزء ١٣ عام ١٨٩٨ ص ٥٩٠
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 252.

(٣) أنظر : آرثر كريستنس : إيران في عهد الساسانيين، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٧٢–٨٣ .

(٤) آرثر كريستنس : المرجع السابق ص ٢١٠–٢١٢ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٥١ ،
وكذا A. Musil, Palmyrena, P. 247.

بالإتصال بالفرس ، مقدماً لهم الهدايا ، وعارضاً عليهم صداقته : إلا أن الإمبراطور الفارسي ، الذي كان يحس في ذلك الوقت أنه ملك الشرق والغرب جميعاً ، احتقر العرض التدمري ، وأمر بإلقاء الهدايا في النهر ، وتوعد أذينة بسوء المصير ، جزاء وفاقاً على جرأته على مخاطبة ملك الملوك (شاهنشاه إيران وأنيران ، أي ملك ملوك إيران وغير إيران) ، وهو لا يعدو أن يكون شيخاً لمدينة صغيرة في بيداء قاحلة ، لا أهمية لها ولا نفع منها[1] .

وكان هذا التصرف الأحمق من ملك الفرس ، سبباً في أن يجمع أذينة القبائل بظاهر تدمر تحت إمرة ولده « هيرودوس » ، والفرسان تحت قيادة « زبدا » ، والقواسة ورماة السهام تحت قيادة « زباي » ، وأن يضم إلى أولئك وهؤلاء فلول جيش «فالريان» ، وأن يخرج بكل هذه الجموع إلى « المدائن » للإنتقام من «سابور» ، ولإنقاذ « فالريان » من الأسر ، وهناك على ضفاف الفرات تدور رحى الحرب بين أذينة والفرس ، وتنتهي المعركة الضارية بهزيمة منكرة للفرس ، يصل مداها إلى أن يترك « سابور » حريمه وأمواله غنيمة في أيدي التدمريين ، وأن يفر بالبقية الباقية من فلول جيشه إلى ما وراء الفرات ، ثم لا تستطيع هذه البقية أن تعبر النهر إلا بشق الأنفس وإلا بعد خسائر فادحة في الأرواح ، بل وتذهب بعض الروايات إلى أن « أذينة » قد طارد المهزومين حتى أسوار عاصمتهم « اصطخر[2] » — التي خلفت مدينة «برسيبوبوليس» القديمة — ، وإن لم ينجح في فك أسر الإمبراطور السجين ، ولكنه استولى على الكرخ ونصيبين ، بل وامتد نفوذه إلى الشام ، وبعض أقاليم آسيا الصغرى الرومية[3] .

---

(١) جواد علي ٩٣/٣ ، آرثر كريستنس : المرجع السابق ص ٢١٠
وكذا W. Wright, op. cit., P. 115. وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 236

(٢) بدأ الفرس في إنشاء مدينة « اصطخر » على أيام الملك « دارا الأول » (٥٢٢–٤٨٦ ق.م) ، ولكن ذلك لم يتم إلا على أيام « ارتخشثتا » الأول ، حوالي عام ٤٦٠ ق.م (أنظر : أحمد فخري : المرجع السابق ص ٢٢٩ ، آرثر كريستنس : المرجع السابق ص ٨٠) .

(٣) فيليب حتي : المرجع السابق ص ٤٢٧ ، آرثر كريستنس : المراجع السابق ص ٨٠، ٢١٠ .
وكذا Malalas, XXIII, 5, 2 وكذا W. Wright, op. cit., P. 118-120.
وكذا A. Musil, Palmyrena, P. 247.

ويكتب « أذينة » إلى الإمبراطور الروماني الجديد « جالينيو » (٢٦٠–٢٦٨م) بن فالريان ، بكل هذه الأحداث ، فيطرب الأخير لسماع هذه الأخبار ، ويطلب من أذينة الاستمرار في الحرب ، حتى ينقذ « فالريان » ، ثم ينعم عليه في عام ٢٦٢م بلقب « زعيم الشرق » (Dux Orientis) ، مما جعله أشبه بنائب الإمبراطور الروماني في الشرق[١] ، وكان « فالريان » قد أنعم عليه في عام ٢٥٨م ، بمرتبة « القنصلية »[٢] .

وبدأ « أذينــة » (أودينات Odenathus) يسترجع أرض الإمبراطورية الرومية من الفرس ، فنجح في استرداد نصيبين — كما أشرنا آنفاً — وحران ، واستقبل هناك استقبال الأبطال ، ثم سرعان ما اتجه في عام ٢٦٤م ، نحو « طيسفون » وضرب الحصار حولها ، وكاد الإمبراطور الفارسي أن يستسلم ، لولا أن المؤامرات الرومية قد لعبت دوراً خطيراً في إفساد نجاح أذينة ، ذلك أن القائد الروماني « مكريانوس » — الذي كان سبباً في هزيمة الروم ووقوع فالريان في الأسر — قد أعلن الثورة على « جالينو » ، ونصب نفسه امبراطوراً على القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية (آسيا الصغرى والشام ومصر) ، ومن ثم فقد اضطر أذينة إلى أن يرفع الحصار عن الفرس، وأن يعود لإخماد هذه الفتنة الجديدة ، إلا أنه ما أن بدأ يعد العدة لمواجهة « مكريانوس » حتى علم بقتله ، ثم اتجه إلى حمص للقضاء على ولده « كياثوس » ، وبعد أن شدد الحصار على المدينة ، قتل « كاليستوس » سيده « كياثوس » ، ورمى برأسه من فوق السور تحت قدمي أذينة ، وفتح الأبواب والتمس الأمان منه ، وبذا انتهت ثورة القائد « مكريانوس » ، غير أن « كاليستوس » سرعان ما عاد إلى الثورة من جد ، ومن ثم فقد أمر أذينة بعضاً من رجاله باغتيال

---

(١) المشرق ، الجزء ١٣ ، عام ١٨٩٨م ص ٦٣٩ ، وكذا W.Wright, op, cit P. 120
وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 236 وكذا EB 23, P. 494.
وكذا P.K. Hitti, op. cit., P. 75

(٢) EB, 17, P. 162. وكذا G. A. Cooke, op. cit., P. 286.
وكذا Franz Altheim and Ruth Stiehl, op. cit., II, P. 253

« كاليستوس » وعاد الهدوء إلى هذه المنطقة الهامة من الإمبراطورية الرومانية بفضل جهود « أذينة »[1] .

وفرح «جالينيو » بالقضاء على الثورة ، ومن ثم فقد أمر عام ٢٦٤م بمنح أذينة لقب (Imperator Toutius Orientis) أي « إمبراطور جميع بلاد الشرق» . وعهد إليه بالإشراف على جميع القوات الرومية في الشرق . والقضاء على فلول جيش «مكريانوس» ، غير أن أذينة لم يكتف بكل هذا ، فلقب نفسه بلقب « ملك الملوك » ، تقليداً لملك الفرس ، كما أمر بأن تنقش صورته بجوار صورة الإمبراطور الروماني على النقود التي أخذت غنيمة من الفرس ، أضف إلى ذلك أن مجلس الشيوخ الروماني قد منحه لقب « أغسطس » ، وهكذا صار أذينة مساوياً لإمبراطور روما نفسها[2] .

وفي عام ٢٦٥م ، اتجه أذينة ، أو ملك الملوك ، إلى محاربة الفرس من جديد ، ربما لأنه لم ينس إهانة « سابور » له ، يوم مزق رسالته أمام رسله ، وربما رغبه منه في التودد إلى الرومان ، ونيل الحظوة عند « جالينو » ، وأياً ما كان السبب فإننا نرى أذينة يترك ولده البكر من زوجته الأولى ، ويدعى « سيبتميوس هيرودوس » نائباً عنه في تدمر ، ثم يخرج على رأس جيشه إلى « طيسفون » ، فيضرب الحصار عليها ، ويضطر « سابور » إلى أن يظهر استعداده لعقد محالفة مع أذينة ، إلا أن الأخير طلب فك أسر « فاليران » ، وهو شرط في نظر الفرس جد عظيم ، ومن ثم فقد اوقفت المفاوضات بين الطرفين[3] .

وهنا يتغير الموقف — للمرة الثانية — في مصلحة الفرس ، إذ يعبر « القوط » البحر الأسود ، متهزين فرصة غياب أذينة عن آسيا الصغرى والشام ، وينزلوا

---

(١) جواد علي ٣/٩٦ ، المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٥ ، عام ١٨٩٨م ص ٦٨٧ ، ثم انظر : ياقوت ٤/٥٥ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 250.

(٢) EB, 17, P. 162. وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 241
وكذا CAH, 12, P. 1745 وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 253
وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 75. وكذا Syria, XVIII, 1937, P. 2.

(٣) جواد علي ٣/٩٨ .

بميناء « هرقلية » ويتجهوا نحو « قبادوقيا » ، ومن ثم فإن أذينة سرعان ما يضطر إلى رفع الحصار عن مدينة الفرس ، والعودة لقتال الغزاة الجدد ، إلا أن القوط سرعان ما علموا بعودة أذينة ، فعادوا إلى ميناء هرقلية ، ثم أبحروا منها عائدين إلى بلادهم[1] .

وهنا ، وفي هذه اللحظات التي وصل فيها أذينة إلى ذروة مجده ، وبينما كان يجهز لجولة أخيرة مع الفرس ، يفتح فيها «طيسفون» ، يذهب البطل العربي — وكذا ولده هيرودوس — ضحية الغدر والخيانة في أحوال غامضة في عام ٢٦٦م (أو ٢٦٧م) ، يلعب فيها ابن أخيه « معنى بن خيران » الدور الأول ، وإن كان الروم ربما قد أدركوا خطورة أذينة على امبراطوريتهم ، فعملوا على التخلص منه ، وبيد أقرب الناس إليه ، وإن كان هناك من يرى عكس ذلك تماماً ، وأن الرومان بموت أذينة ، إنما فقدوا الحماية لإمبراطوريتهم في الشرق ، وأن المؤامرة ربما تكون قد لعبت فيها أطراف أخرى ، قد تكون « الزباء » التي رأت أن العرش سوف يذهب إلى ابن ضرتها ، بينما يحرم منه بنوها ، وقد تكون عصبة من الوطنيين ، خيل إليهم أن أذينة قد أصبح أداة طيعة في أيدي الرومان فقرروا التخلص منه ، وهكذا بات من الصعب على العلماء الوصول إلى قرار صائب ، أو حتى قريب من الصواب ، فالأدلة غير متوفرة ، والوثائق صامتة ، غير أن الظروف التي أعقبت مقتل أذينة ، قد تثير أكثر من شك ، فالجيش يبايع القاتل دون ثورة ، أو حتى تردد ، وأهل حمص يقتلون القاتل بعد حين من الدهر ، ثم تنصيب « الزباء » بعده مباشرة ، ألا يثير كل ذلك شكاً ؟ أو حتى يلقي شبهة من ظن في شخص أو آخر؟ ، ومع ذلك ، فما لا شك فيه ، أن هناك أموراً تحتاج إلى وقفة ، ولكنها لا تقدم جديداً ، ما لم تحدثنا الوثائق عن هذا الجديد[2]

---

(١) جواد علي ٣/٩٨-٩٩ ، المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٥ ، عام ١٨٩٨م ص ٦٩١ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٩١ وما بعدها ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٣٨٩ ، جواد علي ٣/٩٩-١٠٠ ،وكذا

E. Gibbon, op. cit., I, P. 263 وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 75.

(٣) الزباء :

جاءت الزباء أو « زنوبيا » إلى العرش وصية على ولدها القاصر « وهب اللات » بعد مقتل أبيه أذينة ، وتدعي في الكتابات التدمرية « بيت زباي » (Bath-Zabbay) أي « ابنة العطية » ، وهي « الزباء » في المصادر العربية ، وإن اختلفت هذه المصادر في اسم هذه المرأة ، فهي « الزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة » وهي « ليلى » على زعم آخر ، ولها أخت دعوها « زبيبة » لها قصر حصين على شاطىء الفرات الغربي ، فكانت تشتو عند أختها ، وتربع ببطن النجار ، وتصير إلى تدمر ، كما كان لها جنود ، هم —في نظر هذه المصادر العربية — من العماليق والعرب العاربة الأولى ، ويروى الأخباريون أن مُلْك العرب بأرض الحيرة ، ومشارف الشام كان لعمرو بن الظرب ، وكان جنود الزباء (بمعنى الجميلة ذات الشعر الطويل) من بقايا العماليق من عاد الأولى ، ومن نهد وسليح إبني حلوان ، ومن كان معهم من قبائل قضاعة ، وكانت تسكن على شاطىء الفرات في قصر لها هناك ، وتربع ببطن المجاز ، وتصيف بتدمر[١] .

وينسب الأخباريون إلى الزباء كثيراً من القصص ، بعضها لطيف وبعضها غريب ، وإن كان معظمه بعيد عن الحقائق التاريخية ، فإذا ما تجاوزنا الإختلاف في نسبها ، بل وحتى في اسمها (الزباء ، فارعة ، ميسون ، ليلى) ، لرأينا بعضهم ينسب إليها شعراً ، وبعضهم ينسب إليها حكماً وأمثالاً ، في لغة عربية بليغة ، وإن كان هذا ليس غريباً ، على من ينسبون إلى آدم وإلى إبليس شعراً مضبوطاً وفق قواعد النحو والصرف ، ومن ثم فليس من العجيب أن ينسبوا إلى الزباء شعراً كذلك[٢] .

---

(١) مروج الذهب ٢/٦٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦١ ، تاريخ الطبري ١/٦١٧–٦١٨ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٥ ، جواد علي ٣/١٠٣–١٠٤
وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 76
ثم قارن : Caussin de Perceval, op. cit., 2, P. 198.

(٢) ابن الأثير ١/٣٤٥ ، تاريخ الطبري ١/٦٢٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٥٩–٢٦١ ، مروج الذهب ٢/٧٢ ، جواد علي ٣/٠٦١ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٥٦–١٥٧ ، قارن :
Caussin de Perceval, op. cit., II, P. 28.

وهناك رواية تزعم أن « جذيمة الأبرش » ملك الحيرة ، كان قد قتل والد الزباء « عمرو بن الظرب » ، ومن ثم فقد أرادت الزباء أن تثأر لأبيها ، غير أن أختها « زبيبة » قد نصحتها بترك الحرب ، واصطناع الحيلة عن طريق دعوة جذيمة إلى تدمر ثم قتله ، وهكذا تنجح الزباء في استدعاء جذيمة إلى عاصمتها وفي قتله ، إلا أن ابن أخته وخليفته «عمرو بن عدى» سرعان ما يحتال على الزباء ، بمساعدة « قصير » ، فينتقم منها في مدينتها ، وذلك بأن حمل إلى تدمر رجالاً في جوالق كبيرة ، يستطيع عن طريقهم القضاء على حرس الزباء، التي تهرب إلى نفق كانت قد حفرته في قصرها لمثل هذه الظروف ، غير أن «قصيرا» — وكان قد علم بسر النفق — سرعان ما يضع في طريقها « عمرا بن عدى » ، الذي ما أن تراه الزباء ، والسيف في يده ، حتى تمص خاتمها المسموم ، قائلة « بيدي لا بيد عمرو » ، ومع ذلك فإن عمراً قد أطاح رأسها بسيفه ، وأخذ بثأره[1] .

والقصة في صورتها الراهنة لطيفة ، ولكنها بعيدة عن الحقائق التاريخية ، فقد جمع الأخباريون فيها كل ما عرفوه من أساطير الشرق القديم ، كقصة تحوتمس الثالث (١٤٩٠—١٤٣٦ ق.م) وفتح يافا ، وكقصة عدى مع أخت جذيمة[2] ، هذا فضلا عن قصة وفاة الزباء مسمومة ، وصلتها بقصة كليوبترا ملكة مصر ، أضف إلى ذلك أن الصنعة واضحة في الأمثال التي نسبت في القصة إلى جذيمة وقصير والزباء وعدى وابنه عمرو ، وأخيراً فالثابت تاريخياً أن الزباء قد حملت أسيرة إلى روما بعد استيلاء الرومان على تدمر — كما سوف نرى فيما بعد — .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ١/٢٠٨—٢٠٩ ، ابن الأثير ١/٣٤٥—٣٥١ ، مروج الذهب ٢/٦٩—٧٣ ، بلوغ الأرب ٢/١٨١—١٨٣ ، تاريخ ابن خلدون ١/٢٥٩—٢٦٢ ، الميداني ١/٢٣٣—٢٣٧ ، المعارف ص ٢٨٢ ، المقدسي ٣/١٩٦—١٩٩ ، تاريخ الطبري ١/٦١٨—٦٢٧ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٩٢ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٩٩—١٠١ ، محمد الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية ١/٣٠ ، جواد علي ٣/١٠٤—١٠٦ .

(٢) أنظر : تاريخ الطبري ١/٦١٤—٦١٧ ، مروج الذهب ٢/٦٦—٦٧ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦٠—٢٦١ ، المعارف ص ٢٨١—٢٨٢ ، الميداني ٢/١٣٧—١٣٩ ، بلوغ الأرب ٢/١٧٧—١٨٠ .

على أن الغريب من الأمر حقاً ، ذلك الإغراق في رواية الأساطير ، من جانب المؤرخين المسلمين ، وفي نفس الوقت ، ذلك التجاهل غير الطبيعي منهم ، لدور « الزباء » الفذ في تاريخ الشرق القديم في تلك الفترة ، بل إننا نرى في نفس الوقت كذلك ، إطناباً في مدح الفرس لا يتفق وحقائق التاريخ ، بل هو مديح لم يقل مثله مؤرخوا الفرس أنفسهم ، — الأمر الذي نراه كثيراً من المؤرخين المسلمين ، وبصورة واضحة ، حين يتحدثون عن تاريخ اليهود — وربما كان السبب في ذلك أن مصادر المؤرخين الإسلاميين — وبخاصة في تاريخ مصر وسورية والعراق فيما قبل الإسلام — إنما هي مصادر فارسية ويهودية في الدرجة الأولى ، وهي مصادر لا يمكن أن توصف بأقل من أنها متحيزة لأصحابها ، وأن الأخباريين إنما كانوا — في أغلب الأحايين — يتساهلون في نقل أخبارهم عن عصور ما قبل الإسلام بدرجة ملفتة للنظر ، بل إن الواحد منهم إنما كان ينقل ما ينقل من أخبار عن يهود أو فارس ، دونما تعقيب أو تعليق ، وكأنها حقائق ترقى فوق مظان الشبهات ، وإن كان الأمر غير ذلك تماماً بالنسبة إلى المصادر اليونانية والرومانية[1] .

وأياً ما كان الأمر ، فهناك روايات يفهم منها أن الزباء إنما كانت تزعم أنها مصرية ، من سلالة كليوبترا ، وأنها كانت تتحدث المصرية بطلاقة ، وقد ألفت كتاباً في التاريخ — وبخاصة في تاريخ مصر — خطته بيدها[2] ، وأنها كانت مثقفة ومن ثم فقد استدعت إلى عاصمتها المشاهير من رجال الفكر ، وذهبت روايات أخرى إلى أنها سمحت لجالية يهودية بالإقامة في عاصمتها ، وأن هذه الجالية قد جاءت إلى تدمر بعد تدمير بيت المقدس على يد « تيتوس » في عام ٧٠م ، وأنها قد بلغت حوالي نصف سكان المدينة ، بل إن القديس « أثناسيوس » والمؤرخ « فوتيوس » إنما يذهبان إلى أن الزباء نفسها قد اعتنقت اليهودية ، وأن لم تسمح بإقامة معابد يهودية

---

(١) محمد أحمد باشميل : العرب في الشام قبل الاسلام ص ٩٣–٩٨ ، جواد علي ١٠٢/٣–١٠٣ .
(٢) جواد علي ١٠٧/٣ ، وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 202.

في تدمر[1] ، غير إن هناك ما يشير إلى أن اليهود ربما قد اضطهدوا على أيامها ، حتى أن واحداً من أحبار عصرها يقول « مخلد وسعيد من يدرك نهاية أيام تدمر »[2].

ومن عجب أن هذه الآراء المتضاربة، إنما تذهب كذلك إلى أن الذي هوّد الزباء، إنما كان الأسقف « بولس السميساطي » ولست أدري كيف يهوّد أسقف مسيحي الزباء ، أما كان الأولى أن ينصرها ؟ ومن ثم فإن التحيز – فضلاً عن الإضطراب – في هذه الرواية، لايحتاج إلى إثبات ، وربما كان السبب أن هذا الأسقف المسيحي قد أبدى رأيه في « الثالوث » بما لا يتفق وآراء الكنيسة وقت ذاك ، ومن ثم فقد حكم عليه في أنطاكية عام ٢٦٩م بالعزل من الأسقفية ، وعلى أي حال ، فهناك الكثير من الشواهد التي تدل على أن اليهود إنما كانوا ناقمين على المملكة وعلى الدولة كذلك ، ربما بسبب الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم ، وربما بسبب الحروب التي كان يقوم بها أذينة ضد الفرس ، ذلك لأن الزواج المختلط إنما نتج عنه جيل جديد أضاع الدين والتقاليد الإسرائيلية ، وأن الحروب ضد الفرس قد ألحقت ضرراً كبيراً بالجاليات اليهودية التي كانت تسكن شواطىء الفرات ، ومعظمها من التجار الذين كانوا يتاجرون مع الفرس والروم ، وبين العراق والشام[3] .

هذا ، وقد حرص فريق آخر على أن يجعل الزباء نصرانية ، وإن ذهب فريق ثالث إلى أنها إنما كانت محبة للنصارى ، ولكنها لم تكن نصرانية ، بينما إتجه فريق رابع إلى أن المرأة لم تكن يهودية ولا نصرانية ، وإنما كانت بيّن بيْن ، كانت تعتقد

---

(١) المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ٢٠ ، عام ١٨٩٨م ص ٩٢٤ ، الجزء ٢١ ، عام ١٨٩٨ م ص ٩٩٥ ، جواد علي ٣/١٠٩
وكذا G. Moss, Jews and Judaism in Palmyra, PEFQ, 60, 1928, P. 100-107.
وكذا Milman, History of the Jews, III, P. 175
وكذا ZDMG, VII, 1864, P. 88.

(٢) جواد علي ٣/١١٠
وكذا UJN, 10, P. 639 وكذا S.Graetz, History of the Jews, II, 1927, P, 528

(٣) جواد علي ٣/١١٠–١١١ ، المشرق ، الجزء ٢١ ، عام ١٨٩٨م ص ٩٩١ وما بعدها .

بوجود الله – سبحانه وتعالى – وترى التوحيد ، كما يراه الفلاسفة ، وليس كما تصوره ديانة الكليم أو المسيح عليهما السلام[1] .

ويختلف المؤرخون كذلك في أصل الزباء ، فذهب فريق منهم إلى أنها مصرية ، وذهب فريق ثان إلى أنها من العماليق ، وذهب فريق ثالث إلى أنها آدومية ، واتجه فريق رابع إلى أنها من أصل عربي ، ولكنها من دم مصري من ناحية الأم ، بل إن المسعودي ليرى أنها رومية تتكلم العربية ، ومع ذلك فإن الغالبية العظمى إنما تكاد تجمع على أنها عربية[2] .

وأياً ما كان الصواب في هذه الروايات المتضاربة ، فمما لا شك فيه أن شخصية تلك المرأة القوية لتعد واحدة من الشخصيات الهامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، ويصفها المؤرخون بأنها امرأة قوية الشخصية ، قوية البنية ، شجاعة جميلة ، ذات هيبة ووقار ، كانت تستوي في الجمال مع كليوبترا ، وإن فاقتها عفة وطهارة ، وجرأة وشجاعة ، كانت من ألطف بنات جنسها ، وأكثرهن بطولة ، كانت سمراء الوجه ، ذات أسنان ناصعة البياض كاللؤلؤ ، تفيض عيناها السوداوان حيوية غير عادية ، مع رقة جذابة إلى أبعد حد ، كان صوتها قوياً مطرباً ، وكانت سيرتها أقرب إلى سير الأبطال ، منها إلى سير النساء ، فلم تكن تركب في الأسفار غير الخيل ، وقد سارت على قدميها في بعض المرات عدة أميال على رأس الجيش ، وكانت تلبس في المناسبات الرسمية ثوباً من الأرجوان موشى بالجواهر ، مشدوداً عند الخصر ، وإذا ما استعرضت جيشها في الميادين العامة تمر أمام الصفوف فوق جوادها ، وعليها لباس الحرب ، وفوق رأسها الخوذة الرومانية ، تاركة إحدى ذراعيها عارياً حتى الكتف – كما يفعل المحاربون من اليونان القدامى – تحرض جندها على الصبر في

---

(1) جواد علي ١١٢/٣ .

(2) مروج الذهب ٦٩/٢ ، تاريخ الطبري ٦١٧/١–٦١٨ ، إدوارد جيبون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي أبو ريدة ص ٢٦٥ ، وكذا
W. Wright, op. cit., P. 131.
وكذا سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٥٨ .

القتال ، والشجاعة عند لقاء العدو ، فإذا ما كان عندها فراغ من وقت ، قضته — كما كان يفعل أذينة — في صيد وحوش الصحراء الكاسرة ، كالأسد والدب والنمر .

كانت طموحة أريبة ذات سبق في مضمار السياسة ، تبت في الأمور بحزم وحكمة ، بدلاً من أن تتردى في حمأة الأهواء التافهة، التي كثيراً ما تشوب حكم النساء ، فإذا كان الأوفق أن تعفو وتصفح ، استطاعت أن تحدّ من غضبها وتخفف من غلوائها ، وإذا كان لزاماً أن تبطش ، استطاعت أن تخرس نداء الشفقة والرحمة ، وكانت مثقفة ، لم تكن تجهل اللاتينية ، ولكنها كانت تجيد اليونانية والسريانية والمصرية بنفس القدر ، وهي لغات المثقفين في ذلك العصر ، كما ألفت أن تعقد موازنة بين روائع هوميروس وأفلاطون تحت إشراف « لونجينوس » ، وأن تعيش في قصرها على نظام بلاط الأكاسرة ، إذ كانت حاشيتها تحييها بالسجود ، حسب الأسلوب الفارسي [1] .

وأياً ما كانت المبالغة في ذلك كله ، فالذي لا شك فيه أن تلك المرأة كانت خير خلف لزوجها البطل ، وأنها منذ أعلنت نفسها ملكة على الشرق — مستخفة إلى حين بالإمبراطورية الرومانية — بدأت تعمل على تكوين دولة عربية قوية تحت زعامتها ، بخاصة وأنها أدركت بفطنتها السياسية أن أعداء تدمر ، إنما هم الرومان ، والذين لا يفكرون إلا في مصلحة روما فحسب ، ومن ثم فقد بدأت تتقرب إلى العناصر العربية المستوطنة في المدن ، فضلاً عن الأعراب الذين كانت ترى أنهم عمادها في القتال وسندها في الحروب ، إلا أن الرومان كانوا أسرع منها ، فقضوا على آمالها قبل أن تتحقق ، بل واحتلوا تدمر نفسها [2] .

---

(١) إدوارد جيبون : المرجع السابق ص ٢٦٥–٢٦٧ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٢٨ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٩١–٩٢ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٥١ .

(٢) جواد علي ١١٣/٣ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 270.

وكانت بداية النزاع بين الزباء والرومان ، يوم أرسل « جالينو » بجيش لاحتلال تدمر والقضاء على الزباء ، قبل أن يستفحل خطرها ، متظاهراً بأنه يريد محاربة الفرس ، إلا أن الملكة العربية سرعان ما اكتشفت السر ، ومن ثم فقد دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس ، كتب النصر فيها للزباء ، وحاقت الهزيمة بالروم[1] ، وفي نفس الوقت ، فإن الملكة قد خافت أن يستغل الفرس الفرصة ، فيوجهوا إليها ضربة قد تكون غير مستعدة لها ، ومن ثم فقد أنشأت حصناً على الفرات ، دعته « زنوبيا » (Zenobia) نسبة إليها[2] .

وأخيراً بدأت الزباء ترنو بناظريها نحو أرض الكنانة — تلك الأرض الخصبة الآهلة بالسكان ، وذات التاريخ المجيد ، والثقافة العريقة — بعد أن أذاعت — إن صدقاً أو كذباً — أنها مصرية من نسل كليوبترا ، وجاءتها الفرصة ممثلة في مقتل « جالينو » عام ٢٦٨م ، وتولية « كلوديوس » (٢٦٨—٢٧٠ م) خلفاً له ، وفي نفس الوقت كان الألمان والقوط قد بدأوا يهاجمون القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية ، مما دفع « بروبوس » — الحاكم الروماني في مصر — إلى أن يخرج بأسطول الإسكندرية لمطاردة القوط ، وهنا بدأ الزعماء المصريون — وعلى رأسهم تيماجنيس وفرموس — يحرضون الزباء على فتح مصر ، بل ويقدمون لها العون المادي على هذا الفتح .

وهكذا تحرك « زبدا » — قائد جيش الزباء ، على رأس حملة ، قوامها سبعون ألف رجل — إلى مصر ، وهناك دارت معركة رهيبة بين الفريقين ، انتهت بنصر مبين لجيش زنوبيا ، وهزيمة ساحقة لجيوش الرومان ، وضم مصر إلى دولة الزباء ، ولكن ما أن يمضي حين من الدهر ، حتى يعود « زبدا » بجيشه إلى تدمر ، تاركاً الأمور بيد « تيماجنيس » ومعه فرقة صغيرة لا يتجاوز عددها خمسة آلاف جندي ،

---

(١) المشرق ، السنة الأولى ، الجزء ١٨ ص ٨٢٤ ، وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 263. وفي الترجمة العربية ص ٢٦٧ .

(٢) جواد علي ١١٣/٣ ، وكذا Procopius, History of the Wars, II, V, IV-VI, P. 295.

وفي نفس الوقت كان « بروبوس » قد علم بما حدث ، فأسرع عائداً إلى مصر ، وأخذ يتعقب الجنود التدمريين ، ويطاردهم في كل مكان ، وتعلم الزباء بالتطورات الجديدة ، فتأمر « زبدا » بالعودة إلى مصر ، حيث يشتبك الرومان والتدمريون في معارك ضارية ، يلعب فيها عرب مصر من سكان المناطق الشرقية ، فضلاً عن « تيماجنيس » — وهو مصري على رأي ، وعربي متمصر على رأي آخر — أخطر الأدوار إلى جانب التدمريين ، وبخاصة في المعارك التي دارت حول حصن بابليون[1] .

وتنتهي المعارك باتفاق بين الزباء والرومان في أخريات أيام «كلوديوس» ، على أن يكون حكم مصر مشتركاً بينهما ، بدليل ما جاء في بعض المراجع من أن المصريين قد حلفوا يمين الولاء للقيصر ، وبدليل ما عثر عليه من عملات تدمرية نقشت في الإسكندرية في عامي ٢٧٠ ، ٢٧١م ، وعلى وجهها صورة القيصر « أورليان » (٢٧٠—٢٧٥م) ، بجانب صورة « وهب اللات » (ابن الزباء) ، مما يدل على الحكم المزدوج بينهما[2] .

كان فتح الزباء مصر ، والإستيلاء على الإسكندرية — أهم مدن الإمبراطورية الرومانية قاطبة بعد روما — ضربة أصابت الروم في الصميم ، ثم جاءت سياسة الزباء التوسعية في الشام وآسيا الصغرى ، دليلاً على أن طموح تلك المرأة القوية لا يقف عند حد ، ومن ثم فإن الإمبراطور « أورليان » سرعان ما انتهز فرصة القضاء على الإضطرابات في روما ، ورد هجوم القوط ، حتى بدأ يعد العدة لمعركة فاصلة مع الزباء ، غير أن الملكة العربية سرعان ما علمت بدورها بنية الإمبراطور الروماني ،

---

(١) جواد علي ٣/١١٤—١١٥
وكذا EB, 17, P. 163. وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 272
(٢) جواد علي ٣/١١٥ ، وكذا W. Wright, op. cit., P. 137
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 254
وكذا G. Ryckmans, les Noms Propres and Sud-Semitiques, P. 52
وكذا CAH, 12, P. 301. وكذا EB, 17, P. 163

فقررت أن تتحداه إلى آخر الشوط ، وهكذا نراها تأمر بإلغاء الإتفاقية المبرمة مع سلفه «كلوديوس» ، فتصدر النقود في الإسكندرية وقد خلت من صورة « أورليان » واقتصرت على صورة ولدها «وهب اللات» ، الذي اتخذ لقب « أغسطس » — وهو اللقب الخاص بأورليان — كما أسبغت هي على نفسها لقب « اغسطا » ، ثم أقامت لزوجها المتوفي تمثالاً كتب عليه « تمثال سبتميوس أذينه ملك الملوك ، ومجدد الشرق كله »[1] .

وهناك رواية تذهب إلى أن الزباء قد اتصلت بالملكة « فيكتوريا » ملكة إقليم الغال ، لتنسيق خططهما ضد الرومان ، ثم بدأت جيوشها تتوغل في آسيا الصغرى ، وأقامت الحاميات باتجاه الشمال الغربي حتى « أنقره » ، وظلت جيوشها تتقدم دونما أدنى مقاومة ، حتى « خلقدونية » مقابل بيزنطة ، وهكذا استطاعت ملكة البادية أن تكوّن لنفسها ولإبنها إمبراطورية انتزعتها من بين مخالب النسر الروماني ، وهو في أوج قوته ، ورغم أنها كانت امبراطورية قصيرة الأجل ، إلا أنها كانت ومضة عربية تستحق التقدير في تاريخ العلاقات العربية الرومية ، وتسبق امبراطورية الأمويين (٤١–١٣٢هـ = ٦٦١–٧٥٠م) بأربعة قرون[2] .

غير أن تنفيذ هذه الخطة ، دعا الزباء إلى أن تسحب كثيراً من قواتها من مصر ، وانتهز أورليان الفرصة ، ونجح قائده في أن يلحق بالتدمريين في عام ٢٧١م ، هزيمة كانت نتيجتها خروج مصر من امبراطورية الزباء ، وانقطاع ضرب النقود في الإسكندرية باسم ولدها « وهب اللات » ، وإن كان أخطر النتائج التي تمخضت عن فقد مصر ، أن الزباء بدأت تفقد الثقة بنفسها وبجيشها ، كما شجعت أهل خلقدونية بآسيا الصغرى على صد هجوم التدمريين ، أملاً في نجده قريبة تأتي من القيصر

---

(١) جواد علي ٣/١١٦ ، وكذا Encyclopaedia Biblica, 17, P. 163.

(٢) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٠

وكذا Mommsen, Provinces of the Roman Empire, 2, P. 107.

وكذا J. Starcky, Palmyre, Paris, 1952, P. 64.

الروماني ، وهذا ما حدث بالفعل ، إذ سرعان ما قدمت الجيوش الرومانية بقيادة القيصر نفسه فعبرت البسفور ، وطردت التدمريين من «بتينية» ثم تجهت إلى « غلاطية » ف « قبادوقيا » حتى بلغت « أنقرة » ، وهكذا استطاع أورليان في عام ٢٧٢م ، أن يخضع الحاميات التدمرية في آسيا الصغرى ، وأن يتابع مسيرته حتى سورية[١] .

وحاولت جيوش الزباء أن توقف جيوش الروم في سورية ، في الوقت الذي بدأت فيه الدعايات الرومانية تنتشر بين الناس بنبؤات الآلهة عن سقوط تدمر ، وقبلت عقول العامة هذه الأكاذيب ، وأخذ اليأس يتسرب إلى نفوس الجنود ، وأرادت الزباء أن تخرس الألسنة فخرجت لملاقاة أورليان عند أنطاكية — فارسة تحارب في طليعة الجيش — ونجحت شخصيتها القوية في أن تعيد الثقة إلى جنودها ، وحققت نصراً على الرومان ، إلا أن أورليان الذي تراجع بقواته سرعان ما باغت الزباء بهجوم مفاجىء حقق فيه نصراً كبيراً ، مما اضطر الزباء إلى ترك أنطاكيه لأورليان ، لا بسبب هزيمتها فحسب ، ولكن لأن القوم هناك كانوا يميلون إلى جانب الرومان بعواطفهم ، فهناك جالية يونانية ذات نفوذ في المدينة تفضل حكم الرومان على حكم الشرقيين ، وهناك كره النصارى للزباء بسبب موقفها من الأسقف « بولس السميساطي » الذي عزله مجمع انطاكية ، ولكنها لم تنفذ قرار العزل ، وهناك كراهية اليهود للتدمريين[٢] .

واستعدت الزباء لملاقاة « أورليان » في حمص ، على رأس جيش قوامه سبعون ألفاً ، وتكرر ما حدث في انطاكية ، نصر للزباء في أول الأمر ، ثم هزيمة لها بعد ذلك ، مما اضطرها إلى ترك حمص ، والإحتماء بتدمر نفسها ، وهكذا دخل أورليان حمص ، فزار معبد الشمس ، وقدم القرابين لإله المدينة ، كما تعهد بتجميل المعبد وتوسيعه[٣] .

---

(١) جواد علي ١١٧/٣ ، المشرق ، السنة الأولى ، الجوء ٢٢ ، عام ١٨٩٨ ص ١٠٣٤ ، وكذا EB, 17, P. 163.

(٢) المشرق ، الجزء ٢٢ عام ١٨٩٨ ص ١٠٣٥ ، جواد علي ١١٨–١١٩ .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٠ ، وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 256 وكذا Zosimus, I, 25.

وحاولت الزباء الاتصال بالفرس طلباً للمساعدة ضد عدوهما المشترك ، غير أن القوم قد انشغلوا عن ذلك كله ، بموت «سابور» ، وتولية ولده « هرمز الأول » (٢٧٢–٢٧٣م) ، ثم عزله بعد عام واحداً ، هذا فضلاً عن أن حراب القيصر وسخائه ، كانا كفيلين بقطع الطريق على أية مساعدة فارسية تأتي للزباء ، أضف إلى ذلك أن أورليان كان قد عزز قواته بنجدات أتته من مختلف أنحاء سورية ، إلى جانب وصول « بروبوس » بقواته الظافرة من مصر[1] .

وهكذا بدأ الحصار القاتل على المدينة الشجاعة ، التي قابلته بصبر وبطولة ، بل وسخرية من قيصر روما ، حتى أن هذة السخرية سرعان ما وصلت إلى روما نفسها ، فبدأ الرومان بدورهم يسخرون من القيصر الذي عجز عن التغلب على امرأة في مدينة صحراوية ، وهناك رواية تذهب إلى أن القيصر قد كتب إلى مجلس الشيوخ يقول : « قد يضحك مني بعض الناس لمحاربتي امرأة ، ألا فليعلموا أن الزباء إذا قاتلت كانت أرجل من الرجال »[2] .

ويعرض القيصر على الزباء التسليم بشروط معتدلة ، وترفض الملكة العربية العرض بإباء وشمم ، مذكرة إياه بأنها تفضل مصير كليوبترا على عار الإستسلام له ، وأنها سوف تلقنه درساً قاسياً على جرأته على الكتابة إليها ، طالباً منها الإستسلام، عندما يحين الوقت ، ويأتي إليها أعوانها من الفرس والعرب والأرمن ، ومن أسف أن الملكة انتظرت ، وطال انتظارها ، وأخيراً أدركت أنها تحارب في معركة خاسرة ، ومن ثم فقد قررت أن تذهب بنفسها إلى ملك الفرس ، فخرجت ليلاً على هجين سريع تبغي حصنها « زنوبيا » ، ثم تعبر الفرات من هناك إلى فارس ، إلا أن الأقدار أبت أن تكتب لها أي نُجْح في مهمتها هذه ،ومن ثم فقد أدركتها خيالة الرومان على

---

(١) آرثر كريستنس : المرجع السابق ص ٢١٥ ، إدوارد جيبون : المرجع السابق ص ٢٧١–٢٧٢ ، وكذا W. Wright, op. cit., P. 167f

(٢) جواد علي ١٢٠/٣ ، إدوارد جيبون : المرجع السابق ص ٢٧١ وكذا W. Wright, op. cit., P. 167 وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 266

جيادهم السريعة التي جدت في إثرها ، فقبضت عليها ، وهي تهم بركوب زورق ينقلها إلى الشاطىء الآخر من الفرات ، وهكذا فقدت الزباء الأمل في نصرة الفرس لها ، كما فقدت ابنها ، وهو يذود عن حياض بلاده[1] .

وهكذا لم يصبح أمام تدمر سوى الإستسلام ، ومن ثم فقد فتحت أبوابها في أوائل عام ٢٧٣م لقيصر روما ، فدخلها أورليان دخول الفاتحين ، كما جردها من تحفها الثمينة التي أخذ بعضها لتزيين معبد الشمس الجديد في روما ، واقتصر عقاب السكان على فرض غرامة مالية عليهم ، وتعيين حاكم روماني ، مع عدد من الرماة ، وهكذا عادت تدمر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية ، بعد أن شقت عصا الطاعة ، منذ أسر فالريان في عام ٢٦٠م[2] .

وأخذت الزباء إلى حمص ، وهناك عقد مجلس لمحاكمة الملكة العربية العظيمة ورجال بلاطها ، وتذهب بعض الروايات إلى أن الزباء قد تنصلت عن مسؤليتها عما حدث ، فضلاً عن اعترافها بأنها لم تكن تكن إلا الإحتقار لأمثال جالينوس وكلوديوس ، ولكنها تعترف لأورليان وحده بأنه ملك فاتح ، إلا أن كثيراً من المؤرخين ينكرون هذه الرواية التي لا تتفق وما كانت عليه الزباء من سمو الأخلاق ، فضلاً عن الكرم والشجاعة والثقافة ، وأياً ما كان نصيب هذه الرواية من الخطأ والصواب ، فإن أورليان قد أمر بإعدام بعض رجال الزباء ، وإن كان قد أبقى عليها ، هي وابنها « وهب اللات » (الذي ذهبت بعض الروايات إلى أنه قتل في ميدان القتال) ، بغية إلحاقهما بموكب النصر ، الذي سوف يقيمه عند دخوله روما ، عاصمة الإمبراطورية الرومانية[3] .

(١) جواد علي ١٢٧/٣ ، وكذا Freya Stark, op. cit., P. 367
وكذا Malalas, P. 308. وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 76

(٢) إدوارد جيبون : المرجع السابق ص ٢٧٢ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤١
وكذا E. Gibbon, op. cit., P. 267. وكذا W. Wright, op. cit., P. 160

(٣) جواد علي ١٢٤/٣ ، وكذا Memmsen, op. cit., P. 748
وكذا EB, 17, P. 163.

وجاءت الأنباء إلى قيصر ، وهو في طريقه إلى روما ، بثورة عاتية في تدمر ، وأخرى في مصر ، وهنا لم يتردد « أورليان » لحظة في أن يولي وجهه شطر سورية ، وروعت أنطاكية لعودة الإمبراطور على عجل ، وأحست تدمر وطأة حنقه الذي لا يمكن دفعه ، وهناك رسالة يعترف فيها أورليان بأن الشيوخ والنساء والأطفال والفلاحين لم ينجوا من العقاب الرهيب ، الذي كان خليقاً بأن يقتصر على المتمردين المسلحين ، وبعد أن أشبع أورليان نهمه الدنيء من التدمريين ، أمر بالكف عن المذابح وترميم معبد الشمس ، إلا أن المدينة كانت قد فقدت كل عظمتها القديمة ، وأخذ رماة السهام وقواسي تدمر ليعملوا في خدمة الجيش الروماني في أفريقية ، وحتّى في بريطانيا[1] .

وهكذا أخذت تدمر تتوارى في الظلام ، حتّى أنها غدت على أيام « دقلديانوس » (٢٨٤–٣٠٥م) بمثابة قرية صغيرة ، وقلعة من قلاع الحدود ، وطبقاً لرواية « ملالا » فإن « دقلديانوس » قد ابتنى فيها « Castra » ، بعد أن تم الصلح بينه وبين الفرس ، كما يشير الأب « سبستيان رتزفال » إلى أنه فعل بنصارى تدمر ، ما فعله بإخوتهم في كل أقاليم الإمبراطورية[2] .

وفي أوائل القرن الخامس الميلادي ، أصبحت تدمر تابعة لولاية « فينيقيا » ، وقد عين فيها « ثيودوسيوس » (٤٠٨–٤٥٠م) فرقة من الجنود لحمايتها من هجمات رجال البادية ، وفي العام الأول من حكم « جستنيان » (٥٢٧–٥٦٥م) أصبحت تدمر على خط الحدود الخارجية للإمبراطورية ، ومن ثم فقد أمر بتقوية حاميتها ، وإصلاح ما تهدم من مبانيها ، فضلاً عن تحصين قلاعها وأسوارها وتحسين موارد

---

(١) إدوارد جيبون : المرجع السابق ص ٢٧٣–٢٧٤ ، وكذا EB, 17, P. 163.

(٢) المشرق : الجزء ٢٣ ، عام١٨٩٨م ص١٠٣٦ ، جواد علي ١٢٧/٣ ، وكذا Malamas, P. 308

مياهها ، ثم اتخاذها مقراً لحاكم ولاية فينيقيا ، ومع ذلك ، فإن تدمر بدأت تفقد أهميتها شيئاً فشيئاً ، ورغم الإشارة إليها كمركز أسقفي في الصحراء ، فإن الصحراء قد تغلبت عليها يوم فقد سكانها السيطرة على هذه الصحراء ، وظلت كذلك حتى فتحها « خالد بن الوليد » صلحاً في عام ٦٣٤م ، على أيام الخليفة الراشد أبي بكر الصديق — رضي الله عنه وأرضاه — (١١ — ١٣هـ = ٦٣٢ — ٦٣٤م) غير أنها لم ولن تعود كما كانت على أيام الزباء[١] .

XXXXX

---

(١) جواد علي ٣/١٢٨-١٢٩ ، المشرق ، الجزء ٢٣ ، ص ١٠٦٣ ، وكذا
Syria, VII, 1926, P. 77
وكذا A. Musil, Palmyrena, P. 247-248 وكذا Malamas, P. 426
وكذا W. Wright, op. cit., P. 169 وكذا Theophanus, Chronographia, I, 267.
وكذا Encyclopaedia Biblica, 17, P. 163.

الفصل السابع عشر

الغساسنة

في أثناء الفترة التي كانت فيها دولة تدمر تتوارى في الظلام ، بعيداً عن المسرح السياسي والحضاري ، كان بدو شبه الجزيرة العربية يمتلئون بقوة جديدة ، فالظروف الإقتصادية التي أحاطت باليمن ، من انهيار سد مأرب ، ثم حدوث سيل العرم ، وغيره من أحداث ، أدت إلى اضمحلال دولة حمير اليمنية ، كل ذلك وغيره كان سبباً في أن تهاجر قبائل بأسرها من جنوب بلاد العرب إلى شمالها ، بحثاً عن أرض جديدة[1] .

وكانت النتيجة الأخيرة لهذه الحركة أن ذاق الفرس والروم مرّ العذاب من هجرة الأعراب وغزواتهم ، فأنشأوا على أطراف الصحراء الحصون ومدوا الطرق العسكرية ليأمنوا غارات قبائل البدو ، وليسهلوا طرق التجارة ، واتخذ الفرس قبائل من العرب عرفوا باللخميين أو المناذرة ، كما اتخذ الرومان أولاً قبائل من بني سليح ، ثم قبائل من بني غسان أعواناً لهم[2] .

---

(١) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٠٤ ، وانظر : عبد اللطيف الطيباوي : محاضرات في تاريخ العرب والاسلام — الجزء الثاني — بيروت ١٩٦٦ ص ٩—١٠ .

(٢) عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٢ .

وهكذا جاءت عقب البتراء وتدمر دويلتان جديدتان على أطراف الصحراء ، ففي القرن الخامس والسادس الميلادي ، ازدهرت حول دمشق مملكة الغساسنة ، وفي نفس الوقت ازدهرت دويلة اللخميين في الحيرة بالقرب من ضفاف الفرات ، وكانت هاتان الدويلتان تابعتين لامبراطوريتي بيزنطة وفارس — وكانتا بمثابة مركزي حراسة لهما على حدود الصحراء ، وقد نتج عن هذه السياسة التي سارت عليها الإمبراطوريتان القديمتان دوام الحرب بين دولتي المناذرة والغساسنة — وهما أبناء عم ومن دم واحد — ولكنهما اضمحلتا واختفتا قبيل الفتح الإسلامي العظيم[1] ، تاركتين الإمبراطوريتين وجهاً لوجه مع الهداة الجدد ، حملة لواء الإسلام ، وهداية القرآن ، وسنة المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — .

وهكذا قامت دولة الغساسنة للروم ، مقابل دولة المناذرة للفرس ، بمعنى أنها كانت دولة حاجزة (Buffer State) اتخذ منها الروم مجنّاً يقيهم شر هجمات البدو عليهم من أطراف الصحراء من جهة ، وليثيروهم ضد الفرس ويستعينوا بهم عليهم من جهة أخرى[2] ، هذا إلى أن المناذرة إنما كانوا يجمعون الضرائب من القبائل العربية القريبة منهم ، ويقدمونها للفرس ، كما كان الغساسنة يجمعون مثل هذه الضرائب للروم[3] .

وتاريخ دولة الغساسنة هذه غامض لقلة المصادر ، ولامتزاج الحقائق فيه بالأساطير ، ولضياع معظم آثار بني غسان ، ومن ثم فلا تتفق المصادر العربية مع اليونانية إلا في النذر اليسير ، بل إن المؤرخين العرب أنفسهم إنما يختلفون في عدد الملوك وأسمائهم وسني حكمهم[4] ، فهم عند « حمزة الأصفهاني » ٣٢ ملكاً ، وعند « أبي الفداء »

---

(١) موسكاتي : المرجع السابق ص ٢٠٤ ، قارن : ابن كثير ٢١٨/٢ .

(٢) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ١١١ .

(٣) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٦٨ .

(٤) راجع القوائم في : جواد علي ٤٤٣/٣-٤٤٧ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص٢-١ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٢ .

٣١ ملكاً[١] ، وعند المسعودي وابن قتيبة إنما هم أحد عشر فقط[٢] ، وأما « نولدكه» فالرأي عنده أن عددهم لا يتجاوز العشرة ، وأنهم حكموا في الفترة (٥٠٠–٦٣٥م) ، بل إن « هرشفلد » ليحددهم بسبعة فقط[٣] ، ويرى « جرجي زيدان » أنهم سبعة عشر وأنهم حكموا في الفترة (٢٢٠–٦٣٣م)[٤] .

ولعل السبب في هذا الإختلاف إنما هو اختلاط أخبار آل غسان بالقبائل العربية التي سبقتهم إلى سورية ، ودانت بالنصرانية وخضعت لحكم الرومان ، كما أن من أسبابه أيضاً اقتصار مؤرخي العرب على الناحية الأدبية من تاريخ الغساسنة ، وإهمال تاريخهم السياسي ، بالطريقة التي أهملوا بها تاريخ اليونان والرومان ، أضف إلى ذلك هذا التشابه في الأسماء بين حارث ومنذر ونعمان ، واختلاط ذلك أيضاً بالتشابه والتقارب مع أسماء ملوك المناذرة[٥] .

أضف إلى ذلك أن هذا الإختلاط أو الخلاف بين مؤرخي العرب على عدد ملوك آل غسان ، إنما هو دليل على ما يحيط بأسرة «آل جفنة» من غموض ، وفي الواقع أن تاريخ الأسرة بكامله غامض ، حتى أصل الأسرة نفسها ، فالمؤرخون العرب يرون أن الغساسنة — وكذا المناذرة — إنما هم من عرب الجنوب ، إلا أن العلماء المحدثين ما يزالون في ريب من هذا ، ويرجحون أنهم من عرب الشمال ، لأسباب ، منها (أولاً) أن لغة الغساسنة — وكذا المناذرة — إنما هي لغة عدنانية ، أكثر منها قحطانية ، بل إنها لا تمت إلى الحميرية الجنوبية بصلة ، ومنها (ثانياً) أن أسماءهم إنما تشبه في مجموعها أسماء عرب الشمال ، وكذا العادات والدين ، والتي هي أكثر انطباقاً على عادات وديانة عرب الشمال[٦] .

(١) حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٩٩ ، أبو الفداء ٧٢/١–٧٣ ، ابن خلدون ٢٨٢/٢ .
(٢) مروج الذهب ٨٢/٢–٨٦ ، المعارف ص ٦٤٢ ، ابن خلدون ٢٨١/٢ .
(٣) جواد علي ٤٤٦/٣ ، هرشفلد : ديوان حسان بن ثابت ص ٩٦ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٩٣ ، قارن : كتاب المحبر لابن حبيب ص ٣٧٢ .
(٤) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٩٧–١٩٨ .
(٥) عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٣ .
(٦) محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ٩٦ .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الرواية العربية — كما أشرنا من قبل — تذهب إلى أنهم قد هاجروا من اليمن واستوطنوا أرض حوران[1] حيث كان هناك قوم يعرفون « بالضجاعمة » من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاعة ، قد استقروا هناك ، ورضخوا لحكم الرومان ودانوا بالنصرانية من قبل مجيء بني غسان ، ثم اعترفت الدولة البيزنطية بهم ووضعتهم تحت حمايتها ؛ واتخذتهم أعواناً لها ضد المناذرة والفرس ، وكان ذلك في زمن الأمبراطور « أنستاسيوس » حوالي آخر القرن الخامس الميلادي ، ومن ثم فقد كانوا أول من شيد ملكاً للعرب هناك[2] .

وأما الغساسنة ، فقد استقروا في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق ، على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل الهام الذي كان يربط بين « مأرب » في الجنوب ، و « دمشق » في الشمال[3] ، وأما متى حدثت هجرة الغساسنة — وكذا المناذرة — من اليمن إلى الشام ، فذلك موضع خلاف بين العلماء . صحيح أن الروايات العربية تحدد ذلك بانهيار سد مأرب ، ثم حدوث سيل العرم ، ولكن صحيح كذلك أن سد مأرب إنما انهار عدة مرات خلال الفترة الطويلة التي مضت منذ تشييده — لأول مرة — في منتصف القرن السابع قبل الميلاد — وربما الثامن كذلك[4] — وبين آخر مرة أصلح فيها السد في عام ٥٤٣م على أيام أبرهة الحبشي ، إذ أن هناك عدة إشارات في النصوص العربية الجنوبية إلى تهدم السد وإصلاحه[5] ، ومن ثم فلا ندري على وجه

---

(١) هي حورانو في الآشورية ، وباشان في التوراة ، وأورانيتس في آداب اليونان وأن جبل الدروز اليوم داخل ضمن نطاق حوران (فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٠٢
وكذا قارن : D. D. Luckenbill, op. cit., I, P. 672, 721

(٢) عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١١ .

(٣) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٥٨ ، كتاب المحبر ص ٣٧٠-٣٧١
وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 78.

(٤) جواد علي ٢٨١/٢ ، نزيه مؤيد العظم : المرجع السابق ص ٨٨ ، وكذا —
F.Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 27 وكذا D. Nielseon, op. cit., P. 79.

(٥) فريتز هومل : المرجع السابق ص ١٠٩ ، فؤاد حسنين : المرجع السابق ص ٣٠٤ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ١٨٣ ، جواد علي ٥٨٠/٢-٥٨٦ ، ٣٨٣/٣-٣٨٤
وكذا J. B. Philby, op. cit., P. 118 وكذا A. Jamme, op. cit., P. 176
وكذا R. A. Nicholson, op. cit., P. 16 وكذا Le Museon, 1964, P. 493-4.

التحديد في أي وقت من هذه الفترة — التي ربما تزيد على اثني عشر قرناً — قد حدثت هذه الهجرة ، وأما الروايات العربية ، فبعضها يذهب إلى أن ذلك إنما كان قبل الإسلام بأربعة قرون ، وبعضها يرى أن ذلك إنما كان على أيام الحبشة ، وبعضها يرى ذلك في القرن الخامس الميلادي ، على أيام «حسان بن تبان أسعد» ، وأخيراً فإن هناك روايات ترى أن ذلك إنما كان في القرن الرابع الميلادي[١] .

وعلى أي حال ، فما أن يمضي حين من الدهر على هجرة الغساسنة إلى الشام ، حتى تبدأ الخلافات بينهم وبين الضجاعمة وينتهي الأمر بغلبة بني غسان على بني سليح ، وإن لم يقضوا عليهم نهائياً ، ومن ثم فقد بقوا — كما يرى نولدكه — في مواضع أخرى من الشام إلى زمن متأخر ، بدليل أن النابغة الذبياني قد زار أحدهم في « بصرى » ، وأن جماعة منهم قد حاربوا خالد بن الوليد في دومة الجندل تحت قيادة « ابن الحدرجان » وفي « قصم »[٢] .

ويروي الأخباريون أن الغساسنة إنما يسمون بعدة أسماء ، منها « أزدغسان » ، ويذهبون إلى أن « أزد » إنما هو اسم قبيلة ، وأما « غسان » فهو اسم ماء في تهامة ، نزل القوم عليه وشربوا منه ، ومن ثم فقد عرفوا بأزدغسان ، وعرف نسلهم بالغساسنة[٣] ، ويسمون كذلك « آل ثعلبة » نسبة إلى جد لهم يعرف باسم « ثعلبة ابن مازن »[٤] ، كما يسمون كذلك « آل جفنة » و « أولاد جفنة » ، لأن أول ملوكهم إنما كان يسمى « جفنة بن عمرو مزيقياء »[٥] .

---

(١) ياقوت ٥/٣٥ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٥٥ ، أحمد ابراهيم الشريف : المرجع السابق ص ٣١٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٧٨ ، ابن خلدون ٢١/٢٧٨ ، فتوح البلدان ١/١٣٢ ، المحبر ص ٣٧١ .

(٣) مروج الذهب ٢/٨٢—٨٣ ، ابن خلدون ٢/٢٧٩ ، الإشتقاق ٢/٤٣٥ ، ياقوت ٢/٣٢٩ ، ٤/٢٠٣—٢٠٤ ، نهاية الأرب ص ٢١ ، حمزة الأصفهاني ص ٧٦ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١١ .

(٤) تيودور نولدكه : أمراء غسان ص ٤ ، المحبر ص ٣٧١ .

(٥) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٥٨ ، الأصمعي : تاريخ ملوك العرب الأولية ص ١١٠—١٠٢ ، شرح ديوان حسان بن ثابت للبرقوقي ص ٢٨٧ ، الإشتقاق ٢/٤٣٥ ، ابن خلدون ٢/٢٧٩—٢٨١ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٧١—٢٧٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٦—٧٧ ، وكذا F. Altheim and R. Stichl, op. cit., II, P. 332.

وأما العاصمة السياسية لآل جفنة ، فيبدو أنها كانت في البدء مخيماً متنقلا ، ثم استقرت بعد ذلك في « الجابية » في منطقة الجولان جنوب غربي دمشق ، كما كانت في بعض الوقت في « جلق » في جنوب حوران[1] — والتي ربما كانت « الكسوة » الحالية ، على مبعدة عشرة أميال جنوبي دمشق — وأما ديارهم ، فكانت — طبقاً لبعض الروايات العربية — في اليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ، وأن منهم من نزل الأردن من أرض الشام[2] ، وعلى أي فلقد امتدت دولتهم حتى شملت الجولان وحوران والبلقاء ، وأحياناً فينيقيا ، فضلاً عن أعراب سورية وفلسطين[3] .

وعلى أي حال ، فليس هناك من دليل على أن الغساسنة ، قد ملكوا المدن الكبيرة في الشام كتدمر وبُصرى ودمشق ، إذ أن هذه كانت محصنة ، تتمركز فيها الحامية البيزنطية ، ولكنهم كانوا يعتمدون على الصحراء ، إذا داهمهم الخطر ، فكانت تغنيهم عن المدن المحصنة ، ومن ثم فقد كانت معظم حروبهم تدور على أطراف البادية ، وإليها التجأوا عندما خلعوا سلطان الإمبراطور وثاروا عليه في عهد « النعمان ابن المنذر » ، ولهذا فقد كان الروم يقيمون عمالاً صغار بجانب ملوك غسان ، حفاظاً على التوازن السياسي ، وإبقاء لسلطان الدولة في الأوقات العصيبة ، طبقاً لسياسة « فرق تسد »[4] .

---

(١) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٩ ، ياقوت ٩١/٢ ، ١٥٥ ، البكري ٣٥٥/٢ ، ٣٩٠ ، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ١٨٨-١٨٩ ، بلاشير : المرجع السابق ص ٥٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة جابية ومادة جلق ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٢ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ١١٦ وكذا

R. Dussaud, Topographie historique de la Syrie Antique et Medievale, P. 317-18, 332-3.

وكذا Leone Caetani, Annali dell' Islam, II, P. 928.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٨٥/٢ .

(٢) عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٢ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢ .

ملوك الغساسنة :

لعل « الحارث بن جبلة » (٥٢٨–٥٦٩م) ، والمعروف بالأعرج ، وبالحارث الأكبر ، أول أمراء بني جفنة الذين يمكن الإطمئنان إلى وجودهم ، وهو في نظر « نولدكه » اريتاس (Aretas) الذي ذكره المؤرخ السرياني « ملالا » على أنه كان عاملاً للروم[1] ، وقد عاصر الرجل من أباطرة الروم « جستنيان » (٥٢٧–٥٦٥م) ، ومن أكاسرة الفرس « قباذ » (٤٤٨–٥٣١م) و « كسرى أنوشروان » (٥٣١–٥٧٩م) ، ومن أمراء الحيرة « المنذر الثالث » (٥٢١–٥٥٤م) .

وهناك ما يشير إلى نشوب حرب بين الحارث والمنذر الثالث ، ربما بسبب العداوة التي انتقلت إليهم من العداوة التي كانت بين الفرس والروم ، وربما لأن أمير الحيرة ادعى أن القبائل العربية النازلة فيما بين دمشق وتدمر ، إنما تخضع لسلطانه ، فنازعه الأمير الغساني هذا السلطان ، وأياً ما كان السبب ، فإن الرجلين قد اشتبكا في أبريل من عام ٥٢٨م في حرب كتب النصر فيها للحارث الغساني ، ومن ثم فقد منحه « جستنيان » لقب «ملك» – وهو لقب لم يمنحه الروم لواحد من عمالهم في سورية من قبل – كما بسط سلطانه على قبائل عربية متعددة ، بغية أن يجعل منه خصماً قوياً لأمير الحيرة ، إلا أن المنذر لم يرعو مع ذلك عن غزو حدود الشام الشرقية ، حتى بلغ أسوار أنطاكية ، وإن أجبره ظهور القوات الرومانية على العودة إلى بلاده قبل أن يشتبك معها[2] .

على أن « نولدكه » إنما يرى أن « جستنيان » لم يمنح الحارث بن جبلة لقب « ملك » فذلك لقب كان مقصورا على أباطرة الروم ، وإنما منحه في عام ٥٢٩م ، لقب « بطريق » (Patricius) أو لقب « شيخ قبيلة » (فيلارخ Phylarch)

---

(١) نولدكه : أمراء غسان ص ٩ ، وكذا Malalas, 2, 166

(٢) نولدكة : أمراء غسان ص ١١ ، وكذا J. B. Bury, op. cit., P. 81, 91 وكذا Procopius, I, XVII, 43-48.

ثم ترجم العرب – وكذا السريان – هذا اللقب بمعنى « ملك »[1] ، هذا ونعرف من نقش (جلازر ٦١٨)[2] أن أبرهة الحبشي لم يسبغ على الحارث بن جبلة في هذا النقش لقب ملك ، مما يدل على أن الرجل لم يكن يحمل لقب « ملك » بصفة رسمية ، وأن الملوك من تلك الفترة لم يكونوا يعدونه واحدا منهم ، وعلى أي حال ، فإن الحارث بن جبلة كان أول أمراء بني غسان الذين حملوا اللقبين (بطريق وفيلارخ) معاً ، ثم توارثهما الأبناء عن الآباء فيما بعد[3] .

هذا ويرى « ملالا » أن الحارث قد أخمد ثورة في فلسطين قام بها السامريون في عام ٥٢٩م[4] ، وهم من بقايا الإسرائيليين الذين بقوا في السامرة – عاصمة إسرائيل – بعد الأسر الأشوري في عام ٧٢٢ ق.م ، ثم اختلطوا بالمهجرين الجدد الذين أتى بهم سرجون الثاني (٧٢٢–٧٠٥ ق.م) من بلاد بعيدة ، ومن ثم فقد ظهر جنس جديد ، هم السامريون ، الذين يختلفون عن اليهود دماً ، وإن كانوا أقرب اليهم من غيرهم ثقافة وديناً[5] ، غير أنهم رغم اتفاقهم مع اليهود في عبادة « يهوه » ، إلا أن شقاقاً قد حدث بين الفريقين حوالي عام ٤٣٢ ق.م ، بعد عودة « عزرا » و « نحميا » من السبي البابلي ، بسبب النقاوة العنصرية لليهود ، ومن ثم فقد أصبح

---

(١) نولدكه : أمراء غسان ص ١١–١٢ ، جواد علي ٤٠٦/٣ ، المشرق ، الجزء ١١ ص ٤٨٥ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٩٨–١٩٩ .

(٢) أنظر عن هذا النقش E. Glaser, MVG, 1897, P. 390.
وكذا le Museon, 66, P. 360 وكذا A. Sprenger, op. cit., P. 189, 306
وكذا A. Beeston, BSOAS, 16, 1954
وكذا A. J. Drewes, Inscriptions de l'Ethique, 1961, 65, 1962, 71.
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, P. 587

(٣) بلاشير : المرجع السابق ص ٦٠ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٣ ، جواد علي ٤٠٦/٣–٤٠٧ ، وكذا Provincia Arabia, II, P. 174.

(٤) نولدكه : أمراء غسان ص ١٠ ، جواد علي ٤٠٥/٣ ، وكذا O'leary, op. cit., P. 164
وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 79. وكذا Malalas, II, P. 180

(٥) أنظر كتابنا « إسرائيل » ص ٥١١–٥١٢ ، وكذا C. Noth, op. cit., P. 28-9.

السامريون يتخذون من « جرزيم » – وليس أورشليم – مكاناً مقدساً لهم ، وأن التوراة المعترف بها في نظرهم ، إنما هي الأسفار الخمسة الأولى دون سواها ، وإن أضافوا إليها في بعض الأحايين سفر يشوع ، ومن ثم فإن كتابهم المقدس إنما يتكون من ستة أسفار فقط (التكوين ، الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية ، يشوع)[1] .

وعلى أي حال ، ففي ١٩ من أبريل عام ٥٣١م ، تنشب معركة حامية الوطيس بين الفرس والروم ، يشترك فيها الحارث بن جبلة إلى جانب الروم تحت قيادة « بليزاريوس » ، وتنتهي بنصر للفرس وهزيمة للروم ، وبإلقاء ظلال من شك في إخلاص الحارث للروم ، ولعل السبب في ذلك أن الحارث لم يكد يعبر الدجلة حتى ارتد إلى مواقعه السابقة عن طريق آخر غير التي سلكها معظم الجيش ، وربما أنف الرجل أن يعمل تحت قيادة قائد بيزنطي ، وربما كان يفضل أن يعمل بمفرده ، وربما كان السبب خلافاً بين الرجلين على أمر ما[2] .

وفي عام ٥٤٤م ، تتجدد المعارك بين الحارث والمنذر ، وينتهي القتال بهزيمة الأمير الغساني وأسر أحد أولاده ، الذي قدمه المنذر قرباناً للإلهة العزى ، وفي عام ٥٤٥م (أو ٥٤٦م) ترفرف رايات السلام على المعسكرين المتنافسين – الفرس والروم – ولكن الأمر كان جد مختلف بالنسبة لحلفائهما من المناذرة والغساسنة ، إذ سرعان ما يتجدد القتال بينهما ، وهناك ، وعلى مقربة من « قنسرين » تنشب بين المنذر والحارث معركة رهيبة في عام ٥٥٤م ، تنتهي بقتل المنذر نفسه ، فضلاً عن ابن للحارث يدعى « جبلة » دفنه أبوه في قلعة « عين عوداجة » على مقربة من قنسرين

---

(١) ملوك ثان : ١٧ : ٢٥ ، ٣٣ ، نحميا ١٣ : ٢٨ ، قاموس الكتاب المقدس ١/٤٥١ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٢١٤ ، كتابنا إسرائيل ص ٢٠ ، حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، وكذا M. Unger, op. cit., P. 959

(٢) نولدكه : المرجع السابق ص١٨ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ١٩٩–٢٠٠ ، عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٨١ ، جواد علي ٣/٤٠٧ ، بلاشير : المرجع السابق ص ٦٠ ، وكذا P K. Hitti, op. cit., P. 79 وكذا A. Musil, Palmyrena P. 274 وكذا Malalas, 2, 199, 202. وكذا Procopius, I, 8

ـ وربما كانت « عذبة » الحالية على مقربة من الطريق الروماني ـ على أن « نولدكه » إنما يرى أن الموقعة قد حدثت بالقرب من « الحيار » ، ربما اعتمادا على رواية عربية تجعل موت المنذر في هذا المكان قريباً من « قنسرين[1] » .

ولعل هذه المعركة هي التي عرفت في أخبار العرب بـ « يوم حليمة » ، ذلك لأن حليمة بنت الحارث هذه ـ طبقاً للرواية العربية ـ كانت تحرض الرجال على القتال ، أولأن أباها قد أعلن أنها سوف تكون زوجة لمن يقتل المنذر ، أو لأنها كانت قد أقبلت على مائة من المحاربين تطيب أجسامهم وتلبسهم الأكفان والدروع[2] ، وأياً ما كان الأمر ، فهناك ما يشير إلى شهرة هذا اليوم من بين أيام العرب في الجاهلية ، فقد جاء ذكره في شعر النابغة الذبياني ، كما جاء في الأمثال ، « ما يوم حليمة بسر[3] » ، وإن كان « نولدكه » إنما يذهب إلى أن « حليمة » هذا ، إنما هو إسم مكان ، وليس اسماً لامرأة ، هي إبنة الحارث ـ طبقاً لرواية الإخباريين ـ كما أنه لا يفرق بين المواضع والمعارك التي دارت في « الحيار » و « ذات الخيار » و « يوم الحيارين » ، التي ترددت في كتب التاريخ والشعر العربي ، كما أنه يرى أنها جميعاً ، إنما تشير إلى معركة واحدة ، لقي المنذر فيها حتفه[4] .

وعلى أي حال ، فهناك ما يشير إلى أن الحارث قد اعتنق النصرانية على المذهب « المونوفيزي » القائل بوجود طبيعة واحدة للسيد المسيح ، وليس طبيعتين ـ الواحدة

---

(١) نولدكه : المرجع السابق ص ١٨ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٨ ، المعارف ص ٢١٨ ، قارن : أبو الفداء ١/٨٤ ، وانظر : A. Musil, Polmyrena, P. 144
J. B. Bury, op. cit., P. 92. وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 79, 82

(٢) المعارف ص ٢٨٠ ، مجمع الأمثال ٢/٢٧٢-٢٧٣ ، المفضليات ص ١٨٧ ، خزانة الأدب ٣/٣٠٣ ، إبن خلدون ٢/٢٨١ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٥٤-٥٥ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٠٠-٢٠١ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٣-١٤ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٠٨ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 79 .

(٣) ابن الأثير ١/٥٤٢-٥٤٧ ، ديوان النابغة ص ٣٧ ، صحيح الأخبار ٢/٢٦ ، ياقوت ١/٢٩٦-٢٩٧ .

(٤) ابن الأثير ١/٥٤١ ، نولدكه : المرجع السابق ص ١٩-٢٠ ، البكري ٢/٤٦٥ ، صحيح الأخبار ٤/١٣-١٤ .

إلهية ، والأخرى بشرية – ومن ثم فقد سعى في عام ٥٤٢ /٥٤٣ م ، لدى الإمبراطورة « ثيودورة » زوج الإمبراطور جستنيان (٥٢٧–٥٦٥م) ، لتعيين يعقوب البرادعي ، مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية ورفيقه « ثيودوروس » أسقفين في المقاطعة العربية السورية على رأي[1] ، وأثناء رحلته إلى القسطنطينية في عام ٥٦٣م ، على رأي آخر[2].
وأياً ما كان الأمر ، فلقد عمل الحارث على نشر المذهب المونوفيزي في دويلته ، وأصبحت « بصرى » عاصمة دينية للمنطقة ، وذلك على الرغم من أن الإمبراطورية الرومانية كانت تنظر إلى هذا المذهب المسيحي نظرة شك وريبة ، ومن ثم فقد كان هذا سبباً في أن ينظر الإمبراطور إلى الحارث نفسه ، نظرة الشك ذاتها ، وزاد النار اشتعالاً بطارقة القسطنطينية الذين كانوا يكرهون المذهب اليعقوبي ، ويعتبرونه نوعاً من الهرطقة الدينية[3] .

ومهما يكن من أمر ، فلقد وصلت دولة الغساسنة وقت ذاك إلى ذروة اتساعها ؛ فقد كانت تمتد من قرب البتراء إلى الرصافة شمالي تدمر ، وتشمل البلقاء والصفا وحران ، وأصبحت « بصرى » التي بنيت « كاتدرائيتها » في عام ٥١٢م العاصمة الدينية في المنطقة ، فضلاً عن شهرتها كمركز تجاري هام[4] .

وفي عام ٥٦٣م ، زار الحارث جستنيان في القسطنطينية ، فترك أثراً عميقاً في نفوس رجال البلاط الإمبراطوري ، كشيخ عربي مهيب ، وإن لم يقابل بما يجب أن يقابل به الأبطال من مظاهر الحفاوة والتكريم ، بسبب الخلافات المذهبية ، ولعل

---

(١) نولدكه : المرجع السابق ص ٢٠–٢١ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٨٤ ، وكذا
وكذا J. B. Bury, op. cit., II, 391 وكذا R. Bell, op. cit., P. 21
وكذا W. Smith, op. cit.,II, P. 328.
وكذا Francois Nau, Les Arabes Christiens, P. 52.

(٢) عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٤ وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 79.

(٣) نولدكه : المرجع السابق ص ٢٢ ، المشرق ، الجزء ١١ ص ٤٨٦
وكذا Provincia Arabia, II, P. 174. وكذا R. Bell, op. cit., P. 23

(٤) فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٨ .

السبب في هذه الزيارة ، إنما كان مفاوضة الرومان فيمن يخلفه من أولاده ، فضلاً عن الإتفاق على السياسة التي يجب اتخاذها إزاء « عمرو بن المنذر[١] » .

وجاء بعد الحارث ولده المنذر (٥٦٩-٥٨١م ، أو ٥٧٠-٥٨٢م)[٢] ، وهو المعروف بـ (Alamoundaros) عند اليونان والسريان ، وبالمنذر الأكبر عند « حمزة الأصفهاني »[٣] ، وقد نهج نهج أبيه في معاداة اللخميين أتباع الفرس ، وإن كان أكبر الظن أن ملك الحيرة « قابوس بن هند » هو البادىء بالحرب ، وهكذا دارت رحى الحرب بين الفريقين عند « عين أباغ » في مايو من عام ٥٧٠م ، كتب النصر فيها للمنذر الغساني ، ولقي اللخميون هزيمة نكراء[٤] .

وما أن يمضي حين من الدهر ، حتى تبدأ العلاقات بين الروم وآل جفنة تتلبد بالغيوم ، ربما بسبب الخلافات المذهبية بين الفريقين وتعصب المنذر الغساني للمذهب المونوفيزي ، بل إن هناك من يذهب إلى أن المنذر قد عقد مجمعاً كنسياً أعلن فيه هرطقة القائلين بالتثليث ، وعلى رأسهم الإمبراطور نفسه ، وربما لأن سياسة المنذر كانت هي السبب في استيلاء الفرس على (Rhomaye)[٥] .

---

(١) نولدكه : المرجع السابق ص ٢٠ ، جواد علي ٤٠٩/٣ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٠١ ، سعد زغلول المرجع السابق ص ٢٠٩ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٤ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٨ ، وكذا O'Leary, op. cit., P. 165
وكذا F. Nau, op. cit., P. 58
وكذا Theophanes, Chronolographia, P. 24.

(٢) نولدكه : المرجع السابق ص ٢٥ ، جواد علي ٤١٢/٣
وكذا F. Altheim and E. Stiehl, op. cit., I, P. 10

(٣) حمزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ص ٦٨
وكذا Prcopius, BK, I, Ch. 17, 47

(٤) نولدكه : المرجع السابق ص ٢٧ ، تاريخ ابن خلدون ٢٨١/٢ ، محمد الخضري : المرجع السابق ص ٣٥ ، قارن : ابن الأثير ٥٤٠/١-٥٤١ ، أبو الفداء ٩٧/١ ، جواد علي ٤١٣/٣
وكذا Provincia Arabia, III, P. 355 وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 79

(٥) عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٥ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٩ .

وأياً ما كان السبب فإن الإمبراطور « جستين الثاني » (٥٦٥–٥٧٨م) ، بدأ يرتاب في ولاء المنذر السياسي ، ومن ثم فقد قرر التخلص منه عن طريق البطريق « مرقيانوس » ، إلا أن المنذر – على ما يبدو – لم يكن غافلاً عما يدور حوله ، أو أن حامل الرسالة إلى « مرقيانوس » قد أخطأ صاحبها ، فسلمها إلى المنذر بدلاً من البطريق ، وهكذا فرّ المنذر إلى البادية ، وتحصن بها ، بل إن هناك من يذهب إلى أنه قد انتهز الفرصة ، فصالح أعداءه التقليديين (ملوك الحيرة) ، وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى أن يشن قابوس بمفرده – أو بالأشتراك مع المنذر – الغارات على سورية ، وأن يعيث فيها فساد [1] .

ويضطر الإمبراطور الروماني في عام ٥٧٨م ، إلى عقد صلح مع المنذر في الرصافة ، وهناك ما يشير إلى أن ملك غسان قد قام بعدة إصلاحات في الرصافة ، كما بنى أو جدد كنيستها [2] ، كما قام في عام ٥٨٠م ، بزيارة القسطنطينية ، حيث استقبله « تيبيريوس » الثاني (٥٧٨–٥٨٢م) إستقبالاً حافلاً ، فضلاً عن الإنعام عليه بالهدايا وعلى ولديه برتب عسكرية ، إلا أن أعظم المنح إنما كان « التاج » بدل « الإكليل » ، الأمر الذي لم يسبق له مثيل مع ملوك الغساسنة ، حتى أطلق عليه مؤرخو الروم « المنذر ملك العرب [3] » .

على أن العلاقات بين المنذر والروم ، سرعان ما بدأت تسوء من جديد ، وربما كان السبب هذه المرة فشل المحاولة التي قام بها الروم لغزو الفرس ، بسبب هدم

---

(١) نولدكه : المرجع السابق ص ٢٦ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٦٠ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٩ ، جواد علي ٣/٤١٢–٤١٤ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٠ وكذا Provincia Arabia, II, P. 174

(٢) P. K. Hitti, op. cit., P. 80 وكذا A. Musil, op. cit., P. 165, 264, 323 وكذا F. Nau, op. cit., P. 69.

(٣) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٠١ ، سعد زغلول ، المرجع السابق ص ٢١٠ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٥ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 80. وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, P. 10 وكذا A. Musil, op. cit., P. 263-4, 267.

الجسر المنصوب على الفرات ، واتهام المنذر بذلك ، وزاد الطين بلة أن المنذر أراد استرضاء الروم فأغار على الحيرة وأحرقها بالنار ، ثم عاد محملاً بالغنائم الكثيرة ، غير أن هذا النجاح الساحق الذي حققه المنذر على اللخميين لم يمح ريبة الروم في ولائه لهم ، وإنما اعتبروه تحدياً لهم ، ورغبة منه في الخروج على طاعتهم ، ومن ثم فقد انتهزوا فرصة تدشينه لكنيسة في حوّارين ، وقبضوا عليه وأرسلوه مخفورا إلى العاصمة البيزنطية ، مع إحدى نسائه وبعض بناته وأولاده ، حيث بقي هناك ، إلى أن تولى « موريس » (٥٨٢–٦٠٢م) العرش ، فأمر بنفيه إلى صقلية في عام ٥٨٢م ، فضلاً عن قطع المعونة السنوية عن آل جفنة [١] .

وقد أدى هذا التصرف من جانب البيزنطيين إلى ثورة أبناء المنذر ، وأخذوا يهاجمون حدود الروم بقيادة « النعمان » الذي خدع حوالي عام ٥٨٤م — كما خدع أبوه من قبل — فأرسل إلى القسطنطينية ، وهكذا تصدع ملك الغساسنة ، وانقسم أمراؤهم شيعاً وأحزاباً ، وحاول الروم أن يجدوا لهم بديلاً في القبائل العربية ، لإعادة الأمن وحماية الحدود من عرب الحيرة ، ولكن دون جدوى [٢] ، حتى استطاع الفرس على أيام « كسرى أبرويز » (٥٩٠–٦٢٨م) غزو سورية (٦١١–٦١٤م) فاستولوا على انطاكية ودمشق وبيت المقدس وخلقدونية — في مقابل القسطنطينية بآسيا الصغرى — ثم فتحوا مصر في عام ٦١٩م ، وإن كان ، فيما يبدو ، أن هرقل (٦١٠–٦٤١م) حين نجح في استعادة سورية عام ٦٢٩م ، ربما استعمل الغساسنة مرة أخرى ، بدليل أنهم قد حاربوا المسلمين مرارا في جانب الروم ، وأن خالدا بن الوليد قد أوقع بهم في « مرج الصفر » جنوب دمشق ، عام ٦٣٤م [٣] .

---

(١) نولدكه : المرجع السابق ص ٣٠–٣١ ، فيليب حتى : المرجع السابق ص ٤٤٩ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٦٠
وكذا Provincia Arabia, II, P. 175. وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 80

(٢) نولدكه : المرجع السابق ص ٣٣ ، ٣٥ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٥ ، وكذا EI, II, P. 143

(٣) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٩٣ ، هـ.ج . ويلز : موجز تاريخ العالم ص ١٩٥ ، قارن : سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٤ .

وأياً ما كان الأمر ، فإن الروايات العربية تنظر إلى « جبلة بن الأيهم » على أنه آخر الغساسنة ، وأنه قد حارب المسلمين في جانب الروم في موقعة اليرموك عام ٦٣٦م ، على أن رواية أخرى إنما تذهب إلى أنه قد انحاز إلى جانب الأنصار : قائلاً « أنتم إخوتنا ، وبنو أبينا » ، وأظهر الاسلام[1] ، إلا أنه قد ارتد بعد ذلك بسبب إهانة لحقته ، حين وطيء أعرابي من فزاره فضل إزاره ، وهو يسحبه في الأرض بمكة ، فلطمه جبلة ، ومن ثم فقد نابذه الأعرابي إلى الخليفة الراشد « عمر ابن الخطاب » — رضي الله عنه وأرضاه — فحكم له بالقصاص ، واعتبر « جبلة » ذلك إهانة له ، ففر إلى بلاد الروم وارتد عن الإسلام ، وبقي هناك حتّى وافته منيته[2] .

على أن رواية أخرى إنما تذهب إلى أن الحادث إنما كان في دمشق — وليس في مكة — وأنه كان عندما مر جبلة في سوقها فأوطأ رجلاً فرسه ، فوثب الرجل فلطمه ، فأدخلوه على « أبي عبيدة بن الجراح » الذي حكم بالقصاص ، وكان جبلة يريد أن يقتل الرجل أو تقطع يده ، فرفض أبو عبيدة ، إلا حكم الله ، فخرج جبلة إلى بلاد الروم وارتد[3] ، وأخير فهناك رواية ثالثة تذهب إلى أن جبلة لم يدخل في الإسلام أبد[4] .

---

(١) فتوح البلدان ص ١٤١ ، جواد علي ٤٢٧/٣ ، قارن : تاريخ الطبري ٣٧٨/٣ ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ١٦ .

(٢) مروج الذهب ٨٤/٢–٨٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢٨١/٢ ، المحبر ص٣٧٢ ، تاريخ الخميس ٦١/٢ ، الأغاني ٢/١٤ وما بعدها ، عبد اللطيف الطيباوي : المرجع السابق ص ٢٠ ، قارن : العقد الفريد ١٨٧/١ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P, 80.

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٦٥/١ ، المعارف ص ٢٨١ ، قارن : الواقدي : فتوح الشام ١٠٦/١ ، ١١٠ ، ١١٤ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٤٢ ما بعدها .

الفصل الثامن عشر

المناذرة

(١) مدينة الحيرة .

كان العرب منذ قديم الزمان يهاجرون إلى تخوم شبه الجزيرة العربية الشرقية ، حتى إذا ما وصلوا إلى وادي الفرات أقاموا في ربوعه ، وفي أوائل القرن الثالث الميلادي ، وإبان الاضطرابات التي أعقبت سقوط الأسرة البارثية وقيام الأسرة الساسانية في حوالي عام ٢٢٦م ، تحت زعامة « أردشير بن بابك بن ساسان » وفدت طلائع عربية جديدة من قبائل تنوخ اليمنية ، وسكنت في المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات ، وما أن يمضي حين من الدهر حتى تحولت الخيام إلى مدينة عرف « بالحيرة » ، تحولت بمرور الأيام إلى إمارة الحيرة — وراء نهر الفرات عند منعطفه نحو دجلة ، واقترابه منه على مبعدة خمسين كيلومترا — التي أصبحت بمثابة حصن للملك الفارسي حيال العرب الرحل[١] .

على أن هناك من يرجع بتاريخ المدينة إلى أيام الملك البابلي « نبوخذ نصر » (٦٠٥—٥٦٢ ق.م) — طبقاً لرواية سبق لنا مناقشتها في هذه الدراسة[٢] — بينما

---

(١) آرثر كريستنس : المرجع السابق ص ٨٢ .

(٢) أنظر : تاريخ الطبري ١/٥٥٨—٥٦٠ ، ياقوت ٢/٣٢٩ .

يرى آخرون أن مؤسس الحيرة إنما هو « الأردوان » ملك الأنباط [1] ، بينما يذهب فريق ثالث إلى أنها من بناء « تبع أب كرب » [2] ، وأخير فهناك من يرى أنها مدينة بارثية [3] .

وليس هناك من شك في أن « الحيرة » مدينة قديمة ، وإن كنا لا نعرف تاريخها على وجه التحقيق ، ولعل أقدم ما وصلنا عنها إنما هي كتابة ترجع إلى عام ١٣٢م ، ذكرت فيها المدينة تحت إسم « حيرتا » ، فإذا كانت « حيرتا » هذه ، إنما هي « الحيرة » حقاً ، فإن أقدم ما نعرفه عنها إنما يرجع إلى عام ١٣٢م [4] ، ولعل مما تجدر ملاحظته هنا أن الحفريات لم تقدم لنا شيئاً يمكن الإعتماد عليه فيما يتصل بموقع المدينة وتاريخها ، وأن كل ما وصلنا لا يعدو نقوشاً من الجبس مما تكسى به الجدران ، فضلاً عن مجموعة من الجرار وآثار صغيرة ، بعضها يرجع إلى ما قبل الإسلام ، ويرجع بعضها الآخر إلى العصر الإسلامي [5] .

وقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم « الحيرة » ومصدر اشتقاقه ، فهناك رواية تذهب إلى أن « تبان أسعد أب كرب » كان قد خرج من اليمن يريد الأنبار ، فلما انتهى إلى موضع الحيرة ليلاً تحيّر ، فأقام مكانه ، ومن ثم فقد سمى ذلك الموضع « الحيرة [6] » ، وتذهب رواية أخرى إلى أن « تبعاً الأكبر » قد ترك ضعاف جنوده في ذلك الموضع ، وقال لهم « حيّروا به » أي أقيموا به . [7] هذا ويذهب العلماء

---

(١) ياقوت ٣٢٩/٢ .

(٢) ياقوت ٣٢٩/٢-٣٣٠ ، البكري ٤٧٨/٢-٤٧٩ .

(٣) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣١٨ ، وكذا

A. Musil, The Middle Euphrates, P. 102.

(٤) جواد علي ١٥٧/٣ ، وكذا CIS, II, P. 156, III, P. 3073

(٥) جواد علي ١٦٠/٣ وكذا

D. Talbot Rice, The Oxford Excavation at Hira, in Ars. Islamica I, Part ,I, P. 51.

(٦) ابن الأثير ٢٧٦/١-٢٧٧ ، تاريخ الطبري ٥٦٦/١-٥٦٧ ، ملوك حمير وأقيال اليمن ص ١٣٢ ، ياقوت ٣٢٩/٢ البكري ٤٧٩/٢ ، جواد علي ١٦٢/٣ .

(٧) البكري ٤٧٨/٢ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ٣٢٩/٢ .

المحدثون إلى أن كلمة «الحيرة» إنما هي كلمة «أرامية» وأنها «حرتا» (حرتو) السريانية الأصل ، بمعنى «المخيم أو المعسكر» ، وأنها تقابل «العسكر» عند المسلمين ،و «حاصير» عند العبرانيين[1] .

على أن هناك من يرى أن الحيرة الآرامية ، والحير العربي ، إنما هما من أصل سامي واحد ، ذلك أن المضرب والمعسكر والحمى ، إنما هي ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد[2] ، ويميل أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم إلى هذا الرأي ، معتمداً في ذلك على وصف «اليعقوبي» على خطط «سر من رأى» والحير الذي أقيم بها ، وجعل حظيرة للوحش من الظباء والحمير الوحشي والأيايل والأرانب والأنعام[3] .

وتقع الحيرة قريباً من مدينة بابل القديمة ، وعلى مبعدة ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكوفة[4] ، في نهاية طريق يجتاز شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فقد غدت بحكم موقعها الجغرافي هذا ، مركزاً هاماً جداً للقوافل ، لم يسع الساسانيون إهماله ، ومن ثم فما تكاد تقيم فيه سلالة عربية حتى يضعوها تحت حمايتهم[5] .

هذا وقد اشتهرت المدينة باسم «حيرة النعمان» عند المؤرخين العرب ، و «الحيرة مدينة العرب» عند المؤرخين السريان، و «حيرته» في المجمع الكنسي الذي عقد في عام ٤١٠م ، كما سميت كذلك باسم «حيرة النعمان التي في بلاد الفرس» في

---

(١) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٨٥ ، وكذا A. Musil, Palmyrena, P. 289
وكذا F. Altheim, Geschichte der Hunnen, I, 1959, P. 130.
وكذا G.Rothstein, Die Dynastie der Lakhmiden, iu ol-Hira, Berlin, 1899. P.12.
وكذا ZDMG, 32, P. 753. وكذا EI, II, P. 314

(٢) يوسف رزق الله غنيمة : الحيرة المدينة والمملكة العربية ص ١١ .

(٣) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٢٠ ، كتاب البلدان ص ٢٦٣ .

(٤) P. K. Hitti, op. cit., P. 81.

(٥) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٦) جواد علي ١٥٦/٣ ، وكذا ZDMG, 43, P. 388 وكذا A. Musil, op. cit., P. 20
وكذا John of Ephesus, 10, 13, 352
وكذا J. Obermeyer, Die Landschaft Babylonien, P. 234
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., I, P. 275, II, P. 225

تاريخ يوحنا الإفسوسي — من القرن السادس الميلادي — وأما « التلمود » فقد أطلق عليها اسم « حيرتا دى طيبة » أي « معسكر العرب وحيرة العرب »[1] ، وقد أطنبت المؤلفات العربية في وصف هوائها النقي ، وصفاء جوها ، وعذوبة مائها ، حتّى قيل « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة » ، وقيل « أنها منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام » و « أن هواءها وترابها أصح من الكوفة » ، ولعل كل هذه الأوصاف ربما كانت السبب في أن تقول العرب « لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربة » ، بل إن « حمزة الأصفهاني » ليزعم أنه لم يمت بالحيرة بسبب هوائها النقي أحد من الملوك إلا قابوس بن المنذر »[2] .

هذا وقد كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يتحدثون بها في حياتهم العادية ، وأما في الكتابة فقد كانوا يستعملون السريانية ، ولعلهم في هذا يشبهون الأنباط والتدمريين الذين كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بالآرامية ، هذا وهناك من يذهب إلى أن دخول النصرانية إلى اليمن إنما كان بجهود رجال الكنيسة السورية في الحيرة ، فضلاً عن انتقال الكتابة من الحيرة إلى الحجاز[3] ، وعلى أي حال ، فلقد أصبحت الحيرة في القرن السادس الميلادي ، وعلى أثر اتساع نفوذ سلالة اللخميين نقطة التقاء للتيارات الإيرانية والآرامية على حدود المحيط العربي الفاصلة ، حتّى لقد ظهرت المدينة بمظهر العاصمة الفكرية[4] .

---

(١) جواد علي ٣/١٥٦–١٥٧ .

(٢) حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٥ ، البكري ٢/٤٧٩ ، الميداني ٢/١٣٧–١٣٩ ، جواد علي ٣/١٥٨ .

(٣) أنظر : المزهر ٢/٣٤٩ ، صبح الأعشي ٣/١٠ ، مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩ ، الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ص٢ وما بعدها ، كتاب المصاحف للسجستاني ١/٤–٥ ، الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١٩٢ ، ٢١٧ (طبعة ليدن ١٨٩٢م) قارن : المعارف ص ٢٤٧ وما بعدها ، ثم انظر :
F.A ltheim and R. Stiehl, op. cit., I, P. 198.
P. K. Hitti, op. cit., P. 84

(٤) ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢) ملوك الحيرة :

يزعم الأخباريون أن مالكاً بن فهم الأزدي أول من ولى أمر العرب في العراق ، وأنه كان يسكن الأنبار ، ثم جاء من بعده أخوه « عمرو » على رأي ، و « جذيمة الأبرش » — صاحب القصة المشهورة مع الزباء — على رأي آخر[١] ؛ على أن المؤسس الحقيقي لدولة اللخميين إنما كان « عمرو بن عدى »[٢] (٢٦٨—٢٨٨م) ، ابن أخت جذيمة ، وأول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب ، وأول من مجّده أهل الحيرة في كتبهم ، وإليه ينسب ملوك العرب في العراق[٣] .

وجاء بعده ولده « امرؤ القيس » (٢٨٨—٣٢٨م) — والمعروف بامرىء القيس البدء ، وامرىء القيس الأول — وكان ملكه واسعاً ، فقد كان عاملاً لملك الفرس على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة ، كما كان أول من تنصر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمال ملوك الفرس — فيما يروي الأخباريون[٤] —

وامرؤ القيس هذا هو صاحب « نقش النمارة »[٥] — الذي أشرنا إليه من قبل —

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٠٨/١ ، تاريخ الطبري ٦١٧/١—٦٢٧ ، بلوغ الأرب ١٥٧/٢ ، ياقوت ٣٢٩/٢—٣٣٠ ، البكري ٤٧٩/٢ ، محمد الخضري : المرجع السابق ص ٣٠ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٤ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 82

(٢) أنظر عن قوائم ملوك الحيرة : جواد علي ٣٠٤/٣—٣١٤ ، كتاب المحبر ص ٣٥٨—٣٦١ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها ، مروج الذهب للمسعودي ص ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، تاريخ اليعقوبي ٢٠٨/١—٢١٥ .

(٣) تاريخ الطبري ٦٢٧/١ ، ياقوت ٣٣٠/٢—٣٣١ ، تاريخ اليعقوبي ٢٠٩/١ ، الإشتقاق ٣٧٧/٢—٣٧٨ .

(٤) تاريخ الطبري ٥٣/٢ ، ابن خلدون ١٧١/٢ ، ٢٦٣ ، قارن : مروج الذهب ٧٤/٢ ، تاريخ اليعقوبي ٢٠٩/١ .

(٥) أنظر عن نقش النمارة : حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٦٥—١٧٣ ، جواد علي ١٩١/٣—١٩٢ ، رينيه ديسو : المرجع السابق ص٣٣ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢١٠—٢١٢، فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٠٨—١٠٩

وكذا R. Dussaud, Nabateo-Arabe D'an Nemara, Rev. Arch. 2, P. 409-21.

وكذا R. Dussaud, Arabes en Syrie avant l'Islam, P. 34-42

وكذا le Museon, 1964, 3-4, P. 456F

والذي يمكن أن نستخلص منه عدة نتائج ، منها (أولاً) أن امرأ القيس هذا ، إنما هو أول ملوك الحيرة الذي وصل الينا بعضاً من أخبارهم مكتوباً ، ومنها (ثانياً) أنه قد توفى في عام ٣٢٨م (الموافق لعام ٢٢٣ من تقويم بصرى)[١] ، ومنها (ثالثاً) أن النص – وهو أقدم وثيقة مكتوبة باللغة العربية – يؤكد أن لغتنا العربية كانت هي هي ، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي ، وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة إليه ، ومنها (رابعاً) أن النص يؤكد لنا أن المناذرة – شأنهم في ذلك شأن الغساسنة – إنما هم عرب شماليون ، لأنه مكتوب بلغة عربية شمالية ، وبالحرف النبطي ، وليس باللغة الحميرية أو الحرف المسند[٣] ، وهو بهذا يمثل مرحلة انتقال من الحروف النبطية إلى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة حتى الآن[٢] ، لأن الخط العربي الشائع بيننا الآن منحول عن الخط النبطي الذي كان شائعاً في مملكة الأنباط[٥] – كما أشرنا من قبل – .

ومنها (خامساً) أن النص إنما يفيد أن امرأ القيس قد فتح معظم شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم فهذا يتناقض والروايات التي تنسب إلى « شمر يهرعش » الفتوحات العظيمة ، وتجعله فاتحاً للعراق وما وراءه حتى الصين ، وتعكس القضية تماماً ، بل إن النص إنما يصل بفتوحات امرىء القيس حتى أسوار نجران ، ومن ثم فقد سمي – كما يقول النص – « ملك العرب كلهم » و « لم يبلغ ملك مبلغه » ، وبعبارة أخرى فقد مدّ حكمه من الحيرة وبلاد الشام إلى نجد والحجاز ، حتى بلغ مدينة

---

(١) F. Nau, op. cit., P. 32 وكذا J. Cantineau, op. cit., P. 49
وكذا REP, EPIG, I, 3561 وكذا Syria, IV, 1923,P. 154.
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 313

(٢) حسن ظاظا : المرجع السابق ص ١٧٣ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢١٠–٢١١ .

(٣) فيليب حتى : المرجع السابق ص ١٠٨–١٠٩ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 82

(٤) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٥٤ ، عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٩ ، عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٣٦–١٣٧ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ١٣٧ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 82. وكذا Martin Sprenling, op. cit., P. 52.

نجران[1] ، وإن كان يبدو لي أن في النص مبالغات ، شأنه في ذلك شأن روايات الأخباريين عن « شمر يهرعش » ، وإن كانت الأخيرة تكاد أن تكون أقرب إلى الأساطير منها إلى حقائق التاريخ .

على أن في « نقش النمارة » عبارة تدعو إلى التساؤل ، وذلك حين يقول النقش « واستعمل أبناءه على القبائل ، ووكلهم على الفرس والروم » مما دعا بعض الباحثين إلى أن يري امرأ القيس قد جاء إلى الشام — حيث كتب النص بعد وفاته في النمارة — على إثر خلاف بين أمراء الفرس على العرش وأن الخلاف قد انتهى في غير مصلحة الحزب الذي كان يؤيده امرؤ القيس ، ومن ثم فقد أقام في الشام ، وبدأ يتجه نحو الروم ، الذين انتهزوا الفرصة فأقروه على عرب الشام ، وبالتالي فإن الرجل قد عمل في أول أمره للفرس ، ثم بعد ذلك للروم[2] ، ومن ثم فإن القراءة الصحيحة ربما تكون « واستعمل أبناءه على الشعوب وجعلهم فرساناً للروم » ، وهذا يعني أن امرأ القيس كان يعمل عند وفاته للروم فحسب ، لأنه ليس من المقبول أن يذكر عمله للفرس في نص مكتوب في بلاد تخضع للروم ، وحتى لو كان قد امتلك هذه المنطقة بحد السيف ، فالمنطق هنا يستدعي عدم ذكر الروم ، ويرى «كلير مونت جانيو» أن لفظ التاج وحده كاف على علاقة امرىء القيس بالفرس ، لأنه من ألقاب ملوك الحيرة ، وأما وجود قبره في حوران ، فربما كان دليلاً على أن سلطته قد امتدت إلى هناك[3] ، ومع ذلك ، وعلى فرض صحة تفسير « كلير مونت جانيو » هذا ، فيبقى سؤالنا : لماذا ذكر الروم في نص امرىء القيس هذا ؟ بدون جواب .

---

(١) جواد علي ٣/١٩٠-١٩١ ، وكذا Le Muséon, 1964, 3-4, P. 456, 486 وكذا F. Altheim and R. Stiehl, p. cit., II, P. 321

(٢) رينيه ديسو : العرب في سورية قبل الاسلام ص ٣٦ ، وكذا F. Altheim and R. Stiehlo, p. cit., II, P. 319.

(٣) جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام ص ٢١٢ ، وانظر : بلاشير : المرجع السابق ص ٥٨ ، وكذا Clermont Ganneau, Recueil d'Archeologie Orient, VI, P. 395, VII, P. 167.

ويرى الطبري أن الفرس قد استعملوا « عمرو بن امرىء القيس » (٣٢٨-٣٦٣م) بعد أبيه ، ثم تلاه « أوس بن قلام »[1] (٣٦٣-٣٦٨م) ، والرجل - كما يبدو من اسمه - ليس من بني لخم ، ومن ثم فهناك من يرى أن نزاعاً قد حدث بين أولاد عمرو على وراثة العرش ، مما أدى إلى قيام الفتن والإضطرابات ، فأقام « سابور ذو الأكتاف » (٣١٠-٣٧٩م) « أوسا » هذا ملكاً على الحيرة[2] ، غير أن « أوسا » سرعان ما قتل بيد أحد أبناء بني نصر ، فعادت حكومة الحيرة إليهم ، في شخص « امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس » (٣٦٨-٣٩٠م)[3] .

وجاء « النعمان الأول » (٣٩٠-٤١٨م) - والمعروف بالنعمان الأعور ، والنعمان السائح - بعد أبيه امرىء القيس الثاني ، وينسب الأخباريون إليه بناء « قصر الخورنق » (وهو لفظة فارسية بمعنى حصن منيع) ، ليقيم فيه « بهرام بن يزدجر الأول » (٣٩٩-٤١٠م) ملك الفرس ، وأن الذي بناه إنما هو رجل رومي يدعى « سنمار » ، كتب عليه أن يلقي ميتة عنيفة على يد « النعمان » نفسه ، ذلك أن سنمار بعد أن فرغ من بنائه ، وأعجب النعمان به قال : « لو عرفت أنكم توفونني أجري ، وتصنعون بي ما أنا أهله ، لجعلته بناء يدور مع الشمس حيثما دارت» ، فقال النعمان: « وإنك لتقدر على بناء ما هو أفضل منه ثم لم تبنه » ؟ ، وأمر به فطرح من رأس الخورنق ، على أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن سنمار قد أخبر النعمان ، إنه يعرف في القصر حجرا واحدا ، وأنه لو حرك من مكانه لتردى القصر ، ثم عرف الملك موضع الحجر ، وخشي أن يدل سنمار آخرين عليه ، فأمر به فأردى من أعلى القصر فنقطع ، فضربت العرب به المثل[4] .

---

(١) تاريخ الطبري ٦١/٢-٦٥ ، ابن الأثير ٤٠٠/١ ، الأغاني ١٨/٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٧ .

(٢) يوسف رزق الله المرجع السابق ص ١٤١ .

(٣) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢١٣ ، وانظر : تاريخ الطبري ٦١/٢-٦٥ ، ابن الأثير ٣٩٦/١-٤٠٠ .

(٤) تاريخ الطبري ٦٥/٢-٦٦ ، مروج الذهب ٧٤/٢ ، نهاية الأرب ٢١٣/١-٢١٤ ، البكري ١٥/٢ -٥١٦ ، المحبر ص٣٥٨ ، ابن خلدون ٢٦٣/٢ ، ياقوت ٤٠١/٢-٤٠٣ ، الميداني =

ويبدو أن النعمان كان على علاقة طيبة بالنصارى من قومه – على الأقل في الفترة الأخيرة من حكمه – وأنه بدأ يتقبل المسيحية ، أو أنه كان يميل اليها ؛ ولعل السبب في ذلك، أننا نقرأ في سجل الكنيسة الشرقية أن الحيرة كان عليها أسقف في عام ٤١٠م ، وأن ملكها قد حمى النصرانية ؛ ومن ثم فقد كانت الروايات التي تدور حول تنسكه حين أدرك أن حطام الدنيا لا محالة زائل ، بما فيها قصره الفخم ، ومن ثم فقد زهد فيها ، وعكف على البر والتقوى ، فانقلب سائحاً زاهد [١] ؛ وإن كان أمر اعتناقه المسيحية ما يزال موضع شك كبير ، ذلك لأن ملوك الحيرة كانوا حتى أواسط القرن السادس الميلادي ما يزالون على الوثنية ، وأن المنذر بن ماء السماء كان يقدم الذبائح البشرية إلى العزى[٢] .

وعلى أي حال ، فلقد اشتهر النعمان كذلك بكتيبتي الخيالة الشهيرتين عند العرب ، وهما : الدوسر ورجالها من الفرس ، والشهباء ورجالها من تنوخ ، وغزا بهما عرب الشام عدة مرات ، وعلى أيامه ازدهرت مدينة الحيرة ، كما لم تكن من قبل[٣] .

وجاء بعد النعمان ولده « المنذر » (٤١٨–٤٦٢م) من زوجه « هند بنت زيد مناة بن زيد الله بن عمرو الغساني[٤] » ، وقد وصلت الحيرة في عهده إلى درجة مكنتها من أن يكون لها صوت مسموع في أحداث العصر ، كما مكنت المنذر من أن

= ١٥٩/١–١٦٠ ، ابن الأثير ٤٠٠/١–٤٠١ ، الروض الأنف ٦٧/١ ، تاج اللغة ٧٩/١ ، الأغاني ١٤٤/٢ ، اللسان ٧٨/١ ، ٣٨٣/٤ ، ٧٩/١٠ ، أمثال العرب للمفضل الضبي ص ٩٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٥/٩ ، القاموس ٢٢/٣ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٨ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٨ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ١١٢ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 82.

(١) تاريخ الطبري ٦٧/٢–٦٨ ، تاريخ اليعقوبي ٢٠٩/١ ، ابن الأثير ٤٠١/١ ، ياقوت ٤٠٢/٢ ، كتاب المعارف ص ٢٨٢ ، بلوغ الأرب ٢١٤/١ ، المقدسي ١٩٩/٣–٢٠٠ ، المحبر ص ٣٥٨–٣٥٩ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٣ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٨–٢١٩ وكذا R. Nicholson, op. cit., P. 41. وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 83.

(٢) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٣ .

(٣) سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٨

(٤) تاريخ الطبري ٩٠/٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٩ .

يحمل كهنة الفرس على تتويج « بهرام » الذي رباه أبوه النعمان ، غير عابئين بمدع آخر كان يسعى إلى العرش بكل قوته[1] .

وقد شارك المنذر في الحروب التي قامت بين الفرس والروم ، بسبب اضطهاد المسيحيين في فارس ، وكانت أرض العراق هي ميدان المعركة ، وحاصر الروم « نصيبين » ، وأسرع « بهرام » لإنقاذها ، واشترك المنذر في المعارك ، كما اتجه بعد ذلك إلى أنطاكية للإستيلاء عليها ، إلا أنه لم يحقق نصرا ، وانتهت الأمور بعقد صلح بين الفرس والروم في عام ٤٢٢م[2] .

وجاء بعد المنذر ولده الأسود ، ثم أخوه المنذر ، ثم النعمان بن الأسود ، ثم انتقل العرش بعد ذلك من أمراء بني نصر ، إلى «يعفر بن علقمة» ، غير أنه عاد مرة أخرى إلى بني نصر ، حيث تولى عرش الحيرة « امرؤ القيس الثالث » ثم « المنذر بن امرىء القيس » (٥٠٦ أو ٥٠٨—٥٥٤م)[3] ، والذي يعرف بذى القرنين ، بسبب ضفيرتين كانتا له ، وبابن ماء السماء (وماء السماء هو لقب أمه مارية أو أو ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال من بني النمر بن قاسط)[4] ، وعلى أي حال ، ففي عام ٥٠٦م عقد صلح بين الروم والفرس ، في مقابل إتاوة يدفعها القيصر للملك الفرس ، غير أن الروم قد تأخروا في دفعها ، مما كان سبباً في أن يقوم المنذر في عام ٥١٩م بغزو الحدود الرومانية ، وأسر قائدين رومانيين[5] .

وفي عام ٥٢٤م ، أرسل القيصر « جستنين الأول » (٥١٨—٥٢٧م) إلى المنذر ، وفدا يتكون من إبراهيم والد المؤرخ «نونوسرس» ، وشمعون الأرشامي ، وسرجيوس

---

(١) P. K. Hitti, History of the Arabs, P. 82-3.

(٢) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٣٦-٣٣٧ ، جواد علي ٢٠٨/٣ ، وكذا Caussin de Perceval, op. cit., II, P. 63.

(٣) جواد علي ٢٠٩/٣ ، وكذا J. B. Bury, op. cit., P. 91.

(٤) تاريخ الطبري ١٠٤/٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢٦٥/٢ ، مروج الذهب ٧٤/٢ ، المحبر ص ٣٥٩ .

(٥) سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٢٠ ، وكذا G. Rothstein, op. cit., P. 79.

أسقف الرصافة ، يطلب إطلاق سراح القائدين الرومانيين (جان وتموستران) وعقد صلح مع المنذر ، ويبدو أن الوفد قد حقق الهدف الأول من مهمته . وأن الشواهد تشير إلى أن الهدف الثاني كان بعيدا عن التحقيق ، هذا ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الوفد الرومي قد صادف وصول وفد « ذى نواس » الحميرى الذي يطلب من ملك الحيرة أن يفعل بنصارى مملكته ، ما يفعله هو بنصارى نجران ، وأن شمعون الأرشامي ليزعم أنه قد دون قصة تعذيب نصارى نجران ، طبقاً لما جاء في رسالة ذى نواس ، ومن ثم فقد نشرها في صورة كتاب يُقرأ على الناس في الكنائس[١] .

وتسوء العلاقات بين الروم والفرس وتدق طبول الحرب بينهما في عام ٥٢٨م ، ويشترك المنذر فيها إلى جانب الفرس ، فيهاجم بلاد الشام حتى يصل إلى أنطاكية ويحرق عددا من المدن ، منها خلقدونية ، ويضحي — فيما يزعم المؤرخون السريان — بأربعمائة امرأة للعزى ، وإن كان « ابن العبري » يرى أنه أخذهن لنفسه ، وهنا يضطر القيصر « جستنيان » إلى طلب مساعدة الحارث الغساني ، فيسبغ عليه لقب « فيلارخ »[٢] ، — كما أشرنا من قبل — .

ومن أسف أن الجيوش العربية — اللخمية والغسانية — إنما كانت تحارب بعضها البعض الآخر ، بينما كان الروم يحاربون الفرس[٣] وهكذا كان العربي يقتل أخاه العربي ابتغاء مرضاة الفرس أو الروم ، أو حباً في المغامرة ، وفي أحسن الفروض ، إيفاء بما وعد به الحارث أو المنذر أصدقاءه الروم أو الفرس ، وإن كان الوفاء بالوعد يبيح قتل الأخ لأخيه ، إرضاء لصديق أو سيد ، وعلى أي حال ، فإن الموقف سرعان

---

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٥٥—٦٥ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٢٠ ، جواد علي ٣/٢١٩ ، وأنظر :

I. Guidi, la lettera di Simeone Vescova di Beth Arsham, P. 507.

وكذا J. B. Bury, op. cit., P. 323 وكذا A. Musil, op. cit., P. 267

وكذا ZDMG, 35, P. 3-4.

(٢) جواد علي ٣/٢٢١ ، وكذا Malalas, II, P. 166.

(٣) A. Musil, Palmyrena, P. 274.

ما يتغير حين تنطفىء نيران الحرب بين الكبار ، بينما ما يزال الصغار يلعبون بمقدرات شعوبهم ، ولم تنتهي إلا بقتل المنذر في عام ٥٥٤م في موقعه يوم حليمة — كما أشرنا من قبل — وإن كان « أوليري » يرى — طبقاً لرواية المؤرخ ثيوقانس — أن المنذر بقي حياً ، حتى تم الصلح بين الروم والفرس في عام ٥٦٢م[١] ، والذي اتفق الطرفان فيه على أن يترك لكل منهما ماله من الأراضي القديمة ، وعلى حرية التجارة بين إيران وبيزنطة ، وعلى أن يمنح النصارى حرية العقيدة ، وعلى أن لا يسعى أحد من رجال الدين في الدولتين إلى التبشير بدينه[٢] .

وجاء بعد المنذر ولده « عمرو بن هند » (٥٥٤—٥٦٩م) من زوجه « هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار » ، وهو — فيما يرى الأخباريون — « مضرط الحجارة » كناية عن قوة ملكه وشدة بأسه ، وهو « المحرق » لأنه حرق بني تميم ، أو حرق نخل اليمامة ، وقد كان عاتياً جبار ، لا يبتسم ولا يضحك ، ومن ثم فقد كانت العرب تهابه وتخشاه[٣] .

وقد حذا عمرو حذو غيره من ملوك لخم وجفنه، الذين أدركوا أن الشعراء من معاصريهم هم زعماء الرأي العام بين العرب ، يديرون دفة الدعاية كيفما شاءوا ، فلم يأل جهدا في إكرامهم وغمرهم بفضله ، كما فعل سواه من الملوك ، طمعاً في اجتذاب العرب إليه ، وهكذا أصبحت الحيرة في عصره موئل الشعراء يأتون إليه من شبه الجزيرة العربية ينشدونه شعرهم ، وينالون جوائزه ، ويعقدون المناظرات في حضرته ، وعلى رأسهم ثلاثة من أصحاب المعلقات السبع[٤] — طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم —[٥] .

---

(١) O'Leary, op. cit., P. 160.

(٢) آرثر كريستنس : المرجع السابق ص ٣٥٨ .

(٣) تاريخ الطبري ١٠٤/٢ ، المعارف ص ٢٨٣ ، المقدسي ٢٠٣/٣ ، الميداني ١٤٣/٢ ، المحبر ص ٣٥٩ ، ابن خلدون ٢٦٥/٢ ، أيام العرب في الجاهلية ص ١٠٠—١٠٦ ، حمزة الأصفهاني ص ٧٢ .

(٤) يروي الأخباريون أن العرب كانوا إذا ما عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش ، فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها ، فاجتمع من ذلك المعلقات السبع أو العشر المشهورة (أنظر : ابن كثير ٢١٨/٢—٢٢٠ ، صحيح الأخبار ٦/١—١٤) .

(٥) P. K. Hitti, op. cit., P. 83.

ويبدو أن « عمرا بن هند » هذا ، كان شديد الغرور لدرجة جعلته يعتقد أنه ليس هناك من بين أمراء العرب من يستنكف أن يخدمه ، أو يأبى أن يسعى إلى مرضاته ، أياً كانت الوسيلة ، وأن هذا الزعم الكذوب إنما كان سبباً في أن يجندله «عمرو بن كلثوم» بسيفه في رواية تقول : أنه قال لجلسائه ذات يوم : هل تعرفون أحدا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي ، فقالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ، فإن أمه « ليلى » بنت « مهلهل بن ربيعة » ، وعمها « كليب بن وائل » ، وزوجها «كلثوم» ، وولدها «عمرو» ، وهكذا أمر « عمرو ابن هند» أن يُطلب من « عمرو بن كلثوم » أن يحضر إلى قصره ، ثم أمر أمه « هند » أن تصرف الخدم بعد الفراغ من الطعام ، ثم تطلب من « ليلى » أن تناولها الشيء بعد الشيء ، وتفعل « هند » ما أمر به ابنها الملك ، غير أن « ليلى » سرعان ما ترفض ذلك في إباء وشمم ، قائلة : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، ثم تصيح : واذلاه يا آل تغلب ، فما كان من عمرو بن كلثوم ، إلا أن أمسك بسيف الملك ، وأطاح به رأسه ، وهكذا جنى عمرو بن هند ثمرة غروره» ، إن صحت الرواية[1].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن « هندا » أم « عمرو بن هند » هذه ، إنما كانت نصرانية ، وقد نسب إليها بناء « دير هند الكبرى » ، الذي بقي حتى القرن الثاني الهجري ، ويذهب البعض إلى أن البناء إنما تمّ على أيام الأسقف « مار أفرايم » في عهد ملك الفرس « خسرو أنوشروان » ، وقد جاء في صدر هيكل الدير : « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر ، الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح وأم عبده ، في زمن ملك الأملاك خسرو أنوشروان وفي زمن مار أفرايم الأسقف ، فالإله الذي بنت له هذا البيت يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بهما ، ويقومها إقامة الحق ، ويكون الإله معهما ومع

---

(١) ابن الأثير ١/٥٤٧–٥٤٩ ، الأغاني ٩/١٧٥ ، ١١/٥٣ ، الشعر والشعراء ص ١٥٧–١٥٩ ، الأمالي ١/١٩٣ ، بلوغ الأرب ٢/١٤٢ ، شعراء النصرانية ١/٢٠٠ ، محمد الخضري ١/٣٣ .

ولدها الدهر الداهر[1] » ، فإذا صحت هذه القر ءه فإن بناء الدير ، إنما يرجع إلى عهد « عمرو بن هند »[2] .

هذا ويذهب « لويس شيخو » إلى أن « عمروا بن هند » قد تنصر ، إذ كانت الحيرة في وقته تموج بالمبشرين المسيحيين ، ومن ثم فليس ببعيد أن تكون هند قد أجابت دعوتهم ، فاعتنقت النصرانية ، ثم عملت على جذب ابنها لإعتناقها[3] ، وإن كان هناك من يشك في ذلك ، ويرى أن النعمان بن المنذر (٥٨٠-٦٠٢م) هو الوحيد الذي تنصر من ملوك الحيرة[4] .

وجاء بعد « عمرو بن هند » أخوه « قابوس بن المنذر » ، والذي كان موضع ثقة أخيه ، وقائد جيوشه ضد الرومان وبخاصة تلك الحملات التي قادها في عامي ٥٥٦/٥٥٧م ، بسبب عدم دفع الرومان ما كانوا يدفعونه من قبل للمنذر ، أو بسبب المقابلة السيئة التي قوبل بها رسول عمرو بن هند في بلاط « جستين الثاني » ، وأياً ما كان السبب في هاتين الغزوتين اللتين شنهما عمرو بن هند على الروم ، فإن أخاه قابوس كان القائد فيهما ، هذا وقد كان عمرو يعهد إلى أخيه قابوس كذلك بشئون البادية ، ويعتقد «كوسان ده برسيفال» أن قابوسا إنما كان يحكم الحيره مع النعماز أخيه ، بينما يرجح « يوسف رزق الله » أن إدارة شئون الحيرة على أيام قابوس إنما كان يتولاها « زيد بن حماد بن أيوب »[5] .

---

(١) البكري ٦٠٦/٢ ، ياقوت ٥٤٢/٢ ، صحيح الأخبار ٨٩/٣ .

(٢) ياقوت الحموي ٥٤١/٢-٥٤٢ ، يوسف رزق الله ، المرجع السابق ص ٤٧ ، وكذا
P. K. Hitti, op. cit., P. 83.

(٣) البكري ٦٠٦/٢-٦٠٧ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٣ ، لويس شيخو : النصرانية وآدابها . بيروت ١٩١٢ ص ٩١ .

(٤) P. K. Hitti, op. cit., P. 84.

(٥) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٥٠ ، يوسف رزق الله : المرجع السابق ص ١٩٥ ، المحبر ص ٣٥٩ ، حمزة الأصفهاني ص ٧٣ ، وكذا
Caussin de Perceval, op. cit., P. 129 وكذا G. Rothstein, op. cit., P. 96.

وليس صحيحاً ما ذهب اليه البعض من أن قابوساً كان ضعيفاً ، أو أنه لم يكن ملكاً ، فقد أطلق عليه « يوحنا الأفسوسي » لقب « ملك » ، كما أنه كثير ما كان يقود الجيوش على أيام أخيه — كما أشرنا آنفاً — فضلاً عن الغارات التي شنها ضد الغساسنة إبان فترة جلوسه على العرش ، وإن لم يجن منها سوى الفشل والهزيمة[1] .

وجاء بعد قابوس أمير فارسي يدعى « فيشهرت » أو « السهراب » ، وربما كان السبب في ذلك وجود خلاف بين أمراء بني لخم بعد قابوس على ولاية العرش[2] وربما رغبة من الفرس في إضعاف مركز العرب في الحيرة ، بعد أن قوّى أمرهم ، واستفحل خطرهم ، في ذلك الوقت الذي أخذت فيه قوى الغساسنة في الإضمحلال[3] .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد جلس على عرش الحيرة بعد ذلك « المنذر بن المنذر » الذي ترك من بعده ثلاثة عشر ولد ، دون أن يوصي لواحد منهم دونا لآخر بالعرش ، وإنما ترك الأمر بيد « إياس بن قبيصة » الطائي ، حتى يرى كسرى رأيه ، ومن ثم فإننا نرى « كسرى » يستشير « عدى بن زيد » الذي يشير بامتحان للأبناء جميعاً ، ثم يتفق مع واحد منهم (النعمان) على إجابة ، خلاصتها : أن يتعهد لكسرى بأن يقيه شر العرب جميعاً ، وعلى رأسهم إخوته ، بينما يتفق مع الآخرين بأن يتعهدوا لكسرى بذلك ، الا شرا يأتي من أخيهم النعمان ، وهكذا يتم اختيار النعمان ملكاً بعد أبيه[4] ، وأن هذا كله إنما يشير من ناحية أخرى إلى أن عرش الحيرة إنما أصبح أمره بيد كسرى ، وليس بيد آل لخم[5] .

---

(١) جواد علي ٣/٢٥٩ ، وكذا John of Ephesus, VI, 3. ، قارن : سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٢٤–٢٢٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢١٣ ، حمزة الأصفهاني ص ٧٣ .

(٣) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٥١ .

(٤) تاريخ الطبري ٢/١٩٤–١٩٥ ، الأغاني ٢/١٠٦ وما بعدها ، المقدسي ٣/٢٠٤–٢٠٥ ، اليعقوبي ١/٢١٢–٢١٣ ، أيام العرب في الجاهلية ص ١١ –١٣ .

(٥) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٥٢ .

وهناك من يتجه إلى أن النعمان (٥٨٠-٦٠٢م) ,نما كان في أول الأمر وثنياً ، يتعبد للعزى ، ويقدم الأضاحي للأوثان غير أنه سرعان ما غير دينه الوثني ، واعتنق النصرانية بعد نجاح آباء الكنيسة النسطورية في شفائه من مرض ألمّ به،أو بتأثير عدى ابن زيد عليه ؛ فضلاً عن نشأته في بيئة نصرانية[١] ، وأن ذلك إنما كان في عام ٥٩٣م ، ومن ثم فقد أصبح النعمان — فيما يرى أصحاب هذا الإتجاه — الملك الوحيد من ملوك آل لخم الذي اعتنق النصرانية ، وعلى المذهب النسطوري[٢] ، أقل المذاهب النصرانية كراهية عند الفرس ، والذين كانوا سبباً في عدم اعتناق أسلاف النعمان للمسيحية[٣] ، وعلى أي حال ، فلقد كان اعتناق النعمان للمسيحية على المذهب النسطوري سبباً في أن يعلو شأن الكنيسة النسطورية في الحيرة ، وأن ينضم اليها الكثير من سادة القوم ، فضلاً عن إرسال القديس « سرجيوس » إلى اليمن ، حيث بقي في نجران ثلاث سنوات يبشر بمذهبه هذا[٤] .

هذا ويختلف المؤرخون في نسب « سلمى » أم النعمان ، فهي من كلب على رأي ، ومن « فدك » على رأي آخر ، ومن دومة الجندل على رأي ثالث ، وطبقاً لهذا الرأي الأخير فهي « أمة الحارث بن حصن » ، ومن ثم فهي من أصل يهودي[٥] ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان أحمر أبرش قصيرا ،[٦] لتبين لنا بوضوح السبب في أن القوم كانوا كثير ما يتهكمون به ، مما أثر في نفسيته وفي سلوكه ، حتى أصبح

---

(١) حمزة الأصفهاني ص ٧٣ ، الأغاني ٩٦/٢ ، معجم الشعراء ص ٢٤٩ ، جواد علي ٢٨٤/٣-٢٨٥ ،
وكذا F. Altheim and R. Stiehl, op. cit., P. 198
وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 84.

(٢) ينسب هذا المذهب إلى « نسطوريوس » مطران القسطنطينية (٤٢٨-٤٣١م) ، والذي يرفض الرأي القائل باتحاد طبيعتي المسيح في شخص واحد ، ويذهب إلى أنه ذو شخصيتين متميزتين تجمعهما روابط الألفة الوثيقة (أنظر : P. K. Hitti, op. cit., P. 84.)

(٣) P. K. Hitti, History of the Arabs, London, 1960, P. 84.

(٤) جواد علي ٣٨٥/٣، وكذا F. Altheim and R, Stiehl, op. cit., I, P, 198,

(٥) تاريخ الطبري ١٩٤/٢ ، تاريخ اليعقوبي ٢١٢/١ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٣ .

(٦) تاريخ الطبري ١٩٤/٢ ، تاريخ ابن خلدون ٢٦٦/٢ .

سريع الغضب ، سهل التصديق للوشايات ، حتّى أوقع بـ « عدى بن زيد » الذي أجلسه على العرش ، وحين أراد أن يكفر عن خطيئته هذه ، أضاع نفسه وأضاع عرشه[1].

وهكذا تذهب بعض الروايات إلى أنه ساعد « زيد بن عدى بن زيد » ، ليكون عند « كسرى أبرويز » (٥٩٠—٦٢٨م) في مكان أبيه ، وأن زيدا إنما كان يضمر الحقد للنعمان ، وينتهز الفرصة للإنتقام منه ، وقد جاءته هذه في طلب كسرى زوجات لأولاده ، ومن ثم فقد أشار عليه بأن يطلبهن من النعمان ، ففي بناته وبنات عمه وأهله ، أكثر من عشرين امرأة ، يصلحن لمصاهرة كسرى ، وكان زيد يعلم أن النعمان إنما يضن بذلك على كسرى ، بل إن جوابه إنما كان على طلب كسرى « أما في بقر السواد وفارس ما يكفيه (أي كسرى) «حتّى يطلب ما عندنا » ، وكان ذلك سبباً في غضب كسرى ، وفي استدعاء النعمان إلى فارس بغية القضاء عليه ، ومن ثم فقد هرب النعمان إلى أصهاره في « طيء » ، أملاً في حمايتهم له ، ولكن القوم رفضوا حمايته ، مما دفعه إلى أن يودع أهله وماله عند «هانيء بن مسعود الشيباني» وأن يتوجه إلى كسرى ، حيث أرسل مخفورا إلى « خانقين » أو « ساباط » ، وبقي هناك حتّى مات بالطاعون على رواية ، وطرح بين أرجل الفيلة فداسته حتّى مات على رواية أخرى[2]

. وعلى أي حال ، فيبدو أن دولة الحيرة قد بدأ الضعف يتسرب إليها على أيام النعمان ، لانصرافه إلى اللعب والشراب ، فعلى أيامه هزم « بنو يربوع » جيش النعمان ، لما أراد أن ينقل الحجابة منهم ، كذلك انهزمت جموعه أمام « بني عامر ابن صعصعة » بعد أن تعرضوا لإحدى قوافله التي كان قد أرسلها إلى سوق عكاظ ،

---

(١) محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية ص ١٣—١٨ .

(٢) ابن الأثير ١/٤٨٢—٤٨٨ ، ابن خلدون ٢/٢٦٥—٢٦٧ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢١٤—٢١٥ ، مروج الذهب ٢/٧٦—٧٨ ، تاريخ الطبري ٢/٢٠١—٢٠٦ ، المعارف ص ٢٨٤ ، الشعر والشعراء ١/١٥٠—١٥٦ ، المقدسي ٣/٢٠٥—٢٠٦ ، ياقوت ٤/٢٩٣—٢٩٤ ، اللسان ٦/٣٠٨ ، أيام العرب في الجاهلية ص ١٨—٢٤ ، دائرة معارف وجدي ٧/٢٤ ، شعراء النصرانية ص ٤٩١ ، ديوان الأعشى ص ١٢٨ ، محمد الخضري ١/٣٢ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٠ .

كما كانت حروب الفجار المشهورة بين كنانة وقيس ، بسبب تعرض بعض القيسية لإحدى قوافله التي كانت في حراسة بعض الكنانيين[1] .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد تولى أمر الحيرة بعد النعمان أحد أشرافها المشهورين « إياس بن قبيصة » (٦٠٢-٦١١م)[2] ، الذي كان المنذر قد عهد اليه من قبل بأمر أولاده ، وإن كان هناك من يرى أن الذي خلف النعمان إنما كان واحدا من الفرس[3] ، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن الرجلين ، إنما توليا الأمر معاً[4] .

ومهما يكن من أمر ، فإن « كسرى أبرويز » قد طلب من « إياس بن قبيصة الطائي » أن يجمع ما خلفه النعمان وأن يرسله إليه ، ومن ثم فقد بعث « إياس » إلى « هانىء بن مسعود » أن يرسل إليه ما استودعه النعمان إياه ، فأبى هانىء ذلك ، وغضب كسرى ، وهنا أشار عليه أحد أعداء بني شيبان وسائر بكر بن وائل ، أن ينتظر ريثما ينزل القوم « ذى قار »[5] ، فيبعث إليهم من يأخذهم بالقوة ، وهكذا ما أن يحين الحين ، حتى يرسل إليهم كسرى من يخيّرهم بين ثلاث ، أحلاهن مر ، الاستسلام ، أو الرحيل عن الديار ، أو الحرب ، وكان رد العرب أن

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق ص ٢٢٦ ، وانظر : ابن الأثير ٥٨٨/١-٥٩٥ ، المحبر ص ١٦٩-١٧١ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/٢٠٦ ، ابن الأثير ٤٨٨/١ ، المحبر ص٣٦٠ ، مروج الذهب ٨٠/٢ ، ديوان الأعشي ص ١٦٢ ، شعراء النصرانية ص ١٣٥ ، الإشتقاق ص ٢٣١ ، المعارف ص ٢٨٤ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢١ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٣) المحبر ص ٣٦٠ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٤ ، شعراء النصرانية ص ١٣٧ وكذا G. Rothstein, op. cit., P. 120.

(٤) تاريخ الطبري ٢١٣/٢ ، ابن الأثير ٤٣٩١/١ .

(٥) ذى قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، و « حنو ذى قار » على ليلة منه ، وفيه كانت الموقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس (ياقوت ٢٩٣/٤ ، الطبري ٢٠٧/٢ ، وكذا G.Rothstien, op. cit., P. 121.) ومن ثم فإنه يسمى كذلك « يوم حنو ذى قار » أو قرار ، ويوم الجبايات ويوم العجرم ويوم الغذوان ويوم البطحاء ويوم بطحاء ذى قار ، وكلهن حول ذى قار ، دارت فيهن معارك ختمت بذى قار ، فنسبت المعركة إليها (البكري ١٠٤٣/٣ ، المعارف ص ٢٦٠ ، تاريخ الطبري ١٩٣/٢ ، ٢٠٧/٢-٢١٠ ، ابن الأثير ٤٨٨/١-٤٨٩) .

السيف هو الحكم ، وهكذا وقعت الواقعة وأبلى العرب بلاء حسناً ، وكتب لهم — ولأول مرة — نصرا مؤزرا على الفرس[1] .

ويختلف المؤرخون في زمن موقعة ذى قار هذه ، فذهب فريق إلى أنها إنما كانت يوم مولد المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — ومن ثم فإن هناك رواية تذهب إلى أنه — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — قال « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نصروا » ، بينما ذهب رأي آخر إلى أنها إنما كانت سنة أربعين لمولد النبي الأعظم — عليه الصلاة والسلام — وذهب رأي ثالث إلى أنها إنما كانت في العام الثالث من مبعث المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — هذا وقد رأى فريق رابع إلى أنها كانت بعد الهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة ، على أن فريقاً خامساً إنما يرى أنها كانت بعد موقعة بدر الكبرى مباشرة ، وربما بعدها بأشهر معدودات[2] ، فإذا كان صحيحاً ما ذهبنا إليه من قبل في هذه الدراسة من أن المولد النبوي كان في عام ٥٧١م ، وأن الهجرة كانت في عام ٦٢٢م ، فإن أصحابنا الأخباريين إنما يضعون تاريخ معركة ذى قار ، فيما بين الأعوام ٥٧١م ، ٦١١م ، ٦١٣م ، ٦٢٤م .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٠٦-٢١٢ ، ابن الأثير ١/٤٨٢-٤٩٠ ، المعارف ص ٢٦٠ ، ياقوت ٤/٢٩٣-٢٩٤ ، الميداني ٢/٢١٦ ، الشعر والشعراء ١/٣٧٥ ، مروج الذهب ٢/٧٨ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٢٥-٣٩ ، تاريخ الأمم الإسلامية ١/٣٢ ، ٤١ ، صبح الأعشي ١/٢-٣ ، الإشتقاق ص ٢٠٨ ، الأغاني ٢/١٢٧ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٢٤ ، أبو الفداء ١/١٠١ ، العمدة لابن رشيق ٢/١٦٩ ، ٢١٨ ، شعراء النصرانية ص ١٣٧ ، الأمالي ١/١٦٩-١٧١ ، البكري ٣/١٠٤٢-١٠٤٣ ، ابن خلدون ٢/٢٦٧-٢٦٨ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٩١ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢١ ، جواد علي ٣/٢٩٣-٢٩٤ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣٠-٢٣١ ، ريجيس بلاشير : المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) ياقوت ٤/٢٩٣-٢٩٤ ، أبو الفداء ١/١٠١ ، مروج الذهب ١/٣٠٦-٣٠٧ ، ٢/٧٨ ، التنبيه والإشراف ص ٢٠٧-٢٠٨ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢١٥ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦٨ ، ٢٧١ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٥٧ ، إبن الأثير ١/٤٨٢-٤٨٣ ، تاريخ الطبري ٢/٢٠٧ ، البكري ٣/١٠٤٣ ، المحبر ص ٣٦٠ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٢ ، جواد علي ٣/٢٩٤ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣١ .

ويذهب « روتشتاين » إلى أن موقعة ذى قار ، إنما كانت حوالي عام ٦٠٤م ، بينما يتجه « نولدكه » إلى أنها ما بين عامي ٦٠٤ ، ٦١١م[1] ، والعام الأخير هو الذي يميل اليه « نيكلسون »[2] ، وأما « كوسان ده برسيفال »[3] فالرأي عنده أنها حدثت في يناير من عام ٦١١م ، وهو ما تميل إليه الغالبية العظمى من المؤرخين[4] .

ويميل أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم إلى أن الموقعة إنما حدثت حوالي عام ٦٠٩م — أو بعد ذلك بأشهر — معتمد في ذلك على أن المصادر تكاد تجمع على أن مبدأ النبوة إنما حدث على رأس أربع سنين من ملك « أياس بن قبيصة » ، وروى قوم أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قد بعث وهو في الأربعين من عمره الشريف ، ولما كان من المعروف أن الرسول — عليه الصلاة والسلام — قد انتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ (٨ يونية ٦٣٢هـ) ، وهو في سن الثالثة والستين على أرجح الآراء[5] ، فإن بعثته تكون قد حدثت في سنة ٦٠٩م ، وهو ابن أربعين سنة ، وتكون وقعة ذى قار قد حدثت بعد سنة ٦٠٩م ، بقليل ، أو على أبعد تقدير في سنة ٦١٠م[6] .

وأياً ما كان تاريخ موقعة ذى قار ، فقد تولى ملك الحيرة بعد « إياس » إثنان من قبل ملك الفرس ، كان آخر هما « المنذر الخامس » — الملقب بالمغرور — ثم

---

(١) جواد علي ٢٩٤/٣ ، وكذا Rothstein, op. cit., P. 123.

(٢) R. Nicholson, op. cit., P. 70.

(٣) لاحظ أن « كوسان ده برسيفال » — وكذا جوستاف لوبون — إنما يؤرخون المولد النبوي الشريف بيوم ٢٧ أو ٢٩ أغسطس ٥٧٠م (جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٢٩ وكذا وكذا Caussni ep Perceval, op. cit., I. P. 283.

(٤) Caussin de Perceval, op. cit., I. P. 184.
وانظر : بلاشير : المرجع السابق ص ٦١ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٥) راجع ما كتبناه سابقاً في هذه الدراسة عن المولد النبوي الشريف وأنه عاش ٦٣ عاماً قمرياً بالكامل ، أي أكثر من ٦١ عاماً شمسياً ، وأن البعثة كانت في عام ٦١١ م ، أو بعد ذلك بعدة أشهر .
عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٧١-٣٧٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٩٨ ، أنساب الأشراف ص ٥٧٩ ، أسد الغابة ٥٣/١ ، ابن هشام ٢٤٩/١ .

سقطت الحيرة تحت أقدام خالد بن الوليد في سنة ١٣هـ (٦٣٣م) ، على أيام الخليفة الراشد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه وأرضاه - (١١-١٣هـ-٦٣٢-٦٣٤م)[١] وإن كان هناك من يرى أن الفرس قد أقاموا إلى جانب « إياس » مقيماً فارسياً ، يشرف على مهام الحكومة ، بل إن ملوك الفرس سرعان ما ألغوا نظام الإمارة العربية وولوا من قبلهم حكاماً من الفرس ، يخضع لهم زعماء العرب ، وأن الأمر قد استمر كذلك حتى الفتح الإسلامي في عام ٦٣٣م[٢] .

*****

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٤٤-٣٤٦ ، ابن الأثير ٢/٣٨٤ ، الأغاني ١٤/٤٨ ، المحبر ص ٣٦٠-٣٦١ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٤-٧٥ .

(٢) P. K. Hitti, op. cit., P. 84.

الفصل التاسع عشر

مملكة كندة

(١) كندة قبل عهد الملكية :

يكاد يجمع النسابون على أن كِنْدَة ، إنما هي قبيلة قحطانية تنسب إلى كِنْدَة وهو «ثور بن عفير بن عدى بن الحارث بن مرة» ، الذي ينتهي نسبه إلى «كهلان بن سبأ »[١] ، وأن مساكنهم إنما كانت في جبال اليمن الشرقية مما يلي حضرموت ، وأن مدينة « دمون » كانت حاضرة لهم[٢] ، ويرى « البرت جام » أن أرض كندة ، إنما كانت إلى الجنوب من « قشم » ، ذلك لأن نقش (جام ٦٦٠) يضعها بين حضرموت ومذحج[٣] .

على أن فريقاً من الكُتَّاب العرب ، إنما يعتبر الكنديين مهاجرين إلى اليمن من البحرين والمُشَقَّر[٤] ، بينما يرى فريق آخر أن الكنديين عدنانيون ، وأنهم كانوا

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢٧٦/٢ ، جمهرة أنساب العرب ص ٤١٩ ، ٤٨٥ ، نهاية الأرب للقلقشندي ص ٤٠٩ ، الإكليل ١٠/٤-٥ ، ثم قارن : الإشتقاق ٣٦٢/٢-٣٦٣ ، التنبيه والاشراف ص ١٥٩ ، البيان والتبيين ٣٢٨/٣ .

(٢) ياقوت ٤٧٢/٢ ، البكري ٥٥٧/٢ ، ابن خلدون ٢٧٦/٢ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٨٥ .

(٣) جواد علي ٣١٨/٣ ، وكذا

A. Jamme, Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), P. 318, 372.

(٤) الهمداني : المرجع السابق ش ٨٥ ، ٨٨ .

يقيمون في دهرهم الأول في « غمر كندة » ، أي في مواطن العدنانيين[1] ، ولعل هذا الخلاف في نسب كندة إنما يدل على اختلاط القوم بين العدنانيين والقحطانيين ، ربما بسبب عدم استقرارهم في مناطق معينة ، وربما بسبب اضطراب المؤرخين العرب في نسب الكنديين ، بعد اختلاطهم بعرب الشمال ، اختلاطاً أصبحوا به وكأنهم منهم .

وتعرف كندة في النقوش العربية الجنوبية بكدت (أوكدة بتشديد الدال) ، ونقرأ في نقش (جام ٦٣٥) ، والذي يرجع إلى عهد الملك « شعر أوتر » ، أن « ربيعة » من آل ثور ، كان ملكاً على كندة ، وعلى قحطن (قحطان) وأنه كان يحارب في صفوف أعداء الملك « شعر أوتر » ، وهذا يعني أن كندة كانت ذات كيان سياسي ، منذ القرن الأول قبل الميلاد ، إذا أخذنا برأي « جام » من أن حكم « شعر أوتر » كان في الفترة (٦٥-٥٠ ق.م)[2] ، ومنذ أخريات القرن الثاني قبل الميلاد ، إذا أخذنا بتقدير غيره من المؤرخين ؛ هذا فضلاً عن أن ربيعة ملك كندة كان يحكم كذلك قبيلة قحطان ، المتحالفة مع كندة ، ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه من إسم قحطان هذا ، أخذ الأخباريون قحطانهم ، فصيروه جدّ العرب القحطانية[3] .

وفي عهد « الشرح يحصب » كانت كندة ما تزال مملكة مستقلة ، وقد شارك ملكها « مالك » ، ملك دويلة « خصصتن » بأرض عدن ، المسمى « امريء القيس ابن عوف » في الهجوم على قوات « الشرح يحصب » وأخيه « يأزل بين » ، إلا أنهما منيا بهزيمة منكرة ، انتهت بأسر ملك كندة ، ومجموعة من أشرافها ، ثم أخذوا إلى مدينة « مأرب » (وربما كانت إحدى مدن شعب مرب الذي يسكن أرض عدن ، وليست مأرب مدينة سبأ المشهورة) ، وعلى أي حال ، فلقد أطلق سراحهم

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ٢١٢/٤ .

(٢) جواد علي ٣١٦/٣ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 390-381.

(٣) جواد علي ٣١٦/٣ .

آخر الأمر ، بشروط منها أن يبقى ولدا ملكي كندة وخصصن كرهينة عند «الشرح يحصب» ، وأن يتعهد الملكان بعدم التحرش بقوات ملك سبأ وذى ريدان، ومساعدتها ضد أعدائها ، ومنها أن يبقى أبناء الأشراف من كندة وخصصن رهينة عند ملك سبأ[١] .

وسرعان ما فقدت كندة بعد ذلك استقلالها ، ونعرف من نقشي (جام ٦٦٠ ، ٦٦٥) أنها أصبحت تابعة لدولة « ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت » ، وأن « شمر يهرعش » قد عين عليها والياً من قبله ، رفعت درجته في عهد « يهنعم » إلى درجة « كبير » ، وهي من أعلى الوظائف في ذلك العهد[٢] .

وأما أقدم من تحدث عن كندة من الأغارقة والرومان ، فهو «نونوسوس» وقد دعاها (Kindynoi) ، كما ذهب إلى أنها — وكذا قبيلة معد — من أشهر القبائل العربية ، وأن حاكمها على أيامه إنما هو « قيس » (Kaisos)[٣] ، وربما كان آخر مرة يرد فيها إسم كندة في النقوش العربية الجنوبية ، إنما كان في نقش أبرهة من القرن السادس الميلادي[٤] .

ويذهب الأخباريون إلى أن جماعات من كندة قد غادرت مواطنها في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي ، واتجهت شمالاً حتى نزلت في مكان دعي فيما بعد « غمر كندة » أو « غمر ذى كندة » — وهي أرض لبني جنادة بن معد في نجد ،

---

(١) جواد علي ٣١٧/٣ ، وكذا A. Jamme, op. cit., P. 57, 164, 318
وكذا F. Altheim and R. Stiehl,op. cit., II, P. 322.
وكذا W. Caskel, Entdeckungen in Arabien, 1954, P. 9
وكذا Ryckmans, 535

(٢) جواد علي ٣١٧/٣–٣١٨ ، وكذا Jamme 660, 665
وكذا A. Jamme, op. cit., P. 164

(٣) جواد علي ٣١٨/٣ ، وكذا G. Olinder, The Kings of Kinds, 1927, P. 114

(٤) G. Olinder, op. cit., P. 33.
وكذا E. Glaser, Zei Inschriften uber den Dammbruch Von Marib, P. 55.

«وجرة» على مسيرة يومين من مكة (ياقوت ٢١٢/٤) على أن الأخباريين إنما يختلفون في أسباب هجرة الكنديين إلى الشمال ، فذهب فريق إلى أن السبب إنما كان حرباً استعر أوارها بين حضرموت وكندة ، ثم طال أمدها حتى كادت أن تقضي على الكنديين ، ومن ثم فقد اضطروا إلى النزوح إلى الشمال ، فرارا بأنفسهم من الفناء[١].

ويرى آخرون أن السبب إنما كان لأن « حسان بن تبع » كان أخاً لحجُر آكل المرار من أمه ، وأن « حسان » كان قد دوخ بلاد العرب وسار في الحجاز (ربما حوالي عام ٤٨٠م) ، وعندما أراد العودة إلى اليمن ولى أخاه حجرا على معد بن عدنان كلها ، فنجح في ولايته ، وأحسن السيرة في رعيته حتى لم يرضوا به وبآله بديلاً[٢] ، على أن « ابن خلدون » إنما يذهب إلى أن التبابعة إنما كانوا يصاهرون « بني معاوية بن عنزة » الذين كانوا يملكون في « دمون » ، وأنهم كانوا يولونهم على بني معد بن عدنان في الحجاز ، وأن أول من ولى منهم إنما كان حجُر آكل المرار ، وأن الذي ولاه ، إنما هو « تبع بن كرب » الذي كسا الكعبة[٣] .

وهناك رواية رابعة تذهب إلى أن سفهاء بكر قد غلبوا عقلاءها ، وأن القوي منهم قد أكل الضعيف ، فنظر العقلاء في أمرهم ، ثم استقر رأيهم آخر الأمر ، أن يملكوا عليهم ملكاً يأخذ للضعيف من القوي ، فنهاهم العرب ، وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم ، لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون ، ومن ثم فقد ساروا إلى بعض تبابعة اليمن ، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين ، وطلبوا منهم أن يملكوا عليهم ملكاً ، فكان ذلك الملك هو حجر آكل المرار[٤] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢١٦/١ ، قارن : البكري ١٠٠٣/٣ ، الحربي ص ٦٠٣ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢٧٣/٢ ، المعارف ص ٢٧٥ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣٢ ، إيليا حاوي : امرؤ القيس ص ٧-٨ (بيروت ١٩٧٠) ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 85

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢٧٣/٢ ، ٢٧٦ ، بلوغ الأرب ٢٤٠/٢ ، المحبر ص ٣٦٨-٣٦٩ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٤) ابن الأثير ٥١١/١-٥١٢ ، الإكليل ١٤٥/١ .

وعلى أي حال ، فربما كانت هذه الروايات جميعاً ، إنما تمثل مرحلتين من تاريخ كندة ، الأولى وتمثل الهجرة من اليمن إلى نجد ، والثانية وتمثل مرحلة استقرار الكنديين في مواطنهم الجديدة ، وكيف كوّنوا لهم إمارة في نجد ، ومن ثم فيمكن القول أن هذه المرحلة الثانية إنما تمثل التاريخ الحقيقي لكندة[١] .

ومن ثم فإذا كان لنا أن نختار رواية ، نميل إلى أنها ربما كانت أقرب إلى الصواب من غيرها ، فربما كانت الرواية التي تذهب إلى أن ملك حمير قد أقام حجرا زعيماً على عدة قبائل كان ملك حمير قد أخضعها في وسط شبه الجزيرة العربية ، فقامت بذلك دولة يحمل رؤساؤها لقب « ملك » ، وتفرض سلطانها على منطقة واسعة ، وإن كان بحكم الضرورة سلطاناً محدوداً[٢] .

ولعل الهدف من إقامة دولة كندة ، أن التبابعة لجأوا إلى ذلك كوسيلة للسيطرة على الطرق التجارية الشمالية التي كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية ، حتى يأمنوا اعتداء قبائل البدو الشمالية عليها ، بخاصة وأن الدول الكبرى القائمة على تخوم الصحراء ، إنما كانت وقت ذاك تحاول أن تؤلف القبائل إليها لتحمي حدودها من غزواتها ، وتمدها بالجند ، وتسير معها في الحروب متحالفة على أعدائها ، فإذا كان ذلك صحيحاً ، فإن تولية حجر آكل المرار ، تكون سياسة يمنية حكيمة ، فقد كانت عصبة حجر يمنية ، وكان هو من أسرة تولت الملك في بلادها الأولى ، ثم إن هذه الأسرة كانت قد استقرت في الشمال منذ فترة عرفت فيها اتجاه العصبيات وفهمت العقلية الشمالية[٣] ، وهكذا يكون ملوك حمير قد حققوا من إقامة دولة كندة ، ما حققه الروم من إقامة دولة الغساسنة ، والفرس من إقامة دولة اللخميين ، وتصبح كندة لتبابعة اليمن ، ما كان اللخميون للفرس ، والغساسنة للروم[٤] .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢٣٣ .

(٢) سبتينو موسكاتي : المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٣) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، ص ٨٣ ، إيليا حاوي : إمرؤ القيس (دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠) ص ٧ .

(٤) جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢١٠ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 85-86 .

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الروايات العربية عن تأسيس مملكة كندة ، تجد لها تأييداً في نقش عربي جنوبي — هو نقش (ريكمانز ٥٠٩) — يتحدث عن حملة قام بها الملك الحميري « أب كرب أسعد » هو وابنه « حسن يهأمن » واشتركت فيها كندة ، هذا إلى أن هناك مخربشة عربية جنوبية تتحدث عن « حجر ابن عمرو » ملك كندة(١) .

(٢) ملوك كندة :

عرفت كندة لدى الإخباريين بكندة الملوك ، ربما لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان(٢) ، ولأنهم نصّبوا أولادهم على القبائل ، ولأنهم كانوا يتعززون بنسبهم إلى كندة ، وإلى آكل المرار ، لأنهم كانوا ملوكاً ، ولأنهم « ساسو العباد وتمكنوا من البلاد »(٣) ، على أنه يجب أن نشير إلى أن مملكة كندة لم تكن مملكة بالمعنى المعروف ، وإنما كانت أقرب ما تكون « اتحاداً فدرالياً » (Confederation) قبلياً ، تشغل فيه قبيلة كندة مركز الصدارة ، وتتولى فيه الحكم أسرة من أسرها(٤) .

وأياً ما كان الأمر ، ففي الربع الأخير من القرن الخامس الميلادي(٥) ، وربما في حوالي عام ٤٨٠م(٦) ، أصبح « حجر بن عمرو آكل المرار » ملكاً على كندة في قلب نجد ، وانتزع جانباً من الأرض التي كانت تحت سيطرة المناذرة ، ثم نزل في مكان يدعى « بطن عاقل » — جنوب وادي الرمة على الطريق بين مكة والبصرة(٧)

---

(١) S. Moscati, op. cit., P. 127.
وكذا M. Hofner, Die Beduinen in den Vorislamischen Arabischen Inschriften, P. 53-68.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢٧٥/٢ ، الإكليل ٢٢١/٢ ، ٢٢٤ ، منتخبات ص ٩٤ .

(٣) تاريخ الطبري ١٣٩/٣ ، مروج الذهب ٣٢٥/٢ ، ابن هشام ٣٤٥/٢ ، جواد علي ٣١٥/٣ .

(٤) موسكاتي : المرجع السابق ص ٣٥٦ .

(٥) G. Olinder, op. cit., P. 46.

(٦) P. K. Hitti, op. cit., P. 85.

(٨) ابن الأثير ٥١٢/١ ، وكذا G. Olinder, op. cit., P. 42

ـ وهكذا ـ كما يقول الدكتور عمر فروخ ـ تسرب النفوذ الأجنبي إلى مكان جديد في شبه الجزيرة العربية ، نفوذ رومي مناهض لنفوذ الفرس في الحيرة ، ومغلف بسياسة يمنية ظاهرة[1] ، إلا أننا لا يمكننا أن نقبل وجهة النظر هذه ببساطة . ذلك لأن الدكتور فروخ نفسه يوافق الروايات العربية التي ذهبت إلى أن الذي أقام حجراً ملكاً على كندة ، إنما هم الحميريون وليس الروم أو الأحباش ، كما أن اليمن لم تكن وقت ذاك تسير في فلك النفوذ الرومي أو الحبشي ، فضلاً عن أن ملوك كندة إنما عملوا بعد ذلك عند الفرس ، وليس عند الروم أو الأحباش ، كما سوف نرى وإن تحالفوا مع الروم حينا من الدهر .

وعلى أي حال ، فإن حجراً ، إنما يدعى عند المؤرخين العرب « آكل المرار » ، ويعللون ذلك بقصة خلاصتها : أن حجراً قد سار بقبائل ربيعة لغزو البحرين ، فعلم بذلك « زياد بن الهبولة » من سليح بن حلوان ، فأغار على غمر كندة ، وقتل من وجد من الرجال ، واستولى على الأموال ، وسبي النساء ، ومن بينهم «هند» زوج حجر نفسه ، وما أن يعلم حجر بهذا الأمر ، حتى يسرع فيدرك زياد عند « البردان » ، فينزل على ماء يقال له « الحفير » ـ على مقربة من عين أباغ بين الفرات والشام ـ ويرسل رجالاً ليأتوه بخبر زياد ، وهنا يعلم ـ عن طريق رجل يقال له سدوس ـ أن هنداً إنما هي راضية عما حدث ، وأنها قد أجابت زياداً عندما سألها عن موقف حجر : « إنه والله لن يدع طلبك حتى تعاين القصور الحمر ـ يعني قصور الشام ـ وكأنني به في فوارس من بني شيبان ، يذمرهم ويذمرونه ، وهو شديد الكلب ، تزبد شفتاه كأنه بعير أكل مراراً ، فالنجاء النجاء ، فإن وراءك طلباً حثيثاً وجمعاً كثيفاً ، وكيداً متيناً ورأياً صليباً » . وما أن ينتهي « سدوس » من روايته ، حتى يعبث حجر بالمرار ، ويأكل منها ، غضباً وأسفاً ، ولا يشعر أنه يأكله من شدة الغضب ، فسمي يومئذ « بآكل المرار » أو أنه ـ على رواية أخري ـ كان يوماً على سفر ،

---

(١) عمر فروخ : المرجع السابق ص ٨٦ .

فلما لم يجد ما يأكله أكل المرار حتى شبع[1] ، وأياً ما كان الأمر ، فإن معركة حامية الوطيس سرعان ما تدور رحاها بين الفريقين ، ينال فيها « زياد » هزيمة منكرة ، ثم يقع في أسر « سدوس » ، وتنجح بكر في استرداد ما سلبه زياد من غنائم وسبي ، ثم يأخذ حجر هنداً فيربطها في فرسين ، ثم يركضهما ، فشقاها نصفين على رواية ، وأنه قد أحرقها على رواية أخرى ، ثم عاد إلى الحيرة .[2]

وفي الواقع أن الرواية على هذا النحو ، إنما تعترضها عقبات عدة ، منها (أولاً) أن هناك من يرى أن الذي هاجم ديار حجر ، إنما هو الحارث بن الأهيم بن الحارث الغساني على رواية ، والحارث بن جبلة على رواية أخرى ، ودون ذكر اسم الذي أغار على غمر كندة ، على رواية ثالثة ، وهو الحارث بن منذله الضجعمي من بني سليح ، على رواية رابعة ، وهو عمرو بن الهبولة الغساني على رواية خامسة[3] ، وهكذا يختلف الأخباريون في الرواية بصورة تلقي ظلالاً من شك على صحتها من أساس ، ومنها (ثانياً) أن الأسيرة — في رواية أخرى — ليست هنداً ، وإنما هي قينة من أحب قيان حجر إلى نفسه[4] .

ومنها (ثالثاً) أن ابن الأثير[5] سرعان ما يدرك الخطأ في الرواية ، لأن ملوك سليح كانوا بأطراف الشام عمالاً للروم ، ثم خلفهم الغساسنة في مكانتهم هذه ، وأما الحيرة فقد كانت ملكاً للخميين ، ومن ثم فإن عودة حجر للحيرة بعد انتصاره

---

(١) هناك تفسير آخر يذهب إلى أن المرار ، إنما هو نبات إذا أكلته الإبل تقلصت مشافرها فبدت أسنانها ، لذلك قيل لحجر « آكل المرار » لكثر كان به (أنظر : جواد علي ٣٢٠/٣ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣٢ ، أبو الفداء ٧٤/١ ، اللسان ١٧١/٤ ، وكذا
Caussin de Perceval, op. cit., II, P. 267. وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 85

(٢) ابن الأثير ٥٠٦/١–٥٠٩ ، الاشتقاق ٢٢/١ ، الأغاني ٨٢/١٥ ، البيان والتبيين ٣٢٨/٣ ، تاج العروس ٣٠٠/٢ ، القاموس ٢٧٧/١ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٤٢–٤٥ .

(٣) جواد علي ٣٢٢/٣–٣٢٣ ، منتخبات ص ٩٧ ، الأغاني ٦٣/١٣ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٨٦ وكذا G. Olinder, op. cit., P. 44-5.

(٤) منتخبات ص ٩٧ ، جواد علي ٣٢٢/٣ .

(٥) ابن الأثير ٥١٠/١–٥١١ .

على « زياد » لا تتفق والحقائق التاريخية ، صحيح أن الفرس على أيام « قباذ » (٤٤٨-٥٣١م) قد استعملوا ملوك كندة على الحيرة ، ولكن صحيح كذلك أن ذلك إنما حدث بعد وفاة « آكل المرار » ، وعلى أيام حفيده « الحارث » ، ثم إن « زياد بن الهبولة » هذا ، إنما كان يعيش قبل « آكل المرار » بفترة طويلة ، ومن ثم فإنه يفترض أن « زياداً » إنما كان رئيساً على قوم ، أو متغلباً على بعض أطراف الشام ، أضف إلى هذا كله أن هناك من يرى أن الذي غزا آكل المرار ، إنما كان « غالب بن هبولة » ، وأنه لم يشر إطلاقاً إلى عودة آكل المرار إلى الحيرة .

وعلى أي حال ، فلقد مات آكل المرار في « بطن عاقل » في وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين ، وإن اتجه « أوليندر » إلى أن ذلك ربما كان في العقد الأخير من القرن الخامس الميلادي ، معتمداً في ذلك على وفاة حفيده « الحارث » في عام ٥٢٨م[1] ، وإن كان هناك من يرى أن « حجراً » إنما هو « Ogarus » المذكور في بعض التقاويم في حوادث أعوام ٤٩٧م ، ٥٠١م ، ٥٠٢م ، وقد ذكر معه أخ له يدعى « معديكرب » (Badicharimus) ، فضلاً عن حفيد يدعى « الحارث Aretha »[2] .

وخلف حجر آكل المرار ولده المعروف بالمقصور (عمرو بن حجر) ، ربما لأنه اقتصر على ملك أبيه ، وربما لأن « ربيعة » قد اضطرته إلى ذلك[3] ، وأنه لم يحمل لقب « ملك » ، وإنما اكتفى بلقب « سيد كندة » ، وأن اليمامة إنما كانت من نصيب أخيه معاوية المعروف بالجون[4] ، ويبدو أن « عمراً بن حجر » كان على علاقة طيبة بملوك اليمن ، ومن ثم فقد تزوج بنتاً لحسان بن تبع أسعد الأكبر ،

---

(١) ابن الأثير ٥١٢/١ وكذا جواد علي ٣٢٥/٣ ، وكذا G. Olinder, op. cit., P. 46

(٢) جواد علي ٣٢٥/٣ ، وكذا Provincia Arabia, III, P. 286.

(٣) ابن الأثير ٥١٢/١ ، المحبر ص ٣٦٩ ، المفضليات ص ٤٢٩ ، الأغاني ٦٠/٨ ، حمزة الأصفهاني: المرجع السابق ص ٩٢ »

(٤) الأغاني ٨٢/١٥ ، ٦٢/١٨ ، ابن الأثير ٥١٢/١ ، تاريخ الطبري ٨٩/٢ ، المحبر ص ٣٦٩ .

كما كانت كذلك باللخميين ، ولهذا فقد تزوج « الأسود بن المنذر » ملك الحيرة من « أم الملك » ابنة عمرو المقصور ، فولدت له النعمان بن الأسود[1] .

على أن علاقة عمرو المقصور هذا بالغساسنة إنما هي موضع خلاف بين المؤرخين ، فذهب البعض إلى أنها إنما كانت علاقة عدائية ، وأن عمراً إنما كان في أحايين كثيرة يشن الغارة عليهم ، حتى لقي حتفه آخر الأمر بيد « الحارث بن أبي شمر » الغساني[2] بينما يذهب فريق آخر إلى أن العلاقات بينهما إنما كانت طيبة ، وأن عمرا قد تزوج من « هند المنود » بنت « ظالم بن وهب » ، وكانت أختها « ماريا » زوجة للحارث الغساني الأكبر ، وأن الذي قتل عمراً . إنما هو « عامر الجون » في « يوم القنان » ، إبان ثورة ربيعة على عمرو المقصور[3] ، وذلك حين انتهزت فرصة الضعف في آل كندة على أيامه ، وكان قد ظهر من بني تغلب في نفس الوقت رجل قوي ، هو « وائل بن ربيعة » المعروف بكليب وائل ، فانتزع من عمرو السيطرة على جميع قبائل ربيعة ، أو أن قبائل ربيعة قد انحازت من تلقاء نفسها إلى « كليب » ، ومن ثم فقد اضطر عمر . إلى أن يستنجد « بمرشد بن عبد ينكف الحميري » ، الذي أنجده بجيش كبير ، والتقى عمرو بكليب في ديار بني أسد — على مقربة من جبل القنان — فقتل عمرو في المعركة ، وتحررت قبائل ربيعة من سيطرة آل كندة إلى حين[4] .

وجاء بعد عمرو ولده « الحارث » من زوجه أم إياس أو أم إناس بنت عوف على رأي[5] ، ومن امرأة من بني عامر بن صعصعة على رأي ثان[6] ، ومن بنت حسان بن [illegible] الحميري على رأي ثالث[7] ، ويرى الطبري أن « عمرا بن تبع »

---

(١) تاريخ الطبري ١٠٤/٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٩ ، المعارف ص ٢٧٥ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢١٦/١ ، الأغاني ٦٥/٨ ، مروج الذهب ٨٣/٢-٨٤ .

(٣) ياقوت ٤٠١/٤ ، المفضليات ص ٤٢٩ ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٨٧ . —

(٤) عمر فروخ : المرجع السابق ص ٨٨ ، المفضليات ص ٤١٦ .

(٥) جواد علي ٣٢٦/٣ ، كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة ٥٣١/١ ، وما بعدها ، الأغاني ٦٢/٨ ، ثم قارن : الأغاني ٨٣/١٥ ، وانظر : G. Olinder, op. cit., P. 48.

(٦) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٥٢ .

(٧) تاريخ الطبري ٨٩/٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٦٩ .

إنما أراد بهذا الزواج الإقلال من شأن بني أخيه « حسان بن تبع » بعد أن قتله بنفسه ، وفي نفس الوقت الإعلاء من شأن عمرو بن حجر الكندي ، ذلك لأن العرب لم تكن تطمع في مصاهرة هذا البيت العريق [1].

وقد اختلف المؤرخون في فترة حكم « الحارث بن عمرو المقصور » هذا ، فبينما يحدد له أستاذنا الدكتور عبد العزيز سالم الفترة (٤٩٥–٥٢٨م)[2] ، يرى « كوسان ده برسيفال » أنه حكم في الفترة (٤٩٥–٥٢٤م)[3] ، ويذهب « أوليندر » إلى أنه كان في الفترة (٤٩٠–٥٢٨م)[4] ، وعلى أي حال ، فلقد كان الحارث أقوى ملوك كندة قاطبة ، وأشدهم بأساً ، وأعظمهم شخصية ، وأكثرهم طموحاً ، وقد ساعدته الظروف ، فأصبح أعداؤه من بني بكر وتغلب — بعد حرب البسوس التي دامت أربعين عاماً[5] — في حالة ضعف شديد ، ومن ثم فقد نجح في أن يعيد سلطانه على قبائل ربيعة في نجد ، وعلى بني أسد وبني كنانة وبني بكر .

وتذهب الروايات العربية إلى أن الحارث قد كتب له نُجْحاً بعيد المدى في توسيع مملكة كندة ، حتى أنه استطاع آخر الأمر أن يضم إليه ملك آل لخم ، وأن يجلس على عرشهم في الحيرة نفسها ، منتهزاً الفرصة التي أتاحتها له الظروف التي كانت تمر بها الدول الشمالية (الروم والفرس والغساسنة والمناذرة) ، ومن ثم فقد بدأ حوالي عام ٤٩٧م بغزو فلسطين ، إلا أن الحاكم الروماني قد ألحق بجيشة — الذي كان بقيادة ولده حجر — هزيمة منكرة ، ولكن ما أن تمضي سنون خمسة حتى تصبح

(١) تاريخ الطبري ٢/٨٩ .

(٢) عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤١١ .

(٣) Caussin de Perceval, op. cit., II, P. 286.

(٤) G. Olinder, op. cit., P. 54, 56.

(٥) أنظر عن حرب البسوس : ابن الأثير ١/٥٢٣—٥٣٠ ، الميداني ١/٣٧٤–٣٧٦ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢٢٥ ، بلوغ الأرب ٢/١٤٩–١٥٧ ، كتاب المعارف ص ٢٦١ ، ياقوت ١/١١٢–١١٣ ، الأغاني ٤/١٤٠–١٥٢ ، العقد الفريد ٣/٩٥ ، أيام العرب في الجاهلية ص ١٤٢–١٦٨ ، أبو تمام : الحماسة ص ٤٢٠–٤٢٣ ، تاريخ الجاهلية ص ٩٨–١٠٣ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٤٥–٢٤٨ ، وكذا P. K. Hitti, History of the Arabs, P. 89-90.

بيزنطة في موضع حرج ، إذ تبدأ قبائل البلغار والصقالبة تتغلغل في تخوم الإمبراطورية الشمالية ، ثم سرعان ما تعود الحرب بين الروم والفرس ، من جديد ، حوالي عام ٥٠٢م ، وهكذا رأى الإمبراطور الروماني « انسطاسيوس » (٤٩١-٥١٨م) أن يخفف من مشاكله ، وأن يقلل من أعدائه ، فعقد مع الحارث معاهدة تنص على أن يترك آل كندة مهاجمة الشام ، وأن يتعاونوا مع الروم على قتال الفرس والمناذرة ، وهكذا قام الروم في العام التالي (٥٠٣م) — بمساعدة الحارث — بهجوم على الحيرة ، واستولوا على قافلة[١] .

ولم يكن الحال بالنسبة إلى الفرس ، بأفضل منه بالنسبة إلى الروم ، فعلى أيام قباذ (٤٨٨-٥٣١م) ، انتشرت الإضطرابات في أنحاء البلاد ، وأصبح الأمر بيد « الموابذة » ، كما كان للأغنياء والإقطاعيين دور كبير في إدارة شئون البلاد ، وهنا رأى قباذ — أملاً في استرداد سلطانه ، ورغبة في القضاء على الأغنياء، وعلى رجال الدين — أن ينشر مبادىء «مزدوك» بين الناس[٢] ، والتي تدعو إلى نوع من الإشتراكية البدائية في الأموال والنساء ، حيث أن الناس قد تظالموا في الأموال والأرزاق ، فاغتصبها بعضهم من بعض ، وأن الأغنياء قد اغتصبوا أرزاق الفقراء ، ومن ثم فإنهم « يأخذون للفقراء من الأغنياء ، ويردون من المكثرين على المقلين ، وأن من كان عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة ، فليس هو بأولى به من غيره ، فافترض السفلة ذلك واغتنموه ، وكانفوا مزدوك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم ، وقوي أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره ، فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الإمتناع عنهم »[٣] .

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٨٩ .

(٢) جواد علي ٣/٣٢٣ ، وانظر

T. Nôldeke, Aufsatze zur Persischen Geschichte, Leipzig, 1887, P. 109.

(٣) تاريخ الطبري ٢/٩٢-٩٣ ، ابن الأثير ١/٤١٥-٤١٢ ، ايليا حاوي : المرجع السابق ص ٨ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٢٢ .

وقد أدت هذه الأحداث إلى قيام ثورة ضد قباذ ، انتهت بخلعه في عام ٤٩٨م — وربما في عام ٤٩٦م[١] — ولكنه استطاع أن يفلت من السجن ، وأن يستعيد عرشه في عام ٥٠٢م — أو عام ٥٠٤م — طبقاً لرواية يذهب الأخباريون فيها إلى أن أخته — بمساعدة واحد من ضباطه — قد لعبت الدور الأول في هروبه من السجن ، بعد أن مكث فيه ست سنين[٢] .

وفي أثناء ذلك كان قباذ قد دعا « المنذر بن ماء السماء » إلى المزدكية فأبى ، وأسرها قباذ في نفسه ، وعندما عرض دعوته هذه على الحارث الكندي أسرع بإجابته إليها ، ومن ثم فقد عزل المنذر عن عرش الحيرة ، وأقام مكانه الحارث الكندي[٣] ، فيما بين عامي ٥٢٥م ، ٥٢٨م ، على رأي[٤] ، وفي حوالي عام ٥٢٩م على رأي آخر[٥] ، وهكذا اتسع ملك الحارث وعظم شأنه ، وجعل أولاده ملوكاً على القبائل ، فكان « حجر » على بني أسد وغطفان ، وكان « شر حبيل » على بكر بن وائل بأسرها ، وعلى عدد من القبائل الأخرى ، وكان « معد يكرب » على قيس بن عيلان وطوائف من غيرهم ، وكان « سلمة » على بنى تغلب والنمر بن قاسط ، وعلى بني سعد بن زيد مناة من تميم[٦] .

على أن هناك من يذهب إلى أن العرب قد انتهزوا فرصة ضعف قباذ ، فتواثبوا على المنذر بن ماء السماء ، واضطروه إلى الهروب من الحيرة ، ومن ثم فقد إستدعي

---

(١) جواد علي ٣٣٤/٣ ، وكذا EB, 17, P. 574. وكذا EI, 4, P. 178

(٢) ابن الأثير ٤١٤/١ ، تاريخ الطبري ٩٣/٢-٩٤ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢٧٤/٢ ، المحبر ص ٣٦٩ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٤٦ ، ابن الأثير ٥١٢/١ ، تاريخ الطبري ٩٥/٢ ، محمد الخضري : المرجع السابق ص ٣١ .

(٤) جواد علي ٣٤١/٣ ، وكذا G. Olinder, op. cit., P. 65.

(٥) P. K. Hitti, op. cit., P. 85.

(٦) ابن الأثير ٥١٣/١-٥١٤ ، المفضليات ص ٤٢٧-٤٢٨ ، تاريخ اليعقوبي ٢١٧/١ ، محمد الخضري ٣١/١ ، تاريخ ابن خلدون ٢٧٤/٢ ، المحبر ص ٣٦٩-٣٧٠ ، الأغاني ٨٢/٩ (دار الكتب المصرية) ، ياقوت ٤٧٢/٤-٤٧٣ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٩٢ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٤٦ ، ١١٢ وكذا EI, II, P. 1018 وكذا G. Olinder, op. cit., P. 82

عرب الحيرة الحارث الكندي فملكوه على بكر ، وحشدوا له وقاتلوا معه ، ثم اضطر المنذر – بعد أن فشل في الحصول على مساعدة عسكرية من قباذ – إلى أن يخضع للحارث ، وأن يتقرب إليه ، وأن يتزوج من ابنته « هند » (عمة امرىء القيس الشاعر)[1] .

ويرى حمزة الأصفهاني أن الحارث الكندي كان قد طمع في ملك آل لخم ، فانتهز فرصة ضعف قباذ ، وباغت الحيرة ، واضطر المنذر إلى الهرب إلى « الجرساء الكلبي » ، حيث بقي هناك حتى وفاة قباذ ، وتولية كسرى أنوشروان الذي أعاده إلى ملكه[2] .

على أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن النعمان بن المنذر قد لقي مصرعه ، في معركة دارت رحاها بينه وبين الحارث الكندي ، وإن نجا منها ولده المنذر ، وأمه ماء السماء ، ومن ثم فقد أصبح الحارث الكندي يملك ما يملكون ، وهنا بعث « قباذ » يطلب لقاء الحارث ، ويبدو أن الأخير قد استشعر ضعف الملك الفارسي عندما التقيا ، ومن ثم فقد بدأ يخطط لنفوذ أوسع في العراق على حساب الفرس ، وهكذا أمر رجاله بأن يشنوا الغارة على السواد ، ويعلم قباذ بالأمر ، ويدرك أن الحارث أقوى شخصية ، وأكثر دهاء مما كان يتصور ، ومن ثم فقد عمل على أن يدرأه عن نفسه ، فأعطاه بعض المناطق التي تقع في مجاورات الحيرة ، إلا أن الحارث كان أكثر طموحاً ، ومن ثم فقد كتب إلى « تبع » ملك اليمن ، يقول له : « إني قد طمعت في ملك الأعاجم ، وقد أخذت منه ست طساسيج فاجمع الجنود وأقبل » ، وتذهب الرواية بعد ذلك، إلى أن «تبعا» قد جمع الجنود وسار بهم حتى نزل الحيرة ، ثم وجه ابن أخيه « شمر ذى الجناح » إلى قباذ ، فحاربه وانتصر عليه ثم قتله بالري[3] ،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧٤–٢٧٥ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٠ ، ابن قتيبة الدينوري : الشعر والشعراء ص ٧٥ .

(٢) حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٠ وما بعدها .

(٣) ابن الأثير ١/٤١٥ ، تاريخ الطبري ٢/٨٩ ، ٩٥–٩٦ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٦٤–٢٦٥ .

وأما التقاء الحارث بقباذ ، فقد كان — فيما يرى الويس موسل — في عام ٥٢٥م ، عند قنطرة الفيوم ، وهي موضع لا يبعد كثيراً عن « هيت » ، والتي يصفها « ياقوت » بأنها بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة[1]

وهكذا تختلف الروايات في كيفية وصول الحارث الكندي إلى عرش الحيرة ، فبعضها يزعم أن ذلك إنما كان بأمر من قباذ نفسه ، بعد أن رفض المنذر اعتناق المزدكية ، ومن ثم فقد حل الحارث مكانه في الحيرة ، وأن الأخير قد اصطنع المنذر بعد ذلك ، وزوجه من ابنته «هند» ، وأن المنذر قد قبل ذلك بعد أن أصبح لا يملك من أسباب القوة ما يعيد إليه عرش الأسلاف ، ومنها ما يزعم أن الحارث إنما استولى على عرش الحيرة بحد السيف ، فقد قتل النعمان بن المنذر ، ثم أجبر « قباذ » بعد ذلك أن يزيد من أملاكه فيما وراء الفرات ، ثم استعان بملوك اليمن الذين حاربوا قباذ فانتصروا عليه وقتلوه في الري ، ثم استمروا يفتحون البلاد في إتجاه الصين شرقاً ، والقسطنطينية غرباً .

إلا أننا رغم ذلك ، نستطيع أن نستخلص من تلك الروايات المتضاربة أحياناً ، والتي تمتلىء بالمبالغات أحياناً أخرى ، حقيقة هامة ، وهي أن الحارث الكندي قد كتب له أن يجلس على عرش الحيرة حيناً من الدهر ، قد يكون في الفترة (٥٢٥—٥٢٨م) إبان فتنة المزدكية في إيران[2] ، وربما كان الحارث قد اتصل من قبل بالفرس بعد عقد صلح بينهم وبين الروم في عام ٥٠٦م ، اعتقاداً منه أن العمل في جانب الفرس ، ربما كان أفضل له منه في جانب الروم ، ثم زحفت بكر وتغلب بعد ذلك من مواطنها القديمة في اليمامة ونجد نحو العراق ، وأن الفرس قد أقروه على ذلك ، مقابل جعل يدفعه لهم كل عام ، إلى جانب أهداف أخرى أرادوا من ورائها كسر شوكة اللخميين في الحيرة ، وضم الحارث القوى إلى جانبهم ، خوفاً من أن ينحاز إلى جانب الروم

---

(١) ياقوت ٢٨٦/٤ ، البكري ١٣٥٦/٤ ، وكذا A. Musil, The Middle Ehuprates, P.350

(٢) G. Olinder, op. cit., P. 65.

– أعدائهم التقليديين – وقد أدى ذلك كله – إلى جانب الخلافات بسبب المزدكية ، فضلاً عن ضعف قباذ العاهل الفارسي – إلى أن تسوء العلاقات بين الفرس وأتباعهم اللخميين ، واستغل الحارث الفرصة ، حتى انتهى الأمر باستيلائه على عرش الحيرة نفسه[1] .

وأما استنجاد الحارث الكندي بملوك اليمن ، وانتصارات هؤلاء الملوك في أرض العراق وما وراءها ، فليس ذلك إلا من نوع الإشادة بماضي القحطانيين – الذي يردده الكتاب العرب في صفحات كتبهم دائماً ، دونما ملل – فهم – دون العدنانيين – أصحاب التاريخ التليد والمجيد كذلك ، وهم أصل العروبة وأول الناطقين بلغتها ، فضلاً عن التركيز هنا بصورة ملفتة للنظر ، من أن دولة كندة ما كانت بقادرة على تحقيق مجد ، أو إحراز نصر ، دون عون يأتيها من الجنوب ، من اليمن .

هذا وقد اختلف المؤرخون في مقر الحكم الذي اختاره الحارث الكندي في العراق ، فبينما يذهب فريق إلى أنه في الحيرة ، عاصمته اللخميين ، يرى آخرون أنه في « الأنبار » – وتقع على مبعدة أربعين ميلاً إلى الشمال الغربي من بغداد – على أن فريقاً ثالثاً رأى أن الرجل إنما كان سيارة في أرض العرب[2] .

وأياً ما كان الأمر ، فإن ملك الحارث لم يستمر طويلاً في العراق ، فما هو إلا أن مات قباذ في عام ٥٣١م ، وآل أمر الفرس إلى « كسرى أنو شروان » (٥٣١–٥٨٩م) ، حتى اتخذ العاهل الجديد سياسة مناهضة للمزدكية ، فقتل «مزدوك» وصلبه ، كما قتل كبار أصحابه غدراً ، ثم تتبع الزنادقة من المزدكية في كل أرجاء الإمبراطورية الفارسية ، حتى قيل أنه قتل منهم في يوم واحد مائة ألف ،

---

(١) جواد علي ٣/٣٣٧–٣٤٢
وكذا G. Olinder, op. cit., P. 65 وكذا ZDMG, 23, 1869, P. 559
(٢) ابن الأثير ١/٥١٢ ، الأغاني ٨/٦٢ ، ياقوت ١/٢٥٧–٢٥٨ ، البكري ١/١٩٧ ، جواد علي ٣/٣٤٢ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧٢ ، ٩٣
وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 85.
وكذا G.Rothstein, Die Dynastie der Lackmiden, in al Aira, Bcrbin, 1899,P.88.

وحتّى قيل أنه اتخذ من هذا اليوم لقب « أنوشروان » أي « الروح الطيبة » ، ثم طرد الحارث الكندي ، وأعاد المنذر الثالث إلى عرش الحيرة ، ربما بسبب المزدكية ، وربما بسبب سياسة الحارث الكندي نفسه ، إذ يبدو أن الرجل قد لجأ في أخريات أيامه إلى إيجاد علاقات طيبة بينه وبين الروم ، مما كان سبباً في قضاء كسرى أنوشروان على سلطته في الحيرة[1] .

على أن المنذر الثالث ، سرعان ماتتبع الحارث الكندي وأهله ، حتى أسر اثني عشر أميراً من بني حجر بن عمرو ، ثم قتلهم في دير بني مرينا – بين دير هند والكوفة – وإن كانت هناك رواية أخرى تذهب إلى أن المنذر قد لحق بالحارث في أرض كلب ، فهرب الحارث تاركاً ماله وإبله فانتهبها المنذر ، وأسر ثمانية وأربعين من بني آكل المرار – من بينهم عمرو ومالك ولدي الحارث – فأمر المنذر بهم فقتلوا في ديار بني مرينا[2] ، على أن رواية ثالثة تذهب إلى أن الذين قتلوا الحارث إنما هم بني كلب ، بينما تذهب رواية رابعة إلى أنه مات حتف أنفه بعد مطاردة لتيْس من الظبا ، دامت ثلاثة أيام ، حتى إذا ما تمكن منه شويت له بطنه ، فأكل فلذة حارة من كبده فمات ، ثم دفن في « بطن عاقل »[3] وإن ذهب « أوليندر »[5] إلى أن هناك اضطراباً في الرواية العربية بين « حجر » الذي دفن ببطن عاقل[4] ، وبين حفيده الحارث .

---

(١) تاريخ الطبري ١٠١/٢–١٠٣ ، حمزة الأصفهاني : المرجع السابق ص ٧١ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٢٢–٢٢٣ ، جواد علي ٣٤٢/٣ ، وانظر : John Malalas, XVIII, Col. 653
وكذا Caussin de Perceval, op. cit., II, P. 79-85.
وكذا G. Olinder, op. cit., P. 65-6.

(٢) ابن الأثير ٥١٢/١–٥١٣ ، إيليا حاوي : امرؤ القيس ص ٨–٩ ، تاريخ الأمم الإسلامية ٣١/١ ، سعد زغلول ، المرجع السابق ص ٢٢٣ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 85.

(٣) ابن الأثير ٥١٣/١ ، أبو الفداء ٧٤/١ ، الأغاني ٦٢/٨ ، العقد الفريد ٧٧/٣ ، نهاية الأرب ٤٠٦/١٥ ، صحيح الأخبار ٤٥/١ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٤٦ ، جواد علي ٣٤٤/٣–٣٤٥ ، وكذا G. Olinder, op. cit., 68. وكذا A. Musil, op. cit., P. 350.

(٤) جواد علي ٣٤٥/٣ وكذا G. Olinder- op. cit., P. 68.

(٥) عاقل واد قريب من الرس ، ولا يزال بهذا الأسم إلى يومنا هذا ، غير أنه يقال له العاقلي (صحيح الأخبار ٤٥/١) أو هو ماء لبني أبان بن درام من وراء القريتين ، أوجبل كان يسكنه حجر (البكري ٩١٢٢٣) .

وأياً ما كان الصواب في موت الحارث الكندي ، فمما لا شك فيه أن ذلك المصير التعس الذي لقيه الرجل ، ومن أسر من أهل بيته ، إنما كان ضربة في الصميم وجهت إلى دولة كندة ، وسرعان ما دب الشقاق فيها ، فانحلت عراها بعد أن قتل أبناء الحارث واحداً بعد الآخر ، وعاد إلى حضرموت من أهل كندة ، هؤلاء الذين هاجروا من قبل إلى وسط شبه الجزيرة العربية .

ويبدو أن المنذر اللخمي لم يرضه ما ناله من بني الحارث الكندي ، ولم يقتنع بما آل إليه أمرهم بعد موت أبيهم ، إذ تفرقت كلمتهم ، ومشت الرجال بينهم ، وتفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع ، وزحف إليه بالجيوش ، وكان المنذر من وراء ذلك كله ، حتى أنه وجه إلى « سلمه » بهدايا ، ثم دس إلى « شرحبيل » من قال له : « إن سلمة أكبر منك ، وهذه الهدايا تأتيه من المنذر » ، وما زال المنذر يغري كل واحد منهما بمحاربة الآخر ، حتى نشبت الحرب بينهما ، في يوم عرف بين العرب « بيوم الكلاب الأول » ، أعلن كل فيه من الأخوين عن جائزة مقدارها مائة من الإبل لمن يأتيه برأس أخيه ، وكان يوماً عصيباً اشتدت فيه الحرب حتى آخر النهار ، وانتهى بقتل « شرحبيل »[1] .

ويذهب الرواة إلى أن « سلمة » سرعان ما أخرجه بنو تغلب من بينهم ، فلجأ إلى بني بكر بن وائل ، ثم انضم بنو تغلب إلى المنذر اللخمي ، الذي بذل الجهد — كل الجهد — لطرد سلمه من ديار بني بكر ، وانضوائهم تحت لوائه ، إلا أن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، ومن ثم فقد صمم على غزوهم ، بل وذبحهم — إذا ظفر بهم — على قمة جبل أواره ، حتى يبلغ دمهم سفح الجبل ، وهكذا كان « يوم أوارة الأول » ، حيث اقتتل الفريقان قتالاً شديداً ، وانتهت المعركة بهزيمة

(1) ابن الأثير ١/٥٤٩–٥٥٢ ، المحبر ص ٣٧٠ ، البكري ٤/١١٣٢ ، ياقوت ٤/٤٧٢–٤٧٣ ، نهاية الأرب ١/٤٠٦ ، صحيح الأخبار ١/٤٤–٤٥ ، العقد الفريد ٧٨/٦ ، ٢٢٢/٥ ، تاريخ اليعقوبي ٢١٧/١ ، ٢٢٥ ، ابن خلدون ٢٧٤/٢ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٤٧–٤٨ ، بلوغ الأرب ٧٢/٢ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٧–٢٢٨ .

بكر ، وأسر « يزيد بن شرحبيل الكندي » ، فأمر المنذر بقتله ، مع جمع كبير من بكر[١] .

وأما الإبن الثالث « معد يكرب » فقد ظل بعد موت أبيه الحارث الكندي رئيساً على «قيس عيلان» ، إلا أن الأحزان كانت قد هدت قواه بعد مقتل أخويه «شرحبيل وحجر » ، وبعد موت « سلمه » فاعتراه وسواس هلك به[٢] .

وأما رابع الأخوة « حجر بن الحارث » من زوجه « فطام بنت سلمة » فقد قتل أول إخوته ، وإن كنا قد أخرنا قصته لنربط بينها وبين قصة ولده الشاعر المشهور « امرؤ القيس » ، وحجر هذا ، هو أكبر أبناء الحارث وأعظمهم جاهاً ، ومن ثم فقد انتقل اليه عامة ملك كندة ، ولعل هذا هو السبب في أن بعض الباحثين يرون أن حجراً قد قام بغارة على اللخميين بعد وفاة أبيه الحارث ، أملاً في أن يسترجع ما فقده أبوه ، وأن يعيد نفوذ كندة، كما كان على عهد الحارث[٣] ، إلا أن الحملة لم يكتب لها نصيباً من نجاح .

وعلى أي حال ، فلقد أثرت كل هذه الأحداث على دولة كندة ، فعملت على إضعاف ملوكها وتضعضع نفوذهم ، فكانت البداية تتمثل في خروج بني أسد على حجر ، فامتنعوا عن أداء الإتاوة التي كان قد فرضها عليهم من قبل ، ومن ثم فقد خرج عليهم حجر من تهامة — حيث كان يقيم — على رأس جيش كبير ، وما أن وصل إلى ديار بني أسد في جنوب جبلي طيء (أجأ وسلمى ، ويعرفان اليوم بجبل شمر على جانبي وادي الرمة) ، حتى قتل الكثير من أشرافهم ، كما أخذ بعضاً منهم — وعلى رأسهم عمرو بن مسعود الأسدي ، والشاعر عبيد بن الأبرص — أسرى إلى

---

(١) ابن الأثير ١/٥٥٢—٥٥٣ ، أيام العرب في الجاهلية ص ٩٩ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧٤ ، المحبر ص ٣٧٠ ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٢٣ .

(٣) المفضليات ص ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، جواد علي ٣/٣٥٠ ، وكذا G. Olindre, op. cit., P. 76 وكذا T. Noldeke, Funf Mo' Allaqat, I, P. 80.

تهامة ، مما ترك أثراً سيئاً في نفوس القوم ، فعقدوا العزم على الإنتقام ، وما لبثوا أن نفذوا وعيدهم ، وقتلوا الرجل[1] .

وهناك رواية تذهب إلى أن حجراً لما علم أنه ميت ، كتب وصيته ثم دفعها إلى رجل، أمره أن ينطلق إلى أكبر أولاده (نافع) ، فإن بكى وجذع فليذهب إلى غيره ، وهكذا حتى يصل إلى أصغرهم وهو امرؤ القيس ، فإن لم يجزع دفع إليه الوصية ، وتستطرد الرواية إلى أن الرجل إنما وجد امرأ القيس في « دمون » من أرض اليمن ، يلعب النرد ويشرب الخمر مع بعض رفاقه ، فلما دفع إليه الرسالة لم يجزع ، وإنما سأل الرحل عن أمر أبيه كله ، فلما أخبره بما حدث ، إنتوى الثأر قائلاً : « الخمر والنساء علي حرام ، حتى أقتل من بني أسد مائة ، وأطلق مائة »، ثم قال قولته المشهورة : « ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لاصحو اليوم ولا سكر غد ، اليوم خمر ، وغداً أمر »[2] .

وامرؤ القيس هذا ، هو أصغر أولاد « حجر بن الحارث الكندي » من زوجه « فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير التغلبية » وأخت « مهلهل وكليب بن وائل » على رأي[3] و « تملك بنت عمرو بن زبيد بن مذجح » رهط عمرو بن معد يكرب ، على رأي آخر[4] ، وإن ذهب البعض إلى أن ذلك إنما كان لقباً لها ، وقد سمت

---

(١) ابن الأثير ١/٥١٤–٥١٥ ، الأغاني ٢/٦٣ ، ٩/٨١ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢١٧ ، خزانة الأدب ١/١٥٩ وما بعدها ، المحبر ص ٣٧٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧٤ ، أيام العرب في الجاهلية ص ١١٢–١١٤ ، شعراء النصرانية ص ٥٩٨ ، الشعر والشعراء ص ٥٠–٥١ ، محمد صالح سمك : أمير الشعراء في العصر القديم ص ٢٤–٢٥ ، وانظر : ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٨–١٣٩ ، ثم قارن : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٢٧ (دار المعارف ١٩٦٢م) .

(٢) ابن الأثير ١/٥١٥–٥١٦ ، نهاية الأرب ٣/٢٦ ، ياقوت ٣/٧ ، الأغاني ٩/٨٥–٨٦ (دار ... المصرية) ، أيام العرب في الجاهلية ص ١١٥–١١٦ ، البكري ٢/٥٥٧ ، الهمداني : صفة ... العرب ص ٨٥ .

(٣) الأغاني ٨/٦٠ ، ابن الأثير ١/٥١٦ ، الشعر والشعراء ص ٥٧ ، تاريخ اليعقوبي ١/٢١٧ ، ...
EI, II, P. 477.

(٤) الأغاني ٨/٦١ ، وكذا
G. Olinder, op. cit., P. 95.

العرب نساءها « تملك »[1] ويعرف امرؤ القيس بالملك الضليل ، وبذي القروح[2] . ويتجه بعض الباحثين إلى أنه قد ولد في حوالي عام ٥٠٠م ،[3] وتوفي في أنقره أثناء عودته من القسطنطينية ، فيما بين عامي ٥٣٠ ، ٥٤٠م[4] ، وإن ذهب البعض إلى أنه توفي في عام ٥٦٥م[5] .

وقد اختلف الباحثون في معتقد امرىء القيس الديني ، فذهب البعض إلى أنه إنما كان وثنياً ، شأنه في ذلك شأن معظم الجاهليين ، كما كان يقسم بالقداح جرياً على عادة الوثنيين ، فضلاً عن أن اسمه « امرؤ القيس » إنما يعني « مولى قيس » ، وهو صنم جاهلي ، ولكن اللفظة إنما تعني كذلك « الشدة والبأس » ، ومن ثم فالتسمية فروسية وليست دينية[6] ، وذهب فريق آخر إلى أنه إنما كان يعتنق المزدكية ، بدليل إقباله على الملذات بطريقة تشبه أنصار المزدكية ، وأن جده الحارث كان كذلك — كما أشرنا من قبل — غير أن خلق الشاعر العربي واعتزازه بشرفه، فضلاً عن تمتعه بالصيد والقنص ، ونذره قتل مائة من بني أسد ، قد يتعارض مع اعتناقه المزدكية التي تحرم تلك الأشياء ، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأنها قد أثرت فيه ، وبخاصة في جانب الإباحية والتهتك في طلب اللذة[7] .

هذا إلى أن هناك من يرى أن الشاعر الكبير إنما كان نصرانياً ، اعتماداً على خلو شعره من الشرك إلى حد كبير ، وإقراره بالوحدانية ، وذكره لأمور كثيرة

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٩٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٩/٢ ، الأغاني ٦١/٨ ، الشعر والشعراء ص ٥٠ ، خزانة الأدب للبغدادي ٤٣٢/٣ ، العمدة لابن رشيق ٤١/١–٤٢ ، ٩٧ ، وانظر : محمد فريد أبو حديد : الملك الضليل ، القاهرة ١٩٤٤ ، وكذا G. Olinder, op. cit., P. 95.

(٣) G. Olinder, op. cit., P. 95.

(٤) Encyclopaedia of Islam, II, P. 477.

(٥) صحيح الأخبار ١٦/١ .

(٦) إيليا حاوي : امرؤ القيس ص ٢٤–٢٦ ، رئيف خوري : امرؤ القيس ، بيروت ١٩٣٤ ص ٣٧–٣٨ .

(٧) إيليا حاوي : المرجع السابق ص ٢٦–٢٧ ، رئيف خوري : المرجع السابق ص ٣٨ .

خاصة بالنصارى ، وانتشار النصرانية في كندة ، ثم طلبه العون من القيصر النصراني ، وأخيراً نصرانية أمه فاطمة أخت المهلهل ، غير أن الإقرار بالوحدانية لا يعني اعتناق النصرانية ، فقد يكون الرجل يهودياً ، كما أن نصرانية أمه لا تستدعي بالضرورة نصرانيته هو ، وأما إلتجاؤه للقيصر النصراني فلأنه الباب الوحيد المفتوح أمامه ، بعد أن سدت في وجهه كل سبل العون من الأكاسرة ، فضلاً عن أعدائه أمراء الحيرة[1] .

وعلى أي حال ، فإن الروايات العربية تذهب إلى أن حجرا قد طرد ولده امرىء القيس،وأصر على أن لا يقيم معه ، أنفة من قوله الشعر ، على غير عادة أبناء الملوك ، فضلاً عن التغزل بالنساء غزلاً ، ربما كان غير بريء في كثيراً من الأحايين ، بل إن البعض قد ذهب إلى أن الأمر قد وصل بامرىء القيس إلى أن يتغزل بامرأة من نساء أبيه ، وهكذا أخذ امرؤ القيس يسير في أحياء العرب ، ومعه أخلاط من شذاذ العرب ، يشرب الخمر على الغدران ، ويتغزل في النساء ، وظل كذلك حتى ،ناه خبر مقتل أبيه ، فأقسم ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن ، ولا يصيب امرأة ، ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك ثأره[2] .

على أن هناك من يرى أنه ليس في التاريخ الثابت ما يدل على أن أباه قد طرده له ، ولا أنه كان يوم مقتل أبيه يشرب الخمر في دمون ، وإنما كان مع ،سوته وأعمامه في المعركة التي قتل فيها أبوه ، ثم فرّ منها معهم ، حتي عيّره بذلك شاعر بني أسد « عبيد الأبرص[3] .

---

(١) لويس شيخو : شعراء النصرانية ١/٣٨–٣٩ ، محمد صالح سمك : أمير الشعراء في العصر القديم ص ٢١١–٢١٤ ، إيليا حاوي : المرجع السابق ص ٢٧–٣٣ .

(٢) ابن الأثير ١/٥١٥–٥١٦ ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٥١–٥٢ ، الأغاني ٨/٦٥ ، العمدة ١/٤١–٤٢ ، إيليا حاوي : المرجع السابق ص ٣٨–٨٢ ، معجم الشعراء للمرزباني ص ٩ ، وكـ '
'ـ Olinder, op,. cit. P. 96

(٣) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٩٣ ، وكذا
Gunner Olinder, The Kings of Kindah, of the Family of Akil al-Mirar, Lund, P. 96. 1927,

وأياً ما كان الأمر ، فلقد جد امرؤ القيس في أن يأخذ بثأر أبيه — بعد أن فشل أعمامه وإخوته في ذلك — ومن ثم فقد نزل بكر وتغلب ، وسألهم النصر على بني أسد ، وحين أجابه القوم إلى سؤاله ، بث العيون على بني أسد ، فعلم أنهم قد لجأوا إلى بني كنانة ، ومن ثم فقد بدأ هجومه على بني كنانة — وهو يظنهم بني أسد — إلا أن القوم سرعان ما أخبروه أن بني أسد قد ساروا بالأمس ، فأسرع إليهم حتى إذا ما أدركهم أنزل بهم هزيمة قاسية ، أدرك بها ثأره ، ومن ثم فقد أبت بكر وتغلب أن تستمر في القتال بعد ذلك[1] .

كان من المنتظر أن يستنجد امرؤ القيس بملوك اليمن من حمير ، ولكننا نعلم أن ملك اليمن إنما كان وقت ذاك بيد الأحباش ، ولم يكن للحبشة — ولا للروم من ورائهم — مصلحة في مساعدة امرىء القيس على الطلب بثأر أبيه ، لأن المستعمر لا يأبه لأهل خدمته إلا إذا كانوا أقوياء ، لأنه يريدهم ليدافعوا عنه ، لا ليدافع عنهم[2] ، وهكذا اضطر امرؤ القيس إلى أن يطوف بقبائل العرب يستنصرها على قتلة أبيه ، فمنهم من كان يقف إلى جانبه ، ومنهم من كان يرفض مساعدته خشية بني أسد ، وخوفاً من إغضاب المناذرة والفرس[3] ، بخاصة وأن المنذر بن ماء السماء كان يسعى للإيقاع بامرىء القيس ، الأمر الذي لم يكن له به طاقة ، وكذا القبائل التي كان يرجو مساعدتها[4] .

وأخيراً قرر امرؤ القيس أن يذهب إلى القسطنطينية ليستنجد بملك الروم ، وقد دفعته حاجته إلى المال إلى أن يذهب إلى تيماء ، وأن يرهن سلاحه ودروعه عن السموأل ،

---

(١) ابن الأثير ٥١٦/١-٥١٧ ، أيام العرب في الجاهلية ص ١١٦-١٢٠ ، نهاية الأرب ٢٥/٣ ، تاريخ ابن خلدون ٢٧٤/٢-٢٧٥ ، إيليا حاوي : امرؤ القيس ص ١٧-٢١ ، تاريخ اليعقوبي ٢١٧/١-٢١٩ ، الشعر والشعراء ٥٢/١ ، ٥٨ .

(٢) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٩٣ .

(٣) أيام العرب في الجاهلية ص ١٢٠-١٢١ ، رئيف خوري : إمرؤ القيس ص ٢٧ ، محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام ص ١٢٠ ، تاريخ اليعقوبي ٢١٩/١-٢٢٠ .

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢٧٥/٢ ، الأغاني ٩١/٩ (دار الكتب) ، رئيف خوري : امرؤ القيس ص ٢٧

أو أنه إنما تركها هناك وديعة عند الشاعر اليهودي[1] ، الذي كتب له كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ، يطلب إليه فيه أن يتوسط لشاعر كندة عند الإمبراطور الروماني ، ليساعده على الإنتقام من قتلة أبيه ، وخاصة وأن ملوك الحيرة ، وهم عمال الفرس أعداء الروم ، قد مدوا لهم يد العون[2] .

ويصل امرؤ القيس إلى القسطنطينية ، ويستقبله الأمبراطور « جستنيان » (٥٢٧—٥٦٥م) استقبالاً حسناً ، وإن لم يقدم له المساعدة المطلوبة ، فالنجدة التي طلبها امرؤ القيس كبيرة جداً ، والجيش الرومي لم يكن مستعداً للقتال في الصحراء ، ثم إن الغاية التي جاء من أجلها امرؤ القيس — وهي الأخذ بثأر رجل واحد — كانت بعيدة عن سياسة الروم ومألوفهم ، فضلاً عن أن الإمبراطورية الرومانية كانت مهددة بهجمات البرابرة ، ومن ثم فالإمبراطور في حاجة إلى الدفاع عن إمبراطوريته نفسها[3] .

وهناك رواية تذهب إلى أن الإمبراطور جستنيان قد أكرم امرأ القيس ، وأصبحت للشاعر الكندي منزلة رفيعة عنده ، وأنه كان يدخل معه الحمام ، وأن امرأ القيس قد أحب ابنة القيصر وأنه كان يأتيها وتأتيه ، فبلغ ذلك بني أسد ، فأرسلوا رجلاً منهم يدعى «الطماح» ؛ وصل في وقت سيّر فيه القيصر مع امرىء القيس جيشاً كثيفاً ، وهنا أعلم الطماح القيصر بقصة ابنته مع امرىء القيس ، وأن الأخير قد

---

(١) يذهب الباحثون إلى أن السمؤال بن عاديا شاعر يهودي الديانة مقره حصن الأبلق في غرب تيماء (طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٥ ، الأغاني ٩٨/١٩ وكذا EI, 4, P. 133.) ولكنهم اختلفوا في جنسيته ، فجعله بعضهم يهودياً من سلالة هارون بن عمران ، وجعله آخرون عربياً غسانياً (الأمثال للميداني ٢٧٦/٢ ، المشرق ، العدد ٣ عام ١٩٠٩م ص ١٦٢ ، الإشتقاق ٤٣٦/٢ ، المحبر ص ٣٤٩ ، تاريخ الأمم الإسلامية ٤١/١ ، عبد الرحمن الأنصاري : المرجع السابق ص ٨٢ ، عبد اللطيف الطيباوي المرجع السابق ص ١٤ ، P. K. Hitti, op. cit., P. 107.)

(٢) أبو الفداء ٧٥/١ ، الأغاني ٦٨/٨—٧٠ ، تاريخ اليعقوبي ٢٢٠/١ ، المحبر ص ٣٤٩ ، الشعر والشعراء ص ٥٩—٦٠ ، تاريخ ابن خلدون ٢٧٦/٢ ، ياقوت ١٢٤/٤—١٢٥ ، محمد مبروك نافع : المرجع السابق ص ١٢٠ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣٧ ، محمد الخضري : المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٩٤ .

قال فيها أشعاراً أشهرها بها في العرب ، فبعث القيصر إلى امرىء القيس بحلة مسمومة ، ما أن لبسها امرؤ القيس حتى أسرع فيه السم وسقط جلده ، ولذلك سمي « ذو القروح » ثم مات في أنقرة ، حيث دفن بجوار قبر امرأة من بنات الملوك ، في سفح جبل يقال له « عسيب »[1] .

ويعترض الدكتور عمر فروخ على غضبة القيصر بسبب اتصال امرىء القيس بابنته ، ويرى أن تلك رواية إسلامية متأخرة ، وأن الحياة في البلاط الرومي مخالفة لما استنتجه المؤرخ المسلم ، وأن الصلات الجنسية هناك أمراً مألوفاً ، حتى أن القياصرة كانوا يولون ويعزلون في ميادين سباق الخيل ، وفي مخادع النساء[2] ، والرأي عندي أن تفسير الأمور بهذه البساطة وتوجيه التهم للآخرين أمر غير مقبول في البحث العلمي ، ثم إن القيصر ، ما أظن أنه كان على هذا المستوى الخلقي الذي ذهب إليه الدكتور فروخ ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه هو نفسه يرى أن الغساسنة — وهم أقوى بكثير من امرىء القيس وأهم منه بالنسبة للروم — لم يكونوا إلا جباة ضرائب للروم من العرب[3] ، فضلاً عن أن امرأ القيس ، في ظروفه التي قدم من أجلها إلى القسطنطينية ، لا يعدو أن يكون مستجيراً بالقيصر يطلب عونه في الأخذ بثأره ، وفي أحسن الأحوال لاسترجاع ملكه ، ليكون بعد ذلك صنيعة للروم ، وفي كل ذلك ليس هناك ما يدعو القيصر لغض النظر عن فعلته هذه ، إن كانت قد حدثت ، وهذا ما نشك فيه ، لأننا لا نملك دليلاً واحداً على حدوثها ، غير الروايات العربية ، وما أكثر ما في هذه الروايات من جنوح إلى الخيال ، حتى لو كان هذا الخيال يتعارض مع الشرف ، كما في رواياتهم عن عملوق في جديس[4] ، والفيطون في

---

(١) ابن الأثير ١/٥١٨–٥١٩ ، الأغاني ٨/١٤١ ، الشعر والشعراء ص ٥٣ ، ٦١–٦٣ ، أيام العرب في الجاهلية ص ١٢٢–١٢٣ ، ابن خلدون ٢/٢٧٦ ، ياقوت ٤/١٢٤–١٢٥ ، جواد علي ٣/٣٦٠ ، اليعقوبي ١/٢٢٠ ، آمال المرتضى ١/٥٩١ ، ايليا حاوي : المرجع السابق ص ٢١–٢٢ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 85-86.

(٢) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٩٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦٨ .

(٤) ابن الأثير ١/٣٥٢–٣٥٤ ، تاريخ الطبري ١/٦٢٩–٦٣٢ ، مروج الذهب ٢/١١١–١١٩ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٢٤–٢٥ .

يثرب[١] ، وابن عم بلقيس في سبأ[٢] ، ولخنيعة أيام ذي نواس[٣] ، وعتودة مولى أبرهة الحبشي[٤] ، وغير ذلك من الروايات الخليعة ، والتي تعد رواية ابنة القيصر وامرىء القيس ، هينة بسيطة بالنسبة إليها .

أضف إلى ذلك أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن « الطماح الأسدي » قد اتصل بجماعة من رجال القيصر بعد خروج امرىء القيس مع الجيش الذي أعانه به القيصر ليأخذ بثأره ، وطلب منهم أن يبلغوا القيصر : « إن العرب قوم غدر ، ولا نأمن أن يظفر امرؤ القيس بما يريد ، ثم يغزوك بمن بعثت معه[٥] » ، كما أن الحلة المسمومة التي زعم الرواة أنها كانت سبب وفاة امرىء القيس ، ينفيها أن هناك رواية أخرى تزعم أنه كان مصاباً بداء قديم كان مستكناً ، ثم اتفق أن هاج في ديار الروم ، ومن ثم فإنهم ينسبون إلى امرىء القيس أنه قال : « تأوبني دائي القديم فغلسا » ، وأن الدكتور فروخ نفسه ، إنما يفترض أنه مات بالجدري في أنقره زمن الشتاء القارص[٦] .

وأياً ما كان الأمر ، فلقد مات امرؤ القيس ، وانقطع آخر أمل في استعادة « بني آكل المرار » لملكهم في كندة ، وأسرع الحارث بن أبي شمر الغساني على رواية ، والحارث بن ظالم على رواية أخرى ، وبأمر من المنذر ملك الحيرة ، إلى السموأل بن عاديا في حصنه الأبلق في تيماء ، وطالبه بدروع امرىء القيس ، وما ترك عنده من ودائع ، غير أن السؤال أبي التفريط في دروع الشاعر الكندي وودائعه ، ومن ثم

---

(١) ابن الأثير ١/٦٥٦–٦٥٨ ، السمهودي : وفاء الوفا ١/١٢٦–١٢٩ ، ابن خلدون ٢/٢٨٧–٢٨٩ ، ياقوت ٨٤–٨٧ ، الدرر الثمينة ص ٣٢٧ ، الإشتقاق ص ٢٧٠ .

(٢) تاريخ الخميس ص ٢٧٦ ، ابن الأثير ١/٢٣٢–٢٣

(٣) ابن هشام ١/٣١–٣٢ ، ابن الأثير ١/٤٢٥–٤٢٦ ، مروج الذهب ٢/١٨–١٩ ، ص ٣٦٨ .

(٤) تاريخ الطبري ٢/١٢٨–١٢٩ ، ابن الأثير ٨/٤٢٢–٤٢٣ .

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٤٦ ، الأغاني ٨/٧٠ ، مروج الذهب ٢/٣٧١ ، [illegible] القيس ص ٢١ .

(٦) عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ص ٩٤ .

فقد ذبح ابنه أمام عينيه[1] ، على أن هناك من يشك في نسب السموأل أولاً ، وفي صحة قصته مع امرىء القيس ثانياً ، ويرى « هوجوفنكلر » أن قصة الوفاء هذه أسطورة استمدت مادتها من سفر صموئيل الأول ، ومن الأساطير العربية التي تحدثت عن الوفاء[2] .

وهكذا انتهت أول محاولة في داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية واحدة ، لها زعيم واحد ، الأمر الذي لم ينجح إلا على يد مولانا وسيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبصورة منقطعة النظير ، ثم سرعان ما عادت عشائر كندة إلى الجنوب ، حيث ساد منهم « قيس بن معد يكرب » ثم ابنه « الأشعث » الذي وفد إلى المصطفى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — في ستين أو سبعين من أشراف كندة ، فأسلموا على يديه الشريفتين في المدينة المنورة[3] ، وعلى أي حال ، فلقد تكونت بعد نهاية دولة بني آكل المرار ، إمارة كندية في حضرموت ، فضلاً عن إمارات أخرى حكمها أمراء صغار ، لا تتجاوز سلطة الواحد منهم مدينة أو وادياً ، وأشهرها تلك التي كانت في دومة الجندل والبحرين ونجران وغمر ذى كندة[4]

---

(١) ابن الأثير ٥١٩/١ ، تاريخ ابن خلدون ٢٧٥/٢ ، الأغاني ٩٩/١٩ ، نهاية الأرب ١٣٦/١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤٤٢/٣ ، نولدكه : أمراء غسان ص ٢٢ ، محمد بن سلام الجمحي : المرجع السابق ص ٢٣٥ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣٧ ، جواد علي ٢٧٧/٣-٢٧٨ ، المحبر ص ٣٤٩ ، ديوان الأعشى ص ١٢٦ .

(٢) الأغاني ٩٨/١٩ ، الإشتقاق ص ٢٥٩ ، جواد علي ٢٧٨/٣ ، وكذا
H. Winckler, Arabisch-Semitisch Orientalisch, in MVAG, 1901, P. 112.

(٣) يذهب ابن خلدون إلى أن الأشعث قد ارتد في عهد أبي بكر ، غير أنه قد هزم بعد ذلك ، ثم جيء به إلى المدينة أسيراً ، فمن الخليفة عليه وزوجه أخته وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون في الدولة الأموية (تاريخ ابن خلدون ٢٧٦/٢) .

(٤) جواد علي ٢٧٨/٣ ، ٢٨٢ ، المحبر ص ٣٧٠ ، جرجي زيدان : المرجع السابق ص ٢٢٨ ، سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢٣٧ ، وكذا P. K. Hitti, op. cit., P. 86.

المراجع المختارة

أولا : المراجع العربية

١ — القرآن الكريم .

٢ — صحيح البخاري .

٣ — صحيح مسلم .

٤ — التوراة .

٥ — ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الشيباني) : الكامل في التاريخ . (الجزء الأول والثاني) — بيروت ١٩٦٥ .

٦ — ابن العبر[illegible] (أبو [illegible]ج جريجورس بن هارون الملطى) : تاريخ مختصر الدول — بيروت ١٩٥٨ .

٧ — ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد) : كتاب الأصنام — الدار القومية — القاهرة ١٩٦٥ .

٨ — ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق) : كتاب الفهرست — القاهرة ١٣٤٨هـ .

٩ — ابن بلهيد (محمد بن عبدالله) : صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار (خمسة أجزاء) — القاهرة ١٩٥١—١٩٥٣ .

١٠ — ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم) : مقدمة في أصول التفسير — دمشق ١٩٣٦ .

١١ — ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم) : مجموع فتاوي ابن تيمية (الأجزاء من ١ إلى ٣٥) — الرياض ١٣٨١—١٣٨٣هـ .

١٢ — ابن حبيب (أبو جعفر محمد بن أمية بن عمروا لهاشمي) : كتاب المحبر — حيدرأباد الدكن ١٩٤٢ .

١٣ — ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) : فتح الباري بشرح صحيح البخاري القاهرة ١٣٨٠هـ .

١٤ — ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) : الإصابة في تمييز الصحابة — القاهرة ١٩٣٩ .

١٥ — ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب — القاهرة ١٩٦٢ .

١٦ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : مقدمة ابن خلدون — القاهرة ١٩٥٧ .

١٧ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ ابن خلدون — بيروت ١٩٧١ .

١٨ — ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن) : الإشتقاق (جزءان) — القاهرة ١٩٥٨ .

١٩ — ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة — ليدن ١٨٩٢ .

٢٠ — ابن سعد (أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري) : الطبقات الكبرى — الجزء الأول — القاهرة ١٩٦٨ .

٢١ — ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي) : العقد الفريد — القاهرة ١٩٥٣ .

٢٢ — ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري) : المعارف — القاهرة ١٩٣٤ .

٢٣ ــ ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم) : عيون الأخبار (٤ أجزاء) ــ القاهرة ١٩٦٣ .

٢٤ ــ ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم) : الشعر والشعراء (جزءان) ــ بيروت ١٩٦٤ .

٢٥ ــ ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) : البداية والنهاية في التاريخ (الأجزاء ١ــ٤) ــ بيروت ١٩٦٦ .

٢٦ ــ ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) : قصص الأنبياء (جزءان) ــ القاهرة ١٩٦٨ .

٢٧ ــ ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) : تفسير القرآن العظيم (ثمانية أجزاء) ــ القاهرة ١٩٧١ــ١٩٧٤ .

٢٨ ــ ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم) : لسان العرب ــ بيروت ١٩٥٥ .

٢٩ ــ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميرى) : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ــ القاهرة ١٩٥٥ .

٣٠ ــ أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر في أخبار البشر ــ الجزء الأول ــ القاهرة ١٣٢٥هـ .

٣١ ــ إيليا حاوي : امرؤ القيس ــ بيروت ١٩٧٠ .

٣٢ ــ الدكتور أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول القاهرة ١٩٦٥ .

٣٣ ــ أحمد السباعي : تاريخ مكة ــ الجزء الأول ــ مكة المكرمة ١٣٨٧هـ .

٣٤ ــ أحمد أمين : فجر الإسلام ــ بيروت ١٩٦٩ .

٣٥ ــ أحمد بن عبد الحميد العباسي : عمدة الأخبار في مدينة المختار ــ القاهرة .

٣٦ ــ أحمد حسين شرف الدين : اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ــ القاهرة ١٩٧٥ .

٣٧ – الدكتور أحمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها – القاهرة ١٩٥٧ .

٣٨ – الدكتور أحمد فخري : معبد المساجد ببلاد مراد (المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية المنعقد في فاس في نوفمبر ١٩٥٩) – القاهرة ١٩٦١ .

٣٩ – الدكتور أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم – القاهرة ١٩٦٣ .

٤٠ – الدكتور أحمد فخري : مصر الفرعونية – القاهرة ١٩٧١ .

٤١ – الدكتور إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب – القاهرة ١٩٢٧ .

٤٢ – الدكتور إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية – القاهرة ١٩٢٩ .

٤٣ – الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الهيثم) : الأغاني – القاهرة ١٩٢٩

٤٤ – الأصفهاني (الحسن بن عبدالله) : بلاد العرب : تحقيق حمد الجاسر ، وصالح العلي – الرياض ١٩٦٨ .

٤٥ – الأصفهاني (حمزة بن الحسن) : تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء – برلين ١٣٤٠هـ .

٤٦ – الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبدالله) : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (جزءان) – بيروت ١٩٦٩ .

٤٧ – الآلوسي (السيد محمود شكري) : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (٣ أجزاء) – القاهرة ١٩٢٤–١٩٢٥ .

٤٨ – الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود) : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . – القاهرة .

٤٩ – البكري (أبو عبيد ، عبدالله بن عبد العزيز) : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع (٤ أجزاء) – القاهرة ١٩٤٥–١٩٥١ .

٥٠ – البلاذري (أحمد بن يحيى) : فتوح البلدان ، (٣ أجزاء) – القاهرة ١٩٥٧ .

٥١ ـ البلاذري (أحمد بن يحيى) : أنساب الأشراف ـ القاهرة١٩٥٩ .

٥٢ ـ البيضاوي (ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (جزءان) ـ القاهرة ١٩٦٨ .

٥٣ ـ البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين) : دلائل النبوة ـ الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٧٠ .

٥٤ ـ الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) : البيان والتبيين ـ القاهرة ١٩٤٨ .

٥٥ ـ الجمحي (محمد بن سلام) : طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ القاهرة ١٩٥٢ .

٥٦ ـ الحربي (أبو إسحاق إبراهيم) : كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ـ الرياض ١٩٦٩ .

٥٧ ـ الديار بكري (حسين بن محمد الحسن) : تاريخ الخميس في أنفس نفيس ـ القاهرة ١٣٠٢هـ .

٥٨ ـ الدينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود) : الأخبار الطوال ـ تحقيق عبد المنعم عامر ، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٥٩ ـ الزبيدي (أبو الفيض مرتضى بن محمد) : تاج العروس ـ الكويت .

٦٠ ـ الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش ـ تحقيق محمود محمد شاكر ـ القاهرة ١٣٨١هـ .

٦١ ـ الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله) : البرهان في علوم القرآن ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٦٢ ـ الزمخشري (أبو القاسم جادالله محمود بن عمر) : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٦٣ ـ السجستاني (الحافظ أبو بكر عبدالله بن أبي داود) : كتاب المصاحف ـ صححه ونشره وكتب مقدمته الدكتور آرثر جفري ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٦٤ — السمهودي (نور الدين علي) : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (جزءان) — القاهرة ١٣٢٦ هـ .

٦٥ — السمهودي (نور الدين علي) : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى — المدينة المنورة ١٩٧٢ .

٦٦ — السهيلي (عبد الرحمن بن عبدالله) : الروض الأنف — القاهرة ١٩٧١ .

٦٧ — الدكتور السيد عبدالعزيز سالم : دراسات في تاريخ العرب — الجزء الأول — عصر ما قبل الإسلام — الإسكندرية ١٩٦٧ .

٦٨ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : المزهر في علوم اللغة — القاهرة ١٩٤٢ .

٦٩ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : الإتقان في علوم القرآن (جزءان) — القاهرة ١٢٧٨هـ .

٧٠ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : الدرر المنثور في التفسير بالمأثور — طهران ١٣٧٧ هـ .

٧١ — الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن) : مجمع البيان في تفسير القرآن — بيروت ١٩٦١ .

٧٢ — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك (الأجزاء ١—٤) — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٧—١٩٦٩ .

٧٣ — الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : جامع البيان عن تأويل آي القرآن — دار المعارف — القاهرة ١٩٥٧—١٩٦٩ .

٧٤ — العمري (شهاب الدين بن فضل الله) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار — الجزء الأول — نشره وحققه أحمد زكي باشا . القاهرة ١٩٢٤ .

٧٥ — الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — (جزءان) — القاهرة ١٩٥٦ .

٧٦ — الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين — الجزء الأول — القاهرة ١٩٥٩ .

٧٧ — الفخر الرازي : (أبو عبدالله محمد بن عمر بن حسين القرشي) التفسير الكبير — القاهرة .

٧٨ — الفيروز أبادي : (محمد بن يعقوب) القاموس المحيط — القاهرة ١٩٥٥ .

٧٩ — القرطبي : (أبو عبدالله محمد بن أحمد) : الجامع لأحكام القرآن — دار الشعب — القاهرة ١٩٦٩—١٩٧٠ .

٨٠ — القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) : صبح الأعشي في صناعة الإنشا (١٤ جزاءاً) — القاهرة ١٩١٣—١٩١٤ .

٨١ — القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب — القاهرة ١٩٥٩ .

٨٢ — المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : التنبيه والإشراف — القاهرة ١٩٦٨ .

٨٣ — المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : أخبار الزمان — بيروت ١٩٦٦ .

٨٤ — المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الأول والثاني) — بيروت ١٩٧٣ .

٨٥ — المفضل بن محمد الضبي : المفضليات — دار المعارف — القاهرة ١٩٥٢ .

٨٦ — المقدسي (المطهر بن طاهر) : كتاب البدء والتأريخ — الجزء الثالث والرابع — باريس ١٩٠٣—١٩٠٧ .

٨٧ — الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد) : مجمع الأمثال (جزءان) — القاهرة ١٩٥٥ .

٨٨ — النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب في فنون الأدب (١٤ جزءاً) — القاهرة ١٩٤٣ .

٨٩ ــ الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الإكليل ــ الجزء الأول ــ تحقيق محمد بن علي الأكوع ــ القاهرة ١٩٦٣ .

٩٠ ــ الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الإكليل ــ الجزء الثاني ــ تحقيق محمد بن علي الأكوع ــ القاهرة ١٩٦٦ .

٩١ ــ الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الإكليل ــ الجزء الثامن ــ نشره نبيه فارس ــ بغداد ١٩٣١ .

٩٢ ــ الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : الإكليل ــ الجزء العاشر ــ نشره محب الدين الخطيب ــ القاهرة ١٣٦٨هـ .

٩٣ ــ الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) : صفة جزيرة العرب ــ تحقيق محمد بن علي الأكوع ــ الرياض ١٩٧٤ .

٩٤ ــ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر): تاريخ اليعقوبي ــ الجزء الأول والثاني ــ بيروت ١٩٦٠ .

٩٥ ــ أمين مدني : العرب في أحقاب التاريخ ــ الجزء الأول ــ التاريخ العربي وبدايته ــ القاهرة ١٩٦٧ .

٩٦ ــ أمين مدني : العرب في أحقاب التاريخ ــ الجزء الثاني ــ التاريخ العربي ومصادره ــ القاهرة ١٩٧١ .

٩٧ ــ جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ــ بيروت ١٩٦٨ .

٩٨ ــ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ــ القاهرة ١٩٢٢ .

٩٩ ــ الدكتور جمال حمدان : أنماط من البيئات ــ القاهرة .

١٠٠ ــ الدكتور جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (عشرة أجزاء) بيروت ١٩٦٨ــ١٩٧١ .

١٠١ ــ حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ــ إستنبول ١٣٢١هـ .

١٠٢ ــ حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ــ القاهرة ١٩٤٦ .

١٠٣ ــ حافظ وهبة : خمسون عاماً في جزيرة العرب ــ القاهرة ١٩٥٠ .

١٠٤ ــ الدكتور حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ــ الجزء الأول ــ القاهرة ١٩٦٦ .

١٠٥ ــ الدكتور حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ــ الإسكندرية ١٩٧١ .

١٠٦ ــ حسين عبدالله باسلامه : تاريخ الكعبة المعظمة ــ القاهرة ١٩٦٤ .

١٠٧ ــ الدكتور خليل يحيى نامي : نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ــ القاهرة ١٩٤٣ .

١٠٨ ــ الدكتور خليل يحيى نامي : أصل الخط العربي وتطوره إلى ما قبل الإسلام مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ العدد الأول ــ القاهرة ١٩٣٥ .

١٠٩ ــ الدكتور خليل يحيى نامي : نقوش عربية ــ المجموعة الأولى ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ المجلد الأول ــ القاهرة ١٩٤٧ .

١١٠ ــ الدكتور خليل يحيى نامي : نقوش عربية ــ المجموعة الثانية ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ــ العدد السادس عشر ــ القاهرة ١٩٥٤ .

١١١ ــ الدكتور خليل يحيى نامي : نقوش خربة معين ــ القاهرة ١٩٥٢ .

١١٢ ــ الدكتور رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا ــ الكتاب الأول والثالث ــ بيروت ١٩٦٨ــ١٩٦٩ .

١١٣ ــ رئيف خوري : امرؤ القيس ــ بيروت ١٩٣٤ .

١١٤ ــ الدكتور سامي الأحمد : نظرة في جغرافية شبه جزيرة العرب ــ مجلة العرب ــ العدد السابع ــ الرياض ١٩٦٩ .

١١٥ ــ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الإسلام ــ بيروت ١٩٧٥ .

١١٦ ــ سيد قطب : في ظلال القرآن ــ بيروت ١٩٦٧ــ١٩٧٠ .

١١٧ ــ الدكتور صالح أحمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب ــ الجزء الأول ــ بغداد ١٩٥٩ .
١١٨ ــ الدكتور صبري جرجس : التراث اليهودي الصهيوني ــ القاهرة ١٩٧٠ .
١١٩ ــ صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ــ الجزء الأول ــ القاهرة ١٣٥٤هـ .
١٢٠ ــ الدكتور صلاح الدين الشامي : الموانى السودانية ــ القاهرة ١٩٦١ .
١٢١ ــ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ــ الجزء الأول ــ بغداد ١٩٥٥ .
١٢٢ ــ الدكتور طه حسين : في الشعر الجاهلي : القاهرة ١٩٢٦ .
١٢٣ ــ الدكتور طه حسين : في الأدب الجاهلي : القاهرة ١٩٣٣ .
١٢٤ ــ عباس العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ــ دار الهلال ــ القاهرة .
١٢٥ ــ عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ــ القاهرة ١٩٦٠ .
١٢٦ ــ عباس العقاد : مطلع النور ــ أو طوالع البعثة المحمدية ــ دار الهلال ــ القاهرة ١٩٦٨ .
١٢٧ ــ عباس العقاد : الإسلام دعوة عالمية ــ القاهرة ١٩٧٠ .
١٢٨ ــ عبد الحميد العبادي : صور من التاريخ الإسلامي ــ الإسكندرية ١٩٤٨ .
١٢٩ ــ الدكتور عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ــ القاهرة ١٩٦٦ .
١٣٠ ــ الدكتور عبد الستار الحلوجي : مدخل لدراسة المراجع ــ القاهرة ١٩٧٤ .
١٣١ ــ عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان حسان بن ثابت ــ القاهرة ١٩٢٩ .
١٣٢ ــ الدكتور عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية ــ كلية الآداب ــ جامعة الرياض ــ الرياض ١٩٦٩ .

١٣٣ — الدكتور عبد الرحمن الأنصاري : كتابات من قرية الفاو — مجلة كلية الآداب — جامعة الرياض — العدد الثالث — الرياض ١٩٧٤ .

١٣٤ — الدكتور عبد الرحمن الأنصاري : لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غربي الجزيرة العربية — مجلة الدارة ، العدد الأول — الرياض ١٩٧٥ .

١٣٥ — عبد الرحيم فوده : من معاني القرآن — القاهرة .

١٣٦ — الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم — الجزء الأول — مصر والعراق — القاهرة ١٩٧٣ .

١٣٧ — الدكتور عبد الفتاح شحاتة : تاريخ الأمة العربية قبل ظهور الإسلام — الجزء الثاني — القاهرة ١٩٦٠ .

١٣٨ — عبد القدوس الأنصاري : بين التاريخ والآثار — بيروت ١٩٦٩ .

١٣٩ — عبد القدوس الأنصاري : آثار المدينة المنورة — المدينة المنورة ١٩٧٣ .

١٤٠ — الدكتور عبد اللطيف الطيباوي : محاضرات في تاريخ العرب والإسلام — الجزء الثاني — بيروت ١٩٦٦ .

١٤١ — عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب — دار الفكر العربي — القاهرة ١٩٤٧ .

١٤٢ — الدكتور عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية — الجزء الأول — القاهرة ١٩٦٧ .

١٤٣ — عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء — القاهرة ١٩٦٦ .

١٤٤ — الدكتور علي حسني الخربوطلي : الكعبة على مر العصور — مجموعة إقرأ — القاهرة ١٩٦٧ .

١٤٥ — الدكتور عبدالله حسن مصري : آثار شرق الجزيرة العربية ودورها في نشأة حضارة سومر — مجلة الدارة — العدد الأول — السنة الثانية — الرياض ١٩٧٦ .

١٤٦ — الدكتور عمر فروخ : تاريخ الجاهلية — بيروت ١٩٦٤ .
١٤٧ — فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب — الرياض ١٩٦٨ .
١٤٨ — الأب لويس شيخو : شعراء النصرانية — الجزء الأول — بيروت ١٨٩٠ .
١٤٩ — الأب لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية — بيروت ١٩٣٣.
١٥٠ — الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم — الإسكندرية ١٩٦٨
١٥١ — محمد أبو زهرة : القرآن — دار الفكر العربي — القاهرة ١٩٧٠ .
١٥٢ — محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية — القاهرة ١٩٤٢ .
١٥٣ — الدكتور محمد السيد الذهبي : التفسير والمفسرون — القاهرة ١٩٦١ .
١٥٤ — الدكتور محمد السيد الذهبي : الإسرائيليات في التفسير والحديث — القاهرة ١٩٧١ .
١٥٥ — الإمام محمد بن عبد الوهاب : مختصر زاد المعاد — بيروت ١٣٩١هـ .
١٥٦ — محمد الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية — الجزء الأول — القاهرة ١٣٧٦هـ .
١٥٧ — محمد بن محمود النجار : الدرر الثمينة في تاريخ المدينة — القاهرة ١٩٥٦.
١٥٨ — الدكتور محمد بيومي مهران : التوراة (١) — مجلة الأسطول ، العدد ٦٣ — الإسكندرية ١٩٧٠ .
١٥٩ — الدكتور محمد بيومي مهران : التوراة (٢) — مجلة الأسطول ، العدد ٦٤ — الإسكندرية ١٩٧٠ .
١٦٠ — الدكتور محمد بيومي مهران : التوراة (٣) — مجلة الأسطول ، العدد ٦٥ — الإسكندرية ١٩٧١ .

١٦١ — الدكتور محمد بيومي مهران : التلمود — مجلة الأسطول ، العدد ٧٠ — الإسكندرية ١٩٧٢ .

١٦٢ — الدكتور محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم — الجزء الثاني — إسرائيل — القاهرة ١٩٧٣ .

١٦٣ — الدكتور محمد بيومي مهران : الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي — مجلة كلية اللغة العربية — العدد الرابع — الرياض ١٩٧٤ .

١٦٤ — الدكتور محمد بيومي مهران : قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة — مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الإجتماعية — العدد الخامس — الرياض ١٩٧٥ .

١٦٥ — الدكتور محمد بيومي مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة — مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الإجتماعية — العدد السادس — الرياض ١٩٧٦ .

١٦٦ — الدكتور محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم — الجزء الثالث — حركات التحرير في مصر القديمة — دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦ .

١٦٧ — الدكتور محمد بيومي مهران : دراسات في التاريخ القرآني — الجزء الأول — في بلاد العرب — (تحت الطبع — جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) .

١٦٨ — محمد توفيق : آثار معين في جوف اليمن : منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية — القاهرة ١٩٥١ .

١٦٩ — محمد توفيق : نقوش خربة معين : منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية — القاهرة ١٩٥٢ .

١٧٠ — الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد صلى الله عليه وسلم — القاهرة ١٩٧٠ .

١٧١ — محمد رشيد رضا : تفسير المنار — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة ١٩٧٣—١٩٧٥ .

١٧٢ — الدكتور محمد عبد القادر : الساميون في العصور القديمة — القاهرة ١٩٦٨.

١٧٣ — الدكتور محمد عبدالله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم — الكويت ١٩٧٤ .

١٧٤ — محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية — القاهرة ١٣٢٩هـ .

١٧٥ — محمد مبروك نافع : تاريخ العرب — عصر ما قبل الإسلام — القاهرة ١٩٥٢

١٧٦ — محمود أبورية : أضواء على السنة المحمدية — القاهرة ١٩٦٠ .

١٧٧ — محمود شاكر : شبه جزيرة العرب — الجزء الأول — عسير — بيروت ١٩٧٦ .

١٧٨ — الدكتور محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه الجزيرة الغربية — الجزء الأول — القاهرة ١٩٦٥ .

١٧٩ — الدكتور محمود طه أبو العلا : جغرافية شبه الجزيرة العربية — الجزء الثالث والرابع — القاهرة ١٩٧٢ .

١٨٠ — مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي — القاهرة ١٩٦١ .

١٨١ — الدكتور مصطفى محميد حسنين : نظام المسئولية عند العشائر العراقية العربية المعاصرة — القاهرة ١٩٦٧ .

١٨٢ — الدكتور مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦٠ .

١٨٣ — مطهر علي الإرياني : في تاريخ اليمن — القاهرة ١٩٧٣ .

١٨٤ — الدكتور ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية — القاهرة ١٩٦٦

١٨٥ — الدكتور نجيب ميخائيل — مصر والشرق الأدنى القديم — الجزء الخامس — — دار المعارف — الإسكندرية ١٩٦٣ .

١٨٦ — نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العرب السعيدة (جزءان) — القاهرة ١٩٣٨ .

١٨٧ — نشوان بن سعيد الحميري : ملوك حمير وأقيال اليمن — القاهرة ١٣٧٨هـ .

١٨٨ — وهب بن منبه : كتاب التيجان في ملوك حمير — حيدرأباد الدكن ١٣٤٧هـ .

١٨٩ — ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) : معجم البلدان (خمسة أجزاء) — بيروت ١٩٥٥—١٩٥٧ .

١٩٠ — يوسف أحمد : الإسلام في الحبشة — القاهرة ١٩٣٥ .

١٩١ — يوسف رزق الله غنيمة : الحيرة : المدينة والمملكة العربية — بغداد ١٩٣٦ .

١٩٢ — قاموس الكتاب المقدس — الجزء الأول والثاني — بيروت ١٩٦٤—١٩٦٧ .

١٩٣ — مقدمتان في علوم القرآن — صححه ونشره آرثر جفرى — القاهرة ١٩٥٤ .

ثانيا : المراجع المترجمة إلى اللغة العربية

١٩٤ — إدوارد جيبون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة محمد علي أبو ريدة — القاهرة ١٩٦٩ .

١٩٥ — آرثر كريستنس : إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب — القاهرة ١٩٥٧ .

١٩٦ — أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ترجمة الدكتور عبد القادر يوسف — الكويت .

١٩٧ — الويس موسل : شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني — الإسكندرية ١٩٥٢ .

١٩٨ — اليزابيث مونرو : الجزيرة العربية بين البخور والبترول ، ترجمة محمود محمود — مجلة الدارة — العدد الأول — السنة الثانية — الرياض ١٩٧٦ .

١٩٩ — أ. ي. فنسنك : مفتاح كنوز السنة ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي — القاهرة ١٩٣٤

٢٠٠ — برنارد لويس : العرب في التاريخ ، ترجمة نبيه فارس ومحمود يوسف — بيروت ١٩٥٤ .

٢٠١ — تيودور نولدكه : أمراء غسان من آل جفنة ، ترجمة قسطنطين زريق وبندلي خوري — بيروت ١٩٣٣ .

٢٠٢ — جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدري قلعجي — بيروت ١٩٦٣ .

٢٠٣ — جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي — ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر — القاهرة ١٩٥٨ .

٢٠٤ — جون إلدر : الأحجار تتكلم ، ترجمة الدكتور عزت زكي — القاهرة ١٩٦٠ .

٢٠٥ ـ ديتلف نلسن وآخرون : التاريخ العربي القديم ، ترجمه وزاد عليه الدكتور فؤاد حسنين ـ القاهرة ١٩٥٨ .

٢٠٦ ـ ريجيس بلاشير : تاريخ الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ ترجمة الدكتور إبراهيم كيلاني ـ بيروت ١٩٥٦ .

٢٠٧ ـ رينيه ديسو : العرب في سورية قبل الإسلام ـ ترجمة عبد الحميد الدواخلي ـ القاهرة ١٩٥٩ .

٢٠٨ ـ سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ، ترجمه وزاد عليه الدكتور السيد يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٦٨

٢٠٩ ـ فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول ـ ترجمة جورج حداد ، وعبد الكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨ .

٢١٠ ـ فيليب حتى : تاريخ العرب ـ الجزء الأول(مطول) ـ ترجمة إدوارد جرجي ، جبرائيل جبور ـ بيروت ١٩٦٥ .

٢١١ ـ لويس أميل سديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ـ القاهرة ١٩٤٨

٢١٢ ـ لانكستر هاردنج : آثار الأردن ، ترجمة سليمان موسى ـ عمان ١٩٦٥ .

٢١٣ ـ ول ديورانت : قصة الحضارة ـ الجزء الثاني ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٦١ .

٢١٤ ـ وندل فيليبس : كنوز مدينة بلقيس ، قصة اكتشاف مدينة سبأ الأثرية في اليمن ، ترجمة عمر الديرادي ـ بيروت ١٩٦١ .

٢١٥ ـ يوسبيوس القيصري : تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داود ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٢١٦ ـ يوسفيوس : تاريخ يوسفيوس ـ دار صادر ـ بيروت .

٢١٧ ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ دار الشعب ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ

ثالثا : المراجع الأجنبية

218 — Abbot (Nabia), The Rise of the North Arabic Scripts., Chicago, 1939.

219 — Abbot (Nabia), Pre-Islamic Arab Queens, AJSL, 58, 1941.

220 — Albright, (W.F.), The Chronology of Ancient South Arabia in the Light of the First Campaign of Excavation in Qataban, in BASOR, 119, 1950.

221 — Albright, (W.F.), The Chaldaean Inscriptions in Proto-Arabic Script, in BASOR, 128, 1952,

222 — Albright, (W.F.), New Light on Early Recensions of the Hebrew Bible, in BASOR, 140, 1955.

223 — Albright, (W.F.), A Note on Early Sabaean Chronology, in BASOR, 143, 1956.

224 — Albright, (W.F.), From the Stone Age to the Christianity, N.Y., 1957.

225 — Albright (W.F.), The Bible and the Ancient Near East, London, 1961.

226 — Altheim, (F.) and Stiehl (R.), Die Araber in der Alten Welt, Berlin, 1964-8.

227 — Amer, (M.), The Ancient Trans-Peninsular Routes of Arabia, Cairo, 1926.

228 — Anati, (E.), Ancient Rock-Drawings in the Central Negev, PEQ, April, 1955.

229 — Barton, (G.A.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1924.

230 — Barton, (G.A.), Semitic and Hamitic Origins, London, 1934.

231 — Beeston, (A.F.L.), Notes on the Muraighan Inscriptions, in BSOAS, 16, 1954.

232 — Beeston, (A.F.L.), Sculptures and Inscriptions from Shabwa, in JRAS, 1954.

233 — Beeston, (A.F.L.), Problems of Sabaean Chronology, in BASOR, 16, 1954.

234 — Beeston, (A.F.L.), Epigraphic South Arabian Calendares and Dating, London, 1956.

265 — Beeston (A.F.L.), Epigraphic Archaeological Cleanings from South Arabia, Oriens Antiquis, I, 1962.

236 — Beeston (A.F.L.), A Descriptive Grammar of Epigrapchic South Arabian, London, 1962.

237 — Beek (G.W. Van), Recovering the Ancient Civilization Arabia, 1952.

238 — Belgrave (J.H.D.), Welcome to Bahrain, London, 1965.

239 — Bell (R.), The Origin of Islam in its Christian Environment, London, 1926.

240 — Bent (T.) and Mrs Bent, Southern Arabia, Sudan and Socotra, London, 1900.

241 — Blachere (R.), Introduction au Coran, Paris, 19[illegible].

242 — Blunt (Lady Anne), A Pilgrimage to Najd, 2 vols., London, 1883.

243 — Branden (A. Van den), Les Inscriptions Thamoudeens, Louvain, 1950.

244 — Branden (A. Van den), Une Inscriptions Thamoudeens, Le Museon, LXIII, 1950.

245 — Branden (A. Van den), Essai de Solution de Probleme Thamoudeens, BIOR, 15, 1958.

246 — Bowen (R.L.) and Albright (F.), Archaeological Discoveries in South Arabia, Baltimore, 1958.

247 — Burckhardt, (J.L.), Travels in Syria and the Holy Land, London, 1822.

248 — Burckhardt (J.L.), Travels in Arabia, London, 1829.

249 — Burton (R.F.), Personal Narrative of A Pilgrimage to El-Medina and Meccah, London, 1857.

250 — Burton (R.F.), Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, London, 1929.

251 — Bury (J.B.), A History of the Eastern Roman Empire, The Fall of Irene to the Accession of Basil, I (802-867), London, 1912.

252 — Bury (J.B.), A History of the Later Roman Empire, From Areadius to Irene (395-800), 2 Vols., London, 1931.

253 — Buxton, (L.H.D.), The People of Asia, London, 1925.

264 — Cantineau (J.), Le Nabatéen, 2 Vols., Paris, 1930, 1932.

255 — Cantineau (J.), Inventaire des Inscriptions de Palmyra, Paris, 1936.

256 — Cuassin de Perceval, Essai sur L'Histoire des Arabes avant L'Islamisme, 3 Vols. Paris, 1847-8.

257 — Cook (S.A.), in The Cambridge Ancient History, III, Cambridge 1965.

258 — Cooke (G.A.), A Text-Book of North-Semitic Inscriptions, Moabite, Hebrew, Phoenician, Aramaic, Nabataean, Palmyrene, Jewish, Oxford, 1903.

259 — Cooke (G.A.), Palmyra, in EB, 17, 1964.

260 — Caskel (W.), Lihyan und Lihyanisch, Kôln, 1954.

261 — Cheesman (R.E.), in Unknown Arabia, London, 1925.

262 — Conti Rossini (C.), Expeditions et Possessions des Habasat en Arabie, in JA, 1921.

263 — Cornwall (P.B.), Ancient Arabia, Explorations in Hasa, 1940-1941.

264 — Cornwall (P.B.), on the Location of Dilmun, in BOAS, 103, 1946.

265 — Cornwall (P.B.), Ancient Arabia, in GJ, CVII, 1946.

266 — Cruttenden (C.J.), Journey of an Excursion to San'a, The Capital of Yemen, JRGSL, L, III, Bombay, 1838.

267 — De Gaury, (G.), Rulers of Mecca, London, 1951.

268 — De Gaury (G.), Arabia Phoenix, London, 1940.

269 — Dhrome (E.), Palmyra dans les Textes Assyriens, RB, 1924.

270 — Dougherty (R.P.), The Sealand of Ancient Arabia, New Haven, 1932.

271 — Dougherty (R.P.), Nabonidus and Belshazzar, New Haven, 1929.

272 — Doughty (C.M.), Travels in Arabia Deserta, 2 Vols., N.Y., 1946.

273 — Dozy (R.), Die Israeliten Zu Mekka, 1864.

274 — Driver (G.R.), Semitic Writing, London, 1954.

275 — Driver (S.R.), An Introduction to the Literature of the Old Testament, Edinburgh, 1950.

276 — Dussaud (R.), Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907.

277 — Dussaud (R.), la Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1955.

278 — Daniel (G.), The First Civilisations, The Archaeology of their Origins, London, 1968.

279 — Epstein (I.), Judaism, (Penguin Books), 1970.

280 — Fakhry (A.), An Archaeological Journey to Yemen, 3 Vols. Cairo, 1952.

281 — Field (H.), Ancient and Modern Man in Southwestern Asia, Coral Gables, 1956.

282 — Field (H.), Racial Types from South Arabia, 1936.

283 — Fleisch (H.), Introduction à l'étude des langues semitiques, Paris, 1947.

284 — Finegan (J.), Light from the Ancient Past, The Archaeological Background from Judaism and Christianity, I, Princeton, 1969.

285 — Forster (C.), The Historical Geography of Arabia, 2 Vols. London.

286 — Friedlander, The Jews of Arabia and the Rechabites, in JQR, 1910-1911.

287 — Gadd (C.J.), The Harran Inscriptions of Nabonidus, Anatolian Studies 8, 1958.

288 — Ganneau (C.), Les Nabatiens en Egypte, 1924.

289 — Gardiner (A.H.), Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964.

290 — Garnett (E.), Passage from Arabia Deserta, London, 1949.

291 — Glob (P.V.), Archaeological Investigation in Four Arab States, 1959.

292 — Gibbon (E.), The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1950.

293 — Glueck (N.), The Other Side of the Jordan, New Haven, 1945,

294 — Glueck (N.), The Story of Nabataeans, N.Y., 1965.

295 — Glueck (N.) Explorations in Eastern Palestine, III, New Haven, 1939.

296 — Glueck (N.) The Excavations of Solomon's Seaport, Ezion-Geber, SIAR, 1941,

297 — Goitein (S.D.) Jews and Arabes, N.Y., 1955.

298 — Goldziher (I.), History of Classical Arabic Literature, 1966.

299 — Grant (C.P.), The Syrian Desert, London, 1947.

600 — Gray (J.), Near Eastern Mythology, N.Y., 1969.

301 — Grohman (A.), Arabien, Munchen, 1963.

302 — Guillaume (A.), Islam, (Penguin Books), 1964.

603 — Guillaume (A.), Prophecy and Divination among the Hebrews and Other Semites, London, 1938.

304 — Hastings (J.), Dictionary of the Bible, Edinburgh, 1936.

305 — Hastings (J.), Encyclopaedia of Religion and Ethics, Edinburgh, 1908-1921.

306 — Halevy (J.), Rapport sur une Mission Archeologique dans le Yemen, JA, VI, Paris, 1872.

307 — Hamilton (R.A.B.), Six Weeks in Shabwa, in GJ, 1942.

308 — Hamilton (R.A.B.), Archaeological Sites in the Western Aden Protectorate, GJ, 101, 1943.

309 — Hardings (G.), Some Thamudic Inscription from the Hashmite Kingdom of The Jordan, Leiden, 1952.

340 — Hill (G.), Catalogue of the Greek Coins of Arabia, Mesopotamia and Persia, London, 1922.

311 — Hirschfeld (H.), Essai de L'Histoire des Juives de Medine, Revue Etudes Juives 7, 1883.

312 — Hitti (P.K.), History of the Arabs, London, 1960.

313 — Hogarth (D.G.), The Penetration of Arabia, London, 1922.

344 — Hogarth (D.G.), A History of Arabia, Oxford, 1922.

[illegible] — Hommel (F.), Explorations in Arabia, Philadelphia, 19[illegible].

31[illegible] — Hornell (J.), Sea-Trade in Early Times, in Antiquity, 15, 1941.

317 — Horovity (J.), Judaeo-Arabic Relations in Pre-Islames Times, IC, III, 1929.

318 — Huber (C.), Voyage dans L'Arabie Centrale, Paris, 1885.

319 — Hunt (G.), Himyaric Inscriptions of Hisn Ghurab, 1848.

320 — Huart (C.), Une Nouvelle Source du Koran, Paris, 1904.

321 — Huart (C.), Histoire des Arabes, 2 Vols., Paris, 1912-1913.

322 — Huzayyin (S.A.), Arabia and the Far East, Cairo, 19[illegible]

323 — Ingramz (H.), Arabic and the Isles, London, 1[illegible].

324 — Jamme (A.), A New Chronology of the Qa[illegible]ani[illegible] dom, BASOR, 120, 1950.

325 — Jamme (A.), South Arabian Inscripti[illegible], Princeton, 1955.

326 — Jamme (A.), Thamudic Studies, Washington, [illegible] C., 1967.

327 — Jamme (A.), A New Sabaean Inscription from South Arabia, 1968.

328 — Jamme (A.), Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore, 1961.

329 — Jamme (A.),La Dynastie des Sharaḥbi'll Yakuf et la Documentation Epigraphique Sud-Arabe, Istanbul, 1961.

330 — Jamme (A.), Sabaean Rocki Inscriptions from Qaryat al-Faw, Washington, 1973.

331 — Jaussen (A.J.) and Savignac (R.), Mission Archeologique en Arabie, 4 Vols., Paris, 1904, 1911, 1914, 1920.

332 — Jones (A.H.M.) and Monroe (E.), A History of Abyssinia, Oxford, 1965.

333 — Kammerer (A.), Petra et la Nabatene, Paris, 1929.

334 — Kappers (C.U.A.), An Introduction to the Anthropology of the Near East in Ancient and Recent Times, Amesterdam, 1934.

335 — Katsh (A.T.), Judaism in Islam, N.Y., 1954.

336 — Keller (W.), The Bible As History (Hodder and Stoughton), 1967.

367 — Kennedy (A.B.W.), Petra, its History and Monuments, London, 1925.

338 — Kensdale (E.N.), Three Thamudic inscriptions from the Nile Deltra, le Museon, 65, 1952.

339 — Lammens (H.) le Berceau de l'Islam, Rome, 1914.

340 — Lammens (H.), l'Arabie Occidentale avant l'Hegire, Beyrouth, 1928.

341 — Levi Della Vida, Pre-Islamic Arabia, Princeton, 1944.

342 — Littmann (E.), Nabataen Inscriptions from the Southern Hauran, 1914.

343 — Littmann (E.), Nabataen Inscriptions from Egypt, BSOAS, 1953.

344 — Littmann (E.), Safitic Inscriptions, Leyden, 1943.

345 — Littmann (E.), Thamud and Safa, Leipzig, 1940.

346 — Lods (A.), Israel, From its Beginnings to the Middle of the Eighth Century, London, 1962.

347 — Luckenbill (D.D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1927.

348 — Malamat (A.) The Last Wars of the Kingdom of Judah, JNES, 9, 1950.

349 — Margoliouth (D.S.), The Origins of Arabic Poetry, JRAS, 1925.

650 — Margoliouth (D.S.), Lectures on Arabic Historians, Calcutta, 1930.

351 — Margoliouth (D.S.), The Relations between Arabs and Israelites Prior to the Rise of Islam, London, 1924.

352 — Masry (A.H.), Prehistory in Northeastern Arabia, The Problem of Interregional Interaction, Miami, Florida, 1974.

353 — Moberg (A.), The Book of the Himyarites, Lund, 1924.

354 — Monroe (E.), Arabia, From Incense to Oil, in Addarah ,
Riyadh, 1976.

355 — Montagne (R.), la Civilisation du Desert, Paris, 1947.

356 — Montgomery (J.A.), Arabia and the Bible, Philadelphia,
1934.

357 — Moritz (B.), Arabien, Hanover, 1923.

358 — Moscati (S.), The Semites in Ancient History, Cardiff, 1959.

359 — Moscati (S.), Ancient Semitic Civilizations, London, 1957.

360 — Moss (G.), Jews and Judaism in Palmyra, PEFQ, 60, 1928.

361 — Muelen (Van der) and Wissmann (Hermann Von), Hadra-
maut, Some of its Mysteries Unveiled, Leiden, 1964.

362 — Musil (A.), The Northern Hegas N.Y., 1926.

363 — Musil (A.), The Middle Euphrates, N.Y., 1927.

364 — Musil (A.), The Northern Nejd, N.Y., 1928.

365 — Musil (A.), Palmyrena, N.Y., 1928.

366 — Musil (A.), in the Arabia Desert, N.Y., 1930.

367 — Nicholson (R.A.), A Literary History of the Arabs,
Cambridge, 1962.

368 — Niebuhr (C.), Description de l'Arabie, Paris, 1779.

369 — Nôldeke (D.), Semitic Languages, EB, 24, 1911.

370 — Noth (M.), The History of Israel, London, 1965.

371 — Oesterley (W.O.E.) and Robinson (T.H.), A History of
Israel, 2 Vols., Oxford, 1932.

372 — O'Leary (De Lacy D.D.), Arabia before Muhammad,
London, 1927.

373 — Olmstead (A.T.), AHistory of Assyria, Chicago, 1933.

374 — Olinder (G.), The Kings of Kindah, of the Family of Ak' al-Mirar, Lund, 1927.

375 — Oppenheim (A.L.), Babylonian and Assyrian Historical Texts, ANET, 1966.

376 — Palgrave (W.G.), Observation Made in Centeral, Eastern and Southern Arabia, JRGS, 34, 1864.

377 — Palgrave (W.G.), Travels in Arabia, London, 1865.

378 — Parr (P.J.), and Others, Preliminary Survey in N.W. Arabia, 1968.

379 — Parr (L.W.), An Introduction to the Anthropology of the
a Near East, Amesterdam, 1934.

380 — Philby (J.B.), The Heart of Arabia, 2 Vols., London, 1922.

381 — Philby (J.B.), The Empty Quarter, N.Y., 1933.

382 — Philby (J.B.), Arabian Highlands, N.Y., 1952.

383 — Philby (J.B.), The Land of Midian, MEJ, 9, 1955.

384 — Philby (J.B.), Sheba's Daughters, London, 1939.

385 — Philby (J.B.), The Last Ruins of Quraiya, GJ, CXVII, 1951.

386 — Philby (J.B.)- The Land of Sheba, GJ, 92, 1938.

387 — Philby (J.B.), The Background of Islam, Alexandria, 1947.

388 — Philby (J.B.), Three New Inscriptions from Hadhramaut, JAS, 1954.

389 — Philby (J.B.), South Arabian Chronology, le Museon, LXII, 1949.

390 — Philby (J.B.), Qataban and Sheba, London, 1955.

391 — Philby (J.B.), Saudi-Arabia, London, 1955.

392 — Pirenne (J.), A la Decouverte de l'Arabie, Paris, 1958.

393 — Pirenne (J.), La Gréce et Saba, Paris, 1955.

693 — Pirenne (J.), le Royaume Sud-Arabe des Qataban et sa Datation, Louvain, 1961.

394 — Pliny, Natural History, Trans. by H. Rackham, London. 1954-7.

395 — Ptolemy, Geographia, Edited by C.F. Nobbe, 3 Vol. Leipzig, 1843-1845.

396 — Rawbinson (G.) The History of Herodotus, 2 Vols., London, 1929.

397 — Renan (E.), Histoire Generale et Systeme Co pare Langues Semitiques, Paris, 1855.

398 — Rice (D.T.), The Oxford Excavation at Hi a, in Al .

399 — Rostovtzeff (M.), Caravan Cities, Oxf d, 1932.

400 — Roth (C.), A Short History of the Jewish People, London, 1969.

401 — Ryckmans (G.), Inscriptions Sud-Arabes, le Museon, XII, 1942.

402 — Ryckmans (G.), Publication of the Inscriptions, III, 1951.

403 — Ryckmans (G.), on Some Problems of South Arabian Epigraphy, BSOAS, 1952.

404 — Ryckmans (J.), Chronologie Sabeenne, Orients Antiquis, III, 1964.

405 — Sanger (R.H.), The Arabian Peninsula, Cornell University Press, 1954.

406 — Schoff (W.), The Periplus of the Erythraean Sea, London, 1912.

407 — Scott (H.), in the High Yemen, London, 1947.

408 — Sedilbot (L.B.), Histoire Generale des Arabs, Paris, 1877.

409 — Smith (S.), Events in Arabia in the 6th Century A.D., BSOAS, 1954.

410 — Smith (W.), A Dictionary of the Bible, 3 Vols. London.

411 — Smith (W.R.), Kinship and Marriage in Early Arabia London, 1907.

412 — Smith (W.R.), Lectures on the Religion on the Semites London, 1927.

413 — Shahid (I.), Pre-Islamic Arabia, in CHI, I, Cambridge, 1970

414 — Sprenger (A.), Das Leben und die Lehre des Mohammad Berlin, 1861.

415 — Sprenger (A.), The Campaign of Aelius Gallus, JRAS, London, 1873.

446 — Stark (R.F.), An Exploration in the Hadhramaut and Journey to Coast, in GJ, XCIII, 1939.

447 — Starcky (J.), The Nabataeans, A Historical Sketch, BA, 18, 1955.

418 — Strabo, The Geography of Strabo, Trans. by H.L. Jones, 8 Vols., London, 1949.

419 — Tarn (W.W.), Ptolemy II and Arabia, JEA, 15, 1929.

420 — Thesiger (W.), Arabian Sands, N.Y., 1959.

421 — Thomas (Betram), Arabia Felix, Across the Empty Quarte of Arabia, N.Y., 1932.

422 — Thompson (G. Caton), Climate, Irrigation and Early Mai in the Hadhramaut, GJ, 93, 1939.

423 — Thompson, (G. Caton), The Tombs and Moon Temple of Hureidha, Hadhramaut, Oxford, 1944.

454 — Twitchell (K.S.), Saudi Arabia with an Account of Development of its Natural Resources, Princeton, 1943.

425 — Unger (M.F.), Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970.

426 — Vincent (W.) The Periplus of the Erythraean Sea, London. 1805.

427 — Warrell (F.W.), A Study of Races in Ancient Near East, Cambridge, 1927.

458 — Watt (W.M.), Muhammad at Mecca, Oxford, 1953.

429 — Wellhausen (J.), Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927.

430 — Wilson, (A.) The Persian Gulf, London, 1928.

431 — Winckler (H.), Musri, Meluhha, Main, MVG, I, Berlin, 1898.

432 — Winnett (F.V.) and Reed (W.), Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970.

433 — Winnett (F.V.), A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, Toronto, 1937.

434 — Winnett (F.V.), Notes on the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, le Museon, 51, 1938.

435 — Wissmann (H. Von) and Hofner (M.), Beiträge Zur historischen Geographie des Vorislamischen Sûdarabien, Wiesbaden, 1953.

436 — Wright (E.), The Bible and the Ancient Near East, N.Y., 1965.

437 — Wright (E.), An Account of Palmyra and Zenibia with Travels and Adventures in Bashan and Desert, 1896.

438 — Woolley (L.) The Beginnings of Civilization, N.Y., 1965.

439 — Encyclopaedia Biblica.

440 — Encyclopaedia Britannica

441 — Encyclopaedia of Religion and Ethics.

442 — Encyclopaedia of Islam.

443 — The Jewish Encyclopaedia.

Abbreviations اختصارات

ADAJ	Annals of the Department of Antiquities of Jordan.
AJA	American Journal of Archaeology.
AJSL	American Journal of Semitic Languages and Literatures
AFSM	The American Foundation for the Study of Man.
ANET	Ancient Near Eastern Texts.
BA	The Biblical Archaeologist.
BASOR	Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
BIFAO	Bulletin de l'Institut Français d'Archeologie Orientale du Caire.
BSOAS	Bulletin of the Schools of Oriental and African Studies.
CAH	The Cambridge Ancient History.
CHI	The Cambridge History of Islam.
DB	Dictionary of the Bible.
CIS	Corpus Inscriptionum Semiticarum.
DI	Dictionary of Islam.
EB	Encyclopaedia Biblica.
EI	Encyclopaedia of Islam.
ERE	Encyclopaedia of Religion and Ethics.
GJ	Geographical Journal.
IC	Islamic Culture
JA	Journal Asiatique.
JAOS	Journal of the American Orientale Society.
JARCE	Journal of the American Research Center in Egypt.
JBR	Journal of Bible and Religion.
JE	The Jewish Encyclopaedia.

JEA	The Journal of Egyptian Archaeology.
JESHO	Journal of Economic and Social History of the Orient.
JNES	Journal of Near Eastern Studies.
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society.
JRGS	Journal of the Royal Geographical Society.
JQR	Jews Quarterly Review.
KTB	Katabanische Texte Zur Bodenwirtschaft.
MEJ	The Middle East Journal.
MVG	Mitteilungen der Vordersiatischen Gesellschaft.
PEFQ	Palestine Exploration Fund Quarterly.
PSBA	Proceeding of the Society of Biblical Archaeology.
REI	Revue des Etudes Islamiques.
REJ	Revue des Etudes Juives.
RHR	Revue de l'Histoire des Religions.
UJE	The Universal Jewish Encyclopaedia.
ZDMG	Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft.

فهـــرس الموضوعات

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

◇◇◇◇◇◇